



رِسَالَةُ الْمُصْحَفِ

دراسة لغوية تاريخية

تأليف
غانم قُدوري الحمد
مدرس في كلية الشريعة
بجامعة بغداد

رسالة المصحف

دراسة لغوية تاريخية

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هجرية

١٩٨٢ ميلادية

اللجنة الوطنية

للاحتفال بطلع القرن الخامس عشر الهجري

التعريف بالكتاب

هذا الكتاب الذي بين يديك هو في الأصل رسالة علمية أُعدت في قسم علم اللغة بكلية دار العلوم، بجامعة القاهرة، بإشراف الدكتور عبد الصبور شاهين، ونوقشت يوم ١٩٧٦/٩/٣٠، بمشاركة الدكتور عبد الله درويش، من كلية دار العلوم، والدكتور عبده الراجحي من جامعة الاسكندرية، وقد نال كاتبها درجة الماجستير بتقدير (ممتاز) وأوصت اللجنة بطبعها وتبادلها مع الجامعات.

وها هي ذي (اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري) في الجمهورية العراقية تقوم بطبع هذا الكتاب على نفقتها في سلسلة المنشورات التي تصدرها في هذه المناسبة.

وإني لأخص بهذه المناسبة (اللجنة الوطنية) بشكري الجزيل، عرفاناً بفضلها في نشر هذا الكتاب وإيصاله الى أكبر عدد من قراء العربية، كما هو في صورته الأولى التي قُدِّمَ بها إلى لجنة المناقشة، ولم أتناول بالتغيير شيئاً منه إلا كلمات وعبارات نبّه عليها أعضاء لجنة المناقشة والأستاذ خبير (اللجنة الوطنية)، وهي في جلتها لا تُغيّر من شكل الكتاب ولا من موضوعه.

هذا وإني لأشكر في هذه المناسبة أيضاً كل من أعانني - أثناء العمل في إنجاز هذا الكتاب - من الأساتذة وأمناء المكتبات وموظفيها وغيرهم، ممن ساعدني في الحصول على المصادر والمراجع، أو ساعدني في تقويم منهج الكتاب، أو أسهم في إنضاج بعض أفكاره، إن كنت أذكر كثيراً منهم فإن أسماء آخرين تعيب عني الآن، جزاهم الله جميعاً خير الجزاء، وهو أعلم بهم.

وختاماً أرجو أن يسهم هذا الكتاب في توضيح جانب مهم من تاريخ القرآن الكريم، وهو ما يتعلق بموضوع كتابته خاصة، وقد شاء الله تعالى أن يظهر هذا الكتاب في وقت تحتفل فيه الأمة بمناسبة عظيمة، لها صلة قوية بالقرآن الكريم، وهي انقضاء أربعة عشر قرناً منذ هجرة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، واستقبال القرن الخامس عشر، جعل الله أعوامه أعوام نهوض وخير للعرب والمسلمين.

المؤلف

بغداد ١٩٨٠/٩/١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، وَهَبِ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

المقَدِّمَة

كانت الكتابة، ولا تزال، أهم وسيلة لتسجيل الأفكار ونقل المعارف والأخبار، لكن الكتابة - من جهة اللغة - تفتقر في أغلب الأحيان إلى جوانب الكمال في التعبير عن أصوات اللغة، وتسم بعدة مظاهر من القصور في هذا المجال، تتمثل في وجود رموز مكتوبة لا يقابلها في النطق شيء من الأصوات، ووجود رموز مكتوبة تنطق على غير ما عرف من الأصوات التي تمثلها، ووجود أصوات لا يمثلها في الكتابة شيء، وتختلف الكتابات المعروفة في مقدار ما تعانيه من هذه المظاهر الثلاثة قلة وكثرة.

ويكاد هجاء الكلمات في المصحف الكريم يطابق النطق مطابقة تامة، لولا ما يبدو أحياناً من حذف رموز بعض الحركات الطويلة (الألف والواو والياء) في مثل (العلمين - يَلُونَ - ألنبين - أَيْه - يَدْعُ - يأت)، وزيادة بعض تلك الرموز، في الكلمات المهموزة خاصة، في مثل (بأبيد - أولئك - مائة - نبأى - لقاى - لأذبحنه)، ومثل زيادة الألف بعد الواو المتطرفة في نحو (ملاقوا - يعفوا..). وما يبدو من كتابة بعض الأصوات بغير رموزها التي خصصت لها، من مثل كتابة الفتحة الطويلة واواً أو ياء في مثل (الصلوة - الزكوة ورمى - يسمى - الذكرى)، وما يشبه هذه الحالات التي تُظهر مخالفة جزئية للنطق.

وما يلاحظ في ذلك الهجاء كثرة العلامات التي تملأ أو تسفل كل حرف سواء

أكانت لتمييز الرموز المتشابهة أم لتمثيل الحركات القصيرة أو تخصيص بعض الحالات النطقية.

وقد كانت تلك الصور الهجائية وهذه العلامات الكتابية تلح على عقول العلماء والباحثين، في القديم والحديث، للكشف عن أصل تلك الصور وبيان تاريخ هذه العلامات، وعندما استقبلت هذه المرحلة من حياتي الدراسية اقترح عليّ أستاذي الدكتور عبد الصبور شاهين أن أدرس موضوع (الرسم المصحفي)، دراسة لغوية تاريخية للحصول على درجة الماجستير، من حيث طريقة كتابة الكلمات، وعدد الرموز التي يتكوّن منها هجاؤها، ومدى وفاء تلك الرموز والعلامات المكتوبة بتمثيل الأصوات المنطوقة، وهذا هو ميدان اللغوي، لا من ناحية شكل الحرف وجمالية الخط، فهو ميدان الخطاط ومؤرخ الخط.

وتكاد تكون محاولة البحث هذه أول دراسة تتناول الرسم المصحفي والكتابة العربية من وجهة نظر لغوية، ذلك لأن الدراسات التي سبقت في هذا الموضوع - قديمة وحديثة - كانت تتناول الرسم والكتابة من وجهات نظر أبعد ما تكون عن طبيعة الكتابة التي تقوم - أصلاً - على أسس صوتية محضة، ولا شك في أن كتب الرسم القديمة لم تحاول أن تعطي تفسيراً لظواهر الرسم العثماني، وإنما قدمت لنا وصفاً دقيقاً أميناً - يثير الدهشة ويستحق الإعجاب - لطريقة رسم الكلمات في المصاحف العثمانية، ولولا ذلك الوصف لغابت عنا تفاصيل كثيرة تتعلق بتاريخ الكتابة العربية، وإذا ما عثرنا في تلك الكتب أو في كتب علماء العربية على تعليقات لبعض الظواهر فإنها تعتبر نظرات جزئية لا تتناول إلا أمثلة محدودة لا تعطي تفسيراً شاملاً لظواهر الرسم، إضافة إلى أنها كانت تقتصر - أحياناً - إلى المعرفة الصحيحة لتأريخ تلك الظواهر التي كشفت الدراسات المعاصرة في الكتابات القديمة كثيراً من أسرارها.

ولعل أشهر محاولة لتفسير ظواهر الرسم في القديم - تقوم على أساس محدد - هي تلك التي يعرضها أبو العباس أحمد المراكشي الشهير بابن البناء (ت ٧٢١ هـ) في كتابه (عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل)، وكان أساس

هذه المحاولة هو تفسير ظواهر الرسم على أساس اختلاف معاني الكلمات حسب السياقات بأسلوب صوفي باطني لا يمت إلى اللغة ولا إلى طبيعة الكتابة بأي سبب، ولا شك في أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يدر في خلداهم، وهم يكتبون القرآن في المصحف، شيء من تلك المعاني التي يذكرها أبو العباس المراكشي، إنما كانوا يكتبون بما اعتادوا عليه من نظام كتابتهم.

وكان لمذهب أبي العباس هذا أثر في مواقف من تعرّضوا لدراسة ظواهر الرسم من بعده، حتى الوقت الحاضر، وقد تقدم إلى كلية أصول الدين بجامعة الأزهر الاستاذ عبد الحي حسين الفرماوي المدرس في الكلية المذكورة ببحث عن (رسم المصحف ونقطه) لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) في ١٠/٢/١٩٧٥م، ناقش فيه الحكم الشرعي في التزام الرسم العثماني في طبع المصاحف ونسخها، وتعرّض لدراسة ظواهر الرسم العثماني في المبحث الثالث من الفصل الثالث (ص ١١٥-١٦١)، ولم يخرج في مناقشته للموضوع عما روي عن أبي العباس المراكشي في تفسير ظواهر الرسم من تعليقات.

وينقص تلك الدراسات - إلى جانب ذلك المنهج المخطوء في تناول الموضوع - الاعتماد على الوثائق المخطوطة التي تنفخ في روايات علماء السلف روحاً جديدة.

ومن ثم كان على هذا البحث أن يتلمس طريقه نحو الاتجاه الصحيح في زحمة تلك المذاهب والآراء في تفسير ظواهر الرسم ومحاولة الاستفادة من الصالح من تلك الآراء، واستبعاد غير الصالح منها، وتلك مهمة ليست يسيرة، إلى جانب محاولة كتابة تاريخ، أقرب إلى الواقع، لاستعمال العلامات الكتابية في تكميل الرسم العثماني مما لا نزال نستعمل كثيراً منها في كتابتنا إلى اليوم.

أما المصادر والمراجع التي أمدّت هذا البحث بما يعين في دراسة المشكلة، فهي كثيرة، تتصل بفروع مختلفة، من علوم القرآن واللغة العربية والتاريخ، وقد كانت الكتب المؤلفة في موضوع الرسم هي المصدر الأول للمادة المتعلقة بوصف هجاء الكلمات في المصاحف العثمانية، ولعل في مقدمتها كتب الإمام أبي عمرو

عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، رحمة الله عليه، خاصة كتابيه (المقنع) و(المحكم) الأول في دراسة الظواهر الهجائية، والثاني في بيان تاريخ العلامات الكتابية، ولا تقل أهمية عن ذلك المصاحف المخطوطة القديمة التي أطلعت عليها، والمجموعات الخطية المصوّرة التي تتضمن نماذج من مخطوطات ترجع إلى فترات مختلفة، كذلك استفدت من كتب التفسير والقراءات والحديث، إلى جانب كتب اللغة والنحو والمعجم والإملاء وكتب التاريخ والطبقات، واستفدت أيضاً من الكتب والأبحاث الحديثة في موضوع اللغة والكتابة العربية ودراسة الظواهر الصوتية في القراءات القرآنية، واستعنت ببعض المراجع المكتوبة بلغة أجنبية في دراسة تاريخ وطبيعة الكتابات عامة، وتاريخ الكتابة العربية خاصة.

وربما كانت أكثر مشكلات البحث صعوبة هي أن بعضاً من جوانبه تعجز جهود فرد عن إيفائها حق الدراسة، لكن ما لا يدرك جلّه لا يترك كلّه، فلا يزال كثير من مصادر الموضوع مخطوطاً، وليس من اليسير تحقيق النصوص تحقيقاً تاماً، إضافة إلى أن المصاحف القديمة المخطوطة - إلى جانب كونها كثيرة ومبثوثة في مكتبات العالم - تصعب - بل تستحيل أحياناً - القراءة فيها بدعوى المحافظة عليها، وقد جعلني ذلك أكنفي بما تيسرت لي القراءة فيه من المصاحف المحفوظة في دار الكتب المصرية، ورغم الفائدة الكبرى التي أتاحتها الأمثلة التي نقلتها من تلك المصاحف فإن القراءة في مصاحف أخرى سوف تكون مفيدة جداً في دراسة المشكلة.

ولعل من مظاهر القصور - التي لم أملك تفاديها - الاعتداد على كثير من النماذج الخطية المصوّرة، لاستحالة الاطلاع على أصولها، وهذه النماذج إن توفرت فيها الدقة فإنها غير قادرة على تبيان الألوان التي كتبت بها، مما يزيد في صعوبة فهم العلامات ودلالة النقط فيها، وبالمقابل فإن هذا البحث غير قادر على إظهار الألوان المختلفة التي ضببت بها المصاحف في القرون المتقدمة، إلى جانب أن الآلة الكاتبة غير قادرة أحياناً على نقل بعض الصور الكتابية التي سوف أحرص

على تقديم صورة دقيقة لها ما أمكن ذلك، وسوف أكتفي من مجموع النصوص الخطية التي اعتمدت عليها في هذا البحث ببضعة نماذج مصورة أحقتها في آخر البحث.

وقد أحسست في أولى مراحل دراسة هذا الموضوع أن المنهج الذي ينبغي أن يعالج في إطاره لا يمكن إلا أن يكون نابعاً من طبيعة اللغة والكتابة نفسها، منهج يقوم على تتبع الظواهر الهجائية في أقدم صورها، ثم يحاول تفهم ما يبدو فيها من قصور في تمثيل النطق تمثيلاً دقيقاً على ضوء حقيقة كون الكتابات عامة أقل تطوراً وأبطأ خطى في مواكبة تطور اللغة المنطوقة، فيتغير نطق الكلمة دون أن تتغير صورة هجائها.

وعلى ضوء هذا المنهج اللغوي التاريخي تناولت دراسة المشكلة في ستة فصول:

جعلت الفصل الأول فصلاً تمهيدياً، تناولت فيه تاريخ الكتابة العربية وخصائصها قبل مرحلة الرسم العثماني، إلى جانب بيان الأسس التي تقوم عليها الكتابة.

وتناولت في الفصل الثاني تاريخ كتابة القرآن الكريم في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وجمعه في خلافة الصديق - رضي الله عنه - ونسخه في المصاحف في خلافة عثمان - رضي الله عنه - مع بيان بعض القضايا المتعلقة بذلك.

ودرست في الفصل الثالث موضوعين: الأول مصادر الظواهر الهجائية في الرسم العثماني، والثاني بيان موقف علماء السلف من قضيتين: الأولى موقفهم من التزام الرسم العثماني في كتابة المصاحف، والثانية موقفهم من تفسير الظواهر الهجائية التي تظهر في الرسم العثماني.

وقد درست في الفصل الرابع الرسم العثماني من كافة جوانبه دراسة لغوية تحليلية تتناول دراسة الكتابة على مستوى الرمز الواحد وعلى مستوى الكلمة،

فدرست رموز الصوامت ثم رموز الحركات، وأفردت رمز الهمزة بدراسة مستقلة لما لابس تمثيل هذا الصوت من ظواهر جعلت منه مشكلة تستحق الدراسة والبحث، وتناولت الكتابة العربية على مستوى الكلمة، فبيّنت معنى الكلمة من وجهة نظر الكتابة، وما يتعلق بذلك من فصل أو وصل بعض الكلمات المحدودة المقاطع في الرسم العثماني، وبيّنت العوامل التي أسهمت في ذلك.

وتؤكد الروايات والمصاحف المخطوطة القديمة والنقوش التي ترجع إلى العصر الجاهلي والنصف الأول من القرن الهجري الأول أن الكتابة العربية كانت خالية من أي علامة لتمثيل الحركات القصيرة، أو لتمييز الرموز المتشابهة في الصورة، وقد جاء الرسم العثماني على تلك الصورة. فأفردت الفصل الخامس لبيان جهود علماء الرسم والعربية في تكميل الرسم العثماني بواسطة العلامات الخارجية خلال العديد من المحاولات حتى استوى على ما نجده اليوم في المصاحف وما نستعمله في الكتابة.

وقد درست في الفصل السادس العلاقة بين الأداء والرسم ووضحت كيف صارت موافقة الرسم أحد شروط القراءة الصحيحة، وبيّنت الإمكانيات الجائزة لمخالفة ألفاظ التلاوة الثابتة النقل للرسم، مما يرجع إلى طبيعة الكتابة نفسها، وقصورها في إمكانية تمثيل النطق تمثيلاً دقيقاً، وما يرجع إلى طبيعة الرسم العثماني نفسه.

وقد رأيت أن أختم دراسة الرسم المصحفي بمبحث أخير بيّنت فيه العلاقة بين الرسم المصحفي والرسم الإملائي الذي كتب به الناس في غير المصاحف منذ القرن الأول الهجري، ولا نزال نكتب به إلى اليوم، وهل هذا الإملاء شيء آخر غير الرسم المصحفي. وما مقدار الأثر الذي تركه كل منهما في الآخر؟ مع ملاحظة أي لم أفصل قواعد الإملاء فقد تكفّلت ببيان ذلك كُتب ألفت في هذا الموضوع في القديم والحديث، واكتفيت ببعض الأمثلة التي تبين الهدف الذي إليه قصدت من بيان العلاقة بين الرسمين.

وبعد، فإن ما تضمنه هذا البحث من الجديد في تفسير ظواهر الرسم المصحفي وبيان تاريخه - إنما هو حصيلة ما تيسر بين يدي من روايات ومعلومات ووثائق مخطوطة، في فترة زمنية معينة، وهي نتائج أرجو أن تكون صحيحة في أكثرها، إلا أنها مع ذلك ليست آخر ما يمكن قوله في هذا المجال، بل هي - كما أرجو لها أن تكون - فاتحة منهج صحيح - إن شاء الله - في دراسة الرسم المصحفي وتاريخه دراسة تستفيد من كل ما يقرب الوصول إلى الفهم الصحيح لظواهر الرسم وتاريخه، ومن ثم فإني مدين سلفاً لكل من يصحح رأياً في هذا البحث أو يوضح غامضاً فإن الأمر يتعلق بكتاب الله العزيز، الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)، وإذا كان ذلك مطلوباً في أي بحث فإنه في بحث يتصل بالقرآن الكريم ألزم وأحرى.

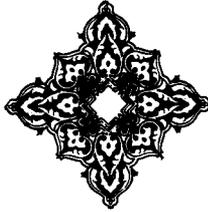
وأخيراً أتجه إلى الله - سبحانه وتعالى - أن ينفع بهذا البحث وأن يجزي كل من أسدى إليّ عوناً لإنجازه خير الجزاء في الأولى والآخرة، (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).

غانم قدوري الحمد

القاهرة

١١ جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ

١١ مايس ١٩٧٦ م



الفصل الأول
فصل تمهيدي

الكتاب العربية
تأريخها وخصائصها قبل الرسم العثماني

الفصل الأول فصل تمهيدى

الكتابة العربية

تأريخها وخصائصها قبل الرسم العثماني

سوف أحاول - هنا - دراسة تاريخ الكتابة العربية وخصائصها قبل الرسم العثماني، لأهمية ذلك في فهم ظواهر الرسم، إذ إنه امتداد وتطور لها، فكثير من الظواهر الكتابية التي تبدو في الرسم العثماني هي نفسها كانت تميز الكتابة العربية قبل أن يدون بها الصحابة - رضوان الله عليهم - النص القرآني، وبقدر ما تتيحه لنا هذه الدراسة من كشف عن ذلك التاريخ نستطيع فهم ظواهر الرسم وبيان مشكلاته.

وليس من هدف هذا الفصل إستقصاء كل ما يتعلق بتاريخ الكتابة العربية قبل الرسم العثماني، إنما هو يهدف إلى التركيز على واقع الكتابة العربية، وارتباطها بالخطوط السامية الأخرى وأهم ما يميزها من خصائص، على ضوء علاقتها بتلك الخطوط، فكما « أن هناك فوائد كثيرة تعود على الدرس اللغوي من معرفة الدارس باللغات السامية »^(١)، كذلك تتحقق نفس الفوائد بالنسبة للكتابة العربية عند دراستها في نفس الاتجاه.

(١) د. رمضان عبد التواب - فصول في فقه العربية. ط١. القاهرة. مكتبة دار التراث

ومع وضوح ضرورة وفائدة دراسة ذلك التاريخ، إلا أنه لا يزال يحيطه بعض الغموض في كثير من جوانبه، وهذا الغموض هو جزء من غموض تاريخ المجتمع العربي قبل الاسلام عامة^(٢)، إذ إن «تاريخ الجاهلية هو أضعف قسم كتبه المؤرخون العرب في تاريخ العرب»^(٣) والروايات العربية بشأن نشأة الكتابة العربية غير قادرة - وحدها - على إعطاء تصور واضح لذلك.

وقد أسهمت دراسات المستشرقين في مجال النقوش الكتابية التي عثر عليها في أطراف الجزيرة العربية في وضع الروايات العربية في اتجاه صحيح، واستبعاد ما وضع بطلانه منها، «حتى انه يمكن الآن صياغة نظرية مقبولة عن ظهور ونشأة الكتابة العربية قبل الاسلام»^(٤). مع أن أبحاث المستشرقين عن الخط العربي وتاريخه قبل الاسلام لا تزال في مراحلها الأولى^(٥)، رغم النتائج العلمية التي تم التوصل إليها، وهي بانتظار ما سيتم الكشف عنه من نقوش وشواهد وآثار في الجزيرة العربية، حتى تتمكن من سد الفجوات القائمة في النظرية الحديثة^(٦).

لكن القصور المشار إليه في الروايات العربية بشأن نشأة الكتابة لا يعني أن نضرب صفحاً عن كل ما رواه العلماء والمؤرخون العرب بصدد ذلك، وإذا كان البحث العلمي يرد كثيراً منها، فإن جزءاً من تلك الروايات يلقي مزيداً من

(٢) د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن - دار القلم ١٩٦٦ ص ٦١.

(٣) د. جواد علي: تاريخ العرب قبل الاسلام. بغداد. المجمع العلمي العراقي ١٩٥٠ ج ١ ص ١٠ وسأشير إلى هذا المصدر في المواضع الآتية بذكر المؤلف حسب.

(٤) - Abbott (Nabia): The rise of the North Arabic Script and its development, with a full description of the kur'an manuscripts in the Oriental Institute, Chicago. 1939. p.1.

(٥) د. جواد علي ج ١ ص ٢٠١.

(٦) د. الطاهر أحمد مكي: دراسة في مصادر الأدب ط ٢. دار المعارف ١٩٧٠ ج ١ ص ٤١ وانظر المرجع السابق ج ٧ ص ٣٤١.

الوضوح على ما تقدمه دراسة النقوش القليلة التي تم كشفها إلى الآن، والتي اعتمد عليها الباحثون في بيان نشأة الكتابة العربية، ولا جرم في ذلك، إذ إن تلك الروايات تمثل رأي أناس عاشوا قريباً من تلك الفترة التاريخية، وهي قادرة على أن تسهم في سد بعض فجوات ومشكلات الدراسات الحديثة.

ولتوضيح ذلك كله - بقدر ما يقتضيه هذا الفصل من إيجاز - سيتضمن المبحث الأول الروايات العربية عن حالة الكتابة العربية قبل الرسم العثماني، وموقفها من نشأتها وعلاقتها بالخطوط الأخرى، إضافة إلى بيان ما تقدمه الدراسات الحديثة من وسائل في هذا المجال للتوصل إلى معرفة صحيحة لأصل تلك الخطوط والكتابات.

ويتناول المبحث الثاني خصائص الكتابة العربية قبل الرسم العثماني من واقع الوثائق المخطوطة التي وصلت إلينا من تلك الفترة، وبيان مدى ارتباط تلك الخصائص بالخطوط السامية الأخرى، مما يساعد على فهم وتوضيح خصائص الرسم العثماني التي سنتناولها في الفصول اللاحقة، إن شاء الله.

وقبل أن يمضي المبحث في دراسة الرسم المصحفي: تاريخه وخصائصه وتطوره، رأيت أن أختم هذا الفصل بمبحث عن المبادئ التي تنبني عليها الكتابات الأبجدية، إذ إن عامة تلك الكتابات قاصرة - الآن - عن الوفاء بمتطلبات اللغة، فهناك عوامل كثيرة تسهم في إعطاء الكتابة - عامة - خصائصها، وذلك ضروري لفهم ما يبدو في الرسم العثماني من تعدد القواعد أحياناً، وعدم اطراد الظواهر الكتابية أحياناً أخرى، مبيناً موقف علماء العربية والقراءات والرسم من ذلك، وما تضيفه الدراسات الحديثة في هذا المجال.

**

*

المبحث الأول

أصل الكتابة العربية وعلاقتها بالخطوط السامية

أولاً: حالة الكتابة العربية قبل الرسم العثماني:

لعل من المفيد - قبل مناقشة أصل الكتابة العربية - الإشارة إلى رأي المصادر العربية في مدى إنتشار الكتابة قبل الرسم العثماني، وليس جديداً القول بأن بزوغ شمس الاسلام كان إيذاناً بنهضة كتابية عظيمة، تتمثل - أول ما تتمثل - في حرص النبي - صلى الله عليه وسلم - على تعلم الصحابة الكتابة، وعلى تدوين القرآن الكريم منذ فجر البعثة النبوية، مما سنعرض له مفصلاً في فصل تال .

أما حالة الكتابة العربية قبل الإسلام فقد اضطربت فيها روايات الأقدمين، وكاد ذلك الاضطراب أن يصيب آراء المحدثين، فهذا ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) يقول: (١) «وكانت الكتابة في العرب قليلاً». ويقول عن الصحابة وهو يتحدث عن إذن النبي - صلى الله عليه وسلم - لعبد الله بن عمرو بتقييد الحديث: «وكان غيره من الصحابة أميين، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجي» (٢). ويتطرق البلوي (ت ٦٠٤هـ) حين

(١) ابن قتيبة الدينوري (ابو محمد عبد الله بن مسلم): المعارف ط ٢ بيروت. دار إحياء التراث العربي ١٩٧٠ ص ١٣٠ وانظر: ابو بكر بن العربي (محمد بن عبد الله): أحكام القرآن ط ١ دار إحياء الكتب العربية - ١٩٥٨ ق ٤ ص ١٩٤٤.

(٢) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث - مطبعة كردستان العلمية بمصر ١٣٢٦ هـ ص

يذهب إلى إنعدام الكتابة عند العرب في الجاهلية، وأن الشعر قد جعل لهم عوضاً^(٣). وقد إنساق عدد من المحدثين وراء دعوى أمية العرب قبل الاسلام، وندرة الكتابة بينهم « فإذا وجد فيهم من يكتب ويقرأ فإنما هو نزيل هبط إليهم، أو آيب من سفر بعد طول إقامة في أرض متحضرة، أو أخذ عن هذين، وهو نادر »^(٤). ويؤكد بعضهم شيوع الأمية في شبه الجزيرة، وأن العرب لم يكونوا أهل كتابة وقراءة^(٥).

لكن هذا الاتجاه بات مرفوضاً عند عامة الدارسين، وقد وجد من بين القدماء من تنكر له، فهذا ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) يقول: «^(٦) فإننا لم نزعم أن العرب كلها مدراً ووبراً قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها، وما العرب في قديم الزمان إلا كنعن اليوم، فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة ». ويقول علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ): «^(٧) فيايك وما تراه من قول من يقول: لم تكن العرب أهل كتاب ولا أقلام »^(٧).

(٣) البلوي (ابو الحجاج يوسف بن محمد): الف با. جمعية المعارف بمصر ١٢٨٧ هـ ج ١ ص ٧٠ وانظر: الجمحي (محمد بن سلام): طبقات فحول الشعراء - دار المعارف بمصر ١٩٥٢ - ص ٢٢.

(٤) حفي ناصف: تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية ط ٢ - جامعة القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٤.

(٥) د. ابراهيم أنيس: في اللهجات العربية ط ٣ القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥ ص ٣٣ وانظر: دلالة الالفاظ له أيضاً - ط ١ القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ص ١٨٥ واسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ط ١ - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٢٩ ص ٢٠١.

(٦) احمد بن فارس: الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها - القاهرة - المكتبة السلفية ١٩١٠ ص ٨.

(٧) السخاوي (علي بن عبد الصمد): الوسيلة الى كشف العقيلة ورقة ١٥ أ مخطوط: دار الكتب المصرية رقم قوله (٣٠) قراءات.

ولا ينبغي أن نذهب بعيداً في تصور إنتشار الكتابة العربية قبل الإسلام، إذ إن العربية الشمالية التي نتحدث عن كتابتها هي أحدث اللغات السامية كتابة^(٨). لكن نفي معرفة العرب للكتابة قبل الاسلام إلى حد الندرة إخلال بالمنهج السديد، ورد للروايات والشواهد التي تؤكد أنه قد كان للكتابة العربية شأن قبل الاسلام سواء في قلب الجزيرة أم في أطرافها، فلم تعد معرفة عرب الجاهلية للكتابة موطن شك، فإن كثرة منهم في الحواضر وقلة في البادية كانت تقرأ وتكتب^(٩). وجاء في القرآن الكريم ما يفيد معرفة عرب الجاهلية القريبة من الاسلام القراءة والكتابة، فقد تكررت في كثير من الآيات مادة (كتب) وما في معناها، واسم آلات الكتابة^(١٠). ولا تعقل مخاطبة القرآن الكريم قوماً بهذه الآيات لو لم يكونوا على علم وبصيرة بالقراءة والكتابة^(١١). والقرآن الكريم أصدق وثيقة تحدثنا عن حياة العرب في ذلك العهد.

إن الروايات العربية تشير إلى ممارسات كتابية متعددة، سواء في مدن الحجاز أو في الحواضر العربية في أطراف الجزيرة الشمالية، ففي مكة رغم أن الحياة لم تكن بالغة التحضر بالنسبة لذلك العهد وأن دواعي الكتابة كانت محدودة - إلا أنه لا ينكر أنهم حرروا أحياناً بعض العهود والمخالفات بينهم وبين

(٨) جويدي: أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب - القاهرة مكتب مجلة الجامعة المصرية ص ٨٩.

(٩) د. الطاهر احمد مكّي ص ٢٠ وانظر د. ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي - ط ٣. دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ص ١٠ و ٣٣.

(١٠) وردت مادة (كتب) وما اشتق منها في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة. ومادة (قرأ) وما اشتق منها نحواً من ثمانين مرة. ووردت كذلك مادة (خط) وأسماء أدوات الكتابة: القلم والصحف والقرطاس والرق. انظر د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٦٦.

(١١) د. جواد علي ج ١ ص ١٤ وانظر: تاريخ العرب في الإسلام: السيرة النبوية، له بغداد ١٩٦١ ص ٧٠.

القبائل المجاورة، رغم أن ذلك كان في نطاق ضيق^(١٢). وبلدة مثل مكة مقدسة ومتاجرة وعاصمة للثقافة وللحياة الدينية لا بد أن يكون بين سكانها جماعة من المثقفين ومن الباحثين في أمور الدين ومن القراء الكاتبين^(١٣). وتشير الروايات إلى أن ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العربي والكتاب العبراني^(١٤). وحين قاطعت قريش النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين في بداية الدعوة بمكة كتبوا كتاباً بذلك، وعلقوه في جوف الكعبة^(١٥). ومحدثنا ابن النديم عن كتاب رآه في خزانة المأمون بخط عبد المطلب بن هشام، فيه ذكر حقه على فلان بن فلان الحميري^(١٦). وتشير كتب التاريخ إلى استخدام الكتابة في مكة في وقت مبكر، فهذا قصي بن كلاب يكتب من مكة إلى أخيه ابن أمه رزاح بن ربيعة ابن حرام العذري، في مشارف الشام، يدعوهم إلى نصرته والقيام معه في منازعة خزاعة وبني بكر أمر مكة^(١٧).

(١٢) د. محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ ص ط.

(١٣) د. جواد علي: السيرة النبوية ص ٦٩.

(١٤) نفس المرجع ص ١٤٧.

(١٥) ابن سعد (محمد): الطبقات الكبرى. بيروت - دار صادر - دار بيروت ١٩٥٧ ج ١ ص ٢٠٨، وليست هذه هي المرة الأولى التي تكتب فيها قريش وتعلق الكتاب في الكعبة، فيذكر ابن حبيب (محمد): - في كتاب (المنمق في أخبار قريش ط ١ حيدر آباد. دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٤ - ص ٨٩ - أن قريشاً كتبوا قبل الإسلام كتاباً وعلقوه في جوف الكعبة توثيقاً لأمر كان بينهم.

(١٦) ابن النديم (محمد بن اسحاق): الفهرست. ليبسك - ١٨٧١ م ص ٥.

(١٧) ابن هشام (ابو محمد عبد الملك): السيرة النبوية ط ٢ القاهرة - مصطفى الباني الحلبي ١٩٥٥ ق ١ ص ١١٨.

وابن سعد: ج ١ ص ٦٧ والطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك القاهرة دار المعارف ج ٢ ص ٢٥٦ لكن ابن حبيب (ص ١٧ و ٨٢ و ٨٤) يشير الى الحادثة بلفظ (بعث) وهي تحمل الكتابة أيضاً.

ولعل فيما يرويه البلاذري عن عدد الكاتبين في مكة والمدينة حين ظهور الاسلام، رغم أن هذه الرواية - ربما - لا تمثل الواقع تماماً، ما يضع الحقيقة التاريخية التي اختلفت في قول ابن قتيبة السابق، ومن شايعه في مذهبه - في موضعها الصحيح، حين يقول: «دخل الاسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب»، ويقول عن الكتابة في المدينة: إن الاسلام جاء وفيهم عدة يكتبون، وعدد منهم أحد عشر كاتباً^(١٨). فالكتابة في المدينة لا تختلف حالتها عنها في مكة، كما يتضح من قول البلاذري، بل إن الواقدي (ت ٢٠٧) يشير إلى أن «بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول»^(١٩)، ويبدو أن وجود أهل الكتاب في المدينة كان له أثر في انتشار الكتابة هناك^(٢٠). ولعل في الذي قام به الصحابة في خدمة حاجة الدولة الاسلامية الجديدة، سواء في كتابة الوحي أم كتب النبي صلى الله عليه وسلم، وما يجري بين الناس من معاملات ما يؤكد الحالة التي كانت عليها الكتابة العربية في الحجاز قبل الاسلام، لأن معظم الصحابة إنما نشأوا واكتسبوا خبراتهم الحياتية في الجاهلية.

وإذا تركنا قلب الجزيرة إلى أطرافها الشمالية نجد الروايات العربية تكثر مؤكدة استخدام الكتابة على نطاق واسع، فهذا حماد جدّ عديّ بن زيد الشاعر

(١٨) البلاذري (احمد بن يحيى بن جابر البغدادي): فتوح البلدان ط١ القاهرة شركة بيع الكتب العربية ١٩٠١م ص ٤٧٧ و ٤٧٩.

وانظر: ابن عبد ربه (ابو عمر أحمد بن محمد الاندلسي): العقد الفريد. القاهرة -

لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ٤ ص ١٥٧.

والقلقشندي (ابو العباس احمد): صبح الأعشى في كتابة الإنشا. القاهرة - دار

الكتب العربية - ١٩١٣ ج ٣ ص ١٥.

وطاش كبرى زاده (أحمد بن مصطفى) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ط ١ -

حيدر آباد - دائرة المعارف ج ١ ص ٧٤.

(١٩) البلاذري ص ٤٧٩.

(٢٠) انظر د. جواد علي ج ٧ ص ٦٥ ود. ابراهيم أنيس: دلالة الألفاظ ص ١٨٦.

(ت نحو ٥٩٠م) قد كتب للنعمان الأكبر، وان عدياً كان يكتب بالعربية لملك فارس^(٢١)، وما دام عدي يستخدم العربية في ديوان ملك الفرس، فإن من المنطقي أن تكون الكتابة العربية هي المستعملة في إمارة المناذرة في الحيرة^(٢٢). وقصة الشاعرين المتلمس وطرفة مشهورة، إذ كانا قد قدما على عمرو بن هند ملك الحيرة، فكتب لهما كتابين إلى عامله في البحرين، يأمره بقتلها، وأخبرها أنه كتب لهما مجازرة، وتروي القصة كيف أعطى المتلمس صحيفته لغلام من غلمان الحيرة فقرأها له ونجا بنفسه...^(٢٣)، إذ تدل هذه القصة على مدى شيوع الكتابة في الحيرة، وكذلك احتمال معرفة الكتابة العربية في البحرين، وقد كانت القبائل العربية في غربي العراق تمتد منازلها - قبل الاسلام - ما بين الأنبار وبقّة وهيت وعين التمر وأطراف البر والقُطُطانة والحيرة^(٢٤). وما يذكر أن خالد بن الوليد بعد أن فرغ من فتح الأنبار وأمن أهلها وظهروا «رأهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها»^(٢٥)، وحين خرج خالد إلى عين التمر وجد صبياناً يتعلمون الكتابة^(٢٦). ويبدو أن شهرة أهل الحيرة وما جاورها بالكتابة قد استمرت حتى

(٢١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ط ٢ - دار المعارف بمصر ١٩٦٦ - ج ١ ص ٢٢٨.

- Abbott, P. 6

(٢٢)

(٢٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ١٧٩ وانظر: أبو الفرج الاصبهاني (علي بن

الحسين): كتاب الأغاني. بيروت. دار الثقافة ج ٢٣ ص ٥٣٩، وابن منظور (محمد

ابن مكرم): لسان العرب. ط ١. بولاق - مادة (صحف) ج ١١ ص ٨٨.

(٢٤) أبو الفرج الأصبهاني: ج ١٥ ص ٢٥٠. وانظر في تعيين أماكن هذه القرى الواقعة

على الفرات غربي العراق: ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان. ط ١.

الخانجي القاهرة. ١٩٠٦ ج ١ ص ٣٤١، ج ٢ ص ٢٥٣، ج ٨ ص ٤٨٦،

ج ٦ ص ٢٥٣، ج ٧ ص ١٢٥، ج ٣ ص ٣٧٦.

(٢٥) الطبري: التاريخ ج ٣ ص ٣٧٥.

(٢٦) ياقوت: معجم البلدان مادة (نُقَيْرَة) ج ٨ ص ٣١١.

في الاسلام، فهذا عبد الرحمن بن عوف يستكتب رجلا من أهل الحيرة نصرانياً مصحفاً، فأعطاه ستين درهماً^(٢٧).

ولم يقتصر إنتشار الكتابة في شمال الجزيرة على أطراف العراق، بل إن ذلك قد امتد إلى أطراف الشام، فيروي البخاري أن ملك غسان أرسل إلى كعب بن مالك كتاباً يدعو فيه أن يلحق به بعد ما كان من قصة تخلفه عن غزوة تبوك، وجفاء المسلمين له ولصاحبيه^(٢٨)، كذلك كتب النبي - صلى الله عليه وسلم - كتاباً لأكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل^(٢٩). وهذا فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملاً لقيصر على عمان من أرض البلقاء قد أسلم، وكتب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فكتب إليه جواب كتابه^(٣٠). كذلك وَقَدَ أَهْلُ أَيْلَةَ وتيماء وجرِّباء وأذُرْح، وهي قرى في شمال الجزيرة العربية، إلى النبي - صلى الله عليه وسلم، فكتب لهم كتاباً^(٣١). وقدم على رسول الله كتاب ملوك حмир مقدمه من تبوك ورسولهم إليه باسلامهم، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جواب كتابهم^(٣٢). وكل هذه المكاتبات - ولا شك أن معظمها وربما كلها كان يستخدم الكتابة العربية - تدل على مدى إنتشارها زمن ظهور الاسلام، حتى في جنوب الجزيرة معقل الخط العربي القديم (المُسند).

وعلى أية حال فإن كل ما تقدم يشير إلى أن الكتابة العربية كانت معروفة

(٢٧) أبو بكر بن أبي داود (عبد الله بن سليمان السجستاني): كتاب المصاحف ط ١ القاهرة ١٩٣٦ ص ١٣٣.

(٢٨) البخاري (محمد بن اسماعيل): صحيح البخاري. محمد صبيح. القاهرة ج ٦ ص ٦.

(٢٩) الواقدي (محمد بن عمر): كتاب المغازي. دار المعارف بمصر. ١٩٦٦ - ج ٣ ص ١٠٢٨.

وابن سعد: ج ١ ص ٨٨٩.

(٣٠) ابن سعد: ج ١ ص ٢٦٢.

(٣١) الواقدي: ج ٣ ص ١٠٣١.

(٣٢) ابن هشام: ج ٢ ص ٥٨٨.

بين عرب الجاهلية^(٣٣) - سواء في وسط الجزيرة أم في أطرافها - بدرجة تكفي لأن تنفي ما قيل من ندرة أو انعدام الكتابة بينهم، ويشير من جانب آخر إلى أن الكتابة العربية بذلك الاستخدام الواسع، لا بد أنها قد أخذت شكلاً أقرب إلى الاطراد وتوحيد القواعد، ومع كل ذلك فإنها كانت تنتظر الفرصة العظيمة التي أتاحتها لها الاسلامُ لأن تعبر عن حضارة جديدة، قادهها القرآن الكريم الذي دون بها.

ثانياً: الروايات العربية في أصل الكتابة:

أما عن أصل الكتابة العربية الشمالية - التي دون بها القرآن الكريم - فقد كان لعلماء العربية والمؤرخين العرب روايات شتى، قد اختلطت فيها الحقيقة بكثير من الاسطورة، وللمحدثين أيضاً رأي في أصلها، بنوه على أسس أكثر علمية وانسجاماً مع منطق الامور وشواهد التاريخ.

كانت لعلماء العربية روايات في أصل الكتابة عامة، والكتابة العربية خاصة، ولكن «الروايات في هذا الباب تكثر وتختلف» كما يقول ابن فارس^(٣٤).

فمن العلماء من يذهب إلى أن الخط توقيف من الله، مستنداً في ذلك إلى بعض الآيات القرآنية الكريمة (البقرة ٣١، العلق ١-٤، القلم ١)، ويقول ابن فارس^(٣٥): ليس ببعيد أن يوقّف آدم عليه السلام أو غيره من الانبياء عليهم السلام على الكتاب.

(٣٣) بلاشير (ريجيس): تاريخ الأدب العربي. دمشق. الجامعة السورية. ١٩٥٦م ج ١ ص ٧٤.

(٣٤) ابن فارس ص ٧.

(٣٥) نفس المصدر والمكان. وانظر: أبو بكر ابن العربي ج ٤ ص ١٩٤٥ والقلقشندي: ج ٣ ص ١١.

ويروى عن كعب الأحبار (ت ٣٢٢ هـ) أنه قال^(٣٦): أول من وضع الخط العربي والسيباني وسائر الكتب آدم عليه السلام، قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبه في الطين ثم طبخه، فلما انقضى ما كان أصاب الأرض من العرق، وجد كل قوم كتبهم فكتبوا به، فكان إسماعيل - عليه السلام - وجد كتاب العرب. وهناك روايات أخرى تنسب وضع الكتابة العربية لاسماعيل أو ولده^(٣٧). ورواية أخرى تقول إن إدريس النبي - عليه السلام - كان أول من خط بالقلم بعد آدم^(٣٨). وأخرى أن أول من كتب الخط العربي حير بن سبأ^(٣٩).

وهذه الروايات بشكلها السابق لا يقرها البحث السديد: أما قضية التوقيف فيبدو أنها سبقت في باب تفسير الآيات المشار إليها^(٤٠). مع أن السياق الذي وردت فيه الآيات لا يوحي بشيء من الحديث عن أصل الخط. وأما بقية الروايات فيبدو أنها مما أدخله الاخباريون من روايات أهل الكتاب، مما لا يقوم على حقيقة علمية ثابتة.

(٣٦) ابن عبد ربه: ج ٤ ص ١٥٦. وانظر الجهشياري (ابو عبد الله محمد بن عبدوس) كتاب الوزراء والكتّاب ط ١ القاهرة. مصطفى الباي الحلبي ١٩٣٨ - ص ١، والصولي (ابو بكر محمد بن يحيى): أدب الكتّاب. بغداد. المكتبة العربية - ١٣٤١ ص ٢٨. وابن النديم ص ٤. والسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): الاتقان في علوم القرآن ط ١ القاهرة مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني - ١٩٦٧ - ج ٤ ص ١٤٥.

(٣٧) ابن عبد ربه ج ٤ ص ١٥٧. وابن النديم ص ٥. والجهشياري ص ١. والداقي (أبو عمرو عثمان بن سعيد): المحكم في نقط المصاحف، دمشق. وزارة الثقافة السورية ١٩٦٠ ص ٢٥.

(٣٨) ابن هشام: ج ١ ص ٣. وابن قتيبة: عيون الأخبار. القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٢٥ ج ١ ص ٤٣. وابن رسته (أحمد بن عمر): الأعلام النفيسة. ليدن ١٨٩١ مج ٧ ص ١٩١. وابن عبد ربه: ج ٤ ص ١٥٧. والجهشياري ص ١.

(٣٩) القلقشندي ج ٣ ص ١٣.

(٤٠) خليل يحيى نامي: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الإسلام. القاهرة ١٩٣٥ ص ١.

وكذلك يمكن القول في الرواية التي تزعم أن أول من وضع الخط العربي جماعة هم: أجبج وهوز وحطى وكلمن وسعفس وقرشت، وهم قوم من الأوائل نزلوا عند عدنان بن أدد، فاستعربوا ووضعوا الكتاب العربي على أسمائهم، ولما وجدوا أحرفاً ليست من أسمائهم، وهي الثاء والحاء والذال والضاد والظاء والغين، ألحقوها بها وسموها الروادف، وتشير الرواية إلى أن هؤلاء كانوا ملوك مدين، وأنهم هلكوا يوم الظلة مع قوم شعيب، وقالت أخت (كلمون) رئيسهم شعراً ترثيه فيه^(٤١).

وهذه الرواية أيضاً من الروايات التي يغلب عليها طابع الخرافة، مما لا يقبله منهج التحقيق العلمي والوقائع التاريخية، وليس أدل على الخرافة فيها من أن صاحبها قد أخذ الترتيب الأبجدي للحروف وجعله أسماء للملوك من العرب العاربة، زاعماً أنهم كانوا في مدين، وأنهم هم الذين وضعوا الخط العربي^(٤٢). وقد وجد من بين علماء العربية الأقدمين من تصدى لهذه الرواية^(٤٣)، مفنداً لها بما سبق من أن هذه الأسماء هي كلمات تجمع الحروف ليسهل تعلمها، وهي شائعة عند اليهود والسريان - آنذاك - يعلمون بها الصبيان الكتابة. وهو بعد ذلك يرد الرواية أصلاً، إذ إنها صادرة عن رجل كان يولد الأخبار على الامم الذين بادوا كعاد وثمود وطسم وجديس وأضرابهم، فإذا احتاج إلى توليد أشعار يؤكد بها تلك الأخبار خرج إلى ظاهر المدينة، حيث يلقي الاعراب يضعون له الشعر المناسب.

ومها قيل في هذه الرواية فإن فيها إشارات مهمة، فهي أولاً: تشير إلى

(٤١) انظر: ابن عبد ربه ج ٤ ص ١٥٧. والصولي ص ٢٩ وابن النديم ص ٤ والبليوي ج ١ ص ٧٥. والسيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها. ط ٤ القاهرة دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٨ - ج ٢ ص ٣٤٨.

(٤٢) خليل يحيى نامي ص ٤.

(٤٣) حمزة بن الحسن الأصفهاني: التنبيه على حدوث التصحيف دمشق. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٨ ص ١٦ - ١٨.

عملية إستحداث رموز الأحرف الستة التي تنفرد بها الأبجدية العربية بالنسبة لأكثر الأبجديات السامية. وثانياً: أنها تشير إلى بلاد مدين في شمال الجزيرة العربية، وأن هؤلاء كانوا منها. وسيوضح لنا فيما بعد أن لتلك الأنحاء دوراً مهماً في نشوء وتطور الكتابة العربية.

وننتقل الآن إلى روايات أكثر جدية عن أصل الخط العربي، فقد كان هذا الخط يسمى في الجاهلية (الجُزْم)^(٤٤). واختلف في أصل هذه التسمية، فينقل ابن دريد وابن جني عن أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٤٨ أو ٢٥٥ هـ) قوله: إنما سُمِّي هذا الخط بالجزم «لأنه جُزْم من المسند، أي أخذ منه»^(٤٥). والمسند هو خط حمير أيام ملكهم»^(٤٦). وقد جاء ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ليؤكد أن الخط من الصنائع الحضرية، وأنه من جملة الصنائع المدنية المعاشية، وأن جودة الخط إنما تكون على قدر الاجتماع وال عمران والتناغم في الكهالات، وهو لذلك يرى أن الخط العربي قد انتقل من اليمن، حيث كان بالغاً مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة - وهو المسمى بالخط الحميري - إلى الحيرة، حيث دولة آل المنذر نساء التبابعة، ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين، ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش^(٤٧).

(٤٤) ابن دريد (ابو بكر محمد بن الحسن): جهرة اللغة - ط ١ - حيدر آباد. دائرة المعارف العثمانية ١٣٤٥ هـ. ج ٢ ص ٩١. والاشتقاق له. القاهرة. الخانجي ١٩٥٨ ص ٣٧١. والجوهري (اسماعيل بن حماد): تاج اللغة وصحاح العربية. القاهرة. دار الكتاب العربي ١٩٥٦ ج ٥ ص ١٨٨٧. وابن أبي داود: ص ٤.

(٤٥) ابن دريد: جهرة اللغة ج ٢ ص ١٠٤. وابن جني (أبو الفتح عثمان): سر صناعة الاعراب ط ١ القاهرة. مصطفى الباي الحلبي ١٩٥٤. ج ١ ص ٤٥. وابن منظور: مادة (جزم) ج ٤ ص ٣٦٥.

(٤٦) ابن دريد: الجهرة ج ٢ ص ٩١ و ١٠٤، وابن جني سر الصناعة ج ١ ص ٤٥، وانظر الجوهري: ج ١ ص ٤٨٧.

(٤٧) ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. بيروت. دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦، سج ١ ص ٧٥٥-٧٥٦ وانظر نفس الفكرة في السيوطي: =

وفي العصر الحديث كان بعض الباحثين يعتقدون، خطأً، ذلك الاعتقاد ويذهبون نفس المذهب^(٤٨).

وإذا كان لنا أن نقدر لابن خلدون ربطه بين وجود صناعة الخط وعدمها وجودة الخط وردائه وبين الحضارة والبداءة^(٤٩)، فإنه قد انساق وراء ما ينقله الرواة العرب بشأن تولد الخط العربي من المسند وانتقاله إلى الحجاز عن طريق الحيرة، وقد أشار بعض القدماء إلى اختلاف أشكال الخطين، رغم ضعف وسائل مقارنة الخطوط ودراسة النقوش آنذاك، فهذا الجوهرى ينقل^(٥٠): «أن المسند خط لحمير مخالف لخطنا هذا». ويقول ابن النديم^(٥١): «زعم الثقة أنه سمع مشايخ من أهل اليمن يقولون إن حمير كانت تكتب بالمسند على خلاف أشكال ألف وباء وتاء». وقد جاءت الدراسات والاكتشافات الحديثة لتنفي كل صلة بين الخط العربي الشمالي الذي كتب به القرآن الكريم وبين المسند الذي كان أهل اليمن يكتبون به قبل الاسلام. ولعل ما بينها من صلة لا يتعدى أنها اشتقا من أصل سامي واحد قديم^(٥٢). وأشكال حروف الخط المسند تختلف اختلافاً

= المزهر ج ٤ ص ٣٤٩.

(٤٨) انظر حفني ناصف: ص ٥١-٥٢. ومحمد طاهر الكردي: تاريخ الخط العربي ط ١ مكتبة الهلال ١٩٣٩ ص ٤٠. وحامد عبد القادر: دفاع عن الأجدية والحركات العربية. بحث نشر بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ج ٢ سنة ١٩٦٠ ص ٨. وأمين مدني: العرب في أحقاب التاريخ. القاهرة. دار المعارف ١٩٦٥. ج ١ ص ٢١٧.

(٤٩) انظر: د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٦٤.

(٥٠) ج ١ ص ٤٨٧.

(٥١) الفهرست ص ٥.

(٥٢) انظر: اسرائيل ولفسون: ص ١٩٧. وخلييل يحيى نامي ص ٣. وطه باقر: أصل

الحروف الهجائية. مقال في مجلة سومر. ج ٢-١٩٤٥. ص ٥٦ ود. جواد علي: ج ٧

ص ٦١.

أساسياً عن أشكال حروف الخط العربي^(٥٣). ويظهر ذلك الاختلاف بمجرد النظر إلى أي نص يني جنوبي كتب بالمسند ومقارنته بنص كتابي عربي قديم كتب بالخط الشمالي.

وعلينا بعد أن ظهر خطأ تفسير القدماء لتسمية الخط العربي بالجزم أن نبحت عن تفسير آخر لتلك التسمية من أصل الكتابة عامة، ويبدو أن ذلك التفسير مرتبط برواية أخرى عن أصل الخط العربي، وهي أكثر الروايات العربية قرباً إلى ما أدت إليه الدراسات المعاصرة، رغم كل ما فيها من اضطرابات وقصور.

تتركز هذه الرواية حول ثلاثة أسماء ردها الرواة، إليهم ينسب وضع الخط العربي، فينقل البلاذري ما رواه ابن الكلبي عن الشرقي بن القطامي (ت نحو ١٥٥هـ) أنه قال^(٥٤): «اجتمع ثلاثة نفر من طييء ببقّة، وهم مُرامِر بن مرّة وأسلم بن سدرّة وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار». وينقل ابن النديم نفس الرواية - مع بعض التغيير - عن ابن عباس (ت ٦٨هـ)، فيروي أن «أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان، وهي قبيلة سكنوا الأنبار، وانهم اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة، وهم مرامر بن مرّة وأسلم بن سدرّة وعامر بن جدرة، ويقال مروة وجدلة، فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام»^(٥٥).

(٥٣) د. محمود حجازي: اللغة العربية عبر القرون. القاهرة. دار الكتاب العربي ١٩٦٨ ص ٣٠.

(٥٤) فتوح البلدان ص ٤٧٦. وانظر: ابن أبي داود ص ٥. وابن عبد ربه ج ٤ ص ١٥٧ وانظر أيضاً: البطليوسي (عبد الله بن محمد بن السيد): الاقتضاب في شرح ادب الكتاب. بيروت. دار الجيل ١٩٧٣ ص ٨٨.

(٥٥) الفهرست ص ٤-٥. ويروي ابن النديم ص ٥ «ان نفراً من أهل الانبار من أياد القديمة وضعوا حروف ألف ب ت ث، وعنه أخذت العرب». وانظر الطبري: التاريخ ج ٣ ص ٣٧٥.

وهناك روايات أخرى تسند ذلك العمل إلى مرامر وحده^(٥٦)، وأخرى تجعل أسلم معه^(٥٧). وقد وردت بعض أسماء هؤلاء الرجال الثلاثة مصحفة في بعض الروايات^(٥٨).

وحاول بعض الباحثين المحدثين رد هذه الرواية كلية، مستنداً إلى ما يبدو في الاسماء من أثر الصنعة والاختراع، فهي موزونة ومقفاة: مرة - سدره - جدرة، وهذا يدل - في زعمه - أنها وضعت وضعاً، وليست من نتيجة الصدفة والاتفاق^(٥٩). ومع ما في هذه الاسماء من أثر للصنعة، لما فيها من تتابع مقطعي مسجوع، ومع احتمال كونها مخترعة، إلا أنه لا بد أنها كانت تشير إلى وجود أشخاص، سواء كانت اسماؤهم هي هذه، أم قريباً منها، كان لهم دور ما في تطور الكتابة العربية^(٦٠).

ويلاحظ على الرواية الأولى أنها تشير إلى إفادة الرجال الثلاثة بعد وضعهم الخط العربي من الكتابة السريانية، وانهم «وضعوا الخط، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية». وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين إستناداً إلى هذا القول - على ما يبدو - الذي لا يدل على الأخذ بل الاستفادة حسب، وإلى ما يرويه ابن النديم من أن السريان كان لهم خط يسمى: (أسطر نجالا) ونظيره قلم المصاحف^(٦١)، إلى إستعارة العرب للخط السرياني واستعماله في كتابة اللغة

(٥٦) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ ص ٢٣. وحزرة الأصفهاني ص ١٨. وابن رسته مج ٧ ص ١٩١. وابن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ط ١. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. ١٩٤٨ ج ٣ ص ٣٠.

(٥٧) انظر ابن دريد: الاشتقاق ص ٣٧١. والصولي ص ٣٠. والسيوطي: المزهج ج ٢ ص ٣٤٦.

(٥٨) انظر أبو بكر بن العربي: ج ٤ ص ١٩٤٥. وابن دريد: الاشتقاق ص ٣٧١.

(٥٩) خليل مجي نامي: ص ٣. ود. الطاهر أحمد مكّي ص ٣٨.

Abbott, P. 6.

(٦٠)

(٦١) الفهرست ص ١٢.

العربية^(٦٢). وذهب آخرون إلى حد التأثر والافادة، دون النقل والاقتباس^(٦٣). لكن البحث الدقيق ينفي أن تكون الكتابة السريانية إحدى مراحل الخط العربي، إذ إن لكل منها تاريخ تطوره المستقل عن الخط الآرامي^(٦٤). وما هذه الحروف المتشابهة والخصائص المتقاربة التي نجدتها في هاتين الكتابتين إلا نتيجة لكونها قد خضعتا لظروف واحدة، ومرتا على أدوار متشابهة^(٦٥).

أما الرواية الثانية - وهي تتفق مع الأولى في أسماء الرجال الثلاثة - فإنها تختلف عنها في عدم إشارتها إلى إفادتهم من هجاء السريانية، ثم هي تعطي تفصيلا لعملهم، ولعل أهم شيء تجدر ملاحظته هنا هو إشارتها إلى أن عامراً قد وضع الإعجام، وهي مسألة ليس من اليسير الإقرار بها، وستناولها في فصل تال. وهنا يثار تساؤل عن الدور الذي قام به أولئك الثلاثة، وهل أنهم هم الذين وضعوا الكتابة العربية فعلاً، أو أنهم ساهموا بطريقة ما في تطور تلك الكتابة؟ أما أنهم وضعوها فهذا أمر ينفيه ما تم كشفه من نقوش عربية تعود إلى وقت سابق على الوقت الذي يقدر أنهم عاشوا فيه - وهو نهاية القرن الخامس أو بداية القرن السادس الميلادي^(٦٦) - في أماكن بعيدة عن الأنبار والعراق، كذلك فإن

(٦٢) انظر: جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية. دار الهلال - ١٩٥٧ - ج ١ ص ٢٢٧ - ود. علي عبد الواحد وافي: علم اللغة. ط ٣ القاهرة. لجنة البيان العربي ١٩٥٠ ص ٢٤٨. وفقه اللغة (له) - ٤٧. القاهرة لجنة البيان العربي ١٩٥٦ ص ٣٢.

(٦٣) اسرائيل ولفسون ص ١٦٠. وبلاشير ج ١ ص ٧٤.

(٦٤) انظر خليل مجي نامي ص ٤ و

- Beeston (A. F. L): The Arabic Language Today. London. 1970. P. 25

(٦٥) خليل مجي نامي ص ٤. ولا شك أن تحديد مقدار التأثر والتأثير بين الخطوط يحتاج الى توفر الوسائل المادية، ومع غيبة تلك الوسائل - الآن - فليس لأحد أن يتحدث عن ذلك التأثر أو أن يحدد مقداره إن وجد.

- Abbott. P. 6.

(٦٦)

وضع الخطوط واختراعها عمل ليس من اليسير نسبته إلى أفراد بأعيانهم، والاحتمال الثاني يبدو أكثر إنطباقاً على الواقع، ولعل الدور الذي قاموا به هو أنهم عدلوا الحروف المتداولة آنذاك، ذات الأصل النبطي حتى تبدو في شكلها العام - ربما - أكثر تشابهاً مع البريانية، التي روى البلاذري أنهم قاسوا هجاء العربية على هجائها^(٦٧). وربما نجد إشارة إلى طبيعة ذلك التعديل في الاسم (الجزم) الذي كانت تعرف به الكتابة العربية قبل الاسلام، والذي افترض بعض العلماء الأقدمين أنه سمي بذلك لانه اقتطع وأخذ من المسند، وقد تبين لنا فيما مضى بطلان هذه الدعوى. و(الجزم) في بعض معانيه «ضرب من الكتابة، وهو تسوية الحرف، وقلم جزم: لا حرف له»^(٦٨) فكان دور الرجال الثلاثة - إذن - كان تسوية الحروف وتنسيقها بحيث تبدو أكثر تنظيماً واستجابة لسرعة الكاتب، أو شيئاً من هذا القبيل^(٦٩). فأطلق على عملهم في تحسين الخط اسم (الجزم) لا على أنهم اقتطعوا الخط وأخذوه من المسند بل لأنهم عدلوا في حروفه، وجعلوها أكثر استواء وانسجاماً.

والروايات العربية تركز على الدور الذي قام به عرب العراق قبل الاسلام في تطوير الخط العربي، ونقله إلى الحجاز، فقد كانت الحواضر العربية في غربي العراق تكتب بالخط العربي - ربما على نطاق واسع - قبل أن يصل إلى الحجاز

(٦٧) انظر المرجع السابق ص ٧.

(٦٨) الأزهري (محمد بن أحمد): تهذيب اللغة. القاهرة ج ١٠ ص ٦٢٧. وانظر: الجوهري: ج ٥ ص ١٨٨٧. والزمخشري: (محمود بن عمر): أساس البلاغة. القاهرة دار الكتب العربية ١٩٢٢ مادة (جزم) ج ١ ص ١٢٣ حيث يقول: «قلم جزم: مستوى القلم لا حرف له». والفيروز أبادي (محمد بن يعقوب): القاموس المحيط ط ٢. القاهرة. مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٢ ج ٤ ص ٩١ مادة (جزم).

(٦٩) أ. هوداس: محاولة في الخط المغربي. مقال في حوليات الجامعة التونسية. سنة ١٩٦٦

العدد الثالث ص ١٩٠ - ١٩١. وانظر

- Abbott, P. 7 - 8.

وقلب الجزيرة العربية، حيث تجعل الروايات العربية طريقه إليها عبر الحيرة ودومة الجندل نازلاً إلى مكة والطائف.

وستناول مكان نشوء الخط العربي وطريق دخوله إلى الحجاز والفترة التاريخية التي تم فيها ذلك بعد أن نتعرض لما تقدمه الدراسات الحديثة من إضافات قيمة في تصور أصل ونشأة الخط العربي، إستناداً إلى دراسة النقوش العربية المكتشفة - رغم قلتها - والتي ترجع إلى ما قبل الاسلام، ومقارنتها بالكتابات السامية التي كانت معروفة في أطراف الجزيرة الشمالية وبلاد الشام.

ثالثاً: رأي المحدثين في أصل الكتابة العربية:

تلك هي وجهة نظر المصادر القديمة في أصل الكتابة العربية، وهي في معظمها غير واضحة، ومختلطة بعناصر قصصية لا تستند إلى حقائق علمية ثابتة، أما المحدثون فإنهم قد نحوا نحواً آخر في البحث، رغم أنهم رأوا تقريباً رأي المصادر العربية مدة من الزمن إلى أن أتيح لهم اكتشاف بعض النقوش الجاهلية المكتوبة بأحد فروع الخط النبطي المتأخر الشبيه بالخطوط العربية القديمة وفي لغة قريبة من اللغة العربية^(٧٠).

ولكي تتضح لنا علاقة الخط العربي بالخطوط السامية الأخرى وموقعه منها علينا أن نعرف شيئاً عن تاريخ الخطوط السامية وتطورها، ولسنا هنا في حاجة إلى معرفة آراء العلماء في أصل الحروف الهجائية والخطوط السامية وما قيل في ذلك^(٧١). ونكتفي بالإشارة إلى أن الخط الفينيقي المشتق من كتابات شبه جزيرة

(٧٠) طه باقر: ص ٥٦، وانظر: اسرائيل ولفسون ص ١٩٩.

(٧١) انظر في ذلك: طه باقر: ص ٤٣ وما بعدها. و. د. جواد علي ج ١ ص ٢٠١ وما بعدها، و Atkinson (B. F. C): Alphabet. Encyclopaedia Britannica Vol.1, 1973. P. 663.

و: Diringer (David): The Alphabet a Key to The History of Man Kind, London, 1968, Vol. 1. pp. (145-172).

سيناء التي يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد^(٧٢)، والتي تعتبر أقدم كتابة أمجدية، قد استخدم لتدوين اللغة الآرامية في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد^(٧٣)، وأن الخط الآرامي قد تطور إلى عدة فروع في بلاد الشام وما اتصل بها، لعل من أهمها: النبطي والتدمري والسرياني والعبراني المربع^(٧٤).

وقد أدت الاكتشافات الأثرية في جزيرة العرب إلى التمييز بين نوعين من الخطوط التي كانت مستعملة عند العرب فيما قبل الاسلام. الأول: الخط العربي الذي دون به القرآن الكريم، والذي يعرف بالشامي تمييزاً له عن الآخر، والثاني: الخط العربي القديم في جنوب الجزيرة العربية، والذي عرف في المصادر العربية باسم (المسند)^(٧٥).

ولعل مما يثير الدهشة كثرة ما عثر عليه من النقوش المدونة بالمسند، ليس في بلاد اليمن وأرض الجزيرة فحسب، بل تجاوز حدود بلاد العرب، فعبّر إلى مصر ووصل إلى جزر اليونان وأطراف العراق، وبذلك ثبت علمياً أن المسند كان معروفاً وشائعاً قبل الإسلام في كل شبه جزيرة العرب، وربما كان القلم العام للعرب قبل المسيح، فهو أقدم الأقلام التي عرفت في شبه جزيرة العرب حتى الآن^(٧٦).

(٧٢) د.جواد علي ج ١ ص ٢٠٣

– Morag (Shelomo): The Vocalization Systems of Arabic Hebrew, and Aramaic. Nether Land. 1962, p.9.
و. Beeston, P.24.

(٧٤) انظر طه باقر: ص ٥١ وما بعدها. وحفي ناصف: ٤٣.

(٧٥) اختلف في أصل هذه التسمية، فينقل القلقشندي (ج ٣ ص ١٣) أن المسند سمي بذلك لأنهم كانوا يسندونه إلى هود عليه السلام، ويذهب بعض المحدثين إلى أنه سمي بذلك لأن معظم حروفه تستند إلى أعمدة (انظر اسرائيل ولفسون: ص ٢٤٤ ود. الطاهر أحمد مكي: ص ٤٣)، لكن الدكتور جواد علي (ج ١ ص ١٩٧-١٩٨) يرد على من ذهب هذا المذهب ويقول: إن كلمة المسند في العربية الجنوبية تعني الكتابة مطلقاً، وهي تساوي ما تعنيه كلمة الخط أو الكتابة في لغة القرآن الكريم.

(٧٦) د.جواد علي (ج ١ ص ١٩٢)

وقد امتد إستعمال المسند حتى القرن الخامس الميلادي^(٧٧)، وربما إلى القرن السادس^(٧٨). أي أن ذلك الخط قد زال من الاستعمال قبل مجيء الاسلام^(٧٩). أما عن بدايته فهي غير واضحة، ويعتقد أنه مشتق من الفينيقي، أو أنه متفرع من الأجدية السيناية التي انحدر عنها الخط الفينيقي. وقد اختلف في تاريخ أقدم الكتابات المدونة بالمسند، فمنهم من يرجعها إلى سنة ١٥٠٠ أو ١٣٠٠ قبل الميلاد، على حين يرتفع آخرون بتاريخ أقدم كتابة عثر عليها بالمسند إلى أكثر من ٨٠٠ أو ٧٠٠ سنة قبل الميلاد. ولضبط هذا التاريخ أهمية جد عظيمة في البحث عن أصل منشأ هذا الخط^(٨٠).

والمسند يتألف من تسعة وعشرين حرفاً، وأجديته مثل الأجديات السامية الأخرى من حيث إنها تتألف من الحروف الصامتة، ولا حركة في الكتابة بها، ولا ضبط في أواخر الكلمات، ولا علامة للسكون أو التشديد، وقد يكتب الحرف المشدد مرتين، وتكتب الحروف في الكلمة الواحدة منفصلة، ولذلك فإن شكل الحرف لا يتغير بتغيير موضعه في الكلمة، ويفصل بين الكلمة والكلمة التي تليها فاصل، هو خط عمودي مستقيم، وتقرأ الكتابة من اليمين إلى اليسار أو بالعكس، ويميز بين الطريقتين أحياناً^(٨١).

وتطور القلم المسند في شمال الجزيرة العربية على يد شعوب عربية قديمة إلى مجموعة من الأقلام، وقد عرفت النقوش التي عثر عليها مكتوبة بتلك الأقلام

(٧٧) - Beeston, P. 24.

(٧٨) نولدكه (تيودور): اللغات السامية: تخطيط عام. (مترجم) القاهرة، مكتبة دار النهضة العربية. ١٩٦٣ ص ٩١.

(٧٩) ابن خلكان ج ٣ ص ٣٠.

(٨٠) د. جواد علي ج ١ ص ٢٠٩ و ج ٧ ص ٥٥. وانظر طه باقر ص ٤٤. وجويدي:

محاضرات أدبيات الجغرافيا ص ٩٢ واسرائيل ولفنسون ص ٢٤٣. و

- Moscati (Sabatino): An Introduction to The Comparative Grammar of The Semitic Language, Wicsbaden 1964, p.19.

(٨١) د. جواد علي ج ١ ص (١٩٨ - ١٩٩)، وانظر ج ٧ ص (٣٧ - ٤٢).

بالتقوس اللحيانية والثمودية والصفوية، وهي لا تختلف كثيراً في خصائصها وأشكالها عن خصائص وأشكال المسند، وقد زالت من الاستعمال قبل الاسلام، وخلفت لنا عدداً كبيراً من التقوس التي عثر عليها المنقبون في الجزيرة العربية. كذلك تطور المسند في الساحل الافريقي المقابل لليمن إلى الخط الحبشي الذي انحدرت منه كافة الخطوط الحبشية^(٨٢).

ولعل في ذلك الانتشار الواسع لاستخدام المسند، وما تخلف عنه في أذهان الناس، ما يفسر لنا ما ذهب إليه المصادر العربية من الاعتقاد بأن الخط العربي تطور عنه، لكن مقارنة كلا الخطين وما يمتاز به كل منهما ينفي ذلك الاعتقاد، وليس علينا شيء بعد هذا في أن نكتفي بهذه الاشارة الموجزة عن المسند، قلم الجزيرة العربية القديم.

وقد يبدو غريباً أن الكتابة العربية الشمالية ليست متطورة عن المسند، بعد ما كان بين جنوب الجزيرة وشمالها من علاقات، وبعد انتشار المسند واستعماله في شمال الجزيرة لعدة قرون قبل الميلاد وبعده إلى ما قبيل الاسلام، لكن تدهور أحوال اليمن في الفترة المتأخرة قبل الاسلام، وطبيعة الخط المسند وفروعه، وما تمتاز به من جفاف وأشكال دقيقة صعبة الرسم - قد تفسر لنا ذلك الاهمال الذي أصاب المسند وانحساره أمام الخطوط المنحدرة عن الآرامي، الآتية من أطراف الجزيرة الشمالية، والتي تمتاز بالمرونة والسهولة، ولا سيما في الكتابة على القراطيس^(٨٣). وربما كان لأهل الكتاب من اليهود والنصارى دور في انتشار بعض فروع الخط الآرامي في بلاد العرب^(٨٤).

(٨٢) انظر عن هذه الأقلام: د. جواد علي ج ١ ص ١٩٩ و ٢١٠ و ٢١١ ج ٧ ص ١٣٩ و ١١٤ و ١١٨ - ١٩٣ و ١٩٧ و ٢٢٢ و ٢٤١. وليتان (أنو): لهجات عربية شمالية قبل الإسلام. مقال في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٣٧. ج ٣ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ود. رمضان عبد التواب ص ٣٥ و ٣٨ و Atkinson, P. 663.

(٨٣) انظر: بلاشير ج ١ ص ٧٠. ود. جواد علي ج ١ ص ٢١٢.

(٨٤) د. جواد علي ج ٧ ص ٥٥ و ٦٥.

وخير طريقة تجب مراعاتها في البحث في أصول الخطوط، وكيفية تطورها، وانفصال بعضها عن بعض، هي طريقة الرجوع إلى ترتيب حروف الأبجديات عند مختلف الأمم القديمة التي استعملت الكتابة، وإلى استقرار الاسماء التي أطلقتها على تلك الحروف، ودراسة أشكالها وصورها (٨٥).

١ - ترتيب حروف العربية:

إن الأبجدية العربية تشارك كثيراً من الأبجديات السامية في ترتيب حروفها، فهناك دلائل تشير إلى أن عرب الجاهلية وصدر الاسلام كانوا يسيرون في تعلم الكتابة على طريقة (أبجد هوز.....)، وعرف العرب هذه الكلمات التي تضم حروف الكتابة في نظام معين، واستخدموها في أشعارهم، وغيروا فيها بعض التغيير (٨٦). كذلك استخدمت هذه الكلمات التي تجمع الحروف في ترتيب معين في الحساب، وكان لكل حرف قيمته العددية، حتى أن البلوي يقول (٨٧): «والحساب بهذه الحروف أولى من الحساب بالأشكال المصطلح عليها عند الحساب، لمعان منها أن بهذه الحروف كانت العرب تحسب، ونحن عرب فلا تتعدها إلى سواها». ووردت كراهة تعليم الصبيان الكتابة على طريقة أبجد هوز (٨٨).

أما الترتيب المألوف المتبع في الزمن الحاضر في ترتيب الحروف من الألف إلى الياء فهو ترتيب متأخر حدث في الاسلام (٨٩).

(٨٥) د. جواد علي ج ٧ ص ٧٠.

(٨٦) انظر: الفراء (بجي بن زياد): معاني القرآن. ط ١. القاهرة. دار الكتب المصرية ١٩٥٥، ج ١ ص ٣٦٩ وابن درستويه (عبد الله بن جعفر): كتاب الكتاب. بيروت. ط الآباء اليسوعيين ١٩٢١ ص ٤٣ والصولي ص ٣٠، والقلقشندي ج ٣ ص ٢٣. وابن النديم. ص ٤.

(٨٧) الف با ج ١ ص ٩١

(٨٨) نفس المصدر ج ١ ص ٧٥.

(٨٩) د. جواد علي ج ١ ص ٢٠٩ وج ٧ ص ٦٠.

وقد أحس علماء العربية بقدّم الترتيب الأبجدي، فهو (امام الكتاب)^(٩٠)، وهو (أصل حروف التهجي)^(٩١). وعرفوا أن (أبجد، هوز...) كلمات وضعت لدلالة المتعلم على الحروف^(٩٢). وقالوا انهن أعجميات، وعليها يقع تعليم الخط بالسرياني^(٩٣). وقد سبق أن أشرنا إلى رواية المصادر العربية من أن هذه الكلمات هي أسماء ملوك مدين، وهي إشارة تقييد باحساسهم بأنها وافدة من خارج الجزيرة العربية.

وقد كشفت الدراسات الحديثة في مجال الخطوط السامية أن هذا الترتيب هو الترتيب المعروف عند أكثر الامم السامية القديمة^(٩٤).

وترتيب حروف الهجاء وقراءتها وكتابتها عند تعلمها على وفق نمط أبجد هوز في صدر الاسلام دليل يشير بنفسه إلى المورد الذي انحدرت عنه الكتابة العربية، ولهذا نجد الأحرف الستة التي انفردت بها العربية عن اللغات السامية الاخرى قد وضعت في آخر سلسلة أبجد^(٩٥) والتي أطلق عليها في الرواية العربية اسم (الروادف)، وهي تسمية تشير إلى أنها ملحقة في وقت متأخر بذلك الترتيب.

وقد بقي لنا من الأصل الذي اشتق منه الخط العربي ذلك الترتيب الذي

(٩٠) الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق): الجمل ط ٢. باريس ١٩٥٧ ص

٢٧٢

(٩١) الداني: المحكم ص ٢٩.

(٩٢) نفس المصدر ص ٣٤.

(٩٣) انظر: حمزة الأصفهاني ص ١٦. وأبو حاتم الرازي (أحمد بن حمدان): كتاب الزينة

في الكلمات الإسلامية العربية: ط ٢. القاهرة. دار الكتاب العربي ١٩٥٧ ج ١

ص ٦٦.

(٩٤) د. جواد علي ج ١ ص ٢٠٨ وج ٧ ص ٦٠.

(٩٥) د. جواد علي ج ٧ ص ٦٠.

يقوم على نظام أجد هوز^(٩٦). وهو دليل على الرباط الذي يربط الكتابة العربية بالخطوط السامية الاخرى ذات الترتيب الأبجدي^(٩٧).

٢ - أسماء حروف العربية:

ولا تزال الأبجدية العربية تحتفظ في تسميتها للحروف ببقايا من أسماء حروف الأبجديات السامية القديمة، إذ يفترض العلماء أن أسماء الحروف السامية جاءت عندما أخذ السيناثيون القدماء صور الكلمات الهيروغليفية المصرية، وأغفلوا نطقها القديم، وأطلقوا عليها ما يقابلها في لغتهم الخاصة، للدلالة على الصوت الأول من تلك الكلمات، فقد أخذوا مثلاً صورة (رأس ثور) وأغفلوا نطقها في اللغة المصرية، وأطلقوا عليها ما يقابلها في لغتهم الخاصة ثم - عملاً بقانون الاكروفونية (Acrophonic) القاضي بالاعتداد على الحروف الأولى من أسماء الصور وترك الباقي منها - صارت هذه العلامة رمزاً لحرف الألف، الذي هو الحرف الأول من كلمة (ألف) السامية والتي تقابل الكلمة المصرية المشار إليها، وعلى هذا القياس سار السيناثيون في معالجة صورة (بيت)، فأطلقوا عليها ما يقابلها في لغتهم، ثم اعتمدوا على الحرف الأول من اسمها في لغتهم وهو الباء وهكذا في بقية الحروف^(٩٨).

(٩٦) د. تام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية. القاهرة. مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ص ١٣٩.

(٩٧) وما تجدر الإشارة اليه هنا أن لأهل المغرب ترتيباً يختلف شيئاً قليلاً عن الترتيب الأبجدي المشهور في المشرق (انظر القلقشندي ج ٣ ص ٢٢)، ولا يزال سر هذا الاختلاف غير واضح، (انظر هوداس ص ١٨٩ - ١٩٢).

(٩٨) انظر: فيليب حتي: تاريخ العرب (مترجم). بيروت. دار الكشاف - ١٩٤٩ ج ١ ص ٩٣ وجواد علي ج ١ ص ٢٠٤. ويستثمر الشيخ عبد الله العلابي هذه الفكرة في كتابه (مقدمة لدرس لغة العرب) وقد جعلها أساس نظريته الى الدور الأول من أدوار تطور اللغة (انظر تفصيلاً لذلك: د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. القاهرة. المطبعة العالمية ١٩٧٥ ص ٩٧ بالذات) وانظر:

= - BEREZIN (F.M): Lecture on Linguistics. Moscow, 1969, P. 137.

وقد حافظت الأبجديات السامية على أسماء الحروف السينائية المفترضة بدرجات متفاوتة، لكنها ظلت تشترك في أن اسم الحرف يحمل دائماً قيمته الصوتية في أول حرف منه^(٩٩).

وقد أحس علماء العربية بهذه الخاصية لأسماء الحروف العربية، واستدلوا بذلك على أن الألف في أول الترتيب الأبجدي إنما هي في الأصل علامة الهمزة، يقول ابن جنِّي^(١٠٠): « كل حرف سميته ففي أول حروف تسميته لفظه بعينه، ألا ترى أنك إذا قلت جيم فأول حروف الحرف (جيم)، وإذا قلت دال فأول حروف الحرف (دال) وإذا قلت حاء فأول ما لفظت به (حاء)، وكذلك إذا قلت ألف فأول الحروف التي نطقت بها همزة.... ».

ويستدل من وحدة أسماء الحروف في مختلف الأبجديات على وجود أصل عام مشترك تفرعت عنه كل الأبجديات السامية واللاتينية^(١٠١)، وأسماء الحروف العربية تشير - بصفة عامة - إلى ذلك الأصل العام المشترك.

٣ - تطور أشكال حروف الكتابة العربية:

وإذا كان ترتيب الحروف العربية وأسمائها في إشارتها إلى علاقة الأبجدية العربية بغيرها من الأبجديات السامية غير قادرة على توضيح تطور الكتابة العربية وتحديد مسارها، فإن دراسة أشكال وصور الحروف عبر العديد من النقوش قادرة على أن تدل الباحثين على الأصل الذي انحدرت منه الكتابة العربية، وأن توضح مقدار علاقتها بغيرها من الخطوط السامية.

- Hockett (Charles F.) A Course in Modern Linguistics, Indian, 1970 =
P. 544.

(٩٩) انظر جدولاً لأسماء الحروف في بعض الأبجديات المعروفة في:

- Atkinson, P. 664.

(١٠٠) سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٤٧.

(١٠١) د. جواد علي ج ١ ص ٢٠٧.

فقد عثر الباحثون على بضع كتابات عربية على الصخور تعود إلى ما قبل الاسلام، وبدراسة أشكال الحروف وصورها في تلك الكتابات تمكن الباحثون من معرفة الأصل الذي انحدرت منه الكتابة العربية. فأخر ما توصل إليه العلماء المستشرقون على ضوء تلك الاكتشافات هو أن الخط العربي القديم اشتق من الخط النبطي المتأخر الذي اشتق بدوره من الخط الآرامي، فإذا أنعمنا النظر في القلمين النبطي المتأخر والعربي القديم وجدنا التشابه والتقارب بين أشكال الحروف واتصال بعض الحروف النبطية الحديثة ببعضها، كما هو الشأن في الخط العربي، والتقارب في المادة واللفة والأسلوب^(١٠٢).

أما النبط فهم قوم من الساميين^(١٠٣). ويسود الآن إعتقاد عام بأنهم قبائل عربية متجولة، تحضرت واستخدمت الآرامية لغة كتابية لها، وكانت العربية لغة حياتهم اليومية^(١٠٤). وقد أسس النبط في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد مملكة في شمال الجزيرة العربية وجنوب فلسطين وبلاد الشام، كانت عاصمتها سلع (بترا) الواقعة في وادي موسى بالقرب من معان، استمرت حتى سنة (١٠٦) بعد الميلاد حين فتحها حاكم الرومان على سوريا، واستولى على عاصمتها^(١٠٥).

ولما كانت نشأة دولة النبط - أساساً - اقتصادية، لوقوع بلادهم على طرق

(١٠٢) ناصر النقشبدي: منشأ الخط العربي وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين. مقال في مجلة سومر المجلد الثالث ج ١ سنة ١٩٤٧ ص ١٢٩.

(١٠٣) د. رمضان عبد التواب ص ٣٥٤.

(١٠٤) Diringer, P.209. وانظر في أصل النبط:

جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام. دار الهلال ص ٩٢. وإسرائيل ولفنسون ص ١٣٤ و خليل مجيحي نامي: ص ٧. ود. علي عبد الواحد وافي. فقه اللغة ص ٦١. ود. جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ط ١ بيروت. دار العلم للملايين ١٩٦٩ ج ٣ ص ٩. ود. محمود حجازي: علم اللغة العربية. الكويت. وكالة المطبوعات. ١٩٧٣ ص ١٨١.

(١٠٥) خليل مجيحي نامي: ص ١٠ وما بعدها. وانظر Diringer, P.208 -

التجارة بين جنوب الجزيرة وبلاد الشام، فقد كانت لها صلات واسعة في المنطقة، وامتد نفوذهم إلى شمال الجزيرة العربية وأطراف الشام وسيناء أيام ازدهار دولتهم^(١٠٦).

وكان النبط - أول الأمر - قد استخدموا الآرامية والقلم الآرامي في كتابتهم^(١٠٧). وظلت الكتابة النبطية مستعملة بعد زوال مملكة النبط لعدة قرون^(١٠٨). وبمرور الأيام طوّر النبط الخط الآرامي، فابتعد عن أصله عبر أدوار ثلاثة، استغرقت بضعة قرون من الزمن، حيث تفتى الكتابة النبطية - في الدور الأخير - تماماً لتظهر في كتابة أخرى هي الكتابة العربية^(١٠٩). ويتمثل الدور الأول في النقوش النبطية القديمة التي كتبت في القرن الأول قبل الميلاد، وتمثل مرحلة الانتقال من الآرامية إلى النبطية، والثاني يتمثل في النقوش التي كتبت في القرنين الأول والثاني (ب.م)، وهي تحمل خصائص الكتابة النبطية كاملة، ثم بعد هذا الدور نجد الكتابة النبطية تتطور حروفها تطوراً سريعاً حتى تفقد المسحة النبطية، وتأخذ شكلاً جديداً يتمثل في الكتابة العربية، واستدل الباحثون على ذلك التطور ببضعة نقوش كتابية عربية سنعرض لها بعد قليل. ويلاحظ الباحثون أن الكتابات النبطية القديمة تختلف عن تلك التي كتبت

(١٠٦) هذا هو تاريخ النبط الذين خلفوا لنا النقوش والكتابة المعروفة باسمهم، أما حديث العلماء في المصادر العربية القديمة عن النبط والانباط فانهم ربما كانوا يقصدون أقواماً من بقايا أمم سامية قديمة، كانوا ينزلون سواد العراق وقرى الشام، وكانت في لغتهم لكنة أعجمية (انظر لسان العرب مادة (نبط) ج ٩ ص ٢٨٧ ويوهان فك: العربية: دراسة في اللغة واللهجات والأساليب. القاهرة. مكتبة الخانجي ١٩٥١ ص ١٤ وانظر أيضاً: إسرائيل ولفسون ص ١٣٥. ود. جواد علي ج ٧ ص ٢٨٠).

(١٠٧) ليتان: ص ٢٤٨.

(١٠٨) - Abbott, P.4 and Diring, P.209.

(١٠٩) خليل يحيى نامي ص ٢٥ - ٢٦.

في وقت متأخر، حيث أخذت الحروف بالاستدارة والاتصال بعضها ببعض في الكلمة الواحدة حتى فئيت أخيراً في النموذج الجديد وهو الكتابة العربية^(١١٠).

أما خصائص الكتابة النبطية فسنشير إليها في المبحث التالي عند كلامنا عن خصائص الكتابة العربية قبل الرسم العثماني، تفادياً للتكرار، لأنها يشتركان في كثير من الخصائص، وربطاً للظواهر والخصائص التي تمتاز بها الكتابتان.

أما النقوش^(١١١) التي عثر عليها - حتى الآن - مكتوبة بالخط العربي المتطور عن النبطي، وتعود إلى فترة ما قبل الاسلام، والتي كانت الدليل الأول بيد الباحثين على الطريق الذي اتخذته الكتابة العربية في تطورها، فهي خمسة نقوش (أنظر صورها في الملحق آخر الكتاب)^(١١٢):

نقش أم الجمال الأول. وتاريخه نحو سنة ٢٥٠ (ب.م)^(١١٣).

ونقش النارة. وتاريخه سنة ٣٢٨ (ب.م)^(١١٤).

(١١٠) د. جواد علي: ج ٧ ص ٢٨٩ والمفصل له: ج ٣ ص ٧ وانظر: Abbott, P4-5.

(١١١) الكتابات المحفورة بدقة على الألواح الحجرية أو الصخور يسميها العلماء بالنقوش (Inscription) والكتابات التي لم تكتب بعناية يسمونها المخرشات (Graffiti) انظر: خليل مجي نامي: ص ٥ ود. محمود حجازي علم اللغة العربية ص ٢١٧.

(١١٢) - اطلمت بعد اعداد هذه الرسالة على نقش عربي جاهلي عثر عليه في سوريا سنة ١٩٦٥، يعرف بنقش (أسيس). ونصه: (ابراهيم بن مغيرة الأوسي) أرسلني الحارث الملك على سليمان مسلحة سنة ٤٢٣ (أي ٥٢٩ ميلادية). (انظر: سهيلة الجبوري: أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي. رسالة ماجستير جامعة بغداد ١٩٧٤).

(١١٣) انظر عن تاريخ اكتشاف هذا النقش وحل رموزه وترجمته وصورته: اسرائيل ولفنسون ص ١٣٩ وناصر النقشبندي: منشأ الخط العربي ص (١٣٠ - ١٣١) ود. جواد علي ج ١ ص ١٨٩ وج ٧ ص ٢٧١. ود. زاكية محمد رشدي: النقوش السامية - ق ١٠ - مقال في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مج ٢٨ ص ٩٠.

(١١٤) انظر جويدي: محاضرات أدبيات الجغرافيا ص ٩٠. واسرائيل ولفنسون =

ونقش زَبَد. وتاريخه سنة ٥١٢ (ب.م.)^(١١٥).

ونقش حَرَّان. وتاريخه ٥٦٨ (ب.م.)^(١١٦).

ونقش أم الجبال الثاني. وتاريخه يعود إلى أواخر القرن السادس (ب.م.)^(١١٧).

ولم تكن لغة هذه النقوش الخمسة عربية خالصة^(١١٨)، بل كانت متأثرة بالنبطية بدرجات متفاوتة^(١١٩):

فالنص الأول، وهو نقش أم الجبال الأول، نص مكتوب بلغة النبط، مع أن صاحبه عربي، وفي ذلك دلالة على أن العرب كانوا يستعملون لغة النبط وحروفهم في كتابتهم في ذلك العهد.

أما النص الثاني، وهو نقش النارة، فقد كان نبطياً عربياً، مع أن صاحبه ملك عربي، وهو شاهد قبره، غير أن الكاتب استعمل العربية مع النبطية فيه، ويدل على أن النبطية ما تزال متغلبة على القوم في ذلك العهد، وأنها كانت لغة الكتابة عندهم، غير أن استعمال الألفاظ والجمل العربية بين الألفاظ والجمل النبطية يشير إلى أنهم كانوا على أبواب نهضة لغوية، وأنهم قد شعروا بضرورة

= ص ١٩٠. وبلاشير: ج ١ ص ٧١. وناصر النقشبدي: ص ١٣١. ود. جواد علي: ج ١ ص ١٨٩ وج ٧ ص ٢٧٣.

(١١٥) انظر اسرائيل ولفسون ص ١٩١. وبلاشير ج ١ ص ٧١. وناصر النقشبدي ص ٣٢، ود. جواد علي ج ١ ص ١٩٠ وج ٧ ص ٢٧٨. وزاكية محمد رشدي: النقوش السامية - ق ٢ - مقال في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة مج ٢٩ ص ٣٦.

(١١٦) انظر: بلاشير ج ١ ص ٧٢. وناصر النقشبدي ص ١٣٢. ود. جواد علي ج ١ ص ١٩٠ وج ٧ ص ٢٧٩. ود. زاكية محمد رشدي مج ٢٩ ص ٣٧.

(١١٧) أنظر ناصر النقشبدي ص ١٣٢. ود. جواد علي ج ١ ص ١٩١. ود. رمضان عبد التواب ص ٤٢. ود. زاكية محمد رشدي مج ٢٩ ص ٣٨.

(١١٨) د. رمضان عبد التواب ص ٤٥.

(١١٩) انظر د. جواد علي ج ٧ ص ٦٧ - ٦٩.

استعمال العربية في كتابتهم، فأدخلوا تلك الألفاظ والجمل العربية في هذا النص النبطي. وقد كان هذا الاستعمال المرحلة الاولى من مراحل استعمال العربية في الكتابة بدلا من لغة النبط.

وأما نص حران فهو من بين هذه النصوص النص الوحيد الذي أستطاع أن يتهرب من لغة النبط، وأن يكتب بلغة عربية شمالية قريبة من اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، أو هي نفسها، وهو من هذه الناحية ذو أهمية كبيرة، لأنه النص الجاهلي الوحيد الذي وصل إلينا بهذه اللغة، وكان يمثل تطورا في لغة الكتابة عند العرب الشماليين، ولأنه أقرب النصوص من حيث رسم الحروف إلى الكتابات العربية الاسلامية التي تعود إلى القرن الأول للهجرة، فهو مهم من هذه الناحية أيضاً، لانه يربط بين أقدم الخطوط الاسلامية وبين الخط العربي الجاهلي.

وقد قام الاستاذ خليل يحيى نامي بدراسة تحليلية لحروف الكتابة النبطية، عبر الكثير من النقوش التي ترجع إلى قرون مختلفة، متتبعا صور الحروف وتطورها، منذ أقدم الكتابات النبطية حتى أخذت شكلها الأخير في الكتابات العربية الجاهلية^(١٢٠) بما لا يدع مجالاً للشك في انحدر الكتابة العربية من النبطية التي تطورت عن الكتابة الآرامية قبل عدة قرون من ذلك.

وقد كانت هناك جملة عوامل ساعدت على ذلك التطور، منها أن النبط الذين استخدموا الكتابة الآرامية لم يكونوا آراميين^(١٢١). وربما تكون هناك عوامل أخرى ساعدت على ذلك، مثل ضعف وقوة يد الكاتب الذي حفر تلك الكتابات على مواد صلبة، كذلك مراعاة السهولة والسرعة في الكتابة، وتأثر الكتاب بالأقلام الأجنبية، ومراعاتهم ملاءمة الخط للمواد التي يكتبون عليها^(١٢٢).

(١٢٠) انظر: خليل يحيى نامي (ص ٢٦ - ٨٤).

(١٢١) - Diringer. P.210.

(١٢٢) انظر د. جواد علي ج ٧ ص ٧ و ١٩٣ و ٢٢٣.

وفي النقوش الخمسة، على جليل قدرها وعظيم نفعها للدارس، ثلاث نقائص^(١٢٣) الأولى: قلة عددها. والثانية: تباعد فتراتها بحيث لا تتيح تتبع التطور بوضوح. والثالثة: أن هذه النقوش كلها قد اكتشفت في المنطقة الشمالية من بلاد العرب التي تمتد من العلا ومدائن صالح إلى شمال بلاد حوران، فهي أيضاً من هذه الناحية لا تتيح تتبع التطور في قلب الجزيرة العربية في الحجاز ونجد، وفي العراق عند طرفه الغربي، حيث لم يعثر على أي نص كتابي مدون بالكتابة العربية الشمالية في هذه الأماكن.

ومع صعوبة الحكم على أصل الأجديات حكماً قاطعاً، لأن أحداً لا يستطيع أن يدعي أن العلماء قد عثروا على كل ما دون من كتابات قديمة^(١٢٤). فإن دراسة ترتيب الحروف العربية وأسمائها، وأشكال الحروف وصورها وتطورها، يتيح لنا أن نرى بوضوح معالم تطور الكتابة العربية وانحدارها من الكتابة النبطية التي ترتبط بالكتابات السامية الأخرى بأقوى الصلات، وسيوضح في المبحث التالي إلى أي مدى حملت الكتابة العربية خصائص الكتابات السامية بصفة عامة، والكتابة النبطية بصفة خاصة.

رابعاً: مكان وزمان نشوء وتطور الكتابة العربية:

ولا بد لنا في نهاية هذا المبحث أن نتناول بالدراسة قضية هامة في تاريخ الكتابة العربية هي مكان وزمان نشوء تلك الكتابة وتكاملها، والطريق الذي اتخذته إلى الحجاز وأواسط الجزيرة العربية. وإذا كان من المقبول - الآن - القول بتطور الكتابة العربية من النبطية فإن مكان وزمان ذلك التطور لا يزالان موضع خلاف بين الباحثين لسببين^(١٢٥):

١ - قلة النقوش العربية الجاهلية.

(١٢٣) د. ناصر الدين الأسد ص: ٣١ وانظر: إسرائيل ولفسون ص ١٩٤.

(١٢٤) د. جواد علي ج ٧ ص ٦٩.

(١٢٥) خليل مجي نامي ص ١٠٢ وانظر. Diringer, P.212 -

٢ - غموض تاريخ الخط العربي عند مؤرخي العرب القدماء ، وتضاربهم في الروايات .

إلا أن دراسة ما تدل عليه تلك النقوش القليلة والاستعانة بذلك في تمييز الروايات العربية تعين في الوصول إلى نتائج مقبولة إلى حد ما - في الوقت الحاضر - بانتظار ما يكشف عنه المستقبل من نقوش جديدة في الجزيرة العربية وأطرافها .

تشير معظم الروايات العربية إلى انتقال الكتابة من الحيرة إلى مكة عن طريق دومة الجندل^(١٢٦) . فيروى أن عامراً الشعبي (١٩-١٠٣هـ) قال^(١٢٧) : « سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتاب؟ قالوا: من أهل الحيرة، وقالوا لأهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتاب؟ قالوا: من أهل الأنبار ». ويروى هذا الخبر أيضاً عن يحيى بن جعدبة^(١٢٨)، وعن زياد بن أنعم المعافري (ت نحو ١٠٠هـ) عن ابن عباس^(١٢٩) . ويروى أيضاً أن الأصمعي قال^(١٣٠) : « ذكروا أن قريشاً سُئلوا من أين لكم الكتابة؟ فقالوا: من أهل الحيرة، وقيل لأهل الحيرة: من أين لكم الكتابة؟ فقالوا: من أهل الأنبار ». ولا يعنيها هنا - ما تذهب إليه المصادر العربية بعد ذلك من أن أهل الأنبار أو الحيرة أخذوا الكتابة من اليمن أو من واضعيها مرامر وصاحبيه .

وتسند المصادر العربية نقل الكتابة من الحيرة إلى مكة وباقي الحجاز إلى

(١٢٦) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء، على سبع مراحل من دمشق (ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٦).

(١٢٧) ابن أبي داود: ص ٤ . والداني: المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار. دمشق. مكتب الدراسات الإسلامية ١٩٤٠ ص ٩ . والمحكم (له) ص ٢٦ .

(١٢٨) حمزة الأصفهاني ص ١٩ .

(١٢٩) الداني: المحكم ص ٢٦ . والسيوطي: المزهري ج ٢ ص ٣٤٩ .

(١٣٠) ابن رسته: الأعلام النفيسة ج ٧ ص ١٩٢ . وابن خلكان ج ٣ ص ٣٠ .

أفراد بأعيانهم، يقول البلاذري^(١٣١): « كان بشر بن عبد الملك، أخو أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي ثم السكوني، صاحب دومة الجندل - يأتي الحيرة فيقيم بها الحين، وكان نصرانياً، فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنه، فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب يكتب، فسألاه أن يعلمها الخط، فعلمها الهجاء، ثم أراها الخط فكتبا، ثم إن بشرا وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة، فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلم الخط منهم، وفارقهم بشر، ومضى إلى ديار مضر، فتعلم الخط منه عمرو بن زرارة بن عدس، فسمي عمرو الكاتب، ثم أتى بشر الشام فتعلم منه ناس هناك ». وفي رواية أن بشراً خرج إلى مكة، وتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، فعلم جماعة من أهل مكة الكتابة^(١٣٢).

وفي رواية ابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب) (ت ٢٠٤هـ) والهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ) أن الناقل لهذه الكتابة من العراق إلى الحجاز كان حرب بن أمية، وكان قدم الحيرة قدما فعاد بها إلى مكة^(١٣٣).

وتختلف هذه الروايات في بعض المصادر - قليلاً - عن هذا الذي أوردناه^(١٣٤) لكنها تجمع على أن الخط لم يكن أصيلاً في الحجاز، وإنما دخله من اليمن أو العراق أو من أرض مدين وأطراف الشام^(١٣٥).

وسبق أن أشرنا إلى أن المصادر العربية تذهب إلى أن مكان اختراع الكتابة العربية هو الأنبار، إلا أن النقوش التي اكتشفت في شمال الجزيرة تشير

(١٣١) البلاذري ص ٤٧٦.

(١٣٢) السيوطي: المزهر ج ٢ ص ٣٤٦.

(١٣٣) حزة الأصفهاني ص ١٩. وابن خلكان ج ٣ ص ٣٠.

(١٣٤) انظر البطليوسي. ص ٨٨. وابن خلكان ج ٣ ص ٣٠.

(١٣٥) د. جواد علي ج ١ ص ١٨٨. وانظر أبو بكر بن العربي ق ٤ ص ١٩٤٦.

إلى أن الكتابة تولدت ونمت في شمال الجزيرة في بلاد الأنباط، ثم اتجهت - على ما يبدو - تحت تأثير الظروف السياسية إلى الشرق^(١٣٦)، ووجدت في الحواضر العربية في العراق المناخ الملائم لأن تتطور وتتأصل وتنتشر في الحيرة وغيرها من القرى العربية التي أشرنا إليها فيما سبق.

فانتشار الكتابة بين عرب العراق قبل الاسلام أمر مسلم به ولا شك فيه، واتصال مكة بأهل الحيرة وأهل الحيرة بمكة مسلم به كذلك، فلا يستبعد إذن أن يكون بعض أهل مكة والمدينة قد تعلموا الكتابة من أهل الحيرة، وأن هؤلاء علموها غيرهم من قريش وغير قريش^(١٣٧). لكن مما يثير الانتباه أننا لا نملك نصاً جاهلياً واحداً مكتوباً يعود إلى أحد من عرب العراق إلى الآن^(١٣٨). وربما يكون للعامل الجغرافي والمواد المستعملة في الكتابة أثر في ذلك^(١٣٩).

وينكر الاستاذ خليل يحيى نامي أن يكون الخط النبطي قد تطور وانتقل إلى الكتابة العربية في الحيرة أو بلاد الفساسة، على أساس أن الحيرة وبلاد الفساسة كانت قبل الاسلام مثقفة بالثقافة السريانية، لأنها كانت تدين بالنصرانية، وكان الخط السرياني هو الخط الرسمي في تلك الأنحاء، وبالتالي ينكر أن يكون قلم الأنباط - الوثنيين - قد تطور في أرض تسودها ثقافة نصرانية، وهو لذلك ينكر أن يكون القلم العربي قد انتقل إلى الحجاز من الحيرة^(١٤٠). لكن انتشار النصرانية في الحيرة وبلاد الفساسة^(١٤١)، لم يكن يعني

(١٣٦) - Abbott, P.8.

(١٣٧) د. جواد علي ج ٧ ص ٦٥.

(١٣٨) ويشير الدكتور جواد علي (ج ١ ص ١٩٢) الى أن السائح الانجليزي (لوفتس) عثر على حجر مكتوب بالسند في (وركاء) في العراق. وانظر ج ٧ ص ٦١.

(١٣٩) د. جواد علي: لهجة القرآن الكريم. مقال في مجلة الجمع العلمي العراقي المجلد الثالث ١٩٥٥ ج ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(١٤٠) أصل الخط العربي (ص ١٠٢ - ١٠٣)، وذهب الى ذلك أيضاً الدكتور صلاح الدين المنجد، انظر: دراسات في تاريخ الخط العربي ط ١. بيروت. دار الكتاب =

أنهم كانوا يستعملون القلم السرياني، بل إن الروايات العربية تنص على أن بشر بن عبد الملك كان نصرانياً، وأن عدي بن زيد كان كذلك، وقد كان لها دور في استخدام الكتابة العربية وانتشارها قبل الإسلام. وليس من قبيل المصادفة أن يكون نقشان من النقوش الجاهلية، وهما (نقش حران ونقش زيد)، قد كتبا بأيدي أناس نصارى على الأرجح^(١٤٢). فليس غريباً أن يكون هناك قلم واحد للعرب سواء كانوا نصارى أم وثنيين، ويبقى بعد ذلك الاحتمال الأقوى، وهو أن الكتابة العربية قد لحقها تطور كبير في الحيرة أو الأنبار، وهو ما تسببه المصادر العربية لمرامر وصاحبيه - إن صح ما تقدم من تقديرنا لعملهم -.

ولكن هل يعني ذلك أن الطريق الوحيد الذي اتخذته الكتابة العربية إلى الحجاز كان الحيرة ودومة الجندل؟ ليس هناك ما ينفي أن تكون الكتابة العربية قد دخلت الحجاز من الأنحاء الشمالية مباشرة، خاصة أن العديد من الكتابات النبطية جاءت من الأقليم الشمالي لبلاد الحجاز، من الحجر (مدائن صالح) والعلا وتيماء، هذا إضافة إلى الاتصال التجاري المستمر بين أهل الحجاز وبلاد الشام. فارتباط الحجاز بالطرف الجنوبي من بلاد الأنباط، وكون الكثير من النقوش النبطية من ذلك الأقليم، والاتصال المستمر بينها كلها عوامل مشجعة لتطور كتابة عربية في ذلك الأقليم^(١٤٣).

ولا شك أن الدلائل - الآن - غير كافية لإعطاء حكم قاطع في كل ذلك، وتبقى الروايات العربية وما تدل عليه النقوش القليلة من نتائج مقبولة إلى حد ما.

= الجديد ١٩٧٢ ص (١٢ - ١٣).

(١٤١) انظر في ديانة أهل الحيرة والفساسنة: ابن رسته: مج ٧ ص ١٧، واليعقوبي (أحد ابن أبي يعقوب بن واضح): كتاب البلدان ليدن (مطبوع في نهاية الأعلام النقيسة لابن رسته. المجلد السابع) ١٨٩١ ص ٣٠٩، وابن دريد: الاشتقاق ص ١١. والسيوطي. الزهر ج ١ ص ٢١٢.

- Abbott, P.12-13.

(١٤٢)

(١٤٣) المصدر السابق ص ٨ و ١٢.

أما زمن نشوء الكتابة العربية وتاريخ استوائها وانتقالها إلى الحجاز فإن المصادر العربية تربط ذلك بأسماء عدة رجال، فواضعو الكتابة ثلاثة نفر من طيء من أهل الأنبار، وناقلها إلى مكة إما بشر بن عبد الملك تعلمها من أهل الحيرة^(١٤٤)، أو من أهل الأنبار^(١٤٥). وإما حرب بن أمية، أو سفيان وأبو قيس ابن عبد مناف، تعلموها من بشر بن عبد الملك أو من أهل الحيرة أو من واضعيها^(١٤٦). وهذه الرواية تعني أن انتقال الكتابة إلى الحجاز قد تم قبل الاسلام بجيل أو جيلين، ونحن هنا تجاه أناس حقيقيين، عاشوا في الفترة القريبة من الاسلام، فبشر بن عبد الملك هو أخو أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل التي غزاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في شهر ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً من مهاجره، ففر أهلها، ولم يجد المسلمون فيها أحداً^(١٤٧). وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد من تبوك إلى دومة الجندل فقدم بأكيدر على رسول الله، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته^(١٤٨). كذلك فإن سفيان وحرباً وأبا قيس هم من مشهوري رجال مكة، حتى ان ابن حبيب يذكر أن أبا قيس كان يكتب لقريش في ما يقع بينهم^(١٤٩). وربما ذهبت المصادر العربية إستناداً إلى هذه الأخبار إلى أن حدوث الكتابة العربية كان قريباً من نزول القرآن وقبل الاسلام بقليل^(١٥٠). فهل يعني هذا أن مكة والحجاز كانت خلواً من الكتابة قبل

(١٤٤) البلاذري: ص ٤٧٦.

(١٤٥) ابن ابي داود ص ٤. والسيوطي: المزهري ج ٢ ص ٣٤٦.

(١٤٦) انظر البلاذري: ص ٢٧٦ والجهمياري ص ١. وابن النديم ص ٥. والقلقشندي ج ٣ ص ١٤.

(١٤٧) الواقدي: ج ١ ص ٤٠٢. وابن سعد ج ٢ ص ٦٢.

(١٤٨) الواقدي: ج ٢ ص ٥٢٦. وابن سعد ج ٣ ص ١٠٢٥.

(١٤٩) المنق ص ٩٠.

(١٥٠) حزة الأصفهاني ص ١٩ والزنجشيري: الكشاف ط ٢ القاهرة. المكتبة التجارية =

ذلك التاريخ؟ أم أن فيها كتابة أخرى كأن تكون المسند؟ وهل كتب قصي حين كتب إلى أخيه رزاح في أطراف الشام (في حدود سنة ٤٤٠ ب.م.)^(١٥١) بالقلم العربي أو بالنبطي أو بغير ذلك؟ لا يمكن القطع بشيء من ذلك الآن، لكن هناك إشارة في شعره قاله رجل كندي من أهل دومة الجندل من قبيلة بشر بن عبد الملك، ين فيه على قريش دور بشر في تعليمهم الكتابة إذ يقول في آخر بضعة أبيات^(١٥٢):

وَأَغْنَيْتُمُوْا عَنِ مُسْنَدِ الْحَيِّ حَمِيْرٍ وَمَا زَبَّرَتْ فِي الصُّحُفِ أَقْيَالُ حَمِيْرًا

فهو كأنه يشير إلى أن قريشاً كانت قبل ذلك تستعمل المسند، وهي دعوى لا يملك البحث - الآن - دليلاً على قبولها أو ردها.

وليس معنى ما تقدم أن الكتابة العربية كانت قد اخترعت قريباً من ظهور الاسلام، فإن هذه الروايات تشير إلى تاريخ انتقال الكتابة الى مكة، وقد دلت النقوش العربية الجاهلية أن الكتابة العربية بدأت تتميز بخصائص معينة منذ مطلع القرن الرابع الميلادي، (تاريخ نقش النارة ٣٢٨م)، ونجد كتابة عربية متميزة الخصائص في نقش زبد (٥١٢م)، وعلى ذلك يرجح كثير من الباحثين أن الخط العربي نشأ ونما بين زمن نقش النارة وزمن نقش زبد^(١٥٣). وتاريخ نقش زبد يسلمنا إلى الفترة التي يحتمل أن يكون الرجال الطائيون الثلاثة، مرامر وصاحباها، قد عاشوا فيها أو قريباً من ذلك^(١٥٤)، وتزعم المصادر العربية أنهم هم الذين وضعوا الكتابة العربية، ويبدو أنه قد كان لهم دور كبير في تطور الكتابة العربية والتوسع في استعمالها في العراق، حتى ذهبت الرواية إلى أنهم هم الذين

= الكبرى ١٩٥٣ ج ٢ ص ٢١٧. وابن خلكان ج ٣ ص ٣٠.

(١٥١) - Abbott, P.10.

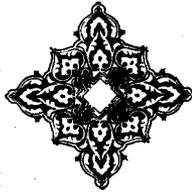
(١٥٢) السيوطي: المزهري ج ٢ ص ٣٤٧.

(١٥٣) طه باقر. ص ٥٩. وانظر اسرائيل ولفنسون. ص ٢٠١.

(١٥٤) - Abbott, P.8.

وضعوا الكتابة. ويقدم لنا نقش حران (٥٦٨م) كتابة عربية كاملة الخصائص. وعلى هذا فإن الكتابة العربية كانت مستعملة منذ زمن نقش الغارة (٣٢٨م)، وأنها خلال عدة قرون قبل انتقالها إلى مكة والحجاز - قبيل الاسلام إن صحت رواية المصادر العربية - قد تكاملت خصائصها، واستقرت قواعدها، خاصة في الحيرة وحوضر العراق العربية، حيث صادفت استخداماً واسعاً، وأنها حين انتقلت إلى الحجاز كانت متميزة الخصائص ثابتة القواعد - ولا يعني هذا أنها كانت موفية بمتطلبات اللغة كما سيتضح في المبحث التالي - فاستخدمها الصحابة - رضوان الله عليهم - بمعرفة تامة في تدوين متطلبات الدولة الجديدة، خلافاً لما يقوله ابن قتيبة من أن الصحابة كانوا أميين «لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يتقن، ولم يصب التهجي». أما قلة الكتابة التي يذكرها ابن قتيبة فربما كانت واردة، ولكن ليس إلى حد الواحد والاثنين - كما مر معنا من قبل - وأما الخطأ في الهجاء فمردود بما سيتضح لنا من حذق الصحابة في تدوين الظواهر اللغوية التي سجلوها حين كتبوا القرآن الكريم.

ويجب ألا يغيب عن انتباهنا - فيما سيأتي من حديث عن خصائص الرسم العثماني - هذا الانتقال للكتابة العربية من بيئة لغوية إلى أخرى أي من العراق إلى الحجاز، وربما يفسر لنا هذا الانتقال جانباً كبيراً من الحفريات الكتابية التي نجدتها في الرسم العثماني.



المبحث الثاني

خصائص الكتابة العربية قبل الرسم عثماني على ضوء الكتابات السامية

يتضمن هذا المبحث الاشارة إلى خصائص الكتابة العربية في العصرين الجاهلي والاسلامي حتى عصر إنتساح المصاحف في خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - مستمداً ذلك مما وصل إلينا من كتابات منقوشة أو مخطوطة، ليتبين إلى أي مدى حمل الرسم العثماني خصائص الكتابة العربية آنذاك.

أولاً: الوثائق المتاحة للبحث:

ليس في أيدي الباحثين من الوثائق المكتوبة التي تعود إلى تلك الفترة سوى عدد محدود، سواء في ذلك العصر الجاهلي أم عصر صدر الإسلام، ولا شك أن هذا العدد المحدود لا يمثل واقع الكتابة العربية في ذلك الوقت، فقد رأينا - فيما سبق - كثرة الروايات التي تشير إلى استخدام الكتابة في العصر الجاهلي، أما بعد ظهور الإسلام فقد توافرت الدواعي لأن تنتشر الكتابة انتشاراً واسعاً، والروايات تؤكد ممارسة الكتابة على نطاق واسع في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد كتب القرآن منذ العهد المكي - كما سيأتي بيان ذلك - وثبت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رخص في كتابة الحديث لبعض الصحابة^(١).

(١) انظر الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت): تقييد العلم. دمشق المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٩٤٩ (ص ٦٥-٧٩).

وكثرة الكتب التي كتبها النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ملوك وأمراء العرب، يدعوهم إلى الإسلام، تثير الانتباه، وتشير إلى شيوع الكتابة في أرجاء الجزيرة، فقد ذكر ابن سعد ما يقرب من مائة وعشرة كتب^(٢). وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يكتب لوفود العرب كتباً أيضاً، وقد ذكر ابن سعد أكثر من سبعين وفداً^(٣). وذكر الدكتور محمد حميد الله (٢٤٦) كتاباً ورسالة ترجع إلى العهد النبوي^(٤).

وكل هذا - وهو جزء مما روي في أمر الكتابة آنذاك وجزء يسير مما كانت عليه - يشير إلى أن الكتابة أصبحت أمراً شائعاً، ومن مظاهر ذلك الشيوع كثرة من ذكر أنهم كتبوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - فإذا روي أن الإسلام جاء وما في المدينة إلا بضعة عشر يكتبون^(٥). فإنه لم تمض إلا فترة يسيرة حتى كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - كتاب متخصصون، ومنقطعون للكتابة له، بلغوا أكثر من أربعين كاتباً^(٦)، لا بل إنا نجد بعضهم قد تعلم الكتابة السريانية أو

(٢) ابن سعد ج ١ (ص ٢٥٨-٢٩٠) وانظر أبو عبيد (القاسم بن سلام): كتاب الأموال ط ١. القاهرة. مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٨ ص ٥٠ وما بعدها حيث يذكر الكثير من كتب النبي عليه الصلاة والسلام. وابن قيم الجوزية (محمد بن بكر): زاد المعاد في هدى خير العباد ط ١، القاهرة. المكتبة الحسينية ١٩٢٨ ج ١ (ص ٣٠-٣١).

(٣) ابن سعد ج ١ (ص ٢٩١-٣٥٩)

(٤) انظر مجموعة الوثائق السياسية (ص ١-٢٠٠)

(٥) يذكر البلوي (في كتابه الف با ج ١ ص ٧٧) أن أهل المدينة لم يكونوا يحسنون الكتابة وأن النبي أمر أسرى بدر ممن لا مال له «أن يعلم عشرة من غلمان أهل المدينة الكتابة، ويخلي سبيله» وانظر أبو عبيد: كتاب الأموال ص ١٧٠. والبنا الساعتي ج ١٤ ص ١٠١. ود. المنجد ص ٢٤. لكن ذلك لا يدل على أن أهل المدينة لم يكونوا يحسنون الكتابة، وأن كل أسرى قريش كانوا يعرفونها، وهي تشير إلى تعليم الصبيان لا الكبار، وهي حاجة متجددة على مر العصور.

(٦) انظر في كتاب النبي: البلاذري (ص ٤٧٨-٤٧٩) وابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن =

العبرانية^(٧)، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد اتخذ خاتماً من فضة منقوشاً عليه (محمد رسول الله) كان يختم به الكتب^(٨).

ولا شك أن استخدام الكتابة في عهد الخلافة الراشدة اتسع اتساعاً منتظماً يتناسب وتوسع الدولة الإسلامية الجديدة وازدياد حاجتها إلى استعمال الكتابة.

ويبدو - بعد ذلك - أن التعليل لندرة ما وصل إلينا من كتابات تلك الفترة بقلة من يحسن الكتابة^(٩) - أمر يحتاج إلى المراجعة والتثبت، وعلينا أن نبحث عن أسباب أخرى لذلك لعل آخرها القول بأن العرب لم يكونوا يهتمون بحفظ الوثائق والسجلات^(١٠). إذ يروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كانت عنده نسخ العهد والموثيق ملء صندوق، ولكنها احترقت حين احترق الديوان سنة ٨٢ للهجرة^(١١). والظاهر أن الإعتناء بتلك الوثائق قديم جداً، فكثيراً ما ذكر الرواة والمؤلفون أنهم نقلوا كتاب كذا من الأصل المحفوظ عند

= عبد الله): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٩٦٠ (ج ١ ص ٦٨-٦٩) وابن عبد ربه: ج ٤ ص ١٦١. وابن حزم (علي بن أحمد): جوامع السيرة. دار المعارف بمصر ص ٢٦. وابن قيم الجوزية ج ١ (ص ٢٩-٣٠) والزبيدي (محمد مرتضى): حكمة الاشراف الى كتاب الآفاق ط١ سلسلة نواذر التراث (المجموعة الخامسة). القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٤ ص ٨٤ ونصر الهوريني (أبو الوفاء): المطالع النصرية ط٢ بولاق المطبعة الأميرية ١٣٠٢ هـ ص ١٣. وقد ذكر ابن سعد أسماء كثير منهم عند ذكره لنصوص الكتب خاصة في الجزء الأول من الطبقات الكبرى. كذلك وردت أسماء كثير منهم في مجموعة الدكتور محمد حميد الله.

(٧) ابن سعد ج ٣ ص ٣٥٨. وابن قتيبة: المعارف ص ١٢٤ وابن أبي داود ص ٣.

(٨) ابن سعد ج ١ ص ٢٥٨، والصولي ص ١٣٩.

(٩) ناصر النقشبندي: منشأ الخط العربي ص ١٣٥.

(١٠) - Abbott, P.13.

(١١) محمد حميد الله ص (ي) من المقدمة.

عائلة من كتب إليه^(١٢)، ويذكر ابن النديم أنه رأى عند رجل يقال له محمد بن الحسين من أهل مدينة الحديثة، كان جماعة للكتب - قمطراً كبيراً فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود وصكاك وقرطاس ورق وورق، فيها خطوط قديمة في موضوعات شتى، كان من جملتها خطوط لبعض كتّاب النبي - صلى الله عليه وسلم - والصحابة^(١٣).

ويبدو أن عامل التلف الذي أصاب تلك الوثائق هو الأهم في تعليل تلك الندرة - خاصة - إذا تذكرنا المواد التي كانت تستخدم في الكتابة من الجلود وجريد النخل واللخاف والعظام والقراطيس والرق. وهناك عامل آخر ساعد على اندثار كثير مما كتب على الصخور - إضافة إلى عامل المناخ - وهو إعادة استخدام قطع الآثار القديمة في بناء جديد منقوشة كانت أو غير منقوشة، بطريقة غير منظمة^(١٤).

ولا يعني ذلك أن أمل الباحثين قد انقطع في اكتشاف كتابات عربية جديدة تعود إلى الجاهلية أو صدر الإسلام، فلقد تحدث كثير من الباحثين عن نقوش عربية شاهدوها في جبال الحجاز^(١٥)، وأطراف الجزيرة العربية^(١٦)، تنتظر من يقوم بدراستها ونشرها^(١٧).

(١٢) نفس المصدر ص (يا)

(١٣) الفهرست (ص ٤٠-٤١).

(١٤) - Abbott, P.13.

وحد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة ط١. الرياض. دار اليمامة ١٩٧٠ ص ٥٥
(١٥) انظر M.Hamidullah: Some Arabic Inscription of Medinah of the Early year of Hijrah, Islamic culture Vol.13, N.4. October 1939, p.427.

وأيضاً محمد طاهر الكردي: تاريخ الخط ص ٢٠٦ وتاريخ القرآن وغرائب رسمه
وحكمه. له. ط١ جدة ١٩٤٦ ص ١٣٠ ود. زاكية محمد رشدي ق٢ مج ٢٩ ص ٣١.

(١٦) انظر حمد الجاسر: ص ٦١

(١٧) د. جواد علي: السيرة النبوية ص ١٦.

وسوف يكون اعتمادنا في استخلاص خصائص الكتابة النبطية على مجموعة النقوش التي قامت عليها دراسة الاستاذ خليل مجيى نامي لتطور الكتابة النبطية الى العربية، فإنها أهم مجموعة متيسرة في ذلك، وقد درس ثلاثة وعشرين نقشاً نبطياً، آخرها نقش النارة، يمتد تاريخها من نهاية القرن الأول قبل الميلاد حتى سنة (٣٢٨م)، وهو تاريخ نقش النارة.

وقد مر في المبحث السابق ذكر النقوش العربية الخمسة التي تعود إلى عهد ما قبل الاسلام، وأوضح تلك النقوش عربية هو نقش حران، (تاريخه ٥٦٨م). أما نقش أم الجبال الأول (تاريخه نحو ٢٥٠م) فإنه كتب بالنبطية، رغم أن صاحبه كان عربياً، وهو يشير إلى أن العرب قد أخذوا يستخدمون الكتابة النبطية، بينما نجد نقش النارة يحمل خصائص الكتابتين العربية والنبطية. ونقش زبد (تاريخه ٥١٢م) أقرب إلى العربية، رغم احتفاظه ببعض بقايا من خصائص الكتابة النبطية. وآخر هذه النقوش هو نقش أم الجبال الثاني، ورغم أنه يعد أحدث تلك النقوش تاريخياً إذ يعود تاريخه إلى أواخر القرن السادس الميلادي فإن قراءته لا تزال موضع خلاف، إضافة إلى أنه ناقص من أحد أطرافه^(١٨).

أما الكتابات العربية التي يعود تاريخها إلى القرن الأول الهجري فقد ذكر الباحثون أن هناك قريباً من عشرين نصاً كتابياً بين منقوش ومخطوط^(١٩)، لكن المتيسر منها للدراسة عدد محدود^(٢٠). وأكثرها يرجع إلى النصف الثاني منه، ونحن لن نتجاوز عهد خلافة عثمان - رضي الله عنه - في دراستنا لخصائص

(١٨) انظر في قراءته وتاريخ اكتشافه: ناصر النقشبندي: منشأ الخط العربي: ص ١٣٣ ود. زاكية محمد رشدي مج ٢٩ ص ٣٩. ود. رمضان عبد التواب ص ٤٣.

(١٩) انظر حسن محمد الهواري: أقدم أثر اسلامي. مقال في مجلة الهلال الجزء العاشر - ١٩٣٠ (ص ١١٨١-١١٨٣) ود. زاكية محمد رشدي مج ٢٩ (ص ٤٠-٥٦) و Abbott, p.15.

(٢٠) د. ابراهيم جمعة: دراسة في تطور الكتابات الكوفية. القاهرة. دار الفكر العربي، ١٩٦٩ ص ١٢٧.

الكتابة العربية هنا . ولعل أهم نص كتابي متيسر من تلك الفترة هو نقش القاهرة المؤرخ في سنة ٣١ هجرية ، وهو شاهد قبر لرجل يدعى عبد الرحمن بن خير ، عثر عليه حسن محمد الهواري سنة ١٩٢٩م في مجموعة من شواهد القبور جلبت من أقدم المقابر الاسلامية في القاهرة وأسوان ، وحفظت في دار الآثار العربية بصر ، ومقاسه (٧١×٣٨سم) (٢١).

ونقش القاهرة هو النقش الوحيد من هذه الفترة الذي لا يتطرق شك إلى تاريخه ، ووضوح قراءته ، وقد عثر الدكتور محمد حميد الله على عدة نقوش على قمة الطرف الجنوبي لجبل سلع قرب المدينة المنورة ، وقدم دراسة عن تلك النقوش في المقالة المشار إليها قبل قليل ، وهي سبعة نقوش ، بعضها يقدم جملاً تامة وبعضها لا يعدو كونه أسماء تذكر متتالية على صيغة (أنا فلان بن فلان) ، ويتردد أسم أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - في أكثر من نقش منها ، أنظر مثلاً هذا النص (٢٢):

- ١ - أسمى وأصبح عمر .
- ٢ - وأبو بكر يتودعان (يتوبان؟ يتضرعان).
- ٣ - إلى الله من كل .
- ٤ - ما يكره .

ويرجح الدكتور محمد حميد الله أن أكثر هذه النقوش يعود إلى السنة الخامسة من الهجرة ، وبالتحديد غزوة الخندق .

(٢١) انظر حسن محمد الهواري: ص ١١٧٩ واسرائيل ولفنسون ص ٢٠٢ ، ود . جواد علي ج ٧ ص ٣٤٥ . وصورته منشورة في مجلة الهلال ج ١٠ ص ١١٧٩ واسرائيل ولفنسون ص ٢٠٣ . وخليل يحيى نامي لوحة ٧ وناصر الدين الأسد ص ٣٠ و -
Abbott, P I.II.

(٢٢) صور هذه النقوش منشورة في مقال الدكتور محمد حميد الله المشار اليه وانظر أيضاً: ناصر النقشبندي: منشأ الخط العربي (ص ١٣٧-١٣٨) وسهيلة الجبوري: الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق . بغداد . المكتبة الأهلية ١٩٦٢ ص ٣٢ .

ومما يشار إليه هنا أن السيد عبد العزيز الدالي قدم بحثاً لنيل الدكتوراه من كلية الآداب في جامعة القاهرة عن (البرديات العربية في مصر: دراسة لغوية) وكان اعتاده على المجموعة التي نشرها جروهان والمحفوظة في دار الكتب المصرية، ويمتد تاريخ البرديات التي تناولها بالدراسة من القرن الأول حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ومعظم برديات القرن الأول تعود إلى السنوات العشر الأخيرة منه، وهي من هذه الناحية ليست ذات فائدة - هنا - إلا ما يمكن ملاحظته من احتفاظ بعض الكلمات في برديات القرن الأول بظواهر كتابية جاءت في الرسم العثماني، وزالت من الاستخدام، مثل كتابة كلمة (شيء) بألف بين الشين والياء هكذا (شاي)، وإثبات الألف بعد واو الفعل مما عده الباحث خطأ من الكاتب، وسيأتي هذا في مكانه لاحقاً^(٢٣).

وهناك بردية يعود تاريخها إلى سنة ٢٢ من الهجرة - على الأرجح - كتبت بالعربية واليونانية، وهي وصل باستلام أغنام، وإذا كان هذا التاريخ صحيحاً - ذلك أن بعد كلمة إثنتين وعشرين في البردية كلمة أو كلمتين قد طمستا - فإن هذه البردية تعد وثيقة خطيرة في تاريخ تطور الخط والكتابة العربية، ومما يؤسف له أني لم أجد عنها دراسة وافية، ولا صورة لها واضحة^(٢٤).

وتجب الإشارة - هنا - إلى الكتب التي أرسلها النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الملوك بعد عودته من الحديبية، فقد أرسل إلى كل من قيصر الروم

(٢٣) عبد العزيز الدالي: البرديات العربية في مصر: دراسة لغوية، بدون تاريخ، منه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة (برقم ٥١١).

(٢٤) نشرت صورتها في كتاب السيدة N. Abbott (لوحه ٤) وأشارت إلى أنها برقم ٥٥٨ في مجموعة الأرشيدوق رينر، ونشرها أيضاً ناصر النقشبندي في آخر مقالته عن منشأ الخط العربي، وقدم الدالي قراءة لها (ص ٤٦) تختلف عما أورده النقشبندي، وكتبها بقواعد الإملاء الحديث. وقد قرأ السطر الأخير هكذا (سنة اثنتين وعشرين كتبه ابن حديدة) ولا أدري إن كانت لديه صورة واضحة مكنته من تلك القراءة أم لا، انظر تفصيلاً أكثر عن هذا الموضوع في الفصل الخامس.

هرقل) وكسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك الاسكندرية، والمنذر بن ساوى العبيدي ملك البحرين، وغيرهم - كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام^(٢٥).

وبأيدي الدارسين - الآن - ما يظن أنه أصول لأربعة من تلك الكتب، كتاب النبي إلى المقوقس وقد نشر لأول مرة سنة ١٨٥٤م، ويقال انه محفوظ في أحد متاحف استانبول^(٢٦). والثاني الكتاب المرسل إلى المنذر بن ساوى، وكان قد نشر لأول مرة سنة ١٨٦٣م ويقال انه محفوظ في أحد متاحف فينا^(٢٧). والثالث الكتاب المرسل إلى نجاشي الحبشة، ونشر في سنة ١٩٤٠^(٢٨). وأخيراً الكتاب المرسل إلى هرقل عظيم الروم، حيث نشر حديثاً^(٢٩).

وكان الدكتور محمد حميد الله قد قام بدراسة رسالتي المقوقس والمنذر في مقاله المشار إليه سابقاً، وقد تحدث مفصلاً اعتراضات بعض المستشرقين على صحة هذه الرسائل وأصالتها وفنداها جميعاً، وانتهى إلى أن هذه الاعتراضات لا تثبت أمام البحث العلمي الدقيق، ومع ذلك فهو في بحثه يتوقف توقف العالم المتثبت، فلا يقطع بصحة هذه الأصول بل يكتفي برد تلك الشبهات التي حامت حول صحتها ثم يدعوها تنتظر نفياً أو إثباتاً جديدين^(٣٠). وإذا كان ذاك الكتابان قد حظيا

(٢٥) ابن هشام ق ٢ ص ٦٠٧.

(٢٦) انظر صورة الكتاب وتاريخ العثور عليه وما قامت حوله من دراسات في: مجلة الهلال ج ٢ ص ١٠٣ وج ٣ (ص ٦٠-٦١)، وحسن الهواري ص ١١٨٥ ود. محمد حميد الله ص ٥٠ وناصر النقشبندي، منشأ الخط العربي ص ١٣٥ و
M.Hamidullah, P.430.

(٢٧) انظر د. محمد حميد الله: الوثائق ص ٥٦ ومقالته بالانجليزية ص ٤٣٢ وناصر النقشبندي: منشأ الخط العربي ص ١٣٦.

(٢٨) انظر ناصر النقشبندي ص ١٣٦ ومحمد حميد الله: ص ٢٦.

(٢٩) انظر جريدة الاهرام عدد ١٩٧٤/١٢/٢ و١٩٧٥/٤/٩ ود. محمد حميد الله ص ٢٩.

(٣٠) د. ناصر الدين الأسد ص ٣٣. وانظر. M.Hamidullah, P.434.

بهذه الدراسة فإن الكتابين الآخرين أقل حظاً في ذلك، ولا تزال هذه الرسائل في انتظار دراسة شاملة مشفوعة بخبرة ومعرفة واسعة بنوعية الخطوط في تلك الفترة، إضافة إلى إخضاع الأصول الحقيقية - لا الصور - إلى الاختبار العملي، وهي إمكانيات يعجز هذا البحث عن تحقيق شيء منها^(٣١).

ويقول الدكتور الطاهر أحمد مكي^(٣٢) انه «مها يكن الرأي في أصالتها، فجانب الرسم منها بصور، دون ريب، طريقة كتابة الرسائل في القرن الأول الهجري». لكن إقرار هذه النتيجة يحتاج إلى الدراسة التي أشرنا إليها قبل قليل، وليس من اليسير إعطاء حكم قبل وجود مثل تلك الدراسة، لكننا يمكن أن نشير هنا إشارة عامة إلى جانب من خصائص كتابة تلك الرسائل، وهو طريقة كتابة الفتحة الطويلة (الألف) وسط الكلمات فيها، فبينما نجد الألف مثبتة بطريقة واضحة في كلمة (الكتاب) في رسالة المقوقس وفي كلمتي (ساوى، وأقام) في رسالة المنذر نجد أنها مثبتة بطريقة غريبة في كلمة (سلام) في كلتا الرسالتين، إذ إنها تبدو وكأنها كتبت (سلم) دون ألف، ثم أضيفت الألف بين اللام والميم مع بقاء إرتباط الحرفين. أما رسالة (هرقل) التي نشرت صورتها حديثاً فإنها تتضمن ملامح أكثر تقدماً في رسم الألف، إذ إن الألف مثبتة بصورة إعتيادية في كل الكلمات التي وردت فيها الألف متوسطة (سلام، الاسلام، يا أهل، تعالوا، أرباباً). وهي ظاهرة تثير الانتباه، كذلك الحال بالنسبة لرسالة النجاشي، فكل الكلمات التي فيها ألف متوسطة جاءت مثبتة فيها (سلام، الاسلام، ألقاها، الموالة، طاعته)، ونلاحظ في هذه الرسالة أيضاً حذف همزة الوصل من كلمة (ابن) في (عيسى بن مريم). وتجب الإشارة إلى أن بعض الكلمات في هذه الرسائل مطموسة أو مشوهة بحيث لا تمكن قراءتها.

(٣١) أورد د. المنجد صورة رسالة النبي الى كسرى (عن الأصل المحفوظ في خزانة هنري

فروعون - بيروت) انظر ص ٣٣.

(٣٢) دراسة في مصادر الأدب. ص ٥٣.

ثانياً: خصائص الكتابة العربية قبل الرسم العثماني:

لا يهمننا - هنا - الحديث عن نوع الخط الذي رقت به النقوش والكتابات السابقة للرسم العثماني، وهل كان يغلب عليه التقوير والليونة أو اليبوسة والجفاف، أي هل كان يغلب عليه ما يسمى بالكوفي أو النسخي، أو هو مزيج منها (٣٣) - مع أهمية ذلك في مجال الدراسة الفنية للخط العربي وتاريخ تطوره، التي هي ليست موضوع البحث الآن - بقدر ما يهمننا الحديث عن علاقة الرموز الكتابية بما تمثله من أصوات اللغة، ومدى وفائها في ذلك، وطريقة تتابع تلك الرموز داخل الكلمات وارتباطها فيها.

ويقسم العلماء الأصوات اللغوية - عامة - إلى قسمين رئيسيين (٣٤)، يسمى الأول منها بالأصوات الصامتة (Consonants) والثاني بالحركات (Vowels) (٣٥)،

(٣٣) انظر في ذلك: القلقشندي ج ٣ ص ٥، وحسن الهواري ص ١١٨٨. وبلاشير ج ١ ص ٧٢ ود. الطاهر أحمد مكي (ص ٥٧-٥٩) و N.Abbott, P.16 و Diringer, PP.212-213

(٣٤) ان استخدام مصطلحين محددتي الدلالة لما يقابل المصطلح الغربي (Consonant) والمصطلح (Vowel) بالمفهوم الحديث لها عند علماء الأصوات من بين الصعوبات البارزة التي تواجه الباحث العربي في هذا المجال، ولسنا بصدد تتبع ما استعمله القدماء من تعبيرات ولا ما استخدم علماء العربية المحدثون مقابلاً لها في مجوهم (انظر في ذلك: الدكتور محمود السمران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: دار المعارف بمصر ١٩٦٢ (ص ٢٦-٣٢). والدكتور عبد الصبور شاهين: مقدمة كتاب (العربية الفصحى) بيروت. المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٦- (ص ١٧-٢٠)، والدكتور كمال محمد بشر: علم اللغة العام: الأصوات. القاهرة دار المعارف ١٩٧١ ص ٩١، ودراسات في علم اللغة، له، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٩ ص ١٠ (٥٥-٥٦)، ولكن أشير - هنا - الى اني سأستعمل مصطلح الصوامت (والمفرد صامت) للإشارة الى الأول ومصطلح الحركات: طويلة أم قصيرة (والمفرد حركة) للإشارة الى الثاني، أولاً: لشيوع استخدامها حديثاً وثانياً: لأن مدلولها سيكون محددأ بعيدأ عما يمكن أن يوحي به المصطلح الثاني خاصة عند سلفنا من علماء العربية.

(٣٥) انظر د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ط ٤. القاهرة مكتبة الانجلو المصرية =

ويقوم هذا التقسيم على عدة أسس، أهمها الأساس الفسيولوجي (العضوي)، فالصوت الذي يحدث في تكوينه أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم، دون أن يكون ثمة عائق يعترض مجرى الهواء اعتراضاً تاماً، أو تضيق لمجرى الهواء من شأنه أن يحدث احتكاكاً مسموعاً مع اهتزاز الأوتار الصوتية، يسمى حركة، وهي صوت مجهور دائماً. وأي صوت لا يصدق عليه هذا التعريف يعد صوتاً صامتاً، ويكون إما مجهوراً أو مهموساً^(٣٦). وإلى جانب هذا يقوم ذلك التقسيم على أساس الوضوح السمعي، إذ إن أهم خاصية من خواص الحركات هي قوة وضوحها في السمع^(٣٧). ويقوم على أساس الوظيفة أيضاً^(٣٨). وهو ما يبدو جلياً في وظائف الأصوات الصامتة والحركات في اللغات السامية التي يرتبط المعنى الرئيسي للكلمة فيها بالأصوات الصامتة، أما الحركات فهي لا تعبر في الكلمة إلا عن تحوير هذا المعنى وتعديله^(٣٩). ولا يعني هنا استقصاء المباحث الصوتية واللغوية إلا بالقدر الذي يوضح لنا خصائص الكتابة ومدى وفائها في تمثيل أصوات اللغة.

وقد كان نظام الكتابة الفينيقية يتكون من إثنين وعشرين رمزاً، تكتب منفصلة وكانت هذه الرموز تشير إلى الأصوات الصامتة حسب، دون الإشارة إلى أي صوت حركي قصير أو طويل^(٤٠). واستخدمت الكتابة الفينيقية لتمثيل اللغة الآرامية، وبمرور الزمن ظهرت الحاجة إلى تمثيل الحركات، وتمكن نساخ

= ١٩٧١ ص ٢٦ ود. محمود السمران ص ١٦ ود. كمال محمد بشر: الأصوات ص ٩١.

(٣٦) د. محمود السمران ص ١٦.

(٣٧) د. كمال محمد بشر: الأصوات ص ٩٢.

(٣٨) انظر د. تام حسان: مناهج البحث في اللغة، القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٥ ص ١١٣ ود. كمال محمد بشر: الأصوات ص ٩٢.

(٣٩) انظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث. دار القلم ١٩٦٦ ص ٤٣ ود. رمضان عبد التواب ص ١٣ ود. جواد علي ج ٧ ص ٢٩.

(٤٠) انظر Beeston, P.24, Morag, P.9, Moscati, P18.

الآرامية في القرن التاسع^(٤١)، أو الثامن^(٤٢)، قبل الميلاد من استخدام رمزي الواو والياء الصامتين (أو أنصاف الحركات) لتمثيل الضمة الطويلة والكسرة الطويلة على التوالي، وتطورت الكتابة الآرامية خلال عدة قرون دون أن تخضع خطوة في سبيل تمثيل الحركات الأخرى.

وعندما استخدم النبط الكتابة الآرامية ورثوا ذلك النظام الصامتي مع الإشارة إلى الحركتين الطويلتين: الضمة والكسرة بواسطة رمزي الواو والياء الصامتين، والنقوش النبطية من أقدمها المؤرخ قبل الميلاد إلى أحدثها وهو نقش النارة تشير إلى هذه الظاهرة. ففي نقش مؤرخ في سنة (٩ ق.م) وردت الكلمات الآتية^(٤٣): أبو هي (أبوها)، بيرح (بمعنى شهر)، أول (أيلول)، مقيم (مقيم). وفي نقش مؤرخ بسنة ٧٦م وردت^(٤٤): يتقبرون سيرون (سيروان: إسم شهر)، وكلمة (أربعين) في نقش مؤرخ بسنة ١٥٠م^(٤٥). ووردت كلمة (يعلى) في نقش مؤرخ بسنة ٢١٠م^(٤٦). و(منوتو، بيرح، تموز) في نقش مؤرخ بسنة ٢٦٧م^(٤٧)، و(جديمت، تنوخ) في نقش مؤرخ بسنة ٢٧٠م^(٤٨). وهو نقش أم الجبال الأول. ونجد في نقش النارة (٣٢٨م) الكلمات التالية (ملوكهم، مدينة، بنيه، الشعوب، روم)، وهذه الكلمات كلها تشير إلى استخدام رمزي الواو والياء الصامتين للدلالة على الضمة والكسرة الطويلتين - إن صحت قراءة تلك الكلمات على

- Morag, P.9. (٤١)

- Beeston, P.24. (٤٢)

(٤٣) خليل مجي نامي نقش رقم ٤ ص ٣٦.

(٤٤) نفس المصدر نقش رقم ٩ ص ٤١.

(٤٥) نفس المصدر نقش رقم ١٤ ص ٤٥.

(٤٦) نفس المصدر نقش رقم ١٦ ص ٦٦.

(٤٧) نفس المصدر نقش ١٩ ص ٦٧.

(٤٨) نفس المصدر نقش ٢٠ ص ٦٩.

الوجه المتمثل به - ، كذلك نجد الشيء نفسه في النقوش العربية، ففي نقش حران (٥٦٨م) نجد (شرحيل) (شراحيل) و(المرطول)، وفي نقش القاهرة ٣١ هـ (الرحيم، أمين، ثلثين) وهذا الأمر في الكتابة العربية لا يحتاج إلى مزيد أمثلة.

وهكذا ورثت الكتابة العربية ما ورثته الكتابة النبطية عن الآرامية من الإشارة إلى الضمة والكسرة الطويلتين برمزي الواو والياء الصامتتين^(٤٩).

أما رمز الفتحة الطويلة فإن الكتابة الآرامية لم توفق في الإشارة إليه، كما أشارت إلى الضمة والكسرة الطويلتين، لكن الكتابة النبطية يبدو أنها استطاعت أن تستخدم رمز الألف أول أحرف الأبجدية (الهزمة، الصوت الصامت) للدلالة على الفتحة الطويلة في آخر الكلمات دون وسطها^(٥٠). لكن بعض الباحثين ينسب هذا التطور الأخير إلى الكتابة العربية^(٥١)، فمن الكلمات النبطية التي لم يشر فيها إلى الألف: بنه (بناه)، حرثت (حارثة)، ملكو (مالك)، سلم (سلام). وفي نقش الفارة: التج (التاج)، نزر و (نزار)، نجرن (نجران)، فرسو (فارس). وفي نقش حران شرحيل (شراحيل)، ظلمو (ظالم)، بعم (بعام). وفي نقش القاهرة: الرحمن (الرحمان)، هذا (هاذا)، اللهم (اللاه)، الكتب (الكتاب)، جمدي (جمادى)، ثلثين (ثلاثين)، ونجد رمز الفتحة الطويلة ثابتاً في آخر الكلمات في نقش حران الجاهلي: (أنا، ذا). وفي نقش القاهرة: (هذا، إننا، إذا).

وبذلك استطاعت الكتابة العربية - قبل الرسم العثماني - أن تتبنى نظاماً منطقياً لتمثيل الحركات الطويلة الثلاث، باستخدام رموز الصوامت الثلاثة

(٤٩) انظر: جان كاتينو، ص ١٥٠ و ١٤-١٥- Morag.

(٥٠) د. جواد علي ج ٧ ص ٢٩١. وانظر: برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية. القاهرة مطبعة السماع ١٩٢٩ ص ٢٧.

(٥١) خليل مجي نامي. ص ٨٨ وانظر P.15. Morag

و Beeston, P.26

الألف (الهزمة) والواو والياء، لكن بينما استقر نظام الاشارة إلى الضمة والكسرة الطويلتين نجد أن الاشارة إلى الفتحة الطويلة كانت لا تزال غير كاملة، ففي نقش حران والقاهرة استعمل رمز الفتحة الطويلة في آخر الكلمات دون وسطها، لكننا نجد في البردية المشار إليها سابقاً استعمال الفتحة الطويلة وسط الكلمة، في كلمة (شاة)، وفي أحد نقوش جبل سلع نجد في إسم (عمارة) الألف مثبتة، وفي نقش آخر كلمة (يتودعان أو يتوبان) الألف مثبتة، وهي تشير إلى رمز الفتحة الطويلة، مع وجود كلمات في هذه الآثار تشتمل على صوت الفتحة الطويلة لكن دون أن يمثل في وسطها خاصة. وهذه الملاحظة الأخيرة تشير بوضوح إلى أن استخدام الألف للاشارة إلى الفتحة الطويلة في وسط الكلمات لا يزال غير مستقر، بل هو يستعمل بين الحين والآخر. وهي ملاحظة يمكن أن تفسر لنا بسهولة الاشارة إلى الفتحة الطويلة في الرسم العثماني حيناً وعدم إثباتها حيناً آخر، عكس الضمة والكسرة الطويلتين فهما يشار إليها باطراد، وسيأتي بيان ذلك مفصلاً في مكانه إن شاء الله.

ولا تُظهر النقوش النبطية ولا الكتابات العربية التي ترجع إلى الفترة السابقة للرسم العثماني أي رمز للاشارة إلى الحركات القصيرة، واكتفت بالاشارة إلى الحركات الطويلة، على ما بيناه قبل قليل. وهذه الظاهرة تجعل من العسير الوصول إلى القراءة الصحيحة لتلك النقوش.

وهنا يرد سؤال هام، وهو كيف استطاعت الكتابة النبطية تطوير الكتابة الآرامية ذات الرموز الاثني والعشرين للتعبير عن اللغة العربية ذات الثمانية والعشرين صوتاً صامتاً، يقول الدكتور جواد علي^(٥٢): «ونجد العربية ذات حروف يزيد عددها على حروف اللغات السامية الاخرى، ولعل اللغات الاخرى كانت تملك حروفاً أخرى، ثم قل استعمالها، فزالت من أجدديتها ولم تبق لها حاجة بها». وهذا الفرض لا يفيدنا في الاجابة عن ذلك السؤال، ومهما يكن من

(٥٢) د. جواد علي ج ٧ (ص ٣٣-٣٤).

شيء فإن الكتابة النبطية المتأخرة كانت - على ما يبدو - تمتلك حروفاً توازي حروف العربية^(٥٣).

ويتعلق بالسؤال السابق ظاهرة اشتراك أكثر من صوت صامت برمز كتابي واحد، سواء في الكتابة النبطية أو العربية، خاصة إذا تذكرنا أن النقوش لا ترينا أي إشارة للتمييز بين تلك الأشكال المتفقة، وهكذا كان حال الكتابة العربية حتى ما بعد الرسم العثماني بفترة، ويبدو أن هذه الظاهرة مرتبطة بظاهرة أخرى وهي اتصال الحروف مع بعضها في داخل الكلمات، ففي النقوش النبطية القديمة تبدو الحروف مستقلة بعضها عن بعض، لكن في القرن الأول الميلادي تأخذ الأربطة بين الحروف في الزيادة والاطراد، حتى تشمل أكثر الكلمات المكونة من حرفين، كما تشمل الكلمات الكثيرة التداول المكونة من ثلاثة حروف فأكثر، وتنمو الأربطة وتترعرع في القرنين الثاني والثالث حتى نراها في القرن الرابع قد شملت جميع حروف الكلمة تقريباً، وألفت كل منها وحدة مستقلة بحروفها. ولكن بعض الحروف لم تخضع لهذه الأربطة، وظلت كذلك لا ترتبط بما بعدها. وورثت الكتابة العربية هذه الظاهرة في تلك الحروف وهي الألف والواو والذال والذال والراء والزاي^(٥٤).

وقد كانت لهذا الاتجاه نتيجتان^(٥٥):

- ١ - أن حروفاً معينة أصبحت لها أشكال في آخر الكلمة تختلف عنها حين تكون في مكان آخر من الكلمة.
- ٢ - بدأت حروف معينة تفقد أشكالها الخطية المتميزة، وأخذت تختلط بحروف أخرى، حتى صعب التمييز بينها، ولم تبذل أية محاولة لتجنب هذا الخلط إلا في وقت متأخر.

(٥٣) انظر خليل مجي نامي ص ٨٧.

(٥٤) انظر: خليل مجي نامي (ص ٨٥-٨٦).

(٥٥) انظر: Beeston, P.25.

فكان اشتراك أكثر من صوت في رمز كتابي واحد والذي ورثته الكتابة العربية عن النبطية هو نتيجة لظاهرة إرتباط الحروف داخل الكلمات التي استجدت على الكتابة النبطية في القرون الأولى بعد الميلاد.

والكتابة العربية كانت - قبل الرسم العثماني - تكتب الصوت المكرر الذي لا يفصل بين الأول والثاني منها حركة، وهو ما يسميه علماء العربية بالمدغم برمز واحد، وكذلك يبدو الأمر في الكتابة النبطية، ومعظم نظم الكتابات السامية، وربما كان ذلك ذا مغزى نطقي^(٥٦).

واتجاه يد الكاتب في الكتابة العربية يبدأ من اليمين إلى الشمال مثل عامة الكتابات السامية الأخرى^(٥٧).

وتشير النقوش العربية الجاهلية ونقوش الفترة الإسلامية إلى بعض الظواهر الكتابية الملفتة للنظر، ففي نقش حران نجد أن كلمة (ظلمو) (ظالم) منتهية بواو، تبدو زائدة على أصوات الكلمة، لكنها تشير إلى خاصة كتابية كانت شائعة في الكتابة النبطية، وهي إلحاق الواو بأسماء الأعلام، مثل: مقيمو، نبطو، كهيلو، عيدو (عائد)، منوتو (مناة)، غوثو (غوث). ونجد في نقش النارة الأسماء الآتية (عمرو، نزرو، مذحجو، شمرو، معدو، فرسو)^(٥٨)، وهذه الظاهرة تفسر لنا بوضوح سر زيادة الواو في نهاية الاسم (عمرو) في الكتابة العربية، والتي ذهب علماء العربية فيها مذهباً بعيداً عن الإحساس بالبعد التاريخي للكتابة أو اللغة.

ونجد في نقش القاهرة كلمة (سنت) قد كتبت بالتاء المبسوطة، لكن نفس النقش يقدم لنا كلمة (رحمة) مكتوبة برمز الهاء المربوطة. ونجد تفسير هذه الظاهرة في النقوش النبطية، إذ إن أقدم النقوش النبطية تظهر فيها تاء التأنيث

- Moscati, P.20. (٥٦)

- Diringer, P.213. (٥٧)

(٥٨) انظر قاعدة زيادة هذه الواو في الكتابة النبطية د. جواد علي ج ٣ ص ٢٩٩.

في آخر الأسماء مكتوبة بالتاء ، مثل: سنت ، حرثت (حارثة) ، جذيمت . فظاهرة كتابة تاء التأنيث بهذه الطريقة ذات أصول نبطية .

ومن هذا العرض الموجز يظهر لنا ارتباط الكتابة العربية الوثيق في خصائصها بمجموعة الكتابات السامية بواسطة الكتابة النبطية .

ولا شك أن النقوش العربية التي بأيدي الباحثين من فترة ما قبل الرسم العثماني لا تتيح معرفة واسعة بخصائص الكتابة العربية آنذاك ، إذ إنها جميعاً لا تساوي ما تقدمه أقصر سورة في المصحف الشريف . وستتضح لنا هذه الخصائص بصورة أكثر جلاء عندما ندرسها على ضوء ما يقدم الرسم العثماني من أمثلة ، وحين ندرس الرسم العثماني على ضوء ما تقدم هي من فهم لتلك الأمثلة ، بالإضافة إلى جوانب أخرى من الكتابة العربية في هذه الفترة لم تستطع النقوش أن تقدم بياناً واضحاً لها ، ولم تستطع النقوش النبطية أن تسعفنا بشيء في هذا الصدد خاصة في رمز (الألف) الذي يبدو في الكتابة النبطية - غالباً - يمثل (الهمزة) وأحياناً الفتحة الطويلة ، لكن الهمزة وطريقة كتابتها في النقوش العربية غير واضحة ، وسنشير إلى شيء مما يتعلق بهذا حين ندرس رمز الهمزة في الرسم العثماني .



المبحث الثالث

المبادئ التي تقوم عليها الكتابة

أولاً: موقف المحدثين:

من المسلم به - بصورة عامة - أن الكتابة بدأت تصويرية منذ أقدم العصور، فالصورة ترمز إلى الشيء الذي تمثله فحسب، ثم تطورت لترمز إلى المعاني غير الحسية، ومرت فترة طويلة حتى استطاع الانسان أن يتحرر من ذلك النظام الكتابي الذي يتطلب معرفة مئات الصور، بقدر ما في اللغة من كلمات، ليستخدم نظاماً أكثر بساطة يتكون من عدد محدود من الرموز، يمثل كل رمز وحدة صوتية معينة من أصوات اللغة، فالكلمة تمثل في هذا النظام بمجموعة رموز الأصوات التي تتألف منها، لا بواسطة صورة معينة، ويمكن بواسطة هذا النظام كتابة عدد غير محدود من الكلمات باستعمال ذلك العدد المحدود من الرموز. ويعرف النظام الأول بالنظام التصويري، ويعرف الثاني بالنظام الأبجدي^(١) أو الهجائي.

إن نظام الكتابة الأبجدي يكون عند اختراعه أو استعماله لأول مرة في كتابة لغة ما دقيقاً وممثلاً لأصوات اللغة قدر المستطاع، وخالياً من الغموض والتقصير، ولكنه - بمرور الزمن - لا يحافظ على هذه الصفات، فاللغة تتغير،

(١) وربما يطلق على الأول النظام المورفيمي (Morphemic writing system)

وعلى الثاني النظام الفونيمي (Phonemic writing system)

انظر: Hockett, P.539.

ولكن الناس أكثر محافظة في الكتابة، فيقصر نظام الكتابة عن خطى اللغة المتغيرة، وفي النهاية تتكون إنحرافات وتعقيدات كتابية من نوع تلك التي نجدتها في الأبجديات المعاصرة^(٢).

والكتابة الهجائية المستعملة حالياً في كثير من اللغات لا تمثل أصوات تلك اللغات بشكل دقيق^(٣). ذلك لأن اللغة المنطوقة من التعقيد بحيث تشمل على أكداس من تفاصيل الشدة والتنغيم والنطق الفجائي، مما لا يستطيع نظام كتابي تصويرها مهما بلغ من درجات الكمال. وهناك صعوبة ثانية ترجع إلى أن النظام الأبجدي يصاب بالقصور بمرور الزمن، وبسرعة تختلف باختلاف اللغات، إذ إن السبب الأساسي لأزمات الكتابة ينحصر في استحالة مسايرة الكتابة لحركة اللغة^(٤).

ويظهر قصور الكتابة الأبجدية في صور متعددة لعل من أهمها^(٥):

١ - عدم قدرة الكتابة على تمثيل النطق تمثيلاً صادقاً، فقد توجد في الكتابة رموز لأصوات معينة لكنها تنطق بطريقة أخرى غير التي تشير إليها الرموز المكتوبة، وأمثلة هذه الحالة كثيرة. وتقدم الكتابة الإنجليزية أمثلة عدة لعل أسوأها الصوت /S/ ورمزه الكتابي، فالرمز /S/ يمثل /S/ في Sing (يعني)، و /Z/ في Rose (وردة) و /Ṣ/ في Sugar (سكر)، كذلك يمكن تمثيل الصوت /S/ أيضاً بواسطة /C/ في Rice (رز)، و /SS/ في

(٢) د. كمال محمد بشر: الأصوات، ص ٢٣٥ وانظر Hockett, P.545 -

(٣) د. خليل إبراهيم الحماش: دراسة مقارنة للنواحي الصوتية في كتاب العين والنظرية الحديثة في علم الصوت. مقال في مجلة كلية الآداب في جامعة بغداد ١٩٧٣ ج ١٦ ص ٤٩٩. وانظر: د. السمران ص ١٢٤. و Hockett, P.546 -

(٤) فندريس: اللغة (مترجم) القاهرة. مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٠. ص (٤٠٧-٤٠٨).

(٥) انظر د. كمال محمد بشر: الأصوات (ص ٢٣٥-٢٣٦) ود. علي عبد الواحد وافي:

علم اللغة ٢٤٨ وما بعدها و Hockett, PP.540-542 -

Fuss (هـرج)، و /SC/ في Crescent (هلال)، و /Sch/ في Schism (إنشقاق).

وهناك أمثلة محدودة لهذه الحالة في الكتابة العربية، تتمثل في كتابة الألف ياء في بعض الكلمات، مثل (على، رمى، مسعى، مصطفى...)، كذلك كتابة الألف واواً في كلمات معدودة وردت في رسم المصحف (الصلوة الزكوة...)، وربما يندرج تحت هذه الظاهرة رسم الهمزة واواً مرة وياء أخرى.

٢ - وجود رموز في الكتابة دون وجود مقابل صوتي لها في الكلام المنطوق، والانجليزية مملوءة بأمثلة هذا النوع، كما في نحو Psychology (علم النفس) و talk (يتكلم)، و knight (فارس)، و Unique (فريد)، فالكلمة الأولى تشتمل على رمز /P/ دون مقابل صوتي له في النطق، وتحتوي الثانية رمز /L/، والثالثة رمز /K/، على حين لا يوجد مقابل صوتي لأي من هذين الرمزتين في الكلمتين. أما الكلمة الرابعة فتنتهي بالرمزين /Ue/ بالرغم من أن الكلمة تنتهي صوتياً بصوت /K/ (المصور بالرمز q).

وهناك من هذا النوع أمثلة قليلة جداً في الكتابة العربية، كالألف في (مائة) والألف التي تأتي بعد واو الجمع في آخر الكلمة، نحو (رموا)، والواو في (عمرو، أولئك)، والياء في (بأييد، بأيية)، وسيأتي تفصيل ذلك.

٣ - وعامة الكتابات الأبجدية تهمل كثيراً من تفاصيل النطق من الشدة والتنغيم وغيرها، كذلك نجد الكتابات السامية القديمة قد أهملت تمثيل الحركات، قصيرة كانت أم طويلة، مما تلافته بمرور الزمن بنظم تكميلية، ولا نزال نجد بقايا ذلك في كتابتنا في كلمات معدودة مثل (هذا، هذه، ذلك، لكن...).

ولا يعني اقتصرنا في الأمثلة على الكتابتين العربية والانجليزية ان بقية الكتابات خالية من هذه النواقص، فقد أشرنا - قبل قليل - إلى أن

عامة الكتابات الأبجدية تعاني من ذلك، وخذ مثلاً وصف اللغوي الفرنسي
فندريس لرسم اللغة الفرنسية بأنه سيء^(٦).

ولا شك في أن معظم هذه الاختلافات بين الكتابة واللغة ترجع إلى
أسباب تاريخية « إذ إن السبب الأساسي لأزمات الرسم ينحصر في استحالة
مسايرة الرسم لحركة اللغة »^(٧).

ومن هنا فقد لاحظ العلماء أن كتابة كلمات أي لغة لا تقوم على أساس
نطقها فحسب، بل إن هناك مبادئ عدة تساهم إلى جانب ذلك في إعطاء
الكلمات صورتها، وأهم هذه المبادئ^(٨):

١ - المبدأ الصوتي The Phonetic Principle

فهجاء بعض الكلمات سهل في الكتابة، لأنه لا يختلف عن نطقها، إذ إنها
تكتب مثلاً تنطق، وهذا مبدأ أساسي وشائع في الكتابة العربية وغيرها من
الكتابات الأبجدية.

٢ - المبدأ الاشتقاقي The Etymological (morphological) Principle

وبجانب الكلمات التي تكتب وفقاً لنطقها هناك الكثير من الكلمات التي
يختلف هجاؤها عن نطقها، إذ تعتمد كتابتها على المبدأ الاشتقاقي الذي في ظله
تحتفظ الكلمات بروابط إشتقاقية، ففي الإنجليزية - مثلاً - يتكون الماضي

(٦) اللغة: ص ٤٠٩.

(٧) اللغة: ص ٤٠٨.

(٨) Berezin; PP.141-142.

وانظر: د. تام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٣ ص ٣٢٦. ود. عبد الرحمن أيوب: العربية ولهجاتها، معهد البحوث
والدراسات العربية ١٩٦٨ (ص ٦-٧).

القياسي للأفعال بإضافة اللاحقة (ed) مع أنها تنطق (t) مهموسة بعد الصوامت المهموسة، مثل Looked و Stopped، رغم انها في الكتابة (d) مجهورة. وهذا المبدأ واسع الاستخدام في كل الكتابات، ويمكن أن تدخل في ظل هذا المبدأ ظاهرة تأثير الأصوات حين توجد في سياق معين في اللغة العربية، وهو ما يسمى بالإدغام، إذ إنها - في الغالب - تكتب حسب أصلها دون مراعاة لما طرأ عليها من تغير في النطق.

٣ - المبدأ التاريخي The Historical Principle

هناك عدة كلمات لا يمكن فهم هجائها إلا بالرجوع إلى تاريخ اللغة الذي يوضح لنا أصل ذلك الهجاء، وتقدم الكتابة الانجليزية وغيرها من الكتابات الأوروبية بضعة أمثلة لهذا النوع من الكلمات مثل الكلمة الانجليزية night فإنها تلفظ /nait/.

وفي الكتابة العربية هناك بعض الكلمات التي لا يمكن فهم هجائها إلا في ضوء هذا المبدأ. وسيأتي بيان ذلك.

٤ - المبدأ التمييزي The Hieroglyphic Principle

وهذا المبدأ يوضح أن هجاء بعض الكلمات التي تتفق في النطق وتختلف في المعنى قد يميز بينها في الكتابة، مثال ذلك في الانجليزية See و sea ، Site و Sight ، meet و meat و mete. وقد أشار علماء العربية إلى عدة كلمات تتفق في الهجاء لا في اللفظ، وخولف في هجائها بزيادة حرف ليس له مقابل صوتي في نطقها للفرق. وسيتضح أن في ما ذهبوا إليه نظراً.

ورغم أن المبدأ الصوتي كان الأساس الأول الذي قامت عليه الكتابات الأبجدية في بادئ أمرها، إلا أنه لا يمكن القول - الآن - ان كتابة لغة ما تعتمد على مبدأ معين من تلك المبادئ، ففي كتابة أية لغة هناك مزيج من هذه المبادئ وبدرجات متفاوتة.

ثانياً: موقف علماء السلف:

وتجدر الإشارة هنا - إلى أن علماء الرسم والعربية قد أحسوا بالاختلاف الظاهر بين هجاء الكلمات ونطقها، وعرفوا بعض أسباب ذلك، يقول ابن درستويه^(٩): «إعلم أن الكتاب ربما يكتبون الكلمة على لفظها، وعلى معناها، ويجذفون منها ما هو فيها، ويثبتون فيها ما ليس منها، ويبدلون الحرف، ويصلون الكلمة بأخرى لا تتصل بها، ويفصلون بين أمثالها، ويختزلون عامة صور الحروف إكتفاء بالطائفة منها، ولا ينقطون ولا يشكلون إلا ما التبس، ويجاولون بكل ذلك ضرباً من القياس». ويقول ابن المنادي (أبو الحسين أحمد بن جعفر البغدادي ت سنة ٣٣٦هـ)^(١٠): «إن من المكتوب ما لا تجوز به القراءة من وجه الإعراب، وإن حكمه أن يترك على ما خط، ويطلق للقارئ أن يقرأوا بغير الذي يرونه مرسوماً». وربما كان هذا الاحساس بالاختلاف هو الذي دفع ابن جني إلى القول إن «الخط ليس له تعلق بالفصحاء ولا عنهم يؤخذ»^(١١).

ورغم أنهم لم يتمكنوا من إدراك أثر العامل التاريخي في كثير من صور هجاء الكلمات التي فيها زيادة حرف أو نقصه، مما أوقعهم في كثير من الخلط، فإنهم تحدثوا كثيراً عن المبدأ الصوتي الذي يعبرون عنه بكلمة (اللفظ)، حتى عدّوه الأساس الأول الذي تقوم عليه الكتابة، وتحدثوا - أيضاً - عن مبدأ التمييز أو الفرق حتى حملوا عليه أكثر صور الهجاء التي تبدو فيها زيادة بعض الحروف.

فالأصل في كل كلمة أن تكتب بصورة لفظها، بتقدير الابتداء بها والوقف

(٩) كتاب الكتاب: ص ٥ وانظر القلقشندي ج ٣ ص ١٧٣.

(١٠) انظر الداني: المحكم ص ١٨٥.

(١١) ابن جني: سر صناعة الاعراب. (القسم المخطوط). (رقم ١٢٠ لغة) في دار الكتب المصرية ورقة ٢٤٠ ب.

عليها^(١٣). فاللفظ هو الأصل^(١٣)، لأنه أسبق مرتبة من الخط، فيه بديء ثم حمل الخط عليه^(١٤)، ويلاحظ أنهم ينصون على أن هجاء الكلمة يقوم على تقدير الابتداء بها والوقف عليها، ولا تُحمل على ما قبلها ولا ما بعدها^(١٥)، وهي ملاحظة صائبة - إلى حد ما - إذ إنها تفسر لنا إثبات همزة الوصل، وكتابة التنوين ألفاً، وربما تفسر لنا كتابة تاء التانيث في آخر الأسماء المؤنثة هاء^(١٦). إلا أن هذه القاعدة ليست مطردة، خاصة في رسم المصحف ذلك أن علماء القراءات والرسم قد لاحظوا في كثير من الكلمات أنها رسمت على وصل الكلام، يقول أبو عمرو الداني^(١٧): «... وذلك من حيث عاملوا في كثير من الكتابة اللفظ والوصل، دون الأصل والقطع» ويقول أيضاً^(١٨): «والمذهبان قد يستعملان في الرسم، دلالة على جوازها فيه». وفي ضوء هذه الملاحظة يمكن تفسير كثير من صور الرسم العثماني مما سيأتي مفصلاً في مكانه إن شاء الله.

(١٢) الاسترابادي (محمد بن الحسن): شرح الشافية، دار الطباعة العامرة، ص ٣٨٣. وانظر: ابن مالك (محمد بن عبد الله): تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ص ٣٣٢ والسيوطي: رسالة في علم الخط (الرسالة الخامسة في التحفة البهية) قسطنطينية. مطبعة الجوائب ١٣٠٢ هـ ص ٥٤ والاتقان له ج ٤ ص ١٤٦.

(١٣) ابن جنّي: سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٥٠.

(١٤) المصدر السابق (المخطوط) ورقة ٢٤١ أ.

(١٥) المصدر السابق (المخطوط) ورقة ١٧٨ ب وانظر: ابن درستويه ص ٩ و ١٣ و ٥٧ والصولي: ص ٢٥٠ و ٢٥٨.

(١٦) انظر. Beeston, P.27.

(١٧) المحكم: ص ١٥٨. وانظر أبو بكر الانباري (محمد بن القاسم بن بشار): ايضاح الوقف والابتداء. دمشق. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١ ج ١ ص ١٤٦. وابن مجاهد (أحمد بن موسى): كتاب السبعة في القراءات، دار المعارف بمصر ١٩٧٢ ص ٤٢٦ و ٤٨٦.

(١٨) المقنع ص ٤٣.

ولما كانت حركات الاعراب لا تبين مع الوقف فقد نصوا على أن « الشكل والنقط إنما وضعا على الوصل »^(١٩).

ولا يقل إدراك علماء الرسم واللغة العربية لمبدأ الفرق عن إدراكهم للمبدأ الصوتي، فحملوا عليه أكثر الكلمات التي في هجائها زيادة حرف، لكن تلك الزيادة كانت « قصداً للتمييز بين المتشابهات في الصورة الخطية »^(٢٠) لا المتشابهة في اللفظ المختلفة في المعنى.

يقول ابن قتيبة^(٢١): « الكتاب يزيدون في كتابة الحرف ما ليس في وزنه، ليفصلوا بالزيادة بينه وبين المشبه له ». ويربط أبو عمرو الداني بين زيادة بعض الحروف في هجاء بعض الكلمات وبين عدم وجود الشكل والنقط في الكتابة العربية قديماً، فيقول^(٢٢): « والعرب لم تكن أهل شكل ونقط، وإنما كانت تفرق بين ما يشبهه ويشكل مما تتفق صورته ويختلف لفظه أو معناه بالحروف، ألا تراهم كتبوا (عمرو) بالواو للفرق بينه وبين (عمر)، وكتبوا (أولئك) و(أولى) بالواو للفرق بينها وبين إليك وإلى، وكتبوا (مائة) بالألف للفرق بينها وبين منه، في نظائر لذلك، وهم مع ذلك لا يلفظون تلك الحروف التي قد أدخلوها للفرق ».

وقد ردد معظم العلماء السالفين هذا المعنى حيث وردت تلك الكلمات وأرادوا الحديث عما فيها من زيادة، فالواو في (عمرو) زائدة للفرق بينه وبين

(١٩) ابن درستويه ص ٥٧.

(٢٠) نصر الهوريبي: ص ١٤٦.

(٢١) ابن قتيبة: أدب الكاتب، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٥٥ هـ ص ٢٢٧ وانظر أيضاً ص ٢٢٩. والزجاجي: الجمل ص ٢٧٢.

(٢٢) الموضح في الفتح والامالة، (مخطوط). مكتبة الجامع الأزهر: قراءات (١٠٣) ٧٦٦١ ورقة ٢٥ ب وانظر: السخاوي: جمال القراء وكمال الاقراء (مخطوط) دار الكتب المصرية رقم (٩ قراءات م) ورقة ١٨٧ / أ حيث نقل قول الداني المشار اليه في أعلاه.

(عمر)، وخصوه بالزيادة لحفته^(٢٣). والواو في (أولئك) زائدة وكما يقول أبو حيان^(٢٤): «أما أولئك فتضافرت النصوص على أنهم زادوا الواو فيها فرقاً بينها وبين إليك» ثم حمل عليه فروعه ليجري الباب على سنن واحد^(٢٥)، والألف في (مائة) زائدة للفرق بينها وبين (منه)^(٢٦)، أو بينها وبين (مئة)^(٢٧)، والواو في (أوحي) مصغراً زادها بعض أهل الخط فرقاً بينه وبين (أخي) المكبر، وكانت الزيادة في التصغير لأنه فرع، والفرع أحمل للزيادة، ولأنه قد يغير لأجل التصغير، والتغيير يأنس بالتغيير^(٢٨). وقد زادوا الألف في مثل (ركبوا وذهبوا) فرقاً بينها وبين (يعدو) وما أشبه ذلك^(٢٩). أو فرقاً بين واو الجميع وواو النسق^(٣٠)، وكتبوا (على) بالياء أين ما أتت إذا كانت حرفاً فرقاً بينها وبين (علا في الأرض). وكذلك كتبوا (إلى) بالياء أيضاً فرقاً بينها وبين (إلا) المشددة

(٢٣) البلوي: ج ١ ص ١٣٧ وانظر: ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٥٢ والصولي ص ٢٥١ وابن وهب الكاتب (اسحاق بن ابراهيم): البرهان في وجوه البيان ط بغداد مطبعة العاني ١٩٦٧ ص ٣٣٠.

(٢٤) السيوطي: همع الهوامع. ط ١، القاهرة. محمد أمين الخانجي ١٣٢٧ هـ ج ٢ ص ٢٣٩ وانظر ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٥٢. والصولي ص ٢٥١.

(٢٥) الجعبري (ابراهيم بن عمر): خيلة أرباب المراصد في شرح عقيلة أتراب القوائد (مخطوط) دار الكتب المصرية رقم ٢٤٩ قراءات ورقة ٢٢٦ أ.

(٢٦) ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٥٣ وابن درستويه ص ٤٦ والسيوطي همع ج ٢ ص ٢٣٨.

(٢٧) التنسي (محمد بن عبد الله بن عبد الجليل): الطراز في شرح ضبط الخراز (مخطوط) دار الكتب المصرية. رقم ٢٦١ قراءات ورقة ٧١/أ. وانظر ابن وهب الكاتب ص ٣٣٠.

(٢٨) السيوطي همع ج ٢ ص ٢٣٩ وانظر ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٥٣ والصولي ص ٢٥١.

(٢٩) الزجاجي: الجمل ص ٢٧٤.

(٣٠) ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٥٣، وابن وهب الكاتب ص ٣٣٠.

اللام^(٣١). وكتبوا تاء التأنيث في آخر الكلمات هاء، ليفرقوا بينها وبين الأصلية في بناء الكلمة^(٣٢).

وهكذا يحاولون إلحاق كل ما جاء في الكتابة العربية على غير القواعد المطردة بهذا الباب، وهم لا يعدمون كلمة ينسبون الزيادة لأجلها، ولا يزال بعض المحدثين يردد ما قالوه في باب الفرق، فتلك الزيادات - في رأيه - «إنما هي حيل كتابية قصد بها إلى التفريق بين نوعين أو أنواع من الصيغ المتشابهة في الصور الكتابية، مع اختلافها في القيم الصرفية والنحوية وفي المعنى كذلك»^(٣٣). ولم يعدم - بين القدماء - من تشكك في أن يكون الفرق علة لتلك الزيادات، يقول ابن درستويه^(٣٤): «ولو زيدت الواو في كل اسم أشبهه آخر لصار أكثر الكلام بواو مثل قلب وقلب، وقدر وقدر....».

لكن ما ذهب إليه علماء العربية يرده - على ما أرجح - البحث التاريخي في الكتابة واللغة، ويوضح لنا سر تلك الزيادات بأدلة أكثر إقناعاً، حتى إنه يمكن القول بانتقاض هذا الأصل - في الكتابة العربية على الأقل - وقد مر بنا أن الواو في (عمرو) يمكن أن تكون من بقايا زيادة الواو في نهايات الأعلام في الكتابة النبطية. وستأتي دراسة بقية الكلمات التي فيها حروف زائدة مع أخرى غيرها، مع الأصول المحتملة - التي لا تمت للفرق بصلة - لتلك الزيادات^(٣٥).

وبالإضافة إلى ذلك أشار علماء الرسم واللغة العربية إلى أن بعض الكلمات، مما تظهر فيها مخالفة للقياس المطرد، قد كتبت على الأصل، ولعله الأصل

(٣١) سليمان بن نجاح (أبو داود): التنزيل في هجاء المصاحف (مخطوط) المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٥٩٦٤ (عندي منه نسخة على الميكروفلم) لوحة ٧.

(٣٢) الأزهري ج ١ ص ٥٠.

(٣٣) د. كمال محمد بشر: الأصوات ص ٢٣٧.

(٣٤) كتاب الكتاب ص ٤٦. وانظر ابن السيد البطليوسي: ص ١٦٦.

(٣٥) انظر المبحث الرابع من الفصل الرابع، الفقرة الثالثة.

الاشتقاقى البعيد مثل (الربوا)^(٣٦)، أو الأصل القريب الذي كانت عليه الكلمة قبل أن تكون في سياق « ألا ترى أن الكتاب يكتبون الرحمن باللام وهي في السمع راء مشددة، وكذلك الضارب والذاهب يكتب على المعنى واللفظ على خلافه »^(٣٧)، والمقصود بكلمة (المعنى) هنا هو أصل الكلمة، من حيث هي مكونة من (آل) المعرفة مع ما دخلت عليه.

وكذلك نجدهم يشيرون إلى أن بعض الحروف قد يسقط، إما استخفافاً واستغناء بما أُبقيَ عما أُلقيَ، إذا كان في الكلام دليل على ما يحذفون من الكلمة^(٣٨)، وإما لكثرة الاستعمال، وكون المعنى لا يحل^(٣٩). ويفسرون بذلك إسقاط الألف خاصة، والحقيقة أن الألف لم تثبت - في أصل وضعها - في الكلمات التي وردتنا فيها ساقطة حتى يمكن أن يقال إنها حذفت تخفيفاً، أو لكثرة الاستعمال، فالأصل في الكتابات السامية عامة كان عدم إثبات الحركات - كما مر بنا - وبعد زمن طويل قامت محاولات ناجحة لإدخال رموز للحركات الطويلة في الكتابة، وظلت بقايا من ذلك الوضع القديم تأبى أن تستجيب للتطور الحديث.

وتحدث علماء الرسم والعربية - أيضاً - عن ظاهرة حذف رمز واحد من كل ألفين أو ياءين أو واوين - صامت وحركة طويلة غالباً - تتابعا في الكتابة « كراهة توالى صورتين متفتحين في الرسم »^(٤٠)، ويقول ابن درستويه^(٤١): « إعلم

(٣٦) الجعبري: ورقة ٢٢٦ أ.

(٣٧) الزجاجي: الجمل ص ٢٧٢ وانظر: ابن درستويه ص ٥، وابن وهب الكاتب ص ٣٣٠.

(٣٨) ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٢٧.

(٣٩) الصولي: ص ٣٦.

(٤٠) الداني: المحكم ص ١٧٢. وانظر ١٢٥ و ١٤٠ و ١٥٣ و ١٥٧ و ١٥٨ و ١٦٠ و ١٦٦. وانظر سليمان بن نجاح: لوحة ٥.

(٤١) كتاب الكتاب ص ٣٢ وانظر أيضاً ص ١٠ و ١٤ و ١٧ و ٣٤.

أن أكثر ما يجذف في الكتاب الحروف المكررة، كراهة اجتماع الأشباه في الخط . ويقول العقيلي^(٤٢): « وكل ألفين أو ياءين أو واوين أدى إلى اجتماعهما القياس حذف إحداهما (كراهة) إجتماع صورتيهما في الرسم » .

وملاحظتهم هذه صادقة إلى حد ما، لكن تعليل ذلك بالكراهة ربما كان فيه نظر، إذ إن نظام الحركات الطويلة - خاصة في بداية القرن الأول الهجري - لم يكن قد اكتمل، ويظهر ذلك جلياً في الرسم العثماني، فكان الكتاب يشيرون إلى رمز واحد وهملون الآخر بانتظار الخطوة التالية التي اكتملت فيها الإشارة إلى كلا الرمزين .

وهكذا فإن القدماء والمحدثين متفقون على أن الكتابات الأبجدية غير خاضعة لمبدأ معين - حتى الصوتي الذي بنيت أساساً عليه - إذ إن اللغة المنطوقة يصيها التغيير، وتبقى أشكال الكلمات المكتوبة محافظة على صورها القديمة، فهجاء الألفاظ يعرض - غالباً - صورة صحيحة لأصول الكلمات وما كانت عليه أصواتها في أقدم عصور اللغة، وهو للألفاظ من هذه الناحية أشبه شيء بالمتحف للآثار^(٤٣) .

وفي مجال الدراسات الصوتية الحديثة حاول العلماء وضع أبجدية صوتية، يستعملون بها على تسجيل كافة أصوات اللغات، وكان أول من أسهم في هذا الميدان هم الأوروبيون الذين دفعتهم علاقاتهم الاستعمارية بالشعوب إلى معرفة لغاتها^(٤٤)، وكانت هناك محاولات عدة حتى تمكن الباحثون من الوصول إلى وضع أبجدية صوتية تتألف من حروف موحدة تستعمل في كتابة جميع اللغات في مجال البحث العلمي^(٤٥) .

(٤٢) العقيلي (اسماعيل بن ظاهر): المختصر في مرسوم المصحف الكريم (مخطوط) دار

الكتب المصرية (٢٦٠ قراءة) منه ميكروفلم في معهد المخطوطات العربية. لوحة ٢ .

(٤٣) د. علي عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ٢٥٣ .

(٤٤) د. عبد الرحمن أيوب: ص ٧ .

(٤٥) انظر د. محمود السمران ص (١٢١-١٢٣) ود. تامر حسان: اللغة بين المعيارية

والوصفية ص ١٢٩ . ود. عبد الرحمن أيوب: ص (٧-١٠) .

ولا شك في أن الكتابة الصوتية صالحة للأغراض الدراسية، ولكنها لا تصلح في الاستعمال اليومي، وذلك، لما يتطلبه التسجيل الدقيق للظواهر الصوتية في النطق من حشد العلامات الإضافية، إذا اغتفرنا العدد الضخم من الرموز الذي يزحنا حتى من غير هذه العلامات^(٤٦). إذ إن الكتابة الصوتية الدولية: (International Phonetic Alphabet) تتألف من بضعة مئات من الرموز^(٤٧).

وعلى ذلك فإن القصور عام في جميع الكتابات الأبجدية، ولا يمكن فهم مظاهر ذلك القصور إلا بالبحث في تاريخ اللغة والكتابة معاً، للوصول إلى أصول لهذه الأشكال ومعرفة التطور الذي حدث في اللغة ولم تواكبها فيه الكتابة.

★ ★ ★ ★

ونخلص من ذلك العرض كله إلى النتائج التالية:

- ١ - إن الكتابة العربية في شكلها الأخير الذي انتهت إليه في النقوش العربية الجاهلية ما هي إلا تطور للكتابة النبطية المنحدرة بدورها عن الخط الآرامي، مما يؤكد ارتباطها بمجموعة الكتابات السامية، سواء تم ذلك التطور في شمال الجزيرة العربية وبلاد الأنباط وسيناء، أم في الحيرة وأطراف العراق، أم في مدن الحجاز وحواضره.
- ٢ - ونتيجة لذلك الارتباط بين الكتابة العربية والكتابات السامية فقد حملت الكتابة العربية كثيراً من خصائص ومميزات الكتابات السامية عامة، والنبطية خاصة، فهي تستعمل رمزاً واحداً لعدة أصوات مختلفة، وقد ظل هذا الحال حتى النصف الثاني من القرن الهجري الأول، حين استخدمت النقط للتمييز بين الرموز المتفقة في الرسم. كذلك فإن الكتابة العربية في هذه المرحلة لم تُبدِ أية محاولة للإشارة إلى الحركات القصيرة،

(٤٦) د. تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٣٠.

(٤٧) -Berezin, P.140.

ولم يكن قد استقر - أيضاً - نظام الاشارة إلى الفتحة الطويلة (الألف) في وسط الكلمات إلا بعد فترة طويلة.

٣ - وقد اتضح أن الكتابة العربية كانت مستعملة قبل الاسلام بفترة طويلة، والروايات العربية تؤكد استخدامها على نطاق واسع في أطراف العراق وخاصة الحيرة، ولعلها في ذلك الاستخدام تكون قد استقرت قواعدها وتميزت، مما يؤكد أن انتقالها إلى الحجاز في وقت متأخر قبل الاسلام - إن صحت الرواية - لا يعني أنها كانت حديثة عهد بالاستخدام أو أن قواعدها لم تستقر، ويجب ألا يغيب عن الملاحظة أن هذا الانتقال من بيئة لغوية إلى أخرى ربما كان عاملاً في بقاء ظواهر كتابية من البيئة القديمة بينما زال استعمالها في البيئة الجديدة.

٤ - قصور كافة الكتابات الأبجدية عن الوفاء بمتطلبات اللغة وعناصر النطق فيها، واحتفاظها بمظاهر كثيرة من مخلفات النطق القديم مع زواله من الاستعمال، وهو ما يحتم دراسة تاريخ اللغة والكتابة لفهم تلك الحفريات الكتابية دون الوقوف عند معطيات فترة زمنية معينة.

ولعل في ما تناولناه من دراسة لتاريخ الكتابة العربية، وأصل نشأتها وعلاقتها بالخطوط السامية، وخصائص تلك الكتابة قبل الرسم العثماني، من واقع الوثائق وعلى ضوء الكتابات السامية، ودراسة الأصول التي تقوم عليها الكتابة، والقصور الذي يلزم كافة الكتابات الأبجدية المعروفة ما يعد تمهيداً ضرورياً لدراسة الرسم المصحفي، وفهم خصائصه الكتابية.

وعلى هدى من ذلك العرض وهذه النتائج سنتناول الرسم المصحفي بالدراسة والتحليل، لعلنا نصل إلى فهم واضح وتفسير صحيح لكافة ظواهره ومميزاته الكتابية، إن شاء الله.

**

*

الفصل الثاني

تأريخ كناية القرآن الكريم وجمعه

الفصل الثاني

تأريخ كتابة القرآن الكريم وجمعه

إن دراسة تاريخ كتابة القرآن الكريم وجمعه تعتبر الخطوة الأولى في أية محاولة لدراسة الرسم المصحفي، لأن مثل تلك الدراسة ستعطي البعد التاريخي لظاهرة الرسم عامة، وتجعل تتبع مراحل تطوره والمحاولات المتلاحقة لتكميله وفهم ظواهره ومشكلاته أمراً أكثر تحديداً ووضوحاً.

وتاريخ كتابة القرآن جزء من تاريخ القرآن عامة، وهو تاريخ واسع، لأنه - في الواقع - تاريخ الدعوة الإسلامية من يوم نزل الوحي بالقرآن على رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى أجيال بعد ذلك، ولسنا نهدف - هنا - إلى تناول جميع أبعاد ذلك التاريخ، وما تضمنه من أحداث وإنجازات عظيمة، نعمت البشرية - ولا تزال تنعم إلى اليوم - بها، بل نكتفي بالتركيز على جانب الكتابة من ذلك التاريخ.

وإذا كانت كتب التاريخ الأولى لا تكاد تتعرض لكتابة القرآن وجمعه إلا قليلاً^(١)، فإن كتب الحديث الصحيح تقدم كثيراً من تفاصيل ذلك التاريخ، سواء كان ذلك في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - أم في عهد الخلفاء الراشدين.

(١) محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر. ط ٥. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية

وستتناول ذلك على مرحلتين، مرحلة توحيد المصاحف ونسخها في خلافة ذي النورين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهي المرحلة التي تقدم لنا الظواهر الكتابية التي سيقوم عليها هذا البحث، والمرحلة السابقة لذلك، وهي تشمل كتابة القرآن زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد ثبت بما لا يقبل الشك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر بكتابة القرآن، وأذن لمن أراد من الصحابة كتابته. وتشمل أيضاً كتابة القرآن وجمعه في الصحف في خلافة الصديق - رضي الله عنه - ثم ما كانت عليه المصاحف في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

وسيكون سبيلنا إلى ذلك الايجاز غير المخلّ بالصورة التي يجب أن يعرض فيها ذلك التاريخ، لأن التفصيل ومناقشة كثير من القضايا المتعلقة بتاريخ القرآن ليس مما نهدف إليه هنا - وقد تكفلت بذلك دراسات أوفت بالفرص^(١) - وإنما نهدف إلى كتابة مدخل موجز لتاريخ كتابة القرآن وجمعه، تمهيداً لدراسة الطريقة التي كتب بها القرآن في المصحف العثماني، وما تثيره من مشكلات تتعلق بأمر الكتابة .

(١) انظر - مثلاً - بحث الدكتور عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن .

المبحث الأول

كِتَابَةُ الْقُرْآنِ قَبْلَ الرَّسْمِ الْعُثْمَانِيِّ

أولاً: كتابة القرآن في حياة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إن من نافلة القول - هنا - الحديث عن عدم معرفة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للكتابة، فضلاً عن ممارستها، ومهما كان معنى الأُمِّي (١). فإنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « ما قرأ ولا كتب قط » (٢)، وتشير إلى شيء من ذلك الآية الكريمة ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت ٤٨)، ويشير إليه أيضاً وصف الصحابة لكافة جوانب حياته، فقد كان يملي - في كافة أحواله - على الكتبة من الصحابة في الأمور التي تحتاج إلى كتابة (٣).

ومع أن طريقة التلقي المثلّي بين الصحابة كانت المشافهة والحفظ (٤). ومع أن الكتابة في حواضر الحجاز - زمن البعثة - لم تكن واسعة الانتشار، ومع أن

(١) انظر د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٥٣.

(٢) الصولي ص ٢٤.

(٣) انظر في تفصيل هذا الموضوع: د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن (ص ٤٧-٥٣) ود. ابراهيم أنيس: دلالة الالفاظ (ص ١٨٣-١٨٥). ود. جواد علي: السيرة (ص ١٣٦-١٤٣).

(٤) انظر الخطيب البغدادي: تقييد العلم، دمشق - المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٩٤٩. ص ٣٦ وما بعدها.

وسائلها كانت بدائية وغير ميسورة، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان حريصاً على تسجيل ما ينزل عليه من القرآن، حتى أنه نهى في البداية عن كتابة شيء غير القرآن حيث يقول في حديث أبي سعيد الخدري (ت ١٧٤هـ)^(٥): « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحاه»، خشية اختلاطه بكتاب الله.

وقد بلغ كتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة وأربعين كتاباً - كما مر - وكان بعضهم منقطعاً لكتابة الوحي، ولعل من أشهرهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وحنظلة ابن الربيع^(٦).

وكان أول من كتب للنبي من قريش عبد الله بن سعد ثم ارتد ورجع إلى مكة، وعاد إلى الاسلام يوم فتحها^(٧). وكان أول من كتب لرسول الله -

(٥) نفس المصدر ص ٢٩. وآبن أبي داود ص ٤. وأخرجه - أيضاً - مسلم (انظر: ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن علي المسقلاني) فتح الباري شرح البخاري: (ج ١٠، ص ٣٨٦) مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة - ١٩٥٩.

(٦) انظر المصادر المذكورة في صفحة (٦٠) هامش رقم (٦).

(٧) انظر: البلاذري ص ٤٧٨. وآبن عبد البر: ج ١/ ص ٦٨. وآبن قتيبة: المعارف ص ١٣٠. ويُقدّم الفراء قصة تحكي سبب ارتداده فيقول (ج ١/ ص ٣٣٤): أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أملى عليه قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (المؤمنون ١٢ - ١٤) فقال ابن أبي سرح: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ تَعَجُّبًا مِنْ تَفْصِيلِ خَلْقِ الْإِنْسَانَ. فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - هكذا أَنْزَلْتَ عَلَيَّ، فَشَكَّ وَأَرْتَدَّ، وَقَالَ: لئن كان محمد - صلى الله عليه وسلم - صادقاً لقد أُوحِيَ إِلَيَّ (كَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ) وَلئن كان كاذباً لقد قلتُ مثل ما قال، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (الأنعام ٩٣). ولعل الموقف الذي وجد ابن أبي سرح نفسه فيه بعد ارتداده هو الذي دفعه إلى أن يدعي - على ما يُروى - أنه كان إذا أملى عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ كتب ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وكانت وفاته سنة ٣٦ وقيل ٣٧ هـ، وكان قد عاد إلى الإسلام بعد فتح مكة وحسن إسلامه.

صلى الله عليه وسلم - مقدمه المدينة أبي بن كعب الأنصاري، وكان زيد بن ثابت يكتب معه أيضاً، لكن زيدا كان «ألزم الصحابة لكتابة الوحي»^(٨).

ويبدو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان مهتماً بتسجيل النص القرآني منذ أن بدأ نزوله عليه في مكة. وقد جاء في قصة إسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن سورة (طه) كانت مكتوبة في صحيفة في بيت فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، كانت وزوجها يقرئها القرآن منها خباب بن الأرت^(٩). ولم تكن هذه الصحيفة التي سجلت سورة طه إلا واحدة من صحف كثيرة كانت متداولة بين أيدي الذين أسلموا من أهل مكة، سجلت سوراً أخرى من القرآن^(١٠).

وإذا كانت ظروف الدعوة في مكة قد أسهمت في حجب كثير من أخبار كتابة القرآن في تلك الفترة فإن الأمر في المدينة قد اختلف كثيراً، وجاءت الروايات تبين ذلك بوضوح وتؤكدده. فيروي ابن أبي داود قال: حدثنا محمد بن يحيى، قال حدثنا أبو صالح، حدثنا الليث، عن أبي عثمان الوليد بن أبي الوليد عن سليمان بن خارجه بن زيد عن خارجه بن زيد أنه قال^(١١): «دخل نفر على زيد بن ثابت، فقالوا: حدثنا بعض حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: ماذا أحدثكم؟ كنت جار رسول الله صلى الله عليه وسلم - فكان إذا نزل الوحي أرسل إلي فكتبت الوحي ..» وكان - صلى الله عليه وسلم - إذا نزل عليه الوحي قال لمن عنده: أذع لي زيدا، وليجئء باللوح والدواة أو الكتف

(٨) ابن عبد البر ج ١ ص ٦٨. وانظر ابن حزم ص ٢٧ وابن قيم الجوزية ج ١ ص ٢٩.

(٩) ابن سعد ج ٣ ص ٢٦٧-٢٦٨ وابن هشام: السيرة النبوية ج ١ ص ٣٤٤.

(١٠) محمد حسين هيكل ص ٣٠٩.

(١١) المصاحف ص ٣. وانظر الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان): سير أعلام

النبلأ - القاهرة. دار المعارف ١٩٥٧ ج ٢ ص ٣٠٧.

والدواة، ثم يقول له اكتب... ويملي عليه الآيات^(١٣). ويروي أبو عبيد القاسم بن سلام أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان «إذا نزلت عليه آية دعا بعض من يكتب، فقال ضع هذه الآية في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا...»^(١٣).

ويروي كل من أبي عبيد^(١٤)، وابن أبي داود^(١٥)، عن ابن عمر انه قال: «نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يسافر بالمصاحف (أو القرآن) إلى أرض العدو، مخافة أن ينالوها». وذلك لا يكون إلا بحمل صحيفة هو فيها، أو ما يقوم مقامها، لأنه لم ينه عن حفظه^(١٦).

ومما يجب أن يلاحظ هنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يراجع الصحابة في ما يكتبون من القرآن، فيروي عن زيد بن ثابت أنه قال^(١٧): «كنت أكتب الوحي عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يملي عليّ، فإذا فرغت قال: إقرأه، فأقرأه فإن كان فيه سقط أقامه».

وإذا كان لكل هذه الأخبار من دلالة فإن أول ما تدل عليه أن

(١٢) انظر: البخاري: ج ٦ ص ٢٢٧ وانظر تحريجه: الساعاتي (أحمد بن عبد الرحمن البنا): الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد. ط. القاهرة ١٣٧٤ هـ ج ١٨ ص ٢٩.

(١٣) أبو عبيد: فضائل القرآن ومعامله وأدبه. (مخطوط) دار الكتب المصرية. رقم (٢٠١٠١ب) لوحة ٣٥.

(١٤) نفس المصدر لوحة ١١.

(١٥) المصاحف (ص ١٧٩-١٨٣) وانظر ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٢ ص ١٣١.

(١٦) الباقلائي (أبو بكر محمد بن الطيب): نكت الانتصار لنقل القرآن. الاسكندرية. منشأة المعارف ١٩٧١ ص ٢٥٦.

(١٧) الصولي: ص ١٦٥ (قال محمد بن يحيى الصولي، حدثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عتاب، قال حدثنا الحسن بن عبد العزيز الجروي، قال حدثنا عبد الله بن يحيى، قال أخبرنا نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن سليمان بن خازجة بن زيد بن ثابت عن أبيه عن جده).

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يهدف إلى تسجيل القرآن كله، فيؤمن بذلك ضياع شيء منه أو فقدانه، وهو بذلك قد «سن جمع القرآن وكتابته، وأمر بذلك وأملاه على كاتبه، وأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يمت حتى حفظ جميع القرآن جماعة من الصحابة، وحفظ الباقيون منه جميعه متفرقاً، أو عرفوه وعلموا مواقعه ومواضعه على وجه ما يعرف ذلك اليوم من ليس من الحفاظ لجميع القرآن» (١٨).

وقد نص العلماء على أن «القرآن كله كتب على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الصحف والألواح والعصب، لكن غير مجموع في موضع واحد، ولا مرتب السور» (١٩).

ويروي الطبري أن الزهري قال (٢٠): «قبض النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يكن القرآن جمع، وإنما كان في الكرايف والعصب». وينقل السيوطي عن أبي سليمان محمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨هـ) قوله (٢١): «إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاة ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك».

(١٨) أبو عمرو الداني: جامع البيان في القراءات السبع المشهورة (مخطوط). دار الكتب المصرية رقم (٣ قراءات) ورقة ١٠/أ.

(١٩) القسطلاني (شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر): لطائف الاشارات لفنون القراءات. القاهرة. المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ١٩٧٢. ج ١ ص ٥١. وانظر: مكي بن أبي طالب: الابانة عن معاني القراءات. القاهرة. مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ ص ٢٣، وعز الدين بن عبد السلام: الفوائد في مشكل القرآن. الكويت، وزارة الاوقاف ١٩٦٧، ص ٢٧. وابن حجر ج ١٠ ص ٣٨٦. والسيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٦٨.

(٢٠) الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن (المشهور بتفسير الطبري). القاهرة دار المعارف ١٣٧٤ هـ ج ١ ص ٦٣.

(٢١) الاتقان ج ١ ص ١٦٤ وانظر الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن. القاهرة. دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧ ج ١ ص ٢٦٢.

ونجد بعد هذا كله أن قول بروكلمان « ولعل نجوماً متفرقة من الوحي كانت قد كتبت في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولكن أكثر الوحي كان يروى - بلا ريب - شفاهاً من الذاكرة فحسب »^(٢٢) بعيد عن الحق، ولا يخلو من الهوى والغرض، فالأخبار تشير إلى عكس ما يقوله تماماً، بل أكثر من ذلك، إذ تؤكد أن القرآن كله قد كتب لكنه مفرق غير مجموع، حيث تم جمعه في مكان واحد بين دفقي المصحف في عهد الصديق، بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بفترة وجيزة، ويبد من كتبه للنبي وسمعه وحفظه منه، وهو ما سيكون حديث الفقرة الآتية.

ثانياً: جمع القرآن في الصحف في خلافة الصديق:

ولي الصديق الخلافة بعد انتقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة^(٢٣)، وكان أول ما واجهه - في خلافته - إرتداد قبائل من العرب، لأسباب مختلفة منها منعهم بعض حقوق الاسلام، فكان موقفه حازماً من هذه الفتنة التي أخذت تعصف بأطراف الدولة الاسلامية، وقال كلمته المشهورة^(٢٤): « والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي، حتى يحكم الله بيني وبينهم، وهو خير الحاكمين ». وانضم بعض المرتدين إلى مدعي النبوات الكاذبة، فجهز الصديق لقتال هؤلاء - جميعاً - الجيوش التي كان في طليعتها صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم تمض إلا فترة يسيرة حتى عادت الجزيرة العربية كلها إلى الاسلام^(٢٥) لكن عدداً كبيراً ممن

(٢٢) بروكلمان (كارل): تاريخ الأدب العربي (مترجم) القاهرة. دار المعارف ١٩٥٩ ج ١ ص ١٣٩.

(٢٣) الطبري: التاريخ ج ٣ ص ١٩٩.

(٢٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة. دمشق ١٩٦٧ ج ١ ص ٧٩.

(٢٥) انظر عن أخبار حروب الردة: الطبري: التاريخ ج ٣ (أخبار السنة الحادية =

شارك في إخماد تلك الفتنة قد قتلوا في سبيل الله، ومن بينهم عدد من حفاظ القرآن. وتشير الروايات إلى أن معركة اليمامة التي أذل الله فيها مسيلمة الكذاب وجمعه كانت من أعظم الغزوات في حروب الردة، كما كانت أجملها خطراً، وأبعدها أثراً، وقد استشهد من المسلمين يومئذ مئتان وألف، من بينهم ثلاثمائة وستون من المهاجرين والأنصار من أهل قسبة المدينة وحدها^(٢٦).

وتشير الروايات إلى أن هذه الأحداث وتسايق الحفاظ من الصحابة إلى الشهادة - وتوقفاً لما سيأتي من المواقع - كان أهم العوامل التي نبهت الفاروق عمر والصحابة إلى ضرورة جمع القرآن مكتوباً في مكان واحد، بعد أن كان مفرقاً في القطع التي كتب عليها في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - فأشار عمر بذلك على الصديق بعد وقعة اليمامة.

وأشهر روايات جمع القرآن في خلافة الصديق هي التي يرويها ابن شهاب الزهري (٥٠-١٢٤هـ) عن عبيد بن السباق (من تابعي أهل المدينة) عن زيد بن ثابت (ت ٤٥هـ) وقد أوردها أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ) في كتابه فضائل القرآن^(٢٧)،

عشرة). والكلاعي (أبو سليمان الربيع بن سليمان - أحد علماء القرن السادس والسابع للهجرة): كتاب تاريخ الردة. اقتبسه من الاكتفاء بما تضمنه من مغازي المصطفى ومغازي الخلفاء (له) خورشيد أحمد فارق. دهلي (الهند) معهد الدراسات الإسلامية ١٩٧٠. وابن الأثير: الكامل في التاريخ. القاهرة. إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩ هـ ج ٢ ص (٢٣١-٢٦٠)

(٢٦) الطبري: التاريخ ج ٣ ص ٢٩٦. ويشير ابن كثير (أبو الفداء اسماعيل): فضائل القرآن. مطبعة المنار ١٣٤٧ هـ (ص ٢٥) انه قد قتل يومئذ من القراء قريب من خمسمائة. وانظر: ابن الجزري (أبو الخير محمد بن محمد): النشر في القراءات العشر. القاهرة. مطبعة مصطفى محمد (د.ت) ج ١ ص ٧. ويذكر القرطبي (محمد بن أحمد بن أبي بكر): الجامع لأحكام القرآن. ط ٢. دار الكتب المصرية ١٩٥٢ (ج ١ ص ٤٩) انه «قتل منهم في ذلك اليوم - فيما قيل - سبعمائة». وانظر الكلاعي: ص ١٢٠.

(٢٧) لوحة (٣٥-٣٦).

والبخاري (ت ٢٥٦هـ) في صحيحه^(٢٨). ورواها الترمذي (ت ٢٧٩هـ) والنسائي (ت ٣٠٣هـ)^(٢٩)، وابن أبي داود (ت ٣١٦هـ)^(٣٠). وغير ذلك من المصادر^(٣١). وقد وردت روايات أخرى توضح ما جاء في هذه الرواية وتضيف أبعاداً أخرى لطريقة الجمع.

أما الرواية المشهورة فهي كما يروها البخاري: «أن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال: أرسل إليّ أبو بكر الصديق، مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. قال أبو بكر - رضي الله عنه - : إن عمر أتاني فقال: ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا تهتمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتتبع القرآن فاجعه. فوالله لو كانوا كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فتتبع القرآن أجمعه من المسبب واللخاف^(٣٢) وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة

(٢٨) الصحيح ج ٦ ص ٢٢٥.

(٢٩) انظر الساعاتي ج ١٨ ص (٣١-٣٢).

(٣٠) المصاحف ص (٦-٩).

(٣١) انظر ابن النديم ص ٢٤. والداني: المقنع ص (٢-٥). والسيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٦٥.

(٣٢) قال السيوطي (الاتقان ج ١ ص ١٦٨): وفي رواية (والرقاع)، وفي أخرى (وقطع الأديم)، وفي أخرى (والاكاف)، وفي أخرى (والأضلاع)، وفي أخرى (والاقتاب) =

الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره، لقد جاء كم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم - حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه.»

وهذه الرواية تشير إلى جملة قضايا هامة في تاريخ جمع القرآن في هذه الفترة. فهي أولاً تبين السبب الذي دفع إلى جمع القرآن، وهو الخوف من ذهاب شيء منه بذهاب حفظته، وهي ثانياً توضح أن القرآن لم يجمع من قبل بهذه الصورة، وذلك مفهوم من تردد الصديق وزيد بن ثابت وقولهم (كيف نعمل شيئاً لم يفعله رسول الله)، ولعل هذا ينفي ما يقال من أن سالم بن معقل مولى أبي حذيفة (استشهد يوم اليمامة)^(٣٣) كان أول من جمع القرآن في مصحف^(٣٤). وما رواه أشعث عن محمد بن سيرين أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لما توفي النبي - صلى الله عليه وسلم - أقسم ألا يرتدي برداء إلا الجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف^(٣٥). ويقول ابن داود عن هذه الرواية «لم يذكر المصحف أحد

= فالعسب جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص، ويكتبون في الطرف العريض. واللخاف بكسر اللام وبجاء معجمة خفيفة آخره فاء جمع لخفة، بفتح اللام وسكون، وهي الحجارة الرقاق. وقال الخطابي: صفائح الحجارة. والرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أورق أو كاغد. والأكتاف جمع كتف، وهو العظم الذي للبعير أو للشاة كانوا إذا جف كتبوا عليه. والاقتاب جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه. وانظر أيضاً: أبو عبيد: غريب الحديث. ط ١ حيدر آباد (الهند). دائرة المعارف العثمانية (١٩٦٤-١٩٦٧) ج ٤ ص (١٥٥-١٥٦). أما المادة التي جمع أبو بكر القرآن فيها فقد قيل إنها قراطيس وقيل ورق، أما ما يروى عن عبارة بن غزية أن زيد بن ثابت قال أمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأديم والعسب (الطبري التفسير ج ١ ص ٥٩) فإن الأول أصح لأنه إنما كان في الأديم والعسب أولاً، قبل أن يجمع في عهد أبي بكر، ثم جمع في الصحف في عهد أبي بكر (انظر السيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٦٩).

(٣٣) ابن قتيبة: المعارف ص ١١٩. والذهبي: سير أعلام النبلاء ج ١ ص ١٢٢.

(٣٤) السيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٦٦.

(٣٥) ابن أبي داود ص ١٠ وانظر ابن حجر ج ١٠ ص ٣٨٦.

إلا أشعث وهو لئى الحديث ، وإنما رووا حتى أجمع القرآن يعني أتم حفظه ، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن قد جمع القرآن» (٣٦). كذلك ما يروى من أن عمر بن الخطاب أمر بالقرآن فجمع ، وكان أول من جمعه في المصحف (٣٧) ، وهو محمول على ما سبق من إشارته على الصديق بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة (٣٨). وقد أشار أهل الحديث - إلى أن هذه الأخبار منقطعة الأسانيد (٣٩). وقد رويت بالاضافة إلى ذلك روايات عدة تؤكد أن أبا بكر الصديق هو أول من جمع القرآن بين لوحين ، منها أن علياً قال: رحمة الله على أبي بكر ، كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف ، هو أول من جمع القرآن بين اللوحين (٤٠).

وتشير رواية جمع القرآن السابقة إلى الصفات والمؤهلات التي جعلت الصديق يخص زيد بن ثابت بهذا العمل الجليل ، فذكرت له أربع خصال (٤١): كونه شاباً ، فيكون أنشط لما يطلب منه . وكونه عاقلاً ، فيكون أوعى له . وكونه لا يتهم ، فتركن النفس إليه . وكونه كان يكتب الوحي ، فيكون أكثر ممارسة له . وسنجد أن هذه الصفات هي التي أهله مرة أخرى ليكون على رأس القائمين بنسخ المصاحف في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ويروي ابن أبي داود رواية توضح جانباً من الطريقة التي جرى عليها زيد ابن ثابت في جمع القرآن ، فيروي أن الصديق قال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: أقمدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله

(٣٦) المصاحف ص ١٠ .

(٣٧) ابن أبي داود ص ١٠ وانظر: العز بن عبد السلام: الفوائد ص ٢٦ وابن حجر ج ١٠ ص ٣٨٦ . وابن كثير ص ٢٥ .

(٣٨) انظر محمد حسين هيكل ص ٣٠٦ .

(٣٩) انظر ابن حجر ج ١٠ ص ٣٨٦ . والسيوطي الاتقان ج ١ ص ١٦٦ .

(٤٠) انظر ابن أبي داود ص (٥ - ٦) والطبري: التفسير ج ١ ص ٦٣ . والداني: المنع ص ٢ .

(٤١) انظر ابن حجر ج ١٠ ص ٣٨٧ .

فاكتبناه^(٤٢). وفي رواية أخرى أن عمر بن الخطاب قام في الناس، فقال: من كان تلقى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعصب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان^(٤٣). ويقول ابن حجر^(٤٤): كأن المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب، أو المراد على أن ذلك المكتوب بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم، أو المراد أنها يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن. وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم لا من مجرد الحفظ.

وعمل كبير مثل جمع القرآن في الصحف من القطع التي كان قد كتب عليها في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - لا بد أنه احتاج إلى جهود كبيرة، وهو ما يدعو إلى الاعتقاد أن بعض الصحابة قد وقف إلى جانب زيد في إنجاز هذا العمل الكبير^(٤٥)، ولعل في مقدمة من أسهم في ذلك عمر بن الخطاب الذي كان ضمن كُتَّاب الوحي والذي تشير الرواية السابقة إلى مشاركته في تتبع القرآن وجمعه مع زيد. ويروي ابن أبي داود أن أبي بن كعب قد شارك في جمع القرآن في خلافة أبي بكر الصديق أيضاً^(٤٦).

وقد استغرق إنجاز ذلك العمل ما يقرب من سنة، فقد كان بين غزوة اليمامة - التي وقعت في الأشهر الأخيرة من السنة الحادية عشرة أو الأولى من السنة الثانية عشرة^(٤٧) - وبين وفاة الصديق - رضي الله عنه - التي كانت في

(٤٢) المصاحف ص ٦.

(٤٣) نفس المصدر ص ١٠.

(٤٤) ج ١٠ ص ٣٨٨، وانظر: علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ٣١ أ. والسيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٦٦.

(٤٥) انظر د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ١٠٦.

(٤٦) المصاحف ص ٩. وانظر الساعاتي ج ١٨ ص (٣٢ - ٣٣).

(٤٧) انظر الطبري: التاريخ ج ٣ ص ٣٤٣. والكلاعي ص ١٢٠.

جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة^(٤٨). ولا شك في أنه اكتمل قبل وفاة الصديق إذ إن الروايات تشير إلى أن الصحف أودعت عنده بقية حياته، ثم انتقلت إلى الخليفة الجديد من بعده، ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر، لتكون رهن تصرف الخليفة الثالث.

وتشير الروايات إلى أن كتابة القرآن في خلافة عمر قد أخذت تتسع إستجابة لحاجة الناس إلى تعلمه، خاصة أن الفتوح قد امتدت وكثر الداخلون في الاسلام، وازدادت حاجتهم إلى معرفة تعاليم الدين، فظهرت المصاحف في الأمصار من إملاء كبار الصحابة، الذين كانوا يعلمون القرآن هناك، فكان عبد الله بن مسعود يملئ المصاحف في الكوفة في خلافة عمر^(٤٩). وانطلق ركب من أهل الشام إلى المدينة - في خلافة عمر - يكتبون مصحفاً لهم^(٥٠). وركب أبو الدرداء إلى المدينة في نفر من أهل دمشق، ومعهم المصحف الذي جاء به أهل دمشق ليعرضوه على أبي بن كعب وزيد بن ثابت وعليّ وأهل المدينة^(٥١)، ويروي أبو عبيد أن عمر بن الخطاب وجد مع رجل مصحفاً قد كتبه بقلم دقيق، فقال: ما هذا؟ فقال: القرآن كله، فكره ذلك وضربه، وقال: عظموا كتاب الله، وكان عمر إذا رأى مصحفاً عظيماً سر^(٥٢).

وبذلك إزدادت المصاحف التي كتبها الصحابة وعامة المسلمين في خلافة عمر، وربما كانت تتضمن بعض آثار رخصة الأحرف السبعة التي يسر الله بها على الأمة في قراءة القرآن، مما أظهر الحاجة إلى مصحف يكون إماماً للمسلمين في كافة الأمصار، خاصة بعد أن برز الاختلاف في القراءة، وهو ما تم في خلافة عثمان، وسيكون ذلك حديث المبحث التالي.

(٤٨) الطبري: التاريخ ج ٣ (ص ٤١٩ - ٤٢٠).

(٤٩) انظر ابن أبي داود ص ١٣٧.

(٥٠) نفس المصدر ص ١٥٧.

(٥١) نفس المصدر ص ١٥٥.

(٥٢) فضائل القرآن لوحة ٥٧. وانظر السيوطي: الاتقان ج ٤ ص ١٥٨.

المبحث الثاني

توحيد المصاحف ونسخها في خلافة عثمان

أولاً: الأسباب والدوافع:

كان القرآن الكريم أهم شيء حمله المسلمون إلى البلاد التي بلغتها حركة الفتح المستمرة في كل اتجاه في عهد الخلافة الراشدة، وكان تعلم القرآن وقراءته أهم ما يشغل بال الداخلين في الدين الجديد، فظهرت لذلك في الأمصار الاسلامية مدارس لتعليم القرآن وقراءته، كان على رأسها في كل مصر جماعة من الصحابة الذين نزلوا فيه، وقد ألحنا في المبحث السابق إلى أن حركة نسخ المصاحف في الأمصار كانت في اتساع مستمر، وكان ذلك - سواء تعلم القراءة أم نسخ المصاحف - يتم في ظل رخصة الأحرف السبعة، التي أذن بها النبي - صلى الله عليه وسلم - في قراءة القرآن تيسيراً على المسلمين، ويبدو أن آثار تلك الرخصة قد ظهرت في الأمصار الاسلامية بصورة أكثر وضوحاً منها في المدينة بسبب البعد عن مهبط الوحي، ومكان الحفظ، وبسبب الامتزاج اللغوي، سواء بين العرب أنفسهم أم بينهم وبين غيرهم من الداخلين في الاسلام.

وقد مرت سنوات خلافة الصديق، التي تم فيها ذلك الإنجاز العظيم الذي حفظ القرآن، مصوناً كاملاً في الصحف التي ظلت محفوظة في دار الخلافة، ثم سنوات خلافة عمر بن الخطاب الذي كانت أيامه فتحاً على المسلمين في كل جانب، وقد أتاحت حركة الفتح أن يلتقي المسلمون - خاصة من الجيل الذين أخذوا من الصحابة - ويتدارسوا القرآن ويتذاكروه، وكان كل واحد يقرأه

مثل ما سمعه وتعلمه من الصحابي الذي تلقاه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا شك في أن قراءات الصحابة التي تلقوها عن النبي - صلى الله عليه وسلم - كانت تضم كثيراً من وجوه الأحراف السبعة، وتلقى جيل التابعين تلك القراءات عن أقرامهم من الصحابة، وتراجعوا في بعض وجوه القراءات، وادعى بعضهم أن قراءته أضح من قراءة غيره.

وكانت مظاهر تلك الحالة أشد وضوحاً في خلافة عثمان بن عفان، وتعطي الروايات صوراً مختلفة لذلك الخلاف، في القراءة، وعلى مستويات متعددة. فمن ميدان الحرب واختلاف الجند إلى ميدان التعليم واختلاف المعلمين وتلاميذهم. ويبدو أن حالات تنازع المسلمين في قراءة كلمات من القرآن قد تكاثرت أخبارها على مسامع الخليفة وكبار الصحابة، مما جعلهم يفكرون في الوسائل التي يمكن بها تقادي النتائج الخطيرة التي يمكن أن تترتب على مثل ذلك الخلاف.

كانت الكوفة التي نزلها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود - معلماً وفتياً - من أكثر الأمصار الإسلامية التي تشير الروايات إلى وقوع اختلاف في القراءة فيها، فينقل ابن حجر ان عمر أنكر على ابن مسعود قراءته (عتي حين)، أي (حتى حين) وكتب إليه: ان القرآن لم ينزل بلغة هذيل، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل، وكان ذلك قبل أن يجمع عثمان الناس على قراءة واحدة^(١). ويروي ابن أبي داود « أن ناساً كانوا بالعراق، يسأل أحدهم عن الآية، فإذا قرأها قال فإني أكفر بهذه، ففشا ذلك في الناس، واختلفوا في القرآن »^(٢).

ورواية الزهري عن أنس بن مالك في نسخ المصاحف - سترد بعد قليل - تشير إلى اختلاف أهل العراق وأهل الشام في القراءة، وهم في غزوة في بقاع أرمينية وأذربيجان، مما دفع حذيفة بن اليان (ت ٣٦هـ) إلى التوجه إلى دار

(١) فتح الباري ج ١٠ ص ٤٠٢.

(٢) المصاحف ٢٣. وانظر المز بن عبد السلام: الفوائد ص ٢٦.

الخلافة يدعو إلى وضع حد لذلك الخلاف. ويروي ابن الأثير في الكامل^(٣): أن حذيفة بن اليان خرج إلى جهة أذربيجان ومعه سعيد بن العاص، فلما رجعا قال حذيفة لسعيد: لقد رأيت في سفرتي هذه أمراً لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبداً. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وانهم أخذوا القراءة عن المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على ابي موسى، ويسمون مصحفه (لباب القلوب). فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكثير من التابعين، وقال له أصحاب ابن مسعود: ما تنكر؟ ألسنا نقرأه على قراءة ابن مسعود؟ فغضب حذيفة ومن وافقه وقالوا إنما أنتم أعراب فاسكتوا، فإنكم على خطأ. وقال حذيفة: والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولأشيرن^{عليه} أن يحول بين الناس وبين ذلك، فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرق الناس، وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى.

ويروي ابن أبي داود^(٤) عدة روايات عن أبي الشعثاء، منها أنه قال: «كنا جلوساً في المسجد وعبد الله يقرأ فجاء حذيفة فقال قراءة ابن أم عبد، وقراءة أبي موسى الأشعري، والله إن بقيت حتى آتي أمير المؤمنين - يعني عثمان - لأمرته يجعلها قراءة واحدة». وفي أخرى انه قال «كنت جالساً عند حذيفة وأبي موسى وعبد الله بن مسعود، فقال حذيفة أهل البصرة يقرأون قراءة أبي موسى، وأهل الكوفة يقرأون قراءة عبد الله. أما والله أن لو قد أتيت أمير المؤمنين لقد أمرته بفرق هذه المصاحف».

(٣) ج ٣ ص(٥٥-٥٦). وانظر ابن خلدون: مج ٢ ص١٠١٩.

(٤) انظر المصاحف ص(١٣-١٤).

ويروي الطبري وابن أبي داود عن أيوب السخيتاني (٦٨-١٣١هـ) أن أبا قلابة (ت بين ١٠٤ و ١٠٧هـ)^(٥): لما كان في خلافة عثمان، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعمل قراءة الرجل، فجعل الغلمان يتلقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين - قال أيوب: فلا أعلمه إلا قال - حتى كفر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان، فقام خطيباً فقال: «أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون، فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً، إجتمعا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً».

وبذلك تضافرت الاسباب والدوافع التي جعلت عثمان - رضي الله عنه - يفكر في جمع الناس على مصحف موحد في رسمه وهجائه، يجمعهم على قراءة واحدة، القراءة العامة التي كان يقرأها عامة الصحابة في المدينة وفي غيرها من الأمصار وهي القراءة التي كتب عليها زيد القرآن زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - في خلافة الصديق.

ثانياً: إتمام العمل، والقائمون به:

وكان أول ما بدأ به الخليفة الثالث لتحقيق ذلك أن خطب الناس في المدينة، وفيهم كثير من الصحابة، يستشيرهم ويدعوهم إلى القيام بهذه المهمة. ويروي ابن أبي داود أن سويد بن غفلة الجعفي (ت ٨١٢هـ) قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول^(٦): يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً (أو قولوا له خيراً) في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملامنا جميعاً، فقال ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفرًا، قلنا فما

(٥) الطبري: التفسير ج ١ ص ٦١. وابن أبي داود ص ٢١. وانظر: الداني: المنقح ص ٧.

(٦) المصاحف ص ٢٢

ترى؟ قال نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف، قلنا فنعم ما رأيت.»

والرواية المشهورة التي تحكي خطوات ذلك العمل الكبير هي التي يرويها أبو عبيد في فضائله^(٧)، والبخاري في صحيحه^(٨)، وابن أبي داود في المصاحف^(٩)، وابن النديم في الفهرست^(١٠)، والداني في المقنع^(١١)، وغير ذلك من المصادر^(١٢). عن ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) عن أنس بن مالك (ت بين ٩١-٩٣هـ). ونص رواية البخاري «حدثنا موسى، حدثنا ابراهيم، حدثنا ابن شهاب أن أنس ابن مالك حدثه ان حذيفة بن اليان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الامة قبل أن يختلفوا في الكتاب إختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا المصحف في المصاحف رد عثمان المصحف إلى حفصة. وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

« قال ابن شهاب: واخبرني خارجة بن زيد بن ثابت (أنه) سمع زيد بن ثابت

(٧) فضائل القرآن لوحة ٣٦

(٨) الجامع الصحيح ج ٦ ص ٢٢٦

(٩) المصاحف ص ١٨

(١٠) الفهرست ص ٢٤

(١١) المقنع: ص ٥

(١٢) انظر: ابو حاتم الرازي ج ١ ص ١٤٦. والسيوطي الاتقان ج ١ ص ١٦٩.

قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فالتمسناها فوجدتها مع خزيمه بن ثابت الأنصاري: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، فألحقناها في سورتها في المصحف.»

وتتحدث هذه الرواية عن السبب الذي دفع الخليفة الثالث أن يأمر بتوحيد المصحف - والذي تحدثنا عنه في مطلع هذا البحث - وهو الخوف من نتيجة ذلك الخلاف - الذي بدأ في قراءة كلمات من القرآن - على مستقبل الأمة ووحدتها.

وتتحدث أيضاً عن الأصل الذي اعتمد عليه في نسخ المصحف العثماني، وهو المصحف التي كتبت في خلافة الصديق، بيد زيد بن ثابت من القطع التي كتبت في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وتشير إلى ترجيح لسان قریش حين ظهور أي خلاف بين زيد المدني وبين من معه من الصحابة القرشيين، وسيأتي بعد قليل تفصيل علاقة المصحف العثماني برخصة الأحرف السبعة، والقراءة (أو الحرف) التي كتب عليها المصحف العثماني.

أما الجماعة الذين تولوا العمل فقد كان على رأسهم زيد بن ثابت، الذي كان من أئمة الصحابة لكتابة الوحي في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي تولى كتابة القرآن في المصحف في خلافة الصديق، وقد اجتمع لزيد بن ثابت من الصفات ما يؤهله للقيام بذلك العمل خير قيام، فقد تربى في كنف الوحي، إذ كان عمره - مقدم النبي المدينة مهاجراً - إحدى عشرة سنة^(١٣). ويروى أنه قال^(١٤): «أُتِيَ بي النبي - صلى الله عليه وسلم - مقدمه المدينة، فقالوا يا رسول الله هذا غلام بني النجار، وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأعجبه ذلك»، وكان النبي -

(١٣) ابن قتيبة: المعارف ص ١١٣. وابن عبد البر ج ٢ ص ٥٣٧. والذهبي: سير أعلام النبلاء: ج ٢ ص ٢٠٧.

(١٤) الباقلاني ص - ٣٧٠. والذهبي: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٧.

صلى الله عليه وسلم - قد استصغر يوم بدر جماعة فردهم منهم زيد بن ثابت ، فلم يشهد بدرأ ثم شهد أحداً وما بعدها من المشاهد^(١٥) . ورُمي يوم اليمامة بسهم فلم يضره^(١٦) . ويروي الذهبي أن ابن عمر قال يوم مات زيد بن ثابت^(١٧) : يرحمه الله ، فقد كان عالم الناس في خلافة عمر وحبرها ، فرقمهم عمر في البلدان ، ونهاهم أن يفتنوا برأيهم ، وحبس زيد بن ثابت بالمدينة يفتي أهلها . ويروي ابن سعد أن سليمان بن يسار (٣٤-١٠٧ هـ) قال^(١٨) : ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحداً في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة . ويروي أن عامراً الشعبي قال^(١٩) : غلب زيد بن ثابت الناس بالقرآن والفرائض . وهو إضافة إلى ذلك كان يحفظ القرآن ويقراه بالعرضة الأخيرة التي عرض بها جبريل - عليه السلام - القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - في العام الذي قبضه الله فيه^(٢٠) . وقد ظل زيد مترسماً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلي - في مقامه بالمدينة - وبعد ذلك خمس سنين حتى ولي معاوية سنة أربعين فكان أيضاً حتى توفي سنة خمس وأربعين^(٢١) .

(١٥) ابن عبد البر ج ٢ ص ٥٣٧ .

(١٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٥٣٨ .

(١٧) سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣١٠ .

(١٨) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٥٩ .

(١٩) مكى: الإبانة ص ٥٣ وانظر ابن عبد البر ج ٢ ص ٥٣٩ .

(٢٠) الداني: المنع ص ١٢١ وانظر البخاري: ج ٦ ص ٢٢٩ . وكتاب الهجاء لمجهول (مخطوط) منه نسخة (ميكروفلم) في معهد المخطوطات ورقة ٢/٢

(٢١) انظر ابن سعد ج ٢ ص ٣٥٩ . وقد اختلف في تحديد سنة وفاة زيد الا ان أكثر

المصادر على ما ذكر . انظر ابن سعد ج ٢ ص ٣٦٠ وابن قتيبة: المعارف ص ١١٣ .

وابن عبد البر: ج ٢ ص ٥٤٠ . والذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢

ص (٣١٥-٣١٦) ومعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (له) . ط ١ .

القاهرة . دار الكتب الحديثة ١٩٦٩ ج ١ ص ٣٧ .

ويبدو من الطبيعي - بعد ذلك - أن يولي الصديق زيد بن ثابت كتابة القرآن إقتداء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وأن يولي عثمان زيد بن ثابت أمر الجماعة التي قامت بنسخ المصاحف الموحدة، لانه كان أعلم من غيره وأكثر ممارسة في هذا المجال. ويقول القاضي أبو بكر الباقلاني^(٢٢): ويدل على صحة اختيار زيد أن أحدنا اليوم إذا أراد أن يكتب مصحفاً يتخذه إماماً لا يلتمس له أقدم أهل عصره حفظاً وأفهمهم وأشجعهم، وإنما يلتمس أحسنهم ضبطاً وخطاً، وأحضرهم فهماً، دون من كانت تلك صفاته.

ومن ثم يبدو طبيعياً - أيضاً - ألا يشترك عبد الله بن مسعود، الذي كان في الكوفة وقت نسخ المصاحف في ذلك العمل^(٢٣). إضافة إلى أنه لم يكن من بين كتبة الوحي^(٢٤). الذين كتبوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهو ربما كان يعرف الكتابة، لكن تلك ميزة يقدم من اتصف بها في عمل مثل كتابة المصحف. ولا يعني ذلك تجهيلاً لابن مسعود في علم القرآن، فقد كان من أوائل الذين أسلموا بمكة، وقد أخذ من في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بضماً وسبعين سورة^(٢٥). وهو الذي قال فيه النبي حين سمعه يقرأ القرآن « من أحبّ أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد »^(٢٦). لكن زيدا كان إماماً في الرسم - إضافة إلى حفظه - وابن مسعود كان إماماً في الاداء^(٢٧). وربما ألفت قصة رفض ابن مسعود - في البداية - إحراق مصحفه ظللاً على ما قيل في عدم

(٢٢) نكت الانتصار ص ٣٦٩.

(٢٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٣٤٩. وانظر ابن سعد ج ٦ ص ١٣.

(٢٤) انظر أسماء كتاب النبي وكتبة الوحي في المصادر المذكورة في هامش رقم ٦ ص ٦٠.

(٢٥) ابن سعد ج ٢ ص ٣٤٤.

(٢٦) الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٣٥ وانظر ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات

القراء. القاهرة. مكتبة الخانجي ١٩٣٢ ج ١ ص ٤٥٩.

(٢٧) الذهبي: سير اعلام النبلاء ج ١ ص ٢٤٩.

إشراكه في نسخ المصاحف وعزله عن ذلك العمل - مما سنشير إليه بعد قليل .
 أما الثلاثة الذين تشير الرواية إلى اشتراكهم مع زيد فهم: عبد الله بن الزبير
 الذي ولد في السنة الأولى أو الثانية من الهجرة، وهو أول مولود في الاسلام من
 المهاجرين بالمدينة، وقتل بمكة سنة ثلاث وسبعين من الهجرة^(٢٨). وسعيد بن
 العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ولد عام الهجرة وتوفي سنة تسع وخمسين،
 وكان سعيد هذا أحد أشرف قريش ممن جمع السخاء والفصاحة، واستعمله عثمان
 على الكوفة وغزا بالناس طبرستان فافتتحها^(٢٩). والثالث عبد الرحمن بن
 الحارث بن هشام المخزومي، كان ابن عشر سنين حين قبض رسول الله صلى الله
 عليه وسلم^(٣٠). فكان هؤلاء الثلاثة وهم في ذروة الشباب يعملون مع زيد بن
 ثابت الذي كان أكثرهم ممارسة لذلك العمل - رضي الله عنهم جميعاً .

وينقل الطبري رواية ابن شهاب عن خارجة بن زيد ان عثمان قرن بزيد أبان
 ابن سعيد بن العاص وحده^(٣١). وما ذكره البخاري وغيره هو الصحيح
 المشهور^(٣٢).

ويروي ابن سعد^(٣٣). وابن أبي داود^(٣٤)، أن محمد بن سيرين قال: إن عثمان
 جمع إثني عشر رجلاً من قريش والأنصار فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت في
 جمع القرآن. وتشير روايات أخرى إلى اشتراك جماعة غير أولئك، منهم مالك بن

(٢٨) ابن عبد البر ج ٣ ص ٩٠٥ و ٩٠٧ .

(٢٩) نفس المصدر ج ٢ ص (٦٢١-٦٢٤). وانظر أيضاً ابن حجر ج ١٠ ص ٣٩٣ .

(٣٠) ابن عبد البر ج ٢ ص ٨٥٧ .

(٣١) التفسير ج ١ ص ٦٠ .

(٣٢) القرطبي ج ١ ص ٥٢ . وانظر ابن عطية (عبد الحق بن أبي بكر): مقدمة تفسيره
 (الجامع المحرر) نشرها آرثر جفري . القاهرة . مكتبة الخانجي ١٩٥٤ ص ٢٧٥ .

(٣٣) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٥٠٢ .

(٣٤) المصاحف ص ٢٥ . وانظر مكّي: الابانة ص ٢٩ .

أبي عامر جد مالك بن أنس، وكثير بن أفلح، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص^(٣٥). وكان ابتداء الأمر - إن صحت الروايات - كان لزيد والثلاثة الذين كانوا معه، ثم احتاجوا إلى من يساعد في الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق^(٣٦).

وإشارة هذه الروايات إلى مشاركة أبي بن كعب في نسخ المصاحف كانت مثار تساؤل من الباحثين، قدماء ومحدثين، ذلك أن الروايات تضطرب في تحديد سنة وفاته فبعضها يجعلها في سنة تسع عشرة وبعضها سنة إثنين وعشرين وأخرى سنة ثلاثين أو إثنين وثلاثين^(٣٧). وبالمقابل فإن تحديد تاريخ نسخ المصاحف غير محدد - كما سيأتي - فلا يمكن لذلك ترجيح شيء في هذا الصدد - الآن. لكن الذهبي يصف رواية ابن سعد لمشاركة أبي بن كعب في نسخ المصاحف بقوله: هذا إسناد قوي لكنه مرسل. ثم يقول^(٣٨): «وما أحسب أن عثمان ندب للمصحف أياً، ولو كان كذلك لاشتهر، وكان الذكر لأبي لا لزيد، والظاهر وفاة أبي في زمن عمر، حتى أن الهيثم بن عدي وغيره ذكر موته سنة تسع عشرة، وقال محمد ابن عبد الله بن نير، وأبو عبيد، وأبو عمر الضرير: مات سنة إثنين وعشرين، فالنفس إلى هذا أميل»، ويروي أن عمر قال يوم موته^(٣٩): اليوم مات سيد المسلمين، أو سيد الناس. وتشير بعض الروايات - كما سيأتي بعد قليل - إلى بعض مساهمات له في تمحيص وتصحيح بعض صور الكتابة في القرآن^(٤٠). لكن

(٣٥) الباقلائي ص ٣٥٨. وانظر القسطلاني: ج ١ ص ٦١.

(٣٦) انظر القسطلاني ج ١ ص ٦٣ ود. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ١١٥.

(٣٧) انظر ابن قتيبة: المعارف ص ١١٣. وابن عبد البر ج ١ ص ٦٥. والذهبي: سير

أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٨٧.

(٣٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٨٧.

(٣٩) ابن قتيبة: المعارف ص ١١٣. والذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٣٣.

(٤٠) أبو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٣٧.

أبياً لم يشهد مكان العمل - كما تشير الرواية - فقد كانت ترسل إليه الاستشارة مكتوبة على كتف شاة ليعطي رأيه فيها^(٤١). ولا شك في أن أبيّاً كان أهلاً لأن يؤخذ رأيه في قضايا الرسم والقراءة، فهو من أوائل كتاب الوحي في المدينة، وكان أحد حفاظ القرآن زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - وربما نجد تفسيراً لعدم حضوره إلى المكان الذي تعمل فيه الجماعة في نسخ المصاحف، أنه كان - حينئذ - مريضاً ومرضه هذا هو الذي أعفاه من الخروج إلى الشام لتعليم أهلها القرآن في خلافة عمر بن الخطاب، حين طلب عامله عليها أن يعينه ببعض الصحابة يعلمون الناس هناك^(٤٢) لكن بعد هذا كله يظل - الآن - التساؤل حول الفترة التي ترجع إليها مساهمات أبيّ في نسخ المصاحف، وهل كانت مقصورة على عهد الصديق وعمر، أم أن حياة أبيّ امتدت إلى خلافة عثمان وشهد عمل الجماعة التي نسخت المصاحف وأسهم من بعيد في ذلك العمل - دون إجابة محددة.

ثالثاً: ما افتقده زيد من القرآن في الجمع الأول، وأثبتته بعد السؤال عنه:

وتشير الرواية السابقة لابن شهاب الزهري عن خارجه بن زيد في نسخ المصاحف زمن عثمان والتي أدرجها في حديث أنس إلى فقدان زيد آية من سورة الأحزاب، وقد جاءت الرواية دون تحديد للفترة، فهل كان ذلك في جمع الصديق أو في نسخ المصاحف في خلافة عثمان؟ إن إدراجها في رواية نسخ المصاحف يوحى أن ذلك قد كان في العمل الأخير، وهو أمر بعيد، خاصة أن المصاحف العثمانية هي نسخة مطابقة لصحف الصديق منقولة عنها. لكننا حين نعود إلى روايات جمع الصديق نجدتها تتحدث عن فقدان زيد آخر سورة التوبة

(٤١) أبو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٣٧. وانظر ابن فارس ص ٩

(٤٢) ابن سعد ج ٢ ص ٣٥٦. وانظر مقدمة كتاب المباني لمجهول (ألفه سنة ٤٢٥ هـ) نشر

آرثر جفري. القاهرة. مكتبة الخانجي ١٩٥٤ ص ٤٩.

(آية ١٢٧)، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. أما الآية التي تشير إلى فقدانها رواية الزهري عن خارجة فهي من سورة الأحزاب (آية ٢٣)، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾. فهناك إذن روايتان عن آيتين سقطتا في جمع القرآن، وتم إثباتها بعد المراجعة^(٤٣).

إن الرواية الأولى صريحة بأن آخر سورة التوبة سقط في الجمع الأول زمن الصديق، والرواية الثانية لا تشير إلى زمن محدد لفقدان آية من سورة الأحزاب، لكن ورودها بعد رواية نسخ المصاحف في خلافة عثمان قد يوهم أنها سقطت في هذا العمل الأخير. ويبدو أن هذا الوهم كان بسبب إيراد روايات جمع القرآن ونسخه متداخلة في صعيد واحد^(٤٤). ويذهب بعض العلماء إلى أن ذلك كله كان في جمع الصديق^(٤٥). ويروي مؤلف (كتاب المباني لنظم المعاني) في مقدمته رواية عن الزهري عن خارجة بن زيد عن أبيه - تتحدث عن جمع القرآن في خلافة الصديق، وهي تشبه رواية الزهري عن عبيد بن السباق عن زيد - المشار إليها سابقاً - إلا أنها تنفرد عنها بذكر خبر فقدان الآيتين في ذلك الجمع لا فقدان آية واحدة، وهي بذلك تزيل بعض الغموض الذي تسببه رواية الزهري عن خارجة، التي أدرجها في رواية أنس بن مالك عن توحيد المصاحف ونسخها في خلافة عثمان. والرواية هي^(٤٦): «وفي لفظ الشيخ أبي سهل الأنباري (محمد بن محمد بن علي الطالقاني)، رحمه الله، حدثنا أبو يعقوب يوسف بن موسى قال حدثنا محمد بن يحيى القطعي، قال حدثنا عبيد بن عجيل، قال حدثنا خارجة ابن مصعب عن عمارة بن غزيرة عن الزهري قال: حدثني خارجة بن زيد بن ثابت

(٤٣) انظر ابن أبي داود ص(٢٩-٣٠).

(٤٤) انظر ابن حجر ج ١٠ ص ٣٨٥

(٤٥) انظر ابن كثير ص ٤٦ وابن عاشر الانصاري (عبد الواحد بن أحمد بن علي): فتح المنان المروي بمورد الظمان. (مخطوط). دار الكتب المصرية (تيمور ٢١٥ تفسير)

ص ٣٤.

(٤٦) مقدمة كتاب المباني ص ٢٠.

عن أبيه قال: جاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر.. (وذكر خبر جمع القرآن في خلافة الصديق ثم).. قال (زيد): فعرضت عرضة واحدة فوجدتني قد أسقطت هذه الآية (الاحزاب ٢٣) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ فسألت المهاجرين والأنصار فلم أجد (ها) عند أحد منهم، وقد كنت أعرفها، وقد كان أملاها علي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكرهت أن أثبتها حتى يشهد معي غيري، فأصبتهما عند خزيمه بن ثابت الأنصاري الذي أجاز رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شهادته بشهادة رجلين^(٤٧)، فكتبتها، ثم عرضت عرضة أخرى، فوجدتني قد أسقطت آيتين، وقد عرفتها (التوبة آية ١٢٧) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ حتى ختم الآيتين، فسألت عنها المهاجرين والأنصار فلم أجدهما عند أحد منهم إلا عند خزيمه بن ثابت الذي أجاز رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شهادته فكتبتها في آخر براءة. وعلى هذا فإن العمل الذي قام به كل من زيد ومن معه في خلافة عثمان كان تاماً لم يحدث فيه فقدان شيء، ولم يكن يتعدى الأساس الذي وضعه زيد في خلافة الصديق نقلاً عن القطع التي كتب عليها القرآن العظيم في حياة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: ترتيب الآيات والسور:

وتنقلنا الملاحظة الأخيرة إلى موضوع ترتيب الآيات في السور وتتابع السور في المصحف، وإذا لم يكن لدينا نص صريح يوضح الأساس الذي تم بموجبه ترتيب السور فإن هناك عدة روايات تؤكد أن وضع الآيات في السور كان يتم

(٤٧) انظر تفصيل قصة إجازة شهادته بشهادتين ابن سعد ج ٤ ص ٣٧٨. وقد اختلفت الروايات في تحديد اسم الصحابي الذي وجد زيد عنده الآيات التي اقتطعها بين أبي خزيمه الأنصاري وبين خزيمه بن ثابت الأنصاري، وتقارب الاسمين وورودهما في بعض الروايات بصيغة واحدة يوحي أنها اسمان لصحابي واحد هو خزيمه بن ثابت الأنصاري. وانظر في هذه المسألة أيضاً ابن سعد ج ٣ ص ٤٩٠ وج ٤ ص ٣٧٨. وابن حجر ج ١٠ ص ٣٨٨. والقسطلاني ج ١ ص ٥٣ هامش (٢).

بتوجيه من النبي - صلى الله عليه وسلم - وبأمره . يبين ذلك الحديث الذي يرويهِ ابن عباس عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - انه قال^(٤٨): « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا أنزل عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا... ». ويروي أبو عبيد أن سعيد بن المسيب (١٣-٩٤هـ) قال^(٤٩): إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لبلال مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة، فقال أخطط الطيب بالطيب، فقال: اقرأ السورة على وجهها أو قال على نحوها. ويروي أن زيد بن ثابت قال: « كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نؤلف القرآن من الرقاع..... »^(٥٠) وهي رواية تشير إلى أن عملية ترتيب الآيات أو السور كانت تتم بتوجيه من النبي - صلى الله عليه وسلم - ويؤكد هذه الرواية قول مالك^(٥١): « إنما أُلّف القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله -

(٤٨) انظر: ابو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٣٧ و٣٥. وغريب الحديث له ج ٤ ص ١٠٤. وابن أبي داود ص ٣١- والحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): المستدرک على الصحيحين في الحديث ط ١. حيدر آباد (الهند). دائرة المعارف النظامية. ١٣٤٠هـ ج ٢ ص ٢٢١. والسيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٧٢. والقسطلاني ج ١ ص ٢٦. واللفظ لابن أبي داود. وقال عنه الحاكم « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ».

لكن الأستاذ أحمد محمد شاكر عقب على ايراد ابن حبان للحديث (صحيح ابن حبان تحقيق أحمد محمد شاكر). دار المعارف بمصر ١٩٥٢ ج ١ ص ٤٣ هامش (٢٢) بقوله: أخطأ الحافظ ابن حبان رحمه الله في تصحيح هذا الحديث كما أخطأ غيره من العلماء.

(٤٩) فضائل القرآن لوحة ٢٠. وانظر السيوطي: الاتقان ج ١ ص ٣٠٨.

(٥٠) الحاكم ج ٢ ص ٢٢٩. وقال عنه: « حديث صحيح على شرط الشيخين » وانظر الساعاتي ج ١٨ ص ٣٠.

(٥١) الداني: المقنع ص ٨٠ علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ٣ب. القرطبي ج ١ ص ٦٠.

صلى الله عليه وسلم». وفي الكلام عن ترتيب الآيات في السور لا ينبغي أن يغيب عن البال الوحدة الموضوعية والاسلوبية التي تبدو في كثير من السور، وهو ما يقطع التفكير في أي احتمال لكون ذلك الترتيب اجتهاداً من الصحابة.

وإذا كان تتابع الآيات في السور محددًا معلومًا فإن قراءة النبي للسور في الصلاة وخارجها يبدو أنها كانت تتم على نسق معلوم قد عرف وشهر بين الصحابة^(٥٢). ويروي ابن سعد^(٥٣)، والبخاري^(٥٤)، أن جبريل - عليه السلام - كان يعرض القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - كل سنة مرة، في شهر رمضان، فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين. ولا شك أن ذلك العرض كان يتم على نسق معين وربما قد عرفه بعض الصحابة، لا سيما أن من بينهم عدداً من الحفاظ للقرآن منهم: عثمان بن عفان، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وسعد بن عبيد، وأبو زيد، وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب، وتميم الداري، ومجمع بن جارية وعبد الله بن مسعود، وبعض هؤلاء أكمل الحفظ بعد موت النبي وأكثرهم حفظه والنبي - صلى الله عليه وسلم - بينهم لما يلحق بالرفيق الأعلى^(٥٥). ولا بد أن هؤلاء كانوا يحفظون القرآن على نسق معين قد عرفوه من النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن ثم لعلمهم لم يجدوا صعوبة في ترتيب السور حين جمعوا القرآن في الصحف، لشهرة ذلك بينهم، ومما قد يدل على أن ترتيب السور كان قد عرف منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم أن ترتيب السور في المصاحف التي تنسب إلى بعض الصحابة - قبل جمع المصحف العثماني - لا يختلف عن الترتيب المشهور في المصحف العثماني إلا

(٥٢) انظر: أبو عبيد: فضائل القرآن لوحة ١٣.

(٥٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص (١٩٤-١٩٥).

(٥٤) الجامع الصحيح ج ٦ ص ٢٢٩.

(٥٥) انظر ابن سعد ج ٢ ص (٣٥٥-٣٥٦) والبخاري: ج ٦ ص (٢٢٩-٢٣٠).

والسيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٩٩.

قليلاً، وهي تتفق في تقديم السور الطويلة ثم التي تليها في القصر في نسق قريب من ترتيب المصحف العثماني إلا ما يذكر من ترتيب المصحف المنسوب لعلي بن أبي طالب أنه كان مرتباً على أسباب النزول^(٥٦). ولعل الاختلاف ناتج من أن هؤلاء الصحابة لم يقفوا على آخر ما سمع عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك. ونذكر هنا تعقيب ابن النديم على ترتيب مصحف ابن مسعود حين يقول^(٥٧): « رأيت عدة مصاحف ذكر نساخها أنها مصحف ابن مسعود ليس فيها مصحفين (؟) متفقين » وكان ابن النديم يشك في الترتيب الذي ذكره للسور في أن يكون محفوظاً عن ابن مسعود، خاصة إذا تذكرنا أن ما عدا المصاحف المنسوخة من المصحف العثماني قد أحرقت منذ خلافة عثمان، وتلقت الأمة ذلك الترتيب المشهور بالقبول. فكل حديث - بعد ذلك - عن ترتيب السور في مصاحف الصحابة ضرب من الحدس يفتقد الدليل وتعوزه الحجة والنقل الصحيح.

والعلماء مجمعون على أن ترتيب الآيات في السور كان يتم بأمر من النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول السيوطي^(٥٨): « الاجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي، لا شبهة في ذلك... ». أما ترتيب السور في المصحف فقد اختلفوا في كونه توقيفاً عن النبي أو اجتهاداً من الصحابة. وجمهور العلماء - كما يقول السيوطي - على الثاني^(٥٩). لكن الأدلة على ذلك تبقى ظنية، ويظل احتمال معرفة الصحابة لهذا الترتيب من النبي - صلى الله عليه وسلم - هو الأرجح، خاصة أن الأحاديث الواردة في قراءة رسول الله - صلى الله عليه

(٥٦) انظر ترتيب المصاحف المنسوبة لبعض الصحابة: السيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٨١ وما بعدها. والزنجاني (أبو عبد الله): تاريخ القرآن. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥ ص ٤٧ وما بعدها.

(٥٧) الفهرست ص ٢٦.

(٥٨) الاتقان ج ١ ص ١٧٢.

(٥٩) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٦.

وسلم - جاءت على أنه رتبها في الصلاة على نحو ما هي مرتبة الآن^(٦٠). ومن ثم ليس هناك دليل - على ما يبدو - للقول بأن جمع الصديق للقرآن لم يكن مرتب السور، خاصة انه قد عرف أن الصديق كان أول من جمع القرآن بين اللوحين - وهي تسمية تدل على أنه كان مرتباً - ولا دليل في تسمية جمعه بالصحف على أنها لم تكن مرتبة السور حتى رتبها الصحابة حين نسخوا المصاحف في خلافة عثمان^(٦١).

خامساً: عدد المصاحف، وتاريخ النسخ:

وتشير رواية الزهري عن أنس - السالفة - إلى أنه بعد أن أنجز زيد والجماعة الذين عملوا معه نسخ الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة^(٦٢). وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

والرواية في ظاهرها لا تشير إلى عدد المصاحف التي تم نسخها ولا أسماء الأمصار التي أرسلت إليها، وإنما تكتفي بالإشارة إلى إرسال المصاحف إلى كل أفق من آفاق الدولة الاسلامية آنذاك - وهي عبارة توحى بأن عدد تلك المصاحف كان كبيراً، خاصة أن الهدف منها هو توحيد المصاحف وقراءة القرآن في كافة الأمصار الاسلامية، فمن المتوقع - إذن - إرسال نسخة إلى كل إقليم أو مصر، لكن وردت روايات عن الأجيال التي تلت جيل الصحابة تشير إلى عدد

(٦٠) العز بن عبد السلام: الفوائد ص ٢٦. وانظر في هذا الموضوع: الباقلاني ص ٨١. وابن عطية: ٢٧٥. والقرطبي ج ١ ص ٦٠. والزرکشي ج ١ ص ٢٣٦. وابن حجر ج ١٠ ص ٣٨٩ و ٤١٥. والسيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٧٢ وما بعدها. والقسطلاني ج ١ ص ٣٠.

(٦١) انظر ابن حجر ج ١٠ ص ٣٩٣ والقسطلاني ج ١ ص ٥٩.

(٦٢) روي أن عبد الله بن عمر قبض الصحيفة بعد موت حفصة، فعزم عليه مروان والي المدينة فأخذها منه وأتلفها أو أحرقها مخافة أن يكون فيها خلاف ما في نسخ عثمان فيقع الاختلاف (انظر ابن أبي داود ص ٢١ ومكي: الابانة ص ٢٦).

تلك المصاحف، وينقل ابن أبي داود روايتين في ذلك، الاولى عن حمزة الزيات (ت ١٥٦هـ)، والتي تجعل عدد المصاحف أربعة كان منها واحد أرسل إلى الكوفة، والثانية عن أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، وتجعل عددها سبعة، أرسل واحد منها إلى مكة، وآخر إلى الشام، وثالث إلى اليمن، ورابع إلى البحرين، وخامس إلى البصرة، وسادس إلى الكوفة، وحُسِبَ بالمدينة واحد منها^(٦٣). لكن لم يسمع لمصحفي اليمن والبحرين خبر^(٦٤). وفي رواية للقرطبي أن عثمان وجه للعراق والشام ومصر بأمتهات^(٦٥). ويلاحظ هنا أن المصاحف التي تحدث الداني عن مرسوم خطوطها في المقنع تقتصر على « مصاحف أهل الأمصار: المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وسائر العراق »^(٦٦).

وإذا كانت هذه الروايات غير قاطعة في تحديد عدد المصاحف التي أرسلها الخليفة الثالث فإن تأمل الأسباب التي دفعت إلى توحيد نسخ المصحف يسوغ القول بأن كل الأمصار الاسلامية قد وصلها المصحف الموحد في الترتيب والهجاء، سواء كان ذلك نسخة مما أنتجته الجماعة التي أوكل إليها الخليفة الثالث ذلك العمل، أم نسخة كتبت من إحدى تلك النسخ، فما أن وصلت المصاحف التي نسخت في المدينة إلى الأمصار حتى سارع المسلمون إلى نسخ المصاحف منها وعرضها عليها.

وإتماماً للخطوة التي بدأت بنسخ المصاحف الموحدة فقد أمر الخليفة بإحراق كل القطع والمصاحف التي كتب فيها القرآن من قبل بعض الصحابة، ليضع بذلك حداً لأي اختلاف يقع، سواء في الرسم أم في القراءة. وقد سارع كل من لديه شيء من ذلك إلى إحراقه، ثقة منه بالمصحف الذي تمتد أصوله إلى ما كتب

(٦٣) المصاحف ص ٣٤. وانظر مكّي: الابانة ص ٢٩. والداني: المقنع ص ٩. والسيوطي

الاتقان ج ١ ص ١٧٢.

(٦٤) انظر الجعبري ورقة ٦٧ ب. والسيوطي: الاتقان ج ١ ص ٢٢٤.

(٦٥) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٥٤.

(٦٦) المقنع ص ١.

بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - والذي ارتضته جموع الصحابة والتابعين في المدينة وغيرها من الأمصار، ولم يتخلف عن ذلك إلا عبد الله بن مسعود ومن تبعه من أهل الكوفة، إذ يروى أنه أنكر تولية زيد بن ثابت نسخ المصاحف دونه، وأبى أن يسلم مصحفه في أول الأمر، وأمر أتباعه بغل مصاحفهم^(٦٧). وقد قال أبو بكر الأنباري^(٦٨): وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشيء تَجَبُّه الغضب، ولا يعمل به، ولا يؤخذ به، ولا يشك في أنه - رضي الله عنه - قد عرف بعد زوال الغضب منه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم. وقد أشرنا - من قبل - إلى أسباب إختصاص زيد بن ثابت بمهمة جمع القرآن وكتابته في خلافة الصديق، وتوليته أمر الجماعة التي قامت بنسخ المصاحف في خلافة عثمان. ولا تشير رواية الزهري السابقة إلى تاريخ محدد لنسخ المصاحف، وتكتفي بالاشارة إلى أن ذلك كان في خلافة عثمان، ومحاولة استخلاص ذلك من دراسة تاريخ أحداث فتح أرمينية وأذربيجان والتقاء جند أهل الشام والعراق في تلك الأصقاع^(٦٩)، يبدو أمراً غير ممكن - الآن - خاصة أن حديث المصادر التاريخية عن ذلك لا يخلو من الغموض والإبهام، ولا سيما أن فتوح تلك الأنحاء قد امتدت لعدة سنوات^(٧٠).

(٦٧) انظر: ابو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٣٦. وابن سعد ج ٢ ص ٣٤٣. وابن ابي داود ص(١٤-١٥).

(٦٨) القرطبي ج ١ ص ٥٣. وانظر ابن أبي داود ص ١٨.

(٦٩) انظر في ذلك: البلاذري ص(٢٠٥-٢١٢)، وص (٣٣٣-٣٣٦). واليعقوبي ص ٢٧٢. والطبري: التاريخ ج ٤ ص ٢٤٦. وابن عبد البر ج ١ ص ٣٣٥. وابن حزم ص ٣٤٣. وابن الأثير ج ٣ ص ٤٣. وص ٥٥. وابن خلدون ج ٢ ص (١٠١٦-١٠١٨). ود. عبدالله خورشيد: القرآن وعلومه في مصر. القاهرة. دار المعارف ١٩٧٠ ص(٤٥-١٨).

(٧٠) انظر سترك: مادة أرمينية في دائرة المعارف الإسلامية (مترجم) ١٩٣٣ ج ١ ص ٦٤٢.

ولكن نجد أن ابن أبي داود قد أخرج من طريق أبي إسحاق عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: خطب عثمان الناس فقال: يا أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة، وأنتم تمترون في القرآن.. لكن في رواية اخرى منذ خمس عشرة سنة^(٧١). (ثم ذكر الحديث في جمع القرآن)، وبحساب السنوات منذ وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ما بعد ثلاث عشرة أو خمس عشرة سنة يرجع ابن حجر أن يكون ذلك قد وقع في (أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين). ثم يقول «وغفل بعض من أدركنا فزعم أن ذلك كان في حدود سنة ثلاثين ولم يذكر لذلك مستنداً»^(٧٢).

ولا بد من الإشارة - بعد ذلك - إلى أن نسخ المصحف الذي اجتمعت عليه الامة كان قد خضع للمراجعة والتمحيص، على نحو ما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يطلب من زيد إعادة قراءة ما كتبه، فيقيم ما به من سقط - كما مر ذلك - مع أن زيدا ومن معه اعتمدوا على الصحف التي جمع فيها القرآن في خلافة الصديق، إذ إنهم - حرصاً منهم على الاتفاق في هجاء بعض الكلمات - كانوا يرفعون ذلك إلى الخليفة عثمان - الذي كان أحد كتبة الوحي - على نحو ما حدث في كلمة (التابوت)، أو يستشيرون كبار الصحابة من حفاظ القرآن وكتبة الوحي، ليجتمعوا على رأي واحد في ذلك. ويروي أبو عبيد في فضائل القرآن قوله^(٧٣): حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الله بن المبارك، قال حدثني أبو

(٧١) ابن أبي داود: صفحة (٢٤). والعدد المذكور في الرواية يشير الى عدد السنوات من وفاة النبي حتى ظهور الحديث عن الاختلاف في القراءة، وقيام عثمان بخطب الناس حول الأمر، في خلافته.

(٧٢) فتح الباري ج ١٠ ص ٣٩١. وانظر السيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٧٠، وقد حدد ابن الأثير (في الكامل ج ٣ ص ٥٥) تاريخ نسخ المصاحف بسنة ثلاثين وتابعه في ذلك ابن خلدون (انظر مج ٢ ص ١٠١٨).

(٧٣) لوحة ٣٧. وقد وصف ابن حجر (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ج ٣ ص ٢٨٦) الحديث بقوله: (وفيه ضعف) وفي نفس الصفحة هامش (٣) وقال البوصيري: رواه اسحاق بإسناد ضعيف.

وائل شيخ من أهل اليمن، عن هانيء البربري مولى عثمان قال: كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب^(٧٤)، فيها (لم يتسن)، وفيها (لا تبديل للخلق)، وفيها (فأمهل الكافرين) قال: فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين، وكتب (لخلق الله)، ومحا (فأمهل) وكتب (فمهل)، وكتب (لم يتسنه) ألحق فيها الهاء. وينقل أبو عبيد في رواية أخرى ان هانئاً قال: كنت الرسول بين عثمان وبين زيد بن ثابت، فقال زيد سله عن قوله (لم يتسن) فقال عثمان: إجعلوا فيها الهاء^(٧٥).

وهاتان الروايتان توضحان أنه قد كانت هناك مراجعة واستشارة في إثبات صورة كلمة ما، وتبينان مدى الحرص على أن يأتي المصحف دقيقاً في رسمه، حين يتوقف الكتابة عن إلحاق لام أو هاء، أو حذف ألف حتى يستشار كبار الصحابة من كتبة الوحي وحفظة القرآن في إثبات ذلك أو حذفه.

ويروي الطبري^(٧٦)، والداني^(٧٧)، عن أبي قلابة انه قال: حدثني أنس بن مالك، قال: كنت فيمن يملئ عليهم. قال: فرما اختلفوا في الآية، فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولعله أن يكون غائباً أو في بعض البوادي، فيكتبون ما قبلها وما بعدها، ويدعون موضعها، حتى يجيء أو يرسل إليه. وهذه الرواية تشير إلى حرص الكتابة على ألا يكتبوا آية قد يختلف في قراءتها إلا بعد التأكد من الصيغة التي أقرأها النبي - صلى الله عليه وسلم - للصحابة، وهكذا تم للمصحف العثماني الغاية في الدقة والضبط، سواء في القراءة العامة التي كتب عليها، أو في دقة رسم الكلمات وهجائها، على ما كان معروفاً لديهم من قواعد الهجاء والاملاء.

ومها يكن من أمر فقد توافرت جهود كبار الصحابة من حفظة القرآن وكتبة الوحي، سواء في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - أو عهد الصديق

(٧٤) سبق أن أشرنا (ص ١١٦) الى الاختلاف في سنة وفاة أبي. وهل أدرك نسخ المصاحف أم لا. (٧٥) فضائل القرآن لوحة ٣٧.

(٧٦) التفسير ج ١ ص ٦٢. (٧٧) المقنع ص ٧. وانظر السيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٧٠.

وعمر ثم في خلافة عثمان على كتابة القرآن وجمعه محفوظاً في الصدور، ومكتوباً في السطور، حتى جاء على أتم صورة يمكن أن يكون عليها كتاب، مصداقاً لقوله - سبحانه - ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ٩)، دستوراً خالداً للامة المسلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. يقول القاضي أبو بكر الباقلاني^(٧٨): «جميع القرآن الذي أنزله الله تعالى، وأمر بإثباته، ولم ينسخه، ولا رفع تلاوته، هو الذي بين اللوحين، الذي حواه مصحف عثمان - رضي الله عنه - لم ينقص منه شيء، ولا زيد فيه شيء، نقله الخلف عن السلف، وهو معجزة الرسول عليه السلام».

وقد اتفقت كلمة المستشرقين وعلماء الغرب المحققين المنصفين من لهم دراسات في هذا المجال - وهم لا يؤمنون بطبيعة الحال بكون القرآن منزلاً من الله، ووحياً أوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم - على صحة نقله وانتهائه بنصه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهناك بضع شهادات لكبار من أولئك المستشرقين تؤكد أن القرآن هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصه محفوظاً من التحريف، وأنه لم يتطرق شك إلى أصالته، وأن كل حرف نقرأه اليوم نستطيع أن نشق بأنه لم يقبل أي تغيير من يوم نزوله^(٧٩).

ومن المهم قبل أن نتناول القضايا والظواهر الكتابية التي يقدمها ويشيرها رسم المصحف العثماني - دراسة الأساس الذي كتب عليه المصحف العثماني، أي القراءة التي اعتمدها الكتبة في رسمهم للكلمات، وهل حرصوا على إثبات بعض مظاهر رخصة الأحرف السبعة في آن واحد - كما يزعم بعض الباحثين - أو أنهم اعتمدوا القراءة العامة المشهورة التي سمعوها من النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك ما سنحاول دراسته في المبحث التالي، ليتبين الأساس الذي على ضوئه يمكن أن تدرس ظواهر الكتابة بطريقة واضحة المنهج محددة الاتجاه.

(٧٨) نكت الانتصار ص ٥٩.

(٧٩) انظر نصوص تلك الأقوال في كتاب: النبي الخاتم لأبي الحسن علي الحسيني الندوي. ط ١. القاهرة. المختار الإسلامي ١٩٧٥ ص (٣٠-٣١).

المبحث الثالث

القاعدة التي كُتِبَ على أساسها المصحف العثماني

اختلف علماء السلف: هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة أو على بعضها أو على واحد منها؟
والإجابة على هذا السؤال مهمة جداً - قبل محاولة اتخاذ موقف ما من قضايا الرسم - لأن التعامل مع الظاهرة الكتابية على أنها كتبت بهذه الطريقة أو تلك لتحتمل عدداً من القراءات أو لتمثيل مجموعة من الظواهر اللغوية في آن واحد - إن كان ذلك ممكناً كما يذهب بعض الباحثين - يختلف عنه في حالة القول بأنها كتبت لتمثيل لفظ محدد أو قراءة معينة. ففي الحالة الأولى سيكون من غير اليسير الوقوف على أصل الظاهرة مع تواردها عدة قراءات عليها، وفي الحالة الثانية - ونحن لا نستعمل الإجابة هنا على السؤال بنتائج مسبقة - سيسهل اكتشاف ذلك الأصل من واقع القراءات وظواهرها، إلى جانب ملاحظة البعد التاريخي في الكتابة التي قد تمثل ظواهر لغوية كانت موجودة في اللغة، لكن التطور اللغوي أراحها من الاستعمال، وحافظت الكتابة - التي هي أقل تطوراً - على أشكالها المكتوبة، كما سبق بيان ذلك في الفصل التمهيدي.
وقبل محاولة الإجابة عن ذلك السؤال، لا بد من تحديد مفهوم الأحرف السبعة - بقدر ما يمكن - ومعرفة علاقة القراءات بها، ولعل من المناسب - قبل مناقشة ذلك - الكلام عن حديث الأحرف السبعة، لما لهذا الحديث من شأن خطير في تاريخ القرآن^(١).

(١) انظر د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٢٣.

أولاً: حديث الأحرف السبعة بين الصحة والشذوذ:

يبدو أن محاولة مناقشة توثيق حديث الأحرف السبعة، والتدليل على صحته وتواتره قد أصبحت من فضول القول، بعد ذلك الاجماع العريض من العلماء وتواتر الروايات التي جاءت في صور متقاربة مؤكدة على معنى واحد وهو « أن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه »، فقد ورد إلينا هذا الحديث عن طريق أربعة وعشرين صحابياً، وستة وأربعين سنداً^(٢). وأورده البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث^(٣)، ونص على تواتره كل من أبي عبيد القاسم بن سلام^(٤)، وأبي عمرو الداني^(٥). وابن القاصح^(٦).

ولعل من الغريب جداً بعد الذي قررناه من مذهب أبي عبيد في تواتر الحديث - أن نجد جولدتسيهر - في معرض كلامه عن الحديث - ينسب إلى أبي عبيد قوله في الحديث انه: « شاذ غير مسند ». ويسوق ذلك بطريقة المشكك الذي يريد أن يحرف الكلم عن مواضعه، فهو يقول عن حديث الأحرف السبعة، وهو يتحدث عن المفهوم العددي للسبعة: « ... الذي روي في مجاميع السنة المعتد بها على الرغم من أن ثقة مثل أبي عبيد القاسم بن سلام (توفي ٥٢٤/٨٣٧م)

(٢) د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن، ص ٣٠.

(٣) انظر روايات الحديث: أبو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٤٦-٤٧. والبخاري ج ٦ ص ٢٢٧، ومسلم (بن الحجاج القشيري): الصحيح. القاهرة. دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤ ج ١ ص (٥٦٠-٥٦٣). والطبري: التفسير ج ١ ص (٢١-٤٦). ومكي: الابانة ص (٦٢-٦٩). والسيوطي: الاتقان ج ١ ص ١٣١. وانظر روايات الطبري في كتاب تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين ص (٢٢٩-٢٤٥) مع نقد الروايات.

(٤) فضائل القرآن لوحة ٤٦. وانظر الزركشي ج ١ ص ٢١٢.

(٥) جامع البيان ورقة ٤ ب.

(٦) ابن القاصح (أبو البقاء علي بن عثمان): تلخيص الفوائد وتقريب المتباعد ط ١. القاهرة. مصطفى الباني الحلبي ١٩٤٩. ص ١٣.

دمغه بأنه شاذ غير مسند»^(٧). ولا شك أن رأي أبي عبيد وهو أحد أعلام الإسلام المتقدمين في الحديث والفقه واللغة له وزنه في هذا المجال، فاستغل ذلك جولدسيهر ليحاول بعث الشك في صحة هذا الحديث الهام في تاريخ القرآن عامة والقراءات خاصة.

لكن الصواب هو أن أبا عبيد قد نص على تواتر الحديث وصحته - كما أشرنا - أما ما ذكره جولدسيهر فهو تحريف متعمد، فقد استند - في تقرير ذلك - على نص أورده أبو الحجاج البلوي في (ألف با) وهو يتحدث عن المقصود بالأحرف السبعة. يقول أبو الحجاج^(٨): «فسره أبو عبيد فقال: يعني سبع لغات من لغات العرب... وقال أيضاً في حديث يرفعه على سبعة أحرف: حلال وحرام، وأمر ونهي، وخبر ما كان قبلكم، وخبر ما هو كائن بعدكم، وضرب الأمثال، ثم قال أبو عبيد: ولسنا ندري ما وجه هذا الحديث لأنه شاذ غير مسند، وصحح ما قاله أولاً في القرآن حسبما ذكره في الغريب، وهذه نخبة قوله - رحمه الله - قلت (البلوي): ولعمري ان النفس تميل إلى ما قاله أبو عبيد - رحمه الله - من أنها لغات متفرقة في السنة العرب...». فأبو عبيد - هنا - وصف الحديث الذي يفسر الأحرف السبعة بأنها ضروب من المعاني المختلفة بأنه «شاذ غير مسند». فالشذوذ واقع في رواية الحديث التي تفسره على ذلك النحو لا في أصل حديث الأحرف السبعة، الذي فسره أبو عبيد بأن المقصود منه سبع لغات. وقد شارك أبا عبيد في رد القول بأن المراد من الأحرف السبعة تلك المعاني جمهور العلماء^(٩).

(٧) جولدسيهر: (اجتس): مذاهب التفسير الاسلامي (مترجم) القاهرة. مكتبة الخانجي ١٩٥٥ ص ٥٤.

(٨) البلوي: الف با ج ١ ص ٢١٠.

(٩) يروي الإمام مسلم (ج ١ ص ٥٦١) أن ابن شهاب قال «بلغني أن تلك الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً. لا يختلف في حلال ولا حرام». وانظر أبو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٤٦. والبلوي ج ١ ص ٢١٠. والعز بن عبد السلام: الفوائد ص ٣١. وانظر أيضاً السيوطي: الاتقان ج ١ ص (١٣٦-١٣٧).

ولعل من المفيد - بعد ذلك - إثبات نص كلام أبي عبيد في حديث الأحرف السبعة وبيان معناه، الذي عثرنا عليه في كتابيه: (فضائل القرآن) وهو (مخطوط) و(غريب الحديث) الذي ذكره البلوي في النص السابق وهو (مطبوع)، يقول أبو عبيد في فضائل القرآن بعد أن أورد عشرًا من روايات حديث الأحرف السبعة^(١٠): «قال أبو عبيد قد تواترت هذه الأحاديث كلها على الأحرف السبعة إلا حديثاً واحداً، يروى عن سمرة بن جندب، قال أبو عبيد، حدثنا عثمان عن خالد عن سلمة عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - انه قال: نزل عليّ القرآن على ثلاثة أحرف. قال أبو عبيد: ولا نرى المحفوظ إلا سبعة أحرف لأنها المشهورة». وفي كتاب غريب الحديث ما يوضح بطلان ما ادعاه جولدتسيهر^(١١): «وقال أبو عبيد: في حديثه عليه السلام انه قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف، وبعضهم يرويه فاقراً أو كما علمتم».

«قال أبو عبيد قوله: سبعة أحرف - يعني سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، هذا ما لم نسمع به قط، ولكن نقول هذه اللغات متفرقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة أهل اليمن، وكذلك سائر اللغات، ومعانيها مع هذا كله واحدة. وما يبين ذلك قول ابن مسعود: إني قد سمعت القراءة فوجدتهم متقاربين فاقراً أو كما علمتم، إنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال. وكذلك قال ابن سيرين: إنما هو كقولك: هلم وتعال وأقبل. ثم فسره ابن سيرين فقال في قراءة ابن مسعود (إن كانت إلا زقية واحدة) وفي قراءتنا (إن كانت إلا صيحة واحدة)، والمعنى فيها واحد. وعلى هذا سائر اللغات.

«وقد روي في حديث خلاف هذا، قال: نزل القرآن على سبعة أحرف: حلال وحرام، وأمر ونهي، وخبر ما كان قبلكم، وخبر ما هو كائن بعدكم،

(١٠) لوحة ٤٧.

(١١) ج ٣ ص (١٥٩-١٦١).

وضرب أمثال. قال أبو عبيد: ولسنا ندري ما وجه هذا الحديث لأنه شاذ غير مسند، والاحاديث المسندة المثبتة ترده، ألا ترى أن في حديث عمر الذي ذكرناه في أوله انه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها. وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقرأنيها. فأتيت به النبي عليه السلام، فأخبرته فقال له: إقرأ فقرأ تلك القراءة، فقال هكذا انزلت. ثم قال لي: إقرأ، فقرأت قراءتي فقال هكذا انزلت، ثم قال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه، وكذلك حديث أبي بن كعب هو مثل حديث عمر أو نحوه، فهذا يبين لك ان الاختلاف إنما هو في اللفظ والمعنى واحد... وليس يكون المعنى في السبعة الأحرف إلا على اللغات لا غير، بمعنى واحد، لا يختلف فيه حلال ولا حرام ولا خبر ولا غير ذلك.»

وقد نقلنا كلام أبي عبيد - هنا - على طوله لتؤكد صحة الحديث، وتزول من الأذهان الشبهة التي حاول جولدسيهر إثارتها استناداً إلى فهمه الخاطيء للرواية أو تحريفه المتعمد لكلام أبي عبيد. وسنشير إلى رأي أبي عبيد، الذي فصله هنا في معنى الحديث، بعد قليل.

ثانياً: معنى الأحرف السبعة:

إن روايات الحديث لا تكاد توضح طبيعة الخلاف الذي كان يقع بين الصحابة في قراءة القرآن، فكانوا يرفعون أمره إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فيجيز قراءة الجميع بناء على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، رغم أنها تشير إلى أن ذلك الخلاف كان لا يتجاوز ألفاظ التلاوة إلى معاني الآيات.

وقد حظي حديث الأحرف السبعة باهتمام كبير لبيان معناه والمقصود من الأحرف المذكورة فيه^(١٢)، منذ وقت مبكر، إذ تنسب رواية إلى ابن عباس في

(١٢) بين معنى الحرف في اللغة ومعناه في الاصطلاح تعلق ومناسبة، ففي اللغة «حرف كل شيء حده وناحيته» (ابن دريد: الجمهرة ج ٢ ص ١٣٨. وانظر الجوهري ج ٤ ص ١٣٤٢ وابن منظور ج ١٠ ص ٣٨٥). ويقول ابن جني (سر صناعة =

معنى هذا الحديث وظل العلماء يتناولونه بالبحث سنداً ومتناً، وتكلم فيه أصناف العلماء من أهل الحديث والفقهاء والقراء وأهل التفسير والكلام وشرح القريب وغيرهم، حتى صنّف فيه التصنيف المفرد، مثل ما صنع الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥هـ) فقد ألف فيه كتاباً حافلاً^(١٣).

= (الاعراب ص ١٥): «أن (ح ر ف) أيما وقعت في الكلام يراد بها حد الشيء وحدته، من ذلك حرف الشيء إنما هو حده وناحيته»، ثم يبين الاستعمالات المجازية للكلمة فيقول (ص ١٦): «ومن هنا سميت حروف المعجم حروفاً، وذلك أن الحرف حد منقطع الصوت وغايته وطرفه، كحرف الجبل ونحوه، ويجوز أن تكون سميت حروفاً لأنها جهات للكلم ونواح، كحروف الشيء وجهاته المحدقة به. ومن هذا قيل: فلان يقرأ بحرف أبي عمرو وغيره من القراء، وذلك لأن الحرف حد ما بين القراءتين وجهته وناحيته، ويجوز أن يكون قولهم حرف فلان يراد به حروفه التي قرأ بها، أي القارئ يؤديها بأعيانها، من غير زيادة ولا نقص فيها، فيكون الحرف في هذا، وهو واحد، واقعاً موقع الحروف وهي جماعة». ويقول الأزهري (ج ٥ ص ١٢): «وكل كلمة تقرأ على وجوه من القرآن تسمى حرفاً، يقرأ هذا في حرف ابن مسعود أي في قراءة ابن مسعود».

(وانظر ابن منظور ج ١٠ ص ٣٨٥). ويقول ابن قتيبة (تأويل مشكل القرآن ص ٢٧): «والحرف يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم، وعلى الكلمة الواحدة، ويقع الحرف على الكلمة بأسرها، والخطبة كلها والقصيدة بكماها» (وانظر الزركشي ج ١ ص ٢١٣). والحرف عند الطبري يعني القراءة فحرف ابن مسعود أي قراءته (التفسير ج ١ ص ٥٢، وانظر: مكّي: الابانة ص ٥٤)، ويعبر الطبري أحياناً بالقراءات السبع عن الأحرف السبعة (التفسير ج ١ ص ٦٥) - مع الحذر من انصراف الذهن هنا الى قراءات القراء السبعة - ويرى الداني ان معنى الحرف في حديث الأحرف السبعة محتمل وجهين: الأول: ان معنى الحرف الوجه من اللغات والثاني: ان معنى الحرف القراءة (جامع البيان ورقة ٤ب). وانظر ابن الجزري: النشر ج ١ ص ٢٣). وسيوضح المعنى الاصطلاحي للحرف في حديث الأحرف السبعة من خلال الصفحات التالية. وانظر في معنى الحرف - عامة - لغة واصطلاحاً: (د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ١٩٥ وما بعدها).

(١٣) انظر ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحميد): مجموعة فتاوى ابن تيمية.

ومن أقدم من تعرض لبيان المراد من هذا الحديث - ممن وصلت إلينا آراؤهم - هو أبو عبيد القاسم بن سلام، وقد مرت - من قريب - نصوص مما قاله في ذلك، وهي توضح موقفه من معنى الحديث. ويقول أيضاً^(١٤): «ولكنه عندنا أنه نزل على سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون بعضه بلغة قبيلة، والثاني بلغة أخرى سواها، والثالث بلغة أخرى سواها، وكذلك إلى السبعة». ويؤكد ذلك المعنى بقوله^(١٥): «والأحرف لا معنى لها إلا اللغات مع أن تأويل كل حديث منها بين في الحديث نفسه، ألا ترى أن عمر قال سمعت هشام من حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأ... (أمثلة أخرى) فأنت ترى أن اختلافهم إنما كان في الوجوه والحروف التي تفرق فيها الألفاظ، فأما التأويل فلم يختلفوا فيه». ويوضح مراده بمثال من قراءة ابن مسعود (زقية) مكان (صيحة) وينقل عن ابن مسعود وابن سيرين: (أنه كقولك: هلم وتعال واقبل). وكان مفهوم الحديث عند أبي عبيد هو اختلاف الالفاظ مع اتفاق المعنى، وان ذلك يرجع إلى سبع لغات من لغات العرب، دون أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه من تلك اللغات.

ويروي أبو عبيد عن ابن عباس تسمية أسماء القبائل المقصودة لغاتها من طريقين: الأول عن قتادة عن سمع ابن عباس. والثاني عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس^(١٦). لكن الطبري يرد هاتين الروايتين وما فيها من ذكر لغات أحياء من قبائل العرب لأن ذلك - في رأيه - روي عن ابن عباس من

= القاهرة. مطبعة كردستان العلمية. ١٣٢٦ هـ. مج ١ ص ٣١٢. وابن الجزري: النشر ج ١ ص ٢١. وفي العصر الحديث كتب الشيخ محمد نجيب الطيبي (ت ١٩٣٥م) رسالة سماها: الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن (القاهرة. المطبعة الخيرية ١٣١٣ هـ) جمع فيها أكثر ما قيل في هذا الموضوع في المصنفات القديمة.

(١٤) فضائل القرآن لوحة ٤٧.

(١٥) نفس المصدر لوحة ٤٨.

(١٦) نفس المصدر لوحة ٤٧. وانظر الرازي: الزينة ج ١ ص ١٤٥.

طريق من لا يجوز الاحتجاج بنقله، فالأولى لأن قتادة لم يلق ابن عباس ولم يسمع عنه - مع ملاحظة أن الرواية تقول عن قتادة عن سمع ابن عباس - ولأن الثانية من طريق الكلبي عن أبي صالح (وهي رواية متهمة)^(١٧). وإلى جانب ذلك فإن الحديث بجميع طرقه جاء عاماً، أما تعيين اللغات واللهجات فيبدو أنها زيادات وشروح ليست من أصل المتن، وإنما وردت عن بعض الصحابة أو عن روى عنهم^(١٨).

وذهب مذهب أبي عبيد في معنى الحديث كل من أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ) وأبو منصور الأزهري صاحب تهذيب اللغة^(١٩).

ويأتي ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) - بعد أبي عبيد - فيتحدث عن معنى الحديث في سياق كلامه عن اختلاف القراءات، وبعد أن بيّن غلط من ذهب إلى أن المراد بالحديث ضروب من المعاني المختلفة، أو سبع لغات في الكلمة، بيّن رأيه في معنى الحديث، فيقول^(٢٠): « وإنما تأويل قوله - صلى الله عليه وسلم -: نزل القرآن على سبعة أحرف: على سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن. يدل ذلك على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (فاقرأوا كيف شئتم). ويحاول ابن قتيبة أن يبين تلك الأوجه السبعة من خلال ما تقدمه القراءات من وجوه الخلاف - ونورد هنا نص كلامه لما كان له من أثر في التاليين له الذين لم يتجاوزوا في الغالب الدائرة التي رسمها في فهم الحديث - يقول^(٢١): « وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه:

(١٧) الطبري: التفسير ج ١ ص ٦٦. وانظر ابن الجزري: النشر ج ١ ص ٢٤.

(١٨) د. جواد علي: لهجة القرآن الكريم ص ٢٧١.

(١٩) انظر الأزهري: تهذيب اللغة ج ٥ ص ١٣. والبلوي: ج ١ ص ٢١٠ وانظر: العز ابن عبد السلام: الإشارة الى الإيجاز في بعض أنواع المجاز. الاستانة. المطبعة العامة ١٣١٣ هـ ص ٢١٤.

(٢٠) ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن. القاهرة. دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤ ص ٦.

(٢١) نفس المصدر ص (٢٨-٢٩).

أولها: الاختلاف في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها بما لا يُزيلها عن صورتها في الكتاب، ولا يُغيّر معناها، نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ لَأَبْنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ (هود ٧٨) وَأَطْهَرَ لَكُمْ. ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ (سبأ ١٧) وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكُفُورُ. ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ (النساء ٣٧) والحديد (٢٤) وَبِالْبُخْلِ. ﴿فَنظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ (البقرة ٢٨٠) وَمَيْسَرَةٍ.

والوجه الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة، وحركات بنائها، بما يُغيّر معناها، ولا يُزيلها عن صورتها في الكتاب، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ (سبأ ١٩) وَرَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا. و ﴿إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسِّتَةِ﴾ (النور ١٥) وَتَلَقَوْنَهُ. ﴿وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف ٤٥) وَبَعْدَ أُمَّةٍ.

والوجه الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها، بما يُغيّر معناها، ولا يُزيل صورتها، نحو قوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ (البقرة ٢٥٩) وَنُنْشِزُهَا. ونحو قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ (سبأ ٢٣) وَفُرِّعَ.

والوجه الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يُغيّر صورتها في الكتاب، ولا يُغيّر معناها، نحو قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقِيَةً وَاحِدَةً﴾ و ﴿صِيحَّةً﴾ (يس ٢٩) و ﴿كَالْصُّوفِ الْمَنْفُوشِ﴾ و ﴿كَالْعَيْنِ﴾ (القارعة ٥).

والوجه الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يُزيل صورتها ومعناها، نحو قوله: ﴿وَطَلَعِ مَنْضُودٍ﴾ في موضع ﴿وَطَلَحِ مَنْضُودٍ﴾ (الواقعة ٢٩).

والوجه السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير، نحو قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ (ق ١٩)، وفي موضع آخر: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾.

والوجه السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتَ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ (يس ٣٥)، ونحو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (لقمان ٢٦)، و﴿إِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

ومما يلاحظ على هذه الوجوه من الاختلاف في القراءات التي يذكرها ابن

قتيبة في بيان معنى الأحرف، أنه يعتبر ما خرج على خط المصحف داخلاً في الوجوه السبعة، سواء أكان ذلك إبدال كلمة محل كلمة أم تغيير بعض حروف الكلمة أم تقديم كلمة أو تأخيرها أم زيادة كلمة أو نقصها عما عليه خط المصحف، وهذا مهم في بيان تطور معنى الشذوذ، وبيان علاقة القراءات الشاذة بالرسم، خاصة أن مصطلح القراءات السبع أو العشر لم يكن قد ظهر بعد. كذلك يلاحظ - هنا - أن ابن قتيبة لم يشر إلى كون اختلاف وجوه الاداء من همز وتسهيل وإمالة وفتح وإدغام وإظهار.. إلى آخره، من بين الوجوه السبعة. وسنجد أن محاولة ابن قتيبة هذه في بيان معنى الأحرف من خلال تصنيف أوجه اختلاف القراءات ستظل ذات أثر، تتفاوت درجته، على مواقف التالين له حتى العصر الحديث.

وتناول أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) هذا الحديث والمراد منه، وهو يحاول الاجابة على تساؤله: بأي ألسن العرب أنزل القرآن؟ بألسن جميعها أو بألسن بعضها؟ ويبيّن أن الذي نزل به القرآن من ألسن العرب البعض دون الجميع، إذ كان معلوماً أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبعة بما يعجز عن احصائه، وقد تظاهرت الاخبار عنه - صلى الله عليه وسلم - أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وهو يرى بهذا المفهوم أن معنى الحديث «أنه نزل بسبع لغات، وأمر بقراءته على سبعة ألسن»^(٢٢). وهو ينفي في سياق ذلك أن يكون معنى الأحرف السبعة سبعة أوجه من المعاني، ويستدل على ذلك بأن الأحاديث التي وردت في ذلك تشير إلى (أنهم تماروا في القرآن، فخالف بعضهم بعضاً في نفس التلاوة دون ما في ذلك من المعاني)^(٢٣) ويبيّن رأيه في معنى الأحرف بوضوح حين يقول^(٢٤): «الأحرف السبعة التي أنزل الله بها القرآن هي لغات

(٢٢) التفسير: ج ١ ص ٤٧.

(٢٣) نفس المصدر ج ١ ص ٤٨.

(٢٤) نفس المصدر ج ١ ص (٥٧-٥٨).

سبع، في حرف واحد وكلمة واحدة، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني، كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، وإليّ، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك، مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق، وتتفق فيه المعاني، وإن اختلفت بالبيان به الألسن، كالذي روينا آنفاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمن روينا ذلك عنه من الصحابة. إن ذلك بمنزلة قولك: هلم وتعال وأقبل. وقوله: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا زَيْقِيَّةً) و«إلا صيحة». وهو يرى أن ستة منها قد ذهب، وأن الباقي منها هو الحرف الذي جمعهم عليه الخليفة عثمان، وأما صور اختلاف القراءات من رفع حرف وجره ونصبه، وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة، فإنه عن معنى حديث الأحرف السبعة - كما يرى الطبري - بمعزل (٢٥).

ويفهم من هذا أن الطبري يذهب إلى أنه لا يدخل في باب الأحرف السبعة من صور الخلاف إلا ما كان بإبدال كلمة مكان كلمة مرادفة لها في المعنى، أي أنه يعتبر كل ما خرج عن خط المصحف مما ثبتت روايته من الأحرف السبعة دون ما سوى ذلك مما يحتمله الخط من وجوه القراءات.

ورغم تقارب الأمثلة التي يوردها أبو عبيد والطبري لشرح موقفها من معنى الأحرف إلا أن هناك خلافاً جوهرياً في موقفها، إذ إن معنى السبعة عند أبي عبيد هو لغات سبع قبائل من العرب، والسبعة عند الطبري هي سبع وجوه من الألفاظ المتفقة في المعنى مع اختلاف اللفظ. ثم إن أبا عبيد - كما يفهم من كلامه - لا يقصر معنى الأحرف على ما قصره عليه الطبري، ولا يقول بذهاب الستة الأحرف وأن ما بيد الناس من القراءات راجع إلى حرف واحد. كذلك ليس معناه عند - أبي عبيد - أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، وهو ما يفهم من كلام الطبري.

ومن جاء بعد الطبري من العلماء لا يكادون ينفكون عن ترديد ما ذهب

إليه أبو عبيد أو ابن قتيبة ومناقشة الطبري في ما ذهب إليه، وترجيح رأي وتوهين آخر، وتصيد الآراء الغريبة عن جو الحديث ومناسبته، إلا أن ذلك لا يعني أنهم لم يأتوا بأفكار مفيدة.

فَمِمَّنْ تناول حديث الأحرف السبعة بالبحث أبو بكر الباقلاني (٤٠٢ هـ) فيقول^(٢٦): « إن لم يدلنا نص من النبي - صلى الله عليه وسلم - على أسمائها بأسرها، فإنما نقول في الجملة إن القرآن منزل على سبعة أحرف في اللغة والإعراب وتغيير الاسماء والصور»، ثم يورد بعد ذلك سبعة أوجه من الخلاف، لا تخرج عما أورده ابن قتيبة.

وعرض لمعنى الحديث مكِّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ)، وتكلم عن جوانب كثيرة مما يتعلق به، ويشير إلى أن هذا المعنى قد كثر اختلاف الناس فيه، ثم يقول^(٢٧): والذي نعتقه في ذلك، ونقول به وهو الصواب - إن شاء الله - أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن: هي لغات متفرقة في القرآن، ومعان في ألفاظ تسمع في القراءة. وهو بعد ذلك يصنف وجوه الخلاف في القراءات ويورد الأوجه السبعة على نحو لا يخرج عما ذكره ابن قتيبة، إلا أنه يشير إلى أن وجوه الاداء داخلية في القسم الأول من الأوجه التي ذكرها ابن قتيبة.

وقد ذكر مكِّي أن الطبري قد نقض مذهبه الذي قرره في معنى حديث الأحرف، والذي أورده في تفسيره بما ذكره في كتابه عن القراءات من أن كل ما صح من القراءات هو من الأحرف السبعة، وليس لنا أن نُحطِّيء من قرأ به إذا كان ذلك موافقاً لخط المصحف، فإن كان مخالفاً لخط المصحف لم نقرأ به، ووقفنا عنه، وعن الكلام فيه. ثم يقول مكِّي^(٢٨): « فهذا إقرار منه ان ما وافق خط المصحف مما اختلف فيه فهو من الأحرف السبعة على مثل ما ذهبنا إليه، وقد

(٢٦) نكت الانتصار ص ١٢٠.

(٢٧) الابانة ص ٣٤ وما بعدها.

(٢٨) نفس المصدر ص ٢٠.

تقدم في قوله: إن جميع ما اختلف فيه مما يوافق خط المصحف فهو حرف واحد ،
وإن الأحرف الستة ترك العمل بها ، وهذا مذهب متناقض .»

وتناول الحديث أيضاً أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) في كتابه جامع البيان ،
وهو لا يخرج في مناقشته للموضوع - رغم أهميتها - عما ذهب إليه سابقوه^(٢٩) .
وذكره صاحب كتاب المباني (ألفه سنة ٤٢٥هـ) في مقدمته^(٣٠) ، وابن عطية
(٥٤٣هـ) في مقدمة تفسيره الجامع المحرر^(٣١) . والبلوي (ت ٦٠٤هـ) في ألف
با^(٣٢) ، وعلم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ) في جمال القراء^(٣٣) ، والقرطبي (٦٧١هـ)
في أحكام القرآن^(٣٤) . ويذكر القرطبي أن أبا حاتم محمد بن حبان البستي
(ت ٣٥٤هـ) ذكر في معنى الأحرف السبعة خمسة وثلاثين قولاً . وتناوله أيضاً
الزرکشي (٧٩٤هـ) في البرهان^(٣٥) . وابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) في النشر^(٣٦) .
والسيوطي (ت ٩١١هـ) في الاتقان^(٣٧) . ويذكر السيوطي أنه اختلف في معنى
هذا الحديث على نحو أربعين قولاً . وتناوله أيضاً القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) في
لطائف الاشارات^(٣٨) . وتناوله المحدثون بالبحث أيضاً^(٣٩) .

(٢٩) ورقة (٦٤-٧٧ب) .

(٣٠) ص (٢١٠-٢٣٤) .

(٣١) ص (٢٦٥-٢٧٤) .

(٣٢) ج ١ ص (٢١٠-٢١٣) .

(٣٣) ورقة ٨٦ب .

(٣٤) ج ١ ص ٤٢ .

(٣٥) ج ١ ص ٢١٢ وما بعدها

(٣٦) ج ١ ص (٢١-٥٤) .

(٣٧) ج ١ ص (١٣١-١٤١) .

(٣٨) ج ١ ص (٣١-٤٤) .

(٣٩) أوسع مناقشة حديثة للموضوع ما كتبه الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه: تاريخ
القرآن ص (٢٣-٤٤) . وانظر أيضاً: عبد الوهاب حمودة: القراءات واللهجات =

ورغم تعدد وجهات النظر التي يوردها القدماء في معنى الحديث والتي بلغ بها السيوطي نحواً من أربعين قولاً، فإن الحديث - بمختلف رواياته - لا ينص على شيء منها، وكذلك فإنه - كما يقول ابن حبان - لم يثبت من وجه صحيح تعيين كل حرف من هذه الأحرف^(٤٠). ومن ثم فإن تلك الآراء - وكثير منها غير معروف النسبة إلى عالم معين - هي مجرد استنتاج تحتمله الروايات أحياناً، ولا يمت إليها بصلة أحياناً أخرى، خاصة في الفترات المتأخرة عندما حاولت كل طائفة من العلماء أن تجد أركان علمها في ظلال هذا الحديث^(٤١).

ومع ذلك فإن فهم معنى الحديث - عامة - يمكن أن يتأتى من محاولة فهم الظروف التي لا بدته، دون محاولة حصر تلك الأوجه، وقد سار في هذا الاتجاه بعض علماء السلف - خاصة المتقدمين منهم مثل أبي عبيد وابن قتيبة والطبري - حين فهموا الحديث على أنه تيسير على الأمة في قراءة القرآن، رغم أنهم قد استهواهم تحديد تلك السبعة، لكنهم لم يخرجوا - عامة - عما تقدمه وجوه اختلاف القراءات من أمثلة.

وقد ثبت أن ورود الرخصة والتيسير كان بعد الهجرة النبوية إلى المدينة، وأن روايات الحديث كانت تصف أحداثاً وقعت في المدينة^(٤٢). وهذا يعني أن الاختلاف في القراءة لم يكن قد برز في المجتمع المكي حيث كان المسلمون من بيئة لغوية واحدة، تكاد تنعدم فيها الفروق اللغوية، وحين هاجر النبي

١. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ ص(١١-٤١). ود. ابراهيم أنيس: في اللهجات العربية ص٥٤ وما بعدها. ود. صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ط٣. بيروت. دار العلم للملايين ١٩٦٤. ص(١٠١-١١٦).

(٤٠) الزركشي: ج ١ ص٢٢٦ وانظر أيضاً ج ١ ص٢١٢.

(٤١) انظر تلك الآراء في السيوطي: الاتقان ج ١ ص١٣١ وما بعدها.

(٤٢) انظر ابن حجر: ج ١٠ ص٤٠٣ ود. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص٣٩. ود. عبده الراجحي: اللهجات العربية في القراءات القرآنية. القاهرة. دار

المعارف ١٩٦٩ ص٦٨.

وصحابه إلى المدينة المنورة تغيرت الحال، فازداد عدد المسلمين، وامتد الإسلام إلى خارج المدينة بين القبائل العربية في بيئات لا تخلو من الفوارق اللغوية، واختلاف العادات النطقية، ولما كان الإسلام يهدف إلى أن يتلو القرآن كل مسلم فقد ظهرت مشكلة القدرة على تحقيق ألفاظ التلاوة بكل خصائصها الصوتية، لأن العرب «متباينون في كثير من الألفاظ واللغات، ولكل عمارة لغة دلت بها ألسنتهم، وفحوى قد جرت عليها عاداتهم»^(٤٣).

ويصور ابن قتيبة أبعاد تلك الرخصة حين يقول^(٤٤): «فكان من تيسيره (سبحانه) أمره (النبي) بأن يقرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم. فالهذلي يقرأ (عق حين) يريد (حتى حين) لأنه كان يلفظ بها ويستعملها، والأسدي يقرأ: تَعْلَمُونَ وتَعْلَم، و(تَسَوَّدُ وجوهه)، و(أَلَمْ إِعْهَدْ إِلَيْكُمْ)، والتيمي يهزم، والقريشي لا يهزم، والآخر يقرأ (وإذا قيل لهم)، و(غيبض الماء) بإشمام الضم مع الكسر، و(هذه بضاعتنا ردت إلينا) بإشمام الكسر مع الضم، و(مالك لا تأمنا) بإشمام الضم مع الإدغام، وهذا ما لا يطوع به كل لسان. ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً، لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتدليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله، برحمته ولطفه، أن يجعل متسعاً في اللغات ومتصرفاً في الحركات».

وسواء أكان عدد السبعة الوارد في الحديث الشريف مقصوداً به الحصر، كما يذهب إلى ذلك أكثر من أشرنا إلى آرائهم، أم أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل المراد السعة والتيسير^(٤٥)، فإنَّ فَهَمَ معنى

(٤٣) البلوي ج ١ ص ٢١١. وانظر ابن النديم ص ٥.

(٤٤) تأويل مشكل القرآن ص ٣٠. وانظر مكِّي: الابانة ص ٤٢. والداني: جامع البيان ورقة ٥٥.

(٤٥) انظر: مقدمة كتاب المباني ص ٢٠٩. وابن الجزري: النشر ج ١ ص ٢٥. ود. ابراهيم أنيس: في اللهجات العربية ص ٥٨. وانظر د. صبحي الصالح ص ١٠٣.

الحديث لا يمكن أن يكون في إتجاهه الصحيح إذا تخطى الدائرة التي تشير إليها روايات الحديث، وهي أن الخلاف كان في حدود ألفاظ التلاوة، وأن الرخصة التي كان يتحدث عنها الحديث لا تتجاوز حدود القراءة. ولما كان الحديث - في كافة رواياته - لا يحدد أبعاد ذلك الخلاف وجزئياته، ولا ينص على أماكن الخلاف من الآيات، ولا الوجوه التي تليت، فإن فهم معنى الحديث لا يمكن أن يكون في معزل عن وجوه الخلاف التي تقدمها القراءات المروية، ومن هنا يمكن القول بأن الرخصة الواردة في الحديث ليست شيئاً سوى هذه الوجوه المختلفة للتلاوة التي ينقلها القراء جيلاً عن جيل حتى تنتهي إلى الصحابة الذين سمعوها من النبي - صلى الله عليه وسلم - . ولسنا نرى حصر تلك الوجوه في سبعة أبواب كالتي ذكرها علماء السلف، ثم القول بأن الأحرف السبعة هي هذه الوجوه، وإنما نوكد هنا أن القراءات عامة - صحيحها وشاذها - تجد شرعيتها في هذا الحديث الصحيح من جانب، وأن حديث الأحرف السبعة يجد تفسيره في تلك الوجوه من جانب آخر.

وبناء على ذلك فإن معنى الأحرف السبعة - على ضوء ما تقدمه القراءات من وجوه مختلفة - هو (ما يشمل اختلاف اللهجات، وتباين مستويات الأداء، الناشئة عن اختلاف الألسن، وتفاوت التعليم. وكذلك ما يشمل اختلاف بعض الألفاظ، وترتيب الجمل بما لا يتغير به المعنى المراد)^(٤٦). هذا دون محاولة حصر تلك الوجوه في سبع لغات أو وجوه من الخلاف، ويظل معنى الحديث - بعد ذلك - يشير إلى تلك الرخصة التي جاءت تيسيراً وحلاً لمشكلة واجهت الجماعة المسلمة، دون تحديد لأبعاد تلك الرخصة، لكنها لا تخرج عن إطار وجوه القراءات المروية. وهنا نصل إلى السؤال الذي بدأنا به هذا البحث، وهو إلى أي مدى كان صدى تلك الرخصة في كتابة القرآن عامة، وفي المصحف العثماني خاصة؟

(٤٦) انظر: الدكتور عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٤٣.

ثالثاً: المصحف العثماني والأحرف السبعة:

قبل الاجابة على السؤال الذي ورد في أول هذا المبحث حول اشتغال المصحف العثماني على الأحرف السبعة، نشير إلى أن كتابة القرآن كانت تتم في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - بطريقة واحدة وهي القراءة العامة التي كان يقرأها للصحابة دون تثبيت ما تسمح به رخصة الأحرف السبعة من وجوه مختلفة^(٤٧)، كذلك يمكن القول بالنسبة إلى جمع الصديق خاصة أنه اعتمد على ما كتب في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأن الهدف من الجمع كان خشية ذهاب شيء من القرآن المحفوظ والمكتوب في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد قام به زيد بن ثابت، الذي كان أكثر الصحابة مداومة على كتابة الوحي، فلم تكن هناك - إذن - فوارق كتابية متوقعة بين كتابته في حياة النبي وجمعه زمن الصديق^(٤٨).

(٤٧) انظر: د. صبحي الصالح ص ١٠٨. ود. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٥٧. وانظر د. عبده الراجحي ص ٧٠. وأبو زهرة (الشيخ محمد): المعجزة الكبرى: القرآن. القاهرة. دار الفكر العربي ١٩٧٠ ص ٣٧.

(٤٨) ومع ذلك فإن بعض العلماء ذهب - من غير ما دليل - إلى أن صحف الصديق كانت مشتملة على الأحرف السبعة (انظر علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ١٠/أ. وابن القاصح: ص ١٢) وأغرب ما كتب عن اشتغال صحف الصديق للأحرف السبعة هو ما أشار إليه الدكتور عبد الحفي الفرماوي (رسم المصحف ونقطه). رسالة دكتوراه في مكتبة كلية أصول الدين في جامعة الأزهر (١٩٧٤م. ص ١٩٦) حين يقول: «وفضلاً عن ذلك فالذي يراه بعض الباحثين - وإني أميل إلى رأيهم - أن بيان الأحرف السبعة في صحف حفصة كانت بكتابة هذه الأحرف المتخالفة كلماتها في الرسم، أحدها بالأصل، وما يخالفه تحته، أو فوقه، أو بهامش الآية». وذكر المصدر الذي نقل عنه وهو (جمع القرآن ص ٥٦ و ٥٧ للشيخ محمد فريد العبادي. وهي رسالة محفوظة في مكتبة أصول الدين بالأزهر) ولا نملك تعقيباً على هذا إلا أن نذكر أن المصادر المتيسرة لا تشير إلى شيء من ذلك، ولا أظن أن تاريخ القرآن الناصع بحاجة إلى خيال - كهذا - ليس له من سند في الواقع.

وقد أشرنا إلى اختلاف آراء العلماء في ذلك بالنسبة للمصحف العثماني ، وهو ما نحاول تجليته - هنا - واتخاذ موقف واضح منه . ويمكن حصر مذاهب علماء السلف في هذه المسألة في ثلاثة اتجاهات^(٤٩) : فقد ذهبت جماعات من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة ، وبنت ذلك على أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن ، وذهبت جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين - كما يقول ابن الجزري - إلى أن هذه المصاحف مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف فقط ، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي - صلى الله عليه وسلم - على جبريل ، متضمنة لها لم تترك حرفاً منها^(٥٠) . ومن العلماء من ذهب إلى أن المصاحف العثمانية لا تشتمل إلا على حرف واحد^(٥١) .

(٤٩) تلك هي وجهة نظر علماء السلف ، أما المحدثون فقد ترددت مواقفهم بين القول بأن الصحابة جمعوا في المصحف كل ما ثبت من وجوه القراءة وأنه جاء شاملاً للأحرف السبعة ، (انظر محمد نجيب المطيعي ص ٢٣ . ود . عبد الحليم النجار : في قراءات القرآن . مقال في مجلة كلية الآداب ١٩٤٨ مج ١٠ ج ١ ص ١٢١ . ود . عبد الصبور شاهين : الأصوات في قراءة أبي عمرو (رسالة ماجستير في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة) ١٩٦٢ ص ٧٩ . ود . صبحي الصالح ص ١٠٢ . ود . عبد العال سالم مكرم : القرآن وأثره في الدراسات النحوية . القاهرة . دار المعارف ١٩٦٨ ص ٢٣ . ولبيب السعيد : الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم . القاهرة . دار الكتاب العربي (د . ت) ص ٧٣) وبين الإشارة إلى أن عثمان - رضي الله عنه - جمع القرآن على حرف واحد وقراءة واحدة (انظر الزنجاني ص ٤٥ . ومحمد طاهر الكردي : تاريخ القرآن ص ٤٤ . ود . عبد الفتاح اسماعيل شلي : الإمالة في القراءات واللهجات العربية . ط ١ . القاهرة . مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧ ص ٢١٢ . ود . عبده الراجحي ص ٧٣) دون محاولة تفسير كون المصحف العثماني مكتوباً على حرف واحد مع اتخاذ موافقة رسمه شرطاً لصحة القراءات التي تتوارد على رسم الكلمة المعينة .

(٥٠) انظر ابن الجزري : النشر ج ١ ص ٣١ ومنجد المقرئين ومرشد الطالبين (له) . القاهرة . مكتبة القدسي ١٣٥٠ هـ ص ٢١ . والسيوطي : الاتقان ج ١ ص ١٤١ . والقسطلاني ج ١ ص ٦٥ .

(٥١) انظر الطبري : التفسير ج ١ ص ٦٤ .

وبملاحظة الأسباب التي دفعت إلى توحيد المصاحف في خلافة عثمان نجد أن من المنطقي أن يأتي المصحف العثماني مكتوباً بطريقة واحدة، حسباً للخلاف الذي نشأ عن اتساع الناس في رخصة الأحرف السبعة وظهور الاختلاف في القراءة، ولما كان كل حرف من الأحرف السبعة غير محدد الأبعاد، وأن تلك الأحرف لا تجد تفسيرها إلا في الوجوه المختلفة للقراءة فإن بالامكان القول: إن المصحف العثماني قد كتب على حرف واحد أي على لفظ واحد، فالكعبة حين يرسمون الكلمات لا يريدون إلا تمثيل نطق معين واحد، وبهذا فقط يمكن أن يحقق ذلك العمل أهدافه من جمع الناس على مصحف واحد، موحد الهجاء والقراءة. ونشير - هنا - إشارة إلى أن رسم المصحف العثماني قد يمتثل من وجوه الأحرف أو وجوه القراءات أكثر من وجه واحد، على أمل أنا سنفرد - إن شاء الله - فصلاً كاملاً عن علاقة القراءات بالرسم وكيف تطور الرسم العثماني الذي كتب - أصلاً - لتمثيل قراءة واحدة ليحتمل وجوهاً من القراءات المتعددة، وكيف اتخذ الرسم شرطاً مكماً لشروط القراءة الصحيحة.

وكان محمد بن جرير الطبري قد نص - من قبل - أن المصحف العثماني قد كتب على حرف واحد. يقول^(٥٢): «فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية» وهو - بناء على فهمه للأحرف بأنها لغات سبع، في حرف واحد وكلمة واحدة، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني - يرى أن «ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف وجره ونصبه، وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر، مع اتفاق الصورة، فمن معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - (أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف - بمعزل)»^(٥٣). وإنها داخلة في الحرف الذي كتب عليه المصحف العثماني.

وذهب مكّي بن أبي طالب إلى نفس المذهب الذي قال به الطبري، وهو أن

(٥٢) الطبري: التفسير ج ١، ص ٦٤.

(٥٣) نفس المصدر ج ١ ص ٦٥.

المصحف العثماني، كتب على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، أي على لغة وقراءة واحدة^(٥٤). لكنه يختلف مع الطبري - والحق معه - في فهم المقصود بالأحرف السبعة، فهي عند مكّي وجوه القراءات المختلفة، سواء كان الخلاف بما يزيل الصورة (الخط) ويغيرها - وهو رأي الطبري - أم يشمل أيضاً تغير الحركات واختلاف الحروف بما لا يزيل صور الكلمات أو يغير ترتيبها، وهو بهذا يرى أن ما يقرأ من قراءات موافقة لخط المصحف داخلة في الأحرف السبعة. ومكّي - رحمه الله - قد تفرد - تقريباً - في فهمه لعلاقة القراءات والأحرف السبعة بالمصحف العثماني، مما سنشير إليه بعد قليل ثم نفضله في فصل لاحق.

وإذا كان المصحف العثماني قد كتب على حرف واحد أو قراءة واحدة فهل من ضمن القراءات المتواترة قراءة روعي فيها رسم المصحف العثماني أم لا؟^(٥٥) ونحن نتوقع أن المصحف العثماني في عهد نسخه كان يقرأ القراءة التي كتب عليها وروعيّت في رسمه، وهي القراءة العامة المشهورة آنذاك^(٥٦). يقول أبو عبد

(٥٤) الابانة ص ٣. وانظر في نفس الفكرة: ابن عبد البر: ج ٢ ص ٥٣٩. وابن كثير ص ٣٢.

(٥٥) انظر محمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص ١١٢.

(٥٦) لا تحدد الروايات خصائص القراءة أو اللغة التي نزل بها القرآن أو كتب عليها في المصحف. والآيات صريحة بأن القرآن نزل بلسان عربي مبين فيه مثل ما في الكلام العربي من وجوه الاعراب ومن الغريب والمعاني (أبو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن. ط ١. القاهرة. مكتبة الخانجي ١٩٥٤ ج ١ ص ٨ وانظر أيضاً ص ١٧) ولا تفيد كلمة (عربي) التي تكررت وصفاً للغة القرآن وللقرآن - (قرآناً عربياً) و(بلسان عربي مبين) - في عدة مواضع تخصيصاً ولا تعييناً للهجة واحدة معينة من اللهجات. (د. جواد علي: لهجة القرآن الكريم ص ٢٧٠) وقد مرت رواية البخاري التي ورد فيها «وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنا نزل بلسانهم» وفي رواية أخرى له (ج ٦ ص ٢٢٤): «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم». ومرت - كذلك - رواية اختلفهم في =

الرحمن السلمي (ت ٧٤هـ) (٥٧): كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة، كانوا يقرأون القراءة العامة، وهي القراءة التي قرأها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان زيد قد شهد العرضة الأخيرة، وكان يقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده الصديق في جمعه وولاه عثمان كتبة المصاحف.

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا نجد تلك القراءة التي روعي فيها رسم المصحف متميزة الآن؟ سنناقش هذا الأمر مفصلاً - كما ذكرنا - في فصل

= كلمة التابوت وكتابتها بالتاء على لسان قريش. وهناك جملة أخبار تروى عن عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم - تؤكد على وجوب كون كتبة المصاحف من مُضَرَّ وقريش أو من ثقيف. ويعقب أبو بكر بن أبي داود على تلك الأخبار بقوله: «هذا من أجل اللغات» (انظر كتاب المصاحف ص ١١ و ٢٦ و ١٣٥. وابن فارس ص ٢٨). ويفهم من هذا التأكيد على لسان قريش وعلى كون الكتبة من قريش أن رخصة الأحرف السبعة لم تكن ذات أثر في تدوين النص القرآني، وليس من المتوقع أن تكون هناك فروق كتابية بين أهل مكة وأهل المدينة حتى يمكن القول إن المقصود من ذلك أن يجري الكتبة على مصطلح قريش في الكتابة (انظر ابن عاشر ص ٣٦)، خاصة أن القرشيين الثلاثة نشأوا وتعلموا الكتابة في المدينة - كما هو متوقع - لكنهم بحكم نشأتهم في بيوت قرشية كانوا أكثر إدراكاً لخصائص لغة قريش التي تشير الرواية إلى أن القرآن - عامة - نزل بها، والتي يقول عنها ابن فارس (الصاحبي ص ٢٣): «اجمع علماءنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومعالهم، أن قريشاً أفصح العرب السنة وأصفاهم لغة.. وكانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائهم وسلاتهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب». وسنشير حين نناقش ظواهر الرسم إلى بعض خصائص لغة قريش التي ذكرها العلماء خاصة من حيث التسهيل والفتح وأثر ذلك على الرسم في المصحف.

(٥٧) الزركشي ج ١ ص ٢٣٧. وانظر أبو بكر الباقلاني ص ٣٧٥.

لاحق، وتعرض لتاريخ نشأة مدارس القراءة وتميزها، وبحسبنا هنا أن نشير إلى شيء من ذلك بما يهد السبيل إلى دراسة مظاهر الرسم وفق منهج محدد. ونكتفي - هنا - بإيراد رأي مكّي في هذه المسألة حيث يقول (٥٨): «ولما مات النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج جماعة من الصحابة في أيام أبي بكر وعمر إلى ما أفتتح من الأمصار، ليعلموا الناس القرآن والدين، فعلم كل واحد منهم مصره على ما كان يقرأ على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - فاختلفت قراءة أهل الأمصار على نحو ما اختلفت قراءة الصحابة الذين علموهم. فلما كتب عثمان المصاحف (و) وجهها إلى الأمصار، وحملهم على ما فيها، وأمر بترك ما خالفها، قرأ أهل كل مصر مصحفهم الذي وجه إليهم على ما كانوا يقرأون قبل وصول المصحف إليهم مما يوافق خط المصحف، وتركوا من قراءتهم التي كانوا عليها مما (ما) يخالف خط المصحف، فاختلفت قراءة أهل الأمصار لذلك بما لا يخالف الخط، وسقط من قراءتهم كلهم ما يخالف الخط، ونقل ذلك الآخر عن الأول في كل مصر، فاختلف النقل لذلك، حتى وصل النقل إلى هؤلاء الائمة السبعة على ذلك، فاختلّفوا فيما نقلوا على حسب اختلاف أهل الأمصار، لم يخرج واحد منهم عن خط المصحف فيما نقل، كما لم يخرج واحد من أهل الأمصار، عن خط المصحف الذي وجه إليهم. فلهذه العلة اختلفت رواية القراء فيما نقلوا، واختلفت أيضاً قراءة من نقلوا عنه، لذلك.»

ولما كانت الأحرف السبعة التي وردت في الحديث على ضربين (٥٩): أحدها زيادة كلمة ونقص أخرى، وإبدال كلمة مكان أخرى، وتقديم كلمة على أخرى، ونحو ذلك مما يخرج على خط المصحف العثماني. والثاني ما اختلف فيه القراء من إظهار وإدغام وروم وإشمام وقصر ومد وتخفيف وإبدال حركة

(٥٨) الابانة ص(١٥-١٦).

(٥٩) انظر المهدي (أبو العباس أحمد بن عمار): شرح كتاب الهداية في القراءات السبع (له) مخطوط منه نسخة (ميكرو فيلم) في معهد المخطوطات العربية. والأصل في الخزانة الملكية في الرباط ورقة ٢ أ.

بأخرى أو حرف بآخر ونحو ذلك مما لا يخرج عن خط المصحف - فإن الذي يمكن على ضوئه فهم طريقة رسم الكلمات في المصحف من تلك الأوجه هو ما جاء موافقاً للرسم. أما ما جاء مخالفاً فإنه - قطعاً - غير محتمل أن يكون مما اراده الكتبة حين كتبوا المصحف. أما وجوه الخلاف التي يحتملها الرسم فهي التي يمكن أن تكون أساساً في دراسة الرسم من غير تخصيص وجه دون آخر، لأن الكتبة إنما أرادوا لفظاً واحداً أو حرفاً واحداً من الأوجه التي تروى موافقة للرسم، لكننا لا نعلم ذلك بعينه^(٦٠). ومن ثم جاز أن نعتمد أي وجه مما يحتمله الرسم في تفسير الظواهر الكتابية وحل مشكلات الرسم مما تتوافر الدواعي على ترجيحه.

أما ما اعتمدت عليه طائفة العلماء التي تذهب إلى أن المصحف العثماني قد جاء شاملاً للأحرف السبعة من تجريد المصحف من النقط والشكل^(٦١)، فليس هناك دليل على أن الكتابة العربية كانت في تلك الفترة منقوطة أو مشكولة، بل إن الآثار المكتوبة تنفي ذلك - كما جاء في الفصل التمهيدي - وسناقش هذا الموضوع في فصل لاحق. كذلك فإن ثبوت وجود قراءات تخالف الرسم ينفي أن يكون المصحف العثماني قد جاء شاملاً لكل الأحرف السبعة، بل الصحيح إنه كتب على حرف واحد، أي لتمثيل طريقة نطقية واحدة، ثم في مراحل تاريخية لاحقة شمل ما يحتمله رسمه من وجوه القراءات المروية.

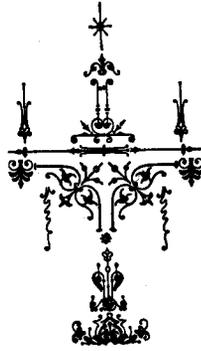
ولعل من المناسب أن نقرر - هنا - أن ليس المقصود بالأحرف السبعة قراءة معينة من القراءات التي صارت تنسب إلى قارئ معين، بل إن الأحرف السبعة جاءت لتشير إلى الرخصة التي نجد آثارها في وجوه القراءات - عامة - والتي ثبت نقلها، أما ما يسمى بالقراءات السبع فإنها لم توجد إلا على رأس المائة الرابعة من الهجرة حين اختار الامام أبو بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) سبعة من أمثلة القراءات في الأمصار ووضع كتاب السبعة في القراءات المروية عنهم^(٦٢).

(٦٠) انظر: مكّي: الابانة ص ٤

(٦١) انظر الداني: المحكم ص ٣. وأين تيمية: ج ١ ص ٣١٩. وأين الجزري: ج ١ ص ٣٣.

(٦٢) انظر ابن حجر ج ١٠ ص ٤٠٧ والسطلاني ج ١ ص ٨٦.

وعلى أساس من هذه النتيجة التي توصلنا إليها في الإجابة على السؤال الذي ورد في أول هذا البحث - والتي نرجو أن تكون صحيحة - وهي أن المصحف العثماني قد كتب على حرف واحد (أي على قراءة معينة واحدة) سنتناول دراسة ظواهر الرسم، مع الأخذ بنظر الاعتبار ان المصحف العثماني صار محتملاً لأوجه كثيرة من القراءات الصحيحة مما لا يخرج عن الخط - في فترات تاريخية لاحقة لزمان كتابته - بحيث يصعب تعيين الوجه الذي كتب عليه. بمعنى أننا سنعتبر كافة وجوه القراءات التي يحتملها الرسم أمثلة يمكن على ضوءها فهم النماذج الكتابية التي يقدمها رسم المصحف العثماني.



الفصل الثالث

الرسم العثماني

مصادره وموقف علماء السلف من طواجره

الفصل الثالث

الرسم العثماني

مصادره وموقف علماء السلف من ظهوره

إن استخدام مصطلحي (الرسم المصحفي) و(الرسم العثماني) قد ظهر في وقت متأخر نسبياً في المؤلفات التي اهتمت بموضوع خط المصحف^(١)، وقد صار

(١) عرفت اللغة العربية عدداً كبيراً من الكلمات للدلالة على تمثيل الالفاظ برموز مكتوبة، (انظر: ابن سيده علي بن اسماعيل: المخصص، ط ١ القاهرة. المطبعة الأميرية الكبرى ١٣٢٠ هـ ج ١٣ ص ٤) الا أن أشهر تلك الكلمات التي استعملت استعمال المصطلحات هي (الكتاب والخط والهجاء والرسم). ويبدو ان استخدام هذه المصطلحات الأربعة قد تطور عبر القرون، فقد كان مصطلح (الكتاب) الذي هو أحد مصادر كتب (انظر ابن منظور ج ٢ ص ١٩٢) قد استخدم أولاً دون غيره، علماً على رسم المصحف وكتابة الكتاب على السواء، وفي ذلك دلالة على أن رسم المصحف لم يكن يختلف في شيء عما كان يستعمله الناس في غير المصحف من الخط، فكان جميع ذلك يطلق عليه مصطلح (الكتاب)، وهناك جملة نصوص ترجع الى القرنين الأول والثاني الهجريين تدل على ذلك، وربما امتد استخدامه الى فترات أكثر حداثة من ذلك، لكن يبدو أن مصطلح (الكتابة) الذي هو مصدر آخر من (كتب) قد حل مكانه في الاستعمال. اما (الخط والهجاء) فربما استخدم في وقت مبكر لاحق لاستعمال (الكتاب) فصار مصطلح (الخط) يطلق على الكتابة عامة وظهر مصطلح (خط المصحف)، وفي فترات متأخرة ظهر مصطلح علم الخط (انظر السيوطي: رسالة في علم الخط ص ٥٤) وحاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. استانبول. وكالة المعارف الجليلة. =

مصطلح الرسم في مجال الدراسات القرآنية يدل على الجانب الذي يهتم بكيفية كتابة الكلمات في المصحف، من حيث عدد الحروف ونوعها، لا من حيث أشكال الحروف وصورها، إذ إن الجانب الثاني قد استأثر بالقسط الأكبر من اهتمامات المدرسة الفنية للخط العربي، ذلك لأن دراسة الخط العربي قد

= (١٩٤٣-١٩٤١) مج ١ عمود (٧١١-٧١٣). لكن الملاحظ أن مصطلح الخط صار أكثر دلالة على الجانب الفني للكتابة وصناعة الخطاطين، أما (الهجاء) وهو من هَجَوْتُ الحروف وتهجيتها هجوا وهجاء (انظر ابن منظور ج ٢٠ ص ٢٢٨) وسماه ابن أبي داود الهجاء بالهاء (انظر المصاحف ص ١١٧) فهو تقطيع اللفظة بحروفها (ابن سيده ج ١٣ ص ٣) أو التلظف بأسماء الحروف لا مسمياتها لبيان مفرداتها (انظر الجمبري ٥٥ أ. والقسطلاني ج ١ ص ٢٨٣. والديماطي ص ١٠) تقول - مثلاً - ما هجاء بكر؟ فيقول الجيب: باء وكاف وراء (ابن جني: سر صناعة الإعراب (المخطوط) ورقة ٢٩١ ب) فكأن الهجاء تعداد حروف الكلمة المكتوبة. وما يلاحظ أن معظم المصادر الأولى التي ألفت في موضوع الخط والكتابة كانت تعرف بكتب (الهجاء) أو (هجاء المصاحف). ومصطلح الهجاء أخص أيضاً من مصطلح الخط، يظهر ذلك من تأمل قول ابن درستويه في كتابه (الكتاب) بعد أن تكلم بإيجاز عن بعض صور الحروف واعتذر عن الاطناب في تفصيل ذلك (ص ٦٩): «... لئلا يطول الكتاب بما يخرج من حد الهجاء الى غيره مؤخراً استقصاء سائرته الى أن أضمنه كتاب تعليم الخط إن شاء الله». أما مصطلح الرسم العثماني أو رسم المصحف فقد ظهر - على ما يبدو - في وقت متأخر نسبياً، إذ إن كافة معاجم اللغة لا تذكر لمادة (رسم) أي معنى يتعلق بالخط، وأصل معنى (رسم) هو الأثر، ورسم كل شيء أثره، والجمع رسوم (انظر ابن دريد: الجمهرة ج ٢ ص ٣٣٦. والأزهري ج ١٢ ص ٤٢٢ والجوهري ج ٥ ص ١٩٣٢ وابن منظور ج ١٥ ص ١٣٢)، وربما كان استعمال الرسم للدلالة على خط المصحف إشارة الى معنى الأثر القديم الذي يحرص المسلمون على المحافظة عليه، فظهر مصطلح (مرسوم الخط)، و(مرسوم خطوط المصاحف)، و(الرسم)، وما اشتق من نفس المادة. وكتاب ابي عمرو الداني (المنع) مشحون بمصطلحات الكتابة كافة، ويظهر فيه نزوع شديد الى استخدام مادة (رسم) للدلالة - خاصة - على خط القرآن. كذلك نجد الشيء نفسه في كتاب المهدي (هجاء مصاحف الأمصار). وفي الفترات اللاحقة لعصر الداني بدأ مصطلح الرسم يتخصص بخط المصحف حتى غلب استعمال مصطلح (الرسم) في خط المصاحف (انظر =

تقاسمتها منذ القرن الأول الهجري - على الأقل - مدرستان: الأولى المدرسة العلمية أو اللغوية، وغايتها تصوير الأصوات العربية بحروف مرسومة، وتخصيص كل صوت برمز كتابي يدل عليه. وإلى جانب هذه المدرسة العلمية للكتابة

= الهوريني ص ٧ و ٢٣). وإذا كانت المؤلفات الأولى في الرسم يغلب أن يطلق عليها مصطلح (هجاء المصاحف) فان المؤلفات المتأخرة غلب عليها اطلاق مصطلح (الرسم والرسوم). ونجد ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) يستخدم (ص ٣٣٢) مصطلح (الرسم السلفي) ويتحدث ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) عن فن الرسم (مج ١ ص ٧٩١) ويقول: «ربما أضيف الى فن القراءات فن الرسم أيضاً وهو أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية». وقد سماه القلقشندي (ج ٣ ص ١٧٢) (المصطلح الرسمي)، وقال إنه يسمى أيضاً (الاصطلاح السلفي) في مقابل (المصطلح العرفي). ويتحدث التنسي (ت ٨٩٩ هـ) عن رسم المصحف (ورقة ٢ أ) على أنه علم، فيسمى ما كان متعلقاً ببيان الزائد والناقص والبدل والموصول وغيره (بعلم الرسم)، وما كان متعلقاً بعلامة الحركة والسكون والشد والمد وغيره (بعلم الضبط)، الذي نتحدث عنه في فصل لاحق. وسماه صاحب مفتاح السعادة (ج ٢ ص ٢٢٩) (علم رسم كتابة القرآن في المصحف). واستعمل ابن خلدون (مج ١ ص ٧٩١) مصطلح (الرسم المصحفي) واستعمله نصر الهوريني (ص ٢٦ و ١٥١) مقابلاً لمصطلح الخط القياسي، وقد ظهر مصطلح الإملاء أو الرسم الإملائي مرادفاً للخط والهجاء. ورغم تلك المعاني الخاصة التي لا بست استخدام كل مصطلح إلا أنها ظلت جميعاً تستعمل كمترادفات بصورة عامة، إلا مصطلح الرسم المصحفي الذي أصبح خاصاً بخط القرآن. وسنجري في هذا البحث على استخدام تلك المصطلحات بمعناها العام، إلا مصطلح الرسم الذي ظل محدد الدلالة منذ استخدم للتعبير عن خط المصحف. وتجب ملاحظة أن رسم المصحف كثيراً ما ينسب الى الخليفة الثالث عثمان ابن عفان - رضي الله عنه - فيقال الرسم العثماني (انظر د. صبحي الصالح ص ٢٧٥) ولا شك في أن ذلك جاء بعد إرسال المصاحف التي انتسخت في المدينة بأمره - رضي الله عنه - الى الأمصار، فارتبط اسمه بتلك المصاحف، وبطريقة الكتابة فيها. وإذا أطلقنا (الرسم العثماني) - في هذا البحث - فعالباً ما نقصد الرسم المجرد قبل أن يكمله العلماء وهو ما يعرف بعلم الرسم، أي ما خطه الصحابة - رضوان الله عليهم - حين نسخوا المصاحف، أما إذا أطلق (الرسم المصحفي) فعالباً ما ينصرف الى كل من الرسم والضبط.

قامت مدرسة فنية هدفها تهذيب رسم الحروف وتحسينها والنظر إليها من الناحية الجمالية متصلة ومنفصلة، وقد بلغ الخطاطون في ذلك على توالي القرون شأواً بعيداً^(٢).

والجانب الأول من شقي دراسة الكتابة والخط هو ميدان الباحث اللغوي، والثاني هو ميدان الخطاط ومؤرخ الخط. ونحن - هنا - إنما نهدف إلى الدراسة اللغوية للكتابة العربية عامة والرسم المصحفي خاصة دون ما يتعلق بالجانب الثاني من دراسات ومناقشات^(٣)، إذ «أنَّ أصل الخط واحد، وصورة كل حرف من المعجم في كل الخطوط على شكل واحد، وأن الحروف كلها متجانسة متشابهة، وإن اختلفت وتباينت لتصرفها واقتنائها، كخطوط المصاحف والوراقين والكتّاب وغيرهم، وكالثقل منها والخفيف والامسك والسريع والجليل والدقيق»^(٤). فمهما كان شكل الحرف الواحد مختلفاً تبعاً لنوع الخط الذي يرسم به فإنه من وجهة النظر اللغوية واحد، لأنه لا يدل إلا على صوت واحد.

(٢) انظر د. خليل محمود عساكر: طريقة لكتابة اللهجات العربية الحديثة بحروف عربية. مقال في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٥٥ ج ٨ ص ١٨١.

(٣) من الملاحظ بصورة عامة غلبة ما اصطلاح على تسميته بالخط الكوفي في مصاحف القرون الهجرية الأولى، إلا أن غلبة الخط الكوفي في رسم المصاحف بدأت تنحسر أمام الخطوط اللينة خاصة النسخي منذ القرن الرابع الهجري، ومع ذلك امتد استخدام الكوفي حتى القرن السادس الهجري، حيث استأثرت الخطوط الأخرى بكل اهتمام الخطاطين. وكان أهل الغرب قد طوروا نوعاً من الخط الكوفي شيئاً قليلاً، فتولّد عنه ما يعرف الآن بالخط المغربي. وللخطوط المذكورة أنواع متعددة تفنّن الخطاطون في تجويدها، فكانت روائع في الفن والجمال (انظر د. ابراهيم جمعة: دراسة في تطور الكتابات الكوفية ص ٢٨ و ٦٢ و ٧١ وما بعدها. وهوداس ص ١٨١. ود. محمد عبد العزيز مرزوق: المصحف الشريف. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ٧٤-٨٥). وانظر أيضاً هامش رقم (٣٣) ص ٦٨ من الفصل التمهيدي).

(٤) ابن درستويه ص (٦٤-٦٥). وانظر حمزة الأصفهاني ص ٢١.

وقد ذكر طاش كبرى زاده (ت ٩٦٢هـ) أن من بين العلوم المتعلقة بإملاء الحروف المفردة (علم إملاء الخط العربي) وهو - كما يقول عنه - علم يبحث فيه عن الأحوال العارضة لنقوش الحروف العربية بحسب الآلات الصناعية، أعني القلم وأمثاله، بعد رعاية حال بسائط الحروف من حيث الدلالة على الحروف التي هي أجزاء الألفاظ، وهذا العلم من حيث حصول الحروف بالآلة من أنواع علم الخط، ومن حيث دلالتها على الألفاظ من فروع علم العربية^(٥). وهذا فهم صحيح للجانب الذي يهتم الباحث اللغوي من الكتابة، فقد ميّز بين العلم الذي يعنى بشكل الحروف وجعله من أنواع علم الخط، وبين العلم الذي يعنى بالحروف من حيث دلالتها على الألفاظ وجعله من فروع علم العربية التي يهتم بها اللغوي.

ويبدو أن صاحب كشف الظنون (ت ١٠٦٧هـ) قد ابتعد عن الصواب حين انتقد ذلك التمييز بين العلوم المتعلقة بالخط والكتابة بقوله: وأما المولى أبو الخير فأورد في الشعبة الأولى من مفتاح السعادة علوماً متعلقة بكيفية الصناعة الخطية، ثم أورد في الشعبة الثانية علوماً متعلقة بإملاء الحروف المفردة، وهي أيضاً كأولى، منها (علم إملاء الخط العربي)، أي الأحوال العارضة لنقوش الخطوط العربية، لا من حيث حسنها بل من حيث دلالتها على الألفاظ، وهو أيضاً من قبيل تكثير السواد^(٦). ولا يتفق البحث اللغوي الصائب مع ما يدعيه صاحب كشف الظنون من أن العلم الذي يعنى بالحروف من حيث دلالتها على الألفاظ (من قبيل تكثير السواد)، بل إن دراسته والاهتمام به تعد استكمالاً لجانب هام من الجوانب التي تتعلق باللغة عامة - إذ إنه أحد علوم العربية الاثني عشر المسماة (علم الأدب) المعرف بأنه «علم يجتريز به عن الخطأ لفظاً وخطاً في كلام العرب»^(٧) - والتي تتعلق بعلم الأصوات اللغوية خاصة، لأن مسائل الكتابة والاملاء ذات ارتباط

(٥) مفتاح السعادة ج١ ص ٨٤.

(٦) حاجي خليفة مج ١ ع (٧١١-٧١٣).

(٧) نصر الموريني ص ٣ وانظر د. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ٢ ص (١٥-١٧) وص (٢٠-٢١) أيضاً.

وثيق بالأصوات ومشكلاتها، بل قل إنها في واقع الأمر مبنية على الحقائق الصوتية^(٨). ويذهب بعض الباحثين إلى أن الاملاء العربي نظام لغوي قائم بذاته كالنحو والصرف والمعجم، لكن العرف وضعه بشكل معين، دون رجوع شامل إلى مقتضيات الدراسات اللغوية التي ترتبط به^(٩).

ومع ذلك فإنه يجب أن يظل التمايز بين اللغة المنطوقة والكتابة قائماً، لا يغيب عن الذهن، فليست الكتابة صورة أخرى من وسائل التعبير الانساني تقف إلى جانب الكلام^(١٠)، بل هي في أحسن أحوالها محاولة للتعبير عن اللغة في واقعها الصوقي، وهذه المحاولة دقيقة أحياناً وغير دقيقة في أكثر الأحيان^(١١). وقد مرت - في الفصل التمهيدي - بعض مظاهر القصور في نظم الكتابة عامة^(١٢).

ورغم هذا الموقع الذي تتخذه الكتابة من دراسة اللغة فإن هناك عوامل عدة تجعل اللغوي - خاصة - يهتم بدراسة الكتابة - إضافة إلى العوامل التي تدفع الفرد العادي إلى ذلك - لعل من أهمها عاملين^(١٣): الأول إننا لا نكاد نتصور اللغة دون صورتها الكتابية، بل إن بعض اللغات القديمة لا تعرف إلا من طريق النصوص المكتوبة المتبقية منها. والثاني هو ما للكتابة نفسها من أهمية فائقة في الحياة البشرية، فدراسة الكتابة وتاريخها تقف جنباً إلى جنب مع دراسة اللغة وتاريخها كفروع شقيقة لميدان واسع هو ميدان الحضارة الانسانية.

(٨) د. كمال محمد بشر: نفس المصدر ص ٧٠ وانظر: الأصوات (له) ص ٢٣٤.

(٩) انظر د. تامر حسان: مناهج البحث في اللغة ص ٢٣٢.

(١٠) يذهب الدكتور تامر حسان (اللغة العربية ص ٤٦) إلى أن الفرد يتم كلامه في إحدى صورتين: النطق أو الكتابة.

(١١) انظر د. محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية ص (١٠-١١).

(١٢) سنتناول - إن شاء الله - العلاقة بين اللغة وبين الكتابة في الفصل الأخير بصورة أكثر تفصيلاً.

- Hockett, P.539

(١٣) انظر:

وتظهر الحاجة إلى دراسة الكتابة ومشكلاتها بصورة أشد في مجال دراسة اللغة العربية، فإلى جانب أهمية الكتابة المشار إليها نجد أن اللغويين القدامى قد تأثروا في بعض الأحيان بالصورة الكتابية، وغفلوا عن النطق، فوقعوا لذلك في أوهام كثيرة في قواعدهم وقوانينهم وأحكامهم اللغوية^(١٤). وتصبح تلك الحاجة أشد ضرورة في مجال الدراسات القرآنية عامة والقراءات منها خاصة، فقد عدت موافقة الرسم أو الكتابة أحد شروط القراءة الصحيحة، إضافة إلى صحة الرواية وموافقة العربية.

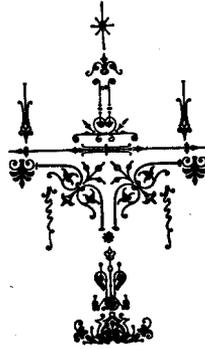
وقبل أن نغني في دراسة خصائص الرسم العثماني وطريقة كتابة الكلمات ومدى وفاء الرموز الكتابية بتمثيل الأصوات، وقبل محاولة تبين الأسس التي قام عليها الرسم والعوامل التي أسهمت في إعطاء الكلمات صورها الكتابية - يتحتم علينا أن نمهد السبيل بتبيان المصادر التي يمكن أن تمدّ هذا البحث بطريقة رسم الكلمات في المصحف، وهو ما يمنح الثقة التاريخية بتلك النماذج والهيئات التي يروها العلماء عن كيفية رسم الكلمات في المصاحف العثمانية الأمهات والمصاحف المنتسخة منها في العصور الإسلامية، ويقطع ما يمكن أن يثار من تساؤل حول صحة ما يرويه العلماء من صور اختلاف رسم بعض الكلمات في المصاحف العثمانية^(١٥). ويؤكد أن ذلك هو واقع الكتابة العربية التي واجهت، حين استخدمت لتدوين القرآن الكريم، أول فرص الاستخدام الواسع في عمل ضخم يستغرق مئات الصفحات، بعد أن كانت حبيسة استعمال محدود لا

(١٤) انظر د. رمضان عبد التواب ص ٣٥٢.

(١٥) أثار الأستاذ محي الدين عبد الرحمن رمضان في مقدمة تحقيقه لكتاب (هجاء مصاحف الأمصار) لأبي العباس أحمد بن عمار المهدي والذي نشره في مجلة معهد المخطوطات العربية (مج ١٩٦ ج ١ سنة ١٩٧٣) ص (٦٣-٦٤) جملة أسئلة في معرض كلامه عن موضوع الكتاب، أحدها هو: هل كل ما في المصنفات الأمهات، التي تتناول هذا الموضوع هو - على التحقيق - مما اختلف فيه؟ وسنجد الإجابة على هذا السؤال في الصفحات الآتية إن شاء الله.

تتيح توحيد القواعد وإذاعة نموذج موحد يمكن أن يلتزمه الكتاب في أصقاع الجزيرة العربية وأطرافها فيما يكتبون.

وسنحاول قبل أن نتناول خصائص الرسم العثماني بالدراسة - في الفصل التالي - أن نعرض لمواقف أئمتنا من علماء السلف - رضوان الله عليهم - من ظواهر الرسم وخصائصه، سواء من حيث التزامه في كتابة المصاحف أو من حيث تفسيرهم للصور الكتابية التي تقدمها ظواهره، إذ أن ذلك من المسائل الهامة التي يجب أن يستوفى الكلام عنها قبل محاولة عرض الصورة التي يمكن تجميعها من معطيات الدراسات المختلفة - سابقة ومعاصرة - في ميادين اللغة والكتابة وتاريخها، لتفسير ظواهر الرسم وفهم تاريخ تطوره وتكميله.



المبحث الأول

مصادر الرسم العثماني

لم تعرف البشرية كتاباً حظي بالعناية والاهتمام على مدى الأجيال مثل القرآن الكريم، سواء من حيث كتابته ورسم حروفه، أم من حيث تلاوته وتحقيق قراءته، أم معرفة أحكامه وبيان معانيه، فمن حيث كتابته ورسم حروفه روى علماء الرسم - وسجلوا في كتبهم - وصف هجاء كل كلمة وردت في المصحف، خاصة تلك التي تميزت برسم معين، إذ ما إن وصلت المصاحف التي كتبت في المدينة في خلافة عثمان - رضي الله عنه - إلى الأمصار الإسلامية حتى سارع المسلمون إلى نسخ المصاحف منها، حرفاً بحرف وكلمة بكلمة، وإقامة مصاحفهم بعرضها عليها^(١)، حتى أنه قد نص بعض العلماء على أن «القول الحق الذي يجب المصير إليه أنه لا بد لكل من قصد نسخ مصحف من أصل يعتمد عليه، فإن من وكل الى نفسه في إنتحال مصنوع تعب ومل»^(٢).

وكما اشتهر أئمة بالإقراء في الأمصار كذلك وجّه هؤلاء الأئمة عنايتهم إلى ضبط رسم المصاحف وإقامتها على نحو ما جاء في المصحف الإمام الذي وجّه إليهم، وهكذا قامت المصاحف المنسوخة من الأمهات مقام الاصول لأنها نسخة منقولة عنها^(٣)، فروى الأئمة عن المصاحف العثمانية - أصولاً وفروعاً - طريقة رسم

(١) انظر ابن أبي داود ص ١٣١ وص ١٥٦.

(٢) العقيلي لوحة ٢٩.

(٣) انظر علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ١٣ ب. والمارغني (ابراهيم بن أحمد): دليل الحيران شرح مورد الظنّان. القاهرة. دار القرآن ١٩٧٤ ص ١٧.

الكلمات. وما أن وصلت تلك الرواية إلى عصر انتشار تدوين العلوم حتى سارع العلماء - في وقت مبكر -^(٤) إلى تسجيل تلك الروايات في كتب كانت أساساً لحفظ صور الكلمات في المصاحف، ومرجعاً - إلى جانب المصاحف المنسوخة - لمن أراد أن ينسخ مصحفاً، ثم نصل إلى مرحلة متقدمة حين نجد العلماء يقارنون بين رسم بعض الكلمات في مختلف مصاحف الأمصار: المدينة والمكية ومصاحف أهل الشام والعراق.

ورغم أن المؤلفات الأولى في رسم المصحف لم يصل إلينا منها شيء فإن الكتب التي ترجع إلى فترات متأخرة نسبياً قد نقلت ما جاء في تلك الكتب رواية، فنجد المؤلف يسند ما يذكره في كتابه إلى الأئمة المتقدمين، إضافة إلى ما قد يدونه هو من ملاحظته ونقله عن مصاحف عصره.

وقد ظهر في كل مصر من الأمصار إمام روى ما ورد في مصحف بلده، إذ إن أئمة القراءة كانوا يروون كيفية رسم الكلمات، إلى جانب روايتهم للقراءة. وكما كانت مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - داراً للسنة كانت قبل ذلك ومعه داراً للقرآن قراءاته ورسمه. فكان ممن روي عنهم الرسم من أهل المدينة عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، (ت ١١٧ أو ١١٩ هـ) نزيل الاسكندرية^(٥)، إلا أن إمام المدينة في الرسم هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أبو روم، (ت ١٦٩ هـ) أحد القراء السبعة الاعلام، قرأ على سبعين من التابعين^(٦)، فكان أهم من اعتمد عليه في نقل الرسم^(٧). وذلك لأنه ولد بالمدينة، وأقرأ الناس بها بكثير من القراءات، وعاش عمراً طويلاً، وكان المصحف الذي أعطى عثمان -

(٤) انظر فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للتأليف

والنشر مج ١ ص ١٤٧.

(٥) انظر الداني: المقنع ص ٤٠.

(٦) انظر الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٨٩. وابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٣٣٠.

(٧) انظر العقيلي لوحة ٩.

رضي الله عنه - لأهل المدينة لا يزال عنده، فبكثره مطالعته له ومواظبته إياه
تصوره في خلد، فلم تؤخذ حقيقة الرسم إلا عن نافع^(٨).
وكان نافع قد قرأ عليه وروى عنه خلق كثير^(٩)، إذ إنه أقرأ الناس دهرًا
طويلاً، نيفًا عن سبعين سنة، و انتهت إليه رئاسة القراءة بالمدينة، وذكر له ابن
الجزري نحوًا من ستة وأربعين ممن قرأوا عليه من مختلف الأمصار^(١٠). فنقل عنه
تلامذته ما رواه في رسم المصحف، فكانوا أئمة في ذلك برواية أستاذهم الأول،
إضافة إلى نقلهم هم أنفسهم عن مصاحف المدينة، فمنهم سليمان بن مسلم بن
جّاز^(١١)، (ت بعد ١٧٠هـ). واسماعيل بن جعفر المدني^(١٢)، (ت ١٨٠هـ).
وعبد الله بن وهب^(١٣)، (ت ١٩٧هـ). والغازي بن قيس الاندلسي^(١٤)،
(ت ١٩٩هـ). وعيسى بن مينا قالون^(١٥)، (ت ٢٢٠هـ).
وكان بالبصرة عاصم بن أبي الصباح الجحدري^(١٦)، (ت ١٢٨هـ)، الذي روى

-
- (٨) اللبيب (أبو بكر بن أبي محمد عبد الله المشهور باللبيب): الدرّة الصقيلة في شرح
العقيلة، مخطوط في مكتبة الجامع الأزهر ورقة ١٩/أ.
(٩) الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٩٠.
(١٠) غاية النهاية ج ٢ ص (٣٣٠-٣٣١).
(١١) انظر ابن أبي داود ص ٣٧ و ٤١.
(١٢) انظر: أبو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٤٤. والداني: المقنع ص ١٠٨.
(١٣) الداني: المقنع ص ١١٢.
(١٤) الداني: نفس المصدر ص ٢١ و ٣٧ و ٤٤ و ٤٧ و ٥٠ وغيرها. وانظر أبو بكر
الزيدي (محمد بن الحسن): طبقات النحويين واللغويين ط ١ القاهرة. الخانجي
١٩٥٤ ص ٢٧٦ وروى ابن الجزري أن الغازي صحح مصحفه على مصحف نافع
ثلاث عشرة مرة (انظر غاية النهاية ج ٢ ص ٢).
(١٥) الداني: المقنع ص ١٠.
(١٦) انظر المهدي: هجاء مصاحف الأمصار ص ٨٩. وسنكتفي حين الاعتماد على هذا
المصدر بالذات بالإشارة إلى المؤلف فقط. وانظر الداني: المقنع حيث ذكره في أكثر
من موضع.

عنه معلّى بن عيسى البصري الوراق^(١٧). وكان ممن روي عنها الرسم من أهل البصرة أيضاً إمام القراءة فيها أبو عمرو بن العلاء^(١٨)، (ت ١٥٤هـ). وممن وردت عنه رواية في الرسم من أهلها أيضاً، أيوب بن المتوكل^(١٩) (ت ٢٠٠هـ)، ويحيى بن المبارك اليزيدي^(٢٠)، (ت ٢٠٢هـ)، وخالد بن خدّاش^(٢١)، (ت ٢٢٤هـ)، وبعض هؤلاء رحل من البصرة إلى بغداد.

وكان في الكوفة من أئمة رواية الرسم قارئها الامام ابو عمارة حمزة بن حبيب الزيات^(٢٢)، (ت ١٥٦هـ)، ثم أجل أصحابه علي بن حمزة الكسائي^(٢٣)، (ت ١٨٩هـ)، الذي انتهت إليه رئاسة الاقراء بالكوفة بعد حمزة، وفي بغداد بعد ذلك، وكان من أهل الكوفة أيضاً عبد الله بن إدريس الأودي^(٢٤)، (ت ١٩٢هـ)، وعلي بن زيد بن كيسة^(٢٥)، (ت ٢٠٢هـ) ويحيى بن زياد الفراء الكوفي^(٢٦) (ت ٢٠٧هـ)، وخلف بن هشام أبو محمد البزار^(٢٧)، (ت ٢٢٩هـ)، وأبو جعفر محمد بن سعدان الضريير^(٢٨)، (ت ٢٣١هـ).

-
- (١٧) الداني: المقنع ص ٧٥. وابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٣٠٤.
- (١٨) الداني: المقنع ص ٣٤ و ٤٠ و ١٠٧.
- (١٩) نفس المصدر ص ٣٩ و ٩٩.
- (٢٠) نفس المصدر أيضاً ص ١٦ و ٣٤ و ٤١ و ٤٤ وغيرها.
- (٢١) الداني: المقنع ص ٣٥.
- (٢٢) نفس المصدر ص ٤٨ و ٦٨ و ٧٠ و ٧٣ و ٨٢.
- (٢٣) انظر ابن أبي داود ص ٣٩ و ٤٨. والداني: المقنع ص ٢١ و ٤٠ و ٦٤ و ٦٦ و ٧٣ وغيرها.
- (٢٤) انظر المهدي ص ٩٦. والداني: المقنع ص ٣٩.
- (٢٥) الداني: المقنع ص ٤٧ و ٥٦ و ٦٩.
- (٢٦) المهدي ص ١١٨. والداني: المقنع ص ٣٥ و ٤١ و ١٠٣.
- (٢٧) المهدي ص ٩٦ والداني: المقنع ص ٣٨ و ٣٩ و ٦٤ و ٦٥ و ١٠٧.
- (٢٨) الداني: المقنع ص ٧٤.

وكان الصحابي الجليل أبو الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري (ت ٣٢ هـ) قد ولي قضاء دمشق وأقرأ فيها، ولا شك أنه تلقى المصحف الذي أرسله عثمان إلى الشام، وقد وردت عنه في الرسم روايات عن مصحف أهل الشام^(٢٩)، وكان عبد الله بن عامر (ت ١١٨ هـ) قد أخذ القراءة عن أبي الدرداء فكان إمام أهل الشام في القراءة، إضافة إلى ما روي عنه من روايات في رسم مصحف بلده^(٣٠). وأخذ عن ابن عامر مجيب بن الحارث الذماري (ت ١٤٥ هـ) فوردت عنه الرواية في ذلك^(٣١). ومن روي عنه في الرسم من أهل الشام أيضاً هشام بن عمار (ت ٢٤٥ هـ)، إمام أهل دمشق في زمانه^(٣٢).

فهؤلاء الأئمة هم عماد الرواية في رسم المصحف كانوا ينقلون طريقة رسم الكلمات في مصاحف أمصارهم، لكن هناك ملاحظة هامة في هذا الصدد، هي أنهم كثيراً ما ينصون على حروف من الرسم في غير مصاحفهم، فقد كانت الرحلة في طلب العلم أو الحج تتيح لهم الاطلاع على مصاحف الأمصار الأخرى، وهكذا فقد روى أبو عمرو بن العلاء، وأيوب بن المتوكل، واليزيدي، وأبو عبيد، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٥٠ أو ٢٥٥ هـ)، وابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ)، وهم من أهل العراق، عن مصاحف أهل مكة وغيرها^(٣٣).

وقد توفرت روايات رسوم مصاحف الأمصار لدى العلماء في وقت مبكر، فظهر التأليف في اختلاف رسوم مصاحف أهل الأمصار، وينسب إلى كل من ابن عامر والكسائي والفراء وخلف كتاب في ذلك - مما سنشير إليه بعد قليل - . وقد ظلت المصاحف - إلى جانب روايات الأئمة - مصدراً لدراسة الرسم

(٢٩) ابو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٤٥. والداني: المقنع ص ٧٩ و ١٠٢.

(٣٠) انظر الداني: المقنع ص ٨٨ و ١٠٢ و ١١٠.

(٣١) نفس المصدر ص ٩٠.

(٣٢) نفس المصدر أيضاً ص ٥٢.

(٣٣) انظر نفس المصدر ص ١٦ و ٣٤ و ٣٨ و ٤١ و ٦٦ و ١٠٥ و ١١٠.

العثماني، فكان المؤلفون يروون الروايات المتقدمة ثم إنهم كثيراً ما يعقبون على ذلك بقولهم أنهم رأوا ذلك كذلك في مصاحف بلدهم^(٣٤) أو ربما صححوا بعض الروايات على ضوء ما يجدونه في المصاحف التي عندهم^(٣٥).

وبناء على ذلك ستعتمد دراستنا للرسم العثماني في هذا البحث على ما روته المصادر المؤلفة في ذلك أولاً مما وصل إلينا منها، وعلى المصاحف القديمة المخطوطة، التي أمكن الاطلاع عليها، المحفوظة في بعض مكتبات التراث الاسلامي ثانياً.

أولاً: الكتب المؤلفة في الرسم:

قبل أن نذكر أهم المؤلفات التي كتبت في الموضوع، وما سنعتمد عليه منها، نشير إلى أن من بين الدوافع إلى التأليف في هذا المجال - إلى جانب الحرص على كل ما يتعلق بكتاب الله تعالى - هو أن كثيراً من هجاء الكلمات في المصحف قد جاء على أكثر من صورة^(٣٦)، على ما كان شائعاً من قواعد الهجاء آنذاك، لكن الناس بعد تدوين العلوم وازدياد استعمالهم للكتابة مالوا إلى توحيد قواعد الهجاء. وظهرت المدارس النحوية في البصرة والكوفة، وكان من بين اهتمامات علماء المدينتين أن يقدموا أسلوباً أيسر للكتابة، شعارهم في ذلك أن الأصل في الكتابة مطابقة الخط للفظ بتقدير الابتداء به والوقف عليه، فاتجه الناس تدريجياً إلى استعمال الصور الجديدة لهجاء الكلمات، لكن نساخ المصاحف ظلوا حريصين على ألا يخرجوا على شيء مما في رسم المصاحف، فقد شملت العناية طريقة الكتابة في القرآن الكريم، إضافة إلى أن ارتباط الرسم بالقراءات كان عاملاً أساسياً في الحفاظ على رسم الكلمات على صورتها القديمة، ومن هنا فقد اتجه علماء القراءات والعربية - منذ وقت مبكر - إلى حصر الكلمات التي جاءت في المصحف مكتوبة بصورة تخالف ما اصطلاح عليه الناس في الفترات

(٣٤) انظر مثلاً الداني: المتنع ص ١٤.

(٣٥) انظر نفس المصدر ص ٣٥ و ٧٦ و ١٠٣.

(٣٦) انظر ابن خلدون مج ١ ص ٧٩١.

اللاحقة، وكانت حصيلة ذلك الاتجاه وتلك الجهود هو هذه القائمة الطويلة من المؤلفات في موضوع رسم المصحف، والتي حفظت للمصحف صورته التي خط بها منذ أنزل، وحفظت لنا الصورة التي كانت عليها الكتابة العربية في تلك الحقبة المتقدمة من تاريخها.

ومع أن صاحب مفتاح السعادة لم يذكر عند حديثه عن موضوع الرسم إلا أسماء ثلاثة كتب^(٣٧)، ومع أن صاحب كشف الظنون لم يفعل أكثر مما فعله إلا قليلاً^(٣٨)، إلا أن كتب التراجم وفهارس المكتبات وكتب القراءات غنية بأسماء المصنفات في هذا العلم، إذ قد أفردته بالتصنيف خلائق من المتقدمين والمتأخرين^(٣٩)، وألف فيه الناس كتباً كثيرة ما لها عدة^(٤٠). وسنحاول هنا الإشارة إلى أهم تلك المصنفات بادئين بأقدمها، إذ هي الأساس الذي نقل صورة المصاحف العتق، وكانت عماد المتأخرين في تدوين مؤلفاتهم في موضوع الرسم.

يذكر ابن النديم كتابين لإمام الشام عبد الله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨ هـ) في موضوع المصاحف ورسمها، الأول (كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق). والثاني كتاب في (مقطوع القرآن وموصله)^(٤١)، وألف تلميذه يحيى بن الحارث الذماري (ت ١٤٥ هـ) كتاباً في (هجاء المصاحف)^(٤٢).

ويذكر ابن النديم - أيضاً - لحمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦ هـ)، إمام الكوفة، كتاباً في (مقطوع القرآن وموصله)^(٤٣).

وَأَلَّفَ الكسائي (المشهور أنه ت ١٨٩ هـ)، إمام الكوفة بعد حمزة، كتاب (اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة)^(٤٤). وكتاب

(٣٧) انظر ج ٢ ص ٢٢٩.

(٣٨) انظر ج ١ عمود ٩٠٢. وج ٢ عمود ١١٥٩.

(٣٩) انظر السيوطي: الاتقان ج ٢ ص ١٤٥.

(٤٠) اللبيب: ورقة ٤ وأنظر الجعبري: ورقة ٧٣ أ وابن الجزري: النشر ج ٢ ص ١٢٨.

(٤١) الفهرست ص ٣٦.

(٤٢ و ٤٣ و ٤٤) نفس المصدر والصفحة.

(الهجاء)^(٤٥)، وكتاب (مقطوع القرآن وموصوله)^(٤٦).

وللفراء (ت ٢٠٧ هـ) كتاب في (اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف)^(٤٧). وهو في كتابه (معاني القرآن) كثيراً ما يتحدث عن هجاء بعض الكلمات، وفيه روايات قيّمة عن الكتابة العربية، كذلك يُروى لخلف بن هشام (ت ٢٢٩ هـ) كتاب في اختلاف المصاحف^(٤٨).

وقد أشرنا من قريب إلى أن كثيراً من روايات الرسم قد جاءت عن إمام المدينة نافع بن أبي نعيم (ت ١٦٩ هـ)، وقد ألف تلامذته كتباً في ذلك من روايتهم عنه، فهذا الغازي بن قيس الأندلسي (ت ١٩٩ هـ) قد رحل إلى المشرق وأقام في المدينة وشهد تأليف مالك للموطأ، وأدرك نافعاً وقرأ عليه، وهو أول من أدخل قراءته إلى الأندلس^(٤٩). وصحح مصحفه على مصحف نافع ثلاث عشرة مرة^(٥٠)، فألّف كتابه (هجاء السنة) الذي دَوّن فيه روايته عن أهل المدينة في رسم

(٤٥) ابن النديم ص ٦٦. وانظر ابو البركات الانباري (كمال الدين عبد الرحمن بن محمد): نزهة الألباء في طبقات الأدباء. القاهرة. دار نهضة مصر ١٩٦٧ ص ٧١. وانظر أيضاً ياقوت: معجم الأدباء. القاهرة. عيسى الباي الحلبي (١٩٣٦-١٩٣٨) ج ١٣ ص ٢٠٣. والذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ١٠٦. وعلينا أن نلاحظ - هنا - أن عدة كتب جاءت باسم (الهجاء) من تأليف بعض النحاة (انظر مثلا ابن النديم ص ٥٩ و٧٤ و٨١ و٨٢ و٦٣ و٦٤ و٨٣). ولا نشك في أنها وضعت في قواعد الكتابة القياسية، ولكن مجيء كتاب تحت ذلك العنوان منسوب لأحد القراء دون تخصيصه بكونه في هجاء المصاحف نرجح من نسبته أنه في هجاء المصاحف.

(٤٦) ابن النديم ص ٣٦ و٦٥، وياقوت: معجم الأدباء ج ١٣ ص ٢٠٣. والذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ١٠٦.

(٤٧) ابن النديم ص ٣٦. وياقوت: معجم الأدباء ج ٢٠ ص ١٣.

(٤٨) ابن النديم ص ٣٦.

(٤٩) انظر أبو بكر الزبيدي ص ٢٧٦.

(٥٠) ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٢.

المصحف^(٥١). وكان قالون (ت ٢٢٠هـ) تلميذ نافع من أشهر رواة أستاذه في الرسم إلا أن المصادر لم تذكر له كتاباً في ذلك، لكن قوله «قرأت على نافع قراءته غير مرة وكتبتها في كتابي»^(٥٢) قد يشير إلى أنه ربما ذكر في كتابه أيضاً ما رواه عن نافع في الرسم.

وأورد أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) فصلاً عن اختلاف مصاحف أهل الأمصار في كتابه (فضائل القرآن ومعالمه وأدبه)^(٥٣). وكان أبو المنذر نصير بن يوسف النحوي (ت في حدود ٢٤٠هـ) من جلة أصحاب الكسائي وعلمائهم، أخذ القراءة عنه عرضاً، وكان من الأئمة الخذاق. لا سيما في رسم المصحف، وله فيه مصنف رواه عن الأئمة السابقين له^(٥٤).

وكان محمد بن عيسى الأصبهاني (ت ٢٥٣هـ) ممن قرأ على نصير، وروى عنه ما ذكر في كتابه من روايات في الرسم، وألّف هو - أيضاً - كتابه (هجاء المصاحف)^(٥٥).

ولأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (المشهور أنه ت ٢٥٥هـ) كتاب (اختلاف المصاحف)^(٥٦) وكتاب (الهجاء)^(٥٧).

-
- (٥١) انظر الداني: المقنع ص ٢٢. والليبي ورقة ٣ أ. والجمبري: ورقة ٧٣ أ
(٥٢) ابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٦١٥.
(٥٣) مخطوط ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية انظر لوحة (٤٤-٤٦).
(٥٤) انظر الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ١٧٥. وابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص (٣٤٠-٣٤١).
(٥٥) انظر الداني: المقنع ص ٢٣. والذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ١٨١. وابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٢٢٣. والزركلي (خير الدين): الاعلام ط ٣ ج ٧ ص ٢١٣.
(٥٦) ابن النديم ص ٥٩. وانظر أيضاً: القفطي (ابو الحسن علي بن يوسف): إنباه الرواة على أنباء النحاة ط ١. القاهرة. دار الكتب المصرية. ١٩٥٠. ج ٢ ص ٦٢. وابن خلكان ج ٢ ص ١٥٢. وحاجي خليفة ج ١ عمود ٣٣ وذكر وفاته ٢٤٨ هـ.
(٥٧) ابن النديم ص ٥٩. وياقوت: معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٦٥. والقفطي ج ٢ ص ٦٢ =

ولأحمد بن إبراهيم الورّاق (ت في حدود ٢٧٠هـ)، ورّاق خلف، كتاب في
(هجاء المصاحف) (٥٨).

وعقد ابن ابي داود (ت ٣١٦ هـ) في كتابه (المصاحف) عدة فصول في
اختلاف خطوط المصاحف وما اجتمع عليه كتابها، وما كتب فيها على غير
الخط (٥٩).

ومن اشتهر برواية الرسم والتأليف في علوم القرآن ابو بكر محمد بن القاسم
ابن بشار الأنباري (٦٠). (ت ٣٢٧ هـ) فله كتاب (الهجاء) (٦١). وكتاب (الرد على
من خالف مصحف عثمان) (٦٢). وقد أورد في كتابه (إيضاح الوقف والابتداء في
كتاب الله عز وجل) كثيراً من الروايات المتعلقة بالرسم.

ولأبي بكر محمد بن الحسن (ت ٣٥٤ هـ)، المشهور بابن مقسم العطار المقرئ،
كتاب (اللطائف في جمع هجاء المصاحف) (٦٣). وله أيضاً كتابا (المصاحف) (٦٤).
ولأبي بكر محمد بن عبد الله بن أخته الأصبهاني (ت بصر ٣٦٠ هـ) كتابان في

-
- = وابن خلكان ج ٢ ص ١٥٢. والسيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
ط ١ القاهرة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٤ ج ١ ص ٦٠٦.
- (٥٨) ابن النديم ص ٣٦، وانظر ابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٣٤.
- (٥٩) انظر كتاب المصاحف ص (١٠٣-١١٧).
- (٦٠) الجعبري ورقة ٧ ب.
- (٦١) ابن النديم ص ٧٥، وياقوت: معجم الأدباء ج ١٨ ص ٣١٣. والسيوطي: بغية
الوعاة ج ١ ص ٢١٤.
- (٦٢) ابن النديم ص ٧٥. وابن خلكان ج ٣ ص ٤٦٣.
- (٦٣) ياقوت: معجم الأدباء ج ١٨ ص ١٥٣. والسيوطي: بغية الوعاة ج ١ ص ٩٠ وقد
سامه الجعبري (ورقة ٧٣ ب) (لطائف الهجاء) وذكره حاجي خليفة (ج ٢ عمود
١٥٥٣) باسم (اللطائف في جمع همز المصاحف).
- (٦٤) ابن النديم ص ٣٣، وياقوت نفس المصدر السابق، والسيوطي كذلك.

الرسم^(٦٥). الأول كتاب (المخير) وقد قال عنه ابن الجزري^(٦٦): «كتاب جليل يدل على عظم مقداره». والثاني كتاب (علم المصاحف).
ولأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري (ت ٣٨١هـ)، صاحب كتاب الغاية في العشر، كتاب (الهجاء)^(٦٧).
وألف أبو العباس أحمد بن عمار المهدي (ت بعد ٤٣٠هـ) كتاب (هجاء مصاحف الأمصار)^(٦٨).
وألف مكّي بن أبي طالب القيسي الأندلسي (ت ٤٣٧هـ) كتاب (هجاء المصاحف) جزءان^(٦٩).
ولأبي عبد الله محمد بن يوسف بن معاذ الجهني (ت في حدود ٤٤٢هـ) كتاب (البديع في هجاء المصاحف)^(٧٠).

(٦٥) انظر اللبيب ورقة ٣ وأ وقد ذكر أن كتابي ابن اشته من بين عشرة كتب في الرسم اعتمد عليها في شرح العقيلة. لكن ابن خير (ابو بكر محمد بن خير بن عمر الأموي) في فهرسة ما رواه عن شيوخه. طبعة جديدة على الأصل المطبوع في اسبانيا سنة ١٨٩٣م قال (ص ٢٤) (كتاب المخير في القراءات)، وربما يكون ضمنه ابن اشته مباحث في الرسم.

(٦٦) غاية النهاية ج ٢ ص ١٨٤.

(٦٧) انظر ابن الجزري: الشرح ج ٢ ص ١٢٨. وكتاب الهجاء مجهول لوحة ٣٨.

(٦٨) انظر هامش رقم (١٥) ص ١٦١ من هذا الفصل وانظر أيضاً ابن خير (ص ٣١ و ٤٣ و ٤٤).

(٦٩) انظر ياقوت: معجم الأدباء ج ١٩ ص ١٧٠، وابن خلكان ج ٤ ص ٣٦٤. وقد سماه القفطي (ج ٣ ص ٣٨١) (علل هجاء المصاحف).

(٧٠) توجد منه نسخة مخطوطة (٣٤ ورقة) في المكتبة الظاهرية بدمشق، تحت رقم ٣٠٧ (١٨ قراءات). وأخرى ناقصة في دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٣٣١٨ ب) وهناك رسالة في رسم المصحف في دار الكتب المصرية (طلعت ٩١ قراءات) منسوبة لأبي محمد المكّي (؟) ظهر بعد المقارنة أنها كتاب (البديع) لابن معاذ الجهني، لكنها مختصرة في بعض المواضع، وناقصة في أخرى. وانظر فؤاد سزكين مع ١ ص (١٧٠-١٧١).

وقد بلغ التأليف في رسم المصحف ذروته بما كتبه ابو عمرو عثمان بن سعيد الاموي الداني المعروف في زمانه بابن الصيرفي، الامام الحافظ استاذ الاستاذين وشيخ مشايخ المقرئين - كما يقول ابن الجزري^(٧١) - فقد أُلّف فيه كتباً عدة^(٧٢)، حتى قال اللبيب « رأيت لأبي عمرو الداني، رحمه الله، في برنامج مائة وعشرين تأليفاً، منها في الرسم أحد عشر كتاباً، وأصغرها حجماً المقنع »^(٧٣).

وأشهر كتب الداني المعروفة بل من أشهر كتب الرسم على الاطلاق كتاب المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أصل الأمصار^(٧٤). وقد ورد في آخر الكتاب ما يشير إلى أن له تسمية أخرى حين يقول « تم كتاب الهجاء في المصاحف بحمد الله وحسن عونه »^(٧٥). ويبدو ان هذا الاسم لا يعدو عن كونه وصفاً لموضوع الكتاب، فإن اسمه المذكور في أغلب المصادر هو (المقنع).

وأشار الداني في المقنع إلى أن له كتاباً آخر يبيّن فيه علل بعض الرسوم، يقول^(٧٦): « .. وعلل ذلك مبينة في كتابنا الكبير »، وقد ذكر ابن عاشر الأنصاري^(٧٧) (ت ١٠٤٠هـ) أن أبا محمد عبد الله بن عمر الصنهاجي، الشارح الأول لقصيدة (مورد الظبان) من نظم الخراز (ت ٧١٨هـ)، قد قال: « سمعت الناظم (يقصد الخراز) مراراً يقول أنها مقنعان لأبي عمرو، رحمه الله، أحدهما أعظم جرماً من الآخر، وأظن هذا الذي بأيدي الناس هو الكبير، وهو مفيد في

(٧١) غاية النهاية ج ١ ص ٥٠٣.

(٧٢) انظر ابن خلدون مج ١ ص ٧٩١.

(٧٣) الدرّة الصقيلة ورقة ٤أ. وانظر المارغني ص ٢٤.

(٧٤) انظر حاجي خليفة ج ٢ عمود ١٨٠٩. وهناك نسخ كثيرة مخطوطة منه. وقد طبع في استانبول سنة ١٩٣٢ باعثناء المستشرق الالماني أوتوبرتزل، وفي دمشق سنة ١٩٤٠ بعناية الأستاذ محمد أحمد دهبان.

(٧٥) المقنع: ص ١٢٢.

(٧٦) المقنع: ص ٣٠.

(٧٧) فتح المنان ص ٥٥.

الرسم، عليه اعتمد كثير، وكان يقول إنه رآه في مقدار أربعين ورقة. إنتهى كلام الشارح». ويبدو أن القول بأن الذي بأيدي الناس هو الكبير غير صحيح إذ إنّ الداني قد أشار فيه إلى أن له كتاباً آخر كبيراً، لعله هو المقنع الكبير الذي ذكره الخراز، ثم أن عدد الأوراق المذكور يناسب الكتاب المعروف بأيدي الناس، ولكن هل (المقنع) اسم لكلا الكتابين؟ لعل قول اللبيب في مقدمة شرحه للعقيلة انه طالع على هذا الشرح ثلاثين تأليفاً، منها في الرسم عشرة، ثلاثة منها لأبي عمرو الداني هي^(٧٨): المقنع والحكم والتحبير - يساعد على الجواب، فيكون التحبير هو (الكتاب الكبير)، إلا أن المشهور من كتب الداني هو كتاب (المقنع) الذي نظمه الشاطبي، وكأن كتاب العلل الكبير قد غاب منذ وقت مبكر، فلا نجد عنه إلا هذه الإشارة الموجزة التي لا تساعد في إعطاء حكم محدد حول ذلك، وإلا ما ذكره ابن معاذ الجهني في كتابه البديع من انه نقل من كتاب (التحبير)^(٧٩). ولعل المستقبل يجلي حقيقة الأمر بكشف جديد من عزيز تراثنا المخطوط المتناثر في غياهب مكتبات العالم.

وللداني غير المقنع في الرسم كتاب (الاقتصاد) ارجوزة في مجلد^(٨٠). وله في نقط المصاحف كتاب (الحكم) وكتاب (النقط)، وسنشير إليها في فصل لاحق عن تكميل الرسم العثماني.

ولأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي المعروف بالخطيب (ت ٤٦٣ هـ) كتاب تلخيص المتشابه في الرسم^(٨١).

(٧٨) الدرة الصقيلة ورقة ٣ أ

(٧٩) ابن معاذ الجهني: البديع في الهجاء، مخطوط، دار الكتب المصرية، ضمن مجموع برقم (٢٣٣١٨ ب) ورقة ٢٥٣ أ.

(٨٠) ابن الجزري ج ١ ص ٥٥٥. وانظر مقدمة كتاب الحكم للداني ص ١٥، لكن ابن خير في فهرسته قال عنه ص (٢٩) «كتاب الاقتصاد في القراءات السبع».

(٨١) ياقوت: معجم الأدباء ج ٤ ص ١٩. وقد أشار الزركلي (ج ١ ص ١١٦) الى وجوده مخطوطاً دون تحديد مكان وجوده، وقد ذكره حاجي خليفة (ج ١ عمود ٤٧٣) =

ولأبي محمد عبد الله بن سهل بن يوسف (ت ٤٨٠ هـ) كتاب (السبل المعارف إلى رسم المصاحف)^(٨٢).

وكان سليمان بن نجاح، أبو داود بن أبي القاسم الأندلسي (ت ٤٩٦ هـ)، شيخ القراء وإمام الاقراء، وأخذ القراءات عن أبي عمرو الداني، ولازمه كثيراً، وسمع منه غالب مصنفاته، وأخذ عنه مؤلفاته في القراءات، وهو أجل اصحابه^(٨٣) - قد أُلّف في الرسم كتاباً جامعاً هو (كتاب التبيين لهجاء التنزيل) في ستة مجلدات^(٨٤)، وقد جرّد من هذا الكتاب كتاباً آخر سماه (التنزيل في هجاء المصاحف)^(٨٥).

وذكر ابن عاشر الأنصاري أن لأبي الحسن علي بن محمد المرادي كتاباً في الرسم منظوماً اسمه (المنصف) أكمله في سنة (٥٦٣ هـ)، وهو أحد مصادر الخراز في منظومته (مورد الظهّان)^(٨٦).

= باسم (تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم) وذكر أن له مختصراً لعلاء الدين أبي الحسن علي بن عثمان المارديني.

(٨٢) اللبيب ورقة ٣ أ. وانظر عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين. دمشق. المكتبة العربية ١٩٥٧ ج ٦ ص ٦٢.

(٨٣) ابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٣١٦.

(٨٤) انظر اللبيب ورقة ٣ أ. والذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٣٦٥. وابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٣١٧. والزركلي ج ٣ ص ٢٠٠.

(٨٥) انظر ابن عاشر الانصاري ص ٥٨. وتوجد منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم (٥٩٦٤). وهي وحيدة (انظر عرّة حسن: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية. دمشق ١٩٦٢ ص ٣٥١) وقد حصلت منه على نسخة (ميكروفلم)، الا أنها لا تتيح دراسة الكتاب لانطباس الكتابة في كثير من الصفحات. فكانت الفائدة منه محدودة.

(٨٦) انظر: فتح المنان ص ٦٤.

ولأبي العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن الهمداني العطار (ت ٥٦٩هـ) كتاب
(اللطائف في رسم المصاحف) (٨٧).

ونجد بعد هذه المرحلة من التأليف في رسم المصحف ان جهود العلماء قد
تركزت وارتبطت بعملين تعلق بهما الناس ودرسوها، وهما قصيدتان في رسم
المصحف. الأولى من نظم القاسم بن فيرة بن خلف الشاطبي (ت في القاهرة
٥٩٠هـ)، والثانية من نظم محمد بن محمد بن ابراهيم أبي عبد الله الشريشي، الشهير
بالخراز (ت بفاس ٧١٨هـ).

ولا يعني ذلك أن الجهود المثمرة قد توقفت عند ذلك الحد بل إن من بين
شروح هاتين القصيدتين ما حمل إلينا نصوصاً عن مؤلفات مفقودة لولاها ما
وصلت إلينا، وكذلك فإن المؤلفات التي كتبت خارج تأثيرهما لم تتوقف، إلا أن
الملاحظ على كتابات الفترات المتأخرة انها أخذت طابع الشروح، ثم اختصار
تلك الشروح، في أسلوب يغلب عليه ما غلب على أساليب الفترات المتأخرة،
والحقيقة هي أن الموضوع كان قد اكتملت أبعاده منذ فترة متقدمة فلم يكن امام
المتأخرين إلا التقسيم والتبويب والمقارنة والوقوف على وجوه الاتفاق والاختلاف
ثم التعليل والتوجيه من خلال تلك الشروح، بهدف عملي وهو الحفاظ على الرسم
العثماني أولاً، ومعرفة صحيح القراءات ثانياً.

أما عمل الشاطبي فهو قصيدته الرائية المسماة (عقيلة أتراب القصائد في أسنى
المقاصد) (٨٨)، التي نظم فيها مسائل المقنع لأبي عمرو الداني، وزاد عليه أحرفاً
يسيرة جملتها ست كلمات (٨٩)، أشار إليها بقوله (٩٠):

وهاك نظم الذي في مقنع عن أبي عمرو، وفيه زيادات فطب عُمراً

(٨٧) انظر الجعبري ورقة ٧٣ ب. وابن الجزري: النشر: ج ٢ ص ١٢٨.

(٨٨) توجد منها نسخ مخطوطة كثيرة، وقد طبعت في مصر عدة طبعات.

(٨٩) انظر المارغني ص ٢٥.

(٩٠) انظر ابن القاصح ص ١٨.

وعدة آياتها مثنان وثمانية وتسعون بيتاً^(٩١)، كما أشار إلى ذلك بقوله في آخرها:

تَمَّتْ عَقِيلَةٌ أَتْرَابِ الْقَصَائِدِ فِي أَسْنَى الْمَقاصِدِ لِلرَّسْمِ الَّذِي بَهَّرَا
تسعونَ مَعِ مَثْنَيْنِ مَعِ ثَمَانِيَةٍ آيَاتُهَا يَنْتَظِمْنَ الدَّرَّ وَالِدَّرَّ
والقصيدة تبدأ بقوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُوصُولًا كَمَا أَمَرَا مَبَارَكًا طَيِّبًا يَسْتَنْزِلُ الدَّرَّ رَا

وقد حظيت (العقيلة) بما حظيت به قصيدة الشاطبي الاخرى التي نظم فيها كتاب (التيسير في القراءات السبع) للداني أيضاً، والمسماة (حرز الاماني ووجه التهاني) والمشهورة باسم الشاطبية^(٩٢)، من اهتمام العلماء والدارسين، فتوالت الشروح على (العقيلة) التي تسمى أحياناً (الرائية) ابتداء من شرح تلميذ الشاطبي الامام علم الدين السخاوي حتى العصر الحاضر^(٩٣).

(٩١) في الشرح المطبوع لابن القاصح عدة آياتها مثنان وتسعة وتسعون بيتاً، وبلغت عدتها في شرح علم الدين السخاوي ثلاث مئة بيت بزيادة بيت في المطبوع، كما في النسختين المخطوطتين المحفوظتين بدار الكتب المصرية تحت رقم (قراءات ٢٩ ق) و(قراءات ٣٠ ق).

(٩٢) انظر ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٢٢.

(٩٣) أول من شرحها علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي (ت ٦٤٣ هـ)، ثم شرحها أبو بكر بن أبي محمد عبد الله المشهور باللبيب، وشرحها الحصري تلميذ السخاوي، وابن جبارة أحمد بن محمد بن عبد المولى المقدسي الحنبلي (ت ٧٢٨ هـ) وشرحها شرحاً جامعاً برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن عمر الجمبري (ت ٧٣٢ هـ)، وشرحها أبو البقاء علي بن عثمان بن القاصح (ت ٨٠١ هـ)، وشرحه هو الوحيد المطبوع على ما أعرف، وهو (تلخيص الفوائد وتقريب المتباعد)، ثم شرحها أيضاً ملا علي القاري (ت ١٠١٤ هـ)، وابتدأ شرحها في العصر الحديث العلامة الروسي المسلم موسى جار الله رستوفدوني (ت ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م)، وهناك شروح أخرى بعضها منسوب لعالم معين وبعضها غير منسوب (انظر في أسماء بعض =

وحاكي برهان الدين ابراهيم بن عمر الجعبري (ت ٧٣٢هـ) الشاطبي فنظم قصيدة لامية في الرسم، كانت عدة أبياتها مئتان وسبعة عشر بيتاً، سماها (روضة الطرائف في رسم المصاحف)^(٩٤). وقد أشار فيها إلى انه نظم فيها العقيلة وزاد عليها بعض المسائل بقوله:

لامية عذبت في عقدها نظمت رائية وربت مسائلأ مثلاً
وفعل العلامة محمد بن خليل بن عمر القشيري الأربلي ما فعل الجعبري، فنظم قصيدة في الرسم سماها (واضحة المهوم في علم المرسوم)^(٩٥)، عدد أبياتها ثلاثمائة وإثنان وثلاثون بيتاً، وأشار إلى ما زاد فيها على العقيلة بقوله:

زادت رسوماً على ما في عقيلة أثراب لم ينل فضلاً لها الكبرا
وقبل أن نذكر عمل الخراز نشير إلى أن الشيخ أبا طاهر العقيلي اسماعيل بن ظاهر (ت ٦٢٣هـ) له مختصر في رسم المصحف (من أحسن ما ألف في ذلك)^(٩٦). وكذلك لابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن وثيق الأندلسي (ت ٦٥٤هـ) رسالة ماثلة في رسم المصحف^(٩٧).

أما نظم الخراز الذي استحوذ على جهود الدارسين في الفترات المتأخرة إلى جانب العقيلة فهو قصيدته في الرسم المسماة (مورد الظمان في رسم أحرف

= شروحها: حاجي خليفة: ج ٢ عمود ١١٥٩). وتوجد من الشروح المذكورة نسخ مخطوطة في عدد من مكاتب التراث الإسلامي المشهورة، ومحاولة الإشارة الى تلك الشروح مما يطيل الموضوع دون ميسر حاجة هنا الى ذلك.

(٩٤) توجد منها نسخة مخطوطة في دار الكتب برقم (تيمور ٥٧١ تفسير).

(٩٥) توجد منها نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية برقم (تيمور ٤٤٧ تفسير).

(٩٦) ابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ١٦٥، وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة في مكتبة الأزهر ودار الكتب المصرية.

(٩٧) توجد منها نسخ مخطوطة في دار الكتب المصرية، ومنها نسخة في معهد المخطوطات (مكروفيلم) عن الأصل المحفوظ في إحدى مكاتب تركيا.

القرآن^(٩٨)، وقد ذكر ابن عاشر الأنصاري للخراز عدة مؤلفات في الرسم منها قصيدته (مورد الظمان) هذه، وذكر له نظماً آخر سماه (عمدة البيان)، وتالياً آخر في الرسم مثل (مورد الظمان) لكنه منشور، وكان الخراز قد نظم قصيدة (عمدة البيان) أولاً، وذيلها بالضبط المتصل بمورد الظمان اليوم، وعليه بني العدد المذكور في الذيل^(٩٩)، حيث يقول:

عدته أربعة وعشرة جاءت لخمسة مائة مقتفرة

لكن الخراز أعاد نظم القسم الخاص بالرسم، وسماه (مورد الظمان) هو الذي بين أيدي الناس اليوم، وأبقى ما يتعلق بالضبط الذي كان آخر عمدة البيان متصلاً بالنظم الجديد، فيكون العدد المذكور وهو خمسمائة وأربعة عشر صحيحاً باعتبار عمدة البيان، أما بعد تبديل القسم الخاص بالرسم فهذا العدد غير صحيح، لان عدة ما في النظم الجديد (مورد الظمان) أربعمائة وخمسون بيتاً، فإذا أضيف هذا العدد إلى عدة أبيات الضبط وهي مائة وأربعة وخمسون كان مجموع ذلك كله ستائة وثمانية، وهو يخالف الرقم المذكور في البيت السابق^(١٠٠).

وقد اشتهر القسم الخاص بالرسم من نظم الخراز باسم (مورد الظمان) بينما اشتهر الذيل الخاص بالضبط باسم (ضبط الخراز)، وسنذكر ما يتعلق بالضبط في فصل تال، إن شاء الله.

أما جانب الرسم فقد جعله الخراز وفقاً لقراءة نافع فيما يخص علاقة القراءة بالرسم من حذف وغيره واختلاف رسم بعض الحروف^(١٠١).

(٩٨) الزركلي ج ٧ ص ٢٦٢، وقد سماها ابن الجزري (غاية النهاية) ج ٢ ص ٢٣٧، (مورد الظمان في حكم رسم أحرف القرآن)، وتوجد منها عدة نسخ مخطوطة في مكنتبات التراث الاسلامي، وقد طبعت في مصر.

(٩٩) فتح المنان ورقة ٢ ب.

(١٠٠) انظر التنسي ورقة ٩٢ أ، والمارغني ص ٤٣٩.

(١٠١) انظر المارغني ص ٢٨.

أما مصادر الخراز في هذا القسم فقد جعل عمدته في ذلك (المقنع) لأبي عمرو الداني و(العقيلة) للشاطبي، وما ذكره أبو داود سليمان بن نجاح في (التنزيل) من زيادات، إضافة إلى بعض الكلمات التي تفرد بذكرها أبو الحسن علي بن محمد المرادي صاحب النظم المعروف (بالمصنف) الذي كمله سنة (٥٦٣هـ)، فجاءت بذلك منظومة الخراز (مورد الظآن) جامعة لما ورد في أمهات مصادر الرسم، شاملة للمشهور من أوجه الخلاف بين تلك المصادر، فكانت مهياة لأن تكون الأساس الذي يعتمد عليه في رسم المصاحف على المأثور من رسم المصاحف العثمانية^(١٠٢).

ويصور ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) المنزلة التي بلقتها قصيدة (مورد الظآن) في عصره في بلاد المغرب، بعد أن ذكر كتب الداني وتلميذه أبي داود والشاطبي في الرسم، حيث يقول^(١٠٣): « فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافاً كثيراً عزاه لناقله، واشتهرت بالمغرب، واقتصر الناس على حفظها، وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم ».

وقد تعددت شروح العلماء على مورد الظآن، ويذكر ابن عاشر الأنصاري أن أول من شرحها هو أبو محمد عبد الله بن عمر الصنهاجي تلميذ المؤلف^(١٠٤). وشرحها الشيخ حسين بن علي بن طلحة الرجراجي، الذي فرغ من ذلك الشرح سنة ٨٤٢هـ^(١٠٥).

(١٠٢) كانت (مورد الظآن) معتمد اللجنة التي أشرفت على طبع المصحف المشهور بالأميري سنة ١٣٤٢ هـ.

(١٠٣) تاريخ ابن خلدون مج ١ ص ٧٩٢.

(١٠٤) فتح المنان ورقة ٢ ب.

(١٠٥) اسم الشرح (تنبيه العطشان) ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الأزهرية برقم (٢٢٢٨٢ قراءات)، وأخرى بدار الكتب المصرية برقم (١ قراءات).

وشرح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي (ت ٨٩٩ هـ) القسم الخاص بالضبط، الذي سنشير إليه في فصل لاحق.

وأشهر شروح (مورد الظمان) هو شرح عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري، (ت بفاس ١٠٤٠ هـ)، الذي سماه (فتح المنان المروي بمورد الظمان)^(١٠٦)، وقد أشار في مقدمته إلى المصادر التي اعتمدها، وهي تشمل معظم ما مر ذكره من المصادر التي ألفت بعد أن ألف الداني كتابه الشهير (المقنع).

ولما كانت قصيدة مورد الظمان لا تشمل ما تثيره القراءات الأخرى غير قراءة نافع من وجوه الخلاف فقد حاول ابن عاشر تكميل هذا النقص بنظم ذيل به شرحه لمورد الظمان حيث يقول^(١٠٧): « وهذا تذييل سميته: الاعلان بتكميل مورد الظمان، ضمنته بقايا خلافيات المصاحف في الحذف وغيره مما يحتاج إليها من تخطى قراءة نافع إلى غيرها من سائر قراءات الأئمة السبعة... ».

وقام الشيخ ابراهيم بن أحمد المارغني التونسي في العصر الحديث بشرح المورد والضبط والاعلان (فرغ منه سنة ١٣٢٥ هـ) مستمداً أكثر ذلك من شرح التنسي للضبط وشرح ابن عاشر للمورد، وما أضافه في الاعلان^(١٠٨)، وسماه (دليل الحيران شرح مورد الظمان في رسم وضبط القرآن). وقد جعل شرح الذيل الذي كمل به ابن عاشر منظومة الخراز في آخر الكتاب، وسماه (تنبية الخلان إلى شرح الاعلان بتكميل مورد الظمان)^(١٠٩).

(١٠٦) انظر الزركلي ج ٤ ص ٣٢٣، وتوجد من الشرح المذكور عدة نسخ مخطوطة في المكتبة الأزهرية ودار الكتب المصرية والمكتبة البلدية بالاسكندرية والظاهرية بدمشق وربما في غيرها.

(١٠٧) فتح المنان ص ١٩١.

(١٠٨) انظر دليل الحيران ص ٤.

(١٠٩) وقد طبع شرح المارغني بأقسامه الثلاثة في تونس سنة ١٣٢٦ هـ، وطبع حديثاً في القاهرة (دار القرآن ١٩٧٤). وللشيخ أحمد محمد أبو زيتحار (من علماء =

ولم تتوقف حركة التأليف في موضوع الرسم عند هذا الحد بل كانت هناك مؤلفات كتبت خارج نطاق العقيلة والمورد، فقد ألف أبو العباس أحمد بن محمد ابن عثمان المراكشي الشهير بابن البناء (ت ٧٢١هـ) كتاباً سماه (عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل)^(١١٠)، ألفه في توجيه ما خالف قواعد الخط من رسم المصحف^(١١١).

وألف الشيرازي محمد بن محمود بن محمد بن أحمد (ت نحو ٧٨٠هـ) كتاب (كشف الأسرار في رسم مصاحف الأمصار)^(١١٢). وقد يظن من اسمه أنه في تعليل مرسوم خط المصاحف، على نحو ما فعل أبو العباس المراكشي في عنوان الدليل، ولكن بعد أن اطلمت على صورة لمخطوطة الكتاب وجدت انه يقتصر على وصف رسم الكلمات في الغالب، ولا يكاد ما ذكره يزيد على ما أورده الداني في المقنع، سوى انه جعله أبواباً، وحذف الأسانيد وبعض الروايات.

وقد عقد كل من الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في البرهان^(١١٣)، والسيوطي (ت ٩١١هـ) في الاتقان^(١١٤)، والقسطلاني (ت ٩٢٣هـ) في لطائف الاشارات^(١١٥)،

= الأزهري المعاصرين) شرح على مورد الظمان سماه (لطائف البيان في رسم القرآن شرح مورد الظمان) وهو شرح مدرسي يناسب طلبة معاهد القراءات في الأزهر (طبع في القاهرة ط ٢ ج ١ سنة ١٩٦٩ وج ٢ سنة ١٩٧٠).

(١١٠) نشر في مجلة (الميثاق) المغربية بيان بالمشور على مجموعة من مؤلفات أبي العباس المراكشي، منها عنوان الدليل (انظر مجلة الأزهر ج ٥ ص ٥٠٦ عدد رجب ١٣٩١ هـ - أغسطس (آب) ١٩٧١م).

(١١١) انظر السيوطي: الاتقان ج ٤ ص ١٤٥، والقسطلاني ج ١ ص ٢٨٥. وحاجي خليفة ج ٢ عمود ١١٧٤.

(١١٢) توجد منه نسخة (٢٨ ورقة) في مكتبة الأوقاف في بغداد برقم (٢٤٠٥/١) مجاميع).

(١١٣) ج ١ ص (٣٧٦-٤٣٠).

(١١٤) ج ٤ ص (١٦٢-١٤٥). وقد أشار السيوطي في رسالة له في علم الخط (ص ٥٦) وفي: اتمام الدراية لقراء الثقاية (له) (مطبوع بهامش مفتاح العلوم للسكاكي =

والدمياطي (ت ١١١٧هـ) في الاتحاف^(١١٦)، فصلاً أوجزوا فيه ما ورد في كتب الرسم من قضايا وموضوعات وتفرعات^(١١٧).

وتوالى التأليف في موضوع الرسم في أواخر القرن الميلادي الماضي والقرن الحاضر، لكن تلك التأليف جاءت في أسلوب يفقد كثيراً من سهولة وشمول المصنفات المتقدمة، وقد جاء بعضها في صورة نظم قام بشرحه آخرون، تقيّدوا بألفاظ النظم، واعتمدوا على المصادر المتأخرة التي يدور معظمها في فلك القصيدتين الرائدتين في الرسم: العقيلة ومورد الظنّان^(١١٨).

= ١. القاهرة. المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ ص ١٣٢)، أنه قد عقد له باباً في التحبير حرره وهذبه بما لم يسبق إليه، ثم جرده في كراسة سماها (كتب الأقران في كتب القرآن) وفي اتمام الدراية (مكتب الأقران) وأظنه تحريف. (١١٥) ج ١ ص (٢٧٩-٣٠٦).

(١١٦) الدمياطي (أحمد بن محمد الشهير بالنباء): اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر. القاهرة ١٣٥٩ هـ ص ٩، ويذكر الدمياطي كذلك في آخر كل سورة ما ورد فيها من مسائل الرسم.

(١١٧) هناك كتابان قديمان في الرسم مجهولي المؤلف أحدهما اسمه (جامع الكلام في رسم مصحف الإمام) توجد منه عدة نسخ مخطوطة، والثاني كتاب (الهجاء) توجد منه نسخة مخطوطة في إحدى مكتبات تركيا وفي معهد المخطوطات صورة (مكروفل) لها. والثاني أكثر أهمية من الأول لأن المؤلف يذكر مصادره دائماً.

(١١٨) من تلك المصنفات كتاب (ارشاد القراء والكتّابين الى معرفة رسم الكتاب المبين) لأبي عيد رضوان بن محمد بن سليمان المعروف بالخلّلاتي، (ت ١٣١١هـ = ١٨٩٣م). وأرجوزة الشيخ المتولي محمد بن أحمد بن الحسن (ت سنة ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م) المسماة (اللؤلؤ المنظوم)، وعدة أبياتها ستة وسبعون بيتاً، وشرحها المسمى (الرحيق المحتوم في نثر اللؤلؤ المنظوم) للشيخ حسن بن خلف الحسيني (انظر الزرقاني ج ١ ص ٣٦٢). وقد ورد سؤال من البلاد الهندية حول التزام الرسم فأجاب عنه عدة من المشايخ، منهم الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني (ت ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩م) وجعل جوابه في رسالة سماها (ارشاد الحيران الى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن)، والشيخ محمد بن حبيب الله الشنقيطي =

وبيننا نجد مؤلفات القرون الأولى في الرسم تقوم على الوصف غالباً، وتحدد طريقة رسم الكلمات فحسب، نجد أن مؤلفات القرون التالية تتخللها محاولات لتعليل صور الكلمات التي وردت في المصحف مخالفة للشائع من القواعد التي قعدها علماء المصريين: الكوفة والبصرة، في فترات لاحقة لتاريخ نسخ المصاحف العثمانية، حتى إن أبا العباس المراكشي ألف (عنوان الدليل) - المشار إليه سابقاً- في تعليل تلك الوجوه من الرسم.

أما المنهج الذي جرى عليه الأئمة في إيراد مادة الموضوع في مؤلفاتهم فقد أخذ إتجاهين، الأول: يقوم على تجميع الأمثلة المتشابهة في الموضوع الواحد في فصل معين، وهكذا ينسب الكتاب من مجموعة فصول تشمل كافة أوجه الرسم، وخير مثال على هذا الاتجاه كتاب (هجاء مصاحف الأمصار) لأحمد بن عمار المهدي، وكتاب (البديع في هجاء المصاحف) لابن معاذ الجهني، وكتاب (المقنع) لأبي عمرو الداني، وكذلك نظم الشاطبي والجعبري والاربلي والخراز في الرسم. يقول الداني - مثلاً^(١١٩) - : « هذا كتاب أذكر فيه، إن شاء الله، ما سمعته من مشيختي ورويته عن أئمتي من مرسوم خطوط مصاحف أهل الأمصار ... وأجعل جميع ذلك أبواباً، وأصنفه فصولاً ... ». فنجد في تلك المؤلفات فصلاً عن حذف الحروف الثلاثة: الألف والواو والياء، ثم فصلاً عن زيادة تلك الحروف وآخر عن إبدال حرف مكان حرف، وفصلاً عن رسم الهمزة، وفصلاً عن القطع

= (ت ١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م)، وجعل جوابه في كتاب - أيضاً - سماه (إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام). ومن الكتب المؤلفة في العصر الحديث أيضاً (الجواهر الفريد في رسم القرآن المجيد) للشيخ سيد بركات بن يوسف عريشه الهوريني من رجال أوائل القرن الرابع عشر الهجري. وكتاب (فتح الرحمن وراحة الكسلان) للشيخ محمد أبي زيد من رجال القرن الرابع عشر الهجري. وكتاب (تشحيد الأذهان في رسم آيات القرآن) للشيخ عبد الرحمن محمد الشهير بهواش، وكتاب (سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين) للشيخ علي محمد الضباع، وأشرنا قبل قليل الى شرحي المارغني وأبي زيتحار لمورد الظمان.

(١١٩) المقنع ص (١-٢).

والوصل، وآخر عن رسم تاء التأنيث التي كتبت في بعض المواضع مبسطة، وهكذا في موضوعات الرسم الأخرى، مع اختلاف في التفصيل أو الترتيب، ومع ملاحظة أن إيراد الأمثلة في الفصل الواحد يغلب أن يجري وفق ترتيب الآيات والسور في المصحف.

والاتجاه الثاني: هو أن يتتبع المؤلف ظواهر الرسم بادئاً بأول المصحف من سورة فاتحة الكتاب منتهياً بآخر سورة فيه، حيث يشير إلى الكلمات التي رسمت بطريقة معينة، بحسب ترتيب الآيات والسور، وكثيراً ما ينص المؤلفون في هذا الاتجاه على مجموع أمثلة الظاهرة عند ورود أول مثال منها، وعلى ذلك فإن هذه المؤلفات تبدو في أولها - غالباً - أكثر حشداً للأمثلة منها في أجزائها الأخيرة، فتقل بتقدم المؤلف مع الآيات والسور، حيث يكتفي بالإشارة إلى أن هذه الظاهرة قد أشير إليها في موضع سبق، ومن أمثلة هذه المؤلفات كتاب (التنزيل في هجاء المصاحف) لأبي داود سليمان بن نجاح الذي لخصه من كتابه الكبير المسمى بالتبيين، يقول في مقدمته « .. وأسرد لهم القرآن فيه آية آية وحرفاً حرفاً من أوله إلى آخره » (١٢٠). ومنها أيضاً كتاب أبي طاهر العقيلي، وكتاب ابن وثيق الأندلسي، وكذلك كتابا (جامع الكلام) و(الهجاء) المجهولا المؤلف، وكثيراً ما يقدم العلماء المؤلفون في هذا الاتجاه لكتبهم قبل تناول الأمثلة على ترتيب الآيات والسور مقدمات تتحدث عن أبواب جامعة في الرسم كما فعل العقيلي وابن وثيق - رحمهم الله جميعاً.

ومن العرض السابق لأهم مؤلفات الرسم وإشارتنا إلى مصادر العلماء فيها نجد أن أبا عمرو الداني كان أبرز من كتبوا في الموضوع، فقد كان كتابه (المقتنع) واسطة، اجتمعت فيه معظم روايات المصادر الأولى، ومنه أيضاً استمد العلماء الذين ألفوا بعده في الرسم معظم مادتهم، فسيكون - لذلك - المصدر الأول - من بين المؤلفات التي وصلت إلينا - للأمثلة التي يقوم عليها هذا البحث، ولكن لا ينبغي أن يحرم البحث من الأمثلة الأخرى التي تقدمها

(١٢٠) التنزيل لوجه ٢.

مؤلفات علماء آخرين، مثل كتاب (هجاء مصاحف الأمصار) لأحمد بن عمّار الهدوي، معاصر الداني، فمع انه كتاب مختصر ويهمل ذكر مصادره في أغلب الأحيان إلا أنه يقدم مادة جيدة تعضد أكثر ما أورده الداني في (المقنع). ولن نهمل الفصل المهم الذي أورده أبو عبيد في فضائل القرآن عن اختلاف المصاحف، فهو أقدم مصدر موجود في هذا المجال، كذلك الفصول التي تحدث فيها ابن أبي داود في كتابه (المصاحف) عن رسم المصحف، ثم ما ذكره أبو بكر الأنباري في كتابه (إيضاح الوقف والابتداء)، فقد أورد مادة ممتازة كانت مصدراً لكثير من جاء بعده. إضافة إلى بعض الأمثلة التي تفردت بذكرها بعض المصادر، مثل كتاب أبي طاهر العقيلي وابن وثيق الاندلسي وغيرها.

وهذه المصادر التي أشير إليها - هنا - هي التي سيعتمد عليها البحث في رصد ووصف الامثلة التي يقدمها الرسم العثماني، أما مناقشة تلك الأمثلة ومحاولة إيجاد التفسير الصحيح لها فإني سأحاول الافادة من معظم المصادر التي وصلت في الموضوع مطبوعة ومخطوطة، خاصة شروح القصيدتين الرائية والمورد، وفي مقدمتها شرح الجعبري للأولى وشرح ابن عاشر الانصاري للثانية (١٣١).

(١٢١) ان ما وصل من مؤلفات الرسم - خاصة المتقدمة منها - محدود جداً، فأقدمها الفصل الذي أورده أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ) في فضائل القرآن، وما ذكره ابن أبي داود (ت ٣١٦هـ) في كتاب المصاحف، ثم كتب كل من المهدي وابن معاذ الجهني والداني في الرسم، ومعظم المؤلفات التي وصلت تأتي من بعد هذه الفترة. ولا شك في أن كتب علوم القرآن قد أصابها ما أصاب مؤلفات الحضارة الإسلامية الأخرى من الضياع والتلف بفعل الإهال والتدمير، كالذي يرويه ابن الجزري أنه حاول الاطلاع على كتاب أبي العلاء الهمداني (ت ٥٦٩هـ) الذي ألفه في طبقات القراء، ولكنه لم يفلح على نحو ما يصور ذلك في غاية النهاية (ج ١ ص ٢٠٤): «وأنا أتلف للوقوف عليه أو على شيء منه من زمن كثير فما حصل منه ولا ورقة ولا رأيت من ذكر انه رآه، والظاهر أنه عدم مع ما عدم في الوقعات الجنكزخانية». وكمن مثل الوقعات الجنكزخانية وقع لتراث هذه الأمة لكن ذلك لم يجلب نور تلك الحضارة فقد نقلتها الأجيال جيلاً عن جيل، وكان القرآن قد نال القسط الأعظم من ذلك الاهتمام فهو أساس تلك الحضارة =

ثانياً: المصاحف المخطوطة:

أشرنا في بداية هذا المبحث إلى أن مؤلفي كتب الرسم أخذوا مادتهم من المصاحف، سواء رووا ذلك عن شيوخهم الذين نقلوا من المصاحف أم نقلوها هم أنفسهم من المصاحف التي كانت موجودة بين أيديهم، وقد توافرت لرواية وجوه الرسم الصحفي من الأسباب ما يدفع إلى الثقة الكاملة بكل ما رواه الأئمة من كون ذلك هو حقيقة ما كان عليه الرسم في المصاحف.

ومع ذلك فإن اعتماد بعض ما تقدمه المصاحف القديمة التي سلمت من التلف إلى الوقت الحاضر يعطي مزيداً من الثقة بما رواه مؤلفو كتب الرسم، إضافة إلى ما يمكن أن تقدمه تلك المصاحف من أمثلة جديدة تساعد في إرساء أسس فهم صحيح وواضح لظواهر الرسم المتعددة.

وقبل أن نعرض لوصف المصاحف التي أمكن الاطلاع عليها نشير إلى روايات العلماء حول مصير المصاحف العثمانية الأصلية، وهل من المحتمل أن يكون قد بقي منها شيء؟ وهي مسألة تاريخية كبيرة ليس من اليسير - هنا - الالمام بكل جوانبها ونكتفي بالإشارة إلى أن العلماء قد رووا - في وقت مبكر - ذهاب تلك المصاحف. ولا شك أن من روى ذلك كانت روايته بقدر ما عرفه، ولا ينبغي أن تكون المصاحف العثمانية قد بقيت لعدة قرون بعد ذلك، فبينما نجد الامام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) يسأله ابن وهب عن مصحف عثمان - رضي الله عنه - فيقول بأنه ذَهَبَ (١٢٢)، نجده يخرج لهم مصحفاً قديماً كان قد كتبه جده إذ كتب عثمان المصاحف (١٢٣)، ويروى أن أبا عبيد قال: انه رأى الإمام مصحف

وموجهها، وسيظل أعلى شيء يمكن أن تقدمه للناس. لكن المؤسف أن معظم مؤلفات علوم القرآن خاصة القراءات والرسم لا تزال مخطوطة تنتظر من ينفذ عنها غبار الزمن لترى النور من جديد وتكون عوناً في يد كل باحث في هذا التراث.

(١٢٢) ابن أبي داود ص ٣٥. والزرکشي ج ١ ص ٢٢٢.

(١٢٣) الداني: المقنع ص ١١٢، والمحکم (له) ص ١٧. والقرطبي ج ١ ص ٦٣.

عثمان، استخرج له من بعض خزائن الأمراء، وأنه رأى فيه أثر دمه^(١٢٤). ويشير الداني (ت ٤٤٤هـ) كثيراً إلى تتبعه بعض الحروف في المصاحف العتق، فيقول - مثلاً - انه رأى مصحفاً جامعاً عتيقاً كتب في أول خلافة هشام بن عبد الملك سنة عشر ومئة كان تاريخه في آخره^(١٢٥)، كذلك يروي ابن كثير^(١٢٦) (ت ٧٧٤هـ) وابن الجزري^(١٢٧) (ت ٨٣٣هـ) أنها رأيا بعض المصاحف القديمة المكتوبة على الرق في جامع دمشق وفي مصر كذلك.

فهذه الروايات تشير إلى احتمال أن تكون المصاحف العثمانية الأصلية قد ظلت موجودة دهرًا طويلاً في المساجد الجامعة، خاصة إذا تصورنا ما حظيت به تلك المصاحف من الرعاية والاحترام، فهي المصاحف الأئمة التي نسخ الناس عنها مصاحفهم في الامصار بعد إجماع الامة على المصاحف التي نسخت في خلافة عثمان - رضي الله عنه - .

ومن الملاحظ أن أئمة رواية الرسم كثيراً ما يقولون انهم رأوا كلمة معينة في المصحف الامام مصحف عثمان، كالذي يروي عن ابي عبيد^(١٢٨)، وعاصم الجحدري^(١٢٩)، ويحيى بن الحارث^(١٣٠)، وأبي حاتم^(١٣١)، ولعل كلمة المصحف الامام كانت تشمل جميع المصاحف التي كتبت بأمر عثمان - رضي الله عنه - في

(١٢٤) انظر الداني: المقنع ص ١٥، وعلم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ١٣ ب. وابن الجزري: النشرح ٢ ص ١٥٠. وقد أشار الشاطبي في العقيلة الى روايتي مالك وأبي عبيد والخلاف في ذلك، (انظر ابن القاصح ص ١٧).

(١٢٥) المحكم ص ٨٧.

(١٢٦) فضائل القرآن ص ٤٩.

(١٢٧) النشرح ١ ص ٤٥٥.

(١٢٨) انظر المقنع ص ١٥ و ٣٥ و ٣٨ و ٥٣ و ٧٦ الخ.

(١٢٩) انظر نفس المصدر ص ٣٤ و ٤٠ و ٤١ و ٤٥ و ٤٨ و ٥٤ و ٥٧ الخ.

(١٣٠) انظر نفس المصدر ص ٩٠.

(١٣١) انظر نفس المصدر ص ٩٢.

أي مصر من الأمصار، وليس مصحف المدينة أو المصحف الخاص بالخليفة فحسب، وربما تشمل - أيضاً المصاحف الكبيرة التي كانت توضع في المساجد الجامعة للقراءة أو لنسخ المصاحف منها والتي نسخت من المصاحف العثمانية الأصلية، ولعل ذلك يفسر لنا أيضاً ما يكتب في آخر بعض المصاحف من أنه بخط الخليفة عثمان، أي بنفس الهجاء الذي كتبت عليه المصاحف التي نسخت في خلافة عثمان - رضي الله عنه - .

وتوجد الآن في مكتبات العالم مجموعة كبيرة من المصاحف القديمة، أو قطع منها، قد كتبت على الرق، وبالحظ الكوفي القديم، مجردة من النقط والشكل ومن كثير مما ألحق بالمصاحف من أسماء السور وعدد آياتها وغير ذلك بحيث تبدو أقرب إلى الصورة التي كانت عليها المصاحف الأولى (١٣٢).

ويثار السؤال القديم مرة أخرى، في الوقت الحاضر، وهو هل يمكن أن يكون واحد من هذه المصاحف القديمة الباقية أحد المصاحف العثمانية الأصلية؟ إن أغلب الباحثين أميل إلى استبعاد ذلك، إذ من المتعذر - اليوم - العثور على مصحف كامل كتب في القرن الهجري الأول أو الثاني، وعليه تاريخ نسخه أو اسم ناسخه (١٣٣)، وكذلك فإنها في الغالب غير مجردة تماماً من العلامات التي أدخلت في وقت متأخر، إلى جانب أن إقرار ذلك يحتاج إلى أدلة تاريخية ومادية واضحة وقوية، ودراسة متعددة الوجوه وهو ما لم يتح للدارسين - بعد - القيام بها (١٣٤).

(١٣٢) انظر جولدسيهر : ص ٢٩٨ . ومحمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص (١١٩-١٢٠)، وناصر النقشبندي: المصاحف الكريمة في صدر الإسلام. مقال في مجلة سومر مج ١٢ سنة ١٩٥٦ ج ٢١، ص ٣٥ ود. سعاد ماهر: مشهد الإمام علي في النجف القاهرة. دار المعارف ١٣٨٨ هـ ص ١٩٦ وما بعدها.

(١٣٣) انظر ناصر النقشبندي: المصاحف الكريمة ص ٣٤.

(١٣٤) انظر د. صبحي الصالح ص ٨٧، ود. جواد علي: السيرة ص ١٣، ود. محمد عبد العزيز مرزوق ص ٢٤.

ومهما كان الرأي في تلك المصاحف فإنها - دون شك - قديمة ترجع إلى القرون الهجرية الأولى، بل ربما إلى القرن الاول بالذات، خاصة حين لا يظهر فيها أي أثر للاصلاحات التي أدخلت على الخط العربي في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، إلا بعض العلامات النادرة أحياناً، فهي بذلك أقرب إلى الفترة التي يحتمل أن تكون المصاحف العثمانية موجودة فيها، وربما نسخت منها أو من مصحف نسخ من أحدها، وهي لذلك خير ما يمثل واقع الرسم الذي نسخت به المصاحف العثمانية.

وتملك مكتبات التراث الاسلامي في مصر خير مجموعة من تلك المصاحف القديمة^(١٣٥)، كذلك يروى أن أحد تلك المصاحف القديمة كان موجوداً في الحرم النبوي في المدينة المنورة حتى الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨م) حيث نقله العثمانيون إلى الآستانة مع إنسحابهم من أراضي الحجاز، ويقال انه انتقل إلى ألمانيا^(١٣٦). ومنها مصحف محفوظ الآن في مدينة طشقند في تركستان الاسلامية في روسيا، وقد قامت بنشره - في مطلع هذا القرن - جمعية الآثار القديمة الروسية، وطبعت منه خمسين نسخة^(١٣٧)، ومع ذلك فإن الدراسات عن تلك المصاحف القديمة وعددها في مكتبات العالم لا تزال قليلة.

وقد تيسرت لي القراءة في بضعة مصاحف قديمة من تلك المحفوظة في دار

(١٣٥) - Abbott, P.57.

(١٣٦) انظر: محمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص ١٢٠ و M.Hamidullah P.430

(١٣٧) كان هذا المصحف في جامع خواجه عبيد الله الأحرار، ثم اشتراه حاكم تركستان ونقله الى بطرسبورج فوضع في دار الكتب القيصرية، وسمي هناك المصحف السمرقندي، وأشيع أنه المصحف الإمام الذي استشهد عليه الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فكان الناس يزورونه في أيام معينة، ثم نشرته جمعية الآثار القديمة على يد المصور الروسي (بساريكس) وطبعت منه خمسين نسخة، وبقي هذا المصحف في دار الكتب القيصرية الى الانقلاب البلشفي، وفي أوائل =

الكتب المصرية^(١٣٨)، بعضها مشكول ومعجم، وسنشير إليها في الفصل الخاص بتكميل الرسم العثماني، والبعض الآخر - وهو الذي سيكون لنا عوناً في الفصل التالي في دراسة الظواهر الكتابية التي يقدمها الرسم العثماني - مجرد من الشكل والنقط بصورة عامة، ومما أدخل على المصاحف في الفترات المتأخرة بصورة خاصة، ومكتوب بالخط الكوفي القديم ومجرف كبير جداً، على رق، وهي:

الأول: مصحف كريم، مجلوب من جامع عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط بالقاهرة، وهو مكتوب على رق، بخط كوفي كبير، وفيه نقص في أماكن كثيرة، وقد أكمل بالورق سنة (١٢٤٦هـ = ١٨٣٠م) كما هو مكتوب في آخر المصحف، وأبعاده (٦٠ سم × ٥٤ سم) تقريباً، وعدد أوراقه يزيد على خمسمائة وستين قليلاً، وفي كل صفحة منه إثنا عشر سطراً، في الغالب، وهو مجرد من الشكل والنقط - إلا من ظاهرة تبدو في بعض الكلمات سنشير إليها لاحقاً - وتوجد بين السور - أحياناً - زخرفة تضم اسم السورة وعدد آياتها، كما نجد في أول سورة النساء

= سنة ١٩١٨م حمل في حفل عظيم تحت حراسة الجند الى إدارة مكونة من الشخصيات الإسلامية البارزة هناك تسمى (النظارة الدينية) وذلك إرضاء للمسلمين وكسباً لتعويضهم، وبقي فيها خمس سنوات. وفي أواسط سنة ١٩٢٣ نقل الى تركستان، وبقي في سمرقند فترة من الزمن، وهو الآن في طشقند (انظر د. عبد الفتاح شلبي: الإمالة ص ٢٠٥).

(١٣٨) ان محاولة الاطلاع على المصاحف الكريمة المخطوطة والقديمة منها خاصة أمر في غاية الصعوبة وليس من اليسير التوفيق بين طموحات البحث في الحصول على المادة من تلك المصاحف وبين حرص القائمين بالمحافظة عليها بالأتمهات يد أحد حتى ولو كانت يد باحث مسلم ليس بأقل حرصاً منهم عليها، وقد حرم هذا البحث لذلك مما يمكن أن يستفيدة لو تيسرت لي القراءة في المصحف الجليل المنسوب لسيدنا عثمان والحفوظ في جامع الحسين بالقاهرة، ولم تكن مخاطبة كلية دار العلوم للجهة المسؤولة عن حفظ المصحف شيئاً (انظر عن تاريخ هذا المصحف: الشيخ محمد نجيت المطيعي ص ٣٢ ود. سعد ماهر: مخلفات الرسول في =

ويونس وهود ويوسف، وأحياناً أخرى لا يضم الشريط المزخرف شيئاً، كما في أول سورة النحل والعنكبوت والسجدة والأحزاب، وفي مواضع أخرى لا نجد بين السورة والتي تليها سوى فراغ يعادل مساحة سطرين، كما في أول الأنبياء والمؤمنون والنور، ونجد في بعض الصفحات إشارات إلى الأعشار والاحماس، كما نجد في أماكن أخرى عدة خطوط منضدة فوق بعض عند نهاية الآيات^(١٣٩)، ولعل بعض هذه الزيادات قد أضيفت إلى المصحف في فترات لاحقة. والمصحف - في وضعه الحالي - يبدو عليه أثر القدم من اضمحلال الخط المكتوب على الرق في كثير من الأوراق، ومن تأكل أطراف أوراق أخرى، وهو مع ذلك كنز عظيم أفلت مما أصاب غيره من المصاحف القديمة الاخرى من التلف والدمار^(١٤٠).

والثاني: هو إحدى النسخ المصورة عن مصحف طشقند - الذي أشرنا إليه قبل قليل - والمحافظة في دار الكتب المصرية^(١٤١)، وسنعمد على هذه النسخة على أساس انها نسخة مطابقة للأصل المحفوظ بطشقند، وهذا المصحف مكتوب بخط كوفي كبير، ويبدو من حيث الخط أقل تنظيماً ودقة من مصحف جامع عمرو بن العاص، وربما يشير هذا إلى انه يعود إلى فترة أقدم من الفترة التي يعود

= المسجد الحسيني. القاهرة وزارة الأوقاف المصرية ١٩٦٥ ص ١٣١ وما بعدها)، وقد كان مسؤولو المصاحف المخطوطة في دار الكتب المصرية أكثر سماحة حين أتاحوا لي فرصة القراءة في بعض المصاحف القديمة المحفوظة بالدار لأيام معدودة.

(١٣٩) يبدو أن الدكتور ابراهيم جمعة لم يطلع على المصحف حين قال (انظر دراسة في تطور الكتابات الكوفية ص ٧٠) انه «خال من الشكل والنقط وأسماء السور وذكر عدد الآيات».

(١٤٠) المصحف محفوظ في دار الكتب المصرية برقم (١٣٩ مصاحف).

(١٤١) برقم (٢٠٤ مصاحف).

إليها مصحف جامع عمرو، ومصحف طشقند فيه سقط كثير، فهو ناقص في مواضع كثيرة، تتراوح بين ورقة واحدة وعدة أوراق، ومن الصفحات المتبقية ما تلف بعض أطرافها، وأبعاد هذا المصحف هي (٧٠ سم × ٥٠ سم) وعدد أوراقه الموجودة (٢٥٣ ورقة)، مكتوبة من وجهيها، وفي كل صفحة إثنا عشر سطراً، في الغالب، والمصحف مجرد بصورة عامة، إلا من مظاهر للزخرفة في بعض المواقع، فبين السورة والتي تليها فراغ قدر سطر وفي بعض السور هناك شريط مزخرف دون أن يذكر فيه اسم السورة وعدد آيها، وفي بعض الصفحات نجد إشارات إلى الأجزاء بمربع مزين بالألوان، وعند رؤوس بعض الآيات هناك بضعة خطوط تشير إلى انتهاء الآية. وبصورة عامة يبدو مصحف جامع عمرو أكثر تنسيقاً من هذا المصحف من حيث الزخارف أو من حيث انتظام الخط.

ورغم القناعة الكاملة بأن قراءة أكبر عدد من المصاحف المخطوطة القديمة سيعطي البحث فوائد أكثر إلا أن ذلك هو كل ما تيسرت لي قراءته من المصاحف المخطوطة القديمة^(١٤٢)، ومع ذلك فقد ساعدت تلك القراءة المحدودة في الاجابة على كثير من التساؤلات التي تثار حول ظواهر الرسم بما هو موجود في

(١٤٢) حصلت - الى جانب ذلك - على ثمانى لوحات - كل لوحة تحوي صفحتين - من مصحف قديم محفوظ في مشهد الإمام علي - رضي الله عنه - في النجف، ولكن يبدو انه يعود الى فترة متأخرة عن تلك التي يرجع اليها مصحف طشقند ومصحف جامع عمرو، ومصحف النجف مكتوب على رق وبخط كوفي بمداد أسود، وفيه نقط الإعراب التي تنسب طريقة استعمالها لأبي الأسود الدؤلي بالحمرة، وعدد أوراقه (٣٠٩) وأبعاده (١٩ سم × ١٢,٥ سم تقريباً). وفي الورقة الأخيرة منه كتب بخط مختلف عن خط المصحف الأصل أنه بخط الإمام علي سنة ٤٠هـ، والملاحظة الأخيرة يحتاج أثبات صحتها الى أدلة صحيحة صادقة، وليس بعيداً أن تكون تلك الجملة مدخولة (انظر ابراهيم جمعة: دراسة في تطور الكتابات الكوفية ص ٧١) ومع ذلك فإن المصحف في وضعه السابق يدل على أنه يرجع الى فترة متقدمة.

هذه المصاحف من ظواهر هجائية تدعم ما جاءت به الرواية من ظواهر في رسم المصحف (١٤٣).

(١٤٣) سيكون الاعتراف في إيراد الأمثلة مما اتفقت عليه المصاحف في الرسم على ما هو مرسوم في المصحف المطبوع في مصر سنة ١٣٤٢ هـ، إذ قد نصت اللجنة التي أشرفت على رسمه وطبعه بالجري على المروي من رسم المصحف العثماني حسب ما ذكره الخراز في قصيدته (مورد الظمان)، وحسب ما قرره شارحها ابن عاشر الانصاري كما هو مذكور في نهاية المصحف في باب التعريف بالمصحف.

المبحث الثاني

موقفُ علماءِ السلفِ من ظواهرِ الرسمِ

إن تلك الجهود العظيمة التي عرضنا - باختصار - أهمها في المبحث السابق لتثير الدهشة لكثرتها وتواليها على تعاقب القرون، وتثير - أيضاً - الاجلال والاعزاز لأولئك الأئمة الذين أدوا إلينا بأمانة دقائق هذا الموضوع وتفصيلاته، وحاولوا جاهدين أن يعطوا التفسير الصحيح - على تفاوت بينهم في ذلك - لظواهر الرسم العثماني، فكان لعلماء الرسم والقراءات أولاً ولعلماء العربية ثانياً مواقف وأقوال في هذا الصدد، سواء فيما يتعلق بالتزام الرسم في كتابة المصاحف أم بدراسة الظواهر نفسها، ومحاولة إعطاء التفسير المحتمل لها، ومن الضروري قبل أن نحاول دراسة ظواهر الرسم العثماني على ضوء ما تتيحه الدراسات الحديثة أن نوجز القول في مواقف علماء السلف من تينك المسألتين ليكون ما سنقوله بعد ذلك في تفسير ظواهر الرسم بناء على مذاهب الأئمة أو ترجيحاً أو تصحيحاً لبعضها أو إعطاء لرأي جديد يرجى له أن يقف إلى جانب آرائهم في ذلك.

أولاً: موقفهم من التزامه في كتابة المصحف:

كتب الصحابة - رضوان الله عليهم - المصاحف بما كان متعارفاً عليه في زمنهم من قواعد الهجاء وأصول الرسم بما لا يحتم توحيد القاعدة أو إطرادها، فقد كان ذلك واقع الكتابة العربية حينئذ، وكان الناس في سنوات الاسلام الاولى يستعملون ذلك فيما يكتبون، وقدوتهم رسم المصحف العثماني، وكان أكثر

الصحابة ومن وافقهم من التابعين وتابعيهم يوافقون الرسم العثماني في كل ما كتبوه، ولو لم يكن قرآناً ولا حديثاً، واستمر الأمر على ذلك عهداً طويلاً^(١)، إلى أن ظهر علماء المصريين وأسسوا لهذا الفن ضوابط وروابط بنوها على أقيستهم النحوية وأصولهم الصرفية نظراً لحاجة الناس بازدياد استعمال الكتابة إلى نظام موحد القواعد ميسور التعلم^(٢)، ومن هنا، وبانتشار استعمال القواعد التي وضعها العلماء للكتابة، ظهر ما يسمى بقواعد الهجاء أو الإملاء أو علم الخط القياسي أو الاصطلاحي، وهجر الناس استعمال هجاء الكلمات القديم في كتابتهم، لكن نساخ المصاحف لم يستعملوا الصور الجديدة للكلمات في نسخ المصاحف، وظلوا يحافظون على صور الكلمات كما وردت في المصاحف العثمانية الأئمة، ومن ثم ميز العلماء بين أسلوبين للكتابة بل ثلاثة، يقول ابن درستويه في مقدمة كتابه (الكتاب)^(٣): « ووجدنا كتاب الله جل ذكره لا يقاس هجاؤه، ولا يخالف خطه، ولكنه يتلقى بالقبول على ما أودع المصحف، ورأينا العروض إنما هو إحصاء ما لفظ به من ساكن ومتحرك، وليس يلحقه غلط، ولا فيه اختلاف بين أحد، فلم نعرض لذكرهما في كتابنا » وعلى ذلك قال أبو حيان^(٤): « فقد صار الاصطلاح في الكتابة على ثلاثة أنحاء: اصطلاح العروض واصطلاح كتابة المصحف، واصطلاح الكتاب في غير هذين ».

ويبدو أن محاولات جرت منذ وقت مبكر لإدخال بعض صور الكلمات المستعملة عند الكتاب في المصحف فيروي الداني أن إمام المدينة مالكاً (ت ١٧٩هـ)، رحمه الله، سئل ف قيل له « رأيت من استكتب مصحفاً اليوم أترى

(١) يقول ابن قتيبة (أدب الكاتب ص ٢٥٣) وهو يتحدث عن رسم الالف واوآ في الصلوة والزكوة والحياة: « ولولا اعتياد الناس لذلك في هذه الأحرف الثلاثة وما في مخالفة جماعتهم لكان أحب الأشياء الى أن يكتب هذا كله بالألف ».

(٢) انظر نصر الهوريني ص ٢٦ وانظر أيضاً: ابن فارس ص ١١.

(٣) ص ٥.

(٤) السيوطي: همع الهوامع ج ٢ ص ٢٤٣. وانظر الزركشي ج ١ ص ٣٧٦.

أن يكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم، فقال: لا أرى ذلك، ولكن يكتب على الكتابة الأولى»^(٥). ويروى أيضاً أنه سئل عن الحروف التي تكون في القرآن مثل الواو والألف أترى أن تُغَيَّرَ من المصحف إذا وجدت فيه كذلك؟ فقال: لا^(٦). ويعقب الداني على ذلك بقوله: يعني الواو والألف الزائدتين في الرسم لمعنى المدومتين في اللفظ.

وقد أجمع العلماء على مثل ما ذهب إليه الامام مالك^(٧)، فقد قال الداني بعد أن روى رأي مالك السابق «ولا مخالف له في ذلك من علماء الأمة»^(٨). حتى إن الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) قال: تحرم مخالفة مصحف الامام في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك^(٩). وقال البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ) في شعب الايمان: من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به هذه المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوا شيئاً، فإنهم كانوا أكثر علماء، وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم^(١٠). وقال اللبيب^(١١): فما فعله صحابي واحد فلنا الأخذ به والافتداء بفعله والاتباع لأمره، فكيف وقد اجتمع على كتاب المصاحف حين كتبه نحو اثني عشر ألفاً من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين؟. وقال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) وهو يعقب على رسم لام الجر مفصولة في قوله تعالى:

(٥) الداني المقنع ص (٩-١٠).

(٦) نفس المصدر ص ٢٨. وانظر القسطلاني ج ١ ص ٢٧٩.

(٧) وقد قال الجعبري في شرح العقيلة إن ذلك هو مذهب الأئمة الأربعة (انظر أحمد بن المبارك: الإبريز ط ١. المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٦ هـ ص ٥٩).

(٨) الداني: المقنع ص ١٠. وانظر السيوطي: الاتقان ج ٤ ص ١٤٦.

(٩) الزركشي: البرهان ج ١ ص ٣٧٩، والسيوطي الاتقان ج ٤ ص ١٤٦.

(١٠) السيوطي: الاتقان ج ٤ ص ١٤٦ وانظر القسطلاني ج ١ ص ٢٧٩ والمهدي ص ٧٥.

(١١) انظر الدرّة الصقيلة ورقة ٣٠ ب.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ (الفرقان/٧) (١٣): وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي، وخط المصحف سنة لا تغير (١٣).

وقد تفرّد سلطان العلماء العز بن عبد السلام (ت ٥٦٠هـ) من بين علماء السلف (١٤) في ذهابه إلى جواز كتابة المصحف بالمألوف من الهجاء عند الناس بل هو يوجب ذلك خشية وقوع التغيير في القرآن من قبل الجهال، فقد أورد الزركشي في البرهان مذهبه ذاك حيث يقول (١٥): «قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لا تجوز كتابة المصحف - الآن - على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة، لثلا يوقع في تغيير الجهال»، ويعقب الزركشي مباشرة على قول العز بقوله «ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه، لثلا يؤدي إلى دروس العلم، وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة» (١٦).

وقد أسيء فهم مذهب العز، وخلط بعض الباحثين بينه وبين تعقيب

(١٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٠٩. وانظر السيوطي همع الموامع ج ٢ ص ٢٤٣ ورسالة في علم

الخط (له) ص ٥٦. وإتمام الدراية (له أيضاً) ص ١٣٢.

(١٣) أورد صاحب كتاب الهجاء (لوحة ٢ وما بعدها) أقوالاً للكسائي والزخري وابن درستويه وأبو بكر بن مهران في وجوب التزام الرسم العثماني في كتابة المصاحف. وانظر أيضاً: الزرقاني ج ١ ص ٣٧٠.

(١٤) ذهب القاضي أبو بكر الباقلاني - من قبل - إلى جواز كتابة المصاحف بالإملاء المستعمل في غير المصاحف لأنه - في نظره - لم يرد ما يوجب على الأمة رسماً بعينه ويقول «وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه، وأنى له ذلك» (انظر أحمد بن المبارك ص ٥٥ والزرقاني ج ١ ص ٣٧٣-٣٧٤).

(١٥) ج ١ ص ٣٧٩، وقد حاولت العثور على رأي ابن عبد السلام هذا في أحد كتبه الثلاثة المطبوعة (الفوائد، والإشارة، وقواعد الأحكام) فلم أوفق.

(١٦) نقل القسطلاني أيضاً (ج ١ ص ٢٧٩) رأي العز وتعقيب الزركشي عليه.

الزركشي عليه دون مبالاة بالتناقض الواضح الذي أدى إليه ذلك الخلط^(١٧)، وقد نقل الدمياطي في الاتحاف ما أورده الزركشي في البرهان مما نقلنا بعضه قبل قليل، فأورد بعد رأي العز قوله « وهذا كما قال بعضهم لا ينبغي اجراؤه على اطلاقه... »^(١٨) وهو تصريح منه أن ما جاء في البرهان إنما هو قولان، وهو وإن لم يصرح باسم الزركشي إلا أن عبارته (كما قال بعضهم) تقطع بأن رأي العز هو ما ذكرناه، وأن ما جاء بعده من كلام هو للزركشي، وبذلك - وحده - يستقيم معنى النص. وليس غريباً على الإمام العز مثل هذا الرأي الذي تفرد به فهو صاحب نظرية المصالح، فالشريعة « كلها مصالح، إمّا تدراً مفسد أو تجلب مصالح »^(١٩). وقد أداه اجتهاده أن في مذهبه مصلحة وتيسيراً على الأمة، لكن يبدو أنه قد غاب عنه ما للرسم العثماني من دور في تصحيح القراءات إضافة إلى

(١٧) منهم الشيخ الزرقاني (انظر ج ١ ص ٣٧٨)، فقد أورد كلا من قولي العز والزركشي على صعيد واحد لا يفهم منه أنها قولان متباينان، ومنهم د. صبحي الصالح (انظر ص ٢٨٠) فقد أورد مذهب العز على هذا النحو « لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة، لئلا يؤدي الى دروس العلم، وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين. ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة » ثم أشار الى الموضوع الذي نقلنا منه رأي العز في البرهان، وواضح أن الدكتور الصالح قد خلط بين قول العز وتعقيب الزركشي عليه، ويبدو أن الذي أوقعه في ذلك هو ما حدث له من انتقال نظر عند كلمة (لئلا) في القولين فسي بعضاً من قول العز وألحق به طرفاً من تعقيب الزركشي عليه، فأدى ذلك الى تناقض في ما أورده، اضطر أن يقدم لذلك تعليلاً، ليس له مكان لولا ذلك الخلط. ووقع في ذلك الخلط ودافع عنه د. عبد الحي الفرماوي (ص ٢٨٠) فهو يصير على أن قول الزركشي إنما هو جزء من مذهب العز دون ملاحظة ما يوقعه ذلك من اضطراب وخلط، ولعل المستقبل يكشف عن رأي العز في أحد كتبه - إن شاء الله - فيقطع كل مجال للقول والتمحل والتعسف في التأويل.

(١٨) ص ٩.

(١٩) العز: قواعد الأحكام في مصالح الأنام. القاهرة. مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٨

ج ١ ص ١١.

كونه أثراً من أيدي الصحابة الكرام الذين هم أول من تلقى القرآن وسمعه من النبي - صلى الله عليه وسلم - وأول من خطه في المصاحف « ولم يكن ذلك من الصحابة كيف اتفق بل على أمر عندهم قد تحقق »^(٢٠)، وسيوضح لنا صدق هذه المقولة في الصفحات القادمة إن شاء الله.

ونتيجة لعجز بعض العلماء عن إدراك أسباب ورود بعض الكلمات مرسومة بهيئة تخالف اللفظ من زيادة حرف أو نقصه، ذهب إلى أن رسم المصحف وهيئات صور الكلمات إنما هي توقيف عن النبي - صلى الله عليه وسلم -^(٢١) وقد عبر عن هذا المذهب بكل أبعاده الشيخ عبد العزيز الدباغ (١٠٩٠-١١٣٢هـ) فيما نقله عنه تلميذه أحمد بن المبارك (١٠٩٠-١١٥٥هـ) في كتاب الأبريز بقوله^(٢٢) « ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو بتوقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها، لأسرار لا تهدي إليها العقول... وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السأوية... وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز، وكيف تهدي العقول إلى سر زيادة الألف في (مائة) دون (فئة) وإلى سر زيادة الياء في (باييد) في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في (سعوا) من قوله تعالى في الحج (٥١/٢٢) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وعدم زيادتها في سبأ... فكل ذلك لأسرار الهية، وأغراض نبوية، وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك إلا بالفتح الرباني... ».

وقد وقف بعض الباحثين في الاتجاه المقابل، وذهبوا إلى أن رسم المصحف ليس توقيفاً، وإنما هو من وضع الصحابة واصطلاحهم، فلم ينقل أن النبي - صلى

(٢٠) انظر القسطلاني ج ١ ص ٢٨٥.

(٢١) انظر الشيخ محمد مجتهد المطيعي ص ٣٦. والزرقاني ج ١ ص ٣٧٠ وما بعدها.

ومحمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص ١٠١. وعبد الوهاب حموده: ص ١٠٠.

(٢٢) أحمد بن المبارك: الأبريز ص (٥٥-٥٦) وانظر الزرقاني ص ٣٧٥ وما بعدها.

الله عليه وسلم - كان يملي على كاتب الوحي بهذه الصفة والكيفية، فلو كان كذلك لتواتر عنه - صلى الله عليه وسلم - وما كان ذلك خافياً على أحد، إذ لم يصح في ذلك حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام^(٢٣)، كذلك فإن واقع الرسم بما فيه من هيئات متعددة لرسم الكلمات ينفي أن يكون توقيفاً^(٢٤).

وستكشف لنا دراسة خصائص الرسم وظواهره ومقارنتها بواقع الكتابة العربية آنذاك عن جانب من حقيقة الأمر، وما يمكن أن يقال في ذلك، بما يتيح الاجابة بثقة في هذه المسألة، ونشير - هنا - إلى أنه يجب التمييز - بكل وضوح- بين قول جمهور علماء الامة بوجوب التزام الرسم العثماني في نسخ المصاحف، وبين القول بأن الرسم توقيف عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ إن القول بالتوقيف يبدو انه قد ظهر في وقت متأخر، وأن من قال من العلماء المتقدمين بوجوب التزامه في رسم المصاحف لم يكن يقصد إلى شيء مما فهمه وقال به المتأخرون بشأن التوقيف.

ثانياً: موقفهم من تفسير ظواهره:

أشرنا من قريب إلى أن قواعد الكتابة العربية قد أخذت تتحدد منذ وقت مبكر حين ازداد استعمال الناس لها في تدوين العلوم وفي خدمة معاملات الدولة والافراد على السواء، وجاء علماء العربية فأسهموا إسهاماً كبيراً في ذلك، استوقفتهم بعض صور الهجاء الواردة في خطوط المصاحف، فأخذوا يتحدثون عن الرسم القياسي الذي يعملون على تفعيد قواعده، وعن الرسم المصحفي الذي

(٢٣) انظر ماروي من أحاديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بشأن الكتابة: محمد طاهر الكردي: تاريخ الخط العربي ص ٩. وانظر أيضاً الزبيدي: حكمة الاشراف ص ٦٧.

(٢٤) انظر: في الرد على من قال بالتوقيف: محمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص ١٠١ وعبد الوهاب حموده ١٠٠. ود. صبحي الصالح: ص ٢٧٥ وما بعدها. وانظر مذهب القاضي أبو بكر الباقلاني في ذلك: أحمد بن المبارك: الابريز ص (٥٤-٥٥) والزرقاني ج ١ ص (٣٧٣-٣٧٤).

لا يطرد هجاؤه، ولا يقاس عليه غيره، على نحو قول ابن درستويه السابق، وكان أكثر خط المصاحف - في نظرهم - موافقاً لتلك القواعد، لكنه قد جاءت أشياء خارجة على ذلك^(٢٥)، وغاب عنهم أن القواعد التي وضعها العلماء كانت لاحقة للرسم لا يمكن أن تكون ميزاناً لظواهره، فقد اتخذ العلماء ظواهر الرسم المصحفي أساساً لتقعيد قواعدهم بعد توحيد القواعد المتعددة التي كانت تخضع لها ظواهر كتابية معينة.

ومها يكن من شيء فقد ظلت تلك الظواهر الكتابية التي لم تخضع لقواعد الهجاء المستحدثة محل نقاش ومثار تساؤل، فاختلفت وجهات نظر العلماء في تفسيرها، وتناقضت مواقفهم - أحياناً - منها، حتى إن بعض العلماء حمل تلك الظواهر على خطأ الكاتب في الكتابة. وذهب آخرون إلى أنها توقيف، وأنها تخفي من الأسرار الباطنة ما لا يدرك إلا بالفتح الرباني. وقد أوقعهم جميعاً في ذلك إهمالهم للبعد التاريخي للكتابة، واعتقادهم - جميعاً - أن الأصل في الكتابة موافقة الخط للفظ^(٢٦)، فقالوا إن الصحابة - رضوان الله عليهم - خرجوا على ذلك الأصل حين كتبوا المصحف^(٢٧)، وهم في الحقيقة إنما استخدموا الهجاء المستعمل في زمانهم، الذي يعود بقواعده وبما يحمل من ظواهر كتابية وردت في رسم المصحف إلى فترات أقدم من تاريخ نسخ المصاحف.

(٢٥) انظر ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ١٢٨. والقسطاني ج ١ ص ٢٨٥.

(٢٦) انظر ص (٨٢) من الفصل التمهيدي.

(٢٧) بما يؤسف له أن نسمع ذلك في الوقت الحاضر ومن منبر مجمع اللغة العربية في القاهرة، فقد ألقى الشيخ إبراهيم حمروش (انظر مجلة المجمع سنة ١٩٥٥ ج ٨ ص ٥٧) بياناً عن رسم المصحف في مؤتمر المجمع قال فيه: «الأصل في هذا الخط أن يكون تصويراً للملفوظ بحروف هجائه بحيث يطابق المكتوب، ولكن هذا الأصل مزقه علماء الرسم! فقد كثرت استثناءاتهم في الحروف ولا سيما في الهمزة، أما رسم المصحف فالنظر فيه يوضح لنا أنه مخالف لذلك الأصل في كثير من مواضعه، ومخالف لما قرره علماء الرسم أحياناً...».

ويمكن تمييز بضعة اتجاهات في مواقف علماء السلف من ظواهر الرسم التي جاءت خارجة على القواعد التي وضعها علماء العربية، وفي تحليلهم لتلك الظواهر، وأهم تلك الاتجاهات:

١ - تحليل بعض ظواهر الرسم بعلة لغوية أو نحوية:

وهذا الاتجاه أقرب إلى الحق والواقع في تناول قضايا الرسم من غيره، رغم عدم وضوح الأساس الذي يقوم عليه، ورغم إهماله للجانب التاريخي والعوامل الأخرى التي تسهم في إعطاء الكلمات صورة هجائها، ويمكن أن يدخل في هذا الاتجاه ما تناثر في بعض مؤلفات الرسم - المتقدمة منها خاصة - مثل (هجاء مصاحف الأمصار) للمهدوي و(المقنع) للداني وبعض شروح العقيلة ومورد الظبان وبعض كتب اللغة، من مثل تحليل رسم الألف ياء للامالة، ورسم الهمزة بأحد حروف العلة الثلاثة للتسهيل، أو زيادة تلك الحروف في بعض الأحيان للفرق أو حذفها للتخفيف، ومثل تحليل وصل بعض الكلمات للإدغام، أو كتابة تاء التأنيث في بعض الاسماء مبسوطاً على اللفظ، ولا يعنيها - هنا - مدى صحة تلك التعليقات وانطباقها على الواقع - مما سنورده ونناقشه فيما بعد - بقدر ما تعيننا سلامة الاتجاه في مناقشة الظواهر الكتابية على أسس لغوية، وربطها بالظواهر الصوتية للغة^(٢٨)، وقد عبر الداني عن هذا الاتجاه بقوله^(٢٩): « وليس شيء من الرسم ولا من النقط اصطلح عليه السلف، رضوان الله عليهم، إلا وقد حاولوا به وجهاً من الصحة والصواب، وقصدوا به طريقاً من اللغة والقياس، لموقعهم من العلم، ومكانهم من الفصاحة. علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم ». ويعلل الداني الوجوه

(٢٨) لكل من مكّي بن أبي طالب والداني كتاب في بيان علل الرسم (انظر ص ١٧٢ و١٧٣ من هذا الفصل) لم يصل إلينا منها شيء، وربما يكونان أصدق مثال لهذا الاتجاه.

(٢٩) (المحكم) ص ١٩٦.

المرسومة على خلاف المشهور من قواعد الهجاء بناء على مذهبه ذاك فيقول (٣٠): «وعلة هذه الحروف، من الحروف المرسومة على خلاف ما يجري به رسم الكتاب في الهجاء في المصحف، الانتقال من وجه معروف مستفيض إلى وجه آخر مثله في الجواز والاستعمال، وإن كان المنتقل عنه أظهر معنى وأكثر استعمالاً».

وقد ظل هذا الاتجاه يظهر بصور مختلفة في العصور المتتالية عند بعض الباحثين، يرددون ما قاله السابقون في تلك الوجوه المختلفة من الرسم، أو يزيدون احتمالات أخرى جديدة، إلا أن تلك النظرات الجزئية لم تتكامل يوماً لتكوّن نظرة شاملة لفهم المشكلة بكل أبعادها، فظلت ضائعة في خضم الاحتمالات الكثيرة لتفسير الظاهرة الواحدة، إلا أننا مع ذلك سنلاحظ أن من بينها ما يمكن أن يساعد في تكوين تفسير صحيح لظاهرة الرسم عامة أو لبعض صور الهجاء خاصة.

٢ - حمل تلك الظواهر على خطأ الكاتب:

إذا كان القول بأن الأصل في الكتابة مطابقة الخط للفظ قد دفع بعض العلماء إلى البحث عن تفسير لما ورد في الرسم العثماني من حروف خالف رسمها الشائع من قواعد الهجاء - على نحو ما فعل العلماء في الاتجاه السابق - فإن طائفة أخرى من العلماء قد قصر نظرها وأعجزتها الحيلة في الوصول إلى تفسير لذلك، ورأت أن أيسر السبل إلى حسم الموقف القول بخطأ الكاتب، وظنت أنها ارتاحت وأراحت، ولكن سداجة تلك المقولة واضحة، وستتجلى أكثر فيما سيأتي.

ومع أن الفراء (ت ٢٠٧هـ) صرح أكثر من مرة في كتابه (معاني القرآن) برد القراءة المخالفة لرسم المصحف وأنه لا يشتمى مخالفة الكتاب، وأن «اتباع المصحف - كما يقول - إذا وجدت له وجهاً من كلام العرب وقراءة القراء أحب

(٣٠) أنظر: المحكم، ص ١٨٦. وقد نقل علم الدين السخاوي (الوسيلة ورقة ٦١ أ) نص

كلام الداني المذكور أعلاه.

إِلَى من خلافه» (٣١). فإنه حين تحدث عن زيادة الألف بعد اللام ألف في مثل (لا أذبحنه) وغيرها في بعض المواضع دون الاخرى يذهب إلى ما يقرب من هذا الاتجاه حين يقول (٣٢): «وذلك أنهم لا يكادون يستمرون في الكتاب على جهة واحدة ألا ترى أنهم كتبوا ﴿فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ﴾ (القمر ٥/٥٤) بغير ياء ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَةُ وَالتُّذْرُ﴾ (يونس ١٠/١٠١) بالياء، وهو من سوء هجاء الأولين».

وإذا كانت كلمات الفراء غير قاطعة في حمل ذلك على الخطأ فإن ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، في توجيهه لما يروى من وجود لحن أو خطأ في رسم بضعة كلمات في المصحف، قد جعل خطأ الكاتب أحد احتمالين في توجيه ذلك، لكنه يصرح بعد ذلك بأن كل ما جاء في رسم المصحف من وجوه مخالفة للمشهور من قواعد الهجاء عند الكتاب هو من باب الخطأ، يقول بعد أن أورد حديث عائشة - رضي الله عنها - في غلط الكاتب، وحديث عثمان - رضي الله عنه - (أرى فيه لحناً)، وما قاله النحاة في ذلك (٣٣):

«وليس تخلق هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الاعراب فيها، أو أن تكون غلطاً من الكاتب، كما ذكرت عائشة - رضي الله عنها - فإن كانت على مذاهب النحويين فليس ههنا لحن، بحمد الله، وإن كانت خطأ في الكتاب فليس على الله ولا على رسوله - صلى الله عليه وسلم - جناية الكاتب في الخط، ولو كان هذا عيباً يرجع على القرآن لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف من طريق التهجي، فقد كتب في الامام ﴿إِنَّ هَذَانَ لَسَحْرَيْنِ﴾ (طه ٦٣/٢٠) بمحذف ألف التثنية، وكذلك ألف التثنية تحذف في هجاء هذا المصحف في كل مكان، مثل ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ (المائدة ٢٣/٥) و﴿ءَاخِرِينَ يَقُومُونَ مَقْعَهُمَا﴾ (المائدة ١٠٧/٥) وكتبت كتاب المصحف: الصلوة والزكوة والحياة

(٣١) معاني القرآن ج ٢ ص ٢٩٣، وانظر أيضاً ج ٢ ص ٣٥ وص ١٨٣ وص ٣٥٠.
وانظر قول الفراء المشار اليه في: ابن فارس ص ١١.

(٣٢) معاني القرآن ج ١ ص ٤٣٩.

(٣٣) تأويل مشكل القرآن ص (٤٠-٤١).

بالواو، واتبعناهم في هذه الحروف خاصة، على التيمن بهم، ونحن لا نكتب القطة والقناة والفلاة إلا بالألف، ولا فرق بين تلك الحروف وبين هذه، وكتبوا الربوا بالواو، وكتبوا ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (المعارج ٣٦/٧٠) فمال بلام مفردة... وهذا أكثر في المصحف من أن نستقصيه «(٣٤).

وموقف ابن قتيبة هذا يفسر لنا ما نسبه إلى الصحابة - رضوان الله عليهم - من الجهل بالكتابة والغلط في الهجاء حين تحدث عن معرفة عبد الله بن عمرو بن العاص بالكتابة، وإذن النبي - صلى الله عليه وسلم - له بأن يكتب الحديث، يقول(٣٥): «وكان غيره من الصحابة أميين لا يكتب منهم إلا الواحد والاثان، وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجي»، ومقارنة ابن قتيبة بين كتابة الصلاة والزكاة والحياة بالواو وكتابة القطة والقناة والفلاة بالألف، وقوله: ولا فرق بين تلك الحروف وبين هذه - في اللفظ طبعاً - دليل على سيطرة فكرة (الأصل في الكتابة موافقة الخط للفظ) على وجهة نظر ابن قتيبة، إضافة إلى إهماله الجانب التاريخي لرسم تلك الكلمات، وما قد تكون مرت به من ظروف الاستخدام والانتقال من بيئة إلى أخرى، وهذه هي الغلطة الكبيرة التي وقع فيها أكثر الباحثين في الكتابة العربية عامة ورسم المصحف خاصة، سواء في ذلك من حاول إيجاد تعليل لتلك الوجوه أم من قال بغلط الكاتب فيها.

وكان ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) أهم من ادعى بعد ابن قتيبة دعوى وقوع الغلط من الصحابة حين رسموا المصاحف(٣٦)، وهو يبني مذهبه على أن أهل

(٣٤) رد ابن فارس (ص ١١) ما ذهب إليه ابن قتيبة - في هذا الصدد - وهو يتحدث عن معرفة القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية، ويستدل على ذلك بكتابتهم المصحف على الذي يعمله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر - بقوله: «وما يحسن قول ابن قتيبة في أحرف ذكرها، وقد خالف الكتاب المصحف في هذا».

(٣٥) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٦.

(٣٦) يفهم من قول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) أن الكتابة لما كانت في ذلك الزمان لم تحم =

الحجاز أخذوا الكتابة من حمير - وهو ما ينفيه البحث الحديث كما بيَّنا ذلك في الفصل التمهيدي - إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، ثم يقول^(٣٧): « فكان الخط العربي لأول الاسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه، كما يُقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً، ويتبع رسمه خطأ أو صواباً، وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه، فاتبع ذلك، وأثبت رسماً، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه » ثم يقول أيضاً^(٣٨): « ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه، ويقولون في مثل زيادة الألف في (لا أذبحنه): انه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في (باييد) انه تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض، وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط، وحسبوا أن الخط كمال فزهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال باجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه، وذلك ليس بصحيح »، ثم يستمر ابن خلدون في بيان ان الخط ليس بكمال في حق الصحابة لأن الخط من جملة

= جيداً وقع في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى، (انظر فضائل القرآن ص ٥١) - انه يميل الى الأخذ بهذا المذهب أيضاً.

(٣٧) تاريخ ابن خلدون مج ١ ص ٧٥٧. وانظر أيضاً مج ١ ص ٧٩١.

(٣٨) تاريخ ابن خلدون مج ١ ص (٧٥٧-٧٥٨).

الصنائع المدنية المعاشية والكمال في الصنائع إضافي، وليس بكمال مطلق، إذ لا يعود على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود إلى أسباب المعاش، وبحسب العمران والتعاون عليه، لأجل دلالاته على ما في النفوس.

ولا ينبغي أن ننخدع بما في كلام العلامة ابن خلدون - رحمه الله - من الجدية والصراحة والتحليل، فمع انه مصيب في قوله إن أكثر الأوجه التي سبقت في تحليل مخالفة الرسم في بعض الكلمات - المبنية على أساس اختلاف المعاني خاصة - لا أصل له إلا التحكم المحض، ومع صدق الواقع فيما كان من بعض العلماء من مذاهب، تنزيهاً للصحابة من أن ينسب إليهم الخطأ في الرسم، فإنه غير مصيب - إطلاقاً - في تصويره لحالة الكتابة العربية لأول الاسلام، فلا يعني ضعف القدرة على إجادة كتابة الحروف والتفنن في رسمها في حواضر الحجاز - إن صح ما ذهب إليه في ذلك - أن الكتابة عندهم كانت عاجزة عن الاستجابة لمتطلبات اللغة، أو مضطربة في تمثيل أصواتها، فقد كانت الكتابة العربية قد عاشت تجربة طويلة من الاستعمال الواسع في أطراف الجزيرة قبل أن تدلف إلى الحجاز، قبل الاسلام بقرن أو قرنين من الزمن^(٣٩)، وإذا كانت قد عانت من وحشة البداوة في الحجاز فإن ذلك لم يتجاوز صورة الحرف وأداة الكتابة. وسنجد أن الوجوه المخالفة التي أفلقت العلماء على مدى القرون يمكن أن تكون دليلاً قوياً على رهاقة الحس اللغوي عند الصحابة الذين تولوا كتابة القرآن العظيم، عندما حاولوا تدوين الظواهر الصوتية التي كانوا يحسونها عند التلاوة مع المحافظة على صورة الكلمات القديمة، فجاء الرسم محافظاً على صور الكلمات المعهودة وممثلاً للعناصر الصوتية الجديدة - وسيأتي ذلك مفصلاً في الفصل التالي إن شاء الله.

ونحس من قراءة كلام ابن خلدون انه كان يتصور بأن هناك نظاماً للكتابة - في أول الاسلام - خاصاً بأهل الصناعة من الكتاب وأهل الخط غير الذي جاء في المصحف، وان الصحابة - رضوان الله عليهم - قد قصرت همهم

(٣٩) انظر ص (٥٠-٥٧) من الفصل التمهيدي.

عن إجادة استخدام ذلك النظام الكتابي، فوقع نتيجة لذلك ما جاء في المصحف من وجوه عدت في الفترات اللاحقة مخالفة لقواعد أهل الصناعة، وهو بهذا قد وقع في ما وقع فيه غيره من محاولة النظر إلى الرسم المصحفي من خلال القواعد التي وضعها علماء العربية بعد نسخ المصاحف بعشرات السنين، وهم حين وضعوها لم يفعلوا أكثر من أنهم درسوا الرسم المصحفي وحاولوا إخضاع الظاهرة الواحدة التي كتبت بأكثر من صورة لقاعدة واحدة، بل إنهم في بعض الحالات خرجوا على وحدة القاعدة في رسم المصحف وجعلوا الظاهرة الواحدة - ربما لواقع عملي - تخضع لقاعدتين، فرسم الألف ياء في الكلمات التي جاءت في المصحف كان يشمل كافة الكلمات التي وقعت فيها الألف متطرفة أم متوسطة باتصالها بشيء من ضمير أو نحوه. لكن علماء العربية مزقوا هذه القاعدة المطردة، وجعلوا الظاهرة تخضع لقاعدتين: الأولى رسمها ياء في حالة تطرفها - في كلمات معينة - والثانية رسمها ألفاً في تلك الكلمات في حالة توسطها، وسنحاول - في المبحث الأخير من الدراسة - بيان مدى أثر الرسم المصحفي على قواعد علماء العربية التي وضعوها للإملاء، لا العكس، كما يحاول أن يفعل كثير من الباحثين حين يدرسون الرسم على ضوء قواعد الإملاء^(٤٠).

وقد كان لهذا الاتجاه في دراسة الرسم المصحفي صداه القوي في مواقف كثير من المحدثين مما في الرسم من كلمات جاءت مرسومة بأكثر من صورة أو رسمت بطريقة تبعث على التأمل في سر ذلك الرسم، وإذا كان سلفنا الصالح من علماء الأمة الذين ذهبوا ذلك المذهب قد عصمهم إيمانهم عن الخطل في القول، فعبروا بأسلوب العالم الأمين المخلص لكتاب ربه المجل لحملته وكاتبه عما وصل إليه علمهم وبلغه اجتهادهم في فهم تلك القضية فإن طائفة من المحدثين تنسب إلى العلم أطلقت ألسنتها تصف الرسم بما نجل الرسم والصحابة الذين كتبوه عن مجرد

(٤٠) ردد كلام ابن خلدون الدكتور علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ٢٥٠. والشيخ عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر. ط ٤، دار الشروق ١٩٦٩ ص (ي) من المقدمة.

ذكره، وهو إن دل على شيء، فإنما يدل على الجهالة في العلم والبلادة في الذهن والقصور في الإدراك، إن لم يدل على سوء النية وخبث القصد والعداء لكتاب الله العزيز^(٤١).

مناقشة روايات يفهم منها وقوع خطأ في الرسم:

وينقلنا الحديث عن هذا الاتجاه إلى التعرض لمجملته أخبار وردت بها الرواية

(٤١) انظر - مثالا لذلك المنهج الضال - عبد العزيز فهمي: الحروف اللاتينية لكتابة العربية. القاهرة، مطبعة مصر ١٩٤٤، انظر مثلا (ص ٢١) حيث يصف كتابه المصاحف بأنها (بدائية سقيمة قاصرة) و(ص ٢٣) حيث يصف الرسم بأنه سخيّف. والمثال الآخر لذلك المنهج الضال: ابن الخطيب (محمد محمد عبد اللطيف): الفرقان. ط ١ القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٤٨ فقد سود صفحات كتابه بكلام من مثل قوله (ص ٥٧) «لما كان أهل العصر الأول قاصرين في فن الكتابة، عاجزين في الإملاء، لأميّتهم وبدأوتهم، وبعدهم عن العلوم والفنون، كانت كتابتهم للمصحف الشريف سقيمة الوضع غير محكمة الصنع، فجاءت الكتب الأولى مزيجاً من أخطاء فاحشة ومناقضات متباينة في الهجاء والرسم» ويقول أيضاً (ص ٧١) «وفضلا عن هذا فإن فيه تناقضاً غريباً وتناقراً معيياً، لا يمكن تعليله ولا يستطاع تأويله» وقد أبدى الكاتب جهلاً مطبقاً بالرسم وبالقرئات، وقال كلاماً تأنف اسماع الجهلة قبل العلماء عن سماعه، وقد أصدر شيخ الأزهر - أنثذ - قراراً بتأليف لجنة تكونت من ثلاثة من علماء الأزهر لبحث ما جاء في كتاب ابن الخطيب من أباطيل، ووضعت اللجنة تقريرها بما أوتيت من علم في يوليو (تموز) ١٩٤٨م. وقد طبع في (٤١ صفحة)، ناقشت فيه مؤلف الكتاب ما ادعاه في كتابه من مزاعم باطلة عن القرئات والرسم، فصور الكتاب، واختفى من أيدي الناس - مع أنه انتهى الى الاهمال قبل مصادره - ليس محاربة للرأي الصادق الحر، وإنما كان انتصاراً للحق، وإخراًساً للجهل والباطل، وقد نجا ابن الخطيب بمصادرة كتابه من لعنة دائمة سيطلقها كل عالم بصير وقارئ منصف وقف على الكتاب، ولن نعني أنفسنا - هنا - بمناقشة ما قاله في كتابه فإنه زبد جاف، لا يقوم على نقل ولا على نظر وعقل، على نحو ما رأينا من أقواله المتهاففة، ونكتفي بنقض أصل هذا الاتجاه القائل بأن ما ورد في الرسم من صور هجائية خالفت ما وضعه علماء العربية - لاحقاً - هو من خطأ الكتاب.

عن بعض الصحابة، قد يفهم منها أنه وقع في الرسم العثماني خطأ في رسم بعض الكلمات، وإن ذلك قد استقر دون أن يحاول أحد من المسلمين تصحيحه، فظل يروى كذلك على مر الأجيال، لكن العلماء لم يتركوا تلك الأخبار دون دراسة وتمحيص، فبينوا ما في أسانيدنا من ضعف، وتكلموا في معناها وما يمكن أن تحمل عليه إن صحت روايتها، ولعل في إيراد تلك الأخبار وما قاله العلماء في توجيهها ثم النظر فيها نظرة متمهلة وفاحصة ما يعين على إزالة ما قد يكون علق في الأذهان من شبهة وقوع الخطأ في الرسم العثماني كما فهم ذلك البعض من هذه الأخبار.

روى أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ) في فضائل القرآن بإسناده عن عكرمة انه قال^(٤٢): «لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن، فقال لا تغيروها، فإن العرب ستغيرها - أو قال ستعربها - بألسنتها، لو أن الكاتب من ثقيف والملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف». وأخرج أبو بكر الأنباري (ت ٣٢٧هـ) من طريق عبد الاعلى بن عبد الله بن عامر، وأبو بكر بن اشته (ت ٣٦٠هـ) من طريق يحيى بن يعمر (ت ١٢٩هـ) نحو ما رواه أبو عبيد^(٤٣). وكذلك أخرج ابن أبي داود (ت ٣١٦هـ) الخبر من عدة طرق^(٤٤) وأورده الفراء (ت ٢٠٧هـ) من غير أن يسنده إلى عثمان - رضي الله عنه - فيروى أن أبا عمرو بن العلاء بلغه عن بعض أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انه قال: ان في المصحف لحناً وستقيمه العرب^(٤٥).

وأخرج الفراء^(٤٦)، وأبو عبيد^(٤٧)، وابن أبي داود^(٤٨)، والداقي^(٤٩)، عن أبي

(٤٢) لوحة ٣٧. وانظر لوحة ٤٧.

(٤٣) انظر السيوطي الاتقان ج ٢ ص ٢٧٠.

(٤٤) المصاحف ص (٣٢-٣٣). وانظر الداقي: المتنع ص ١١٧.

(٤٥) و(٤٦) معاني القرآن ج ٢ ص ١٨٣.

(٤٧) فضائل القرآن لوحة ٣٧.

(٤٨) المصاحف ص ٣٤. وانظر ص ١٠٤. (٤٩) المتنع ص ١١٩.

معاوية الضرير عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه أنه قال^(٥٠): «سألت عائشة عن لحن القرآن، عن قوله ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَجْرَيْنِ﴾ (طه ٦٣/٢٠)، وعن قوله ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (النساء ١٦٢/٤)، وعن قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيُّونَ﴾ (المائدة ٧٣/٥). فقالت: يا ابن أخي هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب»^(٥١). وروى ابن أبي داود عن سعيد بن جبير (٤٥-٩٥هـ) نحواً من ذلك^(٥٢)، وروى أبو عبيد^(٥٣)، وابن أبي داود^(٥٤)، أن الزبير بن أبي خالد قال: قلت لأبان بن عثمان كيف صارت ﴿لَكِنَّ الرُّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (النساء ١٦٢/٤) ما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب، قال من قبل الكاتب كتب ما قبلها ثم قال: ما أكتب؟ قيل اكتب (المقيمين الصلوة) فكتب ما قيل له.

وقد تحدث العلماء عن هذه الأخبار، وما قيل في معناها، فضعف بعضهم روايتها وردّها لذلك، وتأول بعضهم ما ورد فيها من معنى الخطأ أو اللحن، يقول السيوطي^(٥٥): «وهذه الآثار مشكّلة جداً، وكيف يظن بالصحابة أولاً أنهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن، وهم الفصحاء اللد! ثم كيف يظن بهم ثانياً في القرآن الذي تلقوه من النبي - صلى الله عليه وسلم - كما أنزل، وحفظوه وضبطوه، واتفقوا! ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته! ثم كيف يظن بهم رابعاً عدم تنبهم ورجوعهم عنه! ثم كيف يظن بعثمان انه ينهى عن

(٥٠) نص الفراء (عن عائشة أنها سألت).

(٥١) قال السيوطي الاتقان ج ٢ ص ٢٦٩ عن اسناده (وهذا أسناد صحيح على شرط الشيخين).

(٥٢) المصاحف ص ٣٣.

(٥٣) فضائل القرآن لوحة ٣٧.

(٥٤) المصاحف ص ٣٣.

(٥٥) الاتقان ج ٢ ص ٢٧٠.

تغييره! ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ، وهو مروى بالتواتر خلفاً عن سلف! هذا مما يستحيل عقلاً وشرعاً وعادة.»

وأشرنا من قبل إلى مذهب ابن قتيبة في تلك الأخبار، وقد لخصه بقوله^(٥٦): «وليست تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الاعراب فيها، أو أن تكون غلطاً من الكاتب كما ذكرت عائشة - رضي الله عنها - فإن كانت على مذاهب النحويين فليس هنأ لحن بمحمد الله، وإن كانت خطأ في الكتاب فليس على الله ولا على رسوله - صلى الله عليه وسلم - جناية الكاتب في الخط.»

ويذهب ابن أبي داود إلى أن المقصود باللحن إنما هو اللغة، وأن معنى الألفاظ اللغات، مثل قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إنا لترغب عن كثير من لحن أبي يعني لغة أبي^(٥٧). وقال في الخبر المروي عن عثمان - رضي الله عنه - «هذا عندي يعني بلغتها، وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعاً لما استجاز ان يبعث به إلى قوم يقرءونه»^(٥٨) ويقول أيضاً^(٥٩): «ولا يجوز عندي ان يجتمع أهل الأمصار كلها، وأصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - معهم، على الخطأ، وخاصة في كتاب الله عز وجل.»

وقد رد أبو بكر الأنباري الأخبار المروية عن عثمان بن عفان في ذلك - كما ينقل السيوطي -^(٦٠) وهي عنده «لا تقوم بها حجة، لأنها منقطعة غير متصلة»، كذلك هو ينفي أن يكون معنى قوله «أرى فيه لحنأ» أرى في خطه لحنأ إذا أقمناه بالسنتنا كان لحن الخط غير مفسد ولا محرّف من جهة تحريف الألفاظ

(٥٦) تأويل مشكل القرآن ص ٤٠.

(٥٧) المصاحف ص ٣٢.

(٥٨) نفس المصدر والصفحة.

(٥٩) نفس المصدر ص ٧٦.

(٦٠) انظر الاتقان ج ٢ ص ٢٧١.

وإفساد الاعراب، لأن الخط منبئ عن النطق، فمن لحن في كتبه فهو لاحن في نطقه، ولم يكن عثمان ليؤخر فساداً في هجاء ألفاظ القرآن من جهة كتب ولا نطق.

ونقل السيوطي أيضاً رأي ابن أشتة في الأخبار المروية عن عثمان، وما يذهب إليه في توجيهها، فيروي أنه قال: «لعل من روى تلك الآثار السابقة عنه حرفاً، ولم يتقن اللفظ الذي صدر عن عثمان، فلزم منه ما لزم من الإشكال، فهذا أقوى ما يجاب عن ذلك»^(٦١). ويقول السيوطي إن تلك الاجوبة لا يصلح منها شيء في الاجابة عن حديث عائشة، ثم ينقل ما قاله ابن اشته في ذلك وتبعه فيه ابن جبارة (أحمد بن محمد المقدسي ت ٧٢٨هـ) في شرح الرائية بأن معنى قولها «أخطأوا» أي في اختيار الاولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليه، لا أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز^(٦٢).

وتناول أبو عمرو الداني تلك الأخبار بالنقد والتوجيه، فقال عن الخبر الذي يروي عن عثمان^(٦٣): «هذا الخبر عندنا لا تقوم بمثله حجة ولا يصح به دليل من جهتين: إحداهما أنه مع تخليط في إسناده واضطراب في ألفاظه مرسل لأن ابن يعمر وعكرمة لم يسمعا من عثمان شيئاً ولا رأياه. وأيضاً فإن ظاهر ألفاظه ينفي وروده عن عثمان - رضي الله عنه - لما فيه من الطعن عليه مع محله من الدين ومكانه من الاسلام وشدة اجتهاده في بذل النصيحة واهتباله بما فيه الصلاح للأمة....» ثم يوجه معنى اللحن في الخبر - لو صح - بأن المراد به التلاوة دون الرسم، إذ كان كثير منه لو تلي على حال رسمه لا تقلب بذلك معنى التلاوة وتغيرت ألفاظها من مثل (أو لا أذبحنه) وما شاكله^(٦٤).

(٦١) الاتقان: ج ٢ ص ٢٧٢.

(٦٢) نفس المصدر ج ٢ ص (٢٧٣-٢٧٢).

(٦٣) المقنع ص ١١٥.

(٦٤) انظر المقنع ص ١١٦.

ويرى الداني في قول عثمان - رضي الله عنه - في آخر هذا الخبر: لو كان الكاتب من ثقيف والملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف، ان معناه لم توجد فيه مرسومة بتلك الصور المبنية على المعاني دون الألفاظ المخالفة لذلك، إذ كانت قريش ومن ولي نسخ المصاحف من غيرها قد استعملوا ذلك في كثير من الكتابة وسلكوا فيها تلك الطريقة، ولم تكن ثقيف وهذيل مع فصاحتها يستعملان ذلك، فلو أنها وليتا من أمر المصاحف ما وليه من تقدم من المهاجرين والأنصار لرسمتا جميع تلك الحروف على حال استقرارها في اللفظ ووجودها في المنطق دون المعاني والوجوه إذ إن ذلك هو المعهود عندها والذي جرى عليه استعمالهما^(٦٥).

وتوجيه الداني هذا يدفع إلى التأمل في مدى عراقية استخدام الكتابة العربية في تلك الفترة في حواضر الحجاز وبين القبائل العربية، إذ يفهم منه أن الكتابة في مكة والمدينة كانت قد جرت على أصول وقواعد ترسخت بمرور الزمن، ولم يعد رسم الكلمة يخضع لاعتبار اللفظ فحسب، بل إن هناك عوامل أخرى أشار إليها الداني بقوله (المعاني والوجوه)، وليست هي سوى الجانب التاريخي للكتابة، حين تتطور اللغة دون أن يصاحب ذلك تغيير في هجاء الكلمات يقابل ذلك التطور، ويفهم منه أيضاً أن كتابة ثقيف لم يكونوا قد اتقنوا صور الكلمات حسبما جرى عليه تقليد الكتابة العربية في غير ديارهم، فهم لو ولوا نسخ المصاحف لرسموا الكلمات وفقاً للفظها دون زيادة حرف في رسمها أو حذف شيء من رموزها^(٦٦)، كمن تعلم صور حروف الهجاء فحسب، وطلب منه

(٦٥) انظر المقنع (ص ١١٦-١١٧).

(٦٦) يبدو أن الباقلاني فهم الخبر المروي عن عثمان (لو كان الكاتب من ثقيف والملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف) فهماً يقارب فهم الداني له، فقد قال في كتاب الانتصار (انظر أحمد بن المبارك: الابريز ص ٥٥): «وقصد بذلك - والله أعلم - أن ثقيفاً كانت أبصر بالهجاء وأشد تمسكاً بالكتابة على مخارج الألفاظ، وأعلم بذلك من غيرها، وأن هذيلاً تستعمل الهمز كثيراً في كلامها، وتظهره وتأتي به مبيناً، والهمز إذا ظهر وبان في لفظ الملي سمعه الكاتب وصوره على مخرج اللفظ، وكان =

كتابة كلمات جملة ما، فإنه سيكتب ما يسمعه من لفظ دون ما قد يكون لتلك الكلمات من هجاء قد استقر وجرى عليه الاستعمال، على نحو ما يخطئ تلاميذ المراحل الأولى - والحق معهم - حين يكتبون كلمة مثل (لكن) هكذا (لاكن) بناء على اللفظ الذي يسمعونه. وليس من اليسير - الآن - الحكم على وجهة نظر الداني هذه، ومدى انطباقها على واقع الكتابة - آنذاك - الذي لا نملك عنه من الأخبار إلا القليل، لكن ملاحظته - ان صح فهمنا لها - مهمة في معرفة واقع الكتابة والعوامل المؤثرة في رسم الكلمات وتطوره.

وتحدث الداني عن الخبر المروي عن ام المؤمنين عائشة، وقال في تأويله: إن عروة لم يسأل عن حروف الرسم التي تزداد وتنقص، وإنما سألها عن حروف القراءة المختلفة الألفاظ المحتملة الوجوه على اختلاف اللغات، مما أذن الله عز وجل القراءة به، ومن ثم فليس ما جاء في الخبر من الخطأ أو اللحن بداخل في معنى المرسوم ولا هو من سببه في شيء، وإنما سمي عروة ذلك لحناً، وأطلقت عائشة على مرسومه الخطأ على جهة الاتساع في الإخبار وطريق المجاز في العبارة، وينقل الداني أن بعض العلماء - وكأنه يشير إلى ابن أشتة - قد تأول قول أم المؤمنين (أخطأوا في الكتاب) أي: أخطأوا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة يجمع الناس عليه، لا أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز، لأن ما لا يجوز مردود بإجماع، وإن طال مدة وقوعه وعظم قدر موقعه. ثم ينقل أن هناك من تأول اللحن بأنه القراءة واللغة - وكأنه يشير إلى ابن أبي داود - كقول عمر - رضي الله عنه - أَيْبِيٌّ أَقْرُونَا وَإِنَّا لَنَدْعُ بَعْضَ لِحْنِهِ، أي قراءته ولغته^(٦٧).

والملاحظ على تأويلات علماء السلف عامة أنهم فهموا اللحن في تلك الأخبار على أنه مرادف للخطأ النحوي، فراحوا يؤولون ويعملون، ويبدو أن فهم الخبر المروي عن عثمان - رضي الله عنه - يتوقف على تحديد معنى اللحن الوارد فيه،

= القارئ بعد ذلك بالخيار إن شاء لين الهمز وأسقطه على لغة قريش أو حققه على لغة هذيل.

(٦٧) انظر الداني: المتنع ص (١١٨-١١٩).

وعند الرجوع إلى معاجم اللغة نجد أنها تقدم عدة معانٍ لمادة (لحن) منها: الخطأ في الاعراب، واللغة، والغناء، والفطنة، والتعريض، والمعنى^(٦٨)، إلا أن استعمال اللحن بمعنى الخطأ في الاعراب من المرجح أنه لم يكن شائعاً في الفترة التي ترجع إليها تلك الأخبار، وأن استعماله بهذا المعنى مرتبط بنشاط علماء العربية في وضع قواعد اللغة ورصد استعمالات الناس اللغوية الخارجة عن سنن العرب خاصة بعد ازدياد اختلاط العرب بغيرهم من المسلمين^(٦٩). وإذا صح ذلك فينبغي البحث عن معنى آخر للحن الوارد في الأخبار المذكورة بعيداً عن مفهوم الخطأ في الاعراب، ويبدو أن المعنى المناسب لذلك هو أن اللحن جاء بمعنى اللغة وطريقة الكلام، إذ تشير مجموعة من النصوص الروية من تلك الفترة على أن من بين معاني اللحن اللغة أو القراءة، فمن ذلك الحديث الذي يرويه حذيفة ابن اليمان أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول «اقرأوا القرآن بألحان العرب» وفي رواية «بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين»^(٧٠) ومن ذلك - أيضاً - ما يرويه البخاري من قول عمر - السابق - «أبيّ اقرؤنا وإنا لندع من لحن أبيّ...»^(٧١)، أي لغة أبيّ وقراءته. وعلى ذلك فقد رجح بعض العلماء أن يكون المقصود بقول عثمان رضي الله عنه -

(٦٨) انظر: ابن منظور مادة (لحن) ج ١٧ ص ٢٦٥، وانظر نفس المادة عند: ابن دريد: الجمهرة ج ٢ ص ١٩٢، والأزهري ج ٥ ص ٦١. والجوهري ج ٦ ص ٢١٩٣. وانظر الصولي ص ٣٠ و ١٣٢.

(٦٩) تتبع المستشرق يوهان فك في ملحق جعله في نهاية كتابة العربية (ص ٢٣٥-٢٤٦) تطور معنى مادة (لحن) ومشتقاتها عبر النصوص المختلفة، وبين أن إطلاق لفظ اللحن على الخطأ اللغوي كان من نتائج قيام حركة (تنقية اللغة العربية) في أواخر القرن الأول للهجرة. وانظر عن نفس الفكرة: د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ١٢٠.

(٧٠) الداني: الموضح ورقة ٢٤ ب.

(٧١) الجامع الصحيح ج ٦ ص ٢٣٠، وانظر الساعاتي ج ١٨ ص ٥٧، وابن أبي داود ص ٦، الداني: المقنع ص ١١٩.

إن صح - إنما هو تلاوة الحروف المرسومة بزيادة حرف أو نقصانه مما لو قرئ على وجه لتغير اللفظ وفسد المعنى^(٧٢)، أي أن هناك كلمات على القارئ أن يقيم قراءتها وفقاً لما تلقاه وسمعه دون ما يجده مكتوباً في الخط.

أما حديث عروة الذي يرويه عن عائشة فإن علينا أن نشير أولاً إلى بعض الحقائق المتعلقة بالآيات التي وردت فيه، وأول هذه الحقائق هي أن الكلمات موضع السؤال قد جاءت صحيحة في رسمها جارية على قواعد الهجاء، فكلمة ﴿هَذَا﴾ في الآية الأولى الواردة في الخبر جاءت على وفق القاعدة التي جرى عليها الرسم العثماني من حذف ألف (ها) التي للتنبية ووصلها بما يليها من اسم الإشارة أو نحوه، وحذف الألف من (ذان) على نحو حذفها من كل مثني، أما كلمة (المقيمين) في الآية الثانية فهي من حيث رسمها، على ما هي عليه، صحيحة، مثل ما رسم في المصحف ﴿المؤمنين والمسلمين...﴾، وكذلك بالنسبة لكلمة ﴿الصُّبُون﴾ في الآية الثالثة التي رسمت على مثال ﴿الْحَطُّون﴾.

فهذه الكلمات جاءت من حيث الرسم صحيحة، جارية على المشهور من قواعد الرسم العثماني لكنها من حيث التوافق الاعرابي وما يقتضيه موقعها في الظاهر جاءت على نحو يستوقف النظر ويدفع إلى التأمل، فالكلمة الأولى قد ينظر إليها على أنها اسم (إنَّ) المشددة وهي مثني لكنها جاءت من غير الياء التي هي علامة النصب، والكلمتان الأخريان ﴿المقيمين وألصُّبون﴾ كلاهما جاءت مخالفة إعرابياً لما عطف عليه في الظاهر.

وبالرجوع إلى القراءات الصحيحة المروية في هذه الكلمات يمكن أن يتاح لنا فهم سر رسمها على ذلك النحو، فالآية الأولى ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ﴾ (طه ٦٣/٢٠) قرأها ابن كثير - وحده - بتخفيف (إن) و(هذان) بالألف مع تشديد النون، وقرأ حفص كذلك إلا أنه خفف نون (هذان)، ووافق ابن محيصن،

(٧٢) انظر الداني: الحكم ص ١٨٥. والمهدوي ص ٩٧. وابن الجزري النشر ج ١ ص ٤٥٨، وانظر أيضاً القلقشندي ج ٣ ص ١٥٢.

وقرأ الباقر ما عدا أبا عمرو بتشديد (إن) و(هذان) بالألف وتخفيف النون،
 وقرأ ابو عمرو (إن) بتشديد النون و(هذين) بالياء مع تخفيف النون^(٧٣)، ونجد
 أن أوضح القراءات في هذه الآية معنى ولفظاً وخطاً هي قراءة ابن كثير
 وحفص، وذلك ان (ان) الخففة من الثقيلة أهملت و(هذان) مبتدأ و(لساخران)
 الخبر، واللام للفرق بين النافية والخففة، وقراءة أبي عمرو واضحة من حيث
 الاعراب والمعنى، رغم مخالفتها الرسم، وقد تكلم أهل العربية في توجيه القراءة
 الاخرى^(٧٤). وقد أشرنا من قبل أن رسم المصحف كتب على قراءة واحدة،
 فليس من الضروري موافقة كافة القراءات الصحيحة له إذا وافق بعضها، وهو
 ما نجده في هذه الحالة.

أما الآيتان الأخريان ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةِ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (النساء
 ١٦٢/٤) و﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّبِئُونَ﴾ (المائدة ٧٣/٥) فقد
 اتفق الجمهور على قراءة ﴿والمقيمين﴾ بالياء منصوباً على نحو ما هو مرسوم إلا
 رواية يونس وهارون عن أبي عمرو لها بالواو^(٧٥)، وقراءة عاصم الجحدري لها
 بالواو كذلك، مع محافظته على رسمها بالياء^(٧٦). واتفقوا كذلك على قراءة
 ﴿الصَّبِئُونَ﴾ بالواو على نحو ما هو مرسوم إلا ابن محيصن فقد قرأها بالياء^(٧٧)،
 والجحدري كذلك^(٧٨)، وما دامت قراءة العامة قد جاءت موافقة للرسم على

(٧٣) انظر الدمياطي ص ٢٠٤.

(٧٤) انظر السيوطي: الاتقان ج ٢ ص ٢٧٣، وانظر أبو حيان (محمد بن يوسف): البحر
 المحيط. الرياض مكتبة النصر الحديثة (د. ت) (مصورة عن الطبعة القديمة) ج ٦
 ص ٢٥٥.

(٧٥) انظر الدمياطي ص ١٩٦.

(٧٦) ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ص ٣٦. وابن خالويه: مختصر في شواذ القرآن من
 كتاب البدیع. مصر. المطبعة الرحمانية ١٩٣٤ ص ٣٠.

(٧٧) الدمياطي ص ٢٠٢.

(٧٨) ابن قتيبة: المصدر السابق ص ٣٦.

هذا النحو وقد تواترت عن القراء فلا مجال - إذن - للكلام هنا عن الخطأ في الرسم أو القراءة، خاصة أن النحاة قد تكلموا على ما في الآيتين من تخالف إعرابي، ووجهوا ذلك بوجوه كثيرة^(٧٩)، رغم أن القراءة إذا صحت روايتها لا ينظر في موافقتها قواعد النحاة، ولا يطلب لها التعليل والمثال من كلام العرب، فصحة روايتها هي نفسها أقوى في الدلالة على علوها في الفصاحة والعربية من التماس قول مجهول أو شعر منحول لتوجيهها، وما أجل قول الفخر الرازي في هذا المعنى حين يقول^(٨٠): «إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول، فجواز إثباتها بالقرآن العظيم أولى، وكثيراً ما ترى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به، وأنا شديد التعجب منهم، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقها دليلاً على صحتها فلأن يجعلوا القرآن دليلاً على صحتها كان أولى».

وعلى ذلك فإن حديث عروة يمكن أن يحمل على ما ذهب إليه ابن أشتة ورواه الداني من أن معنى الخطأ هو أنهم أخطأوا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة بجمع الناس عليه، لا أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز لأن ما لا يجوز مردود بإجماع، وإن طالت مدة وقوعه، وعظم قدر موقعه، ويقول الداني بعد أن ناقش ما ورد في دلالة الخبر^(٨١): «على أن أم المؤمنين - رضي الله عنها - مع عظيم محلها وجيل قدرها واتساع علمها ومعرفتها بلغة قومها لحنت الصحابة وخطأت الكتابة، وموضعهم من الفصاحة والعلم باللغة موضعهم الذي لا يجهد ولا ينكر، هذا ما لا يسوغ ولا يجوز».

ونخلص من ذلك كله إلى نفي دلالة الخبرين على وقوع الخطأ في الرسم العثماني، كذلك يمكن اتخاذ نفس الموقف من رواية أبان على ضوء ما تقدم، فهذا

(٧٩) انظر السيوطي: الاتقان ج ٢ ص (٢٧٣-٢٧٤) وانظر أيضاً أبو حيان: ج ٣ ص (٣٩٦ و٥٣١).

(٨٠) نقلاً عن د. عبد الفتاح اسماعيل شلي: الإمالة ص ٣٠٩.

(٨١) انظر المنع ص (١١٨-١١٩).

الاتجاه القائل بان ما جاء من رسم بعض الكلمات في المصحف على طرق مخصوصة خالفها القواعد التي وضعها علماء العربية لاحقاً هو من خطأ الكاتب لا يقوم - إذن - على خبر صحيح ولا استنتاج مؤيد بدليل، بل هو رأي أنتجه النظر غير المتمهل إلى هجاء الكلمات مع فقدان الحس بالجانب التاريخي للكتابة والتعلق بأن الأصل في الكتابة موافقة الخط للفظ، فلا ينبغي للناظر في الرسم العثماني إلا أن يستبعد فكرة الخطأ وهو يحاول أن يجد التفسير الصحيح لظواهر الهجاء الواردة فيه، وأن يتوقف عن القول في ما لم يتوفر لديه فيه ما يرجح به رأياً أو يقدم تفسيراً، لأن جانباً كبيراً من تاريخ الكتابة العربية في تلك الفترة المتقدمة لا يزال غير معروف، ويظل الرسم العثماني بكل ما يقدم من أمثلة وصور لرسم الكلمات خير ممثل لواقع الكتابة العربية في تلك الحقبة، ولا شك في أن أي كشف جديد في مجال النصوص القديمة المكتوبة سيزيد الحقائق الكتابية التي يقدمها الرسم تأكيداً ووضوحاً، بعيداً عن فكرة الخطأ التي يجب أن تكون آخر احتمال في هذا المجال بل على الباحثين إستبعاد فكرة الخطأ في هذه المرحلة من البحث، حيث تشير كل الدلائل إلى أن ما جاء في رسم المصحف هو واقع كتابي تميزت به الكتابة العربية في تلك الفترة.

٣ - اختلاف الرسم لاختلاف المعنى:

وقد ظلت العلة التي يقدمها العلماء لظواهر الرسم لغوية أو مما يتعلق بالسهولة والخفة على الكاتب حتى وضع أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي العدوي الشهير بآبن البناء المراكشي (٦٥٤-٥٧٢١هـ) كتابه في الكشف عن الأسرار التي يتضمنها الرسم العثماني، والذي سماه الزركشي (ت ٥٧٩٤هـ) والسيوطي (ت ٥٩١١هـ) (عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل)^(٨٢). وسماه القسطلاني (الدليل من مرسوم التنزيل)^(٨٣) - فأصبحت تلك العلة تتعلق إما

(٨٢) انظر. البرهان ج ١ ص ٣٨٠ والاتقان ج ٤ ص ١٤٥

(٨٣) لطائف الإشارات ج ١ ص ٢٨٥.

باختلاف رسم الكلمة لاختلاف معناها حسب موقعها الذي ترد فيه أو اختلاف الرسم لمعان باطنة تتعلق بمراتب الوجود والمقامات، وإذا كنا لم نطلع على نسخة من الكتاب^(٨٤)، فإن الزركشي والقسطلاني قد أغنيا عن ذلك - نوعاً ما - بما أورده عنه من بيان منهجه وبعض التطبيقات على أمثلة متعددة من الرسم.

ويقوم منهج أبي العباس المراكشي على أن الرسوم «إنما اختلف حالها في الحظ بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها»^(٨٥). وكذلك «التنبيه على العوالم الغائب والشاهد ومراتب الوجود والمقامات، والحظ إنما يرسم على الأمر الحقيقي لا الوهمي»^(٨٦).

وسلاحظ أن مشكلات الرسم - عامة - تتعلق بالهمزة ورموز أصوات المد الثلاثة (الحركات الطويلة) الألف والواو والياء، ومن ثم فقد جعل أبو العباس المراكشي مفتاح فهم مشكلات الرسم في العلاقة بينها وبين أحوال الوجود، فخلاصة مذهبه كما نقله القسطلاني هي^(٨٧): «أن لأحوال الهمزة وحروف المد واللين مناسبة لأحوال الوجود، حصل بها بينها إرتباط، به يكون الاستدلال». ثم تحدث عن علاقة الهمزة بحروف المد الثلاثة، فالهمزة مبتدأ الصوت فلا صورة لها لأنها حد بين ما يسمع وما لا يسمع، فإذا طوّلت الهمزة بعد الصوت حدثت حروف المد واللين الثلاثة^(٨٨)، فهي من حيث اتصلت بالهمزة كانت أول الحروف كلها، لأنها في مقطع الهمزة والحروف بعدها في مقاطع أنفسها، وإذا تحركت الحروف وطوّلت بالمد تبعتها هذه الحروف الثلاثة فكانت بهذه الجهة آخر الحروف كلها، وهي مع كل حرف في مقطعه، فلأجل ذلك لم يجعلوا للهمزة

(٨٤) انظر ص (١٨٣) من هذا الفصل هامش (١١٠).

(٨٥) الزركشي ج ١ ص ٣٨٠، والسيوطي: الاتقان ج ٤ ص ١٤٥.

(٨٦) الزركشي ج ١ ص ٣٨١.

(٨٧) لطائف الإشارات ج ١ ص ٣٨٥.

(٨٨) أثبتت الدراسات الصوتية الحديثة انقطاع الصلة صوتياً بين الهمزة والأصوات الثلاثة المذكورة (انظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٤٨).

صورة في الخط ، وإنما تعضد بأحد هذه الحروف الثلاثة^(٨٩) . وقد جعل المراكشي تعلق المعاني بتلك الأصوات على حسب موقعها في جهاز النطق ومن ثم فالهمزة تدل على الاصاله والمبادئ فهي مؤصلة ، لأنها مبدأ الصوت ، والألف تدل على الكون بالفعل وبالفصل فهي مفصلة في الوجود ، لأنها من حيث أنها أول الحروف في الفصل الذي يتبين به ما يسمع وما لا يسمع متصله بهمزة الابتداء ، والواو تدل على الظهور والارتقاء فهي جامعة ، لأنها من غلظ الصوت وارتفاعه بالشفة معاً إلى أبعد رتبة في الظهور ، والياء تدل على البطون ، فهي مخصصة ، لأنها من رقة الصوت وانخفاضه في باطن الفم^(٩٠) .

ثم يمضي المراكشي في عرض المقدمات التي ينبني عليها مذهبه فيقول^(٩١) : لما كان الوجود على قسمين : ما يدرك وما لا يدرك ، والذي يدرك على قسمين : ظاهر ويسمى الملك ، وباطن ويسمى الملكوت ، والذي لا يدرك فتوهمه على قسمين : ما ليس من شأنه أن يدرك وهي معاني أسماء الله تعالى وصفة أفعاله ، وهذا من هذا الوجه يسمى العزة ، وما من شأنه أن يدرك لكن لم ننله بإدراك وهو ما كان في الدنيا ولم ندركه ، فهذا يسمى من هذا الوجه الجبروت - فالألف يدل على قسم الوجود ، والواو على قسم الملك منه ، لأنه أظهر للإدراك ، والياء على قسم الملكوت منه ، لأنه أبطن في الإدراك ، فإذا بطنت حروف في الخط ولم تكتب فلمعنى باطن في الوجود عن الإدراك ، وإذا ظهرت فلمعنى ظاهر في الوجود إلى الإدراك ، كما إذا وصلت فلمعنى موصول ، وإذا حجرت فلمعنى مفصول ، وإذا تغيرت بضرب من التغيير دلت على تغيير في المعنى في الوجود .

ولكي تتضح الصورة التي أراد أن يقدمها أبو العباس المراكشي حلاً لمشكلات الرسم على النحو الذي بيّنا فيه خلاصة مذهبه نورد جملة من الأمثلة

(٨٩) انظر القسطلاني ج ١ ص (٢٨٣-٢٨٤) .

(٩٠) نفس المصدر ج ١ ص (٢٨٥-٢٨٦) .

(٩١) نفس المصدر ج ١ ص ٢٨٦ .

التطبيقية التي حرص الزركشي على حشو الفصل الذي عقده عن (علم مرسوم الخط)^(٩٢) بإيرادها لتعليل ظواهر الرسم سواء في باب الحذف أم الزيادة أم البديل أم الفصل والوصل إلى غير ذلك من ظواهر الرسم، تلك التعليقات التي أخذت تطفئ على حديث العلماء عن ظواهر الرسم، فظلوا يرددونها هنا وهناك حتى الوقت الحاضر^(٩٣).

فإذا زيدت الألف في أول الكلمة لمعنى زائد بالنسبة إلى ما قبله في الوجود مثل: ﴿لَا أَدْبَحْنَهُ﴾ (النمل ٢٧/٢١) و﴿لَا أَوْضَعُوا خَلِكُمْ﴾^(٩٤)، (التوبة ٤٧/٩) كانت الزيادة - حسب مذهب المراكشي - تشبيهاً على أن المؤخر أشد وأثقل في الوجود من المتقدم عليه لفظاً، فالذبج أشد من العذاب، والايضاع

(٩٢) البرهان ج ١ ص (٣٧٦-٤٣٠).

(٩٣) ردد الدكتور عبد الحي الفرماوي في بحثه عن الرسم تلك التعليقات، وجعل من بين مزايا الرسم (ص٣١١) (الدلالة على معنى خفي دقيق)، وتحدث عن المعاني التي توصل إليها المراكشي في وجوه الرسم المختلفة بقوله (ص٣١٤) « فهذه المعاني الدقيقة، والنكات الخفية المطوية في ثنايا هذا الرسم، والتي تفنن العلماء في الكشف عنها، سواء كان الصحابة يقصدونها أم لا، فهي (كذا) تأويلات مقبولة ومفيدة، وليس فيها من التعسف ما يدعيه طالبي (كذا) تغيير هذا الرسم»، ثم يقول (ص٣١٦): « ان المعاني التي يأخذها العلماء قد تتعدد، وتتنوع والرسم هو الرسم، يحمل في طياته من المعاني ما لا يكتشف إلا لكل متأمل فيه، بعقل واع، وقلب مستضيء، يعني الوصول الى هذه الأسرار المعجزة في هذا الرسم! فإذا ما أصاب بعض العلماء في فهم هذه المعاني الخفية، فهذا من الله تعالى توفيق لهم، وإذا ما أخطأ آخرون في فهمهم للمعاني الخفية التي تستكن وراء هذه الرسوم، وفي تعليلهم لمخالفاتها، فليس هذا بعيب في الرسم، وإنما هو اجتهاد وخطأ في الاجتهاد» ونحن - هنا - لن نحاول التعقيب على هذا الكلام بشيء لأن أصل المنهج الذي جاء به المراكشي وردده كثير من العلماء بعده مرفوض - من جانبنا - في دراسة الرسم دراسة صحيحة لا ترى فيه الا أنه كتب لتمثيل الفاظ التلاوة وحفظاً لكتاب الله العزيز على مر الدهور واختلاف العصور.

(٩٤) اختلف في زيادتها في هذا الموضع، وهي في المصحف المطبوع ليست مثبتة.

أشد افساداً من شدة الخبال، وظهرت الألف في الخط لظهور القسمين في العلم^(٩٥).

وكل ألف تكون في كلمة لمعنى له تفصيل في الوجود له اعتباران: اعتبار من جهة ملكوتية أو صفات حالية، أو أمور علوية مما لا يدركه الحس، فإن الألف تحذف من الخط علامة لذلك، واعتبار من جهة ملكية حقيقية في العلم، أو أمور سفلية فإن الألف تثبت^(٩٦). ويعقب الزركشي على رأي المراكشي في حذف الألف، بأن علماء الظاهر يقولون انه حذف للاختصار وكثرة الاستعمال^(٩٧).

وأما الواو فإن زيادتها تدل على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعلى طبقة وأعظم رتبة في العيان، مثل ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف ١٤٥/٧) و ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ (الأنبياء ٣٧/٢١)، زيدت الواو تنبيهاً على ظهور ذلك الفعل للعيان أكمل ما يكون، ويدل على ذلك أن الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد^(٩٨).

وأما الياء فإن زيدت في كلمة فهي علامة اختصاص ملكوتي مثل ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ (الذاريات ٤٧/٥١) كتبت بياءين فرقا بين (الأيد) الذي هو القوة، وبين (الأيدي) جمع يد، ولا شك أن القوة التي بنى الله بها السماء هي أحق بالثبوت في الوجود من الأيدي، فزيدت الياء لاختصاص اللفظ بالمعنى الأظهر في الإدراك المملوكي في الوجود^(٩٩).

أما حذف الواو في نحو ﴿وَيَذَعُ الْإِنْسَانَ﴾ (الإسراء ١١/١٧)، و ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ﴾ (الشورى ٢٤/٤٢)، و ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ (القمر ٦/٥٤)، و ﴿سَنَدْعُ

(٩٥) انظر الزركشي ج ١ ص ٣٨١، والقسطلاني ج ١ ص (٢٨٦-٢٨٧).

(٩٦) نفس المصدرين ج ١ ص ٣٨٨ وج ١ ص ٢٨٧ على التوالي.

(٩٧) الزركشي ج ١ ص ٣٩١.

(٩٨) الزركشي ج ١ ص ٣٨٦، والقسطلاني ج ١ ص ٢٨٧.

(٩٩) الزركشي ج ١ ص ٣٨٧ والقسطلاني ج ١ ص ٢٨٨.

الرَّبَانِيَّةُ ﴿ (المعلق ١٨/٩٦)، فقد قال المراكشي^(١٠٠): السر في حذفها من هذه الأربعة التنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود، أما ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ﴾ فيدل على انه سهل عليه، ويسارع فيه كما يسارع في الخير، بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير، وأما ﴿وَيَمْنَعُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ فللاشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله. وأما ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ فللاشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة المدعوين. وأما المثال الأخير فللاشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الربانية وشدة البطش.

وإذا كان القسطلاني قد اكتفى بتفصيل منهج المراكشي، والسيوطي قد اكتفى بالاشارة إلى الكتاب وبعض الأمثلة فإن الزركشي قد ملأ الفصل الذي عقده للرسم بتعليلات المراكشي على النحو الذي رأينا طرفاً منه في تحليل الأمثلة المتقدمة، وقد نقل الزركشي - بنفس الاسلوب - تحليل حذف النون في الفعل ﴿يَكُ﴾ في قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ (القيامة ٣٧/٧٥)، وكتابة الألف واواً في مثل ﴿الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، وكتابة تاء التأنيث مبسوطة في بعض الكلمات. وما جاء من الكلمات موصولاً في بعض المواضع ومفصلاً في أخرى^(١٠١). وختم الزركشي الموضوع بفصل في حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى مثل ﴿زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ (البقرة ٢٤٧/٢)، و ﴿زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ (الأعراف ٦٩/٧) و ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (الرعد ٢٦/١٣)، و ﴿وَاللَّهُ يَفْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ (البقرة ٢٤٥/٢)، فبالسين السعة الجزئية، كذلك علة التقييد، وبالصاد السعة الكلية بدليل علو معنى الاطلاق، وعلو الصاد مع الجهارة والأطباق^(١٠٢).

وقبل مناقشة هذا الاتجاه نشير إلى أن أبا العباس المراكشي كان ذا ميل

(١٠٠) انظر الزركشي ج ١ ص ٣٩٧ والسيوطي: الاتقان ج ٤ ص ١٥٠.

(١٠١) انظر ج ١ ص ٤٠٧ و ص ٤٠٩ و ص ٤١٠ و ص (٤٢٣-٤١٧).

(١٠٢) انظر ج ١ ص (٤٢٩-٤٣٠).

شديد إلى العلوم الرياضية والعقلية يتجلى ذلك في مؤلفاته الكثيرة في الفلسفة والمنطق والفلك والاصول، ثم انه ذو إتجاه صوفي وجداني دفعه إلى الانقطاع مدة عن أكل ما فيه روح، وأصيب بحالة عصبية فحجب في بيته سنة وتعافى^(١٠٣) ولا نريد من هذا البيان الموجز إلا الاشارة إلى نواحي شخصيته وثقافته ونزعته إلى الاستبطان والتأمل الذاتي، ولا شك في انه من خلال ثقافته وشخصيته تلك استطاع أن يصل إلى ذلك التفسير الباطني لظواهر الرسم.

ورغم الصورة المنطقية التي يعرض فيها المراكشي مذهبه فإن هذا الاتجاه بعيد كل البعد عن طبيعة الموضوع، فلم يدر في خلد الصحابة - رضوان الله عليهم - شيء من تلك المعاني التي يحاول أبو العباس المراكشي أن يعلل بها رسم الكلمات في المصحف في صورة فلسفية باطنية^(١٠٤)، فقد كانوا مشغولين بمعاني القرآن الناصعة وآياته المحكمة عن تلك المعاني الفلسفية الباطنية الغامضة البعيدة عن روح الوضوح واليسر، والتي يحتاج فهمها إلى لون معين من ألوان الثقافة، ولم يكن الهدف الأول لتسجيل النص القرآني سوى تمثيل ألفاظ التلاوة التي من خلالها - لا من خلال الرسم - تتجلى معاني القرآن العظيم، وقد مرت قرون طويلة على كتابة القرآن دون أن ينقل أحد شيئاً من تلك المعاني، حتى جاء المراكشي فكشف عنها بتأمل ذاتي باطني فلسفي غامض متكلف بعيد عن طبيعة الكتابة التي هي وسيلة لتخليد الألفاظ الدالة على المعاني دون أن يكون للكتابة - أصلاً - أي دور في تحديد المعنى أو تفصيله أو الاجاء بمعاني دقيقة عن طريق التصرف في هجاء الكلمات وتحويره.

وسبق أن لاحظنا أن الأساس الأول الذي تنبني عليه الكتابة هو الأصوات السموعة للكلمات ثم تسهم عوامل اخرى - على مر العصور - في إعطاء الكلمات صوراً هجائية قد تحالف الملفوظ به جزئياً، ولكن ليس من بين تلك العوامل

(١٠٣) انظر الزركلي ج ١ ص (٢١٣-٢١٤).

(١٠٤) انظر د. رمضان عبد التواب: ص ١٥٧.

ملاحظة تمثيل المعاني الاضافية من خلال تغيير رسم الكلمات بزيادة أو نقص، فالأساس الذي قام عليه منهج أبي العباس المراكشي في دراسة ظواهر الرسم أساس مردود، وإذا انتقض الأساس انتقض سائر ما بني عليه، إلى جانب ان تلك التعليقات التي يوردها لاختلاف صور هجاء بعض الكلمات توقع في أحيان كثيرة في تناقض حاد، فإذا سلمنا - مثلاً - بأن علة حذف الواو في ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ سرعة وقوع الفعل، فهل يدل إثبات الواو في ﴿يَمْنَحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُنْثَبُ﴾ (الرعد ٣٩/١٣) على التراخي في الهو والإثبات؟ إلى غير ذلك من الأمثلة^(١٠٥). ثم إن ما يذهب إليه المراكشي من أن حذف رموز حروف المد وإثباتها يناسب أحوال الوجود، فإذا حذفت فذلك لمعنى باطن في الوجود، وإذا ظهرت فلمعنى ظاهر في الوجود إلى الادراك ينفيه ما تم كشفه من تاريخ استخدام رموز الحركات الطويلة في الكتابة العربية خاصة، والكتابات السامية عامة، فلم يكن منهج أبي العباس المراكشي - إذن - قائماً على أساس من حقائق العلم ومعرفة التاريخ بل إن كل ما قاله هو نتيجة تأمل ذاتي غامض، عبر عنه بمصطلحات صوفية وفلسفية ومنطقية هي الاخرى غامضة، وان نتيجة واحدة صحيحة يقود إليها الدليل العلمي الواضح خير وأجدى في فهم المشكلة من كل ما قاله المراكشي وردده من ورائه أجيال من العلماء والدارسين.

٤ - تفسير الزيادة والحذف باحتمال القراءات:

ذهب بعض الباحثين إلى أن المصحف العثماني كتب ليشتمل على الأحرف السبعة أو أنه جاء شاملاً لما يحتمله رسمه منها - على نحو ما بينا ذلك سابقاً - وبناء على ذلك فقد حاول بعض العلماء تحليل حذف وزيادة بعض الحروف، خاصة رموز حروف المد (الحركات الطويلة)، بأن المقصود منه ان تحتمل الكلمة ما ورد فيها من قراءات صحيحة، حتى جعل بعضهم من مزايا الرسم الدلالة على القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة^(١٠٦)، ثم إن دارسي الرسم المتأخرين جعلوا

(١٠٥) انظر محمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص ١٧٦ وما بعدها.

(١٠٦) انظر الزرقاني ج ١ ص ٣٦٦.

أحد الفصول التي درسوا فيها ظواهر الرسم (ما فيه قراءتان فكتب على إحداها)^(١٠٧) وقد اعتمد الجعبري كثيراً في شرحه للرائية^(١٠٨) على هذا الاتجاه في تحليل حذف وإثبات حروف المد وغير ذلك من الظواهر الرسمية^(١٠٩)، فنجده يعقب مثلاً على الظواهر التي يتحدث عنها بقوله (وجه حذف الألف احتمال القراءتين)^(١١٠) أو (وجه الاثبات والحذف احتمال القراءتين، فقراءة الياء في المرسوم بها قياسية وفي محذوفها اصطلاحية) قال بذلك وهو يتحدث عن رسم كلمة (ابراهيم) في البقرة بغير ياء^(١١١). وجعل اللبيب حذف الألف ثلاثة أنواع أحدها حذفها لأجل القراءات^(١١٢).

وقد بيّنا في فصل سبق الوجه الراجح في مسألة كتابة المصحف العثماني بأحد الأحرف السبعة ومسألة احتماله لأكثر من قراءة، ورجحنا - هناك - ان المصحف العثماني إنما كتب على قراءة معينة، أي أن رسم الكلمات جاء لتمثيل لفظ واحد ونطق معين، بغض النظر عن احتماله لأكثر من قراءة بسبب تجرد الكتابة آنذاك من الشكل والاعجام، ومن ثم فإن هذا الاتجاه في تحليل بعض ظواهر الرسم لا يقوم على أساس راجح - في نظرنا - بل انه لا يختلف كثيراً

(١٠٧) انظر السيوطي الاتقان ج ٤ ص ١٤٧ والقسطلاني ج ١ ص ٢٨٨.

(١٠٨) الرائية هي القصيدة المسماة (عقيلة أتراب القصائد) من نظم القاسم بن فيره الشاطبي، في رسم المصحف، انظر موضوع (الكتب المؤلفة في الرسم) في المبحث الأول من الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(١٠٩) انظر أيضاً القسطلاني ج ١ ص ٢٨٩.

(١١٠) انظر خيلة أرباب المراد ورقة ٨٣ أ وانظر أيضاً ٨٣ ب و٨٨ أ و٩١ أ و٩٧ ب وغير ذلك.

(١١١) انظر ورقة ٨٦ أ.

(١١٢) الدرّة الصقيلة ورقة ١٩ ب. وانظر نفس الفكرة: علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ١٥ / أ.

عن الاتجاه القائل باختلاف أحوال الرسم لاختلاف المعاني في ضعف الأساس الذي بني عليه .

٥ - الرسم بُني على حكمة ذهبت بذهاب كتبه:

وإلى جانب تلك الاتجاهات المختلفة في دراسة ظواهر الرسم العثماني نجد أنفسنا في العصر الحديث أمام باحث^(١١٣) يرفض كل ما قيل في تفسير الوجوه المختلفة للرسم من تعليقات، مع تسليمه ان تلك الوجوه قد رسمت لحكمة عرفها الصحابة وغابت بذهابهم، يقول^(١١٤): ذكر العلماء تعليقات متنوعة لبعض كلمات الرسم العثماني، غير أن هذه التعليقات ما هي إلا من قبيل الاستثناس والتلميح، لأنها لم توضع إلا بعد انقراض الصحابة - رضي الله عنهم - وهم قد كتبوا المصحف بهذا الرسم لحكمة لم نفهمها، وإشارة لم ندركها، من غير أن ينظروا إلى العلل النحوية أو الصرفية التي استنبطت بعدهم، ثم يقول^(١١٥): فالخلاصة أن كل هذه التعليقات التي ذكرها العلماء من الزيادة والحذف في بعض كلمات القرآن لا تعني شيئاً، والحقيقة أنها هكذا وصلت إلينا عن الصحابة الذين كتبوا القرآن الكريم، ولم ينكشف سر ذلك لأحد، والله سبحانه علام الغيوب! ثم يبلغ اليأس به من الوصول إلى معرفة وجه لذلك إلى أن يقول^(١١٦): فمن يرشدنا إلى سبب هذا التغير في رسم المصحف العثماني إلا الصحابة الذين كتبوه بأمر عثمان؟ وهذا إذا قاموا من قبورهم!

وإذا كنا نتفق معه في أن كثيراً مما قيل في تحليل أوجه الرسم لا يعني في فهم المشكلة شيئاً، خاصة ما ينسب إلى أبي العباس المراكشي، وما شاكله، فإنه لا

(١١٣) هو الأستاذ الشيخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط صاحب كتاب (تاريخ الخط العربي) و (تاريخ القرآن).

(١١٤) انظر تاريخ القرآن ص ١٧٥ .

(١١٥) انظر نفس المصدر ص ١٧٩ .

(١١٦) نفس المصدر ص (٥-٦) وانظر أيضاً نفس المعنى ص ١٠٥ و ١٣٤ .

يمكن موافقته فيما ذهب إليه من استحالة معرفة أسرار تلك الوجوه أو بعضها إلا بقيام الصحابة - رضوان الله عليهم - ومساءلتهم، إذ سنجد أن في دراسة حالة الكتابة العربية وخصائصها على نحو ما في الفصل التمهيدي - ما يمكن أن يساعد في تفهم كثير من تلك الوجوه، وبقدر ما تتقدم الدراسة في ذلك المجال ويتاح لها من وثائق ترجع إلى عصر نسخ المصاحف أو العصور القريبة منه سيلقي ذلك مزيداً من الضوء على ما ورد في الرسم العثماني من صور كتابية متعددة الوجوه، ويساعد على الفهم الصحيح لكل ذلك.

وإذا كان لنا أن نخلص بنتيجة من هذا العرض لاتجاهات علماء السلف في دراسة ظواهر الرسم العثماني فهي أن التباين في وجهات النظر المختلفة قد جعل المشكلة أكثر تعقيداً، دون أن يسهم في التقريب إلى فهم صحيح للمشكلة، ومع ذلك فإن لدينا - الآن - من الوسائل ما يدفع إلى محاولة دراسة المشكلة من جديد على أمل الوصول إلى فهم أكثر توفيقاً وصدقاً لظواهر الرسم المختلفة، وهو ما أمل تحقيقه في الفصل التالي إن شاء الله.





الفصل الرابع



الرسم العثماني : دراسة لغوية

الفصل الرابع

الرسم العثماني : دراسة لغوية

كانت دراسات علماء السلف في مجال الرسم تتركز - بصورة عامة - حول وصف الظواهر دون محاولة تفسيرها، إلا في القليل، على نحو ما بينا في موقفهم من ظواهر الرسم، ولم تحظ المشكلة في العصر الحديث - كذلك - بدراسة شاملة تحاول إعطاء تفسير مقبول لها، أو دراسة تقرب من الوصول إلى ذلك التفسير^(١)،

(١) حاول الأستاذ عبد الوهاب حموده في كتابه (القراءات واللهجات: ص ١٠٢-١١٢) البحث عن (سبب اختلاف المصاحف في الرسم للألوف الخط ومعروف القواعد): وقد رد ذلك إلى جملة عوامل، وهو مع إشارته إلى الأثر التاريخي للخط وبعض الظواهر الصوتية، فإنه يجعل من بين تلك العوامل ضعف الكاتبين في صناعة الخط، بمعنى أن بعض تلك الظواهر خطأ كتابي محض، وهو ما نرفض الأخذ به، وكذلك هو يجعل من بين تلك العوامل كتابة الكلمات لتحتمل أكثر من قراءة، وقد بينا ضعف هذه الاتجاه في محاولة تفسير الظواهر الهجائية، وبعد ذلك تظل هذه المحاولة محدودة بمساحة الصفحات التي خصصت لعلاج المشكلة، وبالمنهج الذي وضع المؤلف محاولته فيه.

وقد قدمت إلى (قسم التفسير وعلوم القرآن) بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر رسالة لنيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من السيد عبد الحمي حسين الفرماوي، المدرس في الكلية، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد السيد الكومي، ونوقشت يوم (١٠/٢/١٩٧٥) في موضوع (رسم المصحف ونقطه) تقع في (٤١٢ صفحة) إضافة إلى الفهارس التي تبلغ بها (٤٨١ صفحة)، وهذا البحث مخصص - أصلاً - لمناقشة الحكم الشرعي لالتزام الرسم العثماني في طبع المصاحف =

ومن ثم فإن مواجهة المشكلة بالبحث على هذا النحو من الشمول الذي سنعرضه هنا تم لأول مرة، وهو ما يزيد في صعوبة مواجهتها، لكن محاولة تجميع شتات الموضوع من دراسات علماء الرسم والقراءات وعلماء العربية ومما تقدمه الدراسات اللغوية والصوتية الحديثة والاستعانة بذلك كله في محاولة الوصول إلى تفسير للمشكلة في مظهرها العام، وفي كثير من تفاصيلها، كل ذلك كفيلاً بأن يقربنا من الهدف المنشود، ويجنب البحث كثيراً من مواطن الخطأ، ومع ذلك فإن هذه المحاولة تظل معرضة لما تتعرض له كل محاولة رائدة من احتمال النقص وإمكانية وقوع الخطأ أكثر مما لو كانت سبيل البحث في هذا المجال قد مهدت وطرقها الباحثون بدراساتهم وبحوثهم.

= ونسخها، وهدف البحث كما يقول كاتبه (المقدمة ص ي) « فحاولت جاهداً - محاولة الباحث النصف المحايد - البحث عن الحل الأمثل الذي به يتحقق للمسلمين - المتخالفين في رسم القرآن الكريم - وحدتهم، واتفاقهم على رسم واحد، يتبعونه في طبع المصاحف، في مشارق الأرض ومغاربها، وليتحقق لهم - أيضاً - الاقتداء بسنة محمد - صلى الله عليه وسلم - والاعتصام بجبل الله المتين، وحماية كتاب الله تعالى من تحريف الغالين وإبطال المبطلين ». ومع أنا نتفق مع الباحث في نتيجة بحثه من وجوب التزام الرسم العثماني في طبع المصاحف، إلا أنا تختلف معه في الأسس التي اعتمد عليها، خاصة القول بأن الرسم كله توقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم - وإيراده حججاً واهية في ذلك، ولسنا بصدد مناقشة ما جاء في بحثه من قضايا تحتل المناقشة، تتعلق بتاريخ الكتابة العربية أو تاريخ كتابة المصحف أو الرسم ذاته، وإنما نكتفي بالإشارة إلى أنه عالج في المبحث الثالث من الفصل الثالث (من ص ١١٥-١٦١) ظواهر الرسم العثماني تحت عنوان (سمات وخصائص رسم المصحف) وكان منهجه في تلك المعالجة هو منهج السلف في تقسيمهم ظواهر الرسم إلى ستة أبواب، ثم حاول أن يضمن الأمثلة التي أوردها في تلك الأبواب تعليقات أبي العباس المراكشي منقولة عن الزركشي (أنظر ص ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٤٤، ١٤٨، من بحثه)، ومن ثم فإن تلك الدراسة لم تأت بجديد يعين على فهم المشكلة والوصول إلى تفسير لها.

المبحث الأول

الأسس التي تقوم عليها هذه الدراسة

إنّ مؤلفات الرسم في عرضها ومعالجتها لظواهره تدرج في اتجاهين: الأول يقوم على تجميع الأمثلة المتشابهة في الموضوع الواحد في فصل معين، والثاني يتتبع ظواهر الرسم بادئا بأول المصحف ومنتهاً بآخر سورة فيه، مؤكداً - بصورة خاصة - على ما جاء مرسوماً بطريقة متميزة، ولما لم يكن الهدف هنا تقديم نموذج لرسم الكلمات في المصحف، فإن هذا الاتجاه لا يفيد اعتماده هنا في دراسة المشكلة، وكان الاتجاه الأول هو الأنسب لذلك، لكن الملاحظ أن إيراد الظواهر في ظل هذا الاتجاه يقوم على مجرد التشابه الشكلي الظاهري، حيث تنتظم الظواهر بضعة فصول، تبلورت في الفترات المتأخرة نسبياً، فهذا ابن وثيق الأندلسي (ت ٦٥٤هـ) يقول حين عقد فصلاً في صدر كتابه قبل أن يورد ظواهر الرسم تبعاً لتتابع السور^(١): «إعلم، وفقك الله، أن رسم المصحف يفتقر إلى معرفة خمسة فصول عليها مداره:

الأول: ما وقع فيه من الحذف.

الثاني: ما وقع فيه من الزيادة.

الثالث: ما وقع فيه من قلب حرف إلى حرف.

الرابع: أحكام الهمزات.

الخامس: ما وقع فيه من القطع والوصل». وقد زيدت تلك الفصول إلى

(١) لوحة ٢.

سة، بإضافة فصل آخر لما فيه قراءتان فكتب على أحدها، يقول السيوطي^(٢):
« وسنحصر أمر الرسم في: الحذف، والزيادة، والهمز، والبدل، والفصل، وما
فيه قراءتان فكتب على إحداها ». وتوزيع الظواهر في هذا الاتجاه يقوم على
أساس شكلي، فزيادة الألف بعد الواو - مثلاً - في (ملقوا، ونصروا، ويعفوا)
تأتي في باب زيادتها في نحو (مائة) أو مع زيادة الواو في (أولئك)، هذا من ناحية،
ومن ناحية أخرى فإن ذلك المنهج وضع أساساً لمعالجة ما جاء مخالفاً لقواعد علماء
العربية في الهجاء، ونحن هنا إنما نهدف إلى التعرف على كل ظواهر الرسم
والأسس التي أنبنى عليها، بغض النظر عن علاقتها بقواعد الهجاء التي رتبها
علماء العربية في فترات لاحقة.

وبناء على ذلك فإن المنهج الأمثل الذي يمكن أن يشمل كل ظواهر الرسم في
فصول ترد فيها الظواهر مرتبطة بعضها ببعض برباط منطقي مقبول، دون أن
تختلط أو تشتت، هو الذي يقوم على أساس العلاقة بين الصوت اللغوي ورمزه
الكتابي الذي يمثله، على نحو المنهج الذي اعتمدنا عليه في دراسة خصائص
الكتابة العربية قبل الرسم العثماني، إذ يقسم اللغويون الأصوات اللغوية عامة إلى
قسمين هما: الصوامت والحركات، ولكل قسم منها ما يميزه عن الآخر، ويمكن
بناء على ذلك أن نبحت رموز الصوامت ورموز الحركات في الرسم العثماني،
ومقدار وفاء الكتابة العربية، كما تتجلى في ذلك الرسم، بمتطلبات النطق الفعلي،
كلا في مبحث مستقل، خاصة أن للكتابة العربية في تمثيل الصوامت - مثل
الكتابات السامية الأخرى - أسلوباً يفاير ما جرت عليه في تمثيل الحركات.

وقد كان بالإمكان أن تتناول رمز الهمزة بالدراسة مع رموز الأصوات
الصامتة لولا ما صاحب ذلك الصوت ورمزه الكتابي من ظروف لغوية تاريخية

(٢) الاتقان ج ٤ ص ١٤٧. وانظر القسطلاني ج ١ ص ٢٨٨. والديماطي ص ١٠.
والزرقاني ج ١ ص ٣٦٢. وقد جرى الزركشي (ج ١ ص ٣٧٦ وما بعدها) على
منهج يشبه ذلك.

جعلت منه مشكلة معقدة في النطق والرسم على السواء، فجاء رمز الهمزة على صورة رموز الحركات الطويلة أحياناً، وهو ما زاد في غموض المشكلة وتمقيدها، إذ فهم علماء العربية أن ذلك كان بسبب ارتباط الهمزة صوتياً بأصوات الحركات الثلاث، فجاء فهمهم للأصوات الصامتة والحركات ورموزها مختلطاً، خاصة مع غياب الوعي التاريخي لتطور مشكلة الهمزة، وانتقالها من مجال الأصوات الصامتة إلى الحركات، ثم تذبذبها بين هذه وتلك، وقد حتم هذا الوضع الفريد للهمزة أن نتناولها في مبحث مستقل نحاول أن نصل فيه إلى تفسير مقبول لهذه المشكلة التي كانت من أكبر العوامل المساهمة في إساءة فهم ظواهر الرسم العثماني من قبل كثير من الباحثين.

ولا بد بعد ذلك من أن نشير إلى كيفية ارتباط تلك الرموز - صوامت وحركات - في داخل الكلمة، ثم بيان علاقة بعض الكلمات ذات المقاطع المحدودة بغيرها من الكلمات، فقد جاءت معظم الكلمات ذات المقطع الواحد مرتبطة بالكلمات المجاورة لها، وجاءت - كذلك - عدة من الكلمات ذات المقطعين موصولة بغيرها أحياناً مستقلة برسمها أحياناً أخرى.

وعلى هذا المنهج يمكن تناول ظواهر الرسم بالدراسة في تلك الأبواب أو المباحث الأربعة، ومع أن علماء السلف أفردوا لدراسة الهمزة باباً مستقلاً إلا أن الأسس التي يقوم عليها فهم مشكلة الهمزة - هنا - يختلف عما ذهبوا إليه في بعض الجوانب، وهو ما يمكن أن يسهم في حل مشكلة الرسم عامة والهمزة على وجه الخصوص، أما الباب الذي سماه علماءنا الأئمة (القطع والوصل) أو (الفصل والوصل) فهو ما سنبحث فيه هنا تعريف الكلمة من حيث الرسم، وعوامل وصل الكلمات بعضها ببعض أحياناً.

وهذا المنهج في دراسة ظواهر الرسم ستتضح من خلاله القاعدة العامة التي جرى عليها تمثيل الصوامت والحركات في الرسم العثماني من جانب، ثم بيان تفسير وتعليل الأمثلة الخارجة على تلك القاعدة لأسباب لغوية تاريخية من جانب آخر.

وقبل أن نغضي في دراسة الرسم العثماني وفقاً لذلك المنهج نشير إلى جملة قضايا مهمة، تحدد المنهج الذي ستجري عليه هذه الدراسة، وتساعد - إلى جانب ذلك - في تفهم العوامل التي أثرت في خلق تلك الأمثلة التي جاءت خارجة على القاعدة العامة التي جرى عليها الرسم العثماني في تمثيل الصوامت والحركات، وأهم تلك القضايا:

١ - استبعاد فكرة الخطأ في دراسة ظواهر الرسم العثماني:

إذ لم يرد أي خبر يشير إلى صعوبات هجائية واجهت الكتبة وعجزوا فيها عن تحقيق الصورة الصحيحة لها، غير ما ذكر من اختلافهم في رسم كلمة (التابوت) ونحو ذلك مما يرجع إلى اختلاف العادة التي جرى عليها الكتبة في رسم تلك الكلمات دون أن يدخل ذلك في دائرة الخطأ، ولا ينبغي لدارس الرسم العثماني إلا أن يستبعد فكرة الخطأ وهو يحاول أن يجد التفسير الصحيح لظواهر الهجاء الواردة فيه، وأن يتوقف عن القول في ما لم يتوفر لديه فيه ما يرجح به رأياً أو يقدم به تفسيراً، لأن جانباً كبيراً من تاريخ الكتابة العربية في تلك الفترة المتقدمة لا يزال غير معروف، ويظل الرسم العثماني بكل ما يقدم من أمثلة وصور لرسم الكلمات خير ممثل لواقع الكتابة العربية في تلك الحقبة، ولا شك في أن أي كشف جديد في مجال النصوص القديمة المكتوبة سيزيد الحقائق الكتابية التي يقدمها الرسم تأكيداً ووضوحاً، بعيداً عن فكرة الخطأ التي يجب أن تكون آخر احتمال في هذا المجال، بل على الباحثين استبعاد فكرة وقوع الخطأ في هذه المرحلة من البحث، حيث تشير كل الدلائل إلى أن ما جاء في الرسم العثماني هو واقع كتابي تميزت به الكتابة العربية في تلك الفترة.

٢ - عدم الاقتصار على المبدأ القائل إن الأصل في الكتابة مطابقة الخط للفظ:

إذ إن اعتاد هذه الفكرة في مناقشة ظواهر الرسم هي التي أوقعت علماء السلف عامة وعلماء العربية منهم خاصة في خطأ جسيم أدى إلى عدم تمكنهم من

فهم حقيقة صور هجاء الكلمات التي احتوت رموزاً زائدة لا تلفظ، ومع تسليمنا بأن أصل الكتابات الهجائية هو المبدأ الصوتي، إلا أن تطور اللغة دون مواكبة الكتابة لذلك التطور قد أوجد بعض التعقيدات الهجائية التي ترجع في الغالب إلى واقع لغوي قد زال من الاستعمال لكن الكتابة تتشبه بصور هجاء الكلمات التي تمثل الظواهر اللغوية القديمة.

وبناء على ذلك فسوف نحري في مناقشة ظواهر الرسم على أساس اشتراك جملة عوامل في خلق الظاهرة الكتابية - كما بينّا ذلك في الفصل التمهيدي - وإلى جانب ذلك فإن هجاء الكلمة قد يقوم على أساس نطقها لكن قد تنهجي وهي مبتدأ بها وموقوف عليها، أو ترسم وهي في سلسلة كلامية متصلة، وسنجد أن لهذين الاعتبارين أثراً كبيراً في رسم الكلمات حين يستجيب الكاتب لأحدهما، لأن نطق الكلمات كثيراً ما يتغير في اللغة العربية في حال الوقف عنه في درج الكلام.

وللجانب الثقافي للكاتب ومقدار معرفته بتقاليد الكتابة التي يستعملها أثر في طريقة رسمه للكلمات، فكلما كان قد مارس عملية القراءة والكتابة على نطاق واسع أتاح له ذلك المحافظة على هجاء الكلمات الموروث، وبالعكس إذا كان الكاتب حديث عهد بالكتابة، أو قلت ممارسته لها فإنه سيجري في رسم الكلمات، خاصة التي لم يقرأها في نص مكتوب، على نحو ما يسمعها أو يلفظها^(٣).

واضافة إلى ذلك فإن الكاتب مهما كان متقناً لأصول الكتابة التقليدية فإنه سيظل متردداً بين الالتزام بالصور التقليدية الموروثة لهجاء الكلمات، التي قد يكون رسمها لا يمثل نطقها تماماً، وبين الاستجابة لمتطلبات اللفظ المسموع، مما قد يخالف الشكل المعتمد على اللفظ أصول رسم الكلمات الجارية في تقليد الكتاب.

وجملة هذه العوامل تسهم في خلق صور هجائية متعددة لرسم الكلمات خاصة في كتابة مثل العربية كانت لا تزال تنشأ الصورة الكاملة لتمثيل كافة أصواتها.

(٣) انظر د. عبد العزيز الدالي ص ٢٢٠.

٣ - عدم اعتبار قواعد الهجاء التي وضعها علماء العربية مقياساً للرسم:

مما يلاحظ على كلام علماء السلف انهم يشيرون بادىء ذي بدء إلى أن قواعد الرسم العثماني قد جاءت بصورة عامة موافقة لقواعد الهجاء إلا أن جملة من ظواهره جاءت خارجة على تلك القواعد، وهذا منهج مقلوب في دراسة القضية، وذلك ان الرسم العثماني ما هو إلا النموذج الحقيقي لحالة الكتابة العربية في الفترة التي نسخت فيها المصاحف، وظل الناس يكتبون وفقاً لما جرى في المصحف فترة طويلة إلا أن حرص علماء العربية على تسيير القواعد الكتابية بعد ذلك الاستعمال الواسع للكتابة جعلهم يسعون إلى توحيد قواعد الرسم العثماني وفقاً لأصولهم الصرفية وأقيستهم النحوية، وظلت قواعد الرسم العثماني هي العمود الاساسي في قواعد الهجاء العربي التي وضعها علماء العربية. وليس من المنطقي ولا من المنهج العلمي السديد أن نقيس ظواهر الرسم العثماني بأصول وقواعد جاءت لاحقة لتاريخ وجود تلك الظواهر، ومعتمدة عليها في أكثر جوانبها.

٤ - الافادة من القراءات الصحيحة جمعاء في توجيه ظواهر الرسم العثماني:

رجحنا في الفصل الثاني أن المصحف العثماني كتب لتمثيل قراءة واحدة هي القراءة العامة المشهورة في المدينة بين الصحابة، ولكن لأسباب ترجع إلى تاريخ القراءات أصبح من غير اليسير - الآن - أن نتبين أصول تلك القراءة ومفرداتها، ويكون - لذلك - ما جاء موافقاً للرسم من وجوه القراءات الصحيحة هو الذي يمكن أن يكون أساساً في دراسة الرسم من غير تخصيص وجه دون آخر لأن الكتابة إنما أرادوا لفظاً واحداً، لكننا لا نعلم ذلك اللفظ بعينه، ومن ثم جاز لنا أن نعتد على أي وجه من وجوه القراءة مما يحتمله الرسم في تفسير الظواهر الكتابية وحل مشكلات الرسم مما تتوافر الدواعي على ترجيحه.

ولهذا الاتجاه أثر عملي في تفسير ظواهر الرسم على نحو ما سنرى في بحث رمز الهمزة - مثلاً - إلى جانب الاسهام في استبعاد بعض الأمثلة عما خرج على القاعدة العامة مما نص الأئمة على زيادة حرف فيه أو نقصانه منه، وأوضح مثال على ذلك هو ما قيل من زيادة ألف في كلمة (ثمود) فقد جاءت الألف مرسومة بعد الدال في أربع آيات هي (هود ١١/٦٨) ﴿أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ (الفرقان ٢٥/٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ (المنكبات ٢٩/٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ (النجم ٥٣/٥٠ - ٥١) ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ﴾. ويفهم من قول علماء الرسم في هذه الألف أنها زائدة في هذه المواضع الأربعة^(٤). ولكن بالرجوع إلى قراءات الأئمة في هذه الكلمات نجد أن كلاً من نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر والكسائي قد قرأ الأربعة بالتنوين، وقرأ كل من حمزة وعاصم في رواية حفص بترك التنوين فيها^(٥)، ومن ثم فإن هذه الألف ما هي إلا الألف التي كتبت في المصحف عوضاً عن التنوين المفتوح ما قبله عند الوقف، وهي بذلك تدخل في القاعدة العامة للرسم في مثل تلك الحالة، ونحن لا نرجح - في هذا المجال - قراءة على أخرى، إنما نختار القراءة التي تساعد على تفهم الظاهرة، ويبقى بعد ذلك لكل قارئ أن يقرأ ما رواه عن أساتذته وشيوخه مما يرتفع إلى الصدر الأول، مما أقرهم به النبي صلى الله عليه وسلم.

على أنه لا يجب الاقتصار في النظر إلى ظاهرة ما من ظواهر الرسم على ما جاء فيها من قراءات فحسب، فلعل بعض ظواهر الرسم ترجع إلى فترة تاريخية سبقت نسخ المصاحف، واحتفظت بها الكتابة على نحو ما بيننا من أن الكتابة

(٤) انظر ابن أبي داود ص ١١٤، وأبو بكر الانباري ج ١ ص (٢٦٣-٢٦٤).
والداني: المقنع ص ٤١.

(٥) ابن مجاهد: ص ٣٣٧. وانظر ابن الجزري: النشر ج ٢ ص (٢٨٩-٢٩٠).

أكثر ميلاً إلى الاحتفاظ بالظواهر اللغوية الزائلة من الاستعمال الفعلي، ومن ثم فإن الاستعانة بأمثلة هجائية أو لغوية من خارج خط المصحف وما ورد من قراءات أمر مقبول ويساعد على تفهم كثير من ظواهر الرسم وحل كثير من مشكلاته.

٥ - وليس من المحتم أن يقدم هذا البحث تفسيراً لكل مثال أو ظاهرة وردت في الرسم العثماني، كذلك ليس من الضروري أن يكون التفسير الذي يقدمه هذا البحث لظواهر الرسم صحيحاً أو كاملاً، وذلك لأن هناك عوامل كثيرة تشترك في إعطاء الكلمات صورة هجائها، وليس من اليسير الكشف عن كل تلك العوامل وكذلك فإن جانباً كبيراً من تاريخ الكتابة في تلك الفترة لا يزال غير معروف، لقلة النقوش والنصوص المكتشفة التي ترجع إلى تلك الفترة، ومن ثم فإن ما سيرد في هذا البحث إنما هو محاولة للاستفادة مما تقدمه الدراسات اللغوية والاكتشافات الأثرية - اليوم - في تفسير ظواهر الرسم، ولعل الدراسات التالية تكشف عن وسائل جديدة يمكن الاستعانة بها في تفسير ظواهر الرسم والكتابة العربية على نحو أكثر عمقاً وشمولاً.

وقبل أن نمضي في تناول ظواهر الرسم على أساس ذلك المنهج نشير إلى أن بعض الظواهر الهجائية في الرسم العثماني قد تشمل على عشرات الأمثلة، وإيراد كل أمثلة الظاهرة الواحدة في هذه الحالة يوسع، بلا شك، مساحة البحث دون أن يضيف بعداً جديداً إلى ما يمكن قوله في تلك الظاهرة، ولكن بعض ظواهر الرسم لا تكاد تقدم إلا عدداً محدوداً من الأمثلة قد ينزل إلى مثال أو مثالين، ويصبح إيراد كافة الأمثلة في هذه الحالة أمراً ضرورياً، بل يصبح العثور على مثال جديد أمراً مفيداً جداً، وبصورة عامة فإننا سنورد من الأمثلة ما تمس الحاجة إلى إيراده على ألا نهمل ظاهرة واحدة من ظواهر الرسم، على نحو ما فعل صاحب كتاب الهجاء حين قال^(٦): «إن هجاءات المصاحف واختلف

(٦) كتاب الهجاء مجهول لوحة ٦.

كتابها أكثر من أن يؤتى عليها كلها، ولكن نذكر منها ما هو أنفع للقارئ وأكثر فائدة للناظر فيه، وما فيه الكفاية والاعتبار لما لم نذكر منها»^(٧).

(٧) سأحاول الالتزام برسم الكلمات على النحو المتمثل به، كذلك الالتزام بالرسم العثماني في ايراد الأمثلة عامة، وسوف أشير - في الغالب - الى موضع الآية من السورة في صلب البحث دون الهامش، مع إثبات اسم ورقم السورة أولاً ثم رقم الآية بعده، ورغم أن ذلك قد يسبب قطعاً لاسترسال القارئ فإنه سيخفف كثيراً مما ستكون عليه الهوامش لو كانت الإشارة الى ذلك فيها، لكثرة الأمثلة التي يتحتم ايرادها. وكذلك فإننا لا نجد ضرورة للإشارة الى موضع المثال من الآية والسورة في حالة اطراد القاعدة في عشرات الأمثلة أو مما اشتهر من ذلك.



المبحث الثاني

رموز الأصوات في الرسم العثماني

كانت الأبجدية السامية الأولى التي يفترض أن كافة الأبجديات المعروفة انحدرت منها أبجدية صامتية^(١)، أي أنها كانت تمثل برموزها الأصوات الصامتة دون أصوات الحركات، وقد اختلفت الأبجديات بعد ذلك في سرعة تكميلها لهذا النقص، ولما كان أصل الأبجدية السامية كذلك فإن الترتيب القديم الذي انتظمت فيه حروف تلك الأبجدية كان يمثل الأصوات الصامتة أصلاً، فكان الاثنان والعشرون حرفاً (أجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت) تمثل الأصوات الصامتة لبضعة لغات سامية، وحين تبنت اللغة العربية نظام الأبجدية السامية، ألحقت رموز الأصوات الصامتة التي تفردت بها في نهاية ذلك الترتيب، وهي ستة تعرف بالروادف، فصار الترتيب (أجد.... قرشت تخذ ضغط)^(٢).

ومن ثم فإن رموز الأصوات الصامتة في الكتابة العربية في فترة نسخ المصاحف كانت ثمانية وعشرين رمزاً، والألف في مطلع الأبجدية يرمز إلى الصوت الصامتي الذي ينتج بانطباق الوترين الصوتيين لحظة مع ضغط الهواء خلفها ثم انفراجها فيخرج الهواء فجأة محدثاً صوتاً انفجارياً^(٣). والذي صار

(١) انظر المبحث الثاني من الفصل التمهيدي ص(٦٨).

(٢) انظر ص(٤١-٤٢) من الفصل التمهيدي.

(٣) انظر د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ٩١ ود. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص٢٤، ود. كمال محمد بشر: الأصوات ص١٤٢.

يسمى في العربية باسم (النبرة) أو (الهمزة). أما تطور رمز الألف ليدل على الفتحة الطويلة فسوف ندرسه في مبحث تالٍ، وكذلك فإن رمزي الواو والياء يثلان في هذه الأبجدية الصوتين الصامتين - كما هو أصل وضعهما - بغض النظر عن تطور استعمالهما ليدلا على الضمة والكسرة الطويلتين^(٤).

أولاً: أصوات اللغة العربية ورموزها عند علماء العربية:

وعلينا أن نبين هنا أن فهم علماء العربية لهذه المسألة قد اضطرب في بعض الأحيان، نتيجة الخلط بين الأصوات المنطوقة وبين الرموز المكتوبة من جانب، وغياب البعد التاريخي لتطور الأبجدية من جانب آخر، فأصل حروف العربية عند الخليل وسيبويه تسعة وعشرون حرفاً، لكن الخليل ميز الصحاح التي لها أحياء ومخارج وجعلها خمسة وعشرين وهي ما عدا الواو والياء والألف اللينة والهمزة، والتي سماها هوائية، لأنها تخرج من الجوف، فلا تقع في مدرجة من مدارج أعضاء النطق^(٥)، ولا شك أن هذا الفهم يقوم على عدم التمييز بين قيم هذه الأصوات الأربعة من حيث كونها ذات ارتباط بالأصوات الصامتة من جانب وبالحركات من الجانب الآخر، وكأن اشتراكها في الرموز في حال كونها صوامت وحركات هو الذي أسهم في ترسيخ هذا الفهم.

أما سيبويه فقد اكتفى بإيرادها مرتبة على حسب ذواقه لمخارجها، وقد جرى على نهج استاذه - رغم ما قد يكون بينها من اختلاف في بعض الجوانب - في عدم الانتباه إلى الحدود الفاصلة بين الواو والياء حينما يكونان في باب الأصوات الصامتة وحين يكونان في باب الحركات الطويلة، ويؤكد هذا الزعم

(٤) انظر د. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ١ ص (٦٤-٦٩) و (٧٣-٧٥).

(٥) انظر: كتاب العين. بغداد. مطبعة العاني ١٩٦٧ ج ١ ص ٦٤، وابن منظور

أنه ذكر في مطلع أجديته الصوتية الهمزة ثم الألف، ولم يذكر الواو والياء إلا مرة واحدة^(٦).

ومما يؤكد الخداع أئمة العربية بالرموز الكتابية أنهم ذكروا أصواتاً أخرى هن فروع وأصلها من التسعة والعشرين، تصل بها إلى اثنين وأربعين حرفاً، منها جيد يستحسن وبعضها رديء ليس بمشهور في لغة من ترضى عربيته، ولا يستحسن في قراءة القرآن ولا الشعر، والمهم في ذلك أن سيبويه عقب على ذلك بقوله «وهذه الحروف التي تمتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون لا تتبين إلا بالمشافهة»^(٧)، وأن المبرّد ذكر الحروف المستحسنة التي تبلغ بها حروف العربية خمسة وثلاثين، وقال عنها «إعلم أن الحروف العربية خمسة وثلاثون حرفاً، منها ثمانية وعشرون لها صور»^(٨)، ومعنى ذلك كله أن رمز الألف والواو والياء من بين تلك الرموز الثمانية والعشرين هي رموز لأصوات ثلاثة^(٩)، لكن الحقيقة هي أن الرموز الثمانية والعشرين يقابلها واحد وثلاثون صوتاً هي الأصوات الصامتة الثمانية والعشرون إضافة إلى الحركات

(٦) انظر: سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان): الكتاب. ط. ١. القاهرة، بولاق ١٣١٧ هـ ج ٢ ص ٤٠٤.

(٧) نفس المصدر وانظر: ابن جنّي سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٥١.

(٨) المبرّد (محمد بن يزيد): المقتضب. القاهرة. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٨٦ هـ ج ١ ص ١٩٢ وانظر أيضاً ص ١٩٥.

(٩) لا يعنى ذلك أن علماء العربية لم يحسوا بالفرق الصوتي أو الوظيفي لكل من الواو والياء وهي صوامت والضمة والكسرة والفتحة الطوال، التي يسميها علماء العربية حروف المد، فقد ذكر سيبويه في (باب الوقف في الواو والياء والألف) (ج ٢ ص ٢٨٥) ما يشير الى فهم جيد للطريقة التي يتم فيها إنتاج الحركات، واختلافها في ذلك عن بقية الأصوات، يقول: «وهذه الحروف غير مهموسات، وهي حروف لين ومد، ومخارجها متسمة لهواء الصوت وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها ولا أمد للصوت فاذا وقفت عندها لم تضمها بشفة ولا لسان ولا حلق كضم غيرها».

الطويلة الثلاث التي تشترك مع الهمزة والواو والياء الصوامت في رموز واحدة^(١٠)، وقد بيّنا في الفصل التمهيدي جانباً من تاريخ تطور رموز هذه الأصوات لتدل على أصوات الحركات إضافة إلى دلالتها في الأصل على أصوات صامتة، ولا يعني هنا بيان العلاقة بين هذه الأصوات التي - ربما - أدت إلى ذلك الاشتراك في الرموز^(١١).

ومع هذا فلعل بعضاً مما يؤخذ على علماء العربية في ذلك قد نتج عن إساءة فهم لكلامهم، خاصة إنا نجد بعضاً منهم قد قدم تصوراً صحيحاً وواضحاً لمشكلة رموز الكتابة العربية وعلاقتها بالأصوات - بغض النظر عما وقع فيه بعضهم من سقطات تاريخية لم تكن في أيديهم وسائل تجنبها - فهذا ابن درستويه يقول^(١٢): «إن حروف المعجم ثمانية وعشرون حرفاً، مختلفة الألفاظ، وصورها ثمانية عشرة صورة، لتشابه صور الحرفين منها والثلاثة... ولولا التشابه لكانت لكل حرف صورة... والذي لا صورة له مدّتان وهمزة، فإن مدّي الحرف المضموم والحرف المكسور لم توضع لهما صورة في المعجم، كما وضعت لمدة الحرف المفتوح الألف، ولكن كتبنا بصورة الواو والياء، كما كتبت التاء والتاء على صورة الياء، وكتبت الهمزة على صورة حروف اللين وعلى الحذف اتباعاً لتخفيفها في اللفظ». ورغم أننا نعرف الآن خطأ القول بكون رمز الألف في الأصل هو علامة للفتحة الطويلة، التي سماها ابن درستويه (مدة الحرف المفتوح)، لا الهمزة، فإن تصوّره للمشكلة وعلاقة الحركات الطويلة بالواو والياء صوتاً ورمزاً تصوّر صحيح لم يأت معه المحدثون مجديداً إلا في مسألة - رغم أهميتها - هي مسألة تاريخية. ولم ينفرد ابن درستويه بهذا الفهم، فهذا حمزة الاصفهاني يقول وهو يحاول أن

(١٠) انظر حقني ناصف ص ١١.

(١١) انظر بحثاً وافياً لذلك: الدكتور عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص (٣٩-٤٨).

(١٢) كتاب الكتاب ص ٦٤.

يقدم لنا ما يشبه ما يسميه المحدثون (الكتابة الصوتية الدولية)^(١٣): «ولو رام إنسان من أهل الزمان أن يضع كتابة سليمة من التصحيف جامعة لكل الحروف التي تشمل على جميع اللغات لزمه أن يضع أربعين صورة لأربعين حرفاً، منها ثمانية وعشرون حرفاً ما قد رسم بها هجاء العربية التي هي أب ت ج ح خ ... ومنها أربعة جارية في العربية على ألسن أهلها ولم يخصوها بصورة وهي: النون الغناء، والهمزة، والواو والياء اللينتان. فالنون الغناء هي التي تخرج من الفنة، وهي مثل نون (منذر) لأنها ليست من مخرج نون رسن. والهمزة مثل قرأ ورفأ ومثل أول حرف من أحمد لأنها ليست من مخرج ألف حامد. والواو والياء في (عمود وبعير) لأنها ليست من مخرج ياء (يزيد وزيد) وواو (واصل وصواب) ...».

ولعل الذي جلب الاضطراب في موقف علماء العربية من رموز الحركات الطويلة خاصة هو أنهم اعتبروا أن أصل الأبجدية وضع ليشمل الأصوات الصامتة وأصوات الحركات لكن الحقيقة - كما بيننا من قبل - أن الأبجدية وضعت أصلاً لتمثل الأصوات الصامتة وأن دلالتها على بعض أصوات الحركات الطويلة قد جاء بعد تطور استعمال رموز الأبجدية الصامتة للدلالة على تلك الحركات.

ونتيجة لذلك فقد حاول علماء العربية استكمال النقص الذي استشعروه في الأبجدية العربية لتكون شاملة لرموز الصوامت والحركات على السواء لكن محاولتهم جاءت ناقصة أيضاً، فبعد أن تم شيوع الترتيب الهجائي الجديد^(١٤)، الذي يجري على تجميع صور الحروف المتشابهة على نحو (أب ت ث ..) أقحم علماء العربية في نهاية ذلك الترتيب بين الواو والياء صورة (لا) فقالوا (.. هـ، و، لا، ي). يقول ابن جني^(١٥): «إن واضح حروف الهجاء لما لم يمكنه أن

(١٣) التنبيه على حدوث التصحيف ص ٣٣.

(١٤) سنشير إليه في الفصل الخامس، انظر ص (٥٧١).

(١٥) انظر سر صناعة الاعراب ج ١ ص (٤٨-٤٩).

ينطق بالألف التي هي مدة ساكنة، لأن الساكن لا يمكن الابتداء به، دعمها باللام قبلها متحركة ليتمكن الابتداء بها». فهذه هي الألف التي تقع في آخر حتى ومتى وفي حياة وزكاة^(١٦)، وقد رفض ابن درستويه إدراج (لام أَلَف) في الترتيب الهجائي، فيقول^(١٧): «وأما لام أَلَف فخارج من جملة حروف المعجم وصورها لأنها حرفان مقرونان». وقد تحدث علماء العربية عن علة اختصاص اللام من بين حروف العربية لتدعم الألف بعقل متخيلة بعيدة عن الواقع ولا تغني شيئاً^(١٨). ولعل شيوع صورة الألف واللام مقترنة في الكتابة العربية هو الذي جعلهم يدخلون تلك الصورة الشائعة في الترتيب الهجائي دلالة على الفتحة الطويلة، كذلك اختلف علماء العربية في أي الطرفين من (اللام أَلَف) هو صورة الألف والاخرى صورة اللام^(١٩).

وهذه المحاولة لتكميل الأبجدية جاءت ناقصة - كما ذكرنا - فقد ظل رمز كل من الواو والياء يدل على أربعة أصوات هي الواو والياء الصامتتان والفتحة والكسرة الحركتان الطويلتان (أو ما يسميه علماء العربية حروف المد)، ولذلك قال الاستاذ حفي ناصر^(٢٠): «والذي ذكر (لام أَلَف) في الحروف كان عليه أن يذكر (لام واو) و(لام ياء)». وربما كان ذلك المذهب من علماء العربية في الاقتصار على زيادة (لام أَلَف) دون أن يفعلوا ذلك مع الواو والياء نتيجة لعوامل صوتية تعود إلى طبيعة كل من الواو والياء وعلاقتها بالحركات الطويلة التي من جنسها، أو ربما تعود إلى عدم إدراك بعضهم حقيقة الفروق الصوتية

(١٦) الصولي ص ١٨٦.

(١٧) كتاب الكتاب ص ٦٩ وانظر أيضاً ص ٦٤.

(١٨) انظر ابن جني: سر صناعة الاعراب ص ٥٠. وانظر أيضاً الداني: المحكم ص ٢٠٠.

(١٩) انظر الداني: المحكم ص (١٩٧-١٩٩)، وكتاب النقط (له). مطبوع في آخر المقنع ص (١٤٤-١٤٥).

(٢٠) تاريخ الأدب ص ١١.

الدقيقة بين الحالتين^(٢١)، ولا يعني ذلك أن علماء العربية غابت عنهم الفروق الصوتية بين حالي الواو والياء، يقول الأزهري^(٢٢): «الواو والياء إذا جاءتا بعد فتحة قويتا وكذا إذا تحركتا كانتا أقوى». ويقول ابن يعيش^(٢٣): «إن الواو والياء إذا سكنتا وكان قبل كل واحد منهما حركة من جنسها كانتا مدتين كالألف». ولعل أوضح صور التمييز والفهم لطبيعة الحركات عامة واختلافها عن الصوامت ذلك الذي نجده في ما نقله أبو الحجاج البلوي عن ابن السيد - وعلينا أن نفهمه في ظل مدلولات المصطلحات القديمة - وهو^(٢٤): «قال ابن السيد

(٢١) انظر د. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ١ ص ٧٩. ويرى المستشرق برجستراسر (انظر التطور النحوي ص ٢٩-٣٠) أن نطق الواو والياء أو بالأحرى أوضاع أعضاء النطق الخاصة بنطقها مطابق تلك الخاصة بنطق الضمة والكسرة مطابقة تامة، لكنه يثبت فرقا واحداً بينها في الوظيفة الصوتية في مقطع الكلمة، وهو أن الضمة والكسرة تقع دائماً مركزاً للمقطع أما إذا وقعت طرفاً في المقطع سابقة لمركز المقطع أو لاحقة نسميها حينئذ واوا أو ياء. لكن الدكتور ابراهيم أنيس يشير (انظر الأصوات اللغوية ص ٤٢) الى أن الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى حين النطق بالياء يكون أضيّق منه في حالة النطق بالكسرة مما يترتب عليه أننا نسمع ذلك النوع الضعيف من الحفيف، فالياء لأنها تشتمل عند النطق بها على حفيف يمكن أن تعد صوتاً صامتاً، أما إذا نظر الى موضع اللسان معها فهي أقرب شَبهاً بصوت اللين (الكسرة) ولهذا اصطلح المحدثون على تسمية الياء شبه صوت اللين، والحالة مع الواو والضمة مثل الذي وصفنا في الياء مع الكسرة، وعلى ذلك فإنه إضافة الى الفرق في الوظيفة المقطعية بين الواو والياء من جانب الضمة والكسرة من جانب آخر هناك فرق ثان من حيث الطبيعة الصوتية، وأن في كل من الواو والياء من الحفيف ما يقربها من الأصوات الصامتة (وانظر تفصيلاً أكثر عن العلاقة بين الواو والياء والحركات التي من جنسها: د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٣٩-٤٨).

(٢٢) تهذيب اللغة ج ١ ص ٥٢. وانظر د. رمضان عبد التواب ص ٣٦٣.

(٢٣) ابن يعيش (يعيش بن علي): شرح المفصل. القاهرة. الطباعة المنيرية (د. ت)

ج ١٠ ص ٣٠ و ٩٩.

(٢٤) الف باج ١ ص (٣١٦-٣١٧).

رحمه الله: ليس في حروف المعجم حرف يبنى على السكون إلا الألف، وذلك أنها صوت لا مقطع له في شيء من الحلق والقم. وإنما بمنزلة الصوت الذي يخرج من البوق إذا لم يضع الزامر أصابعه على الثقب، فإذا وضع أصابعه على الثقب وداول بينها تقطع ذلك الصوت فصار نغمات، وكذلك الصوت المنقطع من الرئة إذا تقطع في الخارج صار حروفاً. يشارك الألف في هذه الصفة اختاها الموضوعتان للمد واللين، وهما الواو الساكنة المضموم ما قبلها في نحو عنقود والياء (الساكنة) المكسور ما قبلها في نحو قنديل، فإنها صوتان لا مقطع لهما كما لا مقطع للألف، غير أن الياء والواو قد يفتح ما قبلها فيذهب ما فيها من المد ويبقى اللين، في نحو ثوب وبيت، وقد يحركان فيذهب عنهما المد واللين معاً ويلحقان بالحروف الصحاح...». وقد تحدث ابن سينا كذلك عن الحركات الطويلة الثلاث ويسمياها المصوتات، وعن شريكاتها في الرسم من الحروف الصوامت بوضوح لا يقل عن وضوح كلام ابن السيد، وبدقة العالم الذي يتوقف عن القطع فيما لا ينضبط من أمر هذه الأصوات، حين يستعمل كلمة مثل (أظن)، وحين يصرح بمثل قوله «أمر هذه الثلاثة عليّ مشكل» (٢٥).

ورغم وجود هذا الاتجاه الصحيح في فهم طبيعة الحركات الطويلة وعلاقتها بالصوامت فإن الناظر في الدراسات التطبيقية: الصرفية والنحوية لعلماء العربية يفتقد بدرجة ملحوظة هذا التفريق الواضح بين الجوانب الصوتية لهذه الأصوات وبين الرموز المشتركة في الكتابة.

ثانياً: تمثيل الصوامت في الرسم العثماني:

علينا حين ننظر في الرسم العثماني لنرى مدى تمثيله للأصوات الصامتة أن نميز بكل وضوح وتحديد بين دلالة رموز الألف والواو والياء على كل من الهمزة والياء والواو الصوامت وبين دلالتها على الحركات الطويلة الثلاث، وإنما نقصد في

(٢٥) انظر ابن سينا (الرئيس ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا): أسباب حدوث الحروف. القاهرة، المطبعة السلفية ١٣٥٢ هـ ص (١٦-١٧).

هذا المبحث معالجة رموز الأصوات الصامتة، مرجئين ما سواها إلى المباحث التالية.

وأصوات العربية الصامتة التي جرى الكتاب على تمثيلها برموز كتابية هي: (المهزة ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي).

وقد تقدم أن الكتابة العربية قبل الرسم العثماني كانت تقتقر إلى التمييز بين رموز بعض الأصوات الصامتة المشتركة في رموز واحدة، وأرجعنا سبب هذه الظاهرة إلى أن الكتابة النبطية كانت تكتب بحروف منفصلة متميزة بعضها عن بعض في الفترات المبكرة من تاريخها، إلا أنه بتقدم الزمن مالت الحروف في الكلمة الواحدة إلى أن ترتبط برباط ساعد على أن تفتقد بعض الحروف صورتها المستقلة وتقترب من صور حروف أخرى، وأدى ذلك أيضاً إلى تعدد صورة الحرف الواحد تبعاً لاختلاف موقعه في الكلمة، وقد ظلت ظاهرة اشتراك بعض الأصوات الصامتة في رمز واحد في الكتابة العربية قائمة عندما استخدمها كتبة الوحي في تدوين النص القرآني، وحين نسخوا المصاحف العثمانية، واستمرت الحال كذلك إلى النصف الثاني من القرن الأول الهجري، على ما يرجح، وعلى ما سيتبين في فصل تال إن شاء الله. ولعل مما يشير إلى أن رموز الكتابة العربية كانت في يوم ما متميزة عن بعضها في الشكل ما نجده من اختلاف صور رموزها عندما تكون منفصلة أو في نهاية الكلمة.

على أن التشابه في صور رموز بعض الأصوات لم يكن يمثل عقبة في وجه القراءة الصحيحة للنص المكتوب، خاصة مع تمكن اللغة الفصيحة من نفوس الناس آنذاك، إلى جانب أن التلقين الشفهي كان الوسيلة الأولى قبل الكتابة لتلقي النص القرآني وحفظه وإذاعته.

ويبدو أن عملية استخلاص الأصوات التي خصها الكتاب برموز مستقلة كانت عملية لغوية تحليلية عميقة تستحق التأمل، خاصة أنها حدثت في وقت متقدم جداً من تاريخ الحضارة الانسانية، أي مع اختراع نظام الكتابة الهجائية.

القائم على أساس تخصيص رمز واحد لكل صوت من أصوات اللغة، وتظهر أهمية تلك العملية عندما نعلم أن اللغة المنطوقة التي يمثلها في الكتابة عدد محدود من الرموز تحتوي أضعاف تلك الرموز من الأصوات اللغوية المتميزة في النطق، وكان على الكاتب الأول أن يحتزل ذلك العدد الضخم من الأصوات التي يحاول تمثيلها في الكتابة إلى عدد أقل من الوحدات التي يطلق عليها في الدراسة اللغوية المعاصرة مصطلح (الفونيم phoneme)^(٢٦) والتي خصص لكل منها رمز خطي واحد، فالنون - مثلاً - اصطلاح شامل يدخل تحته عدد من الأصوات، كالذي في بداية (نحن) والذي قبل الثاء في (إن تاب) وقبل الظاء في (إن ظهر) وقبل الشين في (إن شاء) وقبل القاف في (إن قال) مع اختلاف واضح بين هذه الأصوات في المخرج، ولكن اصطلاح على تسمية هذا العدد من الأصوات باسم (النون)^(٢٧)، دون ان يخصص لكل منها - رغم اختلافها الظاهر في النطق - رمز معين، على نحو ما مر من مذهب حمزة الأصفهاني من نقص الكتابة العربية لرمز يقابل النون التي في (منذر)، بل أشير إلى كل تلك الأصوات برمز واحد، واعتبرت جميعاً أعضاء لعائلة واحدة، وكذلك الحال في أصوات اللغة الأخرى، فالشهور في مذاهب بعض القراء ترقيق الراء واللام في بعض السياقات وتقخيم الراء وتغليظ اللام في مواضع أخرى^(٢٨)، لكن ذلك لم يدفع إلى وضع رمزين لتمثيل كل من حالتي الراء واللام بل ظل رمز الراء دالاً على كلتا الحالتين، وكذلك اللام^(٢٩)، وما أدل قول صاحب (كتاب المباني) على هذه الفكرة اللغوية الحديثة حين يقول^(٣٠): «إن النون الواقعة قبل الباء،

(٢٦) انظر في معنى الفونيم والنظريات التي قامت حول تحديد مفهومه: د. محمود السمران ص ١٢١ وما بعدها ود. كمال محمد بشر: الأصوات ص (٢٠١-٢١٣).

(٢٧) د. تام حسان: مناهج البحث في اللغة ص ١٢٥.

(٢٨) انظر ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ٩٠ و ١١١.

(٢٩) انظر د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص ٦٦ و ٦٧.

(٣٠) مقدمة كتاب المباني (لمجهول) ص ١٤٧.

والنون الساكنة في قولهم (من بعد) و(العنبر) وشبهها كل واحد منهن الصوت فيه لفظة يشبه لفظ الميم، وهو غير مستعمل في الخط تغليباً لأصل النون».

ولكن ما المقياس الذي نميز به بين الصوت الذي يستقل برمز كتابي معين والآخر الذي يدخل في عائلة من الأصوات الفرعية التي يشار إليها كلها برمز واحد؟ إن الأصوات المنطوقة للغة ما تصنف عند دراستها إلى نوعين: نوع طارئ، وناتج عن اختلاف موضع الصوت، ونوع آخر أساسي ومهم من حيث المعنى^(٣١)، ويقوم التمييز بين الصوت الذي ينبغي تمثيله برمز كتابي والآخر الذي لا يمثل برمز بل يندرج تحت دلالة رمز صوت آخر - على الوظيفة اللغوية للصوت، أي على قدرته في تغيير معاني الكلمات^(٣٢)، فصوت الصاد - مسموع - مثلاً - في الإنجليزية في مثل Sun (الشمس) وson (ابن)، ولكنه لا يعد من فونيات هذه اللغة، وذلك لأنه لا يستخدم في الإنجليزية للتفريق بين المعاني، أي أنه لا توجد في الإنجليزية كلمتان لكل منهما معنى مستقل، وتطابق أصوات إحداها أصوات الأخرى إلا أنه يقابل السين في إحداها الصاد في الثانية، كما نجد في العربية (سبر) مقابل (صبر) ولذلك فالصاد في العربية فونيم، والسين فونيم. أما صوت الصاد المسموع في الإنجليزية فهو فرع من الفونيم المعروف بالسين^(٣٣).

وقد جرى الرسم العثماني على هذا الأصل العام في تمثيل أصوات اللغة برموز معينة وفقاً لدورها في تغيير معاني الكلمات دون النظر إلى ما قد يحدث للصوت من تغير في صفاته حين يقع في سياق كلامي، فالأصوات اللغوية يتأثر بعضها ببعض في المتصل من الكلام، فحين ينطق المرء بلفظه نطقاً طبيعياً لا تكلف فيه، نلاحظ أن أصوات الكلمة الواحدة قد يؤثر بعضها في البعض الآخر، كما نلاحظ أن اتصال الكلمات في النطق المتواصل قد يخضع أيضاً لهذا التأثير^(٣٤)، ولكن

(٣١) انظر د. خليل إبراهيم حماش ص ٥١١.

(٣٢) انظر د. كمال محمد بشر: الأصوات ص ٢٠٣.

(٣٣) انظر د. محمود السمران ص (١٢٢-١٢٣).

(٣٤) انظر د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص ١٧٩.

نجد أن ما قد يصيب الصوت في الكلام المنطوق من صفات الجهر أو الهمس أو انتقال المخرج أو تغير مجرى الهواء لا يغير من صورة رمز ذلك الصوت شيئاً، إلا أن تلك العملية التي يميز بها الكاتب ما قد يطرأ على الأصوات من تغير في السياق لا يصاحبه تغير في الرمز إن هي إلا عملية متصورة قد لا يصرف لها من جهده الواعي كثيراً من الوقت، ويظل يسير على ما تعوده من أصول الكتابة وقواعدها، ولكن قد يستجيب الكاتب إلى ما يسمع من أصوات اللغة في الكلام المنطوق فيدونها على نحو ما يسمعا، دون الالتفات إلى أصل بناء الكلمة، وهذا ما نلجده في كتابة بعض الكلمات في المصحف موصولة بغيرها مع تغير بعض رموزها تبعاً لما طرأ على أصواتها من تأثير بما جاورها من أصوات، فمن ذلك - مثلاً - (عن ما) و(من ما) و(عن من) و(ان لم) و(ان لن) ونحوها، فقد جاءت في بعض المواقع موصولة - كما سنفصل ذلك فيما بعد - مع تغير رمز النون إلى رمز الميم أو اللام المدغم في مثله والمكتوب برمز واحد، تبعاً للمنطوق فعلاً من أصوات تلك الكلمات.

ويبدو هذا الاتجاه مقبولاً من حيث عوملت هذه الكلمات معاملة الكلمة الواحدة لصغر حجمها إلى جانب الاستجابة للنطق الفعلي الذي انقلب فيه الصوت الصامت من آخر الكلمة الأولى إلى جنس الصوت التالي له من الكلمة الثانية، على حسب قاعدة الادغام في اللغة العربية، وصاروا حرفاً مشدداً، ومن ثم جرى الكاتب فيه على نحو ما جرت عليه القاعدة في الكتابات السامية من كتابة الحرف المشدد برمز واحد.

وكتابة الحرف المشدد أو المدغم - وهو على حد تعبير ابن يعيش « أن تصل حرفاً ساكناً بحرف مثله، من غير أن تفصل بينها بحركة أو وقف، فيصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد، يرتفع اللسان عنها رفعة واحدة شديدة، فيصير الحرف الأول كالمستهلك »^(٣٥) - برمز كتابي واحد إنما يتم - على ما يبدو -

(٣٥) شرح المفصل ج ١٠ ص ١٢١.

استجابة لحقيقة النطق الفعلي، وقد اختلف علماء السلف في سبب ذلك بين التعليل بكرة إجتماع صورتين متفتحتين في الخط^(٣٦)، وبين عمل اللسان فيه عملاً واحداً^(٣٧).

وقد جرى كتابة المصحف على هذه القاعدة العامة التي تحتم كتابة الحرف المشدد أو المدغم برمز خطي واحد في معظم الأحوال، لكن الكاتب قد يجد نفسه في بعض الأحيان متردداً بين أن يلتزم بأصل كتابة الكلمة وبين أن يستجيب لواقع نطقها في السياق، ولهذا فقد جاءت بعض الكلمات التي أولها لام ودخلت عليها (أل) المعرفة - مكتوبة بلامين في الغالب ولام واحدة في بعض الأحيان، فقد كتبت الكلمات الآتية بلامين: اللنون، اللعنة، اللغو، اللهو، اللؤلؤ، اللت، اللم، اللهب، اللطيف، اللوامة، وكذلك لفظ الجلالة ﴿الله﴾ ومثله ﴿الهم﴾. وجاءت كلمات أخرى بلام واحدة مثل: (اليل)، وبعض الاسماء الموصولة، مثل: الذي والذان والذين والتي والتي^(٣٨). وقد اختلف في أي اللامين هي المحذوفة من هذه الكلمات التي كتبت بلام واحدة، فيقول الداني^(٣٩): «والمحذوفة عندي هي اللام الأصلية، وجائز أن تكون لام المعرفة لذهابها بالادغام وكونها مع ما ادغمت فيه حرفاً واحداً». ولا يترتب على ذلك الاختلاف شيء عملي، وربما كانت إثارة ذلك التساؤل في غير محلها، إذ إننا في حالة الحرف المشدد لا نفكر في رمز أي الصوتين حذف بل نقنع بدلالة الرمز

(٣٦) انظر ابن درستويه ص ٣٣، والداني: المقنع ص ٦٧ وسليمان بن نجاح لوحة ٦، والشيرازي (محمد بن محمود): كشف الأسرار في رسم مصاحف الأمصار. مخطوطة في مكتبة الأوقاف ببغداد لوحة ٢١ وانظر أيضاً القلقشندي ج ٣ ص ١٨٤.

(٣٧) التنسي ورقة ٨٤ ب.

(٣٨) انظر المهدي ص ١١٧. والداني: المقنع ص ٦٧. وسليمان بن نجاح لوحة ٦، والعقيلي لوحة ٢.

(٣٩) الداني: المقنع ص ٦٧.

المكتوب على كلا الصوتين اللذين يكادان لشدة اتصاها أن يكونا صوتاً واحداً^(٤٠).

ومما يتعلق بموضوع تأثير الأصوات بمجاورتها لغيرها، فيجري الكاتب في الكتابة على نحو ما ينطق به، إقتران السين والطاء في كلمة واحدة، ولما كانت الطاء مطبقة والسين غير ذلك والأصوات تميل - غالباً - إلى التماثل والتقارب في الصفات النطقية فقد يغلب الإطباق على السين فتصير سيناً مطبقة أي صاداً. وهنا يجد الكاتب نفسه بين أن يستجيب للنطق أو يلتزم بالأصل المعروف لأصوات الكلمة، « وقد أجاز النحويون في كل سين وقعت بعدها غين أو خاء معجمتان أو قاف أو طاء أن تبدل صاداً^(٤١) ». ويقول المبرد إن السين إذا كانت مع أحد الحروف المستعلية في كلمة « جاز قلبها صاداً، وكلما قرب منها كان أوجب^(٤٢) ». ولذلك فقد جاءت بضعة كلمات في الرسم العثماني مكتوبة بالصاد على ما آلت إليه في النطق، من ذلك (المصيطنون) في الطور (٣٧/٥٢) و(بمصيطن) في الفاشية (٢/٨٨)^(٤٣). و(الصراط)^(٤٤)، ومنها ما جاء بالسين في الغالب مثل (يسط) وبالصاد في مكان واحد (بيسط) في البقرة (٢/٢٤٥)^(٤٥)، ومنها ما جاء بالسين مرة مثل (بسطة) في البقرة (٢/٢٤٧)، وبالصاد مرة أخرى (بصطة) في الأعراف (٦٩/٧)^(٤٦).

(٤٠) انظر د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص ١٨٨.

(٤١) البطليوسي ص ٢٠٣.

(٤٢) المقتضب ج ١ ص ٢٢٥.

(٤٣) انظر الداني: المقنع ص ٩٢.

(٤٤) ابن مجاهد ص ١٠٧، وانظر أبو حاتم الرازي ج ٢ ص ٢١٥ ود. ابراهيم أنيس: في اللهجات العربية ص (١٢٨-١٣٠).

(٤٥) ابن أبي داود ص ١٠٦ والداني: المقنع ص ٨٤.

(٤٦) انظر ابن أبي داود ص ١٠٨ والداني: المقنع ص ٨٥. وانظر أيضاً الزركشي ج ١ ص ٤٢٩.

وما قد يتعلق بالظاهرة المشار إليها أيضاً مجيء كلمة (نجى) في قوله تعالى (الانباء ٨٨/٢١) ﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ مكتوبة بنون واحدة^(٤٧). ومثلها ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ (يوسف ١١٠/١٢) وقراءة معظم القراء لها بنونين الأولى مضمومة والثانية ساكنة، وقراها بعضهم بنون واحدة^(٤٨)، وقد علل علماء السلف حذف صورة النون الثانية - إن لم تكن قد كتبت على القراءة الاخرى - بأنها لما كانت ساكنة وتلاها الجيم فإنها - كما يقول الفراء - «تخفى ولا تخرج من موضع الأولى، فلما خفيت حذفت، ألا ترى انك لا تقول فننجي بالبيان، فلما خفيت الثانية حذفت، واكتفى بالنون الأولى منها، كما يكتفى بالحرف من الحرفين فيدغم ويكون كتابها واحداً»^(٤٩). ولكن الفراء هنا جعل النون الباقية في الرسم تقوم مقام المحذوفة كالدغم، والصواب ان النون الأولى لا تعلق لها بالثانية لوجود الضمة بينهما، ويكون ما ينقله ابن قتيبة في ذلك «بأن النون تخفى عند الجيم فأسقطها كاتب المصحف لحفائها وبنية إثباتها»^(٥٠) أكثر دقة واحتمالاً للصواب، إلا أن ذلك لا يمنع أن يكون الكاتب حين أحس بضعف النون قد استأنس بالمشبهة عن المحذوفة، ورغم أن التأثير هنا بين النون والجيم لا يرقى إلى درجة التأثير في حالة الادغام الذي يوجب كتابة الصوتين المدغمين برمز واحد، فإن ورود كلمتي ﴿إِنْ جَاءَ كَمْ﴾ في الأعراف (٦٩/٧) موصولتين في مصحف طشقند (النجام) بسبب الاخفاء الذي لحق النون الساكنة حين لقيت الجيم قد يؤيد القول بأن النون الثانية حذفت بسبب الاخفاء الذي لحقها، وفي رواية ينقلها أبو عمرو الداني - رغم أنه يردّها - أن النون قد حذفت في بعض المصاحف على نحو ما حذفت من (تنجى) في قوله تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

(٤٧) ابن أبي داود ص ١١٠. والداني: المقنع ص ٨٧.

(٤٨) الداني: التيسير ص ١٣٠ و ١٥٥، والدمياطي ص ٢٦٨ و ٣١١.

(٤٩) الفراء: معاني القرآن ج ٢ ص ٥٦، وانظر أيضاً ج ٢ ص ٢١٠.

(٥٠) تأويل مشكل القرآن ص ٣٩، وانظر ابن مجاهد ص ٣٥٢.

(يونس ١٠/١٤) (٥١). ولعل حذف النون من (لننظر) قد كان بسبب إخفائها أيضاً، وربما يدخل هذان المثالان كظاهرة هجائية في باب استجابة الكاتب لما هو منطوق على نحو ما بينا قبل قليل، ولعل ندرة أمثلة هذه الظاهرة - إن صح هذا الفهم لها - يرجع إلى أن التأثير هنا محدود، ومن ثم لم يجد الكاتب دافعاً قوياً لتغيير الرمز كما لم يغير أو يحذف رمز النون في كلمة مثل (منذر).

ثالثاً: أثر الوقف على رموز بعض الصوامت:

ردد علماء السلف كثيراً أن الأصل في كتابة الكلمة هو أن تكتب بصورة لفظها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها (٥٢)، لكن للحروف الموقوفة عليها أحكاماً تغاير أحكام المبدوء بها، فالموقوف عليه يكون ساكناً في الغالب والمبدوء به لا يكون إلا متحركاً (٥٣) لأن الوصل مما تجري فيه الأشياء على أصولها، والوقف من مواضع التغيير (٥٤)، ومن ثم فقد تعددت صور الوقف على أواخر الكلمات، ولحق بعض الأصوات المتطرفة بعض التغيير في حالة الوقف، ولا شك أن ذلك التغيير ينعكس على رموز تلك الكلمات، فنجد الكاتب يستجيب - في الغالب - لنطق الكلمة وهي موقوفة عليها، دون الالتفات إلى نطقها وهي في درج الكلام المتصل.

وهذا الاتجاه يفسر لنا بضع ظواهر تتعلق برسم مجموعة من الصوامت حين تقع في أواخر الكلمات الموقوفة عليها، تتلخص في كتابة التنوين المفتوح ما قبله ألفاً، وكتابة تاء التانيث تاء مرة وهاء أخرى، ثم إثبات هاء السكت في بعض المواضع.

(٥١) المقنع ص ٩٠.

(٥٢) انظر الفصل التمهيدي ص ٨٢.

(٥٣) انظر ابن يعيش ج ٩ ص ٦٧.

(٥٤) انظر ابن جنّي: سر صناعة الاعراب ج ١ ص ١٧٦. وابن يعيش ج ٩ ص ٨١.

١ - رسم التنوين ألفاً:

أما التنوين^(٥٥) الذي يلحق أواخر الأسماء للصرف^(٥٦)، فإنه يحذف في الوقف في حالتي كون الاسم مرفوعاً أو مجروراً، لكنه في حالة النصب يحذف وتخلفه الألف (الفتحة الطويلة) عند الوقف صوتاً وكتابة، وقد علل عدم إثبات التنوين نوناً في الرسم بكونه ليس من أصل بناء الكلمة، وإنما جاء زائداً لمعنى، فحذف فرقاً بين النون الزائدة والأصلية^(٥٧)، ووصف ابن جني الألف التي خلفت التنوين بأنها عوض عنه في الوقف^(٥٨)، وقيل هي بدل منه^(٥٩)، ومهما قيل في ذلك فإن السبب الأول لإثبات الألف في الرسم هو ثبوتها في اللفظ عند الوقف في حالة المنصوب دون ثبوتها أو ثبوت التنوين في حالتي الرفع والجر عند الوقف، فحذف التنوين دون أن يخلفه شيء في الرسم أو اللفظ على السواء^(٦٠).

(٥٥) التنوين هو في الحقيقة نون ساكنة كما أشار الى ذلك علماء العربية (انظر سيبويه ج ٢ ص ١٤٧) وابن جني: سر صناعة الاعراب (المخطوط) ورقة ١٧٧ ب. والداني: (المحكم ص ٥٧) وكما أكدته التجارب العملية الحديثة (انظر: عوض المرسي جهاوي: ظاهرة التنوين في اللغة العربية، رسالة ماجستير مقدمة لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ١٩٦٧ ومحفظة في مكتبة الجامعة ص ٣٤).

(٥٦) انظر سيبويه ج ٢ ص ٢٨١ وابن جني: المصدر السابق نفس الموضوع.

(٥٧) انظر سيبويه ج ٢ ص ٢٨١. وابن جني نفس المصدر ورقة ١٧٨/أ. والداني: المحكم ص ٥٩.

(٥٨) سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٨٤.

(٥٩) ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ١٣٣، ود. تمام حسان: اللغة العربية ص ٢٧٢.

(٦٠) يقول الزركشي (البرهان ج ١ ص ٦٩): إن مبنى الفواصل على الوقف، ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور، وبالعكس، وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (الصافات ١١/٣٧) مع تقدم قوله ﴿عَدَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ (آية ٩)، و ﴿شِهَابٌ مُنْقَلَبٌ﴾ (آية ١٠). وكذا ﴿بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (القمر ١١/٥٤) و ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ (آية ١٢) وكذا ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْوَالِدِ﴾ الرعد ١١/١٣ مع ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ﴾ (آية ١٢).

وأمثلة هذه الظاهرة في الرسم العثماني أكثر من أن تستقصى هنا، ويكفي أن ننظر في أول سورة الكهف مثلاً لنجد فيها من هذه الظاهرة (عوجاً، قياً، بأساً شديداً، أجراً حسناً، أبداً، ولداً، كذباً، أسفاً... الخ)^(٦١).

ومما يشبه التنوين في حالة النصب في كونه نوناً ساكنة مفتوحاً ما قبلها ويخلفها في الوقف ألف لفظاً وكتابة - نون التوكيد الخفيفة، فهي في الفعل بمنزلة التنوين في الاسم، فإذا كان ما قبلها مفتوحاً أبدلت منها الألف^(٦٢)، فتكتب في الخط ألفاً لأنها أشبهت التنوين^(٦٣)، وقد جاء من ذلك في المصحف موضعان إجمعت المصاحف على رسم النون الخفيفة فيها ألفاً^(٦٤)، وهما في يوسف (٣٢/١٢) ﴿.. وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، وفي العلق (١٥/٩٦) ﴿.. لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾. ومما كتب بالألف، مثل التنوين المنصوب، كلمة (إذن)، ويبدو أنها كانت يوقف عليها بالألف فجاءت مرسومة في المصحف كذلك حيث وقعت^(٦٥)، في

(٦١) كتبت (تترا) (المؤمنون ٤٤/٢٣) بالألف على قراءة من نون أو على لفظ التخميم (الداني: المقنع ص ٤٤ والتيسير (له) ص ٦٥٩)، وانظر أيضاً الفراء: معاني القرآن ج ٢ ص ٢٣٩.

(٦٢) انظر سيويه ج ٢ ص ١٥٤. والمبرد ج ٣ ص ١٧، وآبن يعيش ج ٩ ص ٨٨.
(٦٣) انظر ابن خالويه (الحسين بن أحمد): كتاب اعراب ثلاثين سورة، حيدر آباد. جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٩٤١ ص ١٤٠، والعقيلي لوحة ١١.

(٦٤) الداني: المقنع ص ٤٣ و ١٠١.

(٦٥) الداني: المقنع ص ٤٣، ويقول السيوطي: الجمهور على أن الوقف عليها بالألف، وعليه اجماع القراء (انظر الاتقان ج ٢ ص ١٥٤) ولكن حين جاء علماء العربية يأخذون أصول قواعد الهجاء من الرسم العثماني اختلفوا في كتابتها بالنون أو بالألف، وقد مال جمهور النحاة الى كتابتها بالنون، وجمهور أهل الرسم على كتابتها بالألف (انظر ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٥٤ وابن درستويه ص ٤٩ والبطلوسي ص ١٦٦) وخير من مثل ذلك التعارض أبو عبد الله بن معاذ الجهني (انظر كتاب البديع ورقة ٢٦٣ أ) حين يقول «وحكي عن علي بن سليمان عن المبرد أنه قال: لا يجوز أن تكتب (اذن) الا بالنون وقال اني لأشتهي أن أقطع يد من =

مثل: ﴿.. وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء ١٧/٧٦)، و﴿.. فَأِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَصِيرًا﴾ (النساء ٤/٥٣)، و﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ..﴾ (الإسراء ١٧/٧٥)، و﴿.. قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا..﴾ (الأنعام ٦/٥٦).

وسوف نلاحظ أن لتناسب الوقف على رؤوس الآي أثرًا في إثبات وحذف رموز الحركات الطويلة، ونجد هذه الظاهرة هنا في أمثلة معدودة حين تأتي أواخر الآيات منتهية بألف هي عوض التنوين عند الوقف، فثبتت الألف في كلمات وقعت في أواخر الآيات بالرغم من اتصال (ال) المعرفة بها، والتي لا يجتمع معها التنوين في اسم واحد، وذلك لأن القراءة جاءت بإثبات الألف فيها، حرصاً على التناسب الصوقي عند وقوف القارئ على رؤوس الآيات المنتهية بالألف التي تحلف التنوين عند الوقف، وذلك في قوله تعالى (الأحزاب ٣٣/٦٤-٦٨): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، ومثله أيضاً قوله سبحانه في نفس السورة (آية ١٠): ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾، فقد جاءت الألف ثابتة في ﴿الظنون والرسول والسبيل﴾^(٦٦)، رغم اقترانها بالألف واللام التي للتعريف. ولا شك في أن هذه الألف ليست عوضاً من تنوين وإنما جاءت لتجري القراءة على سنن واحد في كل رؤوس آي السورة، خاصة إذا عرفنا أن كل رؤوس آيها وعددها (٧٣) تنتهي بالألف التي هي عوض التنوين إلا في آية واحدة وهي قوله سبحانه (آية ٤) ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ فقد جاءت كلمة ﴿السبيل﴾ من غير ألف، وقد كان من المحتمل أن تأتي مرسومة - إن صح

= يكتبها بألف. قال أبو عبد الله: «وقوله مردود غير مأخوذ به. بل يجب قطع يد من يكتبها بالنون في المصحف لمخالفة السواد».

(٦٦) انظر ابن أبي داود ص ١١١، وأبو بكر الانباري ج ١ ص ٣٧٤. والمهدوي ص ٩٥. والداني: المقنع ص ٣٩.

القياس هنا - بالألف أيضاً مثل الكلمات الثلاث الأخرى، لكن مجيئها بدونها دليل على أن هذه الألف ليست لازمة إنما هي مزيدة لما أشرنا إليه^(٦٧)، وقد قرأ كل من نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر الكلمات الثلاث (الظنون والرسولا والسبيلا) بإثبات الألف وصلًا ووقفًا، وقرأ ابن كثير وحفص والكسائي وخلف بإثباتها في الوقف دون الوصل، وقرأها أبو عمرو وحمة بدون الألف في الحالين^(٦٨).

وقد جاءت الألف التي هي عوض التنوين مثبتة في كلمة (سلاسل)^(٦٩) في قوله تعالى (الانسان ٤/٧٦) ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلِيلًا وَأَغْلَلَ وَسْعِيرًا﴾ واختلفت المصاحف في إثبات الألف في كلمة (قوارير)^(٧٠) الثانية من قوله تعالى (الانسان ١٥/٧٦ - ١٦): ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ وقد اختلفت القراءة فيها بين التنوين وصلًا وإثبات الألف وقفًا وبين عدم التنوين وحذف الألف وصلًا وعدم التنوين وإثبات الألف أو حذفها وقفًا^(٧١).

وحين تلتقي الألف التي هي عوض التنوين بألف أخرى في آخر الكلمة فإن الرسم العثماني جرى على إثبات ألف واحدة، طبقاً للقاعدة التي أكثر علماء السلف من التعليل بها، وهي كراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الخط، وذلك حين يكون آخر الكلمة همزة منصوبة قبلها ألف نحو (ماءً، غناءً، جفاءً، سواءً) وما كان مثله. وقد اختلف في المحذوف من الألفين، فيجوز أن تكون التي قبل الهمزة، ويجوز أن تكون المعوضة من التنوين^(٧٢)، وسنشير - فيما

(٦٧) انظر الزمخشري: الكشاف ج ٣ ص ٤١٧.

(٦٨) انظر الديمياطي ص ٣٥٣.

(٦٩) انظر ابن أبي داود ص ١١٥. والداني: المنع ص ٣٩.

(٧٠) انظر الفراء: معاني القرآن ج ٣ ص ٢١٤. والداني: المنع ص (٣٨-٣٩).

(٧١) انظر الديمياطي ص (٤٢٨-٤٢٩).

(٧٢) انظر المهدي ص ١٠٩. والداني: المنع ص ٢٦.

سيأتي - إلى حالات تنازع الهمزة والفتحة الطويلة على صورة الألف التي يطلبها كل منها صورة له .

وقد ذكر علماء الرسم أن التنوين كتب نوناً في الخط في كلمة واحدة، وهي (كأين) في سبعة مواضع^(٧٣)، ولم يكتب في القرآن تنوين إلا في هذا الحرف^(٧٤)، وذلك على مراد الوصل دون الوقف، والمذهبان قد يستعملان في الرسم دلالة على جوازها فيه، كما يقول الداني^(٧٥).

٢ - رسم تاء التأنيث في الأسماء هاء:

أما كتابة تاء التأنيث التي تلحق الاسماء تاء مرة وهاء مرة أخرى فقد ورد ذلك في الرسم العثماني وفي أكثر من كلمة، فمن ذلك:

كلمة (رحمة) وردت في المصحف (٧٩) مرة، وجاءت مرسومة بالهاء إلا سبعة مواضع فقد رسمت فيها (رحمت) بالتاء^(٧٦).

ومثلها كلمة (سنة) وردت (١٣) مرة، وجاءت مرسومة بالهاء إلا خمسة مواضع، رسمت فيها (سنت) بالتاء^(٧٧).

وكلمة (نعمة) وردت (٣٤) مرة، وجاءت مرسومة بالهاء إلا أحد عشر موضعاً. رسمت فيها (نعمت) بالتاء^(٧٨).

وكذلك كلمة (امراة) وردت (١١) مرة، وجاءت مرسومة بالهاء إلا سبعة مواضع، رسمت فيها (امرات) بالتاء^(٧٩).

(٧٣) (١٤٦/٣)، و(١٠٥/١٢)، و(٤٥/٢٢)، و(٤٨)، و(٦٠/٢٩)، و(١٣/٤٧)، و(٨/٦٥).

(٧٤) كتاب الهجاء لمجهول لوحة ١٥.

(٧٥) المقنع ص ٤٤.

(٧٦) انظر أبو بكر الانباري ج ١ ص ٢٨٣، والمهدوي ص ٧٦، والداني: المقنع ص ٧٧.

(٧٧) انظر أبو بكر الانباري ج ١ ص ٢٨٣، والمهدوي ص ٧٧، والداني: المقنع ص ٧٨.

(٧٨) انظر نفس المصادر ج ١ ص ٢٨٤، وص ٧٦، وص ٧٧ على التوالي.

(٧٩) انظر نفس المصادر ج ١ ص ٢٨٠، وص ٧٧، وص ٧٨.

وكذلك جاءت لفظة (كلمة) مرسومة بالهاء إلا موضعاً واحداً رسمت فيه (كلمت) بالتاء، وجاءت أيضاً مرسومة بالتاء في أربعة مواضع أخرى، لكن مما اختلفت فيه القراءة، بالجمع والافراد^(٨٠).

ورسمت (لعة) و(معصية) بالهاء إلا موضعين رسمتا فيها بالتاء^(٨١).

وجاءت بضع كلمات مرسومة بالتاء في موضع واحد مثل (شجرت، وقرت، وثمرت، وبقيت، وجنت، وايت، وبينت، وفطرت) وغيرها^(٨٢).

وإذا كانت بعض هذه الأمثلة مما وردت فيه القراءة بالجمع حيث يصبح رسمها بالتاء أمراً طبيعياً فإن معظمها لم يقرأ إلا بالافراد^(٨٣)، ومن ثم فقد حاول العلماء إيجاد تعليل لرسمها بالوجهين، وكان لعلماء العربية وعلما الرسم والقراءات محاولات في العثور على ذلك التفسير، وكانت خطى الجميع متقاربة في هذا الميدان إلا أن الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه قد أغربا في ذلك، وربما جانبا الحقيقة والصواب حين عللا تغير تاء التانيث في الوقف إلى الهاء «ليفارقوا بينها وبين الأصلية في بناء الكلمة»^(٨٤)، رغم أن التاء هي الأصل عندها^(٨٥).

وقد اتفق معظم علماء العربية على أن التاء هي الأصل في علامة التانيث وأن الهاء تخلفها في الوقف^(٨٦)، فجاءت معظم الأمثلة لذلك مرسومة بالهاء،

(٨٠) انظر نفس المصادر ج ١ ص ٢٨٦، ٧٨، و ص ٧٩.

(٨١) انظر نفس المصادر ج ١ ص ٢٨٦، و ص ٧٧-٧٨، و ص ٨٠.

(٨٢) انظر المهدي ص ٧٨. والداني ص ٨٢.

(٨٣) انظر ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها. وانظر أيضاً ابن وثيق الاندلسي لوحة ١١.

(٨٤) الأزهري ج ١ ص ٥٠، وانظر سيبويه ج ٢ ص ٢٨١.

(٨٥) المهدي ص ٨٠.

(٨٦) انظر المبرد ج ١ ص ٦٣. وابن جني: سر صناعة الاعراب ج ١ ص ١٧٦، وابن

يعيش ج ٩ ص ٨١.

ولكن قد روي عن بعض النحويين قولهم إن الهاء في المؤنث هي الأصل في
الاسماء، ليفرقوا بينها وبين الأفعال، فتكون الاسماء بالهاء والافعال بالتاء^(٨٧).
لكن عامتهم يردون هذا المذهب للزوم التاء في الوصل الذي تجري فيه الأشياء
على أصولها^(٨٨).

ولما كان الأصل أن تكتب الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها
والوقف عليها أصبحت القاعدة العامة في رسم تاء التأنيث أن تكتب بالهاء،
وقد حاول علماء السلف تعليل ما ورد مرسوماً بالتاء مما مر ذكره قبل قليل. وقد
انحصرت تفسيراتهم في كتابتها على الأصل الذي هو التاء، أو كتابتها على مراد
الوصل^(٨٩)، فيقول أبو بكر الأنباري^(٩٠): « وإنما كتبوها في المصحف بالهاء لأنهم
بنوا الخط على الوقف، والمواضع اللاتي كتبوها بالتاء الحجة فيها أنهم بنوا الخط
على الوصل ». وينقل المهدي أن بعض العلماء زعم أن ذلك من المملي
والكاتب، فإن المملي كان إذا وصل الكلمة، التي فيها هاء التأنيث بالكلمة التي
تليها، انقلبت الهاء تاء في الأدراج فكتبها الكاتب على اللفظ بها في الوصل،
وإذا قطع الكلمة مما بعدها فقال (رحمه الله) كان لفظه بالهاء، فكتب الكاتب
بالهاء على لفظه^(٩١).

واختلف القراء في الوقف على ذلك فكان أكثرهم يقف بالتاء على ما كتب
من ذلك بالتاء ويقول الوقف على ما في المصحف لا يتعدى، فما كان في المصحف
بالتاء وقفت عليه بالتاء وما كان بالهاء وقفت عليه بالهاء، وقال آخرون أنت مخير
إن شئت وقفت على كل هاء للتأنيث في كتاب الله عز وجل بالهاء، وإن شئت

(٨٧) ابو بكر الانباري ج ١ ص (٢٨٢-٢٨٣). وعلم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ٦٨
أ. والجمعري ورقة ٢٨٤ أ.

(٨٨) ابن جني سر صناعة الاعراب ج ١ ص ١٧٦. وانظر ابن عيمش ج ٩ ص ٨١.

(٨٩) الداني: المقنع ص ٧٧. والجمعري ورقة ٢٩١ ب.

(٩٠) كتاب ايضاح الوقف والابتداء ج ١ ص ٢٨٧.

(٩١) انظر كتاب هجاء مصاحف الامصار ص (٧٩-٨٠).

وقفت بالتاء، فإذا وقفت بالهاء احتججت بأنك مرید للسكت، وإذا وقفت بالتاء احتججت بأنك مرید للوصل^(٩٢).

ولعل من وقف على تاء التأنيث بالتاء ورسمها كذلك يكون جارياً على لغة طائفة من العرب، إذ يقول سيوييه^(٩٣): «وزعم أبو الخطاب أن ناساً من العرب يقولون في الوقف طلحت كما قالوا في تاء الجميع قولاً واحداً في الوقف والوصل»، وقيل إنها لغة طيء، يقولون: حمزت وطلحت، وروي أنهم نادوا يوم اليامة: يا أهل سورة البقرت، وتروى في ذلك بضعة أبيات من الشعر قد لزمتم فيها القافية المنتهية بتاء التأنيث التاء (مَسَلَمَت، الغَلَصَمَت، أَمَت)^(٩٤) وربما كتبت تاء التأنيث تاء في تلك المواضع على هذه اللغة^(٩٥).

تلك هي جهود علماء السلف في تحليل ظاهرة رسم تاء التأنيث في بعض المواضع بالتاء وفي معظمها بالهاء، وقد كان بالإمكان أن نكتفي بالقول معهم إن الكاتب كان إذا وصل الكلام كتب تاء وإذا وقف كتب هاء لولا أن بعض الظواهر في تاريخ اللغات السامية قد تم تحديد ملامح تطوره، مما شاركت فيه العربية أخواتها الساميات، وهو ما يساعد في تفهم تلك الظاهرة إن لم يضعها في إطار جديد، وذلك أن التأنيث في الساميات كلها لم تكن له علامة سوى التاء^(٩٦)، لكن هذه العلامة قد خضعت للتطور على مر الأيام، ويتجلى ذلك في

(٩٢) أبو بكر الانباري ج ١ ص ٢٨١. وانظر الداوي: التيسير ص ٦٠ والدمياطي ص ١٠٣.

(٩٣) الكتاب ج ٢ ص ٢٨١. وانظر الصولي ص ٢٤٩، وابن جني: سر صناعة الاعراب ج ١ ص ١٧٦، وابن فارس ص ١٩، وابن يعيش ج ٩ ص ٨١.

(٩٤) المهدي ص ٨٠، وانظر أيضاً ابن جني: سر صناعة الاعراب ج ١ ص ١٧٧. والخصائص (له) ط ٢. القاهرة. دار الكتب المصرية (١٩٥٢-١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٤.

(٩٥) انظر علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ٦٨ أ.

(٩٦) د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٨٣.

العربية على نحو ما بينه علماء السلف، وما لا نزال نشهده في الفصحى، من الوقف على تاء التأنيث بالهاء والاحتفاظ بها في الوصل تاء، ويبدو أن ذلك التطور لم يقف عند حد حلول الهاء محل التاء بل تجاوزه إلى أن تخلف الهاء حركة قصيرة أو طويلة على ما يرسمه النموذج الآتي لتطور تلك التاء^(٩٧):

at - ah - a - à - هنا - عند أولى مراحل ذلك التطور، وهي مرحلة الهاء^(٩٨)، لأنها هي التي تحمل إمكانية تفسير المشكلة التي نحن بصدددها، إذ بدأ الكتاب يكتبون التاء هاء على نحو ما يقفون عليها، لكن الكتابة كما ذكرنا في أكثر من مكان من هذا البحث، أقل استجابة لتمثيل الظواهر الجديدة في اللغة، وتميل إلى الاحتفاظ بصور الكلبات على حالتها رغم ما قد يطرأ عليها من تطور في النطق، فظلت تاء التأنيث ترسم تاء حتى في الوقف لكنها على المدى الطويل بدأت تستجيب للظاهرة الجديدة التي ربما بدأت تدخل مرحلة أخرى من التطور، وتعطينا الكتابة النبطية والكتابة العربية القديمة مؤشرات لمراحل ذلك التطور، فقد كانت الاسماء المؤنثة تكتب في النبطية بالتاء في معظم الأحوال مثل: خلت (خالة)، وملت (واثلة)، غزلت (غزالة)، ملكت (مليكة)، ريفت (رائفة).... الخ^(٩٩) وترينا بعض النقوش النبطية التي ترجع إلى القرن الثالث والرابع الميلاديين كلمة (سنة) مكتوبة بالتاء (سنت)^(١٠٠) كذلك نجد هذه الكلمة بالتاء في نقش حران (سنة ٥٦٨ م) ونقش القاهرة (سنة ٣١ هـ)، وما يلفت النظر في نقش القاهرة أنه بينما يحتفظ بهذا الشكل القديم لطريقة كتابة

(٩٧) نفس المصدر ص ٨٤.

(٩٨) ما بعد ذلك من مراحل انما نجد في لهجاتنا العربية الدارجة مما ليس له محل في دراستنا هذه (انظر جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية (مترجم) تونس: الجامعة التونسية ١٩٦٦ ص ٥٧).

(٩٩) انظر د. جواد علي ج ٧ ص ٣٠١.

(١٠٠) انظر خليل يحيى نامي ص ٦٦ نقش ١٧، وص ٦٧ نقش ١٨، وص ٦٧ نقش ١٩، وص ٧٠ نقش ٢١، وص ٧١ نقش ٢٢، وهو نقش النارة المؤرخ سنة (٣٢٨ م).

تاء التأنيث يقدم لنا في نفس الوقت الشكل الجديد وهو كتابتها بالهاء في كلمة (رحمة).

وبناء على ذلك يمكن القول بأن رسم تاء التأنيث بالتاء في تلك الكلمات المشار إليها يحتمل أن يكون احتفاظاً بالصورة القديمة لرسم تلك الكلمات - وهو ما أرجحه - رغم أن الاستعمال قد تجاوز المرحلة التي استندت إليها تلك الصورة، ويحتمل أنها تمثل نطقاً حياً لتلك الظاهرة التي تحتفظ بالتاء في حالة الوقف، إلا أن ذلك كله لا يمنع أن يكون الكاتب جرى في كتابة تلك الكلمات على وصل الكلام حيث تلفظ بالتاء ومع أنه من غير اليسير القطع هنا بأحد هذه الاحتمالات إلا أنه يجب أن يكون فهم تلك الظاهرة من خلال الاطار الذي يرسمه التطور التاريخي لها.

وقد اختلف في حقيقة الهاء التي تخلف تاء التأنيث في الوقف، فمن الباحثين من يذهب إلى أن هذه الهاء ما هي إلا امتداد للنفس مع فتحة تاء التأنيث التي تسقط في الوقف لأن العرب تنفر من الوقف على الفتحة، وسقوطها يجعل صيغة المؤنث تلتبس بصيغة المذكر، فأبقوا عليها لكن مع إمتداد النفس، فظهر كأنما هو صوت الهاء، وخيل للنحاة أن تاء التأنيث قد قلبت هاء، وهذه الهاء هي ما سماه النحاة في مواضع أخرى بهاء السكت^(١٠١)، ولكن مع التسليم بانتفاء العلاقة الصوتية بين التاء والهاء التي تتيح حدوث الإبدال أو القلب^(١٠٢)، فإن الهاء قد ثبتت في النطق بعد سقوط أو حذف التاء، أما كونها هاء للسكت وتوهمها النحاة منقلبة عن التاء فإن ذلك لا يغير من حقيقة كونها هاء، خاصة أن إثباتها هاء في الرسم العثماني قد جاء سابقاً لعصر النحاة حين كانت الكتابة تستجيب بمرونة أكثر لتسجيل الظواهر اللغوية بعيداً عن التحديد والقواعد المطردة التي قعدها النحاة، ويكفي للدلالة على أن هناك هاء تخلف

(١٠١) د. ابراهيم أنيس: من أسرار اللغة. ط ٣، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٦ ص ٢٢٠. وانظر أيضاً: في اللهجات العربية (له) ص (١٣٦-١٣٧).

(١٠٢) انظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٨٣.

التاء أن الكتاب في عصر نسخ المصاحف أثبتوها هاء استجابة لواقع صوتي مسموع.

٣ - هاء السكت في الرسم العثماني:

والملاحظة الاخيرة تنقلنا إلى الكلام عن ظاهرة تتعلق بزيادة هاء في نهاية هجاء بضع كلمات وردت في الرسم العثماني، وقد عرفت تلك الهاء عند علماء العربية بهاء السكت، أما الكلمات التي لحقتها تلك الهاء فإنها سبع هي في (١٠٣): (لم يتسنه، اقتده، كتابيه، حساييه، ماليه، سلطانيه، ماهيه) (١٠٤).

وقد أشرنا من قبل إلى أن القاعدة العامة في اللغة العربية هي الوقف بالسكون، أي أنها تكره الوقف على المقطع المفتوح (١٠٥)، ولهذا فإن الحركات القصيرة في آخر الكلمات غالباً ما تسقط عند الوقف، إلا أن بعض الكلمات المبنية قد تنتهي بحركة متوغلة في البناء - حسب تعبير النحاة (١٠٦) - فتلزم في الوقف كما لزم في الوصل، لكن العربي كما قلنا ينفّر من الوقف على المقطع المفتوح، فيطيل نفسه بعد هذه الحركة بحيث تتولد هاء، فيكون ذلك إمارة على أن الحنجرة قد لفظت آخر أصواتها الكلامية (١٠٧)، وتكون وظيفة هذه الهاء تبين الحركة التي قبلها (١٠٨)، وجملة القول في ذلك هو أن الغالب الشائع في اللغة

(١٠٣) انظر ابن خالويه: إعراب ثلاثين سورة: ص ١٦٤.

(١٠٤) وهي في (البقرة ٢/٢٥٩، والانعام ٦/٩٠، والحاقة ٦٩/١٦ و ٢٥، والحاقة أيضاً ٦٩/٢٠ و ٢٦، والحاقة كذلك ٦٩/٢٨، والحاقة ٦٩/٢٩، والقارعة ١٠١/١٠).

على التوالي.

(١٠٥) انظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٧٨.

(١٠٦) انظر ابن يعيش ج ١٠ ص ٢.

(١٠٧) د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٨٦.

(١٠٨) انظر سيويه ج ٢ ص ٢٨٩، وأبو بكر الانباري ج ١ ص ٣٠٦، وابن خالويه: اعراب ثلاثين سورة ص ١٦٤.

العربية أن تلحق هاء السكت أصوات الحركات القصيرة عند الوقف بشرط أن تكون جزءاً من بنية الكلمة يحرص المتكلم على إظهارها، وعلى هذا لا تلحق هاء السكت حركات الاعراب (١٠٩).

وقد وردت الرواية بالوقف بالهاء المذكورة عن يعقوب بن أبي اسحاق الحضرمي (ت ٢٠٥هـ) القاريء البصري بعد أبي عمرو، وعن البيزي (أحمد بن محمد المكي ت ٢٥٠هـ) في بعض حالات الوقف على ما كان منتهياً بفتحة بناء أو شبهه دون أن يكون ذلك ثابتاً في الرسم (١١٠)، وكذلك بين علماء العربية مذاهب العرب في زيادة تلك الهاء عند الوقف (١١١)، ومن ثم فإن إثبات الهاء في رسم تلك الكلمات إنما هو أثر من آثار هذه الظاهرة، فقد استجاب الكاتب في رسم هذه الكلمات لما هو ملفوظ ومسموع من نطقها، والقراء مجتمعون بالوقف عليها بالهاء، واختلفوا إذا أدرجوا في إثباتها وحذفها (١١٢).

وقد مرت - من قريب - الإشارة إلى أثر تناسب رؤوس الآي وطلب التناسق الصوتي بينها في إثبات الألف في بعض الكلمات المقترنة بأل، ونجد هنا أيضاً أثر ذلك في إثبات هاء السكت، فإن الكلمات المشار إليها ما عدا (يتسنه) واقنده) التي جاءت فيها الهاء لتبيين الحركة القصيرة المتبقية من الحركة الطويلة التي قصرت بسبب الجزم أو الطلب - جاءت في نهايات آيات تجاورها آيات تنتهي عند الوقف بهذا المقطع الصوتي (ليه) أو ما بوزنه، والذي الهاء فيه عوض

(١٠٩) د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٨٥، وانظر ابن يعيش ج ١٠ ص

٢.

(١١٠) ابن الجزري: الشرح ج ٢ ص (١٣٤-١٣٦)، وانظر الداني: التيسير ص ٦١،
والدمياطي ص ١٠٤.

(١١١) انظر سيويه ج ٢ ص (٢٧٧-٢٧٩).

(١١٢) انظر أبو بكر الانباري ج ١ ص ٣٠٦. وابن خالويه: اعراب ثلاثين سورة ص

١٦٤.

عن تاء التانيث ، فلما جاءت هذه الكلمات في نهاية آيات وردت مع تلك الآيات المنتهية بذلك المقطع فقد حتم التناسب الصوقي لنهايات الآيات عند الوقف ان يتحول المقطع (لي) الذي تنتهي به تلك الكلمات ، أو ما بوزنه ، إلى (ليه) بزيادة الهاء الساكنة ، ولنتأمل هذه الآيات وطريقة الوقف على رؤوسها (الحاقة ٦٩/١٨ - ٢٩) : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُمٌ أَقْرَأُ وَكَتَبِيَ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِي * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي * وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِي * يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةٌ﴾ ، كذلك نجد أثر ذلك في كتابة (هي) بالهاء في آخرها (هيه) في سورة القارعة (١٠١/١٠) حين تتابع رؤوس الآي هكذا (هاوية... ماهيه... حامية).

ودراسة ظاهرة إثبات هاء السكت في تلك الكلمات من خلال السياقات التي وردت فيها ترينا أن دور هذه الهاء قد تجاوز مجرد المحافظة على الحركة القصيرة وتبيينها ، كما في المثالين (يتسنه ، واقتهده) ، إلى وظيفة صوتية تنغيمية في الكلمات الأخرى حين تتألف مع ذلك الوقع الذي يتصاعد مع رؤوس الآيات على طول السورة كلها والذي يساهم في تشكيل الجو الذي ترسمه معاني كلماتها .

رابعاً: الأحرف المقطعة في الرسم العثماني:

ونشير قبل أن ننتهي من هذا البحث الذي بيننا فيه القاعدة التي سار عليها كتابة المصاحف في تمثيل الأصوات الصامتة برموز مكتوبة - إلى الحروف المقطعة التي جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة ، منها ما ورد مرة واحدة ، ومنها ما تكرر وروده في مطلع أكثر من سورة ، وهي (ألم ، المص ، الر ، المر ، كهيعص ، طه ، طسم ، طس ، يس ، ص ، حم ، حم عسق ، ق ، ن) . وقد كتبت هذه الحروف بأول حرف من أسماؤها لأن المقصود هو مسميات تلك الحروف لا أسماؤها ، إذ لو

قصد الاسم لكانت الكتابة على نحو الملفوظ، (ألف لام، ميم) مثلاً^(١١٣).
أما كتابتها موصولة في الهجاء فقد تحدث عن ذلك أبو بكر الأنباري، فقال:
إن قال قائل كيف كتبوا في المصحف (الم، والمر، والر) موصولاً، والهجاء مقطع
لا ينبغي أن يتصل بعضه ببعض لأنك لو قال لك قائل: ما هجاء (زيد) لكننت
تقول (زاي ياء دال) وتكتبه مقطعاً لتفرق بين هجاء الحرف وبين قراءته؟
فيقال: إنما كتبوا (الر) وما أشبهه موصولاً لأنه ليس بهجاء لاسم معروف، وإنما
هي حروف اجتمعت يراد بكل حرف منها معنى، ولو قطعت إذ جزمت لكان
صواباً، فإن قال قائل: لم كتبوا (حم عسق) بقطع الميم من العين، ولم يقطعوا
(المص) و(كهيعص)؟ قيل له: (حم) قد جرت في أوائل سبع سور فصارت كأنها
اسم للسور، فقطعت مما قبلها لأنها كالمستأنفة^(١١٤).

(١١٣) الفلقشندي: ج ٣، ص ١٧٧-١٧٨. وأنظر الزركشي: ج ١، ص ١٧٢.
(١١٤) إيضاح الوقف والابتداء: ج ١، ص ٤٧٩-٤٨٠. وأنظر الزركشي: ج ١، ص ٤٣٠.

المبحث الثالث

رُمُوزُ الحَرَكَاتِ فِي الرَّسْمِ العُثْمَانِي

أصوات الحركات في اللغة العربية من حيث النوع ثلاث، هي الفتحة والكسرة والضمة، ومن حيث الكمية ست، إذ إن لكل حركة كميتين: قصيرة وطويلة. وقد غلبت تسمية الحركات القصيرة بالفتحة والكسرة والضمة، أما الحركات الطويلة التي تنشأ من إطالة الحركات القصيرة ضعفاً أو أكثر^(١)، فقد غلبت تسميتها بحروف المد واللين.

وقد بلغ ابن جنّي في تصوير العلاقة بين الحركات القصيرة والطويلة من الوضوح والدقة حدّاً لا تملك الدراسات الحديثة إلا تأكيد ما قاله في ذلك وترديده، فهو يقول^(٢): «إن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة... ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت

(١) انظر ابن جنّي: الخصائص ج ٣ ص ١٢١، وابن سينا ص ١٧.

(٢) سر صناعة الإعراب ج ١ ص (١٩-٢٠) وانظر: الفخر الرازي (محمد بن عمر)

مفاتيح الغيب، المشهور بالتفسير الكبير، ط ١. المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٧ هـ ج ١

ص ١٦.

واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه.....» ويقول بعد ذلك^(٣):
«فقد ثبت بما وصفناه من حال هذه الأحرف أنها توابع للحركات ومنتشئة عنها،
وأن الحركات أوائل لها وأجزاء منها، وأن الألف فتحة مشبعة، والياء كسرة
مشبعة، والواو ضمة مشبعة...».

ونشير هنا إلى ما ذكرناه في المبحث السابق من ضرورة استحضار التمايز بين
الحركات الطويلة الثلاث وبين الصوامت الثلاثة: الهمزة والياء والواو من
جانب، وبين ارتباطها برموز واحدة من جانب آخر، كذلك يجب أن نفرق بين
المصطلحات التي تستعمل في الحركات وفي الصوامت، فسوف نستعمل مصطلح
الحركات الطويلة في مثل: حامد، يقول، عيد، وإن كان اسم الألف - الذي هو
في الاصل الاسم القديم للهمزة - قد غلب على الفتحة الطويلة، أما في نحو رأس،
قول، بيع، فسوف نستعمل مصطلح الهمزة والواو والياء على التوالي.

وقد بينا في الفصل التمهيدي، أن الكتابة العربية قبل الرسم العثماني كانت
مجردة من أي علامة أو رمز للإشارة إلى الحركات القصيرة، أما الحركات
الطويلة فقد بينا أن الكتابة العربية ورثت عن النبطية والكتابات السامية نظام
الإشارة إلى الكسرة والضمة الطويلتين باستعمال رمزي الواو والياء الصامتين
(أو ما يسمى بانصاف الحركات) والذي كانت الكتابة الآرامية رائدة في ذلك
الاستخدام منذ القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد، لكن الكتابات السامية لم
توفق في تمثيل الفتحة الطويلة برمز معين حتى تمكنت الكتابة العربية قبل الرسم
العثماني أن تكمل ما كانت الكتابة النبطية المتأخرة قد بدأت به من استعمال
رمز الهمزة (الألف القديمة) لتمثيل الفتحة الطويلة في نهاية الكلمات فاستطاعت
الكتابة العربية أن تعمم ذلك الاستعمال سواء أكانت الفتحة الطويلة في نهاية
الكلمة أم في وسطها، لكن استعمال رمز الفتحة الطويلة ظل غير تام الشيوع في
وسط الكلمات، وربما كان يحتاج قروناً حتى يمكن أن يصل إلى المرحلة التي بلغها
استعمال رمزي الكسرة والضمة الذي مضت عليه قرون عدة، لولا ما تهيأ

(٣) سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٢٦.

للكتابة العربية بعد الاسلام من فرصة الاستعمال الواسع، فحرص الكتاب على تعميم ذلك الاستعمال منذ وقت مبكر^(٤).

وقد استخدم كتبة المصحف من الصحابة - رضوان الله عليهم - الكتابة العربية بما كانت تتميز به من خصائص في تمثيل الأصوات الصامتة وبما بلغته في محاولتها في تمثيل الحركات الطويلة في تسجيل النص القرآني، فجاءت الاشارة إلى الكسرة والضمة الطويلتين أقرب إلى الكمال من الاشارة إلى الفتحة الطويلة، لما ذكرناه من قدم استخدام رمزي الواو والياء لتمثيلها، وحدائث استخدام رمز الهمزة (الألف) في تمثيل الفتحة الطويلة التي أثبتنا نساخ المصاحف في وسط بعض الكلمات دون البعض الآخر، وسنلاحظ أن إثبات رمز الفتحة الطويلة في وسط الكلمات كان يخضع بصورة عامة إلى أساس يتضح من تتبع الأمثلة التي جاءت مثبتة فيها والأمثلة التي لم تثبت فيها، وخلاصة ذلك أنه كان يخضع لحجم الكلمة أي عدد الرموز الذي يتكون منه هجاؤها، فكلما ازدادت كان ذلك سوغاً لعدم إثبات رمز الفتحة الطويلة، على ما سنبين بعد قليل.

(٤) لا يعيننا كثيراً - هنا - تحديد العوامل التي أدت إلى ذلك الاستخدام المزدوج لتلك الرموز الثلاثة، ولذلك فسكتفي بإشارة موجزة إلى تلك القضية المتعلقة بأصوات اللغة وتاريخ تطورها من جانب، وبالكتابة ومواكبتها لتطور ظواهر اللغة من جانب آخر، فيذهب بعض اللغويين المحدثين (انظر د. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ١ ص ٥٩، وص ٧٣ وما بعدها، وانظر أيضاً د. رمضان عبد التواب ص ٣٥٤ وما بعدها) إلى أن ذلك الاستخدام يرجع إلى تطور أصوات الهمزة والواو والياء الصوامت في أمثلة معينة إلى أصوات الحركات الطويلة، ولكن ظلت صور كتابة تلك الأمثلة محافظة على رموزها قبل ذلك التطور ومن ثم حدث ذلك الازدواج في دلالة رموز تلك الأصوات الصامتة الثلاثة فهي من جانب رموز لأصوات صامتة بأصل استعمالها، ولكنها بحكم ما آلت إليه تلك الأصوات الصامتة صارت تشير أيضاً لأصوات الحركات الطويلة، ومرحلة هذا التطور تمت - كما ذكرنا من قبل - في الكتابة الأرامية قبل الميلاد بيضعة قرون بالنسبة للواو والياء، وبعد الميلاد بعدة قرون بالنسبة لرمز الهمزة (الألف) الذي تم تطوره في الكتابة النبطية المتأخرة للإشارة إلى كل من الهمزة والفتحة الطويلة.

على أن إثبات رموز الحركات الطويلة الثلاث وحذفها كان يخضع إلى جانب ذلك إلى عوامل أخرى منها ما سماه علماء السلف بكراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الخط^(٥)، ويبدو أن هذه الكراهة لم تكن لمجرد تتابع صورتين متشابهتين في الخط وإنما كانت - أيضاً - تشير إلى مرحلة من مراحل استخدام رموز الحركات الطويلة فقد كان الكتاب يحرصون على إثبات رمز الضمة والكسرة الطويلتين إلا حين يقترن بالضمة الطويلة واو وبالكسرة الطويلة ياء، فيكتفي الكاتب بإثبات رمز الواو والياء ويهمل الإشارة إلى رمزي الحركتين الطويلتين اكتفاء بالثبت من رمزي الواو والياء، أما في حالة الإشارة إلى الفتحة الطويلة فإنها بالاضافة إلى خضوعها لمرحلة كراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الخط فإن نظام الإشارة إليها لم يكن قد استقر وتكامل في مرحلة نسخ المصاحف العثمانية - على ما هو مبين - حتى أنه في حالة اجتماع ما يقتضي إثبات رموز ثلاثة ألفات لا يثبت الكتابة إلا رمزاً واحداً، على نحو ما يتضح من الأمثلة التي سنوردها بعد قليل.

وإلى جانب ذلك فإن الطبيعة الصوتية للحركات الطويلة تستجيب أكثر من غيرها للتأثر الذي يلحقها في الكلام المتصل أو بسبب الموقع الذي تأتي فيه الكلمة التي تتضمن مثل تلك الحركات، ففي كثير من اللغات تنفرد القطعة النهائية من الكلمة بمعاملات خاصة لا تعرفها القطعة المبدئية ولا القطع الداخلية، وأهم ما تتميز به هو كونها خائفة^(٦)، فوقع الحركات الطويلة في نهاية الكلمات يعرضها هذا الموقع، أكثر من غيره إلى التقصير أو الحذف^(٧)، حتى أن اللغة العربية قد جعلت من تقصير الحركة الطويلة في الأفعال المنتهية بها علامة على وقوع الفعل بعد أداة جزم، وتولدت في اللغة العربية أيضاً كراهات من

(٥) انظر ص ٨٧ من الفصل التمهيدي.

(٦) انظر فندريس ص ٨٨.

(٧) انظر برجشتراسر : ص ٤٤، ويقول (٤٣): «والأرجح أن كل الحركات الانتهائية كانت تقصر في اللغة السامية الأم في بعض المواضع ولا نعرف أيها».

بعض التراكيب من مثل كراهة الاحتفاظ بحركة طويلة في المقطع المقفل، وقد أدت هذه الكراهة دوراً هاماً في شكل الكلمة العربية^(٨).

ولما كانت الكتابة العربية قد أهملت في تلك الفترة الإشارة إلى الحركات القصيرة برمز معين واكتفت بتمثيل الحركات الطويلة برموز مستقلة فإن أي تقصير يلحق الحركة الطويلة سيؤدي إلى حذف رمزها، خاصة إذا كان ذلك التقصير ذا دلالة معينة في التركيب (دلالة نحوية)، أما إذا كان التقصير مجرد اتصال الكلمات في السياق المنطوق فإن الكاتب سيكون بين الاحتفاظ بصورة الكلمة قبل ورودها في السياق الذي أدى إلى ذلك التقصير، وبين الاستجابة لتمثيل نطقها الجديد «وذلك من حيث عاملوا في كثير من الكتابة اللفظ والوصل دون الأصل والقطع»^(٩).

ويلاحظ في تمثيل الحركات الطويلة أن إثبات رمزي الياء والكسرة الطويلة مقترنين قد ورد في بعض الكلمات دون رمزي الواو والضمة الطويلة، وربما يكون التعليل لذلك بطبيعة صورة كل من الياء التي لا يحتاج رسمها إلى نقل يد الكاتب والواو التي يحتاج رسمها إلى ذلك صحيحاً^(١٠)، وربما دل ذلك على مرحلة من مراحل تطور استخدام كلا الرمزين.

أما أن يكون سبب حذف رموز الحركات الطويلة في الحالات التي جاءت فيها غير مثبتة الاستخفاف والاختصار في الخط^(١١)، أو الاستغناء عنهن

(٨) هنري فليش ص ٤٦، وانظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٥٦.

(٩) الداني: المحكم ص ١٥٨، وسوف أورد أمثلة لحالات تقصير الحركات الطويلة وحذف رمزها في الفقرات الآتية من هذا المبحث، عند الكلام عن كل رمز من الحركات الطويلة على حدة.

(١٠) انظر: جامع الكلام في رسم المصحف الامام (المجهول) مخطوط في دار الكتب المصرية ورقة ٤ ب.

(١١) انظر ابن قتيبة: ادب الكاتب ص ٢٢٩. والمهدوي ص ١٢٣. ومكي بن أبي طالب: الكشف عن وجوه القراءات السبع. دمشق. مجمع اللغة العربية ١٩٧٤ ج ١ =

باللفظ^(١٣)، كما علل بعض علماء السلف، فإن ذلك يبدو غير منسجم مع الواقع، بعد أن بينا تاريخ تطور استخدام رموز الحركات الطويلة، ومثل ذلك أيضاً التعليل بكثرة الألفات والواوات والياءات في الرسم، كما ذهب إلى ذلك أبو عمر الطلمنكي (أحمد بن محمد ت ٤٢٩هـ) فقد قال في كتاب الرد والانتصار^(١٤):
 ان الألفات إنما حذفت من الرسم لكثرتهم لأن عدد ألفات القرآن على قراءة نافع ثمانية وأربعون ألفاً وسبعائة وأربعون، فلو ثبتت هذه الألفات كلها لصار المصحف كله ألفات. وكذلك الواوات والياءات حذفت لكثرتهم، ولاستشقال حرفين متشابهين في كلمة واحدة، وذلك أن في القرآن العظيم خمسة وعشرين ألف واو وخمسة وستة. ومن الياءات خمسة وعشرون ألفاً وتسعمائة وتسعة.

إن تأمل كلام أئمة الرسم في عدم إثبات رموز الحركات الطويلة، ورمز الفتحة منها خاصة يوحي أنهم كانوا يظنون أن تلك الرموز كانت في يوم ما مستعملة يثبتها الكتاب في كل حالات ورودها في الكلمة، وفي فترات لاحقة رأى الكتاب التخفف من كتابة رموز تلك الحركات « فحذفت من الخط استخفافاً، وإذا كانت قد تحذف من اللفظ... فحذفها في الخط أيسر »^(١٥).
 واستخدام كلمة (الحذف) هنا يشير وحده إلى هذا الذي نقوله عن فهمهم للمشكلة، التي كشف البحث التاريخي في اللغة والكتابة عن حقيقة أبعادها، والتي غاب جانب كبير منها عن علماء السلف فأوقعهم ذلك في تلك الحيرة في فهم الظواهر أحياناً، والتعسف في تفسيرها أحياناً أخرى، ومع ذلك فإن رواية عيسى بن مينا قالون عن نافع بن أبي نعيم القاريء المدني التي يوردها الداني في حذف رمز الفتحة الطويلة تلفت النظر، وهي أنه « قال الألف غير مكتوبة يعني

= ص ٣٣١. وعلم الدين السخاوي: الوسيلة ١٥ ب ١٦ / أ. والرازي: مفاتيح الغيب

ج ١ ص ٥٧.

(١٢) اللبيب ورقة ٢٠ أ.

(١٣) نقلًا عن اللبيب ورقة (٢٠-٢٠ ب). وانظر أبو داود سليمان بن نجاح لوحة ٤.

(١٤) المهدي ص ١٢٣.

في المصاحف في قوله....»^(١٥). فاستعمال تعبير (غير مكتوبة) أكثر دقة ودلالة على الواقع، وربما دل ذلك على أن المتقدمين كانوا أكثر تفهماً للظاهرة وأصوبها لقرب عهدهم من تلك الفترة.

وبعد هذا البيان الموجز لتاريخ استخدام رموز الألف (الهمزة) والواو والياء الصوامت لتمثيل الحركات الطويلة نحاول أن نعرض لكل رمز منها وكيفية استخدام كتبة المصحف له، وما يتعلق بذلك من ظواهر ومشكلات يثيرها الرسم العثماني، ومحاولة وضع ذلك في إطاره الصحيح على ضوء ما بيناه من تاريخ الظاهرة.

أولاً: رمز الكسرة الطويلة:

استخدمت الكتابة العربية رمز صوت الياء الصامت (ي) لتمثيل الكسرة الطويلة (ياء المد)، ونجد ذلك الاستعمال في الرسم العثماني حيث مثلت الكسرة الطويلة بنفس رمز الياء، ولكننا نجد أن ذلك التمثيل قد خضع لعوامل متعددة أثرت في طريقة الإشارة الى الكسرة الطويلة فجاء رمزها مثبتاً مرة وغير مثبت أخرى خاصة في آخر الكلمة.

١ - تمثيل الكسرة الطويلة المتوسطة:

ويجب أن نلاحظ اطراد إثبات رمز الكسرة الطويلة في وسط الكلمة سواء جاءت الكسرة الطويلة في الكلمة ثانية أو غير ذلك، في الفعل والاسم على سواء، والأمثلة في المصحف على ذلك أكثر من أن تستقصى، فمن ذلك مثلاً ما ورد في فاتحة الكتاب وحدها (الرحيم، العليم، الدين، نستعين، المستقيم، الذين الضالين)، إلا إذا جاء رمز الياء والكسرة الطويلة متتابعين في كلمة واحدة فإنها يخضعان أحياناً لما سماه علماء السلف (بكراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الخط) فلا يثبت إلا رمز إحداها^(١٦)، فقد اتفقت المصاحف على حذف إحدى

(١٥) المقنع ص ١٠.

(١٦) يرى الداني (المقنع ص ٤٩) أن الأولى هي المحذوفة، وأن الثانية التي هي مع النون =

الياءين إذا كانت الثانية علامة للجمع وذلك في نحو (النبيين، الأمين، ربّين الحواريين)، وما كان مثله، إلا موضعاً واحداً، فإن المصاحف اجتمعت على رسم ياءين فيه على الأصل واللفظ، وهو قوله في المطففين (١٨/٨٣) ﴿لَفِي عَلِيَيْنَ﴾^(١٧)، ولكن علينا ملاحظة ان الياء هنا مشددة، وكذلك جاء بإثبات رمزي الياء والكسرة الطويلة في وسط الكلمة ما كان من ذلك في الفعل نحو قوله في سورة ق. (١٥/٥٠) ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ فإن المصاحف اجتمعت على رسمه بياءين على اللفظ والأصل، وكذلك اجتمعت على رسمها في (بجسيم وحييم ويجيها ويجيين)، وما كان مثله، إذا اتصل به ضمير، فإن لم يتصل به ضمير ووقعت الياء طرفاً نحو ﴿نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ (البقرة ٢٦/٢) و ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾ (يوسف ١٠١/١٢) فقد رسم بياء واحدة^(١٨).

وبذلك تكاد الاشارة إلى رمز الكسرة الطويلة في غير طرف الكلمة تكون كاملة^(١٩)، حتى في حالة اجتماعها مع الياء إلا في جمع المذكر السالم ومع ذلك فقد

علامة للجمع هي الثابتة، وخالفه في ذلك تلميذه أبو داود سليمان بن نجاح الذي يرى (التنزيل لوحة ١٥) أن الثانية هي المحذوفة.

(١٧) المهدي ص ١١١، والداني: المقنع ص ٤٩، والعقيلي لوحة ٦.

(١٨) انظر المهدي ص ١١١. والداني: المقنع ص (٤٩-٥٠). والعقيلي لوحة ٥، وقد رأيت في مصحف طشقند ومصحف جامع عمرو بن العاص في دار الكتب المصرية اثبات الرمز في مثل هذه الأمثلة خاصة ما جاء من الأفعال من مادة (الحياة). انظر مصحف طشقند (البقرة ٢/٢٥٨ و ٢٦٠، ويس ٣٦/١٢) ومصحف جامع عمرو (يونس ١٠/٥٦، والحج ٢٢/٦، والمؤمنون ٢٣/٨٠، ويس ٣٦/١٢، وغافر ٤٠/٦٨، والشورى ٤٢/٩، والحديد ٥٧/٢).

(١٩) جاءت كلمة (ابراهيم) مرسومة بدون الياء في البقرة خاصة، وهي في كل القرآن بالياء (انظر الداني: المقنع ص ٣٤) ولعل ذلك الرسم كان متأثراً بالقراءة التي تروى عن ابن عامر (ابراهيم) بالألف (وانظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٢٩٩ و ٣٩٤) أو لعله متأثر بصورة رسمها في بعض الكتابات السامية الأخرى.

جاءت ﴿عَلِيَيْنَ﴾ بياءين وكذلك وجدت كلمة ﴿الْأَمِيْنِ﴾ (آل عمران ٧٥/٣) بياءين في مصحف طشقند.

٢ - تمثيل الكسرة الطويلة في آخر الكلمة:

أما إثبات رمز الكسرة الطويلة في آخر الكلمة فقد خضع لما قد يصيها في النطق من تقصير يؤدي أحياناً إلى حذف صورتها في الرسم، فإذا كنا قد وجدنا أن الإشارة إلى رمزها في وسط الكلمة تكاد تكون كاملة فإننا نجد في هذه الحالة محذوفة من الرسم في أغلب الأحيان، وعلينا هنا أن نحاول تحديد العوامل التي أدت إلى ذلك، ويبدو أنها ترجع كلها إلى تقصير الكسرة الطويلة في اللفظ أو حذفها منه فجري الكتاب في الرسم على اللفظ^(٢٠).

أ - حذف رمز الكسرة الطويلة في الفواصل:

وقد أشرنا في مطلع هذا المبحث إلى أن الحركات الطويلة تكون أكثر تعرضاً للتقصير في آخر الكلمات مما لو كانت في وسطها، والكسرة الطويلة التي يحذف رمزها في آخر الكلمة غالباً ما تكون علامة ضمير المتكلم أو لاماً للكلمة، فعلا كانت أو إسماً. وقد أشار سيبويه إلى أن من مذاهب العرب حذف الياء (الكسرة الطويلة)، التي هي ضمير، في الوقف، وذلك نحو قولك هذا غلام، وانت تريد غلامي، وقد أسقان وأسقن، وانت تريد أسقاني وأسقني، لأن من كلامهم أن يحذفوا في الوقف ما لا يذهب في الوصل^(٢١)، وكذلك أشار إلى أن

(٢٠) يقول برجشتراسر (التطور النحوي ص ٤٤)، «وأما في رسم القرآن فكثيراً ما تحذف الياء الدالة على الكسرة الممدودة في أواخر الكلمات ضميراً كانت أو غيرها نحو يُقوم، ودعان والداع، ويوميات، وذلك يدل على أن الكسرة الممدودة الانتهاية كانت تقصر في لهجة الحجاز في كثير من الحالات».

(٢١) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٩، وانظر ص ٢٩٢ أيضاً.

من العرب من يحذفها مما فيه الألف واللام نحو القاضي في حالة الوقف أيضاً^(٢٢)، وقد أشار الفراء إلى أن حذف الياء من ذلك جائز في كلام العرب سواء أكانت ضميراً أم من بنية الكلمة، حيث يقول^(٢٣): «وليس تَهَبَّ العرب حذف الياء من آخر الكلام إذا كان ما قبلها مكسوراً^(٢٤)»، من ذلك ﴿رَبِّي أَكْرَمَن - و - أَهَانَن﴾ في سورة الفجر (١٦/٨٩ و١٥)، وقوله: ﴿أَتُمِدُّونَن بِمَالٍ﴾ (النمل ٣٦/٢٧) ومن غير النون (المناد) و(الداع)، وهو كثير، ويكتفى من الياء بكسر ما قبلها «. ويقول أيضاً^(٢٥): «العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها».

وكما كان تناسب الفواصل أو رؤوس الآي عند الوقف عاملاً في زيادة أصوات على آخر بعض الكلمات مثل (السيلا... وحسايه)، كان أيضاً سبباً في حذف أو تقصير أصوات الحركات في أواخر بعض الكلمات في الوقف خاصة، وقد استجاب لذلك كتابة المصاحف، فحذفوا رمز الكسرة الطويلة في معظم ما جاء من ذلك في رؤوس الآي، يقول سيبويه^(٢٦): «وجميع ما لا يحذف في الكلام، وما يختار فيه أن لا يحذف، يحذف في الفواصل» ثم يقول «وهذا جائز عربي كثير».

وقد جرى حذف رمز الكسرة الطويلة في الفواصل سواء أكانت علامة للضمير مسبوقة بالنون في الأفعال أم كانت علامة للضمير متصلة بالأسماء

(٢٢) ج ٢ ص ٢٨٨، وانظر أيضاً الصولي ص ٢٥٢، ومكي: الكشف ج ١ ص ٣٣١. وابن يعيش ج ٩ ص ٧٥.

(٢٣) معاني القرآن ج ١ ص ٩٠.

(٢٤) يعتقد علماء السلف أن ياء المد تسبقها كسرة قصيرة فيكتفى بها منها عند حذفها، لكن الذي تؤكد الدراسات الصوتية هو أن ياء المد ما هي الا كسرة طويلة قد يلحقها التقصير أو الحذف.

(٢٥) معاني القرآن ج ٣ ص ٢٦٠.

(٢٦) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٩، وانظر أيضاً الفراء: معاني القرآن ج ٣ ص ٢٦٠. وابن يعيش ج ٩ ص ٧٨.

أم كانت لاماً للكلمة في اسمٍ أو فعل، فمثال ما كانت فيه علامة للضمير في الأفعال قوله سبحانه (الشعراء ٧٨/٢٦ - ٨١): ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾، ومما يلفت النظر هنا أن ثلاثاً من هذه الآيات قد تضمنت ياءين للضمير، فما كان من ذلك في حشو الآية فقد ثبت (خلقي، يطعمني، يميتني)، وما كان في رأس الآية فقد حذف رمز الياء منه (يهدين، يشفين، يحيين)، وفي هذا دليل واضح على أن للوقف على رؤوس الآيات وطلب التناسب فيها أثراً في عدم إثبات رمز الكسرة الطويلة، ودليل على أن ذلك الحذف إنما هو صدق لسقوطها في النطق، والأمثلة على هذه الظاهرة كثيرة، فتأمل - مثلاً - كيف تعاقبت كلمات الفواصل منتهية بالواو والنون في هذه الآيات (البقرة ٣٨/٢ - ٤٢): ﴿...وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ...هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * ...فَأَرْهَبُونَ * ...فَاتَّقُونَ * ...تَعْلَمُونَ﴾، وتأمل أثر الوقف على الفاصلة في حذف صوت الكسرة الطويلة من اللفظ في ﴿فَأَرْهَبُونَ، فَاتَّقُونَ﴾ وأثر ذلك في حذف صورتها من الخط.

أما أمثلة حذف الكسرة الطويلة التي هي علامة للضمير، وجاءت متصلة بالأسماء، بسبب الوقف على الفاصلة فقوله سبحانه في سورة ص (٨/٣٨ - ١٤): ﴿...بَلْ لَمَّا يَدُوُّوْا عَدَابِ * ...أَلَوْهَابِ * ...عِقَابِ﴾ ومن ذلك أيضاً ما نجد في قوله تعالى في سورة الملك (١٦/٦٧ - ١٩): ﴿...تَمُورُ * ...نَذِيرِ * ...نَكِيرِ * ...بَصِيرِ﴾ وغير ذلك كثير.

وأما أمثلة ما حذف من آخر الكلمات الواقعة في الفواصل، والكسرة الطويلة فيه من بنية الكلمة، بسبب الوقف وطلب التناسب، فمن الأسماء كلمة (التنادي) في قوله سبحانه في سورة غافر (٣١/٤٠ - ٣٣): ﴿...لِلْعِبَادِ * ...يَوْمَ التَّنَادِ * ...مِنْ هَادٍ﴾. ومن الأفعال كلمة (يسري) في سورة الفجر (١/٨٩ - ٥): ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾، فقد حذفت الياء التي هي رمز الكسرة

الطويلة من الفعل المضارع (يسري) ، وهي لام الكلمة، ولم تقع موقماً يحتم
جزمها، وإنما كان حذفها في اللفظ عند الوقف لتشبه رؤوس الآي التي قبلها،
فأجرى الخط على اللفظ^(٢٧).

ب - حذف رمز الكسرة الطويلة في غير الفواصل لكراهة مقطعية:

والبناء المقطعي للغة العربية يمنع وجود حركة طويلة متلوة بصوت غير
متحرك إلا في حالة الوقف وفي (باب دابة وما أشبهها)، أي أن التركيب
المقطعي (ص ح ح ص). ممنوع في اللغة العربية إلا في هاتين الحالتين
المذكورتين^(٢٨)، فإذا ما حدث أن تكوّن مثل ذلك المقطع سواء عند تصرف
الكلمة واتصالها بالضمائر أو عند وقوعها في السلسلة الكلامية بجانب كلمة أخرى
يصار إلى تقصير الحركة الطويلة في ذلك المقطع، فيتكون المقطع الآتي
(ص ح ص) الشائع الاستعمال في اللغة العربية. وقد أدرك علماء الرسم
والقراءات وعلماء العربية هذه الظاهرة وأثرها في بناء كلمات اللغة، فعقد
سيبويه باباً سماه (باب ما يحذف من السواكن إذا وقع بعدها ساكن) ثم قال: وذلك
في ثلاثة أحرف الألف، والياء التي قبلها حرف مكسور، والواو التي قبلها حرف
مضموم، فأما حذف الألف فقولك رمى الرجل، (ومعزى) القوم، ومنه أيضاً
رمت. وأما حذف الياء التي قبلها كسرة فقولك هو يرمي الرجل، ويقضي الحق،
وأما حذف الواو التي قبلها حرف مضموم فقولك يغزو القوم ويدعو الناس^(٢٩)،

(٢٧) انظر: الفراء: معاني القرآن ج ٣ ص ٢٦٠. وابن خالويه: اعراب ثلاثين سورة
ص ٧٤ والزمخشري: الكشاف ج ٤ ص ٥٩٦، والقلقشندي ج ٣ ص ٢٠٠.

(٢٨) انظر ابن يعيش ج ٩ ص ١٢١ وبرجستراسر ص ٤٢، ود. عبد الصبور شاهين:
القراءات القرآنية ص ٥٦، ود. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ١
ص(١٩٧-١٩٨).

(٢٩) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٦.

وقال الفراء^(٣٠): « وكل ياء أو واو تسكنان وما قبل الواو مضموم وما قبل الياء مكسور فإن العرب تحذفها وتجتزئ بالضممة من الواو وبالكسرة من الياء ». ويقول الأزهري^(٣١): « إن الألف اللينة والياء بعد الكسرة والواو بعد الضمة إذا لقيهن حرف ساكن بعدهن سقطن، كقولك: عبد الله ذو العمامة، كأنك قلت ذُل. وتقول رأيت ذا العمامة، كأنك قلت ذُل. وتقول مررت بذي العمامة، كأنك قلت ذُل، ونحو ذلك في الكلام أجمع ».

وأشار الامام مكِّي إلى تلك الظاهرة بقوله^(٣٢): « أن تحذف الساكن الأول من كلمتين، إذا كان حرف مد ولين، فتحذفه لالتقاء الساكنين، ويبقى ما قبله من الحركة يدل عليه، وذلك قولك: يقي الرجل، وقوا الرجل، وذا المال ».

وإذا كان هناك ما يؤخذ على كلام الأئمة هذا من تعبيرهم بالسواكن عن الحركات الطويلة، واعتقادهم أن حرف المد واللين قد حذف وأن هناك حركة قصيرة قبله تدل عليه، والحقيقة انه قد قصر ليتحول المقطع المديد المقفل بصامت (ص ح ص) إلى مقطع طويل مقفل (ص ح ص)، جرياً على عادة اللغة العربية في بناء مقاطع الكلام - فإن ملاحظتهم بعد ذلك صحيحة تماماً، وتعبّر عن اتجاه في النطق قد ترك له شاهداً وأثراً في الخط، فجاءت رموز الحركات الطويلة في آخر الكلمات غير مثبتة في كثير من المواضع في الرسم العثماني، خاصة في درج الكلام، يقول الامام أبو عمرو الداني^(٣٣): « وذلك من حيث عاملوا في كثير من الكتابة اللفظ والوصل، دون الأصل والقطع، ألا ترى أنهم لذلك حذفوا الألف والياء والواو في نحو قوله ﴿أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾،

(٣٠) معاني القرآن ج ٢ ص ٢٧. وانظر أيضاً ج ٢ ص ١١٧ وج ١ ص ٣٣٧ من نفس المصدر.

(٣١) تهذيب اللغة ج ١ ص ٢٧٧، وانظر القلقشندي ج ٣ ص ١٧٤.

(٣٢) الكشف ج ١ ص ٢٧٧.

(٣٣) المحكم ص ١٥٨ وانظر ابن مجاهد ص ٤٢٦.

و ﴿سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ﴾، و ﴿يَدْعُ الْإِنْسَانَ﴾، وشبهه، لما سقطن من اللفظ، لسكونهن وسكون ما بعدهن، وبنوا الخط على ذلك فأسقطوهن منه.»

إن ظاهرة تقصير الحركات الطويلة إذا لقيت حرفاً ساكناً غير متحرك تفسر لنا كثيراً من ظواهر حذف رموز الحركات الطويلة في الرسم العثماني، لأن الحركة الطويلة إذا قصرت صارت حركة قصيرة، والحركة القصيرة لم يكن لها - حينذاك - رمز في الكتابة، وهذا يعني سقوط رمز الحركة الطويلة دون أن يخلفه شيء يشير إلى ما تبقى منها بعد تقصيرها.

وتجب ملاحظة أن هذه الظاهرة إنما تكون في الكلام المتصل حين تلتقي حركة طويلة في آخر كلمة بحرف ساكن في أول كلمة تتلوها، فكما كان للوقف أثر في تقصير أو حذف الحركات الطويلة فإن لوصول الكلام كذلك نفس الأثر في تقصير الحركات الطويلة، إلا أن ميل الكتاب إلى حذف رمز الكسرة الطويلة في حالة الوقف أكثر منه في حالة درج الكلام، فإذا كان ما حذف منه رمز الكسرة الطويلة في رؤوس الآي طلباً للمجانسة سواء كانت ضمير مفعول أو للاضافة أو أصلية ثمانية وثمانين موضعاً^(٣٤) - فإن ما حذف بسبب تقصير الكسرة الطويلة عند التقائها بساكن في درج الكلام لا يتجاوز الخمسة عشر موضعاً^(٣٥)، فمن ذلك (النساء ٤/١٤٦) ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، و(يونس ١٠/١٠٣) ﴿نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، و(طه ٢٠/١٢)، و(النازعات ١٦/٧٩) ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ و(الحج ٢٢/٥٤) ﴿لِهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، و(النمل ١٨/٢٧) ﴿وَادِ النَّمْلِ﴾، و(القصص ٢٨/٣٠) ﴿الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾، و(الصفات ١٦٣/٣٧) ﴿صَالِ الْجَحِيمِ﴾، و(ق ٥٠/٤١) ﴿يُنَادِ الْمُنَادِ﴾، و(القمر ٥٤/٥) ﴿فَمَا تُغْنِ التُّذُرُ﴾،

(٣٤) ابن وثيق الأندلسي لوحة ٧، وانظر أبو بكر الانباري ج ١ ص (٢٥٠-٢٥٦) والمهدوي ص ١١١، والداني: المقنع ص (٣٠-٣٣).

(٣٥) انظر المهدوي ص ١١٢، والداني: المقنع ص (٤٦-٤٧)، وابن وثيق الأندلسي لوحة ٧، والعقيلي لوحة ٩.

و(الرحمن ٢٤/٥٥) ﴿الْجَوَارِ الْمُنشَآتِ﴾، و(التكوير ١٦/٨١) ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ فالياء التي هي رمز الكسرة الطويلة محذوفة في جميع ذلك من الخط.

وإذا كان ما حذف من رمز الكسرة الطويلة في رؤوس الآي يشمل جميع المواضع التي جاءت فيها الكسرة الطويلة في مثل تلك المواضع - فإن ما حذف من ذلك بسبب استقبال الكسرة الطويلة لحرف ساكن لا يشمل جميع الأمثلة، بل جاءت الياء التي هي رمز الكسرة الطويلة ثابتة في الخط، رغم سقوطها من اللفظ بسبب استقبالها للحرف الساكن، فمن ذلك (البقرة ٢٦٩/٢) ﴿يُؤْتَى الْحِكْمَةَ﴾، و(المائدة ٥٤/٥) ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ﴾، و(يونس ١٠١/١) ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾، و(يوسف ٥٩/١٢) ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾، و(الرعد ٤١/١٣) ﴿أَنَا نَاتِي الْأَرْضِ﴾، و(النحل ١٠٧/١٦) ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، و(مريم ٩٣/١٩) ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ﴾، و(النمل ٨١/٢٧) ﴿بِهْدِي الْعُمَى﴾، و(القصص ٥٥/٢٨) ﴿لَا نَبْتَنِي الْجَاهِلِينَ﴾، و(المؤمن ١٥/٤٠) ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾^(٣٦).

وإذا كانت رموز الحركات الطويلة تحذف من الفعل المضارع علامة على وقوعه بعد أداة جزم فإن ما حذف من تلك الرموز في الأمثلة السابقة من مثل ﴿يُوتِ اللَّهُ﴾، ننج المؤمنين، يناد المناد، فما تغن النذر لم يكن علامة على وقوعها بعد أداة جزم فهي في موضع الرفع، وإنما كان ذلك الحذف - كما بينا - بسبب سقوطها في اللفظ فجرى نساخ المصاحف العثمانية على ذلك في الخط دون أن يلتزموه في كل الأمثلة، لأن الكاتب يظل متردداً بين الالتزام بأصل رسم الكلمة وهي منعزلة عن السياق وبين الاستجابة لواقع نطقها وهي في درج الكلام المتصل.

ج - حذف رمز الكسرة الطويلة من آخر المنادى:

وقد جاءت علامة الكسرة الطويلة محذوفة في غير هاتين الحالتين السابقتين

(٣٦) انظر الداني: المقنع ص ٤٦ و ٤٧ و ٩٩.

في كل اسم منادى أضافه التكلم إلى نفسه نحو ﴿يَقُومُ ، وَيُرْبُ ، وَيَعْبَادُ﴾، لفظ مجرد النداء أم لم يلفظ، إلا في موضعين أثبتوا فيها الياء: في العنكبوت (٥٦/٢٩) ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي الزمر (٥٣/٣٩) ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ واختلفت المصاحف في الذي في الزخرف (٦٨/٤٣) ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ﴾ ففي بعضها يياء وفي بعضها بغير ياء^(٣٧)، ولعل إثبات الياء في هذه الأمثلة كان بسبب انتقال الكسرة الطويلة - بعد أن لحقها الفتح في قراءة بعض القراء^(٣٨) - إلى مستوى الأصوات الصامتة فلزم إثبات صورتها لذلك. إن حذف الياء التي هي رمز للكسرة الطويلة من المنادى في مثل ﴿يَعْبَادُ ، يَقُومُ ، يُرْبُ﴾، ومن الأفعال التي تكون فيها الكسرة الطويلة، وهي ضمير المتكلم، مفعولا به، خاصة في رؤوس الآي، والفعل في صيغة الأمر أو النهي، من مثل ﴿فَارْهَبُونِ ، فَاتَّقُونِ ، وَلَا تَنْظُرُونِ ، وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ونحوه، قد يكون ذلك الحذف الذي هو إتباع للفظ ناتجاً عما يصاحب صيغة النداء أو الأمر أو النهي من سرعة النطق بمقاطع الكلمة مما يسبب سقوط الحركات النهائية أو تقصيرها، كما قصرت في الفعل المضارع المجزوم أو فعل الأمر وحذفت في الخط من مثل (اخش، ادع، ارم)، فحذف رمز الكسرة الطويلة بسبب ما لحقها من تقصير، ولعل مما يشبه ذلك ظاهرة حذف الألف من (ما) حين تكون استفهاماً، وقد دخل عليها حرف جر في مثل (م، عم فيم، لم، مم) فيبدو أن ما يصاحب صيغة الاستفهام من تنغيم خاص يحتم تتابع المقاطع بسرعة قد ساعد على سقوط الفتحة الطويلة من (ما) في اللفظ فجري الخط على اللفظ^(٣٩).

(٣٧) انظر الداني: المقنع ص (٣٣-٣٤) وابن وثيق الأندلسي لوحة ٦.

(٣٨) انظر الداني: التيسير ص ١٧٤ و ١٩٠.

(٣٩) يقول برجشتراسر (التطور النحوي ص ٤٢): «وأكثر أنواع تقصير الحركات المدودة اتقافي، منه تقصيرها في أواخر الكلمات، فإننا نرى الحركة المدودة الانتهائية في بعضها قد تحافظ على الامتداد نحو بما وفيما ولما. وقد تقصر نحو بم وفيم ولم». والحقيقة أن هذا التقصير في الأمثلة المذكورة ليس اتقافياً، ويبدو أن الملاحظة قد خانت المستشرق الكبير، وذلك لأن تقصيرها في نحو (م وفيم ولم) =

وهذا التفسير لا يزال يحتاج تأكيده إلى دراسة وبحث، خاصة إنا نجد بعض الأمثلة جاءت فيها الياء ثابتة في الرسم مثل^(٤٠): (البقرة ١٥٠/٢) ﴿وَآخِشُونِي وَلَا تَمَّ﴾، و(آل عمران ٣١/٣) ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، و(هود ٥٥/١١) ﴿فَكَفِّرُونِي وَجَمِيعًا﴾، و(مريم ٤٣/١٩) ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكُمْ﴾، و(طه ٩٠/٢٠) ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾^(٤١)، ولكن علينا أن نتذكر أن هذه الأمثلة قد جاءت في وسط الآي مما قد يكون ساعد على الاحتفاظ بلفظ الكسرة الطويلة أو أن الرسم جرى في ذلك على إثبات رمز الكسرة لأنها كلمة فهي ضمير المتكلم وقد وقعت موقع المفعول به.

٣ - حالات أخرى:

وإلى جانب ذلك فقد حذف رمز الياء الذي هو علامة للكسرة الطويلة حذفاً مطرداً من كل اسم مخفوض أو مرفوع، آخره ياء ولحقه التنوين، رأس آية كان أو غيره، فإن المصاحف اجتمعت على حذف تلك الياء بناء على حذفها في حال الوصل لسكونها وسكون التنوين بعدها، حسب تعبير علماء العربية، أو لأن الكسرة الطويلة وقعت في مقطع مقفل فقصرت حسب تعبير المحدثين، وذلك

= خاضع لموقع (ما) في الكلام فاذا كانت استفهامية متصلة بحرف الجر فإنها تقصر دائماً، ولا تقصر في ما عدا ذلك، حين تكون موصولة أو مصدرية، كما يدل على ذلك الرسم العثماني بكل وضوح، وكما هو مشهور في لغة العرب. فقد نص علماء العربية أن حذف الف (ما) الاستفهامية المجرورة مقيس مطرد (انظر السيوطي: همع الهوامع ج ٢ ص ٢١٧) لكن علة حذف الالف عندهم (الفرق بين الاستفهام والخبر) (انظر ابن هشام: عبد الله بن يوسف الانصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، القاهرة. مكتبة محمد علي صبيح، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (د.ت) ج ١ ص ٢٩٩). ولكن إذا كان ذلك صحيحاً فلماذا خصت الاستفهامية بالحذف دون الخبرية!؟

(٤٠) انظر المهدوي ص (١١٢-١١٤)، والداني: المقنع ص (٤٥-٤٦).

(٤١) روى ابن أبي داود (١٠٩) أن هذا الحرف رسم بغير ياء.

ثلاثون حرفاً في سبعة وأربعين موضعاً^(٤٢)، من مثل (باغٍ ، هادٍ ، والٍ ، واقٍ ، غواشٍ ، بوادٍ ، مستخفٍ...) .

وكذلك حذفت الياء التي هي رمز للكسرة الطويلة من الخط بعد هاء الضمير، إذا انكسر ما قبلها ولم يلقها ساكن، نحو به وربّه وما أشبه ذلك، وذلك لانعدامها في الوقف^(٤٣) .

أما حذفها فيما عدا ذلك في حشو الآي سواء كانت متصلة بالفعل في مثل (البقرة ١٩٧/٢) ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، و(المائدة ٤٤/٥) ﴿وَإِخْشَانٍ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، و(هود ٤٦/١١) ﴿فَلَا تَسْأَلُنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، و(يوسف ٦٦/١٢) ﴿حَتَّى تُؤْتُونَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾، وما أشبه ذلك^(٤٤)، أو كانت من بنية الكلمة في مثل (الاسراء ٩٧/١٧) ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ﴾، و(الكهف ٦٤/١٨) ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدًّا﴾، و(سبأ ١٣/٣) ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾، و(الشورى ٣٢/٤٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾، و(ق ٤١/٥٠) ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾، و(القمر ٨/٥٤) ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكُفْرُونَ﴾ وما أشبه ذلك^(٤٥)، فانه جار على نسق ما أشرنا إليه قبل قليل من أن العرب ليست تهيبُ حذف الياء من آخر الكلام إذا كان ما قبلها مكسوراً، فتحذف الياء اكتفاء بالكسرة، وقد قال الفراء^(٤٦): إن للعرب في الياءات التي في أواخر الحروف - مثل اتبعن، وأكرمن، واهانن، ومثل قوله (دعوة الداع

(٤٢) ابن الجزري: الشرح ٢ ص ١٣٦ . وانظر: الداني: المقنع ص ٣٤ ، وابن وثيق الأندلسي لوحة ٦ .

(٤٣) انظر سيويه ج ٢ ص ٢٩١ ، والمبرد ج ١ ص ٢٦٤ . وابن وثيق الأندلسي لوحة ٦ ، وابن الجزري: الشرح ١ ص ٣٠٤ .

(٤٤) انظر أبو بكر الأنباري: ج ١ ص ٢٥١ وما بعدها والمهدوي ص ١١١ والداني: المقنع ص ٣٠ .

(٤٥) انظر نفس المصادر وانظر أيضاً الزمخشري: الكشاف ج ٣ ص ٤٥٢ .

(٤٦) معاني القرآن ج ١ ص ٢٠٠ .

إذا دعان - وقد هدان) أن يحدفوا الياء مرة ويشبثوها مرة، فمن حذفها اكتفى بالكسرة التي قبلها دليلاً عليها، وذلك أنها كالصلة إذا سكنت، وهي في آخر الحروف، واستثقلت فحذفت، ومن أتمها فهو البناء والأصل، ويفعلون ذلك في الياء وإن لم يكن قبلها نون.

ويتضح - من ذلك كله - أن ما جاء محذوفاً من رمز الكسرة الطويلة في آخر الكلمات في الرسم العثماني إنما كان استجابة لحذفها أو تقصيرها في اللفظ سواء أكان ذلك في حالة الوقف أم في حالة الوصل، جرياً على قاعدة أن الأصل في الكتابة مطابقة الخط للفظ، لكن علينا أن نلاحظ أن هذه القاعدة لم تكن مطلقة، فقد جاءت بعض الكلمات التي آخرها ياء، سواء أكانت لام الكلمة أم زائدة للإضافة، مثبتة في الرسم في أربعين موضعاً^(٤٧)، مما حذف من نظائر بعضها رمز الكسرة الطويلة، ولعل إثباتهم رمز الكسرة الطويلة في هذه المواضع إنما جرى على الأصل في كونها إما أنها تمثل كلمة أو إنها جزء من كلمة أو لثباتها في النطق في تلك الأمثلة.

ومما يؤيد أن ذلك الحذف كان استجابة للفظ هو ورود الرواية عن أئمة القراءة بذلك فمنهم من حذف وصلًا ووقفًا، ومنهم من أثبت وصلًا وحذف وقفًا على تفصيل في ذلك^(٤٨).

ثانياً: رمز الضمة الطويلة:

استخدمت الكتابة العربية رمز الواو الصامتة (و) لتمثيل الضمة الطويلة (واو المد)، مثل ما استخدمت رمز الياء في تمثيل الكسرة الطويلة، كما مر من قريب، وسبق أن أشرنا إلى أن استخدام رمزي الياء والواو في تمثيل الكسرة والضمة الطويلتين في الكتابة الآرامية قد حدث في فترة واحدة، وورثت

(٤٧) الداني: المقنع ص (٤٥-٤٦).

(٤٨) انظر مكّي: الكشف ج ١ ص ٣٣١، والداني: التيسير ص (٦٩-٧٠)، وابن الجزري: النشرح ٢ ص ١٧٩ وما بعدها.

الكتابة العربية ذلك الإستخدام عن طريق الكتابة النبطية، ومن ثم فلنا أن نتصور أن استخدامها قد مر في نفس الظروف وأنها جريا - تقريباً - على سنن واحد في إثبات رمزيتها أو حذفها في الخط، سواء في وسط الكلمة أو في طرفها، ولذلك نجد أن ظواهر استخدام الواو لتمثيل الضمة الطويلة في الرسم العثماني قد خضعت لنفس العوامل التي أثرت في استعمال رمز الياء لتمثيل الكسرة الطويلة، وقد تقاربت المشكلات التي أثارها استخدام كل منهما، ومن ثم فإن مناقشتنا لبعض القضايا المتعلقة برمز الكسرة الطويلة - على نحو ما بيّنا قبل قليل - سيفيننا عن إعادة تفصيله هنا، ونكتفي بالإشارة إليه هناك.

إن إثبات رمز الضمة الطويلة في وسط الكلمة قد اطرده مثل ما حدث ذلك في إثبات رمز الكسرة الطويلة^(٤٩)، إلا أن تجتمع صورتان للواو فقد جرى الرسم على حذف إحداها، سواء كانت الثانية علامة للجمع أو دخلت للبناء أو

(٤٩) يرى الفراء (معاني القرآن ج ٣ ص ١٦٠، وانظر الداني: المقنع ص ٣٥) ان قراءة النصب في قوله سبحانه «فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» (المنافقون ١٠/٦٣) تجوز، وان كانت الواو غير مثبتة، لأن العرب قد تسقط الواو في بعض الهجاء، كما أسقطوا الألف من سليمان وأشباهه، ويروى أنه رأى في بعض مصاحف عبد الله ابن مسعود (فقولا) مكتوباً (فقلا) بغير واو ويقول في موضع آخر (ج ١ ص ٨٧-٨٨): «لأن الواو ربما حذفت من الكتاب وهي تتراد، لكثرة ما تنقص وتزاد في الكلام، ألا ترى أنهم يكتبون الرحمن وسليمن بطرح الألف، والقراءة بإثباتها، فلهذا جازت»، ولعل ما رواه الفراء من إسقاط الواو في وسط الكلمة في بعض مصاحف عبد الله لم يكن يمثل اتجاهاً عاماً في ذلك، أما استشهاده بحذف الألف من مثل الرحمن وسليمن فليس على وجهه، فقد بيّنا تاريخ استخدام رموز الحركات الطويلة، وأشرنا الى قدم استخدام رمزي الكسرة والضمة الطويلتين وحدائهما استخدام رمز الفتحة الطويلة، فلماذا لم تكن الإشارة إليها كاملة في كل الأمثلة، ومن ثم فإن إثبات رمز الضمة الطويلة في وسط الكلمة قد اطرده إلا في حالة اجتماع واوين في الرسم فتحذف إحداها بسبب كراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الخط على حد تعبير علماء السلف.

كانت صورة للهمزة، وذلك مثل (ولا تلون، ولا يستون، والغاون يدرءون، يؤده، داود، وري)، وشبه ذلك^(٥٠).

أما إثبات رمز الضمة الطويلة في آخر الكلمة فقد جاء أكثر اكتتالا من إثبات رمز الكسرة الطويلة، ولعل ذلك راجع إلى أنها لم تتعرض لما تعرضت له الكسرة الطويلة من التقصير والحذف في آخر الكلمة فهي لم تقع رأس آية فيصيبها بعض التغيير، كذلك يبدو أنها لم تتعرض للتقصير في حشو الكلام، وإذا كانت قد تعرضت لذلك فالكتّاب جروا في إثباتها على الأصل دون الالتفات لذلك التغيير الطارئ، ولعل اطراد زيادة ألف بعدها في آخر الكلمة قد ساعد على حرص الكتّاب على إثباتها دون الالتفات إلى ما قد يصيبها من تقصير.

لكن الكتّاب - رغم ذلك - قد حذفوا رمز الضمة الطويلة في أربعة مواضع في آخر الكلمة، جروا فيها على اللفظ، إذ إنها وقعت في موقع يحتم تقصيرها، فقد التقت الضمة الطويلة من آخر الكلمة بحرف ساكن من أول الكلمة التي تليها فتكون القطع المديد المقفل بصامت (ص ح ص) الذي أشرنا إلى أن البناء المقطعي للغة العربية ينعمه في غير الموضعين المشار إليهما سابقاً، فيضطر المتكلم لذلك إلى تقصير الحركة الطويلة في ذلك المقطع، فيتحول إلى مقطع طويل مقفل (ص ح ص)، ومعنى ذلك أن الضمة الطويلة قد قصرت، وصارت ضمة قصيرة، وحين أسقط الكتّاب رمز الضمة الطويلة إتباعاً للفظ لم يجدوا ما يشيرون به إلى الضمة القصيرة المتبقية. والمواضع الأربعة التي بني فيها الخط على اللفظ هي في (الإسراء ١١/١٧) ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ﴾، و(الشورى ٢٤/٤٢) ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾، و(القمر ٦/٥٤) ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، و(العلق ١٨/٩٦) ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾^(٥١).

(٥٠) انظر المهدي ص ١١٠، والداني: المقنع ص ٣٦، وابن وثيق الأندلسي لوحة ٦.

(٥١) انظر أبو بكر الانباري ج ١ ص ١٤٦. والمهدي ص ١١٠، والداني: المقنع ص ٣٥. وابن وثيق الأندلسي لوحة ٦.

فالأفعال (يدعو ويمحو وسندعو) أفعال مضارعة لم يقترن بها ما يجتم جزمها وحذف رمز الواو منها، علامة لتقصير الحركة بسبب الجزم، وإنما حذف رمز الضمة الطويلة بسبب ما أشرنا إليه من استقبالها للحرف الساكن، وهو حرف اللام من الكلمات التالية لها، فقصرت وصارت ضمة قصيرة، وليس للضمة القصيرة رمز حينذاك، فبنوا الخط على اللفظ وأسقطوا رمز الضمة الطويلة، وذلك من حيث عاملوا في كثير من مواضع الكتابة اللفظ والوصل دون الأصل والقطع^(٥٢)، فيقول أبو بكر الأنباري^(٥٣): «والعلة في هؤلاء الأربعة أنهم اكتفوا بالضمة من الواو فأسقطوها، ووجدوا الواو ساقطة من اللفظ، لسكونها وسكون اللام فبني الخط على اللفظ».

ويبدو بعد هذا أن التعليل لسقوط الواو في هذه الأمثلة الأربعة بالوقف عليها كما يذهب إلى ذلك ابن جني^(٥٤)، أو أنها حذفت لأمن اللبس لأن ذكر الفاعل يمنع أن يكون الفاعل جماعة فلا يحصل اللبس، بخلاف قولك لا تضربوا الرجل، فإنه لو حذف لالتبس الجمع فيه بالواحد كما ينقل القلقشندي^(٥٥) - غير صحيح. وأغرب من ذلك وأكثر بعداً عن الصواب هو ما أشرنا إليه في فصل سابق من منهج أبي العباس المراكشي في تعليل هذا الحذف بالدلالة على المعاني المختلفة، وأن السر في حذف الواو من هذه الأربعة هو التنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود.

على أن ذلك الحذف لم يشمل كل الحالات التي التقت فيها الضمة الطويلة من آخر كلمة بحرف ساكن من أول كلمة أخرى، فقد جاءت الواو ثابتة في سوى

(٥٢) انظر الفراء: معاني القرآن ج ١ ص ٣٣٧، وج ٢ ص ١١٧. وأبو بكر الأنباري ج ١ ص ١٤٧، وابن خالويه: اعراب ثلاثين سورة ص ١٤١. والداقي: الحكم ص ١٥٨. والزنجشيري: الكشف ج ٤ ص ١٧٤.

(٥٣) ايضاح الوقف والابتداء ج ١ ص (٢٦٩-٢٧٠).

(٥٤) انظر الخصائص ج ٢ ص ٢٩٣، وانظر أيضاً د. رمضان عبد التواب ص ١٥٧.

(٥٥) صبح الأعشى ج ٣ ص ٩٩.

الأمثلة الأربعة المشار إليها^(٥٦)، من مثل (الرعد ٣٩/١٣) ﴿يَمْنَحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ﴾، و(الأحزاب ٢١/٣٣) ﴿لَمِنَ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، ومثل (الفرقان ١٤/٢٥) ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً﴾، وما أشبه ذلك، فقد جرى الكتاب في هذه الأمثلة وما يشبهها على أصل بناء الكلمة دون الالتفات إلى ما لحقها في الكلام المتصل من تغيير.

وقد حذفت الواو من الخط باطراد بعد هاء الضمير إذا انفتح ما قبلها أو انضم، ولم يلقها ساكن، نحو له ملك السموت، ولا يؤده حفظها، وشبه ذلك^(٥٧).

وحذفت كذلك من الخط بعد ميم الجمع^(٥٨)، فإن اتصل بها ضمير ثبتت لفظاً وخطاً، نحو (البقرة ١٩١/٢) ﴿تَقَفُّهُمْ﴾، و(الانعام ٩٤/٦) ﴿جِئْتُمُونَا﴾، و(هود ٢٨/١١) ﴿أَنْزَلْنَاكُمْوهَا﴾ وما أشبه ذلك.

ثالثاً: رمز الفتحة الطويلة (الألف):

كان رمز الألف (أ)، الذي هو أول حروف الأبجدية السامية، يمثل الصوت

(٥٦) روى أبو بكر الانباري (ج ١ ص ٢٧١) أن الفراء حكى أن الواو سقطت في الرسم في قوله تعالى (التوبة ٦٧/٩) ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾. وأنه قال: (العلة في هذا أنهم وجدوا الواو ساقطة من اللفظ لسكونها وسكون اللام فبنوا الخط على اللفظ واكتفوا بالضممة من الواو) لكن أبا بكر الانباري عقب على ذلك بقوله (ج ١ ص ٢٧٢): والذي وجدناه في مصاحفنا (نَسُوا) بالواو فالوقف عليه بالواو، والذي مضى حكاه بعض أصحابنا عن الفراء متأولاً عليه، وكلام الفراء لا يدل على حذف الواو من (نَسُوا) في الخط. وقال أبو عمرو الداني (المقنع ص ٣٥): ولا نعلم أن ذلك كذلك في شيء من مصاحف أهل الأمصار، والذي حكى عن الفراء - غلط من الناقل. ومع هذا فإن هذه الرواية - إن صحت عن الفراء فإن من المحتمل أن يكون الفراء قد أخبر عن مصحف رآه، وليس بعيداً أن تحذف الواو هنا مثلاً حذفت في المواضع الأربعة المذكورة اتباعاً للفظ، رغم أنها هنا ضمير للجمع.

(٥٧) ابن وثيق الأندلسي لوحة ٦.

(٥٨) انظر المبرد ج ١ ص ٢٦٨، وابن وثيق الأندلسي لوحة ٦.

الصامت الذي أطلق عليه في اللغة العربية في فترة لاحقة إسم (المهمزة)، ولكن حدث أن استعير لتمثيل الفتحة الطويلة في الكتابة النبطية المتأخرة، التي هي أحد فروع الكتابة الآرامية، والتي انحدرت منها الكتابة العربية المستخدمة في كتابة الوحي ونسخ المصاحف العثمانية، فورثت الكتابة العربية ذلك الاستعمال الذي لم يكن يستخدم إلا حيث تقع الفتحة الطويلة في آخر الكلمة، لكن الكتابة العربية استطاعت أن تشيع استخدام رمز الألف للإشارة إلى الفتحة الطويلة في وسط الكلمات أيضاً^(٥٩)، ونظراً لحداثة إثبات الكتاب لرمز الفتحة الطويلة وسط الكلمات بالنسبة للرسم العثماني فإنه لم يكن من اليسير عليهم تعميم ذلك في كل الحالات وتناسي صور هجاء الكلمات القديمة التي لم يكن يثبت فيها رمز الفتحة الطويلة. فكان ذلك الاستخدام يدخل الكتابة تدريجياً أي أنه لم يشمل أولاً كل الكلمات التي تكون الفتحة الطويلة المتوسطة جزءاً منها، فكان الكتاب يشبونها في بعض الكلمات دون بعض، لا بل حتى الكلمة الواحدة كانت تكتب بإثبات رمز الفتحة الطويلة في موضع ومجذفها في موضع آخر، فكان نظام الإشارة إلى الفتحة الطويلة المتوسطة غير مستقر في الفترة التي استخدم فيها الصحابة - رضوان الله عليهم - الكتابة العربية في كتابة القرآن الكريم، فجاء الرسم العثماني يحمل خصائص تلك المرحلة، حيث جاء بعض الكلمات يمثل الطريقة الجديدة لرسم الكلمات بإثبات رمز الفتحة الطويلة المتوسطة، وبعضها ظل على الطريقة القديمة دون إثبات رمزها.

١ - عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة:

أ- موقف علماء السلف من الظاهرة:

ويبدو أن جزءاً من تاريخ تطور استخدام رمز الألف لتمثيل الفتحة الطويلة قد غاب عن علماء الرسم وعلماء العربية، ووقفوا لذلك بحيرة كاملة أمام طريقة الرسم العثماني في الإشارة إلى الفتحة الطويلة المتوسطة، وحاولوا

(٥٩) انظر تاريخ استخدام الألف للإشارة إلى الفتحة الطويلة المتوسطة (ص ٧١) من الفصل التمهيدي.

واجتهدوا في المحاولة للوصول إلى تفسير مقبول لتلك الظاهرة، وقد تباينت وجهات نظرهم، لكنها كانت تشترك في عدم معرفتهم تاريخ المشكلة، تلك المعرفة التي أتاحتها الاكتشافات الأثرية الحديثة، فعملوا عدم إثبات صورة الفتحة الطويلة لضعفها^(٦٠) أو لكثرة الاستعمال^(٦١)، أو للتخفيف والاختصار^(٦٢)، أو ليحتمل الرسم القراءتين^(٦٣).

وقد حاول علماء الرسم وضع ضابط لحالات عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة المتوسطة والحالات التي أثبتت فيها، ورغم أننا سنلاحظ أن هناك ضابطاً يمكن أن يلمح من خلال الأمثلة، كان يستأنس به الكاتب في إثبات أو عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة المتوسطة، إلا أن علماء الرسم حاولوا عرض الكلمات التي خضعت لتلك الظاهرة في أبواب محددة، لكنها لم تكن تستجيب لمقياس معين من المقاييس التي استخدموها لرصد الظاهرة، حتى أن الإمام ابن وثيق الأندلسي يصرح في الفصل الذي عقده لحذف الألف بقوله^(٦٤): «إعلم أن هذا الباب كثير الاضطراب، متشعب، لا يرجع إلى قياس فيحصر».

وحين عرض الإمام أبو عمرو الداني في كتابه (المقنع) الكلمات التي جاءت محذوفة الألف - وهو قدوة لمن جاء بعده في ذلك - لم يتضح له المنهج الذي يمكنه السير عليه، رغم أنه لم يكن يهدف إلى أكثر من تقديم عرض جامع لتلك الكلمات^(٦٥)، فبدأ بعرض الكلمات التي تضمنتها رواية إمام المدينة نافع بن أبي

(٦٠) يقول ابن درستويه (ص ٤٤): «وأكثر حروف اللين حذف الألف لضعفها وأنها أكثر في الكلام من غيرها».

(٦١) انظر مثلاً أبو بكر الأنباري ج ١ ص ١٧٣ والصولي ص ٣٦.

(٦٢) انظر مثلاً: الداني: المقنع ص ١٠ و١٦، وسليمان بن نجاح لوحة ٤، والرازي: مفاتيح الغيب ج ١ ص ٥٧ وعلم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ١٥ ب ١٦/أ.

(٦٣) انظر مثلاً علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ١٥/أ، والليبي ورقة ١٩ ب.

(٦٤) انظر رسالة في رسم المصحف لوحة ٢.

(٦٥) انظر المقنع ص ١٠ وما بعدها.

نعيم، ثم عرض بعد ذلك حذف الألف من (يا) التي للنداء، و(ها) التي للتنبيه، ومضى في عرض الكلمات التي لم يثبت فيها رمز الألف المتوسطة، على أساس الحرف الذي سبق الألف، فعرض لحذفها بعد اللام والنون والعين وغير ذلك من الحروف، ثم تعرض لكلمات مفردة، وبعدها عرض في فصل حذف الألف من الأسماء الأعجمية، ثم في فصل آخر لحذفها من الجمع المذكر السالم، وفي آخر لحذفها في الجمع المؤنث السالم، وأشار من قبل لحذفها في المثنى. وهكذا جرى العرض على غير منهج محدد يمكن أن تصنف فيه الكلمات بسهولة، فمرة تعرض الكلمات على نسق ورودها في الآيات والسور، وأخرى حسب ما يجاورها من حروف، وثالثة حسب نوعها من حيث الجمع وغيره، وأحياناً تعالج كلمات معينة بمفردها، ولا شك أن الظاهرة - على نحو ما مر من قريب - لم تكن تتيح وضع مثل ذلك المنهج الذي يستوعب تلك الكلمات في فصول محددة.

وقد حاول أبو بكر اللبيب في شرحه للعقيلة أن يصنّف الكلمات التي لم تثبت فيها الألف في الخط إلى ثلاثة أقسام^(٦٦): قسم وقع فيه الحذف لأجل القراءات، وقسم يسمى اختصاراً، وقسم يسمى اقتصاراً، فأما الذي حذف من أجل القراءة فنحو قوله تعالى (الفاحة ٣/١) ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾، فمن قرأها (مالك) على وزن فاعل زاد ألفاً في اللفظ، محذوفة في الخط لأجل القراءة الأخرى. وأما حذف الاختصار فهو حذف الألفات اللاتي يكنّ في جمع مذكر أو مؤنث سالم كثير الدور غير مشدد ولا مهموز، وأما حذف الاقتصار فهو أن يحذف ألف من كلمة ويثبت في نظائرها نحو قوله تعالى: ﴿فِي عِبَادِي﴾، في الفجر (٢٩/٨٩)، فقد انعمد الاجماع على حذف الألف بعد الباء في هذا الموضع خاصة، وأثبتت بعد الباء في لفظة (عبادي، وعبادنا وعباد الرحمن) في جميع القرآن.

ولكن ذلك التقسيم الذي أورده اللبيب ليس له سند تاريخي، فالحذف من أجل القراءة ينفيه القول بأن المصحف العثماني لم يكتب إلا على قراءة واحدة -

(٦٦) انظر الدرّة الصقيلة ورقة (١٩ ب - ٢٠ أ) وانظر أيضاً المارغني ص ٤٢.

كما رجحنا ذلك من قبل^(٦٧) - أما الحذف اختصاراً أو اقتصاراً فإن هذا القول معناه أن الألف كانت مثبتة قبل نسخ المصاحف، وأن الكتابة حذفوها اختصاراً، أو اقتصاراً، والحقيقة هي - على ما بينا - أن الفترة التي تم فيها نسخ المصاحف كانت مرحلة انتقال لم تستقر فيها الطريقة الجديدة للإشارة إلى الفتحة الطويلة المتوسطة، فجاءت الألف مثبتة في بعض الكلمات وغير مثبتة في أخرى^(٦٨)، بل جاءت بعض الكلمات بإثبات الألف في مواضع وبمحوها في مواضع أخرى، ولم يكن أهل ذلك الزمان يشعرون بأي خروج على أصول الكتابة، بل إن تلك الطريقة كانت هي واقع الكتابة الذي جرى عليه الكتابة حين نسخوا المصاحف العثمانية.

ب - التفسير الراجح للظاهرة:

ويؤيد هذا الذي نحاول أن نفسر به ظاهرة إثبات وحذف رمز الفتحة الطويلة المتوسطة في الرسم العثماني - النقوش المكتوبة التي تعود إلى الفترة السابقة للرسم العثماني، أو المعاصرة، أو اللاحقة له. إذ إنها تظهر بوضوح الطريقة التي جرى عليها كتابة المصحف العثماني في تمثيل الفتحة الطويلة المتوسطة، كما وضحنا ذلك من قبل في الفصل التمهيدي، وتشهد له أيضاً طريقة رسم الكلمات التي جاءت فيها الفتحة الطويلة المتوسطة في النقود الإسلامية، والبرديات العربية التي يعود أقدمها إلى أواخر القرن الأول الهجري، حيث نجد ظاهرة حذف الفتحة المتوسطة لا تزال ماثلة في عشرات الأمثلة التي أهمل فيها إثبات الألف^(٦٩)، ونحن لا نزال نلمس آثاراً من هذه الظاهرة في الهجاء الحديث، في بضعة كلمات لم يجد الناس ضرورة لتغيير هجائها، أو أن صورها قد تحجرت على

(٦٧) انظر البحث الثالث من الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٦٨) حصر العلماء الكلمات التي جاءت محذوفة الألف في كل مكان على نحو ما فعل العقيلي، (انظر لوحة ٣) حيث جمعها في ثلاثة عشر بيتاً من النظم.

(٦٩) انظر د. عبد العزيز الدالي ص ٢١٧-٢١٨، ود. صلاح الدين المنجد ص ١٢١

شكلها القديم فلم تعد تستجيب لمحاولات إدخال رمز الألف فيها، فظلت كذلك على مدى السنين، من مثل (لفظ الجلالة، ومثله اللهم، واله، وهذا، وهذه، وهذان، وهؤلاء، وأولئك، ولكن) وما أشبه ذلك.

ولا أشك في أن الذين شهدوا عصر نسخ المصاحف والسنوات التالية لذلك لم يشعروا تجاه تلك الظاهرة بأية غرابة، فذلك هجاؤهم الذي اعتادوه، وتلك طريقتهم في الكتابة، وإنما وقف عند تلك الظاهرة موقف المتأمل لها والمتعجب منها من عاش بعد الأجيال الإسلامية الأولى، حين ازداد استعمال الكتابة، وظهرت الحاجة إلى تعلم العربية من قبل عامة المسلمين، فذهبت السليقة التي كان يقرأ بها العربي النص المكتوب بالطريقة القديمة، وأسرع الكتاب إلى تعميم الطريقة الكاملة لرسم الكلمات تيسيراً للقراءة، ومن هنا حدث الافتراق بين الرسم الصحفي والهجاء المستعمل من قبل الكتاب وعامة الناس، وبدا حينئذ عدم إثبات الألف أمراً غريباً للناس، عجزوا في الغالب عن إدراك أصوله التاريخية.

ولم يكن إثبات الألف أو حذفها في وسط الكلمة يجري دون أساس ما، فإن تأمل الأمثلة التي جاءت فيها الألف ثابتة في الخط وتلك التي حذفت منها، يمكن أن يعيننا على لمح ذلك الضابط أو المعيار، الذي كان يعمل في توجيه تلك الظاهرة، ويرسم الاطار الواسع الذي تتحرك من خلاله في طريقها إلى الكمال، ومع ذلك فلا يمكن القول بأن ذلك الضابط كان واضحاً تمام الوضوح لدى الكتاب أو أنه كان يعمل بطريقة قاطعة في توجيه الظاهرة، بل إن من الكلمات ما ظل يتشبث بالصورة القديمة، دون أن يخضع لهذا المعيار الذي نحاول أن نتبينه من خلال الأمثلة، ومنها ما تجاوزه وبلغ المرحلة الجديدة قبل أن يبلغها سواها مما يشبهها من الكلمات، وربما كانت هناك عوامل أخرى تتعلق بطبيعة الحروف التي تتكون منها الكلمة نفسها، أو بمستوى الكاتب الثقافي ومعرفته بأصول الكتابة، فكلها كان على إمام ومعرفة بالكتابة كان أكثر التزاماً بصور هجاء الكلمات القديمة.

أما ذلك المعيار الذي أثر في توجيه الظاهرة فهو - باختصار - أن الكلمات كانت تخضع، في ميلها لإثبات رمز الفتحة الطويلة المتوسطة، لعدد الرموز التي تتألف منها، فكلما كثرت رموزها أبطأت في الاستجابة لإثبات رمز الفتحة الطويلة المتوسطة، وكلما قلت كانت أكثر استجابة لذلك.

فالكلمات التي يمكن أن تتضمن فتحة طويلة متوسطة لا بد أن يكون فيها صوتان صامتان يكتنفان الفتحة الطويلة، وقد جاءت الألف ثابتة في كافة أمثلة هذا النوع، فمن الأسماء (عام، الجار، الفار، قاع، خال، وما كان مثل: باغ وعاد) ومن الأفعال (زاد، كان، قال، قام، تاب، كاد، مات، عاد، فاز، طاب...)، ولم تأت الألف محذوفة في شيء من هذه الأمثلة إلا في الفعل الماضي (قال)، فقد جاء في بضعة أماكن مكتوباً (قل)، ولكن القراءة وردت فيه بمحذف الألف على الأمر عند بعض القراء^(٧٠)، وهو ما قد يكون سبباً في ذلك الهجاء.

وكلما ازدادت حروف الكلمة فوق ذلك - أو اتصل بها ضمير أو علامة إعراب أو بناء - مال الكتاب إلى عدم إثبات الألف فيها، فالكلمات التي جاءت على صيغة فاعل نحو (كاتب، ظالم، شاهد، مارد، شارب، طارد)، وعلى صيغة فَعَالٍ وفِعَالٍ مثل (العذاب والعقاب والحساب) وعلى صيغة فَعَّالٍ نحو (خَوَّان، ختار، صبار، كفار)، وعلى وزن فُعْلانٍ نحو (بنيان، طغيان، كفران، قربان، خسران، عدوان)، وعلى وزن فِعْلانٍ نحو (صنوان، وقنوان) - قد جاءت الألف في الغالب مرسومة في تلك الأمثلة^(٧١)، لعدم استطالتها كثيراً بما دخل على صيغها من زيادة.

ويغلب حذف رمز الألف من الأفعال ذات الصيغ المزیدة، كذلك فإن الصيغة الواحدة نفسها تميل الألف فيها إلى عدم الإثبات في صيغة المضارع أو في حالة اتصال الضمائر، ويغلب إثباتها في صيغة الماضي حين يكون الفعل مجرداً من

(٧٠) انظر الداني: التيسير ص ١٥٦ و ١٦٠ و ١٩٦.

(٧١) انظر المهدي ص ١١٠، والداني المقنع ص ٤٤.

الزوائد. فنجد الألف محذوفة في ﴿يُسْرِعُونَ﴾ (١١٤/٣) ثابتة في ﴿سَارِعُوا﴾ (١٣٣/٣)، ومحذوفة من ﴿أَتَحِبُّونِي﴾ (٨٠/٦) ثابتة في ﴿حَاجَّ﴾ (٢٥٨/٢) و﴿حَاجُّوكَ﴾ (٢٠/٣)، ولكن نجدها ثابتة كذلك في ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾ (٧٣/٣)، وحذفت من ﴿تُشَقُّونَ﴾ (٢٧/١٦) وجاءت ثابتة في ﴿شَاقُوا﴾ (١٣/٨)، كذلك حذفت من ﴿فَلَا تُصْحِنِي﴾ (٧٦/١٨) وثبتت في ﴿صَاحِبَهُمَا﴾ (١٥/٣١).

وعلينا أن نتذكر دائماً أن ذلك لم يكن يخضع - على ما يبدو - للمعيار الذي أشرنا إليه بطريقة قاطعة، لأن صور الكلمات التي اعتادها الكتاب ليست من السير الخروج عليها، حتى ولو كان ذلك استجابة لواقع نطقها، فاستخدام الكتاب لذلك المعيار كان يتم بطريقة غير منتظمة أو غير مقصودة أو غير واعية - إن صح التعبير - ولذلك فليس من الغريب أن يقترن الفعلان ﴿هاجر﴾ و﴿جاهد﴾ في آية واحدة في أكثر من موضع مع مجيء الفعل الأول بإثبات الألف والثاني محذوفها، ورغم تشابهها في الصيغة، من ذلك مثلاً (البقرة ٢/٢١٨) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾، وقد تكرر نفس التركيب في أربعة مواضع أخرى بنفس الطريقة (٧٢)، وكذلك جاء الفعل (هاجر) بالألف في كافة مواضع وروده، بينما جاء الفعل (جاهد) بدونها في كافة أحواله، ولكن هل يعني ذلك أن حذف الألف وإثباتها مرتبط بما يجاورها من أصوات؟ لا يبدو ذلك من الأمثلة، ولعل مجرد اعتياد الكتاب على إثبات الألف في كلمة دون أخرى هو الذي يفسر سلوك هجاء هذين الفعلين.

إن الأساس الذي قامت عليه ظاهرة إثبات وحذف رمز الفتحة الطويلة المتوسطة في الرسم العثماني يتضح بصورة أكثر جلاء حين نتتبع الكلمات التي اتصلت بها مقاطع للدلالة على التثنية أو الجمع السالم المذكر والمؤنث، أو كانت الكلمة متصلة بضمير الجماعة المتكلمين (نا) واتصل بها ضمير آخر، فإن الكلمات في مثل هذه الحالات سوف تستطيل بهذه اللواحق، ومن ثم فإن الكتاب مالوا إلى

(٧٢) انظر «الانفال ٧٢/٨ و٧٤ و٧٥ والتوبة ٢٠/٩».

عدم إثبات الألف المتوسطة فيها في أغلب الأحوال، فألف التشنية المرفوعة جاءت محذوفة في مثل (امراتن، رجلن، يحكمن، يقتلن)، وشبهه^(٧٣)، سواء أكانت الألف إسماً أم حرفاً، ما لم تقع طرفاً، ووقعت حشواً في جميع القرآن، كذلك اتفقت المصاحف على حذف الألف من الجمع السالم الكثير الدور في المذكر والمؤنث جميعاً^(٧٤)، فالمذكر نحو (العلمين، الصبرين، الصدقين، الفسقين، المنفقين، الكافرين، الظالمون، الخسرون، السحرون، الكفرون)، وما كان مثله. والمؤنث نحو: (المسلمت، المؤمنت، الطيبت، الحبيثت، الكلمت، ظلمت، الظلمت، ثيبت، بينت)، وما كان مثله، وقد نص علماء الرسم على أنه إذا جاء بعد الألف في مثل تلك الكلمات همزة أو حرف مضعف نحو (السائلين، القائمين، الخائنين، الصائمين، الظانين، الضالين، العادين، حافين، الصائمت، الصافات) فإن المصاحف اختلفت في هذين النوعين في إثبات الألف وحذفها، وقد نقل، عن بعض الأئمة، إثبات الألف أيضاً فيما كان من الجمع معتل اللام، وذلك نحو (العادين، القالين، العافين، راعون، طاغون، ساهون)، وكذلك ما كانت لامه همزة أيضاً نحو (فالمثون وخاسئين)^(٧٥).

أما ما اجتمع فيه ألفان من جمع المؤنث السالم فإن الرسم ورد في الأكثر بحذفهما معاً سواء أكان بعد الألف حرف مضعف أم همزة، نحو (الصلحت، الحفظت، الصدقت، الصفت، الصممت)، وشبه ذلك^(٧٦). وقد جاءت بعض الأمثلة من هذا النوع بإثبات الألف مثل ﴿سبع سموات﴾ (السجدة ٤١/١٢)، فإن الألف مرسومة بعد الواو في هذا الموضع خاصة، أما التي بعد الميم فمحذوفة

(٧٣) انظر ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ص ٤٠، والداني: المقنع ص ١٧، والعقيلي لوحة ٦ وقد جاءت بعض الأمثلة من هذا النوع بإثبات الألف في المصحف المطبوع.

(٧٤) انظر المهدي ص ١٠٥، والداني: المقنع ص ٢٢، وسليمان بن نجاح لوحة ٤.

(٧٥) انظر نفس المصادر، والعقيلي لوحة ٤٥٣.

(٧٦) انظر الداني المقنع ص ٢٣، وسليمان بن نجاح لوحة ٤، والعقيلي لوحة ٤.

في كل موضع بلا خلاف^(٧٧)، وكذلك فإن كل شيء في القرآن من ذكر (ء آياتنا) فهو بغير الألف إلا في موضعين، فإنها رسماً بالألف، في يونس (٢١/١٠) ﴿مَكْرُومٌ فِي آيَاتِنَا﴾، وفيها أيضاً (آية ١٥) قوله سبحانه ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾^(٧٨).

ويبدو أن إثبات الألف بعد الهمزة أو الحرف المضعف في الأمثلة السابقة إنما استجاب الكاتب للمد الذي أصاب الفتحة الطويلة فيها، بسبب وقوعها بعدها، إلا أنه رغم ما يرد من استثناءات على حذف الألف في هذه الأمثلة يظل ازدياد حجمها عاملاً في حذف الألف من أغلب الأمثلة، خاصة إذا تذكرنا أن معظم تلك الأمثلة جاءت في المفرد بإثبات الألف.

أما الكلمات التي اتصل بها ضمير المتكلمين (نا)، وبعده ضمير آخر، فقد جاءت ألف ضمير الجمع محذوفة في كل الحالات دون استثناء، مثل (أنجينكم، ءاتينكم، أغوينكم، مكنكم، علمنه، ءاتينك، أرسلنك، فرشنها، أنشانهن، فجعلنهن)، وما كان مثله في جميع القرآن^(٧٩).

وهكذا تتقابل الكلمات الأكبر حجماً في مثل الأمثلة السابقة، التي تحذف فيها الألف في أكثر المواضع، بالكلمات الأقل حجماً من مثل (كان وقال)، التي تثبت فيها الألف في كل الأحوال، وبين هذه وتلك تتكون عشرات الأمثلة والصيغ التي ترد فيها الألف متوسطة سواء بأصل وضعها وباتصالها بالضائر، أو حروف البناء، وهي جميعاً تخضع لذلك المعيار في إثبات أو حذف الألف، مع مرونة في تطبيق ذلك الضابط، ليتناسب وميل الكتابة في الاحتفاظ بالصور القديمة لهجاء الكلمات، ويتناسب والعوامل الأخرى التي قد تؤثر في إثبات الألف في كلمة قد اشتهرت صورتها بحذف الألف منها، لكن قد يجري كاتب على كتابتها حسب نطقها كأن يكون لم يقرأها في نص مكتوب، فيكتب - مثلاً -

(٧٧) الداني: المقنع ص ١٩، وسليمان بن نجاح لوحة ١١.

(٧٨) انظر الداني: المقنع ص ٢٠.

(٧٩) نفس المصدر ص ٢٣.

(هذا ولكن) هكذا (هاذا، لاكن) فيشيع استخدامها بعد ذلك في صورتها الجديدة.

ولعل فهم المشكلة على هذا النحو يقدم لنا تفسيراً مقبولاً للعديد من الكلمات التي جاءت بإثبات الألف في بعض المواضع وبحذفها في مواضع أخرى، فإثبات الألف في ﴿كاتب﴾ في البقرة (٢/٢٨٢، ٢٨٣) وحذفها في ما عدا ذلك^(٨٠)، وإثبات الألف في (قرآن) في كافة المواضع وحذفها منه في موضعين، في يوسف (٢/١٢) والزخرف (٣/٤٣)^(٨١)، وكذلك حذف الألف من (ترابا) في ثلاثة مواضع، في الرعد (٥/١٣) والنمل (٦٧/٢٧) والنبأ (٤٠/٧٨) وإثباتها في ما عدا ذلك^(٨٢)، ومثل ذلك إثبات الألف في (كتاب) في أربعة مواضع، في الرعد (٣٨/١٣) والحجر (٤/١٥) والكهف (٢٧/١٨) والنمل (١/٢٧) وحذفها في كل شيء في القرآن من ذكر (الكتاب وكتاب^(٨٣))، وما أشبه ذلك من الأمثلة التي ترد بإثبات الألف مرة وبحذفها أخرى - لم يكن ذلك لشيء من اختلاف اللفظ أو المعنى العام للكلمات في المواضع التي حذفت منها الألف والتي أثبتت فيها، وإنما كان ذلك لأن هذه الكلمات كانت تتردد في استعمال الكتاب بين الاحتفاظ برسمها القديم وبين كتابتها على الشكل الجديد بإثبات رمز الألف، فالكلمات التي كانت تنحصر بين أصغر الأمثلة حجماً، حيث تثبت الألف دائماً، وبين أكبر الأمثلة حجماً حيث تحذف الألف غالباً كانت قد بلغت مرحلة من عدم الاستقرار بين الحالتين: إثبات الألف وفقاً للنطق والاستعمال الجديد لتمثيل الفتحة برمز الألف، وحذفها جرياً على الصورة القديمة لهجاء تلك الكلمات.

أشرنا من قبل إلى اطراد إثبات رمز الفتحة الطويلة في آخر الكلمات على

(٨٠) الداني: المقنع ص ١٧.

(٨١، ٨٢) نفس المصدر ص ١٩.

(٨٣) نفس المصدر ص ٢٠.

كل حال، والألفات التي تذهب في الوصل لا تحذف في الوقف لأن الفتحة والألف أخف عليهم كما يقول سيبويه^(٨٤)، إلا أن الرسم العثماني يقدم لنا مثلاً واحداً استجاب فيه الكاتب للفظ الكلمة في درج الكلام، فحذف الألف في الكتابة لذلك، والمثال هو كلمة (أيها) التي وردت في كل مكان في المصحف بإثبات الألف إلا ثلاثة مواضع، فإن الألف فيها محذوفة^(٨٥)، في سورة النور (٣١/٢٤) ﴿أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وفي الزخرف (٤٩/٤٣) ﴿يَأَيُّهُ السَّاحِرُ﴾، وفي الرحمن (٣١/٥٥) ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾، وحين نتأمل نطق الفتحة الطويلة في (أيها) في درج الكلام في هذه الأمثلة نجد أنها تتأثر بظاهرة كراهة الاحتفاظ بحركة طويلة في مقطع مقفل، والتي تعرضنا لبيان أثرها في حذف رمز الكسرة والضمة الطويلتين من قبل، فقد استقبلت الفتحة الطويلة في آخر كلمة (أيها) اللام الساكنة التي تليها، فاضطر الناطق إلى تقصير الحركة الطويلة، فألت إلى الفتحة القصيرة، فبنى الكاتب الخط على اللفظ في هذه المواضع الثلاثة، فحذف رمز الألف لذلك^(٨٦)، على نحو ما بينا ذلك في الضمة والكسرة الطويلتين في مثل هذه الحالة.

ونجد أن (ها) التي للتنبيه و(يا) التي للنداء - جاءتا محذوفتي الألف في كل المواضع، في الرسم العثماني، نحو (هأنتم)^(٨٧)، هؤلاء، هذا، هذه، هذان، هذين و(يأيها، يارض، ياولي الألباب، ياأخت، ينوح، يلوط، يقوم، يرب) ونحو ذلك من الأمثلة^(٨٨)، حيث كتبت متصلة بما يليها من كلمات، وعوملت معاملة الألف

(٨٤) انظر الكتاب ج ٢ ص ٢٩٠.

(٨٥) المهدي ص ١٠٨، والداني: المقنع ص ٢٠.

(٨٦) نحن نرجح هذا التفسير على القول بأنها كتبت على قراءة ابن عامر بضم الهاء في الثلاثة، (انظر الداني: التيسير ص ١٦١-١٦٢).

(٨٧) يلاحظ أن الألف بعد الهاء هي من بنية الضمير (أنتم) بعد (ها) التنبيه.

(٨٨) الداني: المقنع ص ١٦.

المتوسطة^(٨٩)، دون حذف الألف من نظائرها من مثل (ما، لا) التي جاءت بإثبات الألف في كل الأحوال.

وإذا كان رسم كل من الكسرة والضمة الطويلتين قد تعرض للحذف أو عدم الإثبات في بعض الحالات، فإن الفتحة الطويلة قد شاركتها في ذلك، في وسط الكلمة خاصة، وناقت عليها بظواهر أخرى تتعدى مسألة الحذف والإثبات إلى رسمها برموز أخرى لا تتناسب والنطق، فقد جاءت مرسومة بالياء في بعض الكلمات، وبالواو في كلمات أخرى، إضافة إلى مجيئها زائدة في رسم بعض الكلمات، دون أن تكون لها دلالة في النطق.

٢ - رسم الفتحة الطويلة ياء:

أما رسم الألف ياء فقد اتفقت المصاحف على رسم الفتحة الطويلة المتطرفة في ما كان أصله من ذوات الياء من الأسماء والأفعال بالياء وكذلك في ما كان رباعياً مطلقاً، سواء اتصلت الكلمة بضمير أم لم تتصل، لقيت ساكناً أم متحركاً، وذلك نحو^(٩٠): (الموتى، السلوى، المرضى، الأسرى، شقى، صرعى، طوبى، الحسنى، ليسرى، للعسرى، البشرى، موسى، عيسى، إحدى، أحديها، أحدين بشريكم، أخريكم، مجريها، مرسيها، الهدى، الهوى، العمى، أدنى، أزكى، أربى، سعى، رمى، يتلى، تدعى، يخفى آتيكم، أريكم، أتيها، يصلها)، وشبه ذلك، ورسمت الفتحة الطويلة ياء أيضاً في (على، إلى، حتى، متى، بلى) حيث وقعن.

هذا إذا لم تجتمع في آخر الكلمة ياءان نحو: (الدينا، العليا، الرैया، رءياك، الحوايا، وأحيا، أحياهم، محياي، محياهم)، وكذلك (هداي، ومثواي)

(٨٩) يعلل أبو بكر الانباري ذلك (ج ١ ص ١٧٣) بقوله «وإنما جاز حذف الألف من (يا) لأن (يا) تدعى بها الأسماء ولا تدعى بها الأفعال، فحذفوا الألف لكثرة الاستعمال».

(٩٠) انظر: الداني: المقنع ص ٦٣، والعقيلي لوحة ٣.

وما كان مثله، فإن هذا النوع رسم بالألف، وعلل ذلك بكراهة اجتماع ياءين في الرسم، وقد خرجت من هذا مواضع، منها (يجيي)، إسمًا كان أو فعلًا في جميع القرآن^(٩١).

وجاءت سبع كلمات من ذوات الياء وقد رسمت فيها الفتحة الطويلة المتطرفة بالألف^(٩٢)، فأولها في سورة ابراهيم (٣٦/١٤) ﴿عصاني﴾. و﴿الأقصا﴾، في الاسراء (١/١٧). و﴿تولاه﴾، في الحج (٤/٢٢). و﴿أقصا﴾، في القصص (٢٠/٢٨)، ويس (٢٠/٣٦). و﴿سياهم﴾، في الفتح (٢٩/٤٨). و﴿طفا﴾، في الحاقة (١١/٦٩).

واتفقت المصاحف على رسم ما كان من الاسماء والأفعال من ذوات الواو على ثلاثة أحرف بالألف، وذلك نحو: الصفا، شفا، سنا، خلا، عفا، دعا، بدا، نجا، علا. إلا ستة أحرف فإنها رسمت بالياء^(٩٣)، وهي كلمة (الضحى) حيث وقعت، مضافة أو مقترنة (بال) أو مجردة، و﴿زكى﴾ في النور (٢١/٢٤) و﴿دحَّهَها﴾ في النازعات (٣٠/٧٩) و﴿تلَّهَها﴾ و﴿وضَّحَّهَها﴾ في الشمس (٢١/٩١) و﴿سجَّي﴾ في وَالضُّحَى (٢/٩٣).

أ - موقف علماء السلف من الظاهرة:

وقد علل علماء الرسم كتابة الفتحة الطويلة ياء في ذوات الياء (على مراد

(٩١) انظر المهدي ص ٨٧، والداني: المقنع ص ٦٣ و٦٤، والعقيلي لوحة ٣.

(٩٢) انظر المهدي ص ٨٧، والداني: المقنع ص ٦٤، والحكم (له) ص (١٦٠-١٦١). وانظر أيضاً كتاب الهجاء (المجهول) حيث يذكر (لوحة ١٣) ست كلمات: ﴿ومضا مثل الأولين﴾ في الزخرف (٨/٤٣)، و﴿وجنا الجنتين﴾ في الرحمن (٥٤/٥٥)، و﴿أحيا الناس﴾ في المائدة (٣٢/٥)، وطفا والأقصا وأقصا المذكورة.

(٩٣) انظر المهدي ص ٨٦، والداني: المقنع ص ٦٦، والعقيلي لوحة ٦.

الامالة وتغليب الأصل)^(٩٤). أي أن الفتحة الطويلة نطقت ياء أو قريباً منها على عادة كثير من العرب في الامالة وعلى نحو ما روي عن بعض القراء ، فكتبت لذلك بالياء ، أو أنها رسمت على أصلها الذي تؤول إليه في بعض الصيغ ، وقالوا لذلك بأن ما رسم بالألف من ذوات الواو إنما كان ذلك لامتناع الامالة فيه^(٩٥).

أما رسم الفتحة الطويلة في ذوات الواو بالياء في الأمثلة الستة المشار إليها ، فقد عللوا ذلك بأنه على وجه الاتباع لما قبل ذلك وما بعده مما هو مرسوم بالياء من ذوات الياء لتأتي الفواصل على صورة واحدة^(٩٦) ، وقد نقل أبو بكر الأنباري مذهب الأخفش في تعليل ذلك وهو قوله: كتبت هذه بالياء لأن أواخر الآي التي معها بالياء . فكتبوها على مثل الذي هي معه ، يعني أن (سجى) سبقه ﴿والضحى﴾ و﴿تليها﴾ سبقه ﴿وَضَحَّهَا﴾ وقال أيضاً: وإن شئت قلت: قلبوا ﴿سجى﴾ و﴿تلى﴾ إلى الياء لأن الواو تنقلب إلى الياء ، وقال أيضاً: ويقال كتبت في موضع بالاتباع ثم كتب في كل مكان بتلك الصورة لئلا يفترق الخط مثل (قضى) لأنه يقال (قضيت وقضينا) فيكون الخط متفقاً^(٩٧).

وعلل أبو العباس أحمد بن عمار المهدي كتابة ذوات الياء بالياء بأن ذلك للدلالة على أنها من الياء ، وللفرق بينها وبين ذوات الواو ، وما كتب منها بالألف فعلى اللفظ ، وأما ذوات الواو فإنها كتبت بالألف ليفرق بذلك بينها وبين ذوات الياء . وما كتب منها بالياء فلأنها ترجع إلى الياء إذا دخلت عليها الزوائد أو كان الفعل غير مسمى الفاعل ، وأكثر ما وقع من ذلك بالياء ما جاور ذوات الياء

(٩٤) انظر مكّي: الكشف ج ١ ص ٣ . والداني: المقنع ص ٦٣ ، وسليمان بن نجاح لوحة ١٨ و٦ والجعبري ورقة ٢٥٠ ب . والشيرازي لوحة ١١ ، والقسطلاني ج ١ ص ٨١ .

وانظر ابن جنّي: سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٥٦ .

(٩٥) انظر الداني: المقنع ص ٦٦ . والشيرازي لوحة ١٢ .

(٩٦) الداني: المقنع ص ٦٧ .

(٩٧) ايضاح الوقف والابتداء ج ١ ص (٤٣٧-٤٣٨) .

فرد إلى الياء وهو من ذوات الواو، ولتتفق رؤوس الآي وتجري على سنن واحد^(٩٨).

وقد أشار الامام أبو عمرو الداني في كتابه (الموضح في الفتح والامالة) إلى أن العلماء اختلفوا في أيهما أوجه من طريق النظر وأولى من جهة القياس الفتح أم الامالة؟ ولا يعيننا من الاجابة على ذلك^(٩٩) سوى مذهب أبي عبيد القاسم بن سلام في أن الفتح هو الأصل، وردة مذهب من احتج بالخط للامالة بقوله: واحتجوا في الاضجاع - يعني الامالة - بالخط، فقالوا رأينا المصاحف كلها بالياء في هذه الحروف، ثم قال: والذي عندنا في ذلك أنه يلزم من أضجع اتباعاً للخط أن يضحع (على وإلى ولدى) لأنهن جميعاً كتبن بالياء، وليس أحد يتكلم بهن بالاضجاع^(١٠٠).

ويفهم من قول أبي عبيد هذا أنه لا يرى أن ما رسم بالياء من الألفات قد رسم للامالة، وقد ناقش الداني أبا عبيد فيما ذهب إليه من اختيار الفتح وترجيحه على الامالة فقال^(١٠١): فأما ما احتج به أبو عبيد، رحمه الله، من اختيار الفتح وتغليب إياه بذلك على الامالة فلا يلزم من خالفه، إذ ليس بدليل قاطع لاحتماله من وجوه الصواب ما هو أولى من الوجه الذي وجهه إليه، ثم يقول^(١٠٢): وأما قوله في (على وإلى ولدى) إن من أمال من أجل الخط لزمه أن يملهن لرسمهن بالياء فلا يلزم أيضاً، لأن من خالفه يقول لم تكتب ألفاتهن ياءات

(٩٨) انظر هجاء مصاحف الامصار ص ٩٠.

(٩٩) انظر مكّي: الكشف ج ١ ص ١٦٨، والداني: الموضح ورقة ٢٤ أ. ود. عبد الفتاح شلي: الإمالة ص ٦٤.

(١٠٠) الداني: الموضح ورقة ٢٤ أ. ونقل ذلك علم الدين السخاوي في جمال القراء (انظر ورقة ١٨٣ ب).

(١٠١) الموضح ورقة ٢٤ ب.

(١٠٢) نفس المصدر ورقة (٢٥-٢٥ ب) وانظر علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٨٧/أ.

للدلالة على أن ذلك أصلهن ولا على أن الامالة جائزة فيهن، كما كتبن فيما عداهن من أجل ذلك، بل إنما كتبهن كذلك خشية الالتباس بما قد يشركهن في الصورة.. ومما يدل أيضاً على أنهم رسموا (على وإلى ولدى) بالياء للفرق إجماعهم على ترك امالتهن^(١٠٣). على أن أئمة القراءة لم تمل ما كان من ذوات الياء من أجل الرسم فقط، بل إنما امالته من حيث صحة الرواية بامالته عندهم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم دلت على حسنها وجوازها وتأكيدها ووقوعها برسم تلك الحروف بالياء إذ الامالة من الياء، والياء من الأسباب الجالبة لها.

تتلخص - إذن - وجهة نظر علماء السلف في رسم الألف ياء في أنها رسمت كذلك اما بسبب الامالة، وهي « أن تقرب الفتحة، قصيرة كانت أو طويلة، إلى الكسرة، قصيرة كانت أو طويلة، كذلك »^(١٠٤). أو لأن أصل بناء تلك الكلمات الياء، ليقال في (رمى) مثلاً (يرمي، رميت، الرمي..... الخ) فظهر أن أصل الفتحة الطويلة في (رمى) الياء، فكتبت كذلك بناء على الأصل^(١٠٥) أو أن بعض

(١٠٣) يرى الإمام مكّي (الكشف ج ١ ص ١٩٣) أن الف (على وإلى ولدى) إنما كتبت بالياء لانقلابها مع المضمرة الى الياء في اللفظ، تقول (عليه وإليه ولديه)، فكتبن على الانفراد بالياء اتباعاً لاتصالهن بالمضمرة.

(١٠٤) د. عبد الفتاح شليبي: الإمالة ص ٥١. وانظر في تعريف ومعنى الإمالة أيضاً: المبرد ج ٣ ص ٤٢، وابن جنّي: الخصائص ج ٢ ص ١٤١. ومكّي: الكشف ج ١ ص ١٦٨. وابن يعيش ج ٩ ص ٥٤ وابن الجزري: النشر ج ٢ ص ٣٥، ود. ابراهيم أنيس: في اللهجات العربية ص ٦٤. وانظر د. عبد الفتاح شليبي: الإمالة ص (١٤-١٥).

(١٠٥) يقول الداني (الموضح ورقة ٢٦ ب): «إعلم أنك اذا أردت أن تعرف أصل الألف المنقلبة عن أي شيء انقلبت؟ فإنك تعتبرها بأحد أربعة أشياء: بالاسم الذي أخذت منه، أو بالفعل، أو بالتثنية، أو بالجمع. فإن ظهرت الياء في كل ذلك أو في شيء منه فهي أصلها، وأن ظهرت الواو فيه فهي أيضاً أصلها». وانظر الداني: التيسير ص ٤٧ ومكّي: الكشف ج ١ ص ١٨٠. وابن الجزري: النشر ج ٢ ص ٣٥.

ما كتب بالياء إنما كتب كذلك للفرق بينه وبين ما قد يشركه في الصورة، أو لأن ما أصله الواو من ذلك رسم بالياء على وجه الاتباع، ولتتفق رؤوس الآي.

ب - مناقشة آراء علماء السلف:

ويبدو أن أياً من تلك التعليقات التي ذكرها العلماء غير قادر على إعطاء تفسير يشمل كافة الأمثلة التي جاءت فيها الفتحة الطويلة مرسومة بالياء، فالتعليل بالامالة يستثنى منه ما أجمع القراء على عدم الامالة فيه، والتعليل بالاصل لا يشمل ما جاء من ذوات الواو مرسوماً بالياء، أما الفرق أو الاتباع فليس في أي منها - على ما يبدو - دلالة على تعليل ما سبق من أجله، ومن هنا يتطرق الشك إلى صحة تلك التعليقات أو كفايتها.

أما تعليل ما رسم ياء، من ذوات الواو، بالاتباع لتأتي الفواصل على صورة واحدة فإن ذلك يثير سؤالاً حول أثر ظاهرة الحرص على تناسب رؤوس الآي، وهل أن ذلك يتعدى اللفظ إلى طلب التناسب في الهجاء؟ فقد بني هذا التعليل على أساس أن الكلمة التي تأتي في الفاصلة، وهي منتهية بفتحة طويلة مع فواصل أخرى منتهية بفتحة طويلة مرسومة ياء - يتحتم رسم الفتحة الطويلة في تلك الكلمة بالياء أيضاً. فكلمة (سجى) - مثلاً - في سورة الضحى، رسمت كذلك لأن رؤوس الآي التي اكتنفها جاءت فتحة طويلة مرسومة بالياء على هذا النحو: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

وإذا كان بعض تلك الكلمات لم يرد إلا مرة واحدة، وفي رأس آية، فإن كلمة ﴿الضحى﴾ جاءت ست مرات، في وسط الآية، وفي آخرها، مضافة وغير مضافة، وهي في كل ذلك جاءت مرسومة بالياء، وكذلك الفعل (تضحى) في سورة طه (١٩/٢٠) قد جاء مرسوماً بالياء، وهذا يشير إلى اطراد الظاهرة في الكلمة دون أن يكون لذلك علاقة بالفواصل، ويبدو أن القول بأنها كتبت في موضع بالاتباع ثم كتبت في كل مكان بتلك الصورة ليتفق الخط لا يقوم على دليل، خاصة أننا نجد أن رؤوس الآي قد تتابع كلماتها منتهية بفتحة طويلة مرسومة بالياء، ثم نجد من بينها كلمة جاءت مرسومة بالألف، أو أن رؤوس

الآي تتابع منتهية بالألف المرسومة عوضاً من التنوين في الوقف، ثم نجد بينها كلمة منتهية بفتحة طويلة جاءت مرسومة بالياء، وهو ما يدل على انتقاض الأصل الذي بني عليه هذا التعليل، ففي سورة الكهف نجد كلمة ﴿هدى﴾ بين رؤوس الآي المنتهية بالألف التي هي عوض من التنوين المفتوح والتي جاءت متتابعة هكذا (الكهف/١٨-١١-١٤) ﴿عددا، أمدا، هدى، شططا﴾. ونجد في سورة طه (٧٤-٧١/٢٠) ﴿أبقى، الدنيا، وأبقى، ولا يجيى﴾. وفيها أيضاً (١١٨-١١٣) ﴿.. ذكراً، علماً، عزماً، أبقى، ففتشى، ولا تعرى﴾، وفي سورة والنجم (٣١-٢٦/٥٣) ﴿ويرضى، الأنثى، شيئاً، الدنيا، اهتدى، الحسنى﴾، وفيها أيضاً (٤٣-٤٥) ﴿وأبكى، وأحيا، الأنثى﴾. وكذلك نجد نفس الظاهرة في سورة الطلاق (٧-٥/٦٥)، وفي سورة النازعات (٣٩-٣٧/٧٩)، وفي سورة الأعلى (١٧-١٥/٨٧).

ومع أن الملاحظ على الفواصل بصورة عامة أنها تميل إلى الانتهاء بصور هجائية متشابهة، كما يظهر - مثلاً - من مقارنة فواصل سورة الكهف التي تنتهي بالألف وفواصل سورة طه التي تنتهي بفتحة طويلة رسمت ياء - فإن هذا الاتجاه لا يعني أن ما يرد من كلمات تخالف نهايتها نهايات كلمات فواصل السورة يجب تغيير رسمها لتتناسب الصورة ويتفق الخط، ومن ثم فإن هذا التعليل لبعض أمثلة الظاهرة يبدو ضعيفاً، لضعف الأساس الذي بني عليه، كما نلاحظ من تتبع الأمثلة.

أما القول بأن ما رسم بالياء من ذوات الياء للفرق بينها وبين ذوات الواو، وأن ما كتب من ذوات الواو بالألف ليفرق بذلك بينها وبين ذوات الياء - فإنه تعليل لا يجد من الأدلة ما يدفع إلى الأخذ به، بل يبدو أن هذا المبدأ في تفسير بعض ظواهر الرسم والكتابة العربية لا أصل له، وأن بعض العلماء قد عجزوا من الوصول إلى تفسير صحيح لبعض ظواهر الرسم أو الزيادة فيه، فقالوا إن تلك الظاهرة أو الزيادة جاءت للفرق بينها وبين ما قد يشركها في الصورة^(١٠٦).

(١٠٦) انظر ص (٨٤-٨٧) من الفصل التمهيدي

أما التعليل الذي يبدو أكثر شمولاً للظاهرة وأوضح حجة في الدليل فهو القول بأن ما رسم بالياء من الفتحاح الطويلة إنما كان ذلك لقراءته بالامالة، التي تقرب الفتحة الطويلة إلى الكسرة الطويلة التي ترسم برمز الياء، ولكن ليس لدينا ما يثبت أن كتبة المصاحف في عهد عثمان - رضي الله عنه - كانوا يتحرون الألفاظ المائلة فيرسمونها بالياء، والألفاظ غير المائلة فيرسمونها بالألف^(١٠٧)، بل إنَّ هناك من الأدلة ما ينفي أن تكون تلك الفتحاح الطويلة قد رسمت ياء بسبب الامالة^(١٠٨).

فقد ورد - أولاً - في كتب النحو والقراءات ما يدل على أن أصحاب الامالة من القبائل هم تميم وقيس وأسد وعامة أهل نجد^(١٠٩). ورغم أن أقوال سيبويه توحي أن بعض أهل الحجاز قد يميل، (أما العامة فلا يميلون)^(١١٠)، لكن نصوص علماء القراءة وأقوالهم جاءت تؤكد أن الفتحاح والامالة لغتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وأن «الفتح لغة أهل الحجاز والامالة لغة عامة أهل نجد، من تميم وأسد وقيس»^(١١١). ومع أن ابن

(١٠٧) انظر د. عبد الفتاح شلبي: الإمالة ص ١٩٦.

(١٠٨) يرى المستشرق برجشتراسر (التطور النحوي ص ٣٨-٣٩) أن الكلمات العربية التي رسمت بالياء أوماً الكتاب بها الى الإمالة وهو من ثم يستدل بذلك على أن الإمالة كانت معروفة مستعملة عند أهل الحجاز. ولكن سنجد أن الرواية والواقع ينفيان هذه الدعوى.

(١٠٩) انظر د. عبد الفتاح شلبي: الإمالة ص ٧٥.

(١١٠) انظر الكتاب ج ٢ ص ٢٥٩، و ٢٦٠ و ٢٦١، ويقول (ج ٢ ص ٢٦٣): «واعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينصب بعض ما يميل صاحبه، ويميل بعض ما ينصب صاحبه، وكذلك من كان النصب من لغته لا يوافق غيره ممن ينصب، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر، فإذا رأيت عربياً كذلك فلا تريه خلط في لغته ولكن هذا من أمرهم».

(١١١) الداني: الموضح ورقة ٢٣ ب، وانظر مكّي: الكشف ج ٢ ص ٣٧٩، وابن =

الجزري يقول « ما أحد من القراء الا رويت عنه إمالة، قلت أم كثرت » (١١٣)، إلا أن الملاحظ بصورة عامة أن قراء العراق، خاصة في الكوفة، كانوا أكثر رواية للإمالة من قراء الحجاز، فأشهر من رويت عنهم الإمالة من القراء العشرة هم حمزة والكسائي وخلف، وهم أئمة القراءة في الكوفة، أما قرءاء الحجاز أمثال ابن كثير المكي وأبي جعفر ونافع المدنيين، فلا تعرف قراءاتهم الإمالة إلا نادراً (١١٣). ومعنى ذلك أن اللغة السائدة في الحجاز والقراءة التي كان قراء مكة والمدينة يقرؤونها هي بصورة عامة الفتح دون الإمالة (١١٤)، أي أن الإمالة لم تكن لغة الذين ولوا نسخ المصاحف.

ثم إن ما ورد من روايات القراء في الإمالة - ثانياً - لا يشمل كل الكلمات التي رسمت فتحاتها الطويلة ياء، فقد استثنيت بضع كلمات - كما مر ذكر ذلك - وهي (حقي، إلى، على، لدى، ما زكى)، إذ إنهن مفتوحات بإجماع (١١٥)، كذلك فإن بعضاً مما أميل قد جاء مرسوماً بالألف، من ذلك - مثلاً - من الأفعال (جاء، شاء، زاد، ران، خاف، طاب، خاب، حاق، ضاق، زاغ) (١١٦)، ومن الاسماء كل ألف بعدها راء مكسورة مثل (النار، القهار، الغار، بقنطار، بدينار)

= يعيش ج ٩ ص ٥٤، وابن الجزري: النشرح ج ٢ ص ٣٠.

(١١٢) منجد المقرئين ص ٦٠.

(١١٣) انظر في ذلك: الداني: التيسير ص ٤٦ وما بعدها. وابن يعيش ج ٩ ص ٥٤،

وابن الجزري: النشرح ج ٢ ص ٣٥ وما بعدها، ود. ابراهيم أنيس: في اللهجات

العربية ص ٦٠، ود. عبد الفتاح شليبي: الإمالة ص ١٠٨.

(١١٤) ورد في معجم الأدباء لياقوت (ج ١٣/ ص ١٧٤) أَنَّ الْكِسَائِيَّ حَجَّ مَعَ الرَّشِيدِ،

فَقَدَّمَ لِبَعْضِ الصَّلَوَاتِ قَفْرًا: ﴿ذَرِيَّةٌ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ (النساء ٩/٤)

وَأَمَّا (ضِعَافًا) فَلَمَّا سَلَّمَ أَنْكَرَ النَّاسُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، بَلْ يَذْهَبُ الْخَبْرُ إِلَى الزَّعْمِ أَنَّهُمْ

ضربوه - وفي ذلك إشارة إلى أن أهل الحجاز لم يكونوا يميلون في قراءتهم.

(١١٥) انظر الداني: التيسير ص ٤٦، وابن الجزري: النشرح ج ٢ ص ٣٧.

(١١٦) روى الداني (المقنع ص ٦٦) أن عاصماً الجحدري قال: إنه رأى ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾

(النساء ٣/٤) مرسوماً بالياء (طيب)، وأن الكسائي قال: إنه رأى في مصحف =

وشبهها^(١١٧). وهذا يشير إلى أن الامالة لم تكن أساساً في ما كتب بالياء ولم يمل، أو في ما كتب بالألف مما أميل، وقد سبق قول الداني إن أئمة القراءة لم تمل ما كان من ذوات الياء من أجل الرسم فحسب، بل إنما أميل من حيث صحت الرواية، وقد نقل صاحب (كتاب الهجاء) أن من القراء، من كان من أهل الامالة، لا ينظر إلى المصحف بل يميل ذوات الياء كلها كالكسائي، يقف على جنا الجنتين (جنا) وطفا الماء (طفاً)، وأقصا المدينة (أقصياً)، وأحيا الناس (أحياً)^(١١٨)، ولعل معنى الخبر الذي يرويه ابن أبي داود^(١١٩) والداني^(١٢٠)، عن وكيع عن الأعمش، أن ابراهيم قال «كانوا يرون أن الألف والياء في القراءة سواء» - هو أن من قرأ بالفتح أو بالامالة لم يكن ينظر في ذلك إلى ما رسمت به الفتحة الطويلة من ألف أو ياء، بل يعتمد الرواية، سواء أوافقت الرسم أم خالفته.

ومن ثم فإن كل ذلك قرائن تشير إلى أن الامالة لم تكن الأساس في ما رسم بالياء من الفتحات الطويلة، لكن الملاحظ أن هناك توافقاً كبيراً بين الامالة والخط، فأكثر ما أميل هو ما رسمت فيه الفتحة الطويلة ياء، وربما كان سبب ذلك التوافق أن كلا من الامالة والخط يراعى فيه الرجوع بالألف إلى الياء أو أنه ناشئ من الياء^(١٢١).

أبي بن كعب ﴿وَلِلرَّجَالِ﴾ (البقرة ٢/٢٢٨) مكتوبة بالياء (وَلِلرَّجِيلِ). ومع أن الداني نصّ على أنه لم يجد ذلك كذلك مرسوماً في شيء من مصاحف أهل الأمصار فربما رسمت هتئين الكلمتين بسبب الإمالة في بعض المصاحف حيث جرى الكاتب على قراءة الإمالة، وربما يكون ذلك الرسم أثراً الظاهرة لغوية قديمة.

(١١٧) انظر الداني: التيسير ص ٥٠ وما بعدها.

(١١٨) كتاب الهجاء (المجهول) لوحة ١٣.

(١١٩) المصاحف ص ١٠٤ و ١٠٥. (١٢٠) الموضح ورقة ٢٥ أ.

(١٢١) انظر د. عبد الفتاح شلي: الإمالة ص ٢٢٧، ورسم المصحف والاحتجاج به في القراءات (له)، القاهرة، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ ص ٧٧.

ثم إن القول بأن أصل رسم الفتحة الطويلة ياء في تلك الأمثلة عامة هو باعتبار الأصل يبدو غير واضح ولا دقيق، فهو مع ورود بعض الاستثناءات التي عددها العلماء عليه، لا يبين هل يكون مجرد مجيء بعض صيغ الكلمة بالياء كافيًا لتعليل رسم الفتحة الطويلة في غيرها بالياء، أو أن الكلمة التي فيها الفتحة الطويلة هي نفسها كان لها أصل في الياء، أي أنها كانت تنطق ياء؟ والذي يفهم من كلام علماء السلف أنهم يكتفون بالقول الأول، وتظل المشكلة بذلك قائمة دون أن تجد حلًا، يشمل جميع الأمثلة الظاهرة، ويجد له من الواقع سنداً يدفع إلى اعتاده والأخذ به.

ج - التفسير الراجح للظاهرة:

ولعل الشق الثاني من التساؤل السابق، وهو أن احتمال كون تلك الكلمات كانت تنطق في يوم ما بالياء، وترسم لذلك بالياء - هو الذي يمكن أن يفسر تلك الظاهرة، ثم يبدو أنه قد حدث تطور في لفظ الياء في تلك الكلمات إلى الفتحة الطويلة، ولكن لم تواكب الكتابة ذلك التطور، فظل الرسم بالياء التي نجدها مرسومة الآن في كثير من الكلمات في الرسم العثماني، بينما صار اللفظ فتحة طويلة.

وحين نتتبع عامة الأمثلة في هذه الظاهرة نجد أن الياء تظهر في صيغها المتعددة، وهو ما حمل علماء السلف على القول بأن الفتحة الطويلة كتبت ياء بناء على الأصل، ولكن أليس من المحتمل أن هذه الفتحة الطويلة كانت في يوم ما ياء، مثل عامة صيغ الكلمة الأخرى، ثم حدث أن صارت إلى الفتحة الطويلة لتطور لحق الكلمة خاصة أنها في طرف الكلمة؟ نجد أن التطور في صيغ الكلمات قد أصاب الفعل الماضي مرة والمضارع أخرى، وربما شمل المصدر أيضاً، فما الماضي فيه بالألف والمضارع بالياء - مثلاً - (جنى - يجني، ومشى - يمشي، ورمى - يرمي) وما كان المضارع فيه بالألف والماضي بالياء (خشي - يخشى، ورضي - يرضى، وبقي - يبقى، ولقي - يلقي، ونسي - ينسى، وفني - يفنى)،

ونجد أن بعض مصادر هذه الأفعال قد احتفظت بالياء مثل (مشيا، ورميا)، وبعضها قد صارت الياء فيه فتحة طويلة، أو احتفظت بالصيغتين، مثل (أذِيَّ أَدَىَّ، وأنى أنياً وإنى، وخزِي خَزِيَا وخَزَىَّ، ورضِي رِضَاً)، ولعل من الممكن أن نستنتج من ذلك أن هذه الفتحات الطويلة كلها كانت ياء في الأصل، وان التطور كان من الياء إلى الفتحة الطويلة، وما ساعد على ذلك وقوعها في الطرف، ولهذا نجدها ياء إذا اتصلت بالضمير مثل (مشيت ورميت ويحشيان ويرضيان)، أي أنها أقل استجابة للتطور حين توجد في وسط الكلمة، ثم لعل من الممكن القول بناء على ذلك إن بالإمكان أن يأتي كل فعل معتل بالياء على صيغتين في المضارع والماضي وكذلك المصدر، هما الصيغة القديمة بالياء، والصيغة المتطورة بالألف، فنقول: (رضِيَّ ورَضَىَّ مثل رَمَىَّ، ويرضَىَّ ويرضِيَّ مثل يرمي. وِرِضَا ورَضِيَا مثل رَمِيَا)، ولعل مجيء الفعل (بَقِيَ) بصيغته الأخرى (بَقَى) وكذلك مجيء مصدر (خَزَى) بالصيغتين (خَزِيَا وخَزَى) - مما يسوغ قبول هذه الفكرة^(١٢٢)، ولا شك أن كثيراً من الأفعال لم تبلغ كل صيغها جميع مراحل ذلك التطور، فنجد أن بعضها لا يزال يحتفظ بالصورة الأولى للفظ في المضارع أو في الماضي، وبعضها بالصورتين، إلا أن فعلاً مثلاً (سَعَى) قد تحقق التطور فيه في الماضي والمضارع (سَعَى، يسَعَى) دون المصدر (سَعِيَا).

ولا يعني هنا كثيراً - إذا صح ما قدمناه - أن نحدد تاريخاً لذلك التطور الذي حدث في مراحل متقدمة من تاريخ العربية، بل يبدو أن محاولة تحديد مثل ذلك التاريخ الآن خطوة لا تعتمد على أدلة كافية، ويكفي أن نعرض مثلاً لخطوات ذلك التطور المحتمل في فعل من الأفعال المعتلة بالياء، فالفعل (رمى)

(١٢٢) قال ابو عمرو الداني (المحكم ص ١٥٧) وهو يتكلم عن رسم (ترأى) بألف واحدة بعد الراء في قوله تعالى (الشعراء ٢٦/٦١) ﴿تَرَاءَ الْجَمْعَانِ﴾. إن أصل هذا الفعل هو (ترأى) على وزن تفاعل، ومثل ذلك من السالم تضارب وتقاتل، فلما تحركت الياء التي هي لام، وانفتح ما قبلها انقلبت الفاء، (ترأء)، وهذه الظاهرة هي نفس ما نجد في الأفعال الثلاثية المعتلة في (رمى وسعى).

كان حسب الأصل المفترض (رَمَيَ ramaya)^(١٢٣)، ثم حدث أن تطورت الياء وهي متطرفة إلى فتحة طويلة، ولم يتطلب ذلك التطور سوى سقوط الياء ثم التقاء حركتها بحركة الميم قبلها لتكون الحركتان القصيرتان فتحة طويلة هكذا (rama - a → ramaa)، ولكن رغم حدوث ذلك التطور في اللفظ فإن الرسم ظل على حالته بالياء، لان الكتابة كما ذكرنا من قبل أقل تطوراً، وأكثر احتفاظاً بالظواهر القديمة^(١٢٤).

وليس من اليسير - هنا - أن نتابع مثل ذلك التطور في كل ما كتب بالياء من الفتحاح الطويلة في الرسم العثماني، ونرجع بها إلى أصلها اليائي، ولو أن عامتها تظهر الياء في بعض صيغها، ولكننا سنعتبر هذا التفسير للظاهرة شاملاً لكل الكلمات التي جاءت فتحاتها الطويلة مرسومة بالياء، سواء كان مما قال فيه العلماء إنه من ذوات الياء أم من ذوات الواو^(١٢٥)، من الثلاثي أو من غيره، على

(١٢٣) انظر برجشتراسر ص ٣٩.

(١٢٤) لاحظ علماء العربية ظاهرة تحول الياء التي تقع طرفاً في مثل الأمثلة المذكورة وعبروا عن ذلك بالابدال مرة وبالقلب أخرى، وقالوا إن الياء والواو اذا تحركتا وانفتح ما قبلها قلبتا الفا أو ابدل منها الالف، (انظر ابن يعيش ج ١٠ ص ١٦ و ٩٨، والسيوطي: همع الهوامع ج ٢ ص ٢٢٢)، وهي ملاحظة صادقة وصحيحة، ولكن التعبير عنها بالابدال أو القلب جاء قاصراً (انظر د.عبد الصبور شاهين القراءات القرآنية ص ٧٧)، اذ لا يحدث في تلك الأمثلة أي قلب أو إبدال، إنما تسقط الياء أو الواو وتتخلف عن ذلك فتحتهما والفتحة السابقة لها فتكونان فتحة طويلة، وهذا الموضوع أوسع من أن تتمكن من مناقشته تفصيلاً هنا، وإنما نكتفي بالقدر الذي يوضح ظاهرة رسم الفتحة الطويلة ياء في الأمثلة المذكورة، (وانظر د.كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة. ق ٢، ص ١١٦-١١٨).

(١٢٥) ان الكلمات الست التي قال عنها علماء السلف إن اصلها الواو، وكتب بالياء، تتميز بأن أكثرها واوية يائية (الضحى - زكى - طحى - تلى - دحى) وبعضها واوي الا أن الياء تظهر في بعض صيغه (سجى) (انظر مواد هذه الكلمات في =

أساس أن كل ما جاء مرسوماً من ذلك بالياء كان في يوم ما ينطق ياء ، وكتب بالياء لذلك ولكن حدث تطور في النطق لم يصاحبه تطور في الكتابة، فتولدت لدينا تلك الظاهرة التي برزت في الرسم العثماني في عشرات الكلمات.

ومع أن هذا التفسير استنتاج من خلال تتبع بعض الأمثلة في صيغها المتعددة إلا أن تأمل رسم الكلمات التي جاءت فتحاتها الطويلة مرسومة ياء ، ومقارنة ذلك بطريقة الرسم العثماني في تمثيل كل من الكسرة والضمة الطويلتين، يتضح أن هذه الياء التي هي في النطق - الآن - فتحة طويلة كانت في أصل وضعها تنطق ياء ، فرسمت لذلك بالياء . وقبل أن نفصل القول في هذه الفكرة نشير إلى نص صفوي درسه المستشرق الألماني (أنوليتان)، ولاحظ فيه ان كلمة (شتا) جاءت مرسومة في ذلك النص هكذا (ش تي)، وحاول ليتان أن يوضح أصل تلك الصورة الخطية فقال^(١٢٦): « وبيان ذلك أن الفعل الناقص له في الصفوية صيغة واحدة فقط، وهي أن لامة دائماً ياء، وهذا التغيير نصادفه في لهجات سامية كثيرة، ويتضح لنا أيضاً أن الفعل الناقص يصرف في الصفوية مثل الفعل السالم أي شَتَيْ أو شَتَيْ (و) لو كان لفظه شتا لكتب (ش ت) كما يكتب (ع ل) بمعنى على و (أل) بمعنى إلى »، ويمكن الافادة - هنا - من ملاحظة أن الفعل الصفوي (ش تي) لو كان يلفظ بالألف لكتب (ش ت)، بناء على أن الفتحة الطويلة لم يكن لها رمز في الكتابة، وكذلك يمكن القول إنه لما كان استخدام رمز الياء قديماً قدم تاريخ الأجدية وإن رمز الفتحة الطويلة لم يستخدم رمز الألف في الإشارة إليها في الكتابة العربية إلا قبل الاسلام بقرون معدودة، فإن قدم استخدام رمز الياء وحدثة استخدام رمز الفتحة الطويلة يوضح لنا سراطراد إثبات الفتحة الطويلة المرسومة ياء في حالة اتصال الضمائر بها، فالألف التي هي رمز الفتحة الطويلة تثبت في أواخر الكلمات دائماً إلا أنها تحذف في كثير من

= تاج العروس شرح القاموس لمرضى الزبيدي)، وهذا الأصل اليائي يوضح لنا
رسم الفتحة الطويلة فيها بالياء .

(١٢٦) لهجات عربية شمالية قبل الإسلام ج ٣ ص ٢٥٠ .

المواضع في وسط الكلمات، وهذا يسري على بعض الفتحات الطويلة التي هي في أصل وضعها متطرفة، لكن اتصالها بشيء يعرضها للسقوط في الرسم مثلما سقطت الألف من (نا) ضمير المتكلمين إذا اتصل بها ضمير، لكن الملاحظ أن الفتحات الطويلة المرسومة ياء جاءت ثابتة في الرسم حين تتوسط، دون أن تتعرض لظاهرة حذف الألف التي تمثل الفتحة الطويلة، وهو ما يشير إلى أن تلك الياء كانت تلفظ في الأصل ياء بالفعل، وأنها أخذت خصائص رمز الياء حين يطرد إثباتها في وسط الكلمات، فالياء التي هي فتحة طويلة في اللفظ جاءت وكأنها نفس رمز الياء التي تنطق ياء، إذ إنها ظلت ثابتة في الرسم في كل حالات توسطها، في مثل (اصطفيه، يتوفيهن، ينهيه، استسقيه، أفأصفيكم، سميكم، تتلقيهم، يغشيهم، ينهيكم، يحشيها) ومثل (هديهم، تقيه، دعويهم، سيميهم، بشريكم، منتهيها)، وما أشبه ذلك، فإن الياء التي هي فتحة طويلة في اللفظ جاءت ثابتة في كل ذلك، ولكن في أمثلة نادرة جرى فيها الكتاب على اللفظ متناسين أصل رسم الكلمة أو ربما لم يقرؤوه في نص مكتوب^(١٢٧)، مثل كلمة (سياهم) فقد وردت في المصحف ست مرات، إثنان منها رسمتا ياء (سيميهم)، في الأعراف (٤٦/٧ و٤٨)، وثلاثة مواضع جاءت محذوفة (سيميهم)، في البقرة (٢٧٣/٢) والقتال (٣٠/٤٧) والرحمن (٤١/٥٥)، ومرة واحدة جاءت مرسومة بالألف (سياهم)، في سورة الفتح (٢٩/٤٨)^(١٢٨)، وتعليل هذه الصور المتعددة لهذه الكلمة أن الكاتب تردد بين استخدام الشكل القديم بالياء في موضعين وبين الاستجابة لواقع النطق بالفتحة الطويلة فأثبتها مرة بالألف وحذفها في المواضع الأخرى إستناداً إلى ما جرى من عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة المتوسطة كثيراً.

(١٢٧) في مصحف طشقند جاءت كلمة ﴿هَدِينَا﴾ (الأعراف ٤٣/٧) و﴿أَتْنِهِنَا﴾ (هود ٩٢/١١) مرسومتان بحذف الياء التي هي في اللفظ فتحة طويلة، هكذا (هدنا) و﴿أَتْنِهِنَا﴾.

(١٢٨) انظر ابن أبي داود ص ١١٣، والمهدوي ص ٨٧، والداني المنع ص ٦٤ و٨٩.

ويبدو أن ذلك هو سبب مجيء كلمة (لدى) مرسومة بالألف في موضع (يوسف ١٢/٢٥) ﴿لَدَا الْبَابِ﴾، وبالياء في موضع آخر (المؤمن ٤٠/١٨) ﴿لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾^(١٢٩)، ويبدو ذلك أيضاً سبباً لمجيء كلمة (رأى) مرسومة بألف واحدة (را) في مثل (هود ١١/٧٠) ﴿رَأَى أَيْدِيَهُمْ﴾، و(النمل ٢٧/٤٠) ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ﴾، و(الانعام ٦/٧٧ و٧٨). و﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ﴾ و﴿رَأَى الشَّمْسَ﴾، واحتفاظها إلى جانب ذلك بالصورة القديمة (رأى) بألف بعدها ياء في موضعين، في النجم (٥٣/١١ و١٨) ﴿مَا رَأَى﴾ و﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ﴾^(١٣٠)، حيث جرى الكاتب في رسمها على اللفظ مع ملاحظة انها ربما نطقت مسهلة الهمزة، وسنتناول ذلك في المبحث التالي.

ونجد ظاهرة الاستجابة للفظ في كتابة الكلمات التي جاءت فتحتها الطويلة مرسومة بالياء شائعة في مصحف طشقند^(١٣١)، ومصحف جامع عمرو بن العاص^(١٣٢)، حيث نجد كلمات مثل (هدى، بنى، مضى، أربى) قد جاءت مرسومة هكذا (هدا، بفا، مضا، أربا)، ومثل ذلك أيضاً (حتى وعلى) حيث جاءت في مصحف طشقند مرسومتين بالألف بدل الياء في مواضع كثيرة هكذا (حتا وعلا)^(١٣٣)، ويبدو أن اتجاهها نحو كتابة هذه الكلمات على نحو ما تلفظ قد

(١٢٩) انظر ابن أبي داود ص ١١٣، وأبو بكر الانباري ج ١ ص ٤٣٩، والمهدي ص ٨٩، والداني: المتنع ص ٦٥ و ٨٥ و ١٠١.

(١٣٠) الداني: المتنع ص ٢٥، والمحكم (له) ص ١٢٩.

(١٣١) انظر: الانعام ٦/٨٠ و ٨٨ و ٩٠ و ١٦١، رهود ١١/٦٣، والنحل ١٦/٩٢، وص ٢٢/٣٨، والزخرف ٤٣/٨.

(١٣٢) انظر الانعام ٦/٨٠ و ٨٨ و ٩٠، والحج ٢٢/٣٧، والسجدة ٣٢/٩، والزمر ١٨/٣٩.

(١٣٣) انظر المواضع التي رسمت فيها (حتا): في البقرة ٢/١٠٢ و ١٠٩، والنساء ٤/١٥ و ١٨، والاعراف ٧/٣٨ والاسراء ١٧/٣٤، والكهف ١٨/٦٠ و ٧٠ و ٨٦ و ٩٠ و ٩٦، والشعراء ٢٦/٢٠١، والنمل ٢٧/١٨ و ٣٢ و يس ٣٦/٣٩، =

بدأ يظهر على أيدي الكتاب، ونلمس أثر ذلك في البرديات العربية أيضاً، حيث جاء كثير من الكلمات مما تكتب فيها الفتحة الطويلة بالياء مكتوبة بالألف، مثل (إلى، حتى، متى، أبقى، أعطى، الموتى، مولى... الخ) (١٣٤)، ولعل القواعد التي وضعها علماء العربية، وشاعت على أيدي الكتاب - هي التي صدت هذا الاتجاه من السريان في معظم الكلمات، فظلت الكلمات تحتفظ برسمها القديم الذي رسمت به في المصحف العثماني.

ويبدو أن إرجاع تلك الظاهرة التي ظهرت في رسم الكلمات التي كانت الفتحة الطويلة فيها ترسم ياء، أو أن رسم بعض الكلمات التي قال العلماء أن أصل ألفاتها الواو بالياء، إلى الخطأ أو التخليط (١٣٥) - شيء مردود، نتجه الجهل بأصل الظاهرة، وغياب ذلك البعد التاريخي لها عند إصدار ذلك الحكم، إضافة إلى أنه يدل على فهم قاصر لحالة الكتابة العربية في تلك الفترة حيث كانت حرة لم تخضع لقاعدة وضعها واضع سوى أنها كانت تتطور تطوراً يستجيب لتطور اللغة في الاستعمال الحي، فتستجيب للنطق مرة وتحتفظ بالصور القديمة لهجاء الكلمات أخرى وفقاً لما جرت عليه أيدي الكتاب في ذلك.

٣ - رسم الفتحة الطويلة واوا:

أما رسم الفتحة الطويلة واوا فقد جاء ذلك في أربعة أصول مطردة،

= وفصلت ٢٠/٤١، والمواضع التي وردت فيها (علا) هي في آل عمران ٣/١٦٠،
و١٧٩، والنساء ٤/١٧ و٨٥، والمائدة ٥/٩٢ و٩٩ و١١٧، والانعام ٦/٩٣،
والكهف ١٨/١٥.

(١٣٤) انظر د. عبد العزيز الدالي ص ٢١٩، ولم تقتصر هذه الظاهرة على المصاحف
المخطوطة القديمة والبرديات بل نجد نقشاً على الصخر قد جاءت فيه (على)
مرسومة بالالف (علا)، وربما يعود هذا النقش الى سنة (٥٥٨هـ)، حيث وجد الى
جانب نقش سد الطائف المؤرخ بسنة (٥٥٨هـ) (انظر صورة النقش د. صلاح
الدين المنجد ص ١٠٣).

(١٣٥) انظر د. عبد الفتاح شليبي: رسم المصحف ص ٧٢.

وأربعة أحرف متفرقة^(١٣٦)، فالأربعة الأصول هي (الصلوة والزكوة والحياة والربوا)، حيث وقعن، والأربعة الأحرف هي: (الغدوة) في الأنعام (٥٢/٦) والكهف (٢٨/١٨)، و (مشكوة) في النور (٣٥/٢٤)، و (النجوة) في غافر (٤١/٤٠)، و (منوة) في والنجم (٢٠/٥٣)، إلا أن ما جاء من كلمتي (الصلوة والحياة) مضافاً إلى ضمير - كتب بالألف دون الواو^(١٣٧)، مثل (صلاتهم، صلاتي، صلاتك، صلاته) و (حياتنا، حياتكم، حياتي) ولكن ربما رسمت الألف في بعض المصاحف وهو الأكثر، وربما لم ترسم وهو الأقل^(١٣٨)، أما كلمة (الزكوة) فلم تأت مضافة في القرآن، وقد كتبوا (الربوا) بالواو وألف بعدها إلا في موضع واحد اختلف فيه، وهو (الروم ٣٠/٣٩) (وما آتيتم من ربا) فليل بالألف وقيل بالواو^(١٣٩).

أ - موقف علماء السلف من الظاهرة:

وقد حاول علماء الرسم وعلماء العربية تقديم تفسير لهذه الظاهرة، فعمل معظمهم ذلك بكتابة الفتحة الطويلة واواً على لغة أهل الحجاز في التفتيح أو بكتابتها على الأصل لان أصل الألف فيها هو الواو^(١٤٠).

فقد ذهب الخليل في كتاب العين - كما ينقل ابن درستويه - إلى أنهم كتبوا (الحياة) بالواو على لغة من يفتخ الألف التي أصلها الواو في مثل الصلاة

(١٣٦)، (١٣٧) الداني: المقنع ص ٥٤. وانظر ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٥٣، والمهدوي ص ٨٨.

(١٣٨) الداني: المقنع ص ٥٥.

(١٣٩) ابن أبي داود ص ١٠٦، والداني: المقنع ص ٥٥ و٨٣.

(١٤٠) يرى ابن درستويه (ص ٤٩) أن ذلك كان (غلطاً في الخط واستعمل حتى اعتيد) ولن نحاول أن نتكلف مناقشة ذلك لأننا نرفض مبدأ القول بالخطأ في تفسير ظواهر الرسم، وبطلان دعوى القول بالخطأ في ظاهرة رسم الالف واوا - أكثر وضوحاً هنا كما سيتضح ذلك.

والزكاة^(١٤١)، وتحدث سيبويه عن ألف التفخيم في لغة أصل الحجاز، في قولهم الصلاة والزكاة والحياة، بين الأصوات الستة المستحسنة التي ذكرها بعد التسعة والعشرين^(١٤٢)، وذهب هذا المذهب - أيضاً - ابن جني، فقد قال^(١٤٣): «كتبوا الصلوة والزكوة والحياة بالواو، لان الألف مالت نحو الواو». وقال الزمخشري ان (الربوا) كتبت بالواو على لغة من يفخم كما كتبت الصلاة والزكاة وزيدت الألف تشبيهاً بواو الجمع^(١٤٤).

وكان ابن قتيبة قد ذكر أن بعض أصحاب الاعراب قال: انهم كتبوا ذلك بالواو على لغات الأعراب، وكانوا يميلون في اللفظ بها إلى الواو شيئاً، وقيل: بل كتبت على الأصل، وأصل الألف فيها واو^(١٤٥)، كذلك قال المهدوي^(١٤٦): «وما كتب بالواو من نحو (الصلوة) وشبهها، فهو محمول عندهم على لفظ التفخيم لأن الألف إذا فخمت نحى بها نحو الواو في اللفظ، فكتبت على ذلك، ويجوز أن تكون كتبت بالواو، لتدل على أن أصلها الواو». وقال الداني إن ذلك رسم

(١٤١) كتاب الكتاب ص ٤٩.

(١٤٢) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٤.

(١٤٣) سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٥٦، وانظر ابن يعيش ج ١٠ ص ١٢٧.

(١٤٤) الكشاف ج ١ ص ٢٤٤. وقد ذكر صاحب كتاب المباني في مقدمته (ص ١٣٧) أن الربوا كتب بالواو على لغة من يقول (الربوا)، وهو مما تكلمت به قريش، وروي عن ضمضم بن جوهر أنه قال «قال رجل لابن عباس إني قتلت حية، وأنا محرم، فقال ابن عباس: هل نهشت اليك؟ قال: لا. فقال: لا بأس بقتل الافعوا ولا ترمي الحدود. قال فإ أنسى خلاف كلامه من كلامنا»، ولكن عدم ورود هذه اللغة في القراءات - كما سنبين - يضعف احتمال أن تكون هذه الكلمة كتبت بالواو على تلك اللغة.

(١٤٥) أدب الكتاب ص ٢٥٣، وقد نقل القلقشندي كلام ابن قتيبة (انظر ج ٣ ص ٢٠٧).

(١٤٦) هجاء مصاحف الأمصار ص ٩٠.

بالواو على الأصل، أو على لغة أهل الحجاز الذين يفرطون في تفخيم الألف وما قبلها في ذلك^(١٤٧).

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن رسم الألف واوياً في الكلمات المذكورة كان رداً لها إلى الأصل، ليعلموا به مع علمها، ويدلوا على معرفته مع معرفتها، كما يقول ابن مقسم^(١٤٨)، ويذكر الجعبري أن وجه رسم الألف واوياً في المواضع المذكورة الدلالة على أصلها وذكر مذهب من علل ذلك بالتفخيم ثم قال^(١٤٩): « ولم أعلل به لعدمه في القرآن العظيم وكلام الفصحاء »، ويقول الداوي^(١٥٠): « وإن كان لا إمام لتلك اللغة من أئمة القراءة فقد صحت عن العرب وفشت عن الفصحاء واستعملت في الكتابة ». وذكر أن الفراء قال إنها كانت لغة الفصحاء من أهل اليمن، لكن القسطلاني يرد ذلك وينص على أن ذلك غلط لأنها إنما رسمت واوياً لتدل على أصلها^(١٥١).

ولا يكاد ما ذكره علماء السلف في تفسير الظاهرة سواء من قال إن ذلك كان بأن جرت الكتابة على الأصل، أم من ذهب إلى أنه كتب على لغة من فخم الألف - يعطي تفسيراً محدداً وواضحاً، أما المذهب الأول فلا يبين لماذا يصير الكتاب على التمسك بالأصل، وهل كان ذلك في مرحلة سابقة هو النطق الفعلي للكلمة؟ وأما الثاني، فمع نص العلماء على انعدام تلك الألف المفخمة القريبة من الواو في قراءة عامة القراء، فإن الظاهرة نفسها تنسب مرة لأهل الحجاز ومرة لأهل اليمن وأخرى أنها من لغات الأعراب، وإذا سلمنا أنها لهؤلاء جميعاً أو

(١٤٧) المحكم ص (١٨٨ - ١٨٩)، وانظر الموضح (له) ورقة ٢٥ أ، والشيرازي لوحة

(١٤٨) انظر علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ٦١ ب.

(١٤٩) خيلة أرباب المراصد ورقة ٢٤٧ أ.

(١٥٠) الموضح ورقة ٢٥ أ.

(١٥١) انظر لطائف الإشارات ج ١ ص ١٨٤.

لبعضهم، فلماذا برزت في كلمات معدودة حين تكون في صورة معينة سرعان ما تعود الكلمة في رسمها إلى المعهود من القواعد حين تتغير تلك الصورة؟ ثم ما مقدار ذلك التفخيم؟ وهل يصل إلى درجة تقرب فيها الألف من الواو؟

وردد بعض المحدثين القول بأن الألف رسمت واواً، في الكلمات المشار إليها، على لغة من يفخم الفتحة الطويلة^(١٥٢)، ليعلم القارئ أن هذه الألف مفخمة^(١٥٣)، وذهب بعضهم إلى أن ذلك النطق اللهجي متأثر بنطق أجنبي عن العربية في مستواها الفصيح^(١٥٤).

ب - التفسير الراجح للظاهرة:

وقد وردت في كلام الأئمة من علماء السلف إشارات أثارت انتباهنا، وهي تؤكد ما ذكرناه في أكثر من موضع من عدم مواكبة الكتابة لتطور ظواهر اللغة، إذ تظل الكتابة محتفظة بالصور القديمة لهجاء الكلمات مع ما قد يصيب نطقها من تطور، والكتابة من هذه الناحية تقفنا - في الغالب - على الصور القديمة لنطق الكلمات.

فمن ذلك ما نقله النووي في شرحه على صحيح مسلم عن الفراء انه قال^(١٥٥): «إنما كتبوا الربا في المصحف بالواو لأن أهل الحجاز تعلموا الخط من أهل الحيرة ولغتهم الربو، فعلموهم صورة الخط على لغتهم». وقد جاءت نفس الرواية مع إضافات مفيدة على هذا النحو^(١٥٦): «إنما صدر ذلك منهم لأن قريشاً تعلموا الكتابة من أهل الحيرة، وهم ينطقون بالواو في الربو فكتبوا على وفق منطقتهم،

(١٥٢) انظر د. عبد الفتاح شلي: الإمالة ص ٦٨.

(١٥٣) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص ٥٣.

(١٥٤) د. محمد كمال بشر: دراسات في علم اللغة ق ١ ص ١٢٨.

(١٥٥) نصر الهوريني ص ١٢.

(١٥٦) أحمد بن المبارك: الأبريز ص ٥٤، وانظر الزرقاني ج ١ ص ٣٧٥.

وأما قریش فإنهم ينطقون بالألف، فكتابتهم له بالواو جرى على منطق غيرهم وتقليد لهم.»

وأشار الصولي إلى نفس المعنى في باب ما كتب على غير القياس بقوله (١٥٧): «من ذلك الصلوة والزكوة والغدوة والحياة والمشكوة والربو كتب كل هذا في المصحف بالواو، وكان يجب أن يكتب بالألف للفظ، وإنما كتبت كذلك على مثل أهل الحجاز لأنهم تعلموا الكتاب من أهل الحيرة.»

وهذه الروايات تشير إلى انه كان لأهل الحيرة نطق معين جرت عليه الكتابة عندهم، وحين انتقلت الكتابة العربية من الحيرة إلى مراكز الحضارة في الحجاز حافظ الكتاب على صور هجاء الكلمات، لكن الرواية تفترض اختلاف نطق بعض الكلمات عند أهل الحجاز عن نطقها عند أهل الحيرة، وأن أهل الحجاز أبقوا صور الكلمات على ما كانت عليه عند كتاب الحيرة، ومن ثم فإن كتابة أهل الحجاز لتلك الكلمات بالواو «جرى على منطق غيرهم وتقليد لهم.»

ولا ندري هل كان أهل الحيرة ينطقون تلك الكلمات بالواو، وجرروا في كتابتهم على نحو ما ينطقون، أو أنهم أخذوا الكتابة العربية من بيئة أخرى كانت تكتب هذه الكلمات بالواو، وحافظوا على صورتها مع أن نطقهم لها قد يكون بالفتحة الطويلة، على نحو ما تصور بعض علماء السلف موقف أهل الحجاز حين جرروا في كتابة تلك الكلمات على منطق غيرهم؟ ومهما يكن من شيء فإن هذه الفكرة عند علماء السلف - مع أنها جاءت مقتضبة - تشير إلى فهم صحيح لأثر انتقال الكتابة من بيئة لغوية معينة إلى بيئة لغوية أخرى، سواء أكانت هاتان البيئتان تنضويان تحت ظلال لغة مشتركة واحدة، أم أن كلاً منهما كانت مستقلة عن الأخرى، لكن ظروفًا معينة جعلت إحداها تستعين بكتابة الأخرى، إذ إن صور الكلمات تحاول أن تحافظ على شكلها الذي كانت عليه في البيئة الأولى، رغم ما قد يلحق نطقها من تطور أو تغير في البيئة الجديدة،

(١٥٧) أدب الكتاب ص ٢٥٥.

وينطبق الشيء نفسه بالنسبة لكتابة لغة ما في بيئة معينة إذ إن هجاء الكلمات غالباً ما يمثل نطقاً أقدم لتلك الكلمات في نفس البيئة، وهذه الخاصية في الكتابة تفسر قسماً كبيراً من انحرافات الكتابة عن واقع النطق، وهكذا تسير هاتان الحقيقتان: تطور اللغة في بيئة معينة مع عدم ملاحظة الكتابة لذلك التطور، وانتقال الكتابة من بيئة معينة إلى أخرى قد يختلف نطق الكلمات فيها - جنباً إلى جنب في تفسير معظم مظاهر القصور في الكتابات عامة، من وجود رموز لا مقابل لها في النطق أو أن رموزاً أخرى تنطق بطريقة تغاير ما تدل عليه رموز الكتابة - كما في هذه الحالة في رسم الفتحة الطويلة واوا، وكذلك الحالة السابقة في رسمها ياء - أو أن أصواتاً معينة تلفظ لكن دون أن نجد لها مقابل في رموز الكلمة المكتوبة.

وبناء على ذلك فإن تلك الفكرة في تفسير هذه الظاهرة والتي تسبب أصلاً إلى الفراء تبدو صحيحة خاصة أن البحوث المعاصرة في مجال الدراسات المقارنة سواء في اللغة أم الكتابة قد أسهمت في تأكيدها، وقدمت للدارسين وسائل جديدة كشفت عن بعض تاريخ مشكلة الكتابة عامة، وما نحن بصدهه هنا خاصة، وبقدر ما سيكشف من نقوش سامية وخاصة من النقوش النبطية المتأخرة والعربية الجاهلية - يسهل على الباحثين تفسير المشكلة بصورة عامة، وتتبع صور هجاء الكلمات ومدى استجابتها للتطور الذي يصيب النطق.

يقدم لنا نقش نبطي مؤرخ بسنة (١ ق.م) كلمة (مناة) مكتوبة بالرموز النبطية هكذا (من وتو) (١٥٨)، وجاءت نفس الكلمة في نقش نبطي آخر يرجع إلى القرن الثالث الميلادي ومؤرخ بسنة (٢٦٧ م) مكتوبة بنفس الطريقة (١٥٩)، ولما كانت الكتابة العربية - في الرأي الراجح - منحدره من الكتابة النبطية، كما

(١٥٨) انظر خليل مجي نامي: نقش رقم (٥) سطر (٥) ص ٣٧.

(١٥٩) نفس المصدر نقش رقم (١٩) سطر (٣) ص ٦٧، وانظر د. جواد علي ج ٧

بيننا في الفصل التمهيدي، فإن من المحتمل أن يحافظ كثير من الكلمات على صورتها النبطية القديمة، رغم ما قد تكون عليه من نطق جديد في اللغة العربية، ومن المحتمل جداً كذلك أن يكون رسم الكلمة بالواو في الرسم العثماني هو بقايا من الصورة النبطية القديمة، ويمكن بسهولة تعليل الاختلاف البسيط في كلا الصورتين الهجائيتين النبطية والعربية، فالواو التي تلحق آخر الاعلام النبطية، والتي نلاحظها في الشكل النبطي، سقطت حين استعملت صورة الكلمة في الكتابة العربية، وليس بعد ذلك بينها أي اختلاف، إذ حافظت صورة الكلمة في الكتابة العربية على الواو التي تظهر في وسط الكلمة في الشكل النبطي، والتي صارت في النطق العربي للكلمة فتحة طويلة، ويبدو أن تلك الواو كانت تنطق في النبطية واواً أو ضمة طويلة، فظلت صورة ذلك النطق القديم مستخدمة رغم التحول الذي أصاب نطقها حيث صارت تنطق في اللغة العربية فتحة طويلة.

وتشير الدراسات اللغوية المقارنة إلى أن كلمة (الصلاة) بالمعنى المفهوم منها عند المسلمين هي في بعض اللغات السامية (صلوتا) أو (صلوت)^(١٦٠) وبغض النظر عن كون الكلمة عربية أو سامية استعارتها اللغة العربية^(١٦١) يبدو أن صورة الكلمة ورسم الفتحة الطويلة فيها واواً هي من آثار كتابة أخرى، وأرجح أن تكون الكتابة النبطية، ورغم أن الصفة الغالبة على النبط انهم وثنيون، لكن انتشار النصرانية في الأنحاء الشمالية للجزيرة قبل الاسلام واستخدام الكتابة النبطية في الحيرة التي كانت تغلب عليها النصرانية ربما يكون قد ساهم في إدخال هذه الكلمة في الاستخدام واحتفظت بالصورة القديمة لهجائها حين استخدمت في الكتابة العربية، ومع أن الكلمات الأخرى (الزكوة، الحيوة، الغدوة، مشكوة، النجوة، الربوا) لم أصل إلى ما يوضح أصل رسم الفتحة

(١٦٠) انظر: الفيروزآبادي ج ٤ ص ٣٥٥، ود. جواد علي: السيرة النبوية ص ١٧١،

وانظر أيضاً: د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٣٩٧.

(١٦١) انظر أبو حاتم الرازي: كتاب الزينة ج ١ ص ١٤٦.

الطويلة فيها واواً، لكن لما كانت تلك الكلمات، عدا الكلمة الأخيرة، تشبه إلى حد كبير في صيغتها كلمة الصلوة ومنوة فإن من المرجح جداً أن يكون أصل هجاء هذه الكلمات ورسم الفتحة الطويلة فيها واواً أثراً من آثار الكتابة النبطية أو بواسطتها، وبنفس الطريقة التي تحدثنا فيها عن تطور رسم كلمة (منوة). ومما يؤكد أن صورة ذلك الرسم أثر لكتابة أخرى قد تكون الأصل الذي تطورت عنه الكتابة العربية، أعني النبطية أو كتابة غيرها، كأن تكون كتابة أهل الكتاب في المدينة، وهي العبرانية التي تشترك مع النبطية في وحدة الأصل الذي اشتقتا منه، وهو الكتابة الآرامية، إلى جانب أن زيد بن ثابت كان يعرف الكتابة العبرانية، على ما ثبت ذلك من الرواية فيما سبق - أنه متى تغيرت صورة تلك الكلمات، كأن تضاف مثلاً، نجد أن الكاتب يستجيب للنطق ويتخلى عن الشكل القديم، ومعنى ذلك أن الشكل المرسوم بالواو هو الصورة القديمة لهجاء تلك الكلمات، أما ما عداها فإنها صور مستحدثة في الكتابة العربية فلم يظهر فيها ذلك الأثر الأجنبي القديم، كما لاحظنا ذلك عند إضافة كل من كلمتي (الصلوة والحياة)، وكما نجد كلمة (الربوا) حين تجردت من الألف واللام، فقد جاءت الرواية بأن بعض كتاب المصاحف كتبها بالألف (ربا) في تلك الحالة كما مر من قريب.

ونشير هنا إلى أن كل الكلمات المشار إليها مما كتب بالواو قد قرىء باتفاق القراء بالألف إلا كلمة (الغدوة)، فقد قرأها ابن عامر في الموضعين بالواو وضم الغين^(١٦٢). وإذا كان من المحتمل أن تكون هذه الكلمة قد كتبت على هذه القراءة فإن الكلمات الأخرى لا شك في أن رسم الفتحة الطويلة فيها بالواو يشير إلى نطق قديم احتفظت الكتابة بصورته رغم ما أصاب النطق من تطور، سواء تم ذلك التطور في اللغة العربية أم في لغة أخرى انحدرت من كتابتها صورة هجاء تلك الكلمات، مع أن اللفظ بها بالألف عربي، يكفي دليلاً أنه ورد في

(١٦٢) انظر الداني: التيسير ص ١٠٢، وقد قرأ ابن كثير (مناة) بالهمز هكذا (مناة)
انظر نفس المصدر ص ٢٠٤.

القرآن الكريم، واتفقت القراء عليه، ولا يفيدنا هنا كثيراً تحديد الأصل البعيد الذي ترجع إليه تلك الكلمات من اللغات السامية، ولا شك أن بعضاً من تلك الكلمات ظاهر العروبة لا يحتاج إلى دليل، ولكن يظل رسم تلك الكلمات يمثل صورة نطق قديم^(١٦٣).

٤ - زيادة رمز الألف بعد الواو المتطرفة:

أ - مواضع زيادتها:

وقد أثبتت كسبة المصحف بعد الواو الواقعة في آخر الكلمة ألفاً دون أن يكون لها مقابل في النطق، لا فتحة طويلة ولا همزة^(١٦٤)، فقد زيدت الألف مطردة بعد الواو المتصلة بالفعل التي هي ضمير الجماعة، إذا لم يتصل بالفعل بضمير، أو كانت الواو علامة رفع مع النون، وسقطت النون لوقوع الفعل بعد ناصب أو جازم، وذلك مثل: آمنوا، كفروا، نصرُوا، فلا تدعوا، لن يؤمنوا، اغدوا، امضوا، وشبه ذلك، إلا في أصلين مطردين وأربعة أحرف، أما الأصلان فهما الفعلان (جاء وباء) متصلين بواو الجماعة، فقد رسما هكذا (جاو، باو) بدون ألف بعد الواو، حيث وقعا في المصحف، وأما الأربعة الأحرف فأولها ﴿فَإِنْ قَاءَ﴾ في البقرة (٢/٢٢٦)، و﴿عَتَوُاْ كَبِيرًا﴾ في الفرقان

(١٦٣) من الكلمات التي يظهر فيها الأثر الأجنبي رسماً وتلاوة كلمة (التابوت)، وقد سبق أن أشرنا في فصل سابق إلى اختلاف زيد ومن معه من الكتبة القرشيين في كتابتها حين رأى زيد أن تكتب بالهاء (تابوه)، ورأى القرشيون اثباتها بالتاء (تابوت) على لغتهم، وقد ذكر محقق كتاب (الزينة في الكلمات الإسلامية) لأبي حاتم الرازي (انظر ج ١ ص ١٤٦ هامش ٣) أن هذه الكلمة في الأرامية (تبيوتا) وفي الحبشية (تابوت) وفي العبرية (تابوه) وبذلك يظهر أن للكلمة في اللغات السامية أصلين بالهاء والتاء، فلا عجب أن يشيع كلا الشكلين في البيئات العربية في الحجاز (وانظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٣٩٥).

(١٦٤) انظر مواضع زيادة الألف بعد الواو المتطرفة: المهدي ص ١٠٩، والداني: المقنع ص (٢٦-٢٧)، وابن وثيق الأندلسي لوحة ٨.

(٢١/٢٥)، و﴿الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ في سبأ (٥/٣٤)، و﴿الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ في الحشر (٩/٥٩)، وقد وردت كلمتا (فأءو وتبوءو) مرة واحدة في المصحف، أما (عتو) فجاءت أربع مرات، وأما (سمو) فجاءت مرتين، لكنها كلها جاءت مرسومة بجذف الألف بعد الواو مرة واحدة في المواضع الأربعة المشار إليها، وبإثباتها فيما عدا ذلك.

وكذلك زادوا الألف بعد الواو الأصلية في الفعل المضارع المعتل الآخر بالواو، مرفوعاً كان أو منصوباً، نحو: يدعوا، يربوا، ترجوا، أشكوا، أدعوا، لن ندعوا نبلوا، وما كان مثله حيث وقع إلا في موضع واحد في النساء (٩٩/٤)، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ﴾، فقد حذفت فيه الألف بعد الواو.

وزادوا أيضاً بعد الواو التي هي علامة الرفع في جمع المذكر السالم أو ما أجري مجراه، إذا حذفت نونه للإضافة إلى ظاهر نحو ﴿مُلْقُوا رَبَّهُمْ﴾ (البقرة ٤٦/٢)، و﴿مُرْسِلُوا النَّاقَةَ﴾ (القمر ٢٧/٥٤)، و﴿كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ (الدخان ١٥/٤٤)، و﴿صَالُوا النَّارِ﴾ (ص ٥٩/٣٨)، و﴿بَنُوا إِسْرَائِيلَ﴾ (يونس ٩٠/١٠)، و﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

وكذلك زادوها بعد الواو في ﴿امرؤا﴾ (النساء ١٧٦/٤)، و﴿الربوا﴾ حيث وقع مرسوماً بالواو، وزيدت بعد الواو أيضاً في (يعبوا، تفتنوا ولا تظموا، يبدؤا، نبؤا، الضعفؤا، العلمؤا) وشبهه مما رسمت الهمزة المتطرفة المضمومة فيه واواً، وقد اختلف في هذه الألف الزائدة بعد الهمزة المرسومة واواً هل هي مثل الألف الزائدة بعد واو الجمع وواو الفعل أو أنها زيدت لغرض آخر؟ فيقول أبو عمرو الداني^(١٦٥): «رسمت الألف بعد الواو في هذه المواضع لأحد معنيين: إما تقوية للهمزة لحفائها، وهو قول الكسائي. وإما على تشبيه الواو التي هي صورة الهمزة في ذلك بواو الجمع من حيث وقعتا طرفاً فألحقت الألف بعدها كما ألحقت بعد تلك، وهو قول أبي عمرو بن العلاء، والقولان جيدان.»

(١٦٥) المنع ص (٥٨-٥٩).

ومع أن الداني قد قال بأن كلا القولين جيد^(١٦٦)، إلا أنا سنجد أن القول الثاني هو الصحيح، حين نناقش رسم الهمزة واوآ في الطرف في المبحث التالي، وسيتضح أن هذه الواو لا تختلف عن واو الجمع أو الواو المتطرفة في الفعل، وبذلك تكون زيادة الألف بعدها مثل زيادة الألف في ما سواها من الواوات التي ذكرناها.

وروى الداني أن المصاحف، اتفقت على حذف الألف بعد الواو التي هي علامة الرفع في الاسم المفرد المضاف نحو (لذو فضل)، و(لذو علم)، و(لذو مغفرة)، و(ذو العرش)، و(ذو الفضل)، وما كان مثله حيث وقع^(١٦٧)، لكن مؤلف كتاب الهجاء ينقل عن الامام أبي بكر بن مهران النيسابوري (ت ٣٨١هـ) أن كلمة (ذو) تكتب بألف بعد الواو في كل القرآن، إلا في ستة مواضع، فإنها تكتب في هذه المواضع الستة بغير ألف، وهي ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ في يوسف (٦٨/١٢)، و﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ في غافر (١٥/٤٠)، و﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ في فصلت (٤٣/٤١)، و﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ﴾ في الجمعة (٤/٦٢)، و﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ في البروج (١٥/٨٥)^(١٦٨).

وقد وجدت في مصحف طشقند زيادة الألف بعد الواو في (ذو) في عدة مواضع، فمن ذلك (آل عمران ٧٤/٣ و١٧٤) ﴿ذُوا الْفَضْلِ﴾ و﴿ذُوا فَضْلٍ﴾، و(المائدة ٩٥/٥) ﴿ذُوا انْتِقَامٍ﴾، و(الانعام ١٤٧/٦) ﴿ذُوا رَحْمَةٍ﴾، و(ص ١٢/٣٨) ﴿ذُوا الْأَوْتَادِ﴾.

ويبعث هذا الاختلاف في إثبات الألف زائدة بعد واو (ذو) أو حذفها على التساؤل عن سر حذف هذه الألف بعد بعض الكلمات التي ذكرناها قبل قليل

(١٦٦) ذهب أبو داود سليمان بن نجاح تلميذ الداني الى أن الالف في هذه الحالة إنما زيدت تقوية للهمزة (انظر التنزيل لوحة ١٣٤).

(١٦٧) انظر المقنع ص ٢٨.

(١٦٨) كتاب الهجاء لمجهول لوحة ٩.

واطراد إثباتها في ما سواها، وهل يعني ذلك أن ظاهرة حذف الألف وإثباتها بعد الواو كما يتجلى ذلك في الرسم العثماني - تشير إلى أن زيادة هذه الألف طارئة، وأن ما جاء من الكلمات منها، مما لم تلحقه بعد هذه الظاهرة، جاء على الأصل، أو أنها تشير إلى ظاهرة قديمة وأن ما جاء من ذلك بحذف الألف هو مما تحرر من القاعدة القديمة، ورسمه الكتاب على نحو ما ينطقونه، فلم يجدوا عند ذلك مبرراً لإثبات الألف لعدمها في اللفظ؟

إن تتبع أمثلة هذه الظاهرة يدفع إلى القول بقدوم الظاهرة وأنها ربما كانت تشمل كل واو وقعت متطرفة، سواء أكانت في فعل أم اسم، وسواء أكانت تمثل الواو الصامتة أم الضمة الطويلة، وأن ما جاء من بعض الأمثلة التي حذفت منها تلك الألف الزائدة إنما هي مثل بعض الكلمات التي تحرر الكتاب من صورة هجائها القديمة وجروا في كتابتها على اللفظ^(١٦٩).

ويؤكد قولنا إن الظاهرة ربما كانت تشمل كل واو وقعت متطرفة أنها زيدت في الفعل المضارع المعتل بالواو والفعل الماضي أو الأمر المتصل بواو الجمع وفي الأسماء بعد الواو التي هي علامة الرفع بعد سقوط النون للإضافة، كذلك زيدت في الأسماء والأفعال التي تنتهي بهمزة مضمومة رسمت واواً، إلى جانب ما روي من زيادتها بعد واو (ذو)، وقد قال ابن قتيبة بعد أن تحدث عن زيادة هذه الألف، التي يسميها بألف الفصل، بعد الواو في المواضع المتقدمة^(١٧٠): «غير أن متقدمي الكتاب لم يزالوا على ما أنبأتك من إلحاق ألف الفصل بهذه الواوات كلها، ليكون الحكم في كل موضع واحداً». وهو يشير إلى أن زيادة هذه الألف بعد الواو كانت ظاهرة عامة قد اعتادتها أقلام الكتاب قبل أن يعمل علماء العربية بأقيستهم في وضع قواعد الأملاء العربي، ويخصصوا زيادة تلك الألف بواو الجماعة في الفعل الماضي.

(١٦٩) حذفت الألف الزائدة بعد الواو في مصحف طشقند، بالإضافة إلى ما ذكر، من

كلمة «يروا» (الانعام ٢٥/٦)، و«جزوا» (الشورى ٤٠/٤٢).

(١٧٠) كتاب أدب الكاتب ص ٢٣٧.

وما يؤكد أن زيادة تلك الألف بعد الواو كانت تمثل اتجاهاً عاماً هو مجيئها ثابتة في الفعل المضارع في بعض البرديات العربية^(١٧١).

وكل ذلك يشير إلى أن هذه الألف كانت تزداد بعد الواو إذا وقعت في آخر الكلمة مهما كان نوعها أو موقعها من الاعراب، وأن ذلك كان يمثل ظاهرة عامة في الكتابة العربية، أما مجيء بعض الكلمات بحذف هذه الألف منها فإن ذلك يمكن أن يفسر على أساس اتجاه الكتاب إلى الاستجابة للفظ في كتابة الكلمات دائماً، خاصة إذا كان الكاتب لم يقرأ تلك الكلمة في نص مكتوب فيجري في رسمها على نحو ما تلفظ وقد تشيع الصورة الحديثة لهجاء الكلمة وتلتزم، مثل ما حدث في رسم (جاو، باو) [جاءوا، باءوا] حيث التزم هذا الشكل في كل المواضع في الرسم العثماني.

ب - موقف علماء السلف من زيادتها:

وقد ذكرنا من قبل أن هذه الألف الزائدة بعد الواو لا تدل على شيء في النطق ومن ثم فإن ذلك يثير التساؤل عن سر زيادة هذه الألف، وهل كانت في الأصل تدل على شيء في النطق، أو أنها زيدت لأسباب أخرى؟ وقد اتفقت آراء العلماء تقريباً في سبب زيادة هذه الألف، فذهبوا إلى أنها زيدت للفرق، وأنها تفصل بين أشكال بعض الكلمات فسميت لذلك بألف الفصل، واختلفوا بعد ذلك في طبيعة الكلمات التي تفصل بينها، إلا أن الخليل بن أحمد الفراهيدي، إمام أهل العربية، علل زيادة تلك الألف تعليلاً صوتياً تفرد به سنذكره بعد قليل.

وقد ذكر السيوطي في الهمع مذاهب العلماء في زيادة الألف بعد الواو فقال: «وقد اختلفوا في سبب زيادتها، فقال الخليل لما كان وضعها على المد وعلى أن لا تتحرك أصلاً زادوا بعدها الألف لأن فصل صوت المد ينتهي إلى مخرج الألف.

(١٧١) انظر د. عبد العزيز الدالي ص ٢٢٠، وقد اعتبر اثبات تلك الالف من باب الخروج على القاعدة.

« وقال بعضهم فصلوا بين الضمير المنفصل والضمير المتصل نحو ضربوهم ، إذا كان الضمير مفعولاً لم يكتبوا الألف ، وإذا كان تأكيداً كتبوها ، فرقاً بين الضميرين ، وبترك الألف في خط المصحف في (المطففين ٣/٨٣) ﴿وَإِذَا كَأْلَوْهُمُ أَوْ وَزَنُوهُمُ﴾ ، استدلووا على أن الضمير مفعول وأنه ليس ضمير رفع منفصلاً توكيداً لـواو الجمع ، ثم اطردت زيادة هذه الألف في كل واو جمع ، وإن لم يلحقها ضمير . »

« وذهب الأخفش وابن قتيبة إلى أنها فصل بها بين واو الجمع و واو النسق ، نحو كفروا وردوا وجاءوا ونحوها من الواوات المنفصلة عن الحرف قبلها ، هذا هو الأصل ، ثم حذفوا على ذلك من الواوات المتصلة بالحرف قبلها نحو ضربوا ، ليكون الباب واحداً ، ولهذا لم تلحق بالمفرد نحو يدعو لأنها لاتصالها لا يعرض فيها من اللبس ما يعرض مع واو الجمع ، ولذلك سموها هذه الألف ألف الفصل ، وعلل مذهب الفراء بأنها زيدت للفرق بين الواو المتحركة والواو الساكنة ، وعلل مذهب الكسائي بأنها زيدت فرقاً بين الاسم والفعل . »

« وقال بعضهم فرقوا بها بين الواو الأصلية والواو الزائدة » (١٧٢) ، فالأصلية واو أخو وأبو وحو... والزائدة واو كفروا وظلموا وأحسنوا ، لأنها دالة على الجمع وليست من نسيج الحرف ، ولا موجودة فاء منه ولا عيناً ولا لاماً ، ففرقوا بالألف الزائدة بين المزيد والأصلي (١٧٣) .

والذي يفهم من كلام علماء العربية أنهم يعتبرون ظاهرة زيادة الألف لا تشمل إلا موضعاً واحداً ، هو زيادتها بعد واو الجمع المتصل بالماضي ، والمضارع في حالة واحدة ، ومن ثم فإن تحليلاتهم جاءت قائمة على أساس من ذلك ، ولهذا

(١٧٢) همع الهوامع ج ٢ ص ٢٣٨ ، وانظر أيضاً تفصيلاً لذلك: ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٣٦ والصولي ص ٢٤٦ ، والزجاجي: الجمل ص ٢٧٤ ، ومقدمة كتاب المباني لمجهول ص (١٦٠-١٦٢) .

(١٧٣) انظر مقدمة كتاب المباني (لمجهول) ص ١٦٠ .

فإن مذاهبهم في تعليل زيادة الألف - رغم ما يبدو عليها من تحم - جاءت مبنية على فهم مختل للظاهرة إذ إنها في الأصل تشمل كل واو متطرفة - كما بينا - لكن علماء العربية المتقدمين حين قعدوا القواعد جعلوا زيادة تلك الألف مقصورة على واو الجمع المتصلة بالفعل الماضي تقريباً، وحين حاولوا تعليل هذه الزيادة لم يلتفتوا إلى أصل الظاهرة، ولهذا اقتضت تعليلاتهم على زيادتها في تلك الحالة فحسب^(١٧٤).

وقد وقع بعض المحدثين في ما وقع فيه علماء السلف من الخطأ في اعتبار هذه الظاهرة مقصورة على الواو المتصلة بالفعل، فيقول الدكتور تام حسان وهو يتحدث عن زيادة هذه الألف إنها^(١٧٥): «تتلو الواو التي أسند إليها الفعل لتدل على انها واو الجماعة، وليست واو الجمع التي حذفت النون بعدها للاضافة، ويظهر ذلك من موازنة (ضارَبُوا زيداً وضارَبُو زيد) ...»، وبذلك غفل كما غفل علماء العربية من قبل عن أن الظاهرة تشمل كلا المثالين كما نجد ذلك ظاهراً كل الظهور في الرسم العثماني.

ويبدو أن الخليل بن أحمد قد تفرد من بين علماء السلف بمذهبه في تفسير زيادة تلك الألف، كما مر ذلك في مطلع قول السيوطي، ولكن فهم مذهب الخليل في هذه المسألة يحتاج إلى تتبع روايات العلماء لمذهبه، خاصة انه يتعلق بالجانب الصوتي للحركات الطويلة، وصوت الهمزة، ومن ثم فرما جاء التعبير غامضاً بعض الشيء أو قاصراً أحياناً، نتيجة لانعدام التمييز الواضح بين طبيعة الحركات الطويلة والهمزة، خاصة الفتحة الطويلة التي تكررت عبارات القدماء تؤكد أن بينها وبين الهمزة تجانساً أو تقارباً بحيث أن الألف (الفتحة الطويلة) إذا تحركت انقلبت همزة^(١٧٦)، لكن ذلك الخلط يمكن تفاديه الآن ببعض اللوحات الموقفة

(١٧٤) انظر التنسي: ورقة ٧٣ ب.

(١٧٥) اللغة العربية ص ٢٢٧.

(١٧٦) انظر سيبويه ج ٢ ص ١٦٧، والمبرد ج ١ ص ٢٠٣.

لبعض علماء العربية، وبما تقدمه الدراسات الحديثة من التمييز الواضح بين الهمزة والحركات الطويلة، فتلك من جنس الأصوات الصامتة وهذه من جنس آخر.

أما مذهب الخليل فقد قال سيبويه في (باب الوقف في الواو والياء والألف)^(١٧٧): « وهذه الحروف غير مهموسات، وهي حروف لين ومد، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها ولا أمد للصوت، فإذا وقفت عندها لم تضمها بشفة ولا لسان ولا حلق، كضم غيرها فيهوي للصوت إذا وجد متسعاً حتى ينقطع آخره في موضع الهمزة، وإذا تفتنت وجدت مس ذلك، وذلك قولك: ظلموا ورموا وعمي وحبل، وزعم الخليل أنهم لذلك قالوا ظلموا ورموا فكتبوا بعد الواو ألفاً ».

والظاهر من هذا النص أن سيبويه يتحدث عن الحركات الطويلة التي تنتج بأن «ير الهواء حرّاً طليقاً خلال الحلق والفم دون أن يقف في طريقه أي عائق أو حائل، ودون أن يضيق مجرى الهواء ضيقاً من شأنه أن يحدث احتكاكاً مسموعاً»^(١٧٨). مع اهتزاز الأوتار الصوتية حين مرور الهواء عبر الحنجرة، وبذلك تتميز الحركات بأنها أصوات مجهورة، وربما كان الجهر أهم خصائص الحركات الصوتية، وربما عنى سيبويه اهتزاز الأوتار الصوتية بقوله « وإذا تفتنت وجدت مس ذلك »، ويبدو أن الخليل قد شعر شعوراً غامضاً أن مخرج الهمزة ومكان جهر الحركات واحد، ومن ثم ذهب إلى أن الصوت يهوى في حالة الحركات حتى ينقطع آخره في موضع الهمزة، ولذلك أثبتوا - في نظر الخليل - ألفاً بعد واو المد، والألف رمز الهمزة، لكن هذا الفهم لمذهب الخليل من خلال نص سيبويه يقوم أمامه اعتراضان: الأول أن الأمثلة التي أوردها سيبويه اشتملت على واو المد في (ظلموا) لكنها في مثل (رموا) هي واو لين أو الواو

(١٧٧) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٥.

(١٧٨) د. كمال محمد بشر: الأصوات ص ٩٢.

الصامتة، فقد سبقتها فتحة، والثاني انهم لم يشبوا تلك الألف بعد ياء المد (الكسرة الطويلة) التي تشترك مع واو المد (الضمة الطويلة) بطريقة إنتاجها. ويروي الصولي أن الخليل قال: الضمة تنقطع إلى همزة، فاستوثقوا بالألف، لكن الصولي يعقب على ذلك بقوله: ولا يقع مثل هذا إلا في طبع الخليل^(١٧٩).

وينقل ابن درستويه رأي الخليل بتفصيل أكثر وهو: « أن الألف كتبت مع واو الجمع من أجل أن منقطع المد عند مخرج الهمز، وان واو الجمع لا أصل لها في الواو، وإنما هي مدة، والمدات لا معتمد لها في الفم، ولكن يتسع لها الفم فتتهوى في جوه من أقصى الخارج أو أدناها، ثم ينقطع من حيث ابتدأت الهمزة، ولم يكن في المدات الثلاث شيء أشبه بالهمزة صوتاً من الألف ففصل بين هذه الواو التي هي مدة وبين التي ليست بهوائية بهذه الزيادة وخصت الألف بالفرق لما ذكرنا^(١٨٠).

ويذكر صاحب كتاب المباني في مقدمته^(١٨١): أن الخليل قال « يشب ألف بعد واو الجمع في قالوا وأمروا ونهوا، لان الضم يشاكل المد، والمد ينقطع إلى مخرج الهمز، فذهب إلى أن الواو شاكلها الهمزة، فعلقت ألف بعدها لموافقة الألف الهمز، ومشاكله الواو المد الذي ينقطع إلى الهمز ».

ورغم اتفاق هذه الروايات لمذهب الخليل في فهم كلامه حول طبيعة حروف المد أو الحركات الطويلة فإنها تختلف في سبب زيادة الألف، فالذي يفهم من قول سيويه أن مجرد انقطاع الصوت في الحركات الطويلة إلى موضع الهمزة هو سبب زيادة تلك الألف، أما ما ورد في رواية الصولي « فاستوثقوا بالألف » ففي ذلك إشارة إلى نوع من التوكيد، ولكن لأي شيء استوثقوا؟ هل أن ذلك من مجرد انقطاع الضمة إلى همزة، أو من خشية اختلاط الضمة بها، وهو ما يتضح من

(١٧٩) الصولي: أدب الكتاب ص ٢٤٦.

(١٨٠) ابن درستويه: الكتاب ص ٤٤.

(١٨١) ص ١٦٠.

رواية صاحب المباني « فذهب إلى أن الواو شاكلها الهمز فعلقت ألف بعدها لموافقة الألف الهمزة ومشاكله الواو المد الذي ينقطع إلى الهمز »؟ ورواية ابن درستويه هي أكثر الروايات وضوحاً، لكنها تشير إلى أن زيادة تلك الألف إنما هي للفصل بين الضمة الطويلة (واو المد) وبين الواو الصامتة التي ليست بهوائية، وخصت الألف بالزيادة لانقطاع صوت المد من حيث ابتدأت الهمزة، لكن الأمثلة التي أوردها سيبويه من مثل (ظلموا ورموا) تنفي أن يكون ذلك للفرق بين الضمة الطويلة والواو الصامتة.

ج - هل يمكن تقديم تفسير لزيادتها؟

ومها يكن من شيء فإن أياً من تعليقات علماء السلف لا يعطي تفسيراً مقبولاً وواضحاً لزيادة تلك الألف، خاصة أن جل تلك التعليقات قد بني على أساس مغلوط، حين اعتبروا أن الأصل في الظاهرة هو زيادة الألف بعد واو الجمع المتصلة بالفعل، لكن الرسم العثماني يقدم الأمثلة التي تدل على أن تلك الظاهرة كانت شاملة لكل واو تطرفت في نهاية الكلمة، أما تعليل الخليل فرغم الاختلاف في فهمه من جانب، وعموض ذلك الفهم من جانب آخر، فيبدو أيضاً - بقدر ما يفهم من روايات العلماء المذكورين - غير كاف لتعليل تلك الزيادة، ومع انه أصاب في فهم طبيعة الحركات نوعاً ما فإنه - هنا - لم يكن موفقاً في بيان العلاقة بينها وبين الهمزة، ولا ندري تماماً كيف تنقطع الضمة إلى همزة، ونقول مع الصولي إن ذلك لا يقطع إلا في طبع الخليل، ولكن ليس بعيداً أن يكون رأي الخليل قد أسيء فهمه، أو أنه لم يصل إلينا على النحو الذي أراده وقصد بيانه، وغطت عليه شروح الذين رووه وعلقوا عليه.

ويبدو أن علماء الرسم قد اكتفوا بترديد ما قاله علماء العربية في سر زيادة الألف بعد الواو، رغم أنهم كانوا أكثر إدراكاً لأبعاد الظاهرة لأن الرسم هو مجال علمهم، فيقول التنسي بعد أن تحدث عن زيادة الألف بعد الواو التي هي لام الفصل، نحو ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ (الجن ٧٢/٢٠)، و﴿وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾

(القتال ٤٧/٣١) (١٨٢): «واعلم أن النحاة لا يزيدون هذه الألف، ويخصون الزيادة بواو الجمع فرقاً بينها وبين واو المفرد». ويقول بعد ذلك «وإنما يزيد هذه الألف الرسام وسبب زيادتها عندهم الحمل على واو الجمع إذ هي شبيهاً في كونها متطرفة ساكنة والأصل أن لا تحرك إلا لعارض، والأولى أن يقال زيدت للفصل فيستدل بها على أن الكلمة تمت، والوقف عليها يمكن، ويكون ذلك إحترازاً من إتصال الضمير بها نحو أدعوكم».

وكان التنسي قد لخص قبل ذلك المذاهب التي ذهب إليها العلماء في أصل زيادة الألف بعد الواو، وجعلها في ثلاثة وجوه (١٨٣):

الأول: الدلالة على انفصال الكلمة عما بعدها، فيعلم أن الكلمة مستقلة، يمكن الوقف عليها.

والثاني: الفرق بين ما بعده ضمير منفصل فتجعل فيه الألف، وذلك نحو ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى ٤٢/٣٧)، وبين ما بعده ضمير متصل نحو ﴿كَأَلْوَهْمٍ﴾ (المطففين ٨٣/٣) فلا تجعل فيه الألف.

والثالث: إرادة الفرق بين واو الجمع وغيرها في نحو (نفر وخرج) فإن الواو التي بعد الراء وقبل الخاء يحتمل أن تكون علامة جمع، فاعل نفر، ويكون خرج غير معطوف، وتحتل العطف ويكون فاعل نفر مقدر، ففرقوا بين المعنيين بالألف، فإذا وجدت علم أنه فاعل، وإذا عدت علم أنه ليس بفاعل، وحمل ما لا لبس فيه على ما فيه لبس.

ويبدو أن علماء الرسم المتقدمين لم يجدوا حاجة ملحة تدفعهم إلى محاولة إيجاد تعليل لكل ما جاء غير منقاس على القواعد التي وضعها في وقت متأخر علماء العربية، وكان مهمهم الأول هو ضبط صور هجاء الكلمات في المصاحف

(١٨٢) الطراز في شرح ضبط الخراز ورقة ٧٤ أ.

(١٨٣) نفس المصدر ورقة ٧٣ أ.

العثمانية فبلغوا في ذلك الغاية، وقدموا للباحثين في تاريخ الكتابة العربية مادة خصبة يتشكل منها ذلك التاريخ.

وأخيراً هل بالامكان أن نفهم من قول بعض العلماء إن تلك الألف جاءت للدلالة على انفصال الكلمة عما بعدها، فيعلم أن الكلمة مستقلة يمكن الوقف عليها، أو أنها جاءت للفرق بين فعل وفعلوا، أي بين واو الجمع وواو النسق في مثل (نفر وخرج)، فإثبات الألف يشير إلى أن الواو هي ضمير الجمع وهي متصلة بالفعل، وعدم إثباتها معناه أن الواو للعطف وهي منفصلة عما قبلها وعما بعدها - أن نفهم أن هذه الألف تقوم بالفصل بين الكلمات في بعض الحالات على نحو ما مر بنا من أن الخط المسند يفصل بين الكلمة والآخرى بخط عمودي يشبه رمز الألف في الكتابة العربية؟ الحقيقة أن هذا الاحتمال يبدو بعيداً، وليس بين يدي البحث الآن ما يمكن أن يعين على تبين أصل زيادة تلك الألف، وهل كان ذلك تمثيلاً لظاهرة لغوية كانت في القديم مستعملة، وتحلى عنها النطق بعد ذلك، واحتفظ بها الرسم، أو انها زيدت للفصل بين الكلمات، أو للفرق بين دلالة رمز الواو على الضمة الطويلة والواو الصامتة، أو للفرق بين ما كانت الواو فيه ضميراً للجمع، أو أنها من أصل الكلمة؟

لعل المستقبل كفيلاً بأن يكشف من الوسائل ما يعين على ترجيح أحد تلك الاحتمالات أو أن يأتي بتفسير واضح لتلك الظاهرة، لكننا نشير - هنا - إلى أن أي محاولة في هذا الصدد لا تقوم على اعتبار أن الظاهرة شاملة لكل واو وقعت متطرفة، لا يمكن أن تأتي بتفسير صحيح للمشكلة، وتقع في ما وقع فيه علماء العربية حين ظنوا أن الظاهرة لا تشمل إلا الأفعال التي تتصل بها واو الجمع في آخرها.



المبحث الرابع

رَمَزُ الهمزة في الرَّسْمِ العُثماني

لقد خَصَّصت دراسة رمز الهمزة بهذا المبحث لما أثير حول الهمزة: صوتاً وكتابة من قضايا ومشكلات، ودراسة رمز الهمزة في الرسم العثماني تعني إثارة مشكلة هذا الصوت وطريقة تمثيله في الكتابة من كافة جوانبها، ولكن ليس من اليسير - هنا - ولا من الضروري، ونحن ندرس رمز الهمزة في الرسم العثماني، أن نتعرض بالتفصيل لطريقة إنتاج هذا الصوت، وخصائصه الصوتية، ودوره في بناء الكلمة العربية، وموقف القبائل العربية من تحقيقه في الكلام أو إسقاطه، وما نتج عن ذلك من مشكلات صوتية و صرفية، فقد تكفلت المصادر العربية، قديمة وحديثة، بتفصيل ذلك كله، ولذلك سوف أكتفي بما يساعد في الكشف عن مشكلة رمز الهمزة في الرسم العثماني خاصة، والكتابة العربية عامة.

أولاً: طريقة تمثيل الهمزة في الكتابة العربية:

في اللغات السامية - عامة - صوت يعرف باسم (الألف)، وهو أول حروف الأجدية السامية، ويمثل في كتابات تلك اللغات برمز معين واحد^(١)، وقد عرف ذلك الصوت في العربية باسم (الهمزة)، ولكن الاسم القديم - الذي صار علماً على الفتحة الطويلة - ظل يستعمل أحياناً للدلالة على الهمزة^(٢).

(١) جان كاتينو ص ١٢١.

(٢) انظر ابن جني: سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٤٦. وأبو الحجاج البلوي ج ١ ص ٣١٥.

ولما كان صوت الهمزة يتفرد، من بين أصوات اللغة، بطريقة إنتاجه، ويتطلب انطباق الوترين الصوتيين مع ضغط الهواء خلفها، ثم انفراجها فجأة - فقد كثر سقوطه في الكلام^(٣)، فالهمزة صوت مستثقل «لأنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجاً، فنقل عليهم ذلك، لأنه كالتهموع»^(٤). فهي تسهل في اللفظ لأن في النطق بها مشقة^(٥).

وحين تسقط الهمزة فعالباً ما تخلفها حركة طويلة تنتج من إلتقاء الحركتين اللتين كانتا تكتنفانها، أو من إطالة الحركة التي تسبقها، إذا كانت الهمزة ساكنة، فكلمة (رأس) - مثلاً - إذا سقطت منها الهمزة، في لغة من يخفف الهمزة، فسوف تخلفها في النطق فتحة طويلة تنتج من إطالة الفتحة التي قبلها، على النحو الذي تبينه الكتابة الصوتية (ra?s → ra - s → raas). لكن هجاء الكلمة لم يتغير بعد سقوط الهمزة، لأن الكتابة أقل استجابة لتمثيل تطور أصوات اللغة - حدث ذلك طبعاً في فترة سابقة للرسم العثماني - وبدا للناس بعد أجيال كأن الألف رمز للفتحة الطويلة إلى جانب أنها رمز للهمزة أصلاً^(٦). وبذلك حدث ازدواج في دلالة رمز الألف (ا)، فأصبح يدل على الهمزة أصالة، وعلى الفتحة الطويلة بما حدث له من تطور، مثل ما حدث ذلك لكل من رمزي الياء والواو الصامتتين حين استعمالهما لتمثيل الكسرة والضمة الطويلتين، في فترة متقدمة من تاريخ الكتابات السامية، كما أشير إلى ذلك من قبل.

ويبدو أن ما تتعرض له الهمزة من السقوط قد ترك أثراً في طريقة رسمها، فالهمزة حين تحقق تكتب ألفاً، كيف أتت وبأية حركة تحركت، وإذا سقطت في

(٣) انظر ابن الجزري: النشر ج ١ ص ٤٢٨. وجان كاتينو ص ١٢١. وقد أشار برجستراسر (ص ٢٥) الى أن أقدم صور اسقاط الهمزة يرجع الى السامية الأم.

(٤) سيبويه ج ٢ ص ١٦٧. وانظر ابن يعيش ج ٩ ص ١٠٧ و ١١٦ و ج ١٠ ص ١٣٤.

(٥) ابن درستويه ص ٨.

(٦) انظر د. رمضان عبد التواب ص ٣٥٥. ود. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة

ق ١ ص ٥٩.

النطق فإن ما يخلفها سيكتب ألفاً أو واواً أو ياء، حسب ما يسبقها ويلحقها من حركات، وبناء على ذلك يمكن أن نميز بوضوح بين طريقتين لتمثيل الهمزة في الكتابة العربية.

الطريقة الأولى:

رسمها برمز واحد، وهو الألف (ا)، أيما وقعت وبأية حركة تحركت، وهذا إنما يكون في الكتابة على لغة من يحقق الهمزة، فيجري رسمها على الأصل في تمثيل أي صوت من أصوات اللغة برمز واحد. وأصل رمز الهمزة هو الألف، مثلها في ذلك مثل بقية أصوات اللغة، وهذا هو ما أشار إليه ابن جني في قوله^(٧): «ولو أريد تحقيقها البتة لوجب أن تكتب ألفاً على كل حال، يدل على صحة ذلك أنك إذا أوقعتها موقِعاً لا يمكن فيه تخفيفها، ولا تكون إلا محققة، لم يجز أن تكتب إلا ألفاً، مفتوحة كانت أو مضمومة أو مكسورة، وذلك إذا وقعت أولاً نحو: أَخَذَ وَأَخَذَ وإبراهيم. فلما وقعت موقِعاً لا بد فيه من تحقيقها اجتمع على كتبها ألفا البتة، وعلى هذا وجدت في بعض المصاحف (يستهبزون) بالألف بعد الواو ووجد فيها أيضاً ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الاسراء ١٧/٤٤) بالألف بعد الياء، وإنما ذلك لتوكيد التحقيق».

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الفراء (ت ٥٢٠٧) يضع أيدينا على ظاهرة عامة تؤكد هذا الاتجاه في تمثيل الهمزة، فقد روى في أكثر من موضع أن الهمزة رسمت ألفاً، في كل موضع، في مصاحف عبد الله بن مسعود. وقد قال، وهو يتحدث عن إثبات الألف في كلمة (لؤلؤا)، في الحج (٢٣/٢٢)^(٨)، «ورأيتها في مصاحف عبد الله، والتي في الحج خاصة، (لؤلؤا)، ولا تتهجاه^(٩)،

تراءة أي بكسر

بهمزة كسر هي قراءة ابن مسعود

ومرراً = (لؤلؤاً) الأولى

واد خفيفة والتائبة همزة، منه

يؤيدنا نقل

أن الهمزة

عبدالرحمن

(٧) سر صناعة الاعراب ج ١ ص (٤٦-٤٧).

(٨) معاني القرآن ج ٢ ص ٢٢٠.

(٩)

وذلك أن مصاحفه قد أجرى الهمز فيها بالألف في كل حال، إن كان ما قبلها مكسوراً أو مفتوحاً أو غير ذلك». وقال في موضع آخر وهو يتحدث عن رسم الهمزة في مصاحف عبد الله أيضاً^(١٠): «والهمزة في كتابه تثبت بالألف في كل نوع». ويبدو أن رسم الهمزة بالألف دائماً، على ما يروي الفراء، إنما كان لتمثيل قراءة من يحقق الهمزة، ولعل بيئة الكوفة في تلك الفترة قد غلبت عليها نزعة القبائل المنتشرة في شرقي الجزيرة العربية التي كانت تحقق الهمزة دائماً^(١١). أو أن ذلك يمثل اتجاهاً قديماً لكتابة الهمزة في تلك المنطقة.

بما يؤكد أن ذلك كان اتجاهاً عاماً في الكتابة العربية في بعض البيئات، وليس مقصوراً على مصاحف عبد الله وحدها - قول الفراء^(١٢): «وأكثر ما يكتب الهمز على ما قبله، فإن كان مفتوحاً كتب بالألف، وإن كان مضموماً كتب بالواو، وإن كان مكسوراً كتب بالياء، وربما كتبتها العرب بالألف في كل حال، لأن أصلها ألف قالوا نراها إذا ابتدئت تكتب بالألف، في نصبها وكسرها وضمها، مثل قولك أمروا وأمّرت، وقد جئت شيئاً إمرا، فذهبوا هذا المذهب، قال: ورأيتها في مصحف عبد الله (شيئاً) في رفعه وخفضه بالألف، ورأيت يستهزؤون يستهزؤون، وهو القياس، والأول أكثر في الكتب».

(*)

الطريقة الثانية:

أما الطريقة الأخرى لتمثيل الهمزة في الكتابة العربية فهي كتابتها على نحو ما تخفف به في لغة من يسهل الهمزة، والعرب بالنسبة للهمزة قسمان: منهم من يحقق الهمزة، ومنهم من يسهلها، والهمزة في حالة التسهيل لا تنقلب إلى صوت آخر، ولا يبقى شيء من خصائصها، بل تسقط البتة، ذلك لأنها إما أن تكون

(١٠) معاني القرآن ج ٣ ص ١٣٦.

(١١) انظر د. ابراهيم أنيس: في اللهجات العربية ص ٦٠ و٧٨.

(١٢) معاني القرآن ج ٢ ص ١٣٤.

(*) هذا البحث
نظري المؤلف
استلهم أصله
لذي فيه أنه
رسم ليس
لاعلم قراءة
أهمه تجلها
سنا تسريل
الهمزة، ولم

همزة كاملة، وتم بانطباق الوترين الصوتيين، وحسبها للهواء مع ضغطه لحظة، ثم انفراجها، فيخرج الهواء فجأة محدثاً صوتاً إنفجارياً، يسمى الهمزة، وإما أن ذلك الوصف لا يتحقق، أي أن الوترين الصوتيين لا ينطبقان، بل يمر الهواء عبرها دون أن تتكون حالة الهمزة، ونجد في هذه الحالة في موقع الهمزة إحدى الحركات الطويلة أو صوتاً من أصوات اللين، وربما يخلفها صوت ضعيف غير واضح، هو ما سماه علماء العربية (همزة بين بين)، وقد تسقط دون أن يخلفها شيء.

وتحديد طبيعة الصوت الذي يخلف الهمزة عند سقوطها في لغة أهل التخفيف إنما يتوقف على نوع الحركة التي تسبق الهمزة أو حركتها نفسها، والتقاء حركتها مع حركة ما قبلها قد يشكل حركة طويلة، أو صوت لين، أو قد تطال حركة ما قبلها، فتكون حركة طويلة^(١٣). وفي جميع هذه الأحوال ليس المنطوق همزة، إنما هو شيء آخر من حركة أو صوت لين.

ومن ثم فإن الكاتب حين يكتب الهمزة على لغة أهل التسهيل من الطبيعي أن يكتبها برموز الحركة الطويلة أو رموز أصوات اللين، لأنه لا يلفظ - حينئذ - همزة، فيتحتّم عليه كتابتها بالألف، إنما يلفظ فتحة طويلة في مثل (يامرون، الباسا، الراس)، وكسرة طويلة في مثل (الذيب، جيم، نبينا)، وضمّة طويلة في مثل (يومن، يوزي، سولك)، أو أنه ينطق حرف لين، واواً أو ياء، في مثل (جزاؤهم، عطاونا، شعائر، ملايكة). وقد لا يكتب شيئاً، لأن الهمزة قد

(١٣) انظر تفصيل وجوه تخفيف الهمزة، سواء وسط الكلمة وطرفها: سيبويه ج ٢ ص ١٦٣ وما بعدها. والمبرد ج ١ ص ١٥٥ وما بعدها. والإمام مكّي بن أبي طالب: الكشف ج ١ ص ١٠٢ وما بعدها. وابن يعين: شرح المفصل ج ٩ ص ١٠٧ وما بعدها. وسوف يكون اعتمادنا على هذه المصادر بصورة عامة في ما يتعلق بتخفيف الهمزة وأحكامها في هذه الحالة.

سقطت ولم يخلفها في النطق شيء، في مثل (سل، يسل، الخاطون، المستهزون،
الافدة)^(١٤).

وعلى هذا الأساس سوف نحاول دراسة طريقة كتابة الهمزة في الرسم
عثماني، أي أننا يجب أن نتبين أي الطريقتين سلك كسبة المصاحف العثمانية في
تمثيل الهمزة، هل رسموا الهمزة على قراءة من يحققها، فجمعوها ألفاً، أو جروا
على قراءة من يخففها فكتبوا ما يتخلف عن سقوطها من حركة طويلة أو حرف
لين؟

إن البت في هذا التساؤل وتحديد نوع الاجابة يحتاج إلى أن نتعرف على
عادات وخصائص لغة أهل الحجاز، وهل كانوا يحققون الهمزة أو يسهلونها؟
كذلك علينا أن نتعرف على اتجاهات القراء في نطق الهمزة، ثم نستعين بعد ذلك
بالنظر في الرسم العثماني ذاته، وروايات الأئمة من علماء السلف في هذا المجال.

أما موقف القبائل العربية من الهمزة فإن روايات علماء العربية تكاد تجمع
على أن تحقيق الهمزة كان من خصائص لغة بني تميم وقيس وأسد، ومن جاورها،
أي أن الهمز - أي تحقيق الهمزة - كان خاصة من الخصائص البدوية التي
اشتهرت بها قبائل وسط الجزيرة وشرقيها، أما التسهيل، أي ترك الهمز - في

(١٤) أشار الدكتور عبد العزيز الدالي (١٧٩ ص ١٩١) الى أن أوراق البردي العربية
خلت تماماً من كتابة الهمزة، فهي لا تبدو في رسم الكتابة. وربما يقصد أن الهمزة
كانت تكتب في غير أول الكلمة واوا أو ياء أو الفاء، دون أن توضع عليها رأس
العين - مع ملاحظة أن استعمال رأس العين للإشارة الى الهمزة قد جاء لاحقاً
لتاريخ كثير من البرديات. ويعلل الدكتور الدالي هذه الظاهرة (ص ٢٢٨) بأن
القبائل العربية التي وفدت على مصر أيام الفتح وبعده أكثرها من القبائل
الحجازية، أولئك الذين يخففون الهمزة. وبذلك تقدم لنا البرديات العربية في مصر
نموذجاً لرسم الهمزة على الطريقة الثانية. مثلما قدمت لنا مصاحف عبد الله فودجاً
للطريقة الأولى.

وقريش لا تهمز، ليس الهمز من لغتها، وإنما همزت القراء بلغة غير قريش، من العرب» (١٩).

وإذا أضفنا إلى ما ذكرناه من مذهب أهل الحجاز في تخفيف الهمزة، وما أشرنا إليه من أن أصل قراءة الحجازيين عامة، وأهل المدينة خاصة، كان ترك الهمزة - ما نجد في الرسم العثماني نفسه عندما نلقي عليه نظرة عامة، فقد بدت الهمزة مرسومة، في غير أول الكلمة، واواً أو ياء أو ألفاً. وفي ذلك كله دلالة قوية على أن تمثيل الهمزة في المصاحف العثمانية جرى على الطريقة الثانية من الطريقتين اللتين ذكرناهما آنفاً، وهي رسمها على نحو ما تؤول إليه في التخفيف^(٢٠)، وعلينا أن نتذكر مع ذلك أن هناك جملة عوامل أثرت في هجاء الكلمات المهموزة، سنعرض لها بعد قليل.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة - كون رسم الهمزة في المصحف العثماني بني على تسهيل الهمزة - الامام أبو عمرو الداني، لكنه ظل متردداً في إطلاقها متشبهاً بجريان الرسم على التحقيق والتسهيل معاً، يقول^(٢١): «والهمزة قد تصور على المذهبين من التحقيق والتسهيل، دلالة على فشوها واستعمالها فيها، إلا أن أكثر الرسم ورد على التخفيف، والسبب في ذلك كونه لغة الذين ولوا نسخ المصاحف زمن عثمان، رحمه الله، وهم قريش، وعلى لغتهم أقرت الكتابة حين وقع الخلاف بينهم وبين الأنصار فيها، على ما ورد في الخبر الثابت المذكور في كتاب

(١٩) ايضاح الوقف والابتداء ج ١ ص ٣٩٢.

(٢٠) مما قد يدل على ذلك تتابع الفواصل القرآنية منتهية بكلمات غير مهموزة، ومجيء كلمة مهموزة خلالها، نحو (الحاقة ٦٩/٧-١١) (خاوية. باقية. بالخاطية. رابية. الجارية). وفي نفس السورة (٣٧-٣٩) نجد (الخاطون. تبصرون. تبصرون). وكذلك نجد نفس الظاهرة في سورة مريم (١٩/٧٢-٧٤) (جثيا. نديا. ربا). فمجيء (بالخاطية، والخاطون، وريا) مع كلمات غير مهموزة قد يشير الى أنها كتبت على غير الهمز لتأتي الفواصل على نسق صوتي واحد.

(٢١) المحكم ص ١٥١.

المرسوم^(٢٢)، فلذلك ورد تصوير أكثر الهمز على التسهيل، إذ هو المستقر في
 طباعهم والجاري على ألسنتهم». وقد ألح بعض العلماء إلى أن تمثيل الهمزة في
 الرسم العثماني قد جرى على التسهيل، لكن ذلك لم يتعد الملاحظة العابرة إلى
 محاولة فهم ظواهر رسم الهمزة في المصحف على أساس من ذلك^(٢٣).
 ولكي نتبين حقيقة الصوت الذي يمثل في موضع الهمزة بعد سقوطها في
 النطق - لنتصور أن صوتاً آخر غير الهمزة تعرض للسقوط لعوامل معينة، كما
 تعرضت الهمزة في السنة جماعات من العرب، فسوف نجد أن ما يتخلف عن
 سقوط ذلك الصوت هو نفس ما يتخلف عن سقوط الهمزة، فإذا قارنا سقوط
 الهمزة في (سأل) وسقوط الصاد في (نصر) - مثلاً - كانت الحالة المتخلفة عن
 ذلك متشابهة، فنقول (سال saala ونار naara)، كذلك فإن سقوط الهمزة من
 (لوم) لا يختلف عن سقوط الراء من (كرم)، نقول (كوم kawuma) كما نقول (لوم
 lawuma). وإسقاط الهمزة من (رأس وبئر وبؤس) لا يختلف عن إسقاط ما
 يقابلها من أصوات في (كتب ونسر وقفل) فنقول (راس وبير وبوس) كما نقول
 (كاب ونير وقول)، إلى آخر ذلك من الأمثلة.

ورغم أن الأمثلة السابقة ليس لها صلة بواقع اللغة إلا أنها ترينا حقيقة الذي
 يجري في حالة تخفيف الهمزة. ويجب أن نفهم المشكلة كلها على أنها سقوط صوت،
 أي صوت، ثم تتشكل الكلمة بعد ذلك بإطالة الحركة لتكون حركة طويلة، أو
 بزيادة صوت لين لتعويض موقع الهمزة، أو تلتقي الحركتان القصيرتان اللتان
 تكتنفان الهمزة فتكونان حركة طويلة، أو ربما تظل الكلمة دون تغيير سوى
 سقوط صوت الهمزة.

(٢٢) يريد كتابه (المنع) والخبر المشار إليه هو اختلافهم في رسم كلمة التابوت. (انظر:
 المنع ص ٥).

(٢٣) انظر السيوطي: همع الهوامع ج ٢ ص ٢٣٣. ونصر الهوريني ص ٢٦ و ٦٥
 والشيخ أحمد الاسكندري: تيسير الهجاء العربي. (مقالة في مجلة مجمع اللغة العربية
 بالقاهرة ١٩٣٥) ج ١ ص ٣٧٣. ويوهان فك ص ٤.

وعلى أساس من هذا الفهم لحقيقة الهمزة: تحقيقها وتخفيفها، وطبيعة الصوت الذي يخلفها سوف ندرس الطريقة التي جرى عليها الكتابة في تمثيل الهمزة في الرسم العثماني، والتي رجحنا في ما سبق أن الكتاب جروا في رسمها على لغة وطريقة من يسهل الهمزة. (٤٨)

ثانياً: القاعدة العامة لتمثيل الهمزة في الرسم العثماني:

إن دراسة كيفية تمثيل الهمزة في الرسم العثماني على أساس أن الكتابة جروا في رسمها على قراءة أهل الحجاز في تخفيف الهمزة، وأن أهل التخفيف إنما يحققون من الهمزات ما وقع في ابتداء الكلمة دون ما جاء متوسطاً أو متطرفاً منها - على نحو ما مر بيان هاتين النتيجتين من قريب - تجعلنا ننظر إلى الموضوع من جانبيين، الأول هو أن تمثيل الهمزة في الرسم العثماني لم يتحقق إلا في أول الكلمة، والثاني أن ما عدا ذلك من المواضع، مما نجد الهمزة مثبتة فيه في نطق من يحققون الهمزة وأهل التخفيف يسقطونها منه، ليس همزة وإنما هو حركة طويلة أو صوت لين تخلف عن سقوط الهمزة. والوصول إلى فهم صحيح لطواهر الرسم العثماني يقتضي النظر إلى الهمزة من خلال هذه الحقيقة، وهي أن الهمزة لم تمثل في الرسم العثماني إلا في أول الكلمات أما ما عدا ذلك فلا توجد همزة لا في النطق ولا في الرسم. إنما هي حركات طويلة أو أصوات لين.

ويجب التنبيه هنا أيضاً إلى أن دراسة الرسم العثماني دراسة صحيحة سواء في موضوع الهمزة أم في غيره إنما تتاح إذا نظرنا إلى الرسم العثماني مجرداً من علامات تمييز الحروف وعلامات الحركات وغير ذلك، من مثل رأس العين التي وضعت في فترات لاحقة لتشير إلى الهمزة، أو رأس الشين أو رأس الصاد، أو علامات الوقف، لأن هذه العلامات كلها إنما أضيفت إلى الرسم في فترات لاحقة لتكميل الكتابة العربية المتمثلة في الرسم العثماني، لأن الكتابة العربية كانت في تلك المرحلة مجردة تماماً، تدل على ذلك روايات علماء السلف وما تم اكتشافه من نقوش كتابية تعود إلى ما قبل الاسلام أو إلى القرن الهجري الأول.

١ - رسم الهمزة في أول الكلمة:

وبناء على ما تقدم سندرس أولاً رسم الهمزة وهو لا يتحقق إلا في أول الكلمة ثم ندرس بعد ذلك رمز ما يحل محل الهمزة المتوسطة والمتطرفة إذا خفت في لغة أهل التخفيف، على أساس أن ذلك ليس همزة وإنما هو حركة طويلة أو واو أو ياء، وربما كان هذا الموقف من دراسة رمز الهمزة يخالف قليلاً - موقف علماء الرسم والعربية حين يقولون إن الهمزة إذا كانت متوسطة أو متطرفة فإنها ترسم على حركتها أو حركة ما قبلها، أو القول إن للهمزة الساكنة ثلاث مطايا^(٢٤): الألف والواو والياء. والحقيقة هي أن الذي ورد في الرسم العثماني في غير أول الكلمة ليس الهمزة، وإنما هو هذه المطايا فحسب دون رآكها، لأن الكتابة لم يدر في خلدنا أنهم يكتبون همزة بصورة الواو أو الياء. وإنما هم يكتبون واواً أو ياءاً أو شيئاً قريباً من ذلك، وهم لا يقصدون بذلك سوى تمثيل هذه الأصوات التي استعملوا لرسمها ما هو معروف من رموزها في الكتابة العربية، ولو أرادوا أن يكتبوا الهمزة لأثبتوها ألفاً كما هو أصل رمزها. (المطوية) (تفتوا)

(*)
هكذا كالم
لكنه من أين ذلك
أمر أو رأيا الواو

إن أصل رمز الهمزة هو الألف (ا)، والهمزة حين تحقق، أين وردت وبأية حركة تحركت، لا ترسم إلا ألفاً، على نحو ما روى الفراء عن مصاحف عبد الله، وفي مذهب بعض العرب، ولما كان أهل التخفيف يحققون الهمزة في أول الكلمة فقد جاءت كتابتها على ذلك الأصل، وهو رسمها ألفاً. فالهمزة التي تقع ابتداء ترسم في المصحف العثماني بأية حركة تحركت من فتح أو كسر أو ضم ألفاً لا غير^(٢٥)، وذلك نحو: (أمر، أخذ، أحمد، أيوب، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، إلا، إمام، إذ، إذا، أنزل، أملي، أولئك، أوحى) وشبه ذلك ومثله كثير، وكذلك حكمها إن اتصل بها حرف دخيل زائد، نحو (سأصرف، فبأي، أفأنت، بأنه، كأنه، كآين، بإيمان، لإيلاف، ليإمام، فلأمه، سأنزل، لأقطعن) وشبهه.

كأنه تسهيلها مع ضمها

بما كانوا أسسوا من ضمها مع كونه

لم يقرأ به أحد، وإنما تسهيلها واواً

م الوصف ليس منه

اللغة وإنما التسهيل

(٢٤) انظر كتاب الهجاء مجهول لوحة ٩.

(٢٥) انظر الداني: المقنع ص ٦٠، وانظر أيضاً: سليمان بن نجاح: التنزيل لوحة ٥.

هذا هو الأصل العام والقاعدة المطردة التي سار عليها الرسم العثماني في كتابة الهمزة المبدوء بها بأية حركة تحركت، ولكن سنجد أن هناك عوامل ساعدت على ظهور بعض الكلمات في الرسم العثماني كتبت بطريقة مزدوجة مثل (أولئك، سأوريكم)، وذلك لأن الكلام المتصل يجعل الهمزة التي في أول الكلمة تأخذ - أحياناً - حكم الهمزة المتوسطة في التخفيف، وقد يستجيب الكاتب لهذه الظاهرة الطارئة، وقد يحتفظ بأصل رسم الكلمة على قاعدة الابتداء بها والوقف عليها، كذلك تقوم الحروف الزائدة الداخلة على الكلمة بنفس الدور، مما سنوضحه فيما بعد.

٢ - تمثيل ما يخلف الهمزة المتوسطة في حالة التسهيل:

إن بعض حالات تخفيف الهمزة قد ينتج عنها ياء أو واو ضعيفتان، خاصة في حالة تخفيف الهمزة (بين بين)، ولكن نجد أن الكتاب قد استخدموا رمزي الواو والياء الخالصتين لتمثيلهما، مثل ما مر بنا من إستعمال رمز النون الخالصة لتمثيل صوت النون المخفاة في مثل (إن ثاب، إن ظهر، إن شاء، إن قال) رغم ما يوجد بينها من اختلاف صوتي لكن الكتاب أحسوا بأنها أفراد فرعية لعائلة واحدة فخصوها برمز واحد، وكذلك الحال هنا كما يبدو، فالهمزة المكسورة بعد فتح تصير في حالة التخفيف ياء مختلصة الكسرة كما يقول علم الدين السخاوي^(٢٦)، أو ينحى بها نحو الياء كما يقول المبرد^(٢٧)، وقد مثلت في الكتابة برمز الياء، وإن لم تكن ياء خالصة في الحقيقة، لكنها مقربة منها، والمقرب من الشيء قد يحكم له بحكم الشيء، وإن لم يكن كهو في الحقيقة، وكذلك حكم للهمزة عند تخفيفها في هذه الحالة حكم الياء الخالصة، فصورت ياء^(٢٨).

(٢٦) جمال الفراء ورقة ١٩٧ ب

(٢٧) المقتضب ج ١ ص ١٥٥.

(٢٨) انظر الداوي: الحكم ص (١٠٤-١٠٥).

وقد وضع ابن الجزري هذه الحقيقة في رسم الهمزة المخففة أي رسم ما يخلف الهمزة عند تخفيفها في ما يشبه القاعدة العامة حين قال^(٢٩): « فإن كان تخفيفها ألفاً أو كالألف كتبت ألفاً، وإن كان ياءً أو كالياء كتبت ياءً، وإن كان واواً أو كالواو كتبت واواً. وإن كان حذفاً بنقل أو إدغام أو غيره حذفته ما لم تكن أولاً فإن كانت أولاً كتبت ألفاً أبداً ». فمن المتوقع إذن أن نجد ما يخلف الهمزة من واو أو ياء ضعيفتين عند تخفيفها (بين بين) مرسوماً بالواو أو بالياء على أساس تلك القاعدة في الرسم العثماني.

رسم ما يخلف الهمزة المخففة المتوسطة ياء:

أ- تُرسم الهمزة المُخففة (بين بين) ياءً في الحالات التالية:-

١ - فتحة + همزة + كسرة - تخفف ياء ضعيفة (بين بين) - وترسم ياء.

الأمثلة: لَيْن - لِيَطْمِنَنَّ - تَطْمِنَنَّ - مُطْمِنَنَّ - مُطْمِنَةً - مُطْمِنِينَ - حِينِيذ - يَوْمِيذ - يَيْسُ - تَبْتَيْسُ - يَيْسُوا - يَيْسُنَّ. وما أشبه ذلك.

٢ - كسرة + همزة + كسرة - تخفف ياء ضعيفة - وترسم ياء.

الأمثلة: بَارِكُكُمْ - يَوْمُكُمْ.

أما في حالة كون الكسرة التي تلي الهمزة طويلة نحو (الصَّبِين - حَسِين - المستهزئين - الخاطين - متكين)، فإن تخفيفها قد يؤدي إلى وجود ياء ضعيفة، أو سقوط الهمزة مع الكسرة التي قبلها، فتتصل الكسرة الطويلة التي بعد الهمزة بالصوت الصامت الذي قبل الهمزة. وقد قرأ كذلك أبو جعفر، شاركه في بعضها نافع وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج^(٣٠)، وفي كلتا الحالتين يظل الرسم بياء واحدة، لأن الياء الضعيفة تشترك مع الكسرة الطويلة في الرمز، فلا يثبت إلا رمز واحد لها، كراهة اجتماع صورتين متفقتين في الخط، أما في الحالة الثانية فليس هناك إلا الكسرة الطويلة التي تمثل برمز الياء.

(٢٩) النشر ج ١ ص ٤٤٦، وانظر المارغني ص ٢١٠.

(٣٠) الدمياطي ص ٥٦، وانظر ابن خالويه: المختصر في شواذ القرآن ص ٦.

٣ - ضمة + همزة + كسرة - تخفف ياء ضعيفة - وترسم ياء .
الأمثلة: سُئِلَ - سُئِلَتْ - سُئِلُوا .

٤ - كسرة + همزة + ضمة - تخفف ياء ضعيفة - وترسم ياء .
الأمثلة: أُنبئكم - ينبئهم - ينبئكم - سنقرئك .

ويتلخص من أقوال علماء السلف^(٣١) أن الهمزة المضمومة ضمة طويلة وقبلها كسرة تخفف على وجوه ثلاثة: أولها قول الأخفش وعامة الكوفيين وهو قلبها ياء خالصة، والثاني أن تخفف بين الهمزة والواو (واو ضعيفة) وهو مذهب البصريين، والثالث قراءة أبي جعفر وحكاية الكسائي عن العرب، وهو إسقاطها مع الكسرة قبلها، وذلك لأن العربية تكره الخروج من كسر إلى ضم^(٣٢)، وعلى هذا جاءت أمثلة هذه الحالة كلها مرسومة بالواو فقط هكذا: مستهزون - الصبون - متكون - فمالون - المنشون - الخطون - أنبوني - نبوني - تنبونه - يضحون - يتكون - ليواطوا - يطفوا . وما أشبه ذلك^(٣٣) .

ولا شك في أن تخفيف الهمزة المضمومة ضمة قصيرة بعد كسرة في الأمثلة المذكورة نحو (أنبئكم - سنقرئك) يكون يجعلها كسرة طويلة لا ياء ضعيفة (بين بين)، إستناداً إلى ما سبق من كراهة الخروج من كسر إلى ضم، فيكون النطق (أنبيكم سنقرئك) بكسرة طويلة خالصة^(٣٤) .

(٣١) انظر المبرد ج ١ ص ١٥٧ . والزجاجي: الجمل ص ٢٧٩ : وأبو علي الفارسي (الحسن ابن أحمد بن عبد الغفار): الحجة في علل القراءات السبع، القاهرة. دار الكتاب العربي ١٩٦٥ ج ١ ص ١٦٠ . والداني: المحكم ص ١٤٠ والتيسير (له) ص ٢٣ . ومكي: الكشف ج ١ ص ١٠٥ .

(٣٢) ابن يعيش ج ١٠ ص ٥٥ وص ٨٧ .

(٣٣) قرأ أبو جعفر جميع الباب بالواو (انظر الداني: المحكم ص (١٣٩-١٤٠) والدمياطي ص ٥٦ ، وانظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ١٤٦ .

(٣٤) انظر د. عبد الصبور شاهين: المصدر السابق ص ١٤٠ حيث ينقل في هذه الحروف قراءة لبعض القراء بالكسرة الطويلة .

٥ - فتحة طويلة + همزة + كسرة - تحفف ياء ضعيفة - وترسم ياء .
 وأمثلة هذه الحالة كثيرة جداً، ومنها: قائم - ضائق - قائل - دائم - قائماً -
 خائفاً - طائفة - ذائقة - دائرة - سائبة - طائفتان - قائلون - نائمون -
 الفائزون - خائفين - الصُّمْتُ - أنبائكم - خزائن - السرائر . وما أشبه ذلك
 كثير .

ب- تُرسم الهمزة المُخففة ياءً خالصة - ياءً في الحالات التالية :-

١ - كسرة + همزة + فتحة - تحفف ياء خالصة - وترسم ياء .
 الأمثلة: فِئَة - حَمِيَّة - مُلِئْتُ - ناشئة - شانِك - لِيَبِطُنَّ - نُنشِئُكُمْ -
 رِئَاء - وما أشبه ذلك .

٢ - كسرة + همزة + صامت - تحفف كسرة طويلة - وترسم ياء .
 الأمثلة: جِئْتُ - جِئْتُمْ - شِئْتُمَا - شِئْتُمْ - أَنْبِئْهُمْ - نَبِّئْنَا - لَمِئْتُ -
 يئس - الذئب - وما أشبه ذلك .

٣ - كسرة طويلة + همزة + حركة - تحفف ياء مشددة أو ياء متحركة -
 وترسم ياء واحدة .

الأمثلة: خَطِيئَةٌ - خَطِيئَتُهُ - بَرِيئُونَ - سَيِّئَةٌ .

٤ - ياء + همزة + حركة - تحفف ياء مشددة أو ياء متحركة - وترسم ياء
 واحدة .

الأمثلة: كهيئة .

رسم ما يخلف الهمزة المخففة المتوسطة واوآ:

أ- تُرسم الهمزة المُخففة (بين بين) واوآ في الحالات التالية :-

١ - فتحة + همزة + ضمة - تحفف واوآ ضعيفة (بين بين) - وترسم واوآ .

الأمثلة: تَقْرُوه - تَوُزُّهُم - يَنبُؤم - يَكَلُوم - يَدْرُوم - لَتَنْبُؤنَّ .

وقد جاءت في بعض الأمثلة بعد الهمزة ضمة طويلة فلم يثبت رمز الواو

الضعيفة التي تخلف الهمزة عند التخفيف، لاجتماع واوين في الرسم، وذلك في: بدءوكم - يقرءون - ليعوس - يدراءون - مبرءون - يطءون (٣٥).

٢ - ضمة + همزة + ضمة - تخفف واوا ضعيفة - وترسم واوا.
الأمثلة: لم يأت من أمثلة هذه الحالة إلا ما كان فيه بعد الهمزة ضمة طويلة من مثل: (رءوس - رءوسكم - رءوسهم)، ولم ترسم الواو المتخلفة عن تخفيف الهمزة كراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الرسم.

٣ - فتحة طويلة + همزة + ضمة - تخفف واوا ضعيفة - وترسم واوا.
الأمثلة: ءاباؤهم - جزاؤهم - أنباؤكم - أحبؤه - ماؤها - دماؤها - هاؤم.
وما أشبه ذلك.

وقد جاء بعد الهمزة - في بعض الأمثلة - ضمة طويلة مرسومة واوا ولذلك لم ترسم الواو المتخلفة عن تخفيف الهمزة، نحو: يراءون - يشاءون - جاءوك.

ب- تُرسم الهمزة المخففة واوا خالصة - واوا في الحالات التالية:-

١ - ضمة + همزة + فتحة - تخفف واوا خالصة - وترسم واوا.
الأمثلة: يُؤيد - يُؤده - يُؤخر - يُؤلف - مُؤذن - مُؤجلا - المؤلفة.
وكذلك تخفف الهمزة المفتوحة فتحة طويلة بعد ضمة واوا خالصة، وترسم واوا، وذلك في نحو: يؤاخذ - بسؤال - فؤاد - وما كان مثله.

٢ - ضمة + همزة + صامت - تخفف ضمة طويلة - وترسم واوا.
الأمثلة: يُؤمن - يُوتى - يُؤذي - يُؤفك - يُؤلون - تُؤثرون - تُسؤهم - سنؤتهم - مؤمن - مؤمنة - المؤمنون - المؤمنات - المؤتفكة - المؤتفكات - سُؤلك - مؤصدة. وما أشبه ذلك.

(٣٥) قرأ أبو جعفر (ولا يطون، لم تطوها، ان تطوهم) بحذف الهمزة (انظر الديماطي ص ٥٦) وعلى ذلك لا يكون حذف رمز الواو المتخلفة عن تخفيف الهمزة - في هذه الأمثلة - لاجتماع واوين في الرسم بل لأنها لم تثبت أصلا في اللفظ، وهذا مثل عدم اثباتها في (الخاطون).

وقد جاءت بعض الكلمات من هذه الحالة بشكل يبدو أن تخفيف الهمزة جرى فيها على غير القاعدة المذكورة، ولهذا لم ترسم الواو، لتتناسب مع الأصوات المجاورة في مثل (الراءيا)، أو أن وجود واو أخرى قد منع من ظهور الواو التي تمثل الضمة الطويلة، كراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الخط، في مثل (تعوِي - تعويهِ) ولعل التخفيف في هذين المثالين كان واواً أدغمت في الواو ورسمت الكلمة بواو واحدة.

٣ - ضمة طويلة + همزة + حركة - تخفف واواً مشددة أو واواً متحركة - وترسم بواو واحدة. وردت هذه الحالة في كلمة (السوأى) و(ليسُءوا). لكن الكلمة الأولى تبدو فيها الهمزة وقد رسمت ألفاً، وكأنها محققة، ولعل هذا رسم قديم لنطق قديم - وسنذكر ذلك في مكان لاحق - أما الكلمة الثانية فقد وقعت الهمزة فيها بين ضمتين طويلتين، الأولى واو الفعل، والثانية واو الجمع، لكنهما رسمتا بواو واحدة، ومن المحتمل أن تكون صور الكلمة بعد التخفيف لا تتضمن إلا واواً وضمة طويلة فاكتفي بصورة الواو المرسومة، علماً أن الكسائي قرأها (لِسُوءاً) وقرأها ابن عامر وأبو بكر وحمزة وخلف (ليسُوءاً) (٣٦).

٤ - واو + همزة + حركة - تخفف واواً مشددة أو واواً متحركة - وترسم بواو واحدة.

الأمثلة: سُوَّة - سُوَّةِهَا - سُوَّةُكُمْ - المودة (المُوَدَّة).

وروى ابن خالويه ترك الهمز في الكلمة الأخيرة (التكوير ٨١/٨) وفتح الميم وإسكان الواو (المُوَدَّة) (٣٧).

وروى علماء الرسم أن كلمة ﴿مُوَيْلًا﴾ (الكهف ١٨/٥٩) رسمت بياء (٣٨)،

(٣٦) انظر الديماطي ص ٢٨٢.

(٣٧) ابن خالويه: المختصر في شواذ القرآن ص ١٦٩.

(٣٨) انظر المهدي ص ٩٣. والداني ص ٤٣.

والقياس فيها أن تخفف بترك الهمزة وكسر الواو مشددة أو مخففة. ولا أدري إن كانت قد خففت بالياء.

رسم ما يخلف الهمزة المخففة المتوسطة ألفاً:

أ- تُرسم الهمزة المخففة (بين بين) ألفاً في الحالات التالية:-

١ - فتحة + همزة + فتحة - تتكون فتحة طويلة (بين بين) - وترسم ألفاً.
الأمثلة: سَأَلَك - بَدَأَكم - نَبَأَنَا - نَبَرَأَهَا - لَأَمْلَأَنَّ - اشْمَأَزْتُ - دَأَبَا - نَبَأَهُمْ - مَنَسَأَتَهُ - امْرَأَتَهُ - امرأتان، وما كان مثل ذلك.

وفي حالة امتداد الفتحة بعد الهمزة أي كونها فتحة طويلة في مثل: سَأَوِي رءاك - المثاب - مئارب - شئان - المنشآت، فإن سقط الهمزة سيؤدي هنا إلى أن تلتقي الفتحة القصيرة التي قبل الهمزة بالفتحة الطويلة التي بعدها. لكن هذا لن يؤدي إلى تكون صوت لين، كما يحدث في حالة تخفيف الهمزة المضمومة ضمة طويلة، والواقعة بعد فتحة قصيرة، في مثل: يقرءون - مبرءون - يدرءون - يئوس - فحين تسقط الهمزة في هذه الأمثلة يتكون صوت لين ضعيف قبل الضمة الطويلة^(٣٩)، لكن هذا لا يحدث في حالة التقاء الفتحة مع الفتحة الطويلة التي بعدها، وربما يعوض المتكلم مكان الهمزة الساقطة بإطالة الفتحة القصيرة لكن ذلك سيؤدي إلى تتابع فتحتين طويلتين وهو غير ممكن في واقع اللغة^(٤٠)، ومهما كان الصوت المتخلف عن سقوط الهمزة في هذه الحالة فإن الكاتب لن يكتب إلا ألفاً واحدة.

وقد قال أبو عمرو الداني: ورأيت أكثر مصاحف أهل المدينة والعراق قد اتفقت على حذف الألف التي هي صورة الهمزة في أصل مطرد، وهو قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنم) حيث وقع، وفي ثلاثة أحرف، وهي قوله في يونس (١٧/١٠)

(٣٩) انظر الفراء: معاني القرآن ج ٢ ص ١٣٠.

(٤٠) انظر ابن جني: الخصائص ج ١ ص ٨٩ وج ٢ ص ٤٩٣.

﴿أَطْمَنُوا بِهَا﴾، وفي الزمر (٤٥/٣٩) ﴿أَشْمَزَتْ قُلُوبَ الَّذِينَ﴾ وفي ق (٣٠/٥٠) ﴿هَلْ أَمْتَلَكْتُ﴾^(٤١).

ووجدت في مصحف طشقند (سَأَلَك) (البقرة ١٨٦/٢) مرسومة بحذف الألف (سَلَك). وكذلك (لَأَمَلَن) (الأعراف ١٨/٧ وهو ١١٩/١١)، ومثلها (امرءتك) (هود ٨١/١١)، و(امرءته) (الحجر ٦٠/١٥ والنمل ٥٧/٢٧)، ووجدت أيضاً في مصحف جامع عمرو بن العاص (أَطْمَنُوا) (يونس ٧/١٠) بغير ألف، ومثلها (لَأَمَلَن) (السجدة ١٣/٤١ وص ٨٥/٣٨)، و(اشمزت) (الزمر ٤٥/٣٩).

وإذا كان لحذف الألف في هذه الأمثلة من دلالة فإن أول ما يدل عليه هو أن تخفيف الهمزة الواقعة بين فتحتين قصيرتين يؤدي إلى تكوّن فتحة طويلة أو صوت يشبهها، ومن ثم فقد جرى الكتابة على عدم إثبات الألف - هنا - التي هي علامة الفتحة الطويلة المتوسطة، مثل ما فعلوا في حالة الفتحة الطويلة المتوسطة في كلمات كثيرة سبقت الإشارة إليها من قبل.

٢ - فتحة طويلة + همزة + فتحة.

الأمثلة: أضاءت - جاءت - تساءلون - براءة - لقاءنا - دعاءه - غطاءك - وراءهم - شهداءكم - أذعياكم، وما أشبه ذلك.

عند تخفيف الهمزة في هذه الأمثلة تتكون بعد سقوط الهمزة حالة تشبه ما شاهدناه في الحالة السابقة في مثل المثاب ومثارب، حيث تلتقي فتحة قصيرة وفتحة طويلة، وقد رسمها الكتاب بألف واحدة، لكن جاءت الفتحة القصيرة هنا بعد الفتحة الطويلة، عكس الحالة السابقة، والنتيجة تظل - على ما يبدو - واحدة، ومن ثم لم تكتب إلا ألف واحدة، دون أن يكون هناك أثر لتخفيف الهمزة، وإنما ذكرنا هذه الحالة هنا لأن الحالات التي تشبهها وجاءت فيها بعد الألف ضمة أو كسرة رسمت واواً أو ياء. كما مر بيان ذلك.

(٤١) المقنع (٢٥-٢٦)، وانظر المهدي ص ٩٣ و٩٤، والعقيلي لوحة ٩.

ب- الهمزة المخففة فتحة طويلة تُرسم أَلِفًا:

وذلك في حالة واحدة:

فتحة + همزة + صامت - تخفف فتحة طويلة - وترسم أَلِفًا.
الأمثلة: يَاتِ - يَانَ - فلا تَأْسَ - يَأْتِي - يَأْمَنُ - يَأْمُرُ - اِمْتَلَأْ -
يَأْمُرُونَ - يَسْتَأْخِرُونَ - رَأَى - دَابَّ - شَانَ - أَلْبَسَ - رَأْفَةً - مَأْكُولَ -
مَأْمُونِ - المَأْوَى - تَأْوِيلَ - البَأْسَاءَ - ومنه أيضاً: يَسْتَشْذِنُ - يَسْتَشْذِنُكَ -
أَسْتَشْذِنُكَ - أَسْتَشْذِنُوكَ - أَسْتَشْجِرْتَ - أَسْتَشْجِرْهُ - يَسْتَشْخِرُونَ - المُسْتَشْخِرِينَ -
مُسْتَشْسِينَ.

وقد ذكرنا - هنا - من أمثلة هذه الظاهرة - وهي كثيرة - ما يبين ظاهرة
أخرى، سبق أن أشرنا إليها، وهي عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة (الألف)
المتوسطة، في كثير من الكلمات، حسب المبدأ الذي أشرنا إليه عند بحث رمز
الفتحة الطويلة، وهو أن عدم إثبات الألف الذي هو علامة للفتحة الطويلة
المتوسطة يكثر في الكلمات التي استطلت باتصال بعض الزوائد بها، كما نجد في
(يستذن - يستذنوك - استذنك - استذنوك). وما يدل على أن وجهه
الكتاب كانت نحو استكمال هذا النقص في بعض الكلمات إن كلمة ﴿يستأخرون﴾
جاءت بإثبات الألف مرة (الأعراف ٣٤/٧)، وبجذفها في المواضع الأخرى،
وكذلك نجد كلمة ﴿مستسنيين﴾ (الأحزاب ٥٣/٣٣) جاءت مرسومة بغير ألف بينما
جاءت كلمة ﴿تستانسوا﴾ (النور ٢٧/٢٤) والألف فيها ثابتة، وهذا قد يشير إلى
أن ظاهرة إثبات الألف المتوسطة قد بدأت تشمل بعض الكلمات التي استطلت
بالزوائد.

وحذف الألف في هذه الحالة يضع أيدينا على دليل جديد من الرسم ذاته
يدل على أن الرسم العثماني جرى في تمثيل الهمزة على قراءة ولغة أهل التسهيل،
وذلك لأن الكاتب عامل الفتحة الطويلة المتخلفة عن تخفيف الهمزة معاملة
الفتحة الطويلة المتوسطة في الكلمات غير المهموزة حين يجذفها من الكلمات ذات
الرموز الكثيرة.

رسم الكلمة التي تسقط منها الهمزة عند التخفيف دون أن تعوض بشيء:

إذا كانت الهمزة متحركة بعد ساكن وخفت سقطت دون أن يحلها شيء، وإنما تتصل حركتها بالحرف الساكن قبلها فيتحرك، ولذلك نجد الكلمات التي وردت الهمزة فيها على تلك الحالة قد جاءت في الرسم العثماني دون أن يكون لها أي أثر في الرسم، لسقوطها من النطق البتة.

فأمثلة المفتوحة وقبلها ساكن: يَسْتَلُّ - أَسْئَلُكَ - فَسَلْ - يَسْتَمُّ - يَسْتَمُونَ - تَجْرُونَ - شَطَّهَ - أَلْمَشَمَّةَ. وما أشبه ذلك.

وسواء أكانت الفتحة قصيرة كالأمثلة السابقة أم طويلة كما في هذه الأمثلة: الثن - القرآن - الظمآن. ولما كان عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة يكثر في وسط الكلمات فمن المتوقع أن نجد بعض الأمثلة قد شملتها هذه الظاهرة مثل (قرنا)^(٤٢).

إلا أن كلمة (النشأة) قد جاءت الألف فيها ثابتة دون أن تكون فيها فتحة طويلة، وكان قياس كتابتها على التخفيف (النشة) يقول الداني^(٤٣): إتفق كتاب المصاحف على أن رسموا ألفاً بعد الشين في (النشأة) في العنكبوت (٢٠/٢٩) والنجم (٤٧/٥٣) والواقعة (٦٢/٥٦). ثم قال: ولا أعلم همزة متوسطة قبلها ساكن رسمت في المصحف إلا هذه الكلمة وفي قوله ﴿مَوْئَلًا﴾ في الكهف (٥٨/١٨) لا غير.

أما أمثلة الهمزة المضمومة وقبلها ساكن فقد جاءت فيها الضمة بعد الهمزة طويلة مرسومة واواً، مثل: مذاءوما - مسؤلوا - مسؤلون. فالواو المرسومة في

(٤٢) ذكر الداني: (انظر المقنع ص ١٩) أن الألف حذفت من رسم كلمة (قرآن) في يوسف (٢/١٢) والزخرف (٣/٤٣) فقط.

(٤٣) المقنع ص ٤٣.

هذه الأمثلة هي رمز الضمة الطويلة ، وقد سقطت الهمزة دون أن يخلفها شيء لا في اللفظ ولا في الرسم . أما أمثلة الهمزة المكسورة بعد ساكن فقد جاءت من ذلك كلمة (أفئدة) و(أفئتهم) ، ولا أثر لتخفيف الهمزة في الرسم إذ إنها سقطت دون أن يحدث في بنية الكلمة تمويض لمكان الهمزة بل صارت كسرتها حركة للساكن قبلها مثل كل الأمثلة السابقة في هذه الحالة .

٣ - الهمزة المتطرفة في الرسم العثماني:

إن الهمزة التي تقع في آخر الكلمة لا تختلف قواعد رسمها كثيراً عن قواعد رسم المتوسطة . إلا أن هناك عاملاً أسهم بعض الشيء في توجيه رسم الهمزة المتطرفة دون أن يكون له أثر في المتوسطة ، ذلك هو ما امتازت به العربية من الميل إلى الوقف على أواخر الكلمات بالسكون ، « فالحرف الموقوف عليه لا يكون إلا ساكناً »^(٤٤) . ولذلك فقد تعلق تخفيف الهمزة المتطرفة بالحركة التي تسبقها ، لكن بعض الهمزات جاء ما قبلها ساكناً ، ولذلك فإن تخفيف الهمزة المتطرفة ينقسم إلى ما قبله حركة وما قبله ساكن ، ومن ثم فإن رسم ما يتخلف عن الهمزة المتطرفة عند تخفيفها ينقسم إلى قسمين كذلك .

أ - رسم الهمزة المتطرفة بعد ساكن :

أما رسم الهمزة التي قبلها ساكن فقد اتفق كتاب المصاحف على عدم إثبات شيء مكانها في الرسم^(٤٥) . ومن أمثلة ذلك : مِلْءٌ (٩١/٣) - دِفْءٌ (٥/١٦) - أَلْخَبْءٌ (٢٥/٢٧) - أَلْمَرْءُ (١٠٢/٢) . وقد قال الفراء وهو يتحدث عن رسم كلمة (دِفْءٌ) : كتبت بغير همزة لأن الهمزة إذا سكن ما قبلها حذفت من الكتاب ، وذلك لحفاء الهمزة إذا سكت عليها ، فلما سكن ما قبلها ولم يقدرُوا على

(٤٤) ابن يعيش ج ٩ ص ٦٧ .

(٤٥) انظر الذاني: المقنع ص ٦٢ . وسليمان بن نجاح لوحة ١٣ .

همزها في السكت كان سكوتهم كأنه على الفاء، وكذلك قوله (يخرج الخبء) و(ملء الأرض)^(٤٦).

ومن مذهب بعض العرب أنهم يشددون الحرف الساكن قبل الهمزة في مثل هذه الكلمات عند تخفيف همزتها. وروي ذلك عن بعض القراء^(٤٧)، لكن تشديد الحرف في آخر الكلمة بعد سقوط الهمزة لا يغير من رسم الكلمة لأن الحرف المشدد يكتب برمز واحد.

وقد جاءت في المصحف بضعة أمثلة وقعت فيها الهمزة المسبوقة بسكون طرفاً، ولحقها التنوين، وهي مفتوحة، فجرى الكتاب فيها على وفق ما ذكرنا إلا أنهم أثبتوا فيها ألفاً هي عوض التنوين عند الوقف، وذلك نحو: جُزءاً (٢٦٠/٢)، وخطأً (٣١/١٧)، ورذءاً (٣٤/٢٨)، ووطئاً (٦/٧٣). ويبدو أن الحرف الساكن قبل الهمزة تتصل به الفتحة الطويلة التي هي عوض التنوين في حالة الوقف، لأن الهمزة تسقط في التخفيف وتتصل حركتها بالحرف الساكن قبلها.

وتجري هذه القاعدة في رسم الهمزة على ما كان فيه الساكن الذي قبل الهمزة ياء أو واواً لأن تخفيف الهمزة في هذه الحالة يكون إما بإلقاء الحركة على ما قبلها فتصير الياء أو الواو متحركة بحركة قصيرة، أو بالتعويض فتصير الياء أو الواو مشددة. وفي كلتا الحالتين لا يكتب إلا رمز الياء أو الواو، لأنه ليس هناك في الحالة الأولى إلا صوت واحد، ولأن المشدد في الحالة الثانية لا يكتب إلا برمز واحد، حسب القاعدة التي مر ذكرها، ولكن إذا كانت الكلمة إسمياً منوئاً منصوباً ثبتت الألف التي هي عوض التنوين في الوقف كما حدث في (جزءاً وخطأً)، فمثال ما كان قبل الهمزة فيه ياء كلمة (شيء)، وقد جاءت مرفوعة

(٤٦) انظر معاني القرآن ج ٢ ص ٩٦.

(٤٧) انظر ابن خالويه: المختصر ص ٦ ود. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص (١٣٥-١٣٦) و(١٥٢-١٥٤).

(شيء)، ومنصوبة (شيئاً)، ومجرورة (شيء). ومثال ما كان قبل الهمزة فيه واو كلمة (السَّوء) و(سَوء) (٤٨).

ب- رسم الهمزة المتطرفة بعد حركة:

أما إذا تحرك ما قبل الهمزة المتطرفة فإنها تخفف وفقاً لحركة ما قبلها مثل تخفيف الساكنة وسط الكلمة، ولما كان رسم الهمزة في غير أول الكلمة قد جرى على التخفيف فإن الكاتب سوف يرسم في حالة الهمزة المتطرفة بعد حركة رمز حركة طويلة، تحدد نوعها الحركة القصيرة السابقة للهمزة، حيث تطول تلك الحركة لتموض موقع الهمزة (٤٩).

فمثال ما كانت فيه قبل الهمزة المتطرفة فتحة ورسم بالألف، سواء أكانت حركة الهمزة فتحة أم ضمة أم كسرة: ذَرَأَ - تَبَرَأَ - الْمَلَأَ - أَسَوَأَ - يُسْتَهْزَأُ - نَبَأَ - أَلْمَأَ - حَمَأَ - سَيَأَ - بِالْمَلَأَ - النَبَأَ.

ومثال ما كان فيه قبل الهمزة ضمة: امرؤا - لؤلؤا - الوؤلؤ. ألسييء.

ومثال ما كان فيه قبل الهمزة كسرة: يستهزيء - تُبريء - يُبديء - الباريء - قُرِيء - استهزيء - موطئاً - خاسئاً - أمريء - شطيء - السبيء.

فإن كان ما قبل الهمزة ضمة أو كسرة طويلتين فإن تخفيف الهمزة بعدها يكون إما بإلقاء الحركة عليها فتنتقل إلى واو أو ياء. أو أنها تتجزأ إلى حركتين قصيرتين تحافظ الأولى على وجودها وتقع الثانية موقع الواو أو الياء فتدغم بالواو أو الياء التي تخلف الهمزة (٥٠)، وفي كلتا الحالتين لا يظهر أثر تخفيف

(٤٨) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دائرة السوء) في التوبة (٩٨/٩) بضم السين (انظر الداني: التيسير ص ١١٩) أي صار قبل الهمزة ضمة طويلة لكن الرسم مع ذلك لا يختلف.

(٤٩) انظر الداني ص ٦٢.

(٥٠) انظر مكِّي: الكشف ج ١ ص ١٠٩. وابن سيده: المحمص ج ١٤ ص ١٥.

الهمزة في الرسم، ففي الحالة الأولى تشترك الحركة الطويلة وصوت اللين (الواو والياء الصامتان) برمز واحد. وفي الحالة الثانية يشار للصوت المشدد برمز واحد هو رمز الحركة الطويلة التي كانت مع الهمزة المحققة وانتقلت بعد التخفيف إلى صوت لين^(٥١).

فمثال ما كانت فيه قبل الهمزة ضمة طويلة: السوء - سوءاً - بالسوء - قروء.

ومثال ما كانت فيه قبل الهمزة كسرة طويلة: سيء - جيء - تفيء - يضيء - بريء - المسيء - النسيء - نبيء - هنيئاً - مريئاً - بريئاً، وما أشبه ذلك.

أما إذا كانت الحركة الطويلة التي قبل الهمزة فتحة فإن تخفيف الهمزة عند الوقف في هذه الحالة سيكون بإسقاط الهمزة وتصير الكلمة كأنها مقصورة، ويظل رسمها كما هو بأية حركة تحركت الهمزة.

فمثال ما كانت حركة الهمزة فيه فتحة: شاء - جاء - أضاء - باء - إيتاء - أبتغاء - تلقاء - شهداء - أغنياء - شعفاء - حنفاء - السماء - النساء - الفقراء، وما أشبهه.

ومثال ما كانت حركة الهمزة فيه ضمة: يشاء - صفراء - جزاء - عطاء - الفقراء - الأخلاء - شركاء - أغنياء - نساء - أسماء.

(٥١) يرى الداني (المقعص ص ٤٣) أن الهمزة في (أ ن توباً) (٢٩/٥) و(لتنوياً) (٧٦/٢٨) قد صورت الفاء في هذين المكانين. لكن يبدو أن تخفيف الهمزة هنا قد جرى بأن تتوّل الهمزة الى واو ضعيفة متحركة بحركة مختلصة، فتحة في الأول وضمة في الثاني، فتتوالى ضمة طويلة وواو ضعيفة، فلا تثبت الا صورة إحداها كراهة اجتماع صورتين متفتحين في الخط، ويقول السيوطي في هذين المثالين (الاتقان ج ٤ ص ١٥٣) « ان الألف التي بعد الواو ليست صورة الهمزة، بل هي الزيادة بعد واو الفعل ».

ومثال ما كانت حركة الهمزة فيه كسرة: لقاء - عطاء - دعاء - غطاء - ماء - مَسَاءً - بناء - السماء - الضراء - العراء - الفقراء - الشهداء - الضعفاء - الخلطاء - الأنباء، وما أشبه ذلك.

وإذا كانت الهمزة منونة منصوبة مثل (ماء - غثاء - جفاء - سواء) وما كان مثله، فإن الكتاب قد جروا على إثبات ألف واحدة، رغم اجتماع فتحتين طويلتين، الأولى من أصل الكلمة، والثانية عوض التنوين، وسواء أكان اللفظ بإثبات الفتحتين الطويلتين عن طريق تغيير النغمة أو درجة الانفتاح - إن أمكن ذلك وصح رواية - أم إثبات ألف واحدة، لأن كراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الرسم تحول دون إثبات أكثر من رمز ألف واحدة، وقد اختلف في الألف المرسومة هل هي ألف الكلمة أو هي عوض التنوين؟ ويرى علماء الرسم كونها التي قبل الهمزة أولى لوجودها في الوصل والوقف، فهي لازمة^(٥٢).

وإن تحرك ما قبل الهمزة وكان بعدها ألف سواء أكانت للنصب أم للتثنية، نحو (خَطَّأ - مُتَكَّأ - ملجأ) ونحو (أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَكُمَا) (٨٧/١٠) وما كان مثله فإنه رسم بألف واحدة أيضاً، والأخرى محذوفة، والمثبتة هي الألف المعوضة من التنوين وألف التثنية، ويروي الداني أن بعض النحويين قال: إنما لم يجمع بين ألفين في الخط من حيث لم يجمع بينهما في اللفظ^(٥٣)، وذلك لأن النطق بالكلمة مُنَوَّنة ومُسَهَّلَةٌ الهمزة سيؤدي إلى تقصير الفتحة الطويلة التي خلفت الهمزة لأنها وقعت في مقطع مديد مقفل بصامت، وعند الوقف تثبت الألف المعوضة من التنوين فهي في الحقيقة ألف واحدة، كما قال بعض النحويين.

إن ما أشرنا إليه في أول الكلام عن رسم ما يخلف الهمزة المخففة في آخر الكلمة من أن رسمها ينبني على الوقف على آخر الكلمة بالسكون، وهو ما يؤكد القاعدة المشهورة وهي أن كتابة الكلمة تقوم على النطق بها مبتدأً بها وموقوفاً

(٥٢) انظر المهدي ص ١٠٩، والداني: المقنع ص ٢٦.

(٥٣) الداني: المقنع ص ٢٦. وانظر المهدي ص ١٠٩.

عليها - ليس على إطلاقه، وذلك لأن كتابة المصحف جروا في أماكن متعددة على رسم الكلمات وهي منطوقة في كلام متصل، فأدى ذلك إلى أن تأخذ الهمزة المتطرفة حكم الهمزة المتوسطة عند التخفيف، وهو ما ظهر أثره في رسم الهمزة في بعض المواضع.

فمن ذلك مما كانت الهمزة المتطرفة فيه بعد ألف وهي مضمومة أو مكسورة: نَشُوا - أَنْبُوا - الضعفُوا - العلمُوا - وتلقاىء - ءانايء - بلقائيء - دعائيء، فقد خففت الهمزة في هذه المواضع كما خففت في أبأؤكم وقائم.

ومثال ما كانت الهمزة فيه بعد فتحة وهي مضمومة: يَبْدُوا - أَتَوَكَّؤُوا - يَبْعُوا - أَلَمَلُوا - نَبُوا.

ومثال ما كانت الهمزة فيه بعد فتحة وهي مكسورة: نَبَأي.

وهذه الأمثلة - التي سنتكلم عنها بتفصيل فيما بعد - تشير إلى أن كتابة المصحف جرواً في كتابة الكلمات على أساس الوقف على آخر الكلمة بالسكون مرة وعلى أساس وصلها، محرقة، بما بعدها أخرى.

ثالثاً: العوامل التي أسهمت في تعدد صور هجاء الكلمات المهموزة:

تلك هي الاتجاهات العامة لرسم الهمزة المحققة ورسم ما يخلفها في حالة التخفيف، في كافة أحوالها، كما جاءت في الرسم العثماني. إلا أن هناك جملة عوامل أسهمت في أن تأتي الهمزة في بعض الكلمات مرسومة على أساس آخر غير ما جرى عليه رسمها في عامة الكلمات التي وقعت فيها الهمزة مثل موقعها فيها، فيقول ابن الجزري: وربما خرجت مواضع عن القياس المطرد لمعنى^(٥٤). ونحاول هنا أن نتبين تلك العوامل التي ساعدت على وجود الظواهر الخارجة على القياس المطرد، من خلال دراسة الظواهر نفسها. لعل في تبين تلك العوامل ما يتيح تفهم هذه الظواهر على نحو أكثر وضوحاً وأقرب إلى الصحة.

(٥٤) النشرح ١ ص ٤٤٧. وانظر الداني: المقنع ص ٦٢.

وإذا كانت الهمزة - صوتاً - على ذلك النحو من التعقيد والتباين في حالات إثباتها وتركها في الكلام فإن رسم الهمزة يعد مشكلة أشد تعقيداً من مشكلتها الصوتية، ذلك لأن الكتابة - كما مر من قبل - لا تتابع تطور اللغة بسرعة، فهي لا تتخلى عن صور هجاء الظواهر اللغوية الميتة وهي لا تمثل الظواهر الجديدة إلا بعد فترات طويلة، وربما ظلت تلك الصور مستعملة على أيدي الكتاب، وقد ينسى أصلها فلا يكاد يصل الباحثون في ذلك إلى شيء يمكن الاطمئنان إليه، وقد تحتفظ الكتابة بصور الهجاء القديمة إلى جانب تمثيل الظواهر الجديدة، مما يزيد في صعوبة الوصول إلى فهم صحيح لها، وكذلك فإن الكلمة قد يختلف رسمها تبعاً للأساس الذي تقوم عليه الكتابة من وصلها بغيرها أو الوقوف عليها. وقد تجلّى أثر هذه العوامل في طريقة رسم الهمزة في بعض الكلمات، حيث جاءت على غير الأصول والقواعد التي أشرنا إليها من قريب، وتقدم هذه الأمثلة التي وردت في الرسم العثماني مادة مهمة جداً للباحث في تاريخ الكتابة العربية عامة ولدراسة الأسس التي تقوم عليها الكتابة خاصة، إلى جانب أنها قد تساعد الباحث في تاريخ اللغة على تصور بعض ظواهر النطق في فترات سحيقة من تاريخ اللغة.

١ - رسم الكلمات المهموزة على الوصل:

يبدو أن عدم استقرار الكتاب على كون أن الأصل في كتابة الكلمة هو الابتداء بها والوقف عليها كان ذا أثر كبير على الرسم العثماني. وقد بينا أثر ذلك في رموز الحركات الطويلة، ويتضح هذا الأثر في رسم الهمزة بنفس تلك الدرجة وربما أشد، ومع أن أكثر الرسم بني على الوقف إلا أن ملاحظة علماء الرسم لأثر الوصل من خلال الأمثلة التي يقدمها الرسم العثماني وقولهم (المذهبان قد يستعملان في الرسم، دلالة على جوازها فيه) و(ذلك من حيث عاملوا في كثير من الكتابة اللفظ والوصل، دون الأصل والقطع)^(٥٥) - يظل صحيحاً ومفيداً في تفسير الكثير مما جاء على غير القاعدة العامة في رسم الهمزة.

(٥٥) انظر ذلك في الفصل التمهيدي ص ٨٢-٨٤.

ولما كان أول الكلمة وآخرها أكثر عرضة للتأثر بجواررة أصوات الكلمات السابقة واللاحقة، ولما كانت الهمزة في أول الكلمة لا تكون إلا محققة ولا ترسم إلا بالألف، وأن اتصالها قد يؤدي إلى تسهيلها، ولما كان رسم ما يخلف الهمزة المتطرفة عند تخفيفها يقوم على الوقف والسكون وأن اتصالها بما بعدها قد يغير حكم تخفيفها ومن ثم ينعكس ذلك على رسمها - فإن مشكلات كتابة الهمزة قد تركزت في الهمزة المبتدئة وفي المتطرفة دون المتوسطة، فقد تتعرض الهمزة المبتدئة للتوسط بسبب اتصالها ببعض الزوائد، وقد تتعرض المتطرفة للتوسط أيضاً بسبب اتصال الضائرها وقد تتعرضان للتوسط بسبب نطق الكلام متصلاً. ولا شك في أن ذلك التوسط العارض قد ينعكس على رسم الكلمة، وقد يتغير لتغير النطق بالهمزة من التحقيق إلى التخفيف في المبتدئة، أو لتغير طريقة التخفيف في توسط المتطرفة.

ولدينا الأمثلة الكثيرة التي تكشف عن ذلك كله، فاتصال أحرف المضارعة بأول الفعل المهموز المضعف العين في مثل (أكد - أيد) سيغير موقع الهمزة وطريقة نطقها، وتصير متوسطة فتخفف لذلك، ويظهر أثر ذلك التوسط في هجاء الكلمة، وسوف نكتب في المضارع (يؤكد، ويؤيد). وكذلك فإن اتصال الهمزة المتطرفة بضمير يؤدي إلى تغيير طريقة تخفيفها فيتغير بالتالي رسم الهمزة فكلمة (أولياء) ترسم بالألف وهي منفصلة، بأية حركة تحركت، إلا أن اتصالها بضمير سيغير طريقة تخفيف الهمزة فيها ويتغير رسمها لذلك، فتصير مع الكسرة ياء (أولياؤهم) ومع الضمة واواً (أولياؤهم).

وهناك كلمات غلبت عليها الإضافة إلى كلمات معينة، فأدى ذلك إلى أن يأخذ أول الكلمة الثانية حكم المتصل دائماً، فإذا كان همزة أدى ذلك إلى تخفيفها فكلمة (إذ) جاءت في المصحف مضافة إلى (يوم وحين) في أكثر من موضع وقد أخذت الكلمتان شكل الكلمة الواحدة، وصارت همزة (إذ) في حكم المتوسطة، فخفت لذلك تخفيف المتوسطة المكسورة بعد فتح، فصارت ياء

ضعيفة، ووصلها الكتاب في الرسم على هذه الصورة (يومئذ - حينئذ)^(٥٦).
ومثلها أيضاً (لثلاً ولثين).

ويقدم الرسم العثماني ظاهرة كتابية تعتبر مثلاً نموذجياً لأثر الوصل في رسم الكلمات عامة وفي رسم الهمزة خاصة، فقد كتبوا (يا ابن أمّ) في سورة طه (٩٤/٢٠) هكذا (بينوم)^(٥٧). وتفسير هذه الصورة الهجائية هو أن همزة الوصل تسقط في الكلام المتصل، فاتصلت الفتحة الطويلة من حرف النداء (يا) بالياء الساكنة من كلمة (ابن) فأدى ذلك إلى تقصير الفتحة الطويلة لوقوعها في مقطع مقفل، وحذف رمزها وهو (الألف)، فاتصلت الياء المتبقية من حرف النداء بكلمة (بن). وقد رأينا من قبل أن رمز الفتحة الطويلة من حرف النداء يسقط وتتصل الياء بالكلمة التي تليها حتى ولو لم تقصر الفتحة الطويلة مثل (يقوم). وقد أدى النطق بهذه الكلمات متصلة إلى أن تأخذ الهمزة في كلمة (أم) حكم الهمزة المتوسطة فخفت تخفيف المضمومة بعد فتح، فصارت واواً ضعيفة تصور واواً، فحذف الكتاب صورة النطق القديم، وهي الألف، وأثبتوا صورة النطق الجديد، وهي الواو ووصلت الكلمات ببعضها في الرسم فصارت كأنها كلمة واحدة.

والملاحظ في الأمثلة السابقة من مثل (حينئذ) وما أشبهها مما أخذت فيه الهمزة المتبدئة حكم المتوسطة بسبب الوصل، وظهر أثر ذلك في الرسم - أن صورة النطق الجديد حلت محل صورة النطق القديم دون أن يبقى لها أثر، إلا أن الكتابة كما قلنا أكثر محافظة على الرسم الذي اعتيد عليه رغم ما قد يصيب نطق الكلمة من تطور، ولذلك فقد يتطور نطق كلمة دون أن يواكب الرسم ذلك التطور، وقد يمثل الكتاب النطق الجديد في الكلمة دون أن يحدفوا صورة النطق القديم، وعلى ذلك فقد كان بالإمكان أن تأتي كلمة (حينئذ) مرسومة

(٥٦) انظر ابن درستويه ص ٣٢، والمهدوي ص ٩٠ والداني: المقنع ص ٥٣.

(٥٧) انظر الفراء: معاني القرآن ج ٢ ص ٣١٣ وج ٢ ص ١٣٢.

هكذا (حين ايد) أو (حين ايد)، فتظل صورة الهمزة المبتدئة ثابتة في الرسم إلى جانب تمثيل النطق الجديد بـ رمز الياء التي تشير إلى تخفيف الهمزة المكسورة بعد فتح ياء ضعيفة (بين بين)، وكذلك الحال في (يا ابن أم) بالامكان أن تأتي مرسومة هكذا (أوم) سواء وصلت رسماً أم لم توصل.

وقد روى بعض علماء السلف أن ذلك - أعني إثبات رمز النطق الجديد إلى جانب رمز النطق القديم - يكاد أن يكون مذهباً جرى عليه بعض الكتاب فيما يكتبون، وقد صور ذلك ابن ولاد أحسن تصوير حين قال: فإن كان الاسم مهموزاً كتبته بالألف في الرفع والنصب والحذف، فقلت هذا الخطأ ورأيت الخطأ وعجبت من الخطأ، فإن أضعفته فالأجود أن تجعل الهمزة في الرفع واواً وفي الحذف ياء وفي النصب ألفاً، فتقول هذا خطأك ونبؤك، وعجبت من خطأك ونبؤك، ومنهم من يدع الهمزة على حالها قبل الإضافة، يكتبها في الرفع والنصب والحذف ألفاً: هذا خطأك، ورأيت خطأك، وعجبت من خطأك. والأول أحسن وأكثر. ومنهم من يكتبها إذا أضاف في الرفع بألف وواو، وفي الحذف بألف وياء: هذا خطأك وعجبت من خطأك. وهذا أضعف الوجوه (٥٨).

وبغض النظر عن التحسين والتضعيف في قول ابن ولاد فإن هذا النص يقفنا على حقائق مهمة في رسم الهمزة المتطرفة التي تأخذ حكم المتوسطة بسبب الوصل، فمن الكتاب من يتشبه بالصورة القديمة فيكتب الهمزة بالألف دون التفات إلى ما قد يكون عليه النطق، ومنهم من يستجيب لواقع النطق فيكتبها مرة واواً وأخرى ياء، وربما ألفاً، حسب ما تؤول إليه عند التخفيف وهي في كلام متصل.

ولم ينفرد ابن ولاد برواية ذلك الاتجاه للكتاب في كتابة الهمزة المتطرفة التي تتوسط بسبب وصل الكلام أو بسبب اتصالها بالضمائر، فقد قال

(٥٨) ابن ولاد (أحمد بن محمد بن الوليد): كتاب المقصور والمدود. ليدن. ١٩٠٠ ص ٢.

الزجاجي - وهو يتحدث عن رسم الهمزة المتطرفة وقبلها فتحة ألفاً على كل حال ، ورسمها واواً إذا اتصل بها مضمر ، إذا انضمت نحو هو يقرؤه ويكلؤه - يقول^(٥٩): « فأما من يكتبها بواو قبلها ألف فمُخطيء ». ويروي نصر الموريني أن إمام الكوفيين ثعلب قال في مثل هذه الحالة « وربما أقرؤا الألف وجاءوا بعدها بواو في الرفع وبياء في الخفض فيقولون ظهر خطأؤه وعجبت من خطائه ، والاختيار مع الواو والياء أن تسقط الألف ، وهو القياس اه »^(٦٠).

ورغم تضعيف ابن ولاد لهذا المذهب في رسم الهمزة ، وتخطيء الزجاجي لمن سار عليه ، واعتبار ثعلب القياس بتركه ، رغم ذلك فإن روايتهم لذلك تدل على أنه كان مذهباً سار عليه بعض الكتاب وربما كان اتجاهاً عاماً في الكتابة في فترات متقدمة وظلت منه بقايا إلى عصرهم ، وتأصيل هذا الاتجاه سوف يجعل من اليسير أن نفهم سر رسم الهمزة في بعض الكلمات في الرسم العثماني بطريقة مزدوجة ، مرة بألف وواو ، وأخرى بألف وياء ، فما ذلك في الواقع إلا لأن الكتاب جمعوا بين الصورتين باعتبار الاتصال والانفصال كما يقول الجعبري^(٦١).

وما يؤكد هذه الظاهرة الهجائية أن تخفيف الهمزة المبتدئة إذا نطق بها في كلام متصل سوف يجري تخفيفها على نحو تخفيف المتوسطة . وقد كان سببويه يكثر من عرض الأمثلة التي توضح تسهيل الهمزة المبتدئة إذا اتصلت بما قبلها من مثل كَمْ بِلْكَ وَمَنْ بَوْكٍ وَمَنْ مُمْكَ . وما يشبه ذلك^(٦٢) . وما يساعد - أيضاً - على تصور وقوع هذه الظاهرة في الرسم العثماني أن بعض القراء قد خفف الهمزة المبتدئة ، يقول الداني^(٦٣): وقد اختلف أصحابنا في تسهيل ما يتوسط من الهمزات بدخول

(٥٩) الجمل ص ٢٧٨ .

(٦٠) المطالع النصرية ص ١٥٠ .

(٦١) انظر خيلة أرباب المراصد ورقة ٢٢٦ أ

(٦٢) الكتاب ج ٢ ص ١٦٥ ، وانظر ابن سيده: المحصص ج ١٤ ص ١٥ .

(٦٣) انظر التيسير ص ٤١ .

الزوائد عليهن نحو قوله (أفأنت - فباي ءالء - بايكم - وكأين - كانه - فلاقطعن - لبامام - الأرض - الآخرة) وشبهه، وكذلك ما وصل من الكلمتين في الرسم فجعل فيه كلمة واحدة نحو (هؤلاء - هأنتم - ياها - ياأخت...) وشبهه، فكان بعضهم يرى التسهيل في ذلك اعتداداً بما صرن به متوسطات، وكان آخرون لا يرون إلا التحقيق اعتداداً على كونهن مبتدئات، والمذهبان جيدان وبها ورد نص الرواة.

ويمكن أن تتناول دراسة الظواهر المتعلقة برسم الهمزة مما جاء على غير ما سبق بيانه من قواعد رسمها، حين تكون أول الكلمة أو تخفف وهي متوسطة أو متطرفة، في بابين: الأول رسم الهمزة المبتدئة التي يعرض لها التوسط بسبب اتصال الزوائد بها أو بسبب النطق بها في كلام متصل. والثاني رسم الهمزة المتطرفة التي يعرض لها التوسط بسبب اتصال الضائر بها أو بسبب نطقها في كلام متصل.

أ - رسم الهمزة المبتدئة التي يعرض لها التوسط بألف وواو:

أما الهمزة المبتدئة فقد جاءت مرسومة رسماً مزدوجاً بألف وواو أو بألف وياء، في بعض المواضع، ومن ذلك ما كان نتيجة اتصال الزوائد بالكلمة ومنه ما كان بسبب نطقها في كلام متصل.

فمن أمثلة الهمزة المتوسطة توسطاً عارضاً - وهي أصلاً مبتدئة - بسبب اتصال الزوائد بها ورسمت بألف وواو كلمة (سأوريكم)، في موضعين الأول في سورة الأعراف (١٤٥/٧) ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاقِقِينَ﴾، والثاني في سورة الأنبياء (٣٧/٢١) ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ فقد رسمت هذه الكلمة بواو بعد الألف في الموضعين. وقد اختلف في إثبات هذه الواو بعد الألف في كلمة ﴿وَأَصْلَبَنَّاكُمْ﴾ في طه (٧١/٢٠)، والشعراء (٤٩/٢٦) (٦٤). فالهمزة في ﴿سَأُورِيكُمْ﴾ كانت مرسومة بألف قبل أن تدخل على الفعل سين الاستقبال، لأنها لا تنطق إلا محققة

(٦٤) انظر الداني: المقنع ص ٥٣.

لوقوعها في أول الكلمة، فلما دخلت السين صارت الهمزة في حكم المتوسطة، وخفت لذلك تخفيف المتوسطة المضمومة بعد فتح، فتخلف عنها واو ضعيفة واضحة في النطق، لكن رسم الكلمة يشير إلى أصل نطق الهمزة قبل أن تدخل السين، وهو التحقيق، ولم يكن من اليسير إهمال صورة هجاء الكلمة القديم وإثبات صورة النطق الجديد، فما كان من الكتاب إلا أن أثبتوا صورة النطق الجديد دون أن يغيروا الرسم الذي يشير إلى النطق القديم وهو التحقيق، فأضيفت الواو بعد الألف لتشير إلى الواو الضعيفة التي تولدت من سقوط الهمزة. وكذلك الحال في ﴿لأوصلينكم﴾، فبعد أن اتصلت لام القسم بالفعل صارت الهمزة في حكم المتوسطة المضمومة بعد فتح، وجرى فيها ما لاحظناه في ﴿سأوريكم﴾ تماماً.

وقد روى علماء العربية مثلاً لهذه الظاهرة في غير الرسم العثماني، وهو كلمة (أخي) من قولهم (يا أخي) تصغير كلمة أخي، فقد نصت الرواية على أن بعض الكتاب يثبت واواً بعد الألف فيصير رسم الكلمة مع (يا) النداء هكذا (ياؤخي)^(٦٥)، فهذه الواو هي صورة ما تخلف عن الهمزة بعد تخفيفها بسبب التوسط العارض لها باتصال (يا) النداء بها، مثل ما حدث في همزة (أولياء) المضمومة إذا اتصل بها ضمير مثل (هم) حيث تصير واواً (أولياؤهم). ولكن لا ندري هل الألف الموجودة في (يا وخي) هي رمز الهمزة في (أخي) وأن الألف التي تشير إلى الفتحة الطويلة في حرف النداء محذوفة مثل حذفها في (يايها)، أو أن الألف المثبتة هي ألف (يا) وأن الألف التي تدل على الهمزة قد حذفت بسبب سقوطها في اللفظ بعد أن أخذت حكم المتوسطة بعد فتحة طويلة، وفي كلتا الحالتين - ومع أن الاحتمال الأول أرجح - فإن هذا المثال يؤكد ما أشرنا إليه

(٦٥) انظر ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٥٣. والصولي ص ٢٥١، وابن مالك: ص ٣٣٨ ويذكر السيوطي في الهمع (ج ٢ ص ٢٣٩) المثال بدون (يا) النداء، لكن ما روته المصادر الأخرى من إثبات الياء قبل الكلمة يؤكد احتمال حدوث التوسط للهمزة في (أخي).

في كلمة (سأوريكم) من تعرض الهمزة التي تقع في أول الكلمة إذا توسطت بسبب اتصال الزوائد للتخفيف، ثم ما يستتبع ذلك من حرص الكتاب على تمثيل الحالة الجديدة للنطق واحتفاظهم مع ذلك بصورة النطق القديم، وهو ما نتج عنه هذا التمثيل المزدوج - في الظاهر - للهمزة. والحقيقة هي أن هذا الهجاء جمع رسم نطقين مختلفين في سياقين متغايرين، أحدهما أقدم - قبل دخول السين - وهو التحقيق، والثاني جديد - بعد اتصال السين - وهو التخفيف. وقد تطورت صورة الهجاء هذه، التي تظهر فيها الهمزة وقد مثلت برمزين، في بعض الأمثلة الأخرى واكتفت برمز النطق الجديد وذلك مثل (لثلا ولثن وحينئذ) وما أشبه ذلك مما رسمت فيه الهمزة المتوسطة لعارض برسم الهمزة المتوسطة أصلاً.

أما أمثلة الهمزة المرسومة رسماً مزدوجاً بألف وواو في أول الكلمة بسبب نطقها في كلام متصل حيث تخفف تخفيف المتوسطة أصلاً، فيؤدي ذلك إلى إثبات رمز النطق الجديد إلى جانب الاحتفاظ برسم الكلمة كما لو أنها رسمت مبتدأ بها - فهي كلمة (أولى) بأية صورة أتت، مثل (أولئك - أولئكم - أولوا - أولى - أولات)، وحيث وقعت^(٦٦). فهذه الواو التي تظهر في هذه الكلمات بعد الألف هي نفس الواو التي تظهر في (سأوريكم) و(ياوخي)، سوى أن الهمزة في هاتين الكلمتين توسطت بسبب اتصال الزوائد بها، أما (أولى) فإن التوسط يعرض لها حين تنطق في كلام متصل، يؤكد ذلك أن ابن مجاهد روى أن ورشاً قال عن نافع: انه كان يهزم الأولى من الهمزتين المتفتحتين والمختلفتين في القرآن كله، مثل ﴿أولياء أولئك﴾ (الأحقاف ٤٦/٣٢) على وزن (أولياء ولئك)^(٦٧)، فالألف في أول هذه الكلمات تشير إلى نطق الهمزة محققة حين تنطق الكلمة بمفردها والواو بعدها تشير إلى ما تصير إليه الهمزة في أول الكلمة في لغة أهل التخفيف حين تخفف تخفيف الهمزة المضمومة المتوسطة، بسبب النطق بالكلمة في كلام متصل.

(٦٦) انظر المهدي ص ٩٩. والداني: المنع ص ٥٣. وقد جاءت كلمة (أولوا) (البقرة

٢/٢٦٩) مرسومة في مصحف طشقند بدون الواو هكذا (الوا).

(٦٧) انظر كتاب السبعة ص (١٣٧-١٣٨).

ويلاحظ أن الكتاب قد تخلصوا من أثر نطق الهمزة المحققة في كلمة (أولاء) حين تتصل بها (ها) التي للتنبيه، حيث صار رسمها هكذا (هولاء)^(٦٨). فإن الألف في أول الكلمة والتي كانت تمثل الهمزة المحققة في أول الكلمة قد حذفت لأن النطق بالكلمة مع اتصال (ها) بها سيكون بالتخفيف أبداً، ويلاحظ حذف رمز الفتحة الطويلة من (ها) حيث صارت والكلمة التي تليها في حكم الكلمة الواحدة وقد كان بالإمكان أن تأتي (هولاء) مرسومة هكذا (هاولاء) مثل رسم كلمة (ياوخي)، لكن الكتاب تجاوزوا في هذه الكلمة مرحلة الاحتفاظ بصورة النطق القديم إلى جانب صورة النطق الجديد إلى تمثيل النطق الفعلي للكلمة.

ويبدو أن تفاصيل كثيرة تتعلق بهذا الاتجاه في الكتابة قد ذهبت ولم يتحدث عنها مؤرخو العربية أو أن كلامهم عنها لم يصل إلينا، ذلك لأن هناك ما يشير إلى أن الكتاب في تلك الفترات المتقدمة كانوا أقل تمسكاً بالقواعد المطردة، وكانت أقلامهم تستجيب لنطق الكلمات وهي في السياق إلى جانب حرصهم على صور هجاء الكلمات التي تمثل نطقها مبدوءاً بها وموقوفاً عليها، فقد يتخلى الكتاب عن المعروف من صور هجاء بعض الكلمات، ويرسمون ما يجسونه في النطق الواقع فعلاً، فكلمة (أكبر) تكتب بألف في أولها سواء أكان ذلك في مذهب من يحقق الهمزة أم يسهلها إذا نظر إليها على اعتبار أن القاعدة في الكتابة أن ترسم الكلمة مبدوءاً بها وموقوفاً عليها، لكن الكلمة إذا وقعت في سياق مثل (الله أكبر) فإن الهمزة في لغة أهل التخفيف ستأخذ حكم المتوسطة المفتوحة بعد ضمة فتخفف تخفيف (يؤيد) وعلى ذلك فمن المحتمل أن تأتي مرسومة هكذا (الله أو كبير) وربما يحذف الكتاب رمز النطق القديم وهو الألف. ويشبتون رمز النطق الجديد في رسمونها (الله وكبير)، ولعل هذا الشكل يبدو غريباً، لكنه هو ما وقع فعلاً في نقش كتابي يعود إلى سنة (٦٤) هجرية لا يحتمل أدنى شك، ففي هذا النقش الذي يشبه نقشاً تذكاريّاً على الصخر، لرجل اسمه

(٦٨) انظر الداني المقنع ص ٢٥. وانظر أيضاً المحكم (له) ص ١٥٦.

(ثابت بن يزيد الأشعري) وردت عبارة (الله أكبر كبيراً) وجاءت كلمة أكبر مرسومة هكذا (الله وكبر) بالواو، دون إثبات رمز الألف^(٦٩)، وكان الكاتب حين كتب هذا إنما كان يكتب ظاهرة نطقية كالتي نسماها - اليوم - من كثير من الناس حين ينطقون بنفس العبارة بالواو على التخفيف^(٧٠).

وقد شغلت تلك الأمثلة لرسم الهمزة بال علماء الرسم وعلماء العربية كثيراً وحاولوا أن يجدوا التفسير المناسب لكل مثال منها، أو لجمعها، ودار معظم تعليقاتهم حول فكرة الزيادة في الرسم للفرق بين صور الكلمات المتشابهة، تلك الفكرة التي ناقشناها في الفصل التمهيدي^(٧١)، حتى أن الأزهري يذكر من أنواع الواوات (الواو الفارقة)، وهي - عنده - كل واو دخلت في أحد الحرفين المشتبين ليفرق بينه وبين المشبه له في الخط. مثل واو (أولئك) وواو (أولى)، زيدت الواو في الخط ليفرق بينها وبين ما شاكلها في الصورة مثل إلى واليك^(٧٢)، كذلك فإن الواو في (يا أخي) مصغراً مزيدة - عند علماء العربية - لتفرق بينها وبين (يا أخي) غير مصغر^(٧٣). ويقول السيوطي: كانت الزيادة في التصغير لأنه فرع والفروع أحمل للزيادة، ولأنه قد يغير لأجل التصغير، والتغيير يأنس بالتغيير وكانت الواو لمناسبة ضمة الهمزة^(٧٤).

(٦٩) عثر على ذلك الشاهد في منطقة اسمها (حفنة الأبيص) قرب كربلاء في العراق، وصورته محفوظة في المتحف العراقي، ويتكون النص من ثلاثة عشر سطراً. انظر تفصيلاً عن هذا النقش ص (٥٤٩) من الفصل الخامس من هذا البحث.

(٧٠) هل أن مجيء الهمزة في كلمة (أكبر) في هذا النص بالواو يشير إلى أن الذين نزلوا هذا المكان من العراق - في تلك الفترة - كانوا يسهلون الهمزة مثل أهل الحجاز، أو أنه يمثل نطقاً فردياً لكاتب هذا النص فحسب؟

(٧١) انظر ص (٨٣-٨٧) من الفصل التمهيدي.

(٧٢) انظر تهذيب اللغة ج ١٥ ص ٦٧٥، وانظر أيضاً القلقشندي ج ٣ ص ١٨٣.

(٧٣) انظر ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ٢٥٤. والصولي ص ٢٥١.

(٧٤) انظر همع الهوامع ج ٢ ص ٢٣٩. وانظر أيضاً القلقشندي ج ٣ ص ١٨٣.

إن إشارة السيوطي في آخر قوله السابق إلى أن اختصاص الواو بالزيادة لمناسبة ضمة الهمزة يمكن أن تكون - لو نظر إلى كل أمثلة الظاهرة نظرة شاملة متممقة - مفتاحاً للوصول إلى التفسير الصحيح، الذي يلوح في تعبيرات علماء السلف حين يذكرون الاحتمالات الممكنة لتفسير هذه الصور الكتابية، يقول الجعبري: إن وجه زيادة الواو في أولئك انه للفرق بينها وبين إليك، ثم حمل عليه فروعه لذلك، أو ان الواو صورة للضمة، أو تقوية، أو جمعوا بين صورتيهما باعتبار الاتصال والانفصال^(٧٥). فالاحتمال الأخير أقرب إلى الفهم الصحيح للمشكلة، لكن إيراده في زحمة الاحتمالات الكثيرة الاخرى يشير إلى عدم وضوح أبعاد الظاهرة عند علماء السلف، حتى نجد التعليقات التي تذكر لتعليل زيادة الواو في مثل «سأوريمك» تصل إلى ثمانية، كما يروي التنسي^(٧٦)، فهي إما أن تكون زيدت للفرق، أو تقوية للهمزة، أو دلالة على إشباع حركتها، أو صورة لحركتها، أو حركتها نفسها، أو أن الواو صورة للهمزة على مراد الوصل والألف زائدة تقوية للهمزة، أو أنها كذلك لكن الألف زيد دلالة على إشباع حركة ما قبل الهمزة، أو أنها كتبت بالواو مراعاة لقراءة من قرأ (سأورثكم) بواو مفتوحة وراء مكسورة مشددة وئاء مثلثة.

وما ذكره التنسي من احتمال كون تلك الواو صورة لحركة الهمزة أو انها حركتها نفسها، ينقلها إلى مذهب بعض علماء السلف إلى أن نظام الكتابة في قديم الأزمان كان يشير إلى الحركات القصيرة برموز الحركات الطويلة، يقول الداني^(٧٧): «إن العرب لم تكن أصحاب شكل ونقط، فكانت تصور الحركات حروفاً، لأن الاعراب قد يكون بها كما يكون بهن، فتصور الفتحة ألفاً، والكسرة ياء، والضمة واواً، فتدل هذه الأحرف الثلاثة على ما تدل عليه

(٧٥) انظر خيلة أرباب المرادد ورقة ٢٢٦ أ.

(٧٦) انظر الطراز في شرح ضبط الخراز ورقة (١٧٩-٧٩ب).

(٧٧) المحكم ص (١٧٦-١٧٧)

الحركات الثلاث من الفتح والكسر والضم»، وينقل السيوطي أن الكرماني قال في المعجائب^(٧٨): «كانت صورة الفتح في الخطوط قبل الخط العربي ألفاً، وصورة الضمة واواً، وصورة الكسرة ياء، فكتبت (لا أوضعوا) ونحوه بالألف، مكان الفتح، و(ايتاي ذي القربى) بالياء مكان الكسرة و(أولئك) ونحوه بالواو مكان الضمة، لقرب عهدهم بالخط الأول». وقد ذهب بعض المحدثين هذا المذهب في تفسير الواو الموجودة في (أولئك)^(٧٩).

ومع ذلك كله فإن أياً من تلك التعليقات المتعددة المتداخلة والغامضة أحياناً لا يقدم التفسير الصحيح الشامل لكل أمثلة الظاهرة^(٨٠)، فهي تعليقات جزئية أوحث بها النظرة غير الدقيقة لتلك الأمثلة، وسبق أن بيّنا ضعف الأساس الذي يقوم عليه التعليل بالفرق، لقيام الدليل التاريخي على خطئه، ويمكن أن نتساءل - هنا - لماذا يلجأ الكتاب إلى الزيادة في هجاء الكلمة ما ليس في نطقها تجنباً لأن تشبه صورة هجائها صورة كلمة أخرى وبإمكانهم تحقيق ذلك بطرق أيسر؟. فكلمة (أولئك) التي قيل إن الزيادة فيها حصلت أولاً ثم حملت أخواتها عليها^(٨١) يمكن للكتاب أن يتلافوا ذلك الشبه بكتابتها على حسب لفظها، بإثبات رمز الفتح الطويلة المحذوفة منها فتصير صورة هجائها هكذا (الائك) ويتحقق بذلك الفرق والتمييز من حيث الشكل الكتابي بينها وبين ما يمكن أن يشبهها إلى جانب أن في ذلك تيسيراً على القارىء.

وهناك عامل آخر يجعلنا نرفض هذا الاتجاه في التعليل وهو أن إدراك هذا

(٧٨) الاتقان ج ٤ ص ١٥١.

(٧٩) انظر جان كاتينو ص ١٥١ وص ١٧٣.

(٨٠) سبق أن عرضنا لمنهج أبي العباس المراكشي في تفسير ظواهر الرسم (انظر ص ٢٢٣ من هذا البحث) وقد علل زيادة الواو في الأمثلة المذكورة بقوله (انظر الزركشي: ج ١ ص ٣٨٦) «زيدت الواو للدلالة على ظهور معنى الكلمة في الوجود، في أعظم رتبة في العيان!». «

(٨١) انظر الجعبري ورقة (٢٢٥ب-٢٢٦أ).

التشابه في صور الكلمات والتفكير في إيجاد الوسائل المناسبة لتلافيه ليس من المتوقع أن يشغل بال الكتبة في الفترات السابقة للرسم العثماني، لأن الكتابة وكذلك المعرفة اللغوية المعقدة لم تكن في تلك الفترة من الغزارة والكثرة التي انتقلت إليها بعد الاسلام، بحيث تتيح تأمل صور الكلمات وتبين التشابه منها، خاصة أن الكتابة في تلك الفترات المتقدمة كانت بعيدة عن تدخل الفكر التنظيمي وأعمال النظر المباشر، كما حصل فيما بعد حين أخذ علماء العربية يقعدون القواعد في كافة مستويات اللغة، ويستبعدون الشاذ من ظواهرها، بل كانت الكتابة في تلك الفترة تتطور تطوراً حراً بطيئاً، وتحمل تراكمات من رموز ظواهر النطق الزائلة من الاستعمال الحي.

أما أن هذه الواو - أو الياء والألف في أمثلة ستأتي - هي رمز للضممة القصيرة وأن الحركات القصيرة كان يشار إليها بواسطة هذه الحروف في الخطوط قبل الخط العربي وأن هذه الأمثلة هي بقايا من ذلك النظام، لقرب عهدهم بالخط الأول، فإن تاريخ استخدام رموز الحركات في الكتابات السامية عامة والنبطية والعربية خاصة ينفي دعوى ذلك الاستعمال، فلم تكن الكتابات السامية بالإشارة إلى الحركات القصيرة في أول الأمر، ومضت قرون طويلة قبل أن استطاعت التوصل إلى تلك المرحلة - كما سنشير إلى ذلك في فصل لاحق - بل إن استكمال تمثيل الكتابات السامية للحركات الطويلة قد استغرق قروناً عدة حتى أننا نجد نظام الإشارة إلى الفتحة الطويلة في الكتابة العربية لم يكن قد استقر في فترة كتابة المصاحف العثمانية كما مر بيان ذلك.

أما القول بأن الواو في ﴿سأوريكم﴾ (١٤٥/٧) قد أثبتت مراعاة لقراءة من قرأ (سأورثكم) فهو بعيد لأن هذه القراءة ليست لأحد من القراء السبعة أو العشرة ولا حتى الأربعة عشر^(٨٢). بل هي قراءة شاذة^(٨٣)، غير معروفة، وليس

(٨٢) لا يذكرها الدمياطي (ص ٢٣٠) في مكانها من السورة.

(٨٣) انظر ابن خالويه: المختصر ص ٤٦.

من المعقول أن يثبت كسبة الوحي ونساخت المصاحف قراءة غير القراءة المشهورة
المعروفة. وإذا سلمنا بهذا القول فإذا نقول في الواو في قوله سبحانه ﴿سأوريم
ءآيتي﴾ وفي ﴿أولي﴾ وفروعها وفي ﴿أوحي﴾؟.

المصاحف قراءة غير مشهورة

وهناك دليل آخر يدل على صحة التفسير الذي عرضناه قبل قليل لكافة
أمثلة هذه الظاهرة، يستنبط من واقع الأمثلة نفسها، وهو أن زيادة الواو بعد
الألف منسجمة تماماً مع ما تؤول إليه الهمزة عند التخفيف، وليس إثبات الواو
في تلك المثل ليناسب الضمة القصيرة التي تلي الهمزة كما يذهب بعض العلماء،
بل لأن الهمزة حين تسقط عند التخفيف لعارض التوسط تخلفها في النطق واو
ضعيفة، يمثلها الكتاب برمز الواو، وسنجد هذا التطابق بين الرمز المثبت مع
الألف التي هي رمز الهمزة وبين حقيقة ما تؤول إليه الهمزة عند تخفيفها على
وفق قواعد تخفيف الهمزة المتوسطة في الأمثلة التي سنذكرها بعد قليل في
حالات أخرى للهمزة، سواء أكان ذلك الرمز واواً أو ياءً، وهذا يؤكد أن
إثبات رمز الواو إلى جانب الألف ليس أمراً اعتباطياً بل هو يشير إلى نطق
واقعي يتحقق في حالة تسهيل الهمزة عندما تنطق في كلام متصل أو عندما
تتصل بأول الكلمة زوائد تجعل الهمزة المبتدئة تأخذ حكم الهمزة المتوسطة.

ترجم أنهم كتبوا
على قراءة من

خالف أنت لم

تجدونها أثر في

كتب القراءات

ب - رسم الهمزة الأخيرة التي يعرض لها التوسط واواً:

أما الهمزة المتطرفة التي يعرض لها التوسط بسبب الاتصال بالضامير فقد
جاءت مخففة تخفيف المتوسطة في كافة أمثلة هذه الحالة دون استثناء، وقد أثبت
في الرسم رمز ما آلت إليه الهمزة وهو الواو في حالة المضمومة، دون ما كانت
تصور به قبل اتصال الضامير بها، من ذلك (يقراءون - يدرءون - يذروكم -
يكلؤكم - أولياؤكم - أبناؤكم - دعاؤكم). ويلاحظ هنا أن ﴿يكلؤكم﴾
(الأنبياء ٤٢/٢١) التي روى الزجاجي أن بعض الكتاب يثبت الألف فيها إلى
جانب الواو هكذا (يكللاؤكم) قد جاءت مرسومة وفق القاعدة التي يجري عليها
رسم ما تصير إليه الهمزة المتوسطة في حالة التسهيل، ومثل الهمزة المضمومة في

ذلك الهمزة المتطرفة المكسورة فقد جاءت مرسومة بالياء نحو (بأهوائهم ، إلى أوليائهم).

وإذا كانت الهمزة المتطرفة التي يعرض لها التوسط بسبب اتصال الضمائر بها قد تخلصت من صورتها قبل اتصال الضمائر بها ورسمت حسب ما تؤول إليه بعد الاتصال فإن الهمزة المتطرفة التي يعرض لها التوسط بسبب وصل الكلام قد رسمت في بعض الحالات على نحو ما تخفف. وهي موصولة بما بعدها ورسمت في أحوال أخرى حسب ما تخفف إليه وهي موقوف عليها، ولم تحتفظ في هذه الحالة بصورة ما تخفف إليه في حالة الوقف، أي أنها إما أن ترسم على الوصل أو على الوقف وهذا التغيير في طريقة التخفيف بين الوصل والوقف إنما يعرض للواقعة قبل فتحة دون غيرها.

فمن أمثلة الهمزة المتطرفة المضمومة بعد فتحة قصيرة مما رسم على مراد التخفيف والوصل كلمة (نبأ)، فقد رسمت بالواو في أربعة مواضع: في ابراهيم (٩/١٤)، ﴿نَبَأُ الَّذِينَ﴾، وفي ص (٦٧/٣٨) ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ و﴿نَبَأُ عَظِيمٍ﴾، وفي التغابن (٥/٦٤) ﴿نَبَأُ الَّذِينَ﴾، وفيها عداها رسمت بباء وألف على ثلاثة أحرف^(٨٤). ومثلها كلمة (الملأ) رسمت بالواو (الملوا) في أربعة مواضع^(٨٥)، ومن أمثلة ذلك أيضاً بعض الأفعال مثل (بيدوا) (١١/٣٠ و٤/١٠) و(تفتوا) (٨٥/١٢) و(يتفياوا) (٤٨/١٦) و(أتوكوا) (١٨/٢٠) و(لا تظموا) (١١٩/٢٠) و(يدروا) (٨/٢٤) و(يعبوا) (٧٧/٢٥) و(ينشوا) (١٨/٤٣)^(٨٦) وتحتل أن تكون الهمزة قد كتبت على الوصل في أمثلة أخرى نحو (يتبوا) (٥٦/١٢) و(نتبوا) (٧٤/٣٩) مثل الأمثلة السابقة فتكون الألف بعدها زائدة مثل زيادتها بعد واو الجمع وما يشبهها، أو أنها كتبت على الوقف فتكون هذه

(٨٤) المهدي ص ٩٣، والداني: المقنع ص ٥٥. وسليان بن نجاح لوحة ١٣٤.

(٨٥) في المؤمنين (٢٤/٢٣) والنمل (٢٩/٢٧) و٣٢ و٣٨).

(٨٦) انظر المهدي ص (٩٢-٩٣) والداني: المقنع ص ٥٥.

الألف من أصل الفعل لأن الهمزة المتطرفة إذا خفت جعلت حركة طويلة لامتداد الحركة القصيرة قبل الهمزة وهي هنا فتحة فتصير طويلة وترسم ألفاً.

ومن أمثلة الهمزة المتطرفة المضمومة بعد فتحة طويلة مما رسم على مراد التخفيف والوصل الفعل ﴿نَشَأُ﴾ في هود (٨٧/١١) حيث رسم هكذا (نَشُوًا) ليس في القرآن غيره بهذا الرسم^(٨٧). ومن أمثلة ذلك أيضاً ﴿عَلِمُوا﴾ في الشعراء (١٩٧/٢٦)، و﴿الْعَلَمُوا﴾ في سورة فاطر (٢٨/٣٥)، و﴿أَنْبُوا﴾ في الأنعام (٥/٦) والشعراء (٦/٢٦)، و﴿شُرَكُوا﴾ في الانعام (٩٤/٦) والشورى (٢١/٤٢)، و﴿دَعُوا﴾ في المؤمن (٥٩/٤٠)، و﴿الضَعْفُوا﴾ في كل مكان جاء فيه مرفوعاً كتب بالواو، و﴿جَزَأُوا﴾ في المائدة (٣٣/٥) والشورى (٤٠/٤٢)، والحشر (١٧/٥٩)، و﴿شَفَعُوا﴾ في الروم (١٧/٣٠)، و﴿الْبَلُوا﴾ في الصافات (١٠٦/٣٧) و﴿بَلُوا﴾ في الدخان (٣٣/٤٤)^(٨٨).

وقد روى الداني وهو يتحدث عن رسم كلمة (نبأ) بالواو بعدها ألف قول محمد بن عيسى الأصبغاني في ذلك « وكل ما في القرآن على وجه الرفع فالواو فيه مثبتة، وكل ما كان على غير وجه الرفع فليس فيه واو وإنما هو (نبأ) »^(٨٩). وربط رسم الهمزة بالواو في هذه الأمثلة بكونها مضمومة - دليل على أنها إنما رسمت بالواو لكونها تتوول في التخفيف إلى الواو، مثلها في ذلك مثل الهمزة المتوسطة في (يكلؤكم) وأولياؤهم) وما أشبهها.

وإثبات الألف بعد الواو في الأمثلة السابقة دليل آخر على كون هذه الواو تمثل نطقاً واقعياً، إذ إن زيادتها هنا تشبه زيادتها بعد الواو المتطرفة، ويروي

(٨٧) انظر ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ص ٤١ وابن أبي داود ص ١١٦. والمهدوي ص ٩٢ والداني: المقنع ص ٥٨.

(٨٨) انظر المهدوي ص (٩١-٩٢) والداني: المقنع (ص ٥٧-٥٨).

(٨٩) المقنع ص ٥٥.

الداني تفسرين لزيادة الألف في هذه الأمثلة حين يقول^(٩٠): « ورسمت الألف بعد الواو في هذه المواضع لأحد معنيين: إما تقوية للهمزة لحفائها وهو قول الكسائي، وإما على تشبيه الواو التي هي صورة الهمزة في ذلك بواو الجميع من حيث وقعتا طرفاً فألحقت الألف بعدها كما ألحقت بعد تلك، وهو قول أبي عمرو ابن العلاء. والقولان جيدان ». وتعقيب الداني لا يستقيم مع ما تقدم من حقائق بشأن تخفيف الهمزة في غير أول الكلمة، ويبدو أن رأي أبي عمرو بن العلاء هو الراجح بل الصحيح ولكن ليس على أساس أن الواو صورة الهمزة وإنما على أساس أنها تمثل الواو الضعيفة المتخلفة عن تخفيف الهمزة المضمومة بعد فتحة والواقعة في طرف الكلمة حين النطق بها في كلام متصل.

ولعل الزمخشري قد ابتعد عن الصواب حين علل رسم كلمة (العلاء) بالواو في قول الله سبحانه (الشعراء ٢٦/١٩٧) ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ على التفخيم حين يقول^(٩١): « فإن قلت كيف خط في المصحف (علموا) بواو قبل الألف؟ قلت خط على لغة من يميل الألف إلى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكوة والربوا ». ولكننا نجد قد عدل عن هذا التعليل في مكان آخر لاحق وهو يتحدث عن رسم كلمة ﴿شفعوا﴾ في سورة الروم (١٣/٣٠) بالواو أيضاً. فيقول^(٩٢): « وكتبت شفعا في المصحف بواو قبل الألف كما كتب ﴿عَلِمُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وكذلك كتبت (السواى) بألف قبل الياء، إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها ». وبغض النظر عن إدراج كلمة (السواى) هنا - التي سنشير إليها فيما بعد - نجد أن الزمخشري قد علل تعليلاً صحيحاً لإثبات الواو في رسم كلمتي (الشفعا والعلموا) في قوله

(٩٠) المقنع ص (٥٨-٥٩) وانظر سليمان بن نجاح لوحة ١٣٥.

(٩١) الكشاف ج ٣ ص ٢٦٤.

(٩٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٠.

الأخير، لكن يظل القول الأول يشير إلى اضطراب في موقف الزمخشري في معالجته لمثال واحد في مكانين مختلفين.

ومما يلاحظ على الأمثلة السابقة التي أثبتت الواو في آخرها إشارة إلى ما توول إليه الهمزة عند التخفيف والتي تسبق الهمزة فيها فتحة طويلة - أن رمز الألف التي تشير إلى تلك الفتحة الطويلة قد جاءت غير مثبتة في جميعها، وكأن إثبات الواو في آخر الكلمة والألف بعدها قد جعل الكتاب يشعرون أن الكلمة قد استطالت في رسمها فسوغ لهم ذلك عدم إثبات الألف قبل الواو على نحو ما بينا ذلك في الكلام عن رمز الفتحة الطويلة^(٩٣).

ج - رسم الهمزة المبتدئة التي يعرض لها التوسط بألف وياء:

أما رسم الهمزة بألف وياء فقد جاء في حالات مشابهة لرسمها بألف وواو، إلا أن المبتدئة لم تتأثر بالتوسط العارض لها بسبب نطقها في كلام متصل، فلم نجد أي مثال يشبه (أولئك). فقد كان اتصال بعض الزوائد بأول الكلمة هو العامل الأول في تكون أمثلة هذه الظاهرة في أول الكلمة، ولكن مجيء هذه الظاهرة في نهاية الكلمة كان بسبب اتصال الضمائر إلى جانب التوسط العارض للكلمة بسبب النطق بالكلام متصلاً.

(٩٣) وجدت في مصحف جامع عمرو بن العاص كلمة (جزاء) قد كتبت بألف قبل الواو مع حذف الألف بعد الواو هكذا (جزاو) في التوبة (٢٦/٩) ويوسف (٢٥/١٢) كذلك في المائدة (٨٥/٥) في مصحف رقم (١١٥) مصاحف) في دار الكتب المصرية، علماً أن هذه الكلمة قد جاءت في المصحف المطبوع هكذا (جزاء). ونجد في مصحف طشقند أن بعض الكلمات التي أشرنا إلى أن الواو أثبتت في آخرها وبعدها الف قد جاءت مرسومة بالألف دون الواو، وذلك بتخفيفها على الوقف - على ما يبدو - وهي (شركاء) (٩٤/٦) و(علماء) (١٩٧/٢٦) و(البلاء) (١٠٦/٣٧) ولكن نجد فيه أيضاً كلمة (يُسْتَهْرَأُ) (١٤٠/٤) التي ينص الداني على رسمها بالألف (أنظر المقنع ص ٥٦) قد جاءت مرسومة بالواو هكذا (يستهبزو) دون الف بعد الواو بتخفيف الكلمة على الوصل مثل (جزاو).

وأشهر أمثلة رسم الهمزة المبتدئة بألف وياء هو كلمة (بأيد) في قوله تعالى (الذاريات ٤٧/٥١) ﴿وَالسَّمَاءَ بَنِينَهَا بَأيِدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، حيث اتفقت المصاحف على رسم ياءين بعد الألف في أول الكلمة^(٩٤). وكان رسم هذه الكلمة قد أثار انتباه علماء السلف ودفع بعضهم مثل ابن خلدون إلى القول بخطأ الكاتب في هذا المثال - كما مر ذكر ذلك من قبل - رغم أن بعضهم قد أدرك بصورة صحيحة تفسير هذه الظاهرة.

وإلى جانب ذلك المثال جاءت بضع كلمات مرسومة بنفس الطريقة منها كلمة (إن) وقد اتصلت بها فاء العطف مسبوقة بهمزة الاستفهام (أفإن) في قوله تعالى (آل عمران ١٤٤/٣) ﴿أفأين مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم عَلَى أعقابِكُمْ﴾ و(الانبياء ٣٤/٢١) ﴿أفأين مِتَّ فَهُمُ الْخُلْدُونَ﴾، فقد رسمت الهمزة المكسورة في (أفأين) بياء إلى جانب الألف^(٩٥). ورسمت - أيضاً - كلمة (بأيكم) في سورة القلم (٦/٦٨) ﴿بأييكم المفتون﴾ بياءين بعد الألف^(٩٦). وذكر مؤلف كتاب الهجاء أن كلمة (فبأي) جاءت مرسومة بياءين (فبأيي) في واحد وثلاثين موضعاً في سورة الرحمن^(٩٧). وكذلك رسمت (بأيام) بياءين بعد الألف في قوله تعالى

(٩٤) انظر ابن أبي داود ص ١١٢، والمهدوي ص ٩٨، والداني: المقنع ص ٤٧ و ٨٩.

(٩٥) انظر المهدوي ص ٩٧، والداني: المقنع ص ٤٧، ٥٣.

(٩٦) انظر ابن أبي داود ص ١١٥، والمهدوي ص ٦٨، والداني: المقنع ص ٤٧ و ٩٠.

(٩٧) انظر كتاب الهجاء (مجهول) لوحة ٣٥. وانظر جامع الكلام في رسم مصحف الإمام (مجهول) في سورة الرحمن. وقد رأيتها في مصحف جامع عمرو بن العاص في آخر موضع في سورة الرحمن (٥٥ / ٧٧) بياءين. ولم أتمكن من معرفة كيفية رسمها في المواضع الأخرى من نفس السورة لسقوطها من المصحف، ولكن أرجح أنها كتبت بياءين أيضاً استناداً إلى أن آخر موضع في السورة قد كتبت بيائين، ومن المتوقع أن يجري هجاء هذه الكلمة في السورة على سنن واحد، إلى جانب ورود الرواية بذلك.

(ابراهيم ٥/١٤) ﴿وَذَكَرَهُمْ بِأَيْمِ اللَّهِ﴾^(١٨)، وذكر الداني أنه رأى في بعض مصاحف أهل العراق (بايية - باييت - باييتنا) بياءين بعد الألف حيث وقعت إذا كانت بعد الباء خاصة، على الأصل قبل الاعتلال، وفي بعضها بياء واحدة على اللفظ وهو الأكثر^(١٩).

وقد ذهب بعض علماء الرسم إلى إخراج كل من (بأييم - فبأيي - بأييم) من

(٩٨) انظر المهدي ص ١٠٢، والداني المنع ص ٩٤. وقد رسمت في المصحف المطبوع كذلك، وهي في مصحف النجف المخطوط أيضاً كذلك.

(٩٩) انظر المنع ص ٥٠، والشيرازي لوحة ١٥، وابن القاصح ص ٦٧. وهذه الملاحظة التي يروها علماء الرسم باقتضاب تمثل ظاهرة شائعة في المصاحف المخطوطة التي اطلعت عليها، ففي مصحف جامع عمرو بن العاص جاءت كلمة (بايية) مقترنة بالباء ومرسومة بياءين (بايية) في الانعام (٣٥/٦) والأنبياء (٥/٢١) والشعراء (١٥٤/٢٦)، وجاء جمعها مرسوماً بياءين أيضاً (باييت أو باييتنا) في آل عمران (١٩٩/٣) والنساء (٥٦/٤) والمائدة (٨٦/٥) والانعام (٢١/٦) وهود (٥٩/١١) والأنبياء (٤٩)، والتوبة (٩/٩) ويونس (٧٠/١٠ و ٧٣ و ٧٥) وهود (٥٩/١١) والأنبياء (٧٧/٢١) والمؤمنون (٤٥/٢٣). والفرقان (٥٣/٢٥) والشعراء (١٥/٢٦) والعنكبوت (٤٧/٢٩ و ٤٩) والروم (١٦/٣٠ و ٥٣). ولقمان (٣٢/٣١) والسجدة (١٥/٤١ و ٢٤ و ٢٢)، وهناك مواضع أخرى كتبت بنفس الطريقة، ونجد نفس الظاهرة في مصحف النجف فيما اطلعت عليه منه فنجد (بايية) في الانبياء (٥/٢١) و(باييتنا) في ابراهيم (٥/١٤). وأما مصحف طشقند فيقدم أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة سواء كانت الكلمة جمعاً أم مفرداً، فقد وجدت فيه (بايية) في خمسة مواضع و(باييت وباييتنا وباييتي) في خمسة وعشرين موضعاً. لكن الملاحظ أن بعض الأمثلة في الجمع لم تقترن بالباء ولم تأت قبلها كسرة، نجد ذلك في آل عمران (٥٨/٣) و١٠١ و ١٠٨) والانعام (٦٨/٦ و ١٥٨) والاعراف (٢٦/٧)، ويمكن تعليل هذه الظاهرة أن بعض الكتاب حين اعتادت يده على رسم الكلمة بياءين فيما كان فيه قبل الهمزة كسرة استعمله في غير ذلك دون ملاحظة أن الباء إنما وجدت نتيجة لوجود الكسرة وتخفيف الهمزة بياء، ومن ثم ظهرت هذه الظاهرة فيما ليس قبله كسرة.

أمثلة هذه الظاهرة، فذكروا أن زيادة الياء في المثالين الأولين ليس على الزيادة وإنما هو مراعاة للأصل، لأن حقيقة المشدد حرفان، وإن كان هذا الأصل قد ترك في أكثر المواضع فقد نهوا عليه في بعض المواضع^(١٠٠). أما كلمة (أيام) فينقل اللبيب أن أبا داود سليمان بن نجاح قد ذكر في كتاب التبيين أنهم كتبوا (بأييم) بياء مكان الألف^(١٠١)، مثل ما رسمت ياء في (تقيةٌ وهديةٌ وموليكٌ) وما كان مثلها. ولكن يبدو أن هذه الكلمات الثلاث تدخل في أمثلة هذه الظاهرة، وأن علماء السلف عللوا إثبات الياء فيها بهذه التعليقات محاولة منهم لإعطاء تفسير مقبول لها، ولم يوفقوا في ربط هذه الأمثلة المتعددة في ظاهرة واحدة يجمعها تفسير واحد.

إن النظر في موضع الهمزة في هذه الأمثلة وما تكتنفها من حركات يتيح تفهم سر إثبات الياء بعد الألف في تلك الأمثلة على نحو واحد. ففي جميع الأمثلة إلا مثلاً واحداً - أفلين - جاءت قبل الهمزة باء الجر، وهي مكسورة، وبعدها الهمزة مفتوحة فتحة قصيرة في (بأييد - بأييم - فبأيي - بأييم) وفتحة طويلة في (بايية - باييت) وقد سبب دخول الباء في هذه الأمثلة أن يعرض للهمزة التوسط، فَخَفَّفَتْ تخفيف المتوسطة المفتوحة بعد كسرة، مثل (فئة - رثاء)، فسقطت الهمزة من اللفظ وخلفتها ياء خالصة، ولم يحذف الكتاب رمز الهمزة بعد سقوطها ويثبتوا رمز الياء التي خلفتها في حالة التخفيف بل اكتفوا بزيادة رمز الياء دون أن يحذفوا الألف. ومن ثم بدت الهمزة وكأنها كتبت برمزين^(١٠٢).

(١٠٠) انظر التنسي ورقة ٨٤ ب

(١٠١) انظر الدرة الصقيلة ورقة ٣٧ ب.

(١٠٢) وهِم الدكتور صلاح الدين المنجد حين قال (انظر دراسات في تاريخ الخط العربي ص ٥٧) وهو يعلق على رسم كلمة (باية) في سورة الرعد (٣٨/١٣) في أحد المصاحف المخطوطة المحفوظة في متحف الآثار الإسلامية في استانبول بيائين: «لاحظ ورود كلمة (بايته) وهي في المصحف باية»، وذلك لأن الخط مجرد من الاعجام والشكل، فقرأها (باياته) دون أن يعلم بأصل الظاهرة.

أما كلمة (أفلين) فرغم أن الفاء التي جلبت حكم التوسط للهمزة قد جاءت مفتوحة لكن الهمزة نفسها جاءت مكسورة وحين سقطت الهمزة التقت فتحة الفاء وكسرة الهمزة. وآلت إلى ما آلت إليه الهمزة عند تخفيفها في مثل (سَم) إذ خلفتها ياء ضعيفة، فرسمت في (أفلين) ياء كما رسمت في (سَم) لكن الكتاب لم يحدفوا الألف التي هي رمز الهمزة قبل أن يعرض لها التوسط مثل ما فعلوا في الأمثلة الأخرى للظاهرة.

وقد ذهب الداني - كما مر قوله - إلى أن إثبات ياءين في كلمة (بايية) وجمعها قد جاء على الأصل قبل الاعتلال، ذلك لأن علماء العربية يرون أن أصل كلمة (ءاية) إنما هو من مادة (أي ي) بياءين فاعتلت الياء الأولى وصارت ألفاً أما على وزن فعلة أو فعلة محركة^(١٠٣). إلا أن هذا مذهب بعيد. أما تعليقه إثبات الياء بالاقتران بالباء فلا ينبغي أن يفهم منه أن هناك علاقة بين وجود هذه الباء وبين الظاهرة، وإنما كسرة الباء هي التي أوجدت هذه الظاهرة، ومن ثم فقد وجدت في كلمة (أفلين) رغم أن الفاء فيها حلت محل الباء، لكن كسرة الهمزة نفسها هي التي ساهمت في خلق الظاهرة مع فتحة الفاء في هذه الكلمة.

إن ما ذكرنا من تسهيل الهمزة في الأمثلة السابقة على النحو المشار إليه تؤكد الرواية سواء عن القراء أم عن العرب، فقد روي أن أبا جعفر المدني كان يخفف الهمزة في مثل (فبأي) بأن يسقط الهمزة فتخلفها الياء، مثل تخفيف الهمزة المتوسطة المفتوحة بعد كسرة، وقد اختلف عنه فيما تجرد عن الفاء مثل (بأي أرض) و(بأيكم المفتون)^(١٠٤). وقرأ أبو عمرو بن العلاء وورش ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ (مریم ١٩/١٩) بالياء (ليهب)، وكذلك روى الحلواني عن قالون^(١٠٥)، وقرأ يعقوب من العشرة القراء كذلك، وقد وافقهم الحسن

(١٠٣) انظر الفيروز آبادي ج ٤ ص ٣٠٣.

(١٠٤) انظر الدمياطي ص ٥٥.

(١٠٥) انظر الداني: التيسير ص ١٤٨.

واليزيدي^(١٠٦)، وروى الداني أن أبا عبيد ذكر أن المصاحف كلها اجتمعت على رسم ألف بعد اللام في قوله (لأهب)^(١٠٧)، لكن الشيرازي انفرد برواية كتابة الكلمة بالياء (ليهب)^(١٠٨). وقد أنكر أبو عبيد قراءة أبي عمرو بالياء كما ينقل الجعبري، لكن الجعبري صحح هذه القراءة نقلاً ورسماً ورد على أبي عبيد مذهبه حين يقول^(١٠٩): قال أبو عبيد في كتابه (لعله يريد كتاب القراءات): قرأ أهل المدينة والكوفة (لأهب)، وقرأ أبو عمرو (ليهب)، وهو مخالف للمصاحف، وليس بجائر، وفيه تحويل القرآن حتى لا يدرى المنزل، قلت (الجعبري) قوله: (أهل المدينة) ليس على إطلاقه بل قرأ يزيد وقالون في أحد الوجهين، وينبغي أن يضم إليهم الشامي، وقد قرأ مع أبي عمرو ورش وقالون في الآخر وروح وقوله (مخالف للمصاحف وليس ذلك لأحد) غير سديد لأنه من مخالفة الموافقة لرسمها، ولو عد خارجاً لعد قارئ الصراط بالسين كذلك.

وقد ذكر الديمياطي أن من قرأ بالياء فالضمير يرجع للرب سبحانه، أي ليهب لك الذي استعدت به مني، لأنه الواهب على الحقيقة، وأن من قرأ بالهمز بالضمير للمتكلم وهو الملك أسنده لنفسه على طريق المجاز، ويحتمل أن يكون محكياً بقول محذوف أي قال لأهب^(١١٠)، لكن الذي يظهر بعد أن ننظر إلى موضع الهمزة في (لأهب) إلى جانب الأمثلة السابقة نجد أن احتمال قراءتها على التخفيف يكون قوياً، وهي حين تخفف تصير ياء خالصة فمن ثم أرجح أن يكون الاسناد واحداً في كلا القراءتين دون حاجة إلى التأويل والتقدير. وإن الياء في قراءة من قرأ بالياء ليست ضمير الغائب إنما هي همزة المتكلم في أول

(١٠٦) انظر الديمياطي ص ٢٩٨.

(١٠٧) المقنع ص ٤٢.

(١٠٨) انظر كشف الأسرار لوحة ١٧.

(١٠٩) خيلة أرباب المراصد ورقة (٢٣٣-٢٣٣ ب)

(١١٠) انظر تحاف فضلاء البشر ص ٢٩٨.

الفعل المضارع، لكنها صارت إلى ياء عند التخفيف، يؤيد ذلك أن الجعبري يعتبر الفرق بين القراءتين هو مثل الفرق بين من قرأ (الصراط) بالسین أو بالصاد^(١١١). ومن المقبول على ما تقدم رواية رسم (لأهب) - لو حدث - هكذا (لأيهب) خاصة أن الشيرازي ينقل أنها رسمت بالياء (ليهب).

أما ما روي عن العرب في شأن تخفيف الهمزة المبتدئة إذا عرض لها التوسط بدخول حرف زائد عليها فكلمة (أب). فقد أجريت الهمزة التي في أول الكلمة مجرى الهمزة المتوسطة، وخففت، فأبدلوا منها في الخط ياء في مثل (بيبي أنت) أي (بأبي) لأن هذا شيء كثر في كلامهم حتى صارت الباء مع أب بمنزلة اسم للتفدية، فالهمزة هنا متوسطة، ولذلك تبدل في الخط ياء على قياس تخفيف اللفظ، ولا يجوز أن يفعل ذلك (بأب) في غير التفدية، حسب رأي ابن درستويه^(١١٢). ومهما كان قوله بأن ذلك لا يفعل في غير التفدية فإن هذا المثال يدل على أن كل همزة في أول الكلمة تعرضت للتوسط بسبب ما يتصل بها فإنها تأخذ حكم الهمزة المتوسطة في التخفيف.

إن المشهور في رسم كلمة (لأهب) قد جاء دون أن يظهر لتغير موقع الهمزة ومن ثم لتخفيفها أي أثر فيه، بينما نجد أن الكتاب قد استجابوا للنطق تماماً في كلمة (بيبي) فحذفوا الألف التي هي رمز للهمزة قبل الاتصال، وأثبتوا رمز ما آلت إليه بعد أن عرض لها التخفيف بسبب التوسط وهو الياء، لكن الأمثلة التي يقدمها الرسم العثماني لتخفيف الهمزة المتوسطة بسبب ما اتصل بها من زوائد وهي (بأييد - بأييكم - فبأيي - باييم - بايية - باييت - أفايين) قد كانت أكثر تسكاً بشكل الكلمة قبل الاتصال إلى جانب حرصها على تمثيل ما طرأ على نطقها فأثبت الكتاب الياء إلى جانب الألف.

وهذا التفسير لأصل إثبات الياء في تلك الكلمات إلى جانب الألف يوضح

(١١١) انظر المارغني ص (٢٤٩-٢٥٠)

(١١٢) انظر كتاب الكتاب ص (٥٠-٥١)

أن رمز الألف في حالة اتصال الكلمة بحرف في أولها وتخفيفها تخفيف المتوسطة لا يدل على شيء في النطق بل هو أثر قديم متخلف عن نطق الكلمة محققة الهمزة قبل أن يتصل بأولها حرف الجر أو حرف العطف، ومن ثم فإن قول الداني: « فيجوز أن تكون الياء في ذلك هي الزائدة، والألف قبلها هي الهمزة، ويجوز أن تكون الألف هي الزائدة بياناً للهمزة والياء هي الهمزة »^(١١٣) - غير دقيق، ذلك لأن الياء إنما أثبتت على قراءة من سهل الهمزة، والألف في هذه الحالة هي الزائدة، يؤكد زيادتها مجيء كلمة (أفاين) (١٤٤/٣) في مصحف طشقند مرسومة بالياء دون الألف (أفين)، أما إذا كانت القراءة بتحقيق الهمزة فالياء هي الزائدة لا محالة، لأنها إنما أثبتت على قراءة من يسهل الهمزة.

وقد رويت بعض التعليقات عن علماء السلف لبيان علة إثبات الياء في تلك الكلمات، خاصة كلمة (بأييد)، وقد نقل الزركشي أن أبا العباس المراكشي علل زيادة الياء بأنها زيدت لاختصاص ملكوتي باطن، وأنه قال في كلمة (بأييد) « إنما كتبت (بأييد) بياءين فرقاً بين (الأيد) الذي هو القوة، وبين (الأيدي) جمع (يد)، ولا شك أن القوة التي بنى الله بها السماء أحق بالثبوت في الوجود من الأيدي، فزيدت الياء لاختصاص اللفظة بمعنى أظهر في إدراك الملكوتي في الوجود »^(١١٤).

وقد روي تعليل أقرب إلى الواقع من مذهب المراكشي المفرق في الخيال، وهو أن تكون الياء الثانية هي عين الكلمة والألف والياء الأولى معاً صورتان للهمزة، إذ قرئ بالتحقيق والتسهيل، فالألف للتحقيق والياء للتسهيل^(١١٥). إلا أن أظهر وأوضح ما قيل في هذا المجال من أقوال علماء السلف هو ما ذهب إليه أبو العباس أحمد بن عمار المهدي حين يقول^(١١٦): « وأما (بأييد) و(بأييكم) فوجه

(١١٣) المقنع ص ٤٧.

(١١٤) البرهان ج ١ ص ٣٨٧. وانظر أيضاً التنسي ورقة ٨٠ ب.

(١١٥) انظر التنسي ورقة ٨١ أ.

(١١٦) هجاء مصاحف الأمصار ص ٩٨.

زيادة الياء فيها - والله أعلم - أن من مذهبه تخفيف الهمزة تقلب الهمزة فيها ياء محضة، لانفتاحها وانكسار ما قبلها، فينبغي أن تصور على مذهبه ياء، وينبغي أن تصور على قراءة من يحقق الهمزة ألفاً، فكان هاتين الكلمتين كتبنا على اللغتين، فجعلت كل كلمة منها بعلامتين، علامة التحقيق وعلامة التخفيف «، ولا يمكن أن يؤخذ على قول المهدي في تفسير هذه الظاهرة شيء إلا ما يبدو من انه يذهب إلى أن الكتاب تعمدوا إثبات علامتين في كل كلمة لتمثيل نطقتين مختلفين وذلك لغيب الجانب التاريخي للظاهرة وعدم استحضار التطور الذي لحق النطق، وعدم إدراك حقيقة ميل الكتابة إلى التمسك بالأشكال القديمة، وعدم مواكبتها لتطور النطق وتمثيله مواكبة تامة.

د - رسم الهمزة الأخيرة التي يعرض لها التوسط بألف وياء:

وإذا كنا قد لاحظنا أن الهمزة المتطرفة المضمومة التي يعرض لها التوسط بسبب النطق بها في كلام متصل أو التي تتوسط لاتصالها بالضمائر قد رسمت بالواو على حسب ما آلت إليه بعد التخفيف دون الاحتفاظ برسم الكلمة قبل اتصالها بالضمير أو النطق بها موصولة بما بعدها إلى جانب رمز النطق الجديد مثل ما لاحظناه في (أتوكوا - نبوا - العلموا - أولياوهم - يكلوكم) فإن الهمزة المتطرفة المكسورة بعد فتحة، قصيرة كانت أو طويلة، قد جاءت مرسومة بالياء إلى جانب الألف سواء أتوسطت لاتصالها بضمير، أم للنطق بالكلمة موصولة بما بعدها، في عدة مواضع.

فأمثلة الهمزة المتطرفة المكسورة بعد فتحة قصيرة مما رسم بالياء بعد الألف لتوسطها بسبب النطق بالكلام متصلاً كلمة (نبأ) في قوله سبحانه (٣٤/٦) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾، وما بالياء غير هذا^(١١٧). فكلمة (نبأ) ترسم على حسب القاعدة العامة بالألف في كل حال، لأن الهمزة المتطرفة عند الوقف

(١١٧) ابن أبي داود ص ١٠٧. وانظر المهدي ص ٩٧، والداني: المقنع ص ٤٧.

تخفف على حركة ما قبلها وهي هنا الفتحة، فرمز الألف يشير إلى الفتحة الطويلة عند الوقف. لكن النطق بالكلمة موصولة في هذا الموضع بما بعدها قد جعل الهمزة تأخذ في التخفيف حكم الهمزة المتوسطة المكسورة بعد فتح مثل (سَمٌ)، فتولدت بعد سقوط الهمزة ياء ضعيفة ترسم ياء. لكن الكتاب احتفظوا برمز الألف الذي يشير إلى الفتحة الطويلة التي تنتهي بها الكلمة في حالة الوقف إلى جانب رمز الياء التي تمثل صوت الياء الذي يظهر عند النطق بالكلمة موصولة بما بعدها.

أما أمثلة الهمزة المتطرفة الواقعة بعد فتحة طويلة وخفت فيها الهمزة تخفيف المتوسطة الواقعة بعد فتحة فهي كلمة (تلقاء) في يونس (١٥/١٠) ﴿مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾، وكلمة ﴿ايتاء﴾ في النحل (٩٠/١٦) ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ وكلمة (ءاناء) في طه (١٣٠/٢٠) ﴿وَمِنْ ءَانَايَ اللَّيْلِ﴾، وكلمة (لقاء) في الروم (٨/٣٠) ﴿بِلِقَائِي رَبِّهِمْ﴾، وفيها أيضاً (آية ١٦) ﴿وَلِقَائِي الْآخِرَةِ﴾، وكلمة (وراء) في الشورى (٥١/٤٢) ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾، والتي في الأحزاب (٥٣/٣٣) (من وراء حجاب) ﴿١١٨﴾.

والملاحظ في هذه الأمثلة أن رمز الألف التي قبل الياء ليست زائدة لا تدل على شيء مثل التي في (نبأى) وإنما هي تشير إلى الفتحة الطويلة التي قبل الياء مثل الألف التي قبل الياء في نحو (بأهوائهم، وإلى أوليائهم)، ولذلك فقد جاءت محذوفة في كلمة (ايتاي) (النحل ٩٠/١٦) في مصحف طشقند ومرسومة هكذا (ايتي)، لكن حذفها هنا ليس مثل حذفها من كلمة (أفاين)، لأن الألف في (ايتاي) ثابتة في اللفظ، أما في (أفاين) فإنها تعد زائدة بعد أن خفت الهمزة إلى ياء ضعيفة رسمت ياء.

أما أمثلة الهمزة المتطرفة، بعد فتحة، التي يعرض لها التوسط باتصال الضائرتيها فخفت تخفيف المتوسطة ورسمت على نحو ما آلت إليه في التخفيف

(١١٨) انظر نفس المصادر ص ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٣، وص ٩٨، وص ٤٧ على التوالي.

مع إبقاء رمزها قبل الاضافة إلى جانب الرمز الجديد - فكلمة (ملاً) إذا كانت مجرورة وأضيفت إلى ضمير، يقول الداني^(١١٩): «ورأيت في مصاحف أهل المدينة والعراق وغيرها (وملأيه) و(ملأيهم) في جميع القرآن بالياء بعد الهمزة». فرمز الألف يشير إلى ما تخفف إليه الهمزة قبل الاضافة حين يوقف عليها، والياء تمثل ما تخفف إليه الهمزة بعد اتصال الضمائر بالكلمة.

ووضع الأمثلة السابقة التي تبدو الهمزة فيها قد رسمت رسماً مزدوجاً بألف وياء في إطار واحد وفهما من خلال حقيقة أثر التوسط العارض للهمزة بسبب النطق بها في كلام متصل أو اتصال الزوائد والضمائر بها أقرب إلى الصحة والواقع من عرض وجوه متعددة لتفسير الظاهرة الواحدة التي لا تحتمل - كما تبين فيما مر - إلا وجهاً واحداً يضيغ - في موقف علماء السلف - بين الاحتمالات والوجوه المتعددة لتفسير الظاهرة الواحدة، على نحو ما أورده التنسي في توجيه الياء في ما كان مثل (أفاين ونباي)، حيث ذكر أوجهاً يلوح للقارئ في بعضها التفسير الصحيح، لكن إيراد الاحتمالات جميعها في صعيد واحد يجعل من غير السير لأول وهلة الجزم بواحد منها، وبعضها يشبه تلك التي ذكرها في تفسير الواو في (سأوريكم)، فأولها أن الياء زيدت تقوية للهمزة، أو أنها دالة على إشباع حركتها، أو أنها صورة لحركتها، أو حركتها نفسها، أو أن الياء وحدها صورة للهمزة على مراد وصلها بما بعدها، فتكون كهمزة (لثن) لتقدير توسطها والألف زيدت تقوية للهمزة، وسادس الاحتمالات مثل السابق إلا أن الألف زيدت للدلالة على إشباع حركتها قبلها، وسابعها أنها معاً صورتان للهمزة على مراعاة الانفصال والاتصال، الألف للأول وهو القياس، والياء للثاني على غير قياس، وثامنها أنها أيضاً صورتان لها إذا قرئت محققة عند الجمهور فصورت بالألف لذلك، وقرئت مسهلة، إما وقفاً عند حمزة، أو مطلقاً عند أبي جعفر يزيد بن

(١١٩) المقنع ص ٤٧. وقد جاءت كلمة (ملأيه) في ستة مواضع (١٠٣/٧ و ٧٥/١٠ و ٩٧/١١ و ٤٦/٢٣ و ٣٢/٢٨ و ٤٦/٤٣) وجاءت كلمة (ملأيهم) في موضع واحد (٨٣/١٠).

القمعاق، فصورت ياء لذلك^(١٢٠). وكذلك أورد التنسي ستة احتمالات في تفسير إثبات الياء في نحو (اناي): أولها كون الياء صورة للهمزة، على مراد وصلها بما بعدها فتصير كالتوسطة التي تصور بحرف من حركتها نحو أنبائكم، وثانيها: إنها صورة لحركة الهمزة. وثالثها: إنها حركتها نفسها، ورابعها: إنها زيدت تقوية للهمزة. وخامسها: إنها زيدت دلالة على إشباع حركتها. وسادسها إنها صورة لها على مراد التسهيل^(١٢١).

إن في بعض تلك الوجوه المتعددة التي يذكرها التنسي لتفسير إثبات الياء في الأمثلة السابقة ما ييم عن إدراك صحيح للظاهرة، فالاحتمال الثامن الذي يذكره في توجيه إثبات الياء في مثل (أفاين ونباي) يكاد يقدم تفسيراً صحيحاً للظاهرة، كذلك الاحتمال الأول في توجيه زيادة الياء في (اناي) وما أشبهه. إلا أن هذا الفهم الصحيح قد غبرته الاحتمالات الكثيرة التي يوردها علماء الرسم إضافة إلى أن أسلوب التعبير عن الفكرة من مثل اعتبار الألف في (نباي) صورة للهمزة على قراءة من يحققها، والأقرب إلى الواقع أنها رسمت على قراءة من خفف أيضاً، لان الهمزة فيها تصير عند الوقف فتحة طويلة - قد يوحي أن علماء الرسم لم يدركوا أصل رسم الهمزة في الرسم العثماني وجريانه على تخفيفها في غير أول الكلمة، إذ إن معنى قولهم إنها ترسم على نحو ما تخفف إليه للإشارة إلى جواز الأمرين يظهر في مختلف تعبيراتهم عند الكلام عن ظواهر رسم الهمزة التي يقدمها الرسم العثماني.

هـ - زيادة رمز الألف بعد اللام أَلْف :

وهناك ظاهرة تتعلق برسم الهمزة المبتدئة إذا اتصلت بها لام الابتداء أو القسم ترتبط - شكلاً - بظاهرة رسم الهمزة المبتدئة رسماً مزدوجاً بألف وواو

(١٢٠) انظر: الطراز في شرح ضبط الخراز ورقة ٧٦ ب.

(١٢١) نفس المصدر ورقة ٧٧ ب.

أو بألف وياء - كما مر في الأمثلة السابقة - لكنها تختلف - على ما يبدو - من حيث أصل هذه الظاهرة، فقد روى أئمة الرسم أن ﴿وَلَا أَوْضَعُوا﴾ في التوبة (٤٧/٩) و﴿أَوْ لَا أَدْبَحْنَهُ﴾ في النمل (٢١/٢٧) و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ في آل عمران (١٥٨/٣) و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الْحَمِيمُ﴾ في الصافات (٦٨/٣٧) قد رسمت بألفين، بين اللام والواو في المثال الأول، وبين اللام والذال في الثاني، وبين اللامين في المثالين الأخيرين^(١٢٢)، وقياس رسم هذه الأمثلة أن تتصل اللام الداخلة على الكلمة بالألف التي في أولها وتتكون صورة (اللام ألف). ولكن أثبتت كتابة المصحف ألفاً أخرى بعد صورة اللام ألف في هذه المثل من غير أن يكون هناك مقابل صوتي لها.

وتبدو هذه الصورة الهجائية أكثر تعقيداً من الصور السابقة لازدواج رسم الهمزة، وقد اختلفت مواقف علماء السلف من هذه الظاهرة حتى أن الفراء قال عنها إنها من سوء هجاء الأولين. فقد تحدث عن الحرف الذي في التوبة ﴿لَا أَوْضَعُوا﴾ بقوله: «وكتبت بلام ألف وألف بعد ذلك، ولم يكتب في القرآن له نظير، وذلك أنهم لا يكادون يستمرون في الكتاب على جهة واحدة، ألا ترى أنهم كتبوا ﴿فَمَا تُغْنِ النَّذْرُ﴾ (القمر ٥/٥٤) بغير ياء ﴿وَمَا تُغْنِي آيَاتُ وَالنَّذْرُ﴾ (يونس ١٠/١٠) بالياء، وهو من سوء هجاء الأولين، (ولا أوضعا) مجمع عليه في المصاحف، وأما قوله ﴿أَوْ لَا أَدْبَحْنَهُ﴾ فقد كتبت بالألف وبغير الألف، وقد كان ينبغي للألف أن تحذف من كله، لأنها لام زيدت على ألف، كقوله: لأخوك خير من أهلك. ألا ترى أنه لا ينبغي أن تكتب بألف بعد لام ألف. وأما قوله ﴿لَا أَنْفِصَامَ لَهَا﴾ (٢٥٦/٢) فتكتب بالألف لان (لا) في

(١٢٢) انظر ابن أبي داود ص ١٠٨، والمهدوي ص ٩٦، والداني: المقنع ص ٤٥، والمحكم (له) ص ١٧٤. وقد رسم المثال الأول والثالث في المصحف المطبوع بألف واحدة. ولكن نجد المثال الأول في مصحف جامع عمرو والمثال الثالث في مصحف طشقند قد رسما بألفين كما روى علماء الرسم.

(انفصام) تبرئة. والألف من (انفصام) خفيفة» (١٢٣). ويقصد الفراء من قوله (وهو من سوء هجاء الأولين) عدم استمرار الكتاب على طريقة واحدة في رسم الأمثلة المتشابهة، لكن عدم استمرار الكتاب هذا كان هناك ما يسوغه بل يدفع إليه حين يجد الكاتب نفسه بين أن يلتزم رسماً شائعاً للكلمة لكنه قاصر عن تمثيل أصواتها التي يسمعا، وبين أن يستجيب للنطق الفعلي، ويغير قليلاً في رسم الكلمة لتمثيل النطق المسموع تمثيلاً أكثر دقة - في وقت لم تكن قواعد الكتابة والهجاء قد استقرت وعرفت من قبل الكتاب جميعاً بدرجة واحدة - ومن ثم ظهرت بعض الأمثلة المتشابهة مرسومة بأكثر من طريقة.

وقد ذهب المهدي إلى أن من مذاهب العرب إشباع الحركات في اللفظ دون الخط أو فيها أو في الخط دون اللفظ، وإذا كان الأمر كذلك فالألف المتصلة باللام هي المتولدة من حركة اللام المشبعة والألف التي بعدها هي صورة الهمزة (١٢٤).

وتعرض الزمخشري لزيادة الألف في مثل هذه الأمثلة بقوله (١٢٥): « فإن قلت: كيف خط في المصحف ﴿وَلَا أَوْضَعُوا﴾ بزيادة الألف؟ قلت: كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى، ونحو: أو لا أذبحنه ».

وسبق أن أشرنا إلى مذهب بعض العلماء إلى أن الحركات القصيرة كانت تصور حروفاً وقد حكى هذا غير واحد من علماء العربية منهم أبو إسحاق إبراهيم بن السري (ت ٥٣١١ هـ) وغيره (١٢٦). ولكن ليس هناك دليل على هذا

(١٢٣) الفراء: معاني القرآن ج ١ ص (٤٣٩-٤٤٠).

(١٢٤) انظر هجاء مصاحف الأمصار ص ٩٧.

(١٢٥) الكشف ج ٢ ص ٢١٧.

(١٢٦) انظر الداني المحكم ص ١٧٦. واللبيب ورقة ٣٤ ب.

المذهب بل إن المعروف من تاريخ رموز الحركات في الكتابات السامية ينقض ذلك ويرده، كما مر بيان ذلك.

وقد تحدث الامام أبو عمرو الداني عن هذه الألف فقال: إما زيادتهم الألف في ﴿وَلَا أَوْضَعُوا﴾ و﴿أَوْ لَا أَدْبَحْنَهُ﴾ فلمعان أربعة، هذا إذا كانت الزائدة فيها المنفصلة عن اللام، وكانت الهمزة هي المتصلة باللام، وهو قول أصحاب المصاحف: فأحدها: أن تكون صورة لفتحة الهمزة، من حيث كانت الفتحة مأخوذة منها.

والثاني: أن تكون الحركة نفسها لا صورة لها، على مذهب العرب في تصوير الحركات حروفاً.

والثالث: أن تكون دليلاً على إشباع فتحة الهمزة وتمطيها في اللفظ، لخفاء الهمزة، وبعد مخرجها، وفرقا بين ما يحقق من الحركات وبين ما يحتلس منهن، وليس ذلك الاشباع والتمطيط بالمؤكّد للحروف، إذ ليس من مذهب أحد من أئمة القراءة، وإنما هو إتمام الصوت بالحركة لا غير.

والرابع: أن تكون تقوية للهمزة وبيانا لها.

وإذا كانت الزائدة من إحدى الألفين المتصلة في الرسم باللام، وكانت الهمزة هي المنفصلة عنها. وهو قول الفراء وأحمد بن يحيى وغيرها من النحاة فزيادتها لمعنيين:

أحدهما: الدلالة على إشباع فتحة اللام وتمطي اللفظ بها.

والثاني: تقوية للهمزة، وتأكيدها وبيانا^(١٢٧).

وتتركز توجيهات الفريقين التي يعرضها الداني على أن الفتحة قد رسمت ألفاً أو أن الألف أثبتت تقوية للهمزة، وكلا الأمرين لا يجد دليلاً من واقع الكتابة أو اللغة العربية.

(١٢٧) انظر المحكم ص (١٧٦-١٧٧) واللبيب ورقة ٣٤-٣٤ ب وانظر أيضاً الجعبري ورقة ١٠٨/أ.

وتبقى هذه الظاهرة - بعد ذلك - من غير تفسير مقنع، خاصة أن الهمزة إذا خففت لدخول اللام في الأمثلة المشار إليها تلتقي فتحتان قصيرتان في المثاليين الأولين كما يحدث في تخفيف الهمزة في (سأل)، وتختلف الهمزة ياء ضعيفة في المثاليين الأخيرين، كما يحدث في تخفيف الهمزة في مثل (سم) وفي كلا الحالتين ليس هناك ما يدعو الى إثبات ألفين في الرسم.

ويبدو أن هناك احتمالاً واحداً لعله يصلح أن يكون تفسيراً لهذه الظاهرة، وهو أن اللام كانت إذا اتصلت بها الألف فإنها ترسم بطريقة خاصة في الخط العربي القديم تخالف طريقة اتصال الألف بأي حرف آخر من حروف الأبجدية، إذ إنها يكونان شكلاً يشبه خطين متقاطعين تربطهما من أسفل قاعدة هكذا (X) وقد سمي علماء العربية هذا الشكل باسم (اللام ألف) وهذا الشكل لا يظهر غيره في النصوص الكتابية العربية القديمة لتمثيل اتصال الألف باللام، نجد ذلك في نقش القاهرة وفي نقش (ثابت بن يزيد الأشعري) في حفنة الأبيض في العراق، ونجده في المصاحف المخطوطة القديمة المرسومة بما يسمى بالخط الكوفي، ويظهر في نقوش إشارات الطريق التي يرجع معظمها إلى خلافة عبد الملك، وفي غير ذلك من النصوص الكتابية العربية القديمة. وهو دليل على أن الكتابة العربية آنذاك لم تكن تعرف صورة لاتصال الألف باللام إلا على هذه الطريقة.

ويبدو أن ذلك الشكل لاتصال الألف باللام يرجع استخدامه إلى تاريخ قديم بل ربما يكون أثراً من آثار أشكال اتصال الحروف النبطية التي عجزت حركة تطور الكتابة النبطية إلى الكتابة العربية من تغييرها، فظلت هذه الصورة لاتصال الألف باللام تخالف طريقة ارتباط الألف بأي حرف آخر من حروف العربية، فلو تأملنا طريقة رسم الألف في نقش النارة مثلاً لوجدناه على شكل رقم (٦) في الأرقام المستعملة في الكتابة العربية في بلدان المغرب وفي الكتابات اللاتينية هكذا (6)، ولو تأملنا رسم اللام في نفس النقش لوجدناه يشبه نوعاً ما اللام العربية المتوسطة، ومن ثم فمن المتوقع عند اتصال الألف

باللام في الكتابة النبطية أن يجيء الشكل هكذا (X). وهو ما نجده فعلاً في نقش النارة في كلمة (الأسدين) في السطر الثاني، ومن ثم فإن شكل اتصال الألف باللام في الكتابة العربية هو من بقايا أشكال اتصال الحروف النبطية يؤكد ذلك أن هذا الشكل نجده في نقش زبد (سنة ٥١٢م) ونقش أم الجبال الثاني الذي يرجع إلى أواخر القرن السادس وربما حافظت الكتابة العربية على هذا الشكل لأن رمز الألف تطور في الكتابة العربية إلى شكل يشبه رمز اللام، فيكونان إذا التقيا شكلاً لم يقبله ذوق الكتاب في تلك الفترة المتقدمة.

ولما كان استخدام شكل اللام ألف (X) بهذا القدم، وأنه خلال هذه القرون الطويلة لا بد أنه قد اكتسب صفة الثبوت في الشكل حتى أصبح الكتاب حين يريدون كتابة اللام متصلة بالألف لم يعودوا يفكرون بأي الحرفين يبدأون فإنه من المحتمل جداً أن الكتاب حين يريدون إلحاق اللام في أول كلمة تبدأ بألف لا يتبادر إلى أذهانهم ولا تجري أقلامهم إلا بهذا الشكل القديم الشائع المشهور لاتصال اللام بالألف (X) فيلحقونه أمام الكلمة المراد إلحاق اللام بها دون أن يحذفوا رمز الألف الذي كان في أول الكلمة والذي صار أحد طرفي شكل (اللام ألف). ومن هنا استقر رمز الألف بعد اللام ألف في بعض الكلمات دون أن يكون لحركة الهمزة أي دخل في هذه الظاهرة، وما يساعد على تصور ذلك أن تركيب اللام مع الألف في أول هذه الكلمات لا يعد شكلاً كتابياً مستقراً عرفه الكتاب على وفق صورة واحدة كما نجد في الكلمة التي تدخل عليها (أل) المعرفة وأولها همزة مثل كلمة (الأرض) ومن ثم فقد برزت هذه الظاهرة - مجرد احتمال - على أيدي كتاب أقل ثقافة كتابية وهم يحاولون ابتداء رسم شكل جديد لهذا التركيب.

وتقدم المصاحف المخطوطة أمثلة أخرى غير الأربعة المشار إليها، فنجد الألف ثابتة بعد الهمزة المفتوحة فتحة قصيرة في ﴿لَأَنْتِ﴾ (هود ١١/٨٧) في مصحف طشقند وفي ﴿لَأَمْلَنَنَّ﴾ (ص ٣٨/٨٥) في مصحف جامع عمرو، وبعد الهمزة المفتوحة فتحة طويلة في ﴿لَأَاتِيَنَّهُمْ﴾ (الأعراف ٧/١٧)، ومع همزة

الوصل في ﴿لَا تَبْعُنْكُم﴾ (آل عمران ١٦٧/٣)، كلاهما في مصحف طشقند. وتدل هذه الأمثلة على أن الظاهرة لم تكن محصورة في كلمات معينة بل ربما كانت أكثر شمولاً للحالات المشابهة لكن الكتاب كلما انتبهوا إلى حقيقة زيادة الألف في مثل هذه الكلمات حذفوها، ولم تبق من آثار تلك الظاهرة إلا بضعة كلمات ظهرت في الرسم العثماني على ذلك النحو الذي عرضناه.

و - رسم الهمزتين في أول الكلمة:

ومن مظاهر تأثر رسم الهمزة المبتدئة بالتوسط العارض دخول همزة الاستفهام على همزة في أول الكلمة، وهمزة الاستفهام لا تكون إلا مفتوحة. أما التي في أول الكلمة فتكون مفتوحة أو مضمومة أو مكسورة.

فإذا دخلت همزة الاستفهام على همزة مفتوحة سواء أكانت بعدها فتحة قصيرة أم طويلة رسم ذلك كله بألف واحدة^(١٢٨)، يقول الداني: وما كان من الاستفهام فيه ألفان أو ثلاث فإن الرسم ورد بلا اختلاف في شيء من المصاحف بإثبات ألف واحدة، اكتفاء بها لكراهة اجتماع صورتين متفتحتين فما فوق في الرسم^(١٢٩). من ذلك (ءأنذرتهم - ءأنتم - ءأسلمتم - ءأقررتم - ءأنت - ءأرباب - ءأسجد - ءأشكر - ءأخذ - ءأشفقتم - ءألد)^(١٣٠).

وقد اختلف في الألف الثابتة، ف قيل هي الأصلية، وقيل ألف الاستفهام^(١٣١). وقد قال الداني^(١٣٢): «الألف الثابتة في ذلك في الرسم هي همزة الاستفهام للحاجة إليها، وهو قول الفراء وثعلب وابن كيسان، وقال الكسائي هي

(١٢٨) انظر المهدي ص ١١٤.

(١٢٩) المقنع ص ٢٤. وانظر العقيلي لوحة ٣.

(١٣٠) انظر الديماطي ص (٤٤-٤٥).

(١٣١) انظر المهدي ص ١١٥.

(١٣٢) المقنع ص ٢٤.

الأصلية، وكذلك قال أصحاب المصاحف، وذلك عندي أوجه». ولكن علينا أن نلاحظ أن همزة الأصلية التي في أول الكلمة قد عرض لها التوسط بعد دخول همزة الاستفهام فخففت وآلت إلى فتحة طويلة، وحذف رمز الفتحة الطويلة المتوسطة جائز دون حذف رمز همزة، فهل يمكن القول بناء على ذلك بأن الثابتة هي رمز همزة الاستفهام؟ أو يكتفى بالقول إن رمز إحدى الألفين حذف. وأثبت الآخر دون تعيين، لكراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الخط؟

أما همزة المضمومة في أول الكلمة ودخلت عليها همزة الاستفهام فقد اتفقت المصاحف - كما يقول الداني - على رسم واو بعد همزة في قوله سبحانه ﴿قُلْ أَوْسُنُّكُمْ﴾ في آل عمران (١٥/٣)، وذلك على مراد التلين. ولم يرسموها في نظائر ذلك نحو ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ﴾ في ص (٨/٣٨)، و﴿أَمْ لِيَّ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ في القمر (٢٥/٥٤)، وذلك على إرادة التحقيق وكراهة اجتماع ألفين، وهمزة قد تصور على المذهبين جميعاً (١٣٣).

إذا دخلت همزة الاستفهام على همزة مكسورة فقد رسمت همزة الثانية ياء في بعض المواضع دون بعض، فرسمت (أأنكم) بالياء ﴿أَأُنْسِكُمْ﴾ في أربعة أحرف: في الأنعام (١٩/٦) والنمل (٥٥/٢٧) والعنكبوت (٢٩/٢٩) وفصلت (٩/٤١). ورسمت (أأنا) بالياء ﴿أَأَنَّا﴾ في موضعين: في النمل (٦٧/٢٧) والصفات (١٦/٣٧). ورسمت (أأن) بالياء ﴿أَأَنَّ﴾ في الشعراء (٤١/٢٦) ﴿أَأَيُّ لَنَا لِأَجْرًا﴾، ورسمت (أأذا) بالياء (أأذا) في الواقعة (٤٧/٥٦) ﴿أَأُذًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، وما جاء بالياء أيضاً ﴿أَأَيُّ ذُكْرْتُمْ﴾ في يس (١٩/٣٦)، و﴿أَأَنفِكَ آلِهَةٌ﴾ في والصفات (٨٦/٣٧) (١٣٤).

ويظهر من هذه الأمثلة أن ما رسمت فيه همزة الثانية ياء أو واو أقل

(١٣٣) انظر المقنع ص ٥٩. وانظر أيضاً المهدي ص ١١٦، والديماطي ص ٤٩.

(١٣٤) انظر المهدي ص ١١٦، والداني: المقنع ص (٥١-٥٢). وانظر عدد ورود الأمثلة المذكورة التي رسم بعضها بالياء في القرآن. الديماطي ص (٤٧-٤٨).

مما جاء مرسوماً بألف واحدة، ولو تأملنا عدداً من الآيات التي جاءت في كل منها همزة الاستفهام مرتين، مرة مع (إذا) وأخرى مع (إننا) والهمزة مكسورة فيها، حيث وردت هذه الصيغة في سورة الرعد (٥/١٣) والمؤمنون (٨٢/٢٣) والنمل (٦٧/٢٧) والصفات (٥٣/١٦ و٣٧) والواقعة (٤٧/٥٦) لوجدنا أن الهمزة الثانية في (أءذا) رسمت ياء في موضع واحد، في الواقعة (٤٧/٥٦) وهو قوله سبحانه ﴿وَكَاُنُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وفي (أءنا) رسمت بالياء في موضعين الأول في النمل (٦٧/٢٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَتِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾، والثاني في والصفات (١٦/٣٧) ﴿أءذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾^(١٣٥).

وقد علل الداني لما رسم بالواو أو بالياء من الهمزة التالية لهمزة الاستفهام بأنه رسم كذلك على مراد التليين، وما جاء بألف واحدة على مراد التحقيق، وحذفوا إحدى الألفين، كراهة اجتماع صورتين متفتقتين في الخط، يقول في (الحكم) عن هذه الظاهرة^(١٣٦): «وجه ذلك إرادتهم التعريف بالوجهين من التحقيق والتسهيل في تلك الهمزة، فالموضع الذي جاءت الياء والواو فيه مرسومين دليل على التسهيل، والموضع الذي جاءت فيه غير مرسومين دليل على التحقيق، وذلك من حيث كرهوا أن يجمعوا بين صورتين متفتقتين. فلذلك حذفوا إحدى الصورتين واكتفوا بالواحدة منها إيجازاً واختصاراً».

وبناء على ما تقرر سابقاً وذكرناه في أكثر من موضع من أن الهمزة إذا توسطت خففت في قراءة ولغة أهل الحجاز بصورة عامة، فإن الهمزة الثانية في الأمثلة السابقة سواء رسمت واواً أو ياء أم لم ترسم تخفف في ذلك على نحو ما تخفف الهمزة المتوسطة، وقد روي تخفيف الهمزة الثانية عن قالون وأبي عمرو،

(١٣٥) في المصحف المطبوع (أءنا) بدون ياء.

(١٣٦) ص ١٠٦ وانظر أيضاً نفس المصدر ص ١٠٨، وانظر الجعبري ورقة:

(٢٣٢-أ-٢٣٣ب).

وهشام عن الحلواني، وروي تخفيفها أيضاً عن أبي جعفر سواء كانت مفتوحة أم مضمومة أم مكسورة وسواء كان تخفيفها بإدخال ألف بين همزة الاستفهام وبين ما تخفف إليه الثانية أم بدون ذلك (١٣٧).

أما أنها رسمت في بعض الأمثلة بالواو أو بالياء حسب حركتها دون بعض فإن ما رسمت فيه كذلك أثبت الكتاب صورة النطق الفعلي، وما لم ترسم فيه خفت أيضاً بنفس الطريقة لكن صورة الكلمة قبل دخول همزة الاستفهام كان قد شاع استعمالها على شكل معين، فلما دخلت همزة الاستفهام وتعرضت الهمزة الأصلية في الكلمة للتوسط والتخفيف لم يثبتوا ما طرأ على الكلمة من تغير في ياء أو واو أو لا يدل على تحقيق الهمزة، إذ من غير المعقول أن يخفف القارئ في آية واحدة كلمة دون أخرى في سياق واحد من مثل ما ورد من الآيات التي تحتوي صيغة (أءذا... أءنا.....) السابقة، وإنما لم ترسم الهمزة في هذه الكلمات على حسب التخفيف للعلة التي ذكرنا.

٢ - إحتفاظ بعض الكلمات المهموزة بصور هجائية قديمة:

لم يكن بناء الرسم على وصل الكلام وتعرض الهمزة المبتدئة للتوسط بسبب اتصال الزوائد أو الضمائر بها العامل الوحيد في مجيء بعض الكلمات المهموزة مرسومة على أكثر من صورة هجائية، وإنما هناك جملة عوامل أخرى أدت إلى تعدد صور هجاء بعض الكلمات وإلى مجيء بعضها الآخر مرسوماً بطريقة معينة على غير القاعدة المطردة.

ومن بين تلك العوامل إحتفاظ بعض الكلمات بصورة هجائها القديم، رغم ما قد يصيب نطقها من تغير، وقد يضيف الكتاب رمزاً كتابياً لتمثيل النطق الجديد للكلمة دون تغيير هجائها القديم، ومن ثم فإن الهمزة تبدو في بعض

(١٣٧) انظر الدمياطي ص (٤٤-٤٩).

الأمثلة وكأنها قد رسمت رسماً مزدوجاً على نحو ما رأينا في بعض أمثلة الهمزة المتطرفة أو المبتدئة حين يعرض لها التوسط بسبب ما أشرنا إليه من عوامل. وسبق أن بينا أن لتمثيل الهمزة في الكتابة العربية طريقتين، هما: أولاً أن ترسم ألفاً بأية حركة تحركت وفي أي مكان من الكلمة أتت، وذلك عند من يحققون الهمزة على كل حال، لأن الألف في الأصل هي رمز الهمزة. وثانياً: أن ترسم ألفاً في أول الكلمة فحسب وترسم في غير أول الكلمة بحسب ما تؤول إليه في التخفيف وذلك عند أهل التخفيف الذين لا يحققون الهمزة إلا في أول الكلمات، والهمزة الواقعة أولاً قد يعرض لها التخفيف.

وقد ذكرنا فيما سبق الروايات التي تشير إلى أن الهمزة رسمت في مصاحف عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - في الكوفة بالألف في كل حال، وأن ذلك كان مذهباً لجماعة من العرب في كتابة الهمزة^(١٣٨)، ولما كانت الكوفة على اتصال دائم بقبائل شرقي الجزيرة العربية ووسطها، ولقرها من الحيرة معقل الكتابة العربية قبل الاسلام فمن المحتمل أن يكون رسم الهمزة في هذه البيئات قد جرى قبل الاسلام على لغة من يحققون الهمزة، أي أنها رسمت ألفاً على كل حال. ثم ورثت الكوفة في أول عهدها هذه الطريقة في تمثيل الهمزة.

ولما كانت الروايات التاريخية تكاد تجمع على أن الكتابة العربية انتقلت من الأنبار والحيرة في العراق إلى حواضر الحجاز ومدنه قبل الاسلام بقرن أو قرنين فإن صور هجاء الكلمات المهموزة حين انتقلت، وهي تمثل نطق من يحققون الهمزة ومرسومة دائماً بالألف، قد أخذت تتخلى عن تلك الصور وبدأت تستجيب لنطق أهل الحجاز في تخفيف الهمزة ويبدو أن قرناً أو قرنين من الزمان لم يكن كافياً لإزالة صور هجاء الكلمات المهموزة تماماً، فكانت لها بقايا في غير أول الكلمات، وأحياناً أثبت رمز النطق الجديد إلى جانب رمز النطق

(١٣٨) انظر: الفراء. معاني القرآن ج ٢ ص ١٣٤ و ٢٢٠ و ج ٣ ص ٣٦ وانظر أيضاً: ابن جنّي. سر صناعة الاعراب ج ١ ص (٤٦-٤٧).

القديم ، وبذلك كان هذا الانتقال للكتابة من بيئة تحقق الهمزة وترسمها ألفاً في كل حال إلى بيئة تسهلها وتكتبها على نحو ما تسهل في غير أول الكلمة - إن صح ما ذكرناه هنا - كان عاملاً مهماً في تعدد صور هجاء الكلمات المهموزة وفي احتفاظ بعضها بأهجية قديمة وربما بدت الهمزة في بعض الكلمات لذلك مرسومة بطريقة مزدوجة .

ويقدم الرسم العثماني أمثلة كثيرة لأثر هذا العامل في تعدد رسم بعض الكلمات المهموزة، فيذكر الداني أن المصاحف اتفقت على رسم ﴿وَهَيَّيْ لَنَا﴾ و﴿يُهَيَّيْ لَكُمْ﴾ في الكهف (١٨/١٠ و١٦) و﴿مَكَرَ السَّيِّءِ﴾ و﴿الْمَكَرُ السَّيِّءِ﴾ في فاطر (٤٣/٣٥) بياءين، إلا أن أبا حاتم حكى أن في بعض المصاحف (وهياً لنا) و(يهياً لكم) بألف صورة للهمزة (١٣٩).

وكذلك كل ما في كتاب الله عز وجل من ذكر (رأى) نحو (را كوكباً) و(را أيديهم) و(فلما راه) و(فلما را القمر) و(را الشمس) وما كان مثله من لفظه، سواء جاء بعد لام الفعل ساكن أم متحرك - هو مرسوم في كل المصاحف بألف واحدة إلا في موضعين، وهما قوله سبحانه في سورة النجم (١١/٥٣ و١٨) ﴿مَا رَأَى﴾ و﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾. فإن مصاحف أهل الأمصار اتفقت على رسم ألف بعدها ياء علامة للفتحة الطويلة، ومثل (رأى) أيضاً كلمة (السوأي) (١٤٠).

ويبدو أن ما رسم براء وألف (را) يمثل النطق الجديد وذلك لأن الهمزة في (رأى) إذا سقطت عند التخفيف تلتقي فتحة الراء والفتحة الطويلة التي هي لام الفعل، وحتى لو حافظت هذه الفتحة القصيرة قبل الفتحة الطويلة التي تليها عن طريق تغيير النغمة أو درجة الانفتاح، وربما صارت فتحة طويلة أيضاً، فإن الكاتب لن يرسم إلا ألفاً واحدة. أما رسم الكلمة بألف بعدها ياء (راى) فإنها

(١٣٩) انظر المقنع ص ٥١ .

(١٤٠) نفس المصدر ص ٢٥ والمحكم (له) أيضاً ص ١٢٩ .

شير إلى الرسم القديم للكلمة عند أهل التحقيق، فرمز الألف يشير إلى الهمزة والياء بعدها هي رمز الفتحة الطويلة في آخر الكلمة. ويمكن أن نفهم سر إثبات الألف في (السوأي) على ذلك النحو أيضاً، ومثل (را) في تطور الرسم القديم وتمثيل النطق الجديد رسم كلمة ﴿تراء الجَمْعَانِ﴾ في الشعراء (٦١/٢٦)، فقد رسمت بألف واحدة بعد الراء^(١٤١).

وفي المصاحف المخطوطة عدة كلمات تمثل بقايا من الطريقة الأولى لرسم الهمزة بالألف في كل موضع، من ذلك كلمة ﴿سُوء العَذَابِ﴾ في سورة البقرة (٤٩/٢)، فقد رسمت بالألف (سوا) في مصحف طشقند، وفيه أيضاً كلمة ﴿ملاء﴾ في آل عمران (٩١/٣) رسمت (ملا). وكلمة ﴿سُوء﴾ في المائدة (٣١/٥) رسمت (سواة) في بقية مصحف محفوظ في دار الكتب المصرية تحت رقم (١١٥ مصاحف)، ورسمت كلمة ﴿يَنْتُون﴾ في الأنعام (٢٦/٦) بالألف (يناون) في مصحف طشقند. ورسمت فيه أيضاً كلمة ﴿سَيِّئُهُ﴾ في الاسراء (٣٨/١٧) بالألف (سياه) وكلمة ﴿يُهيي﴾ في الكهف (١٦/١٨) بالألف (يهيأ). ورسمت كلمة ﴿السِّيء﴾ في فاطر في الموضعين (٤٣/٣٥) بالألف هكذا (السيأ). فكل هذه الكلمات احتفظت بهجاء الهمزة القديم، وجاءت مرسومة فيها بالألف حيث وقعت وبأية حركة تحركت.

وإذا كانت الأمثلة السابقة قد رسمت فيها الهمزة بالألف فحسب فإن مثلاً آخر قد جمع إلى جانب رمز الألف رمز ما تؤول إليه الهمزة عند التخفيف، فكلمة ﴿سُئِلَ﴾ في البقرة (١٠٨/٢) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ قد رسمت هكذا (سائل) في مصحف طشقند، وتبدو الهمزة في هذا الشكل قد رسمت رسماً مزدوجاً مثل ما رأينا في (نبأى ولقأى) سوى أن الهمزة في (سئل) متوسطة وفيما تقدم متطرفة، وكذلك فإن سبب الظاهرة في مثل (نبأى ولقأى) هو بناء الرسم على الوصل والوقف. أما (سائل)

(١٤١) انظر المهدي ص ١٠٨ والداني: الحكم ص ١٥٧.

فإن السبب فيها يعود إلى احتفاظ الكلمة برسم الهمزة القديم مع تمثيل النطق الجديد، فالألف تشير إلى الرسم القديم والياء تمثل النطق الجديد الذي نجده في الرواية المشهورة لرسم الكلمة (سئل). ومثل (سئل) في رسم الهمزة كلمة «سيء» في هود (٧/١١) فقد رسمت في مصحف طشقند هكذا (ساي)، رغم أن الظاهرة في (سيء) تبدو أكثر تعقيداً.

والمثالان الأخيران ينقلاننا إلى الحديث عن هجاء كلمة (مائة ومائتين) حيث وقعت، إذ جاءت الهمزة فيها مرسومة رسماً مزدوجاً بألف وياء^(١٤٢)، ولعل أصل هجاء الكلمة كان بالألف فقط هكذا (ماه) عند أهل التحقيق، وأن الياء زيدت في الرسم بعد أن انتقلت صورة رسم الكلمة من بيئة تحقق الهمزة إلى بيئة الحجاز التي تسهلها، ولم يغير الكتاب صورة الكلمة بمحذف الألف وإثبات رمز النطق الجديد، بل إنهم أثبتوه إلى جانب الألف، فظهرت الكلمة بهذه الصورة، ويؤيد الزعم بأن أصل رسم الكلمة بالألف (ماه) ما قاله الشيخ أثير الدين أبو حيان من أنه رأى بخط بعض النحاة (ماه) على هذه الصورة بألف عليها نبرة الهمزة دون ياء، ثم قوله: وكثيراً ما أكتب انا (مئة) بغير ألف كما تكتب (فئة) لان كعب (ماه) بالألف خارج عن القياس، فالذي اختاره أن تكتب بالألف دون الياء على وجه تحقيق الهمزة، أو بالياء دون الألف على وجه تسهيلها^(١٤٣). ويؤكد هذا أن هذه الكلمة وردت في أحد النقوش النبطية مكتوبة بالألف دون الياء هكذا (ماه)^(١٤٤)، ولما كانت الهمزة في (مئة) مفتوحة بعد كسرة فإن سقوط الهمزة عند تخفيفها يؤدي إلى أن تلتقي فتحتها والكسرة التي تسبقها ويتولد عن هذا الالتقاء بعد تعويض مكان الهمزة ياء خالصة، أثبت الكتاب رمزها إلى جانب الألف، فصار هجاء الكلمة هكذا (مايه) وبدت الهمزة مرسومة برمزين.

(١٤٢) انظر الداني: المقنع ص ٤٢.

(١٤٣) انظر القلقشندي ج ٣ ص ١٨٠.

(١٤٤) انظر د. جواد علي ج ٧ ص ٢٩٦.

وهذا التفسير لرسم الهمزة في هذه الكلمة بالألف والياء يصحح كلاماً كثيراً لعلماء العربية بشأن زيادة الألف في هذه الكلمة واختلافهم في سبب زيادتها. فيذكر الداني أن زيادة الألف في (مائة) كانت لأحد أمرين^(١٤٥). إما للفرق بين (مئة) وبين (منه) من حيث اشتبهت صورتها، وهو قول عامة النحويين. وينقل الصولي أن بعضهم قال انها للفرق بينها وبين (مئة) لكنه يعقب على هذا بقوله «وهذا قول مردول لأن مية متى تذكر وتقع في كتاب»^(١٤٦). واما أنها تقوية للهمزة، من حيث كانت حرفاً خفياً بعيد المخرج فقووها بالألف لتتحقق نبرتها، وخصت الألف بذلك معها من حيث كانت من مخرجها، وكانت الهمزة قد تصور بصورتها، ثم يقول الداني: وهذا القول عندي أوجه، لأنهم قد زادوا الألف بياناً للهمزة وتقوية لها في كلم لا تشبه صورهن بصور غيرهن، فزال بذلك معنى الفرق، وثبت معنى التقوية والبيان لأنه مطرد في كل موضع. لكن التنسي يقول^(١٤٧): ما من همزة إلا وهي تفتقر إلى التقوية كسؤال وفؤاد وسئلت ولأرحمك وغير ذلك مما لا يحصى، فتخصيص هذا الموضع تحم.

ويبدو أن أساس الخطأ في تفسير هذه الصورة الهجائية لرسم كلمة (مئة) ان علماء السلف اعتبروا أن الألف زيدت على رسم الكلمة لمعنى معين إما للفرق أو تقوية للهمزة. والحقيقة أن كلا الرمزین يشير إلى نطقين مختلفين في مرحلتين متتابعتين، ثم إن هذا الشكل يشير إلى خاصية تميز الكتابات عامة، وهي احتفاظها بمظاهر من مخلفات النطق القديم رغم زوالها من الاستعمال. فالكتابة دائماً أقل مواكبة للتطور والتغير الذي يلحق النطق، وبذلك تصدق المقولة بأن الكتابة بالنسبة للألفاظ كالمتحف بالنسبة للآثار، تقفنا في كثير من الأحيان على نطق الكلمات في عصور سابقة من خلال احتفاظها بصورة الكتابة التي تمثل ذلك النطق القديم، على نحو ما نجد هنا، وعلى نحو ما شاهدنا من رسم الألف واوآ في

(١٤٥) انظر الحكم ص ١٧٥.

(١٤٦) أدب الكتاب ص ٢٤٧. وانظر التنسي ورقة (٧١أ-٧١ب).

(١٤٧) انظر الطراز ورقة ٧١ أ.

كلمات مثل (الصلوة والزكوة) ورسم الألف ياء في مثل (سمى - رمى - يخشى - يرضى - مولى - الكبرى...).

٣ - كراهة اجتماع صورتين متفتحتين في الخط:

ومن عوامل تعدد صور هجاء بعض الكلمات المهموزة - وغير المهموزة أحياناً- ما ساء علماء الرسم والعربية بكراهة اجتماع صورتين أو أكثر متفقة في الخط، وتختص هذه الظاهرة برموز الحركات الطويلة والصوامت التي تشترك معها بتلك الرموز، وأشرنا من قبل إلى أن هذه الظاهرة ليست لمجرد التشابه فقط وإنما تمثل مرحلة في تمثيل الحركات الطويلة، إذ لو كان التشابه وحده هو السبب في ذلك الحذف لوجدنا آثاراً لهذه الكراهة في عدم إثبات رموز بعض الصوامت، خاصة أن الرسم العثماني يتيح فرصاً أكبر للتشابه الشكلي في رسم الحروف قبل أن يكمل بالنقط والعلامات، أما كتابة الحرف المشدد برمز واحد فإن ذلك لا يدل على سريان أثر تلك الكراهة على رموز الصوامت، لان ذلك يرجع إلى طبيعة الصوت المشدد نفسه، ورغم كل ذلك ومعها فإن ملاحظة علماء السلف تبقى صادقة كل الصدق بالنسبة لحذف أحد رمزي الحركة الطويلة والصامت الذي تشركه في الرمز، إلا بعض الكلمات التي جاءت بإثبات الرمزين معاً.

والهمزة في غير أول الكلمة يخلفها عند التخفيف صوت لين أو حركة طويلة- كما مر بيان ذلك - فإذا اقترن بالرمز الذي يمثل الصوت المتخلف عن سقوط الهمزة رمز آخر مثله سواء أكان يمثل أحد صوتي اللين: الواو أو الياء، أم يمثل حركة طويلة سري على الرمز، أثر هذه الظاهرة وحذف أحدهما، يقول أبو داود سليمان بن نجاح، أشهر تلامذة الداني وأجلهم: إن الهمزة المفتوحة لا ترسم إذا وقع بعدها ألف، ولا المكسورة إذا وقع بعدها ياء ولا المضمومة إذا وقع بعدها واو لثلاثا يجتمع في الكتابة ألفان وياءان وواوان^(١٤٨). وكذلك إذا

(١٤٨) انظر التنزيل لوحة ٥ والمارغني ص ٢٣٧.

وقعت الهمزة المفتوحة بعد ألف والمكسورة بعد ياء والمضمومة بعد واو، كراهة
توالى صورتين متفتحتين في الرسم^(١٤٩).

ومع اطراد أثر هذه الصورة فإن بعض الكلمات جاءت مرسومة بإثبات
الرمزين معاً مثل (هبي، يهبي، السبي) فإنها رسمت بياءين^(١٥٠)، ويذكر الداني
انه وجد في مصاحف أهل المدينة والعراق وفي غيرها (سيئة والسيئة) حيث
وقعتا و(سيئا) (١٠٢/٩) مرسومة بياءين، لكنه يشير إلى انه وجد جمع (سيئة)
من مثل (السيئات - سيئات - سيئاتكم - سيئاتهم - سيئاته) مرسوماً بياء واحدة
في جميع القرآن^(١٥١)، وليس بين المفرد والجمع من فرق في اللفظ سوى أن الفتحة
التي تلي الهمزة قصيرة في المفرد وطويلة في الجمع، ولكن قد رسم الجمع في
مصحفي طشقند وجامع عمرو بياءين مثل المفرد إلا أن الألف التي هي رمز
الفتحة الطويلة في الجمع قد جاءت محذوفة في الغالب، ففي مصحف طشقند
رسمت كلمة (السيئات) في النحل (٤٥/١٦) والشورى (٢٥/٤٢) بياءين، لكن
الألف جاءت محذوفة في الموضع الأول (السييت) وثابتة في الثاني (السييات). وفي
مصحف جامع عمرو رسمت كذلك بياءين في العنكبوت (٤/٢٩) ﴿السِّيِّتِ﴾
وفي الزمر (٥٠/٣٩) مرتين ﴿سِّيِّتِ﴾ وفي الشورى (٢٥/٤٢) ﴿السِّيِّتِ﴾ وفي
الفتح (٥/٤٨) ﴿سِّيِّتِهِمْ﴾ إلا أنا نجد المصحفين يقدمان صورة هجاء المفرد
بطريقة معكوسة، فقد رسم بياء واحدة، في مصحف طشقند في ﴿سِّيِّتَةَ﴾ البقرة
(٨١/٢) وآل عمران (١٢/٣) و﴿بِالسِّيِّتَةِ﴾ (الأنعام ١٦٠/٦) ونجد في مصحف
جامع عمرو نفس الظاهرة في يونس (٢٧/١٠) ﴿سِّيِّتَةَ﴾. ونجد أغرب صورة
هجائية يقدمها مصحف طشقند هي صورة هجاء كلمة (كهية) في آل عمران
(٤٩/٣) إذ إنها جاءت مرسومة بياءين (كهية).

(١٤٩) انظر الداني: المحكم ص ١٧٢. والشيرازي لوحة ٢٠.

(١٥٠) الداني: المقنع ص ٥٢.

(١٥١) انظر: المقنع ص ٥٠ والمارغني ص ٢٣٨ و٢٤١.

ويبدو أن رمز الألف أكثر استجابة لهذه الكراهة، سواء كان رمزاً للهمزة أم للفتحة الطويلة، فمهما اجتمع من الألفات في كلمة فلا يرسم إلا رمز واحد، فكل ما كان من الاستفهام وفي أوله ألفان أو ثلاث فإن الرسم ورد بإثبات ألف واحدة كراهة اجتماع صورتين متفتحتين فصاعداً، فمما فيه ألفان (ءأنذرتهم - ءأشفقتم) وما فيه ثلاث ألفات فنحو (ءءالمهتنا خير) (٥٨/٤٣). ونجد الظاهرة في غير الاستفهام أيضاً، فإذا اجتمعت في أول الكلمة همزة بعدها فتحة طويلة رسمت ألفاً واحدة، نحو (ءادم - ءازر - ءاخر - ءامن - ءاسن) وشبه ذلك^(١٥٢). وهذه الظاهرة لا تقتصر على أول الكلمة بل متى ما كان هناك ما يحتم إثبات ألفين لا تثبت إلا ألف واحدة، رغم أن ذلك في أول الكلمة أكثر لأن الهمزة لا تحقق عند أهل الحجاز إلا في أول الكلمة حيث تكثر أمثلة اجتماعها مع الفتحة الطويلة.

٤ - عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة أحياناً:

هناك ظاهرة تتعلق برسم الهمزة المتوسطة التي تؤول في التخفيف إلى فتحة طويلة خاصة، فقد أشرنا من قبل إلى أن رمز الفتحة الطويلة يكثر عدم إثباته في وسط الكلمة، وكذلك الهمزة التي تؤول في التخفيف إلى فتحة طويلة يتعرض رمزها إلى الحذف في مواضع كثيرة، ومن ثم فإن هذه الظاهرة تعد من عوامل تعدد رسم الهمزة بل رسم ما تؤول إليه في حالة التخفيف، وقد مرت بعض أمثلة هذه الظاهرة من قبل من مثل رسم (يستأخرون) (٣٤/٧) بالألف و(يستخرون) بغير ألف، وأغلب ما يجيء الحذف في الكلمات التي استطال هجاؤها بالزوائد مثل: (استذُك - فليستذُنوا - يستذُنك - يستذُنوه - استجره - استجرت - فادُرُتم).

(١٥٢) انظر المهدي ص ١١٥. والداني المقنع ص ٢٤. والحكم (له) ١٥٦، والعقيلي لوحة ٣.

وقد اختلف في إثبات وحذف الألف في بعض الأمثلة من مثل (اطمنوا - اشمرت - امتلت - اطمنتم)، فقد روي أنها في بعض المصاحف بألف وفي بعضها بغير ألف (١٥٣).

ونجد هذه الظاهرة في بعض المصاحف المخطوطة القديمة، فبينما نجد الألف في المصحف المطبوع محذوفة من ﴿يَسْتَخِرُونَ﴾ في النحل (٦١/١٦) ويونس (٤٩/١٠) نجد الموضع الأول بالألف ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ في مصحف طشقند، والثاني كذلك في مصحف جامع عمرو بن العاص، ونجد فيه أيضاً ﴿أَنْشَأْنَا﴾ في الأنبياء (١١/٢١) و﴿فَأَنْشَأْنَا﴾ في المؤمنين (١٩/٢٣) مرسومتين بغير ألف.

وإذا كانت الهمزة مفتوحة فتحة طويلة وقبلها ساكن فإنها تخفف حينئذ بإسقاطها فتتصل فتحة الهمزة الطويلة بالحرف الساكن قبلها، وقد يتعرض رمز هذه الفتحة وهو الألف إلى الحذف كما نجد ذلك في كلمة (قرءان) فقد جاءت مرسومة بإثبات الألف (قران) إلا في موضعين سقطت منها^(١٥٤)، الأول في يوسف (٢/١٢) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، والثاني في الزخرف (٣/٤٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وهذه الملاحظة تفسر لنا ظاهرة أخرى فقد جاءت كلمة (الان) مرسومة بحذف الألف واتصال اللام بالنون هكذا (الن) في كل القرآن إلا موضعاً واحداً^(١٥٥) جاء على الأصل وذلك في سورة الجن (٩/٧٢)، ﴿فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ﴾، فالهمزة في هذه الكلمة وقع قبلها حرف ساكن، وهو اللام، وبعدها فتحة طويلة، ولما كان تخفيف الهمزة في مثل هذه الحالة يتم بأن تسقط وتظل الفتحة الطويلة التي بعدها ثابتة في اللفظ وصار رمز الألف يمثل الفتحة الطويلة - سوغ ذلك إسقاطه مثل ما سقط في أمثلة أخرى كثيرة.

(١٥٣) انظر الداني: المقنع ص (٢٥-٢٦). والمارغني ص (٢٣٥-٢٣٦).

(١٥٤) الداني: المقنع ص ١٩.

(١٥٥) الداني: المقنع ص (١٨-١٩).

٥ - الاختلاف في كيفية تخفيف الهمزة:

ومن العوامل التي ساهمت في تعدد صور هجاء بعض الكلمات المهموزة أو مجيء بعضها مرسوماً بطريقة متميزة الاختلاف في طريقة تخفيف الهمزة وانعكاس ذلك على هجاء الكلمة، فقد اتفق أئمة الرسم - مثلاً - على إثبات ألف بعد الشين في ﴿النشأة﴾، في العنكبوت (٢٠/٢٩) والنجم (٤٧/٥٣) والواقعة (٦٢/٥٦) ^(١٥٦). واختلفت رواية القراء في كيفية قراءتها، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعدها، والباقون بإسكان الشين من غير ألف ^(١٥٧)، وقياس تخفيف الهمزة المتحركة بعد ساكن في مثل (النشأة) أن تسقط من اللفظ، ومن ثم فإنه كان من المتوقع أن تجيء هذه الكلمة مرسومة بدون ألف (النشة) مثل (المشمة)، لكنها جاءت كما ذكرنا بإثبات الألف، ولذلك فقد اختلف العلماء في أصل رسم هذه الكلمة بإثبات الألف، فمنهم من يذهب إلى أنها رسمت على قراءة من فتح الشين وأثبت بعدها فتحة طويلة، وهي - إلى جانب كونها قراءة مروية - لغة حكاها سيويوه عن العرب في مثل المرأة والكفاة ^(١٥٨)، ومنهم من يذهب إلى أن الهمزة صورت بالألف على الأصل في رمز الهمزة ^(١٥٩)، أي أنها ربما تكون أثراً قديماً لرمز الهمزة كالذي رأيناه في مثل (السواى).

ومن أمثلة أثر هذا العامل في مجيء هجاءات بعض الكلمات المهموزة بطريقة متميزة كلمة (بيأس). فقد جاء هذا الفعل والمزيد منه في خمسة مواضع. في يوسف (٨٠/١٢) ﴿اسْتَيْسُوا﴾، وفيها (آية ٨٧) ﴿وَلَا تَأْيِسُوا... إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ﴾، وفيها أيضاً (آية ١١) ﴿اسْتَيْس﴾، وفي الرعد (٣١/١٣) ﴿أَقْلَمُ﴾

(١٥٦) المهدي: ص ٩٣ والداني: المقنع ص ٤٣.

(١٥٧) الداني: التيسير ص ١٧٣ والديماطي: ص ٣٤٥.

(١٥٨) وانظر ابن سيده ج ١٤ ص ١٣. وابن يعيش: ج ٩ ص ١١١.

(١٥٩) الداني: المحكم ص ١٥٠، والمقنع (له): ص ٤٣. وانظر أيضاً الجعبري: ورقة ٢٣٥ ب

يَإيسُ. وقد رسمت ألفاً في (تايَسوا وَيَإيسُ وَيَإيس) دون رسمها في «استيسوا واستيس»^(١٦٠)، وتقع الهمزة في قراءة التحقيق لهذه الكلمات مفتوحة بعد ياء ساكنة فيكون قياس تخفيفها مثل تخفيف (هيئة وسوء)، اما بسقوط الهمزة وإلقاء حركتها فحسب أو أن تسقط ويخلفها صوت لين يدغم فيما قبل الهمزة فيكون قياس رسمها في كلتا الحالتين أن تسقط دون أن يظهر لتخفيفها أثر في الرسم، ومن ثم فإن إثبات الألف في هذه الكلمات قبل الياء يبدو لأول وهلة أمراً غير مفهوم، حتى أن بعض علماء السلف ذهب إلى أن الألف زائدة^(١٦١)، وذهب آخرون في توجيه إثبات الألف في رسم تلك الكلمات إلى أنه قلب، فقدمت الهمزة على الياء فصار (يَإيس) وخفت الهمزة وأبدلت ألفاً، فليست هي بزائدة^(١٦٢).

إن تأمل كيفية تخفيف هذه الكلمات في القراءة المروية عن الأئمة يضع أيدينا على أصل إثبات الألف في هجاء تلك الكلمات، فقد قرأ ابن كثير، من رواية البزي من طريق أبي ربيعة خاصة، بالألف وفتح الياء من غير همز في الخمسة المواضع، والباقيون بالهمزة وإسكان الياء من غير ألف في اللفظ^(١٦٣). لا بل إن ابن خالويه نسب هذه القراءة إلى أهل مكة عامة^(١٦٤)، فليس بعيداً - إذن - أن تكون هذه الكلمات قد جرى رسمها على هذه القراءة^(١٦٥).

(١٦٠) ابن ابي داود ص ١٠٨، والمهدوي ص ٦٦، والداني: المقنع ص (٨٥-٨٦)،
والحكم (له) ص ١٧٤.

(١٦١) الداني: الحكم ص ١٧٤.

(١٦٢) المهدوي ص ٩٦.

(١٦٣) ابن مجاهد ص ٣٥٠ والداني: التيسير ص ١٣٠ والدمياطي ص ٥٨.

(١٦٤) ابن خالويه: المختصر ص ٩٥.

(١٦٥) الجعبري ورقة ١١٤ ب والتنسي ورقة ٧٢ أ وانظر ابن يemiş ج ١٠ ص ٦٣.
حيث يذكر أن قوماً من أهل الحجاز حملهم طلب التخفيف على أن قلبوا أحرف
العلة في مضارع اقلع الفاء، واوَأ كانت أو ياء، وإن كانت ساكنة، فقالوا: =

ولا يعترض على هذا التفسير بحذف الألف من (استيسوا واستيس) لأن الكلمتين قد استطالنا بدخول الزوائد عليها وسوغ ذلك عدم إثبات الألف في هجائها بينما هي في اللفظ ثابتة عند من قرأ بالتخفيف، علماً أنها قد رسمتا في بعض المصاحف بالألف مثل بقية أمثلة الظاهرة^(١٦٦).

ومن أمثلة هذه الظاهرة كلمة (الراء يا وراءياك وراءي) فقد جاءت مرسومة بالياء في جميع القرآن^(١٦٧)، لكن قياس تخفيف الهمزة الساكنة أن تسقط وتطال الحركة القصيرة التي قبلها فتصير حركة طويلة، فكان قياس رسم كلمة (راءيا) لذلك بالواو هكذا (رويا) مثل (البوس والسول) لأن الهمزة تصير في التخفيف ضمة طويلة، لكنها - مع ذلك - جاءت في المصحف مرسومة بدون الواو، وذلك لأنه لما ترك الهمز وجاءت ضمة طويلة بعدها ياء تحولتا ياء مشددة^(١٦٨)، وقد وردت القراءة في هذه الكلمات عن أبي جعفر بالادغام وضم الراء (الراءيا)^(١٦٩)، وروى الفراء أن الكسائي زعم أنه سمع أعرابياً يقول (إن كنتم للراءيا تعبرون)^(١٧٠). ومن ذلك أيضاً كلمة ﴿مَوْئِلاً﴾ في الكهف (٥٨/١٨) جاءت مرسومة بالياء بعد الواو^(١٧١)، وقياس تخفيفها أن تسقط فتتصل حركتها وهي الكسرة بالواو، فكان من المتوقع بناء على ذلك أن ترسم هكذا (مولا). ولكن اقتران الكسرة بالواو والحرص على أن تأتي الكلمة وهي مخففة بوزنها وهي

= يا تعد يا ترن، وكذلك منهم من قال في يباس يابس وفي يوجل يا جل، فهي إذن لغة محكية عن العرب كما كانت قراءة مروية عن القراء.

(١٦٦) انظر المارغني ص ٢٤٨.

(١٦٧) المهدي ص ١١٠ والداني: المقنع ص ٣٦.

(١٦٨) الفراء: معاني القرآن ج ٢ ص ٣٥.

(١٦٩) انظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ١٣٨.

(١٧٠) الفراء: معاني القرآن ج ٢ ص ٣٦.

(١٧١) الداني: المقنع ص ٤٣.

محقة قد دفع إلى أن يكون تخفيف هذه الهمزة بأن تسقط وتحل محلها ياء مكسورة. ومن ثم رسمت بالياء بعد الواو.

رابعاً: بعض الظواهر الهجائية المتعلقة بالهمزة:

تلك هي أهم العوامل التي ساعدت على تعدد صور هجاء بعض الكلمات المهموزة وعلى مجيء بعضها مرسوماً بطريقة متميزة، وإلى جانب ذلك هناك جملة ظواهر تتعلق بكلمات معينة أو مجموعة من الكلمات لا تكاد تندرج في باب من الأبواب السابقة لرسم الهمزة، وتظل تنتظر ما يمكن أن تكشفه البحوث في المستقبل لعلها تجد في ضوء ذلك التفسير الصحيح الذي يضمها في موقع محدد من تاريخ الهمزة ورسمها.

(١) فمن ذلك ما روي من أن كلمة (شيء) كتبت بألف في الكهف (٢٣/١٨) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ﴾ (١٧٢) ولا يكاد يبين سر إثبات هذه الألف، ولا تعطي توجيهات وأقوال علماء السلف في هذه الظاهرة من مثل القول بأنها علامة فتحة الشين على ما كان في الاصطلاح الأول (١٧٣). أو القول بأنها زيدت تقوية أو للفرق (١٧٤) - تفسيراً مقبولاً أو مقنعاً، لكن ذلك لا يعني أن هذا الرسم للكلمة يحتمل أن يكون من باب الخطأ. فبالرغم من أن هذه الظاهرة لم تأت في المصحف إلا في مكان واحد، حسب رواية أئمة الرسم، ولكن نجد أن ذلك الهجاء للكلمة يكاد أن يكون رسماً شائعاً لها في القرن الأول. حسب ما تدل عليه النصوص والروايات، فقد حكى محمد بن عيسى الأصبهاني انه رأى رسم هذه الكلمة في مصحف عبد الله بن مسعود بالألف (شاي) في كل القرآن (١٧٥). ونجد

(١٧٢) الداني: المقنع ص ٤٢، والمارغني ص ٢٤٥.

(١٧٣) الجعبري ورقة ١٩٦/أ

(١٧٤) التنسي ورقة ٧٢ ب.

(١٧٥) انظر الداني: المقنع ص ٤٢. والمحكم ص ١٧٤.

رسم هذه الكلمة قد جاء كذلك بالألف في مصحف طشقند في أحد عشر موضعاً^(١٧٦). ليس ذلك فحسب بل أن برديات القرن الهجري الأول قد برزت فيها هذه الظاهرة ففي بردية مؤرخة بسنة (٥٩١هـ) جاءت كلمة (شيء) مرسومة بالألف (شاي) في موضعين^(١٧٧)، وكل ذلك يدل على أن هذا الشكل الهجائي للكلمة كان شائعاً على أيدي الكتاب وأن ما ورد من ذلك في الرسم العثماني ليس إلا تعبيراً عن اتجاه واقعي في رسم هذه الكلمة، وإذا كان البحث غير قادر - الآن - على تقديم تفسير لإثبات الألف في هذه الكلمة^(١٧٨)، فيكفي أن نقرر ذلك بصدد هذه الظاهرة.

(٢) ومثل زيادة الألف في (شيء) إثبات الألف في الفعل المبني للمجهول من (جاء)، فيذكر الداني أنه رأى في مصاحف بلدهم القديمة (يقصد بلاد الأندلس) المتبع في رسمها مصاحف أهل المدينة (وجاء بالنبيين) في الزمر (٦٩/٣٩)، و(جاء يومئذ مجهم) في والفجر (٢٣/٨٩)، بألف زائدة بين الجيم والياء^(١٧٩). وكذلك يبدو هجاء الفعل (جاء) نفسه غريباً حسب رواية الكسائي وأبي حاتم، فقد قال الكسائي انه رأى في مصحف أبي بن كعب، وأبو حاتم أنه وجد في مصحف أهل مكة (جاء) مرسوماً (جياً) و(جاءتهم) مرسوماً (جياتهم)، ويقول الداني أنها كسبتا على الأصل^(١٨٠). وإذا كان رسم الكلمة الأولى (جاء) من غير

(١٧٦) في (٤/٤)، ٣٨/٦ و ٩١ و ٩٣، ٥٧/١١ و ١٠١ و ٣٥/١٦ و ٧٥ و ٨٩،
(٥٠/٢٠، ٧٠/١٨).

(١٧٧) انظر د. عبد العزيز الدالي ص ١٩٣.

(١٧٨) لاحظنا من قبل أن تخفيف الهمزة المتحركة بعد الياء الساكنة في (بيأس) قد كان بإثبات الف قبل الياء (يايس) فهل نستطيع أن نعمل إثبات الألف في (شاي) بالقول إنها خفت مثل تخفيف (بيأس) بإثبات فتحة طويلة قبل الياء (شاي)، رغم أني لم أعر على رواية تشير الى أن الكلمة قد خفت هذا التخفيف!؟

(١٧٩) المحكم ص ١٧٤.

(١٨٠) المقنع ص ٦٦ وانظر المهدي ص ٨٩.

اليسير تبيان أصله فإن رسم الثانية (جياً) يبدو التعليل بكتابته على الأصل - كما يقول الداني - أكثر احتمالاً، ولكن على أساس أنه كان ينطق في مرحلة سابقة قديمة هكذا (جياً) على وزن فعل. وإن هذه الصورة تمثل ذلك النطق القديم، لا على أساس أن الذين رسموا هذا الشكل كانوا ينطقونه (جاء) ورسموه (جياً)، وليس ظهور هذا الشكل في مصاحف أهل مكة يقوم دليلاً على أنهم كانوا ينطقونه كذلك في عصر نسخ المصاحف وأن الكتابة تأثروا في رسمه بذلك النطق، بل إن صورة هذا الهجاء - إن صح التفسير - ترجع إلى سنين بعيدة قبل الاسلام.

(٣) ومن الظواهر التي تثير الانتباه في رسم الهمزة في الرسم العثماني ما روي من حذف رمز ما تؤول إليه الهمزة المتوسطة بعد فتحة طويلة سواء كان واواً أم ياء مع حذف رمز الألف التي تمثل الفتحة الطويلة قبل الهمزة في بعض المصاحف، فقد روي أن ذلك وقع في كلمة (أولياء) في خسة مواضع: في البقرة (٢٥٧/٢) ﴿أُولِيَهُمُ الطَّغُوتُ﴾، والانعام (١٢٨/٦) ﴿وَقَالَ أُولِيَهُمْ﴾، وفيها أيضاً (آية ١٢١) ﴿إِلَى أُولِيَهُمْ﴾، وفي الأحزاب (٦/٣٣) ﴿إِلَى أُولِيكُمْ﴾، وفصلت (٣١/٤١) ﴿نَحْنُ أُولِيكُمْ﴾^(١٨١). فقد رسمت في هذه المواضع بغير واو ولا ياء ولا ألف. وكذلك روي أن ذلك وقع في كلمة ﴿جَزَاؤُهُ﴾ في يوسف (٧٥ و ٧٤/١٢) ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَذِبِينَ. قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ حيث رسمت (جزاه) بحذف الواو في الثلاثة^(١٨٢).

وقد علل الداني لهذه الظاهرة بقوله^(١٨٣): «فأما حذف الألف فلكونها متوسطة زائدة إذ هي للبناء لا غير، واما حذف صورة الهمزة فلكون الهمزة

(١٨١) الداني: المقنع ص ٣٧ والمحكم ص ١٨٤ وانظر ابن وثيق الأندلسي لوحة ١٤، والمارغني ص ٢٢٠.

(١٨٢) المقنع ص ٣٧ وابن وثيق الأندلسي لوحة ١٤، والمارغني ص ٢٢٠.

(١٨٣) المحكم ص ١٨٤.

حرفاً قائماً بنفسه لا يحتاج إلى صورة». ويقول^(١٨٤): «والمراد بحذف صورة الهمزة في ذلك ونظائره تحقيقها لاستغنائها في تلك الحالة عن الصورة، ولعدم الحرف يخفف عليه رسماً»، وتعليل الداني يقوم - كما يبدو - على مذهبه في أصل رمز الهمزة، وذلك من حيث كانت الهمزة - عنده - حرفاً من حروف المعجم «فكما تلزم الحروف غيرها موضعاً واحداً من السطر، كذلك ينبغي أن تلزم الهمزة أيضاً موضعاً واحداً، وأن تجعل لها في الكتابة صورة»^(١٨٥). لكن لما لم يكن للهمزة رمز خاص بها في الكتابة - عندهم - جعلت رموز الحركات الطويلة صورة لها لا على أنها - حقيقة - رمز للهمزة بل على أنها مجرد (صورة). «والحرف مستغن عن الصورة»^(١٨٦). وعليه فإن الهمزة حين تحقق فالقياس ألا تصور بشيء «لاستغنائها في تلك الحالة عن الصورة». ويقول الداني عن حذف صورة الهمزة أيضاً^(١٨٧) «أما حذف صورة الهمزة فلاستغناء الهمزة عن الصورة من حيث كانت حرفاً قائماً بنفسه كسائر الحروف».

وإذا كان تفسير حذف الألف في هذه الظاهرة مقبولاً في تعليل الداني، فإن تعليله لحذف رمز الهمزة أو صورة الهمزة قد قام ابتداءً على أساس مخطوء، هو أن الهمزة لا رمز لها وأنها صورت برموز الحركات الطويلة على سبيل الاستعارة، إشارة إلى جواز التحقيق والتخفيف فيها، وذلك لأن للهمزة - في الأصل - رمزاً واحداً يستعمل لتمثيلها في الكتابة على أية صورة وقعت في الكلمة، في لغة أهل التحقيق خاصة، وهو الألف، وأن الامثلة التي بدت فيها الهمزة مرسومة بالواو أو الياء إنما رسمت كذلك على لغة أهل التخفيف الذين تصير الهمزة في كلامهم حركة طويلة أو صوت لين، فيجري تصويرها برموز هذه الأصوات لا

(١٨٤) المقنع ص ٣٧.

(١٨٥) المحكم ص ١٠٩.

(١٨٦) الداني: المحكم ص ١٨١.

(١٨٧) نفس المصدر ص ١٨٢.

على أنها صورة للهمزة بل على أنها رموز تشير إلى الأصوات التي تمثلها هذه الرموز، كما مر بيان ذلك مفصلاً في أول البحث.

وبذلك تظل هذه الأمثلة تثير تساؤلاً مستمراً عن سر حذف رمز ما تخفف إليه الهمزة فيها، وقد جاءت في بعض المصاحف المخطوطة أمثلة أخرى تؤكد أن هذا الحذف لم يكن نادراً أو محصوراً في أمثلة بأعيانها، ففي مصحف طشقند نجد حرف سورة البقرة (٢/٢٥٧) مرسوماً هكذا ﴿أُولِيَاهُمْ﴾، ونجد ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ في آل عمران في موضعين (٣/٨٧ و١٣٦) رسمت بحذف الواو ﴿جَزَاهُمْ﴾، وكذلك ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ في النساء (٤/٩٣) رسمت (جزاه)، ونجد فيه حرف فصلت (٤١/٣١) مرسوماً أيضاً كما وصفنا بحذف الواو والألف ﴿أُولِيكُمْ﴾، ونجد في مصحف جامع عمرو حرف الأحزاب (٣٣/٦) مرسوماً كما وصفنا ﴿أُولِيكُمْ﴾.

والملاحظ في هذه الأمثلة الأخيرة أن بعضاً منها قد احتفظ بالألف ولم يحذف منها إلا الواو والبعض الآخر حذف منه رمز الألف مع الواو أو الياء، وسبق أن أشرنا إلى أن حذف رمز الفتحة الطويلة المتوسطة يعد أمراً شائعاً في تلك الفترة خاصة إذا استطالت الكلمة باتصال الزوائد بها، لكن مجيء بعض الأمثلة بإثبات الألف وحدها هكذا (أولياهم - جزاه) يثير تفسيراً محتملاً لهذه الظاهرة. ذلك هو احتمال أن هذه الكلمات كتبت على لغة من ينطق بالمهموز مقصوراً^(١٨٨). بحيث يصير آخر الكلمة فتحة طويلة في كافة حالات الاعراب، ومن ثم فإن بعض هذه الأمثلة جاء مرسوماً بإثبات الألف والبعض الآخر جاء بحذفها وهي في اللفظ ثابتة.

ولا يمنع عدم مجيء الرواية بقراءة هذه الكلمات بالذات بالقصر - على

(١٨٨) قال ابن عقيل: «لا خلاف بين البصريين والكوفيين في جواز قصر المددود للضرورة، واختلفوا في جواز مد المقصور». (انظر حاشية الحضري على شرح ابن عقيل ط ٦ ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٩ م. المطبعة الأزهرية بمصر ج ٢ ص ١٥٢). وانظر أيضاً: د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ١٨٥.

حسب ما أعرف - من أن يكون ذلك شائعاً في ألسنة جماعات من أهل الحجاز، ومن ثم شاع رسم هذه الكلمات على لغتهم قبل استعمال الكتابة العربية لتدوين الوحي الكريم، وحين جاء الكتاب يكتبون المصاحف استعملوا تلك الصور المعروفة للكلمات بغض النظر عن تغير نطقها.

ومما يؤيد ما تقدم - إلى جانب كونه لغة لبعض العرب - أن قصر المدود قد جاء في بعض القراءات - في أمثلة مشابهة - يقول الفراء^(١٨٩): « وقوله ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ (يوسف ٣٨/١٢) تهمز وتثبت فيها الياء. وأصحابنا يروون عن الأعمش ﴿مِلَّةَ آبَائِي﴾ و﴿دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (نوح ٦/٧١) بنصب الياء، لأنه يترك الهمزة، ويقصر المدود، فيصير بمنزلة محياي وهداي. وكذلك روي أن الأعمش قرأ ﴿شُرَكَائِي﴾ (النحل ٢٧/١٦) بنفس الطريقة^(١٩٠). فليس بعيداً - إذن - أن يكون ما ذكرناه في تفسير هذه الظاهرة صواباً.

خامساً: همزة الوصل في الرسم العثماني:

ومما يتعلق بموضوع الهمزة - صوتاً وكتابة - ما سماه علماء السلف (همزة الوصل) التي تأتي في أول بعض الكلمات، وذلك أن اللسان - في العربية - لا يبتدىء بساكن، وأن الحرف الذي يبدأ به لا يكون إلا متحركاً، وقد جاءت ألفاظ بنيت أوائلها على السكون من الاسماء والأفعال، فإذا أرادت العرب الابتداء بساكن زادت في أوله همزة متحركة^(١٩١)، أما الكلمات التي تزداد في أولها همزة الوصل فقد زيدت في الاسماء والأفعال، وحرف واحد. على النحو الذي يبينه ابن جني^(١٩٢):

(١٨٩) معاني القرآن ج ٢ ص (٤٥-٤٦)

(١٩٠) د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ١٨٥.

(١٩١) المبرد ج ١ ص ٣٢. وابن جني: الخصائص ج ٢ ص ٣٢٨ وابن يعيش ج ٩ ص ١٣١.

(١٩٢) سر صناعة الاعراب ج ١ ص (١٢٦-١٣٠) وانظر أيضاً: المبرد ج ٢ ص (٨٨-٩٤).

تزداد في الفعل في موضعين: أحدهما الماضي، فإذا تجاوزت عدته أربعة أحرف وأولها الهمزة فهي همزة وصل، وذلك نحو: اقتدر، انطلق، استخرج، احمر، اصفاراً. والموضع الآخر: مثال الامر من كل فعل انفتح فيه حرف المضارعة، وسكن ما بعده. وذلك نحو: يضرب - يقتل - ينطلق، يقتدر، فإذا أخذ الأمر منه قيل: اضرب، انطلق. اقتدر.

وأما زيادتها في الاسماء فعلى ضربين: أحدهما أسماء هي مصادر، والآخر أسماء غير مصادر. فأما الاسماء المصادر فكل مصدر كانت في أول فعله الماضي همزة وصل ووقعت في أوله هو أيضاً همزة وصل، وذلك نحو اقتدر اقتداراً واشتغل اشتغالاً. واستخرج استخراجاً.

وأما الاسماء التي فيها همزة الوصل من غير المصادر فهي عشرة أسماء هي: ابن - ابنة - امرؤ - امرأة - اثنان - اثنتان - اسم - است - ابنم - بمعنى ابن - ايمن في القسم.

وأما الحرف الذي زيدت فيه همزة الوصل، فلام التعريف، وذلك نحو الغلام والجارية والقائم والقاعد^(١٩٣).

ولكن ما طبيعة هذه الهمزة من الناحية الصوتية؟ يقول الخليل: والألف التي في (اسحنكك واقشعر واسبكر) ليست من أصل البناء، وإنما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عماداً وسلباً للسان إلى حرف البناء، لأن حرف اللسان حين ينطلق بنطق الساكن من الحروف يحتاج إلى ألف الوصل^(١٩٤).

ويلاحظ على قول الخليل إنه استعمل اصطلاح (ألف الوصل) كذلك

(١٩٣) يذهب بعض الباحثين الى أن أصل الهمزة في (أل) همزة قطع، (انظر: برجشتراسر ص ٢٩ وجان كاتينوس ١٨٥ ود. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ١ ص ١٦٨-١٧٣) غير أنها عوملت معاملة همزة الوصل بمرور الزمن.

(١٩٤) كتاب العين ج ١ ص ٥٤.

استعمل سيبويه نفس الاصطلاح وهو يتحدث عما تسكن أوائله من الأفعال المزيده بقوله: «أما النون فتلحق أولاً ساكنة فتلزمها ألف الوصل في الابتداء، فيكون الحرف على انفعال ينفع»^(١٩٥). أما المبرد فنجده يستخدم نفس الاصطلاح إلا أنه يصرح أن الألف إنما هي همزة، يقول^(١٩٦): «وأما ألف الوصل فإنما هي همزة، كان الكلام بعدها لا يصلح ابتداءؤه. لأن أوله ساكن، ولا يقدر على إبتداء الساكن، فزيدت هذه الهمزة ليوصل بها إلى الكلام بما بعدها، فإن كان قبلها كلام سقطت لأن الذي قبلها معتمد للساكن مغني، فلا وجه لدخولها، وكذلك إذا تحرك الحرف الذي بعدها لعله توجب ذلك سقطت الألف للاستغناء عنها بتحريك ما بعدها، لأن ابتداءه ممكن فإنما تدخل في الكلام للضرورة إليها».

وقد سبق أن ذكرنا أن أصل اسم مصطلح صوت (الهمزة) إنما هو (الألف)، وأشرنا إلى حدائفة استخدام مصطلح (الهمزة) للدلالة على صوت الألف القديمة، فأطلاق الخليل وسيبويه والمبرد على همزة الوصل مصطلح (ألف الوصل) لا يقصد منه إلا الدلالة على أنها همزة يوضحه قول المبرد (أما ألف الوصل فإنما هي همزة). ويبدو أن اصطلاح (همزة الوصل) مستحدث ليحل محل مصطلح (ألف الوصل) كما حل مصطلح الهمزة محل الألف، وقد مر قبل استخدام ابن جني لمصطلح (همزة الوصل)، ويبدو أن قول المبرد (إنما هي همزة) قد فتح الطريق إلى استخدام مصطلح (همزة الوصل) إلا أنه من غير اليسير أن نحدد هنا - تاريخاً معيناً لذلك الاستعمال^(١٩٧).

(١٩٥) الكتاب ج ٢ ص ٣٣٢.

(١٩٦) المقتضب ج ٢ ص ٨٧. وقد استخدم مصطلح (الف الوصل) في أماكن أخرى (انظر ج ١ ص ٣٢ و ٣٣ و ١٦٣).

(١٩٧) يقول ابن يعيش (ج ٩ ص ١٣٦): «وإنما سميت همزة الوصل لأنها تسقط في الدرج، فتصل ما قبلها إلى ما بعدها، ولا تقطعه عنه كما يفعل غيرها من الحروف، وقيل سميت وصلاً لأنه يتوصل بها إلى النطق بالساكن».

وما يدل على أن هذا الصوت المجتلب للتوصل الى نطق ما أوله ساكن إنما هو همزة - الى جانب نص علماء السلف على ذلك ودلالة أداء القراء عليه - أن الكتابة العربية القديمة كما يمثلها الرسم العثماني وبعض النقوش قد مثلت هذا الصوت برمز الهمزة المحققة وهو (الألف). وإنما تم ذلك بناء على ادراك الكتاب في تلك الفترة المتقدمة مجسم اللغوي - قبل أن ينظر العلماء في اللغة ويصنّفوا أصواتها - طبيعة هذا الصوت، وتيقنهم من أنه همزة فاستعملوا لذلك رمز (الألف) للدلالة عليه^(١٩٨).

ولما كانت القاعدة العامة التي انبنت عليها الكتابة العربية في الغالب هي أن تكتب الكلمة بصورة لفظها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها، فمن المتوقع أن تأتي همزة الوصل ثابتة في الرسم في كل المواضع التي زيدت فيها، لأنها لا تلفظ إلا في حالة الابتداء التي تقوم على أساسها الكتابة، ولكن سبق أن بينا أن الرسم قد يجري على الوصل كما يجري على الوقف. ولما كانت همزة الوصل تسقط عند النطق بالكلام متصلًا، لأن حركة آخر الكلمة التي تسبق همزة الوصل تقوم بدور الهمزة في التوصل الى النطق بالكلمة التي أولها ساكن، فقد حذفت من الرسم في بعض المواضع حملا للكتابة على الوصل.

ويذكر علماء الرسم أنه لا خلاف في رسم ألف الوصل الساقطة من اللفظ في الدرج إلا خمسة مواضع فإنها حذفت منها في كل المصاحف، والمواضع الخمسة هي^(١٩٩):

١ - حذفت بعد الباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ إذا كان مضافا للفظة ﴿اللَّهُ﴾ خاصة

(١٩٨) يشك الدكتور كمال محمد بشر (انظر دراسات في علم اللغة ق ١ ص ١٤٣ وما بعدها) في أن يكون المنطوق في تلك السياقات المذكورة همزة. ويرى أن ذلك نوع من التحريك الذي يسهل عملية النطق بالساكن، وأن ما يسمع من همزة أحياناً من أفواه العامة وانصاف المثقفين إنما هو تطور لذلك الصوت.

(١٩٩) المهدي ص (١١٦-١١٧)، والداني: المقنع (٢٩-٣٠)، وسليمان بن نجاح لوحة ٣ وابن وثيق الأندلسي لوحة ٢. والعقيلي لوحة ٣.

- حيث وقع دون ما أضيف الى غيره من مثل ﴿يَأْسِمُ رَبَّكَ﴾ وشبهه، فالألف فيه مثبتة في الرسم بلا خلاف.
- ٢ - حذفت أيضاً إذا كانت مع لام التعريف، ودخل على الكلمة لام أخرى واتصلت بها في الخط نحو: لله، للدار، للذي وشبه ذلك.
- ٣ - حذفت كذلك بعد الفاء والواو من فعل الأمر من السؤال نحو: وسلوا - فسل.

- ٤ - وبعد الواو والفاء في الأمر الذي فاؤه همزة نحو (وأتوا - فأتوا) وشبه ذلك، فان وليها ثم أو غيرها مما ينفصل من الكلام ويمكن السكوت عليه أثبتت بلا خلاف، وذلك في نحو (ثم اتتوا - قال اتتوا) وما كان مثله.
- ٥ - بعد همزة الاستفهام إذا كانت همزة الوصل مكسورة نحو اصطفى واتخذتم، فان كانت مفتوحة نحو (ءالله وءالذكرين) فقوم يذهبون الى أن المرسومة هي ألف الاستفهام، وذهب آخرون الى أن ألف الوصل هي المرسومة.

ولم تحذف ألف الوصل في الرسم العثماني من كلمة (ابن) صفة كانت أو خبراً. فقد أجمع كتاب المصاحف على إثبات ألف الوصل في قوله سبحانه ﴿عيسى ابن مريم﴾ و ﴿المسيح ابن مريم﴾ حيث وقعا، وهو نعمت، كما أثبتوها في الخبر في قوله (التوبة ٣٠/٩) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (٢٠٠).

إن حذف ألف الوصل في المواضع الخمسة السابقة إنما هو استجابة للنطق فرسمت الكلمة على مراد الوصل، لكن الملاحظ في أمثلة الحالة الثالثة، وهي ما كان فعلاً للأمر من السؤال، ان همزة الوصل ساقطة من الكلمة في الوصل

(٢٠٠) انظر المصادر السابقة، وقد جاءت في المتبقي من مصحف محفوظ بدار الكتب المصرية برقم (١١٥ مصاحف)، والمكتوب على رق بخط كوفي كبير ومنقوط على طريقة الدؤلي كلمة (ابن) بحذف الألف في (المائدة ٧٨/٥) (وعيسى ابن مريم).

والابتداء مع اقترانها بالواو والفاء أو بدونه، لأن أول فعل الأمر (سل) ليس ساكناً فيحتاج الناطق الى شيء يتوصل به الى نطقه، فهو يشبه الأمر من (أمر وأكل) حيث يأتي بحذف همزة (مر وكل) يدل على ذلك أن الأمر المجرد من (سأل) جاء مرسوماً في المصحف كذلك في البقرة (٢ / ٢١١) ﴿سَلِّ بِنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وفي سورة القلم (٤ / ٦٨) ﴿سَلِّمْ أَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾، فكان الأولى - بناء على ذلك - عدم ذكر هذه الأمثلة من بين ما حذف منه ألف الوصل.

والأمثلة الأخرى إنما حذفت منها ألف الوصل استجابة لسقوط همزة في اللفظ، ولكن ما الذي يجعل حذف رمزها مستعملاً ومقبولاً في كلمة دون أخرى؟ يبدو أن العادة وكثرة الاستعمال قد ساهما في شيوع صور بعض الكلمات على نحو معين، فليس حذف ألف الوصل من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ دون ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وما يشبهه إلا لشيوع صورة الصيغة الأولى بالحذف دون ما عداها. فالهمزة ساقطة في لفظ كلتا الصيغتين. وهكذا قد يستجيب الكاتب لما يطرأ على لفظ الكلمة بسبب نطقها في الدرج أو بسبب اتصال بعض الحروف بها، وقد يظل متشبهاً بأصل اثبات رمز همزة الوصل حين النطق بالكلمة المبدوءة بساكن في أول الكلام.

وبناء على ذلك لا معنى للخلاف الشديد بين أئمة العربية حول إثبات أو حذف رمز همزة الوصل في (باسم) في غير صيغة ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ من مثل (باسم ربك أو باسم الرحمن). فقد قال الكسائي والأخفش: تحذف، وقال الفراء لا تحذف إلا مع باسم الله الرحمن الرحيم^(٢٠١). وقال الصولي^(٢٠٢): وأجاز الكسائي طرح الألف في قولهم باسم الخالق وباسم الرحمن، وغيره يأبى ذلك ولا يبيزه إلا في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وحده، وعلى هذا العمل وهو الصواب!

(٢٠١) ابو حيان: البحر المحيط مج ١ ص ١٦. وانظر الفراء: معاني القرآن ج ١ ص ١ وابن خالويه: اعراب ثلاثين سورة ص (٩-١٠).

(٢٠٢) أدب الكتاب ص ٣٥-٣٦.

ويبدو أن تعليل الخليل للظاهرة - كما ينقله الرازي - صحيح في شقه الأول دون الثاني فقد ذكر الفخر الرازي أن الخليل قال (٢٠٣): « وإنما حذفت الألف في قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لأنها إنما دخلت بسبب أن الابتداء بالسین الساكنة غير ممكن فلما دخلت الباء على الاسم نابت عن الألف فسقطت في الخط، وإنما لم تسقط في قوله ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ لأن الباء لا تنوب عن الألف في هذا الموضع كما في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لأنه يمكن حذف الباء من ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ مع بقاء المعنى صحيحاً، فانك لو قلت اقرأ اسم ربك صح المعنى، أما لو حذفت الباء من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لم يصح المعنى فظهر الفرق! ».

ولا يبدو التعليل بإمكانية حذف الباء في ﴿باسم ربك﴾ وبقاء المعنى صحيحاً وعدم ذلك في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ولزوم الباء فيه مقنعاً أو قائماً على أساس واضح صحيح، فليس هناك من سبب لهذه الظاهرة إلا العادة وشيوع طريقة معينة في رسم بعض الصيغ دون غيرها، فالهمزة ساقطة في اللفظ من المثاليين جميعاً، لكن الكتاب جروا في أحدهما على اللفظ بينما جروا في الثاني على الأصل في رسم الكلمة قبل اتصال الباء بها.

ويرد في مجال رسم (همزة الوصل) مثال يظهر أثر النطق بالكلام متصلاً بما بعده في إثبات رمز (همزة الوصل) وحذفه، وذلك هو رسم كلمة (الايكة) يقول الداني: وكتبوا في كل المصاحف ﴿أَصْحَبُ لَيْكَةِ﴾ في الشعراء (١٧٦/٢٦) وسورة ص (١٣/٣٨) بلام من غير ألف قبلها ولا بعدها، وكتبوا في سورة الحجر (٧٨/١٥) وسورة ق (١٤/٥٠) ﴿وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ﴾ بالألف واللام (٢٠٤).

ويبدو أن مما ساهم في تكون هذه الصورة لرسم الكلمة هو تخفيف الهمزة المفتوحة بعد اللام الساكنة، فسقطت الهمزة من اللفظ واتصلت فتحتهما القصيرة

(٢٠٣) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٥٧.

(٢٠٤) المقنع ص ٢١، وانظر الفراء: معاني القرآن ج ١ ص ٨٨ والمهدوي ص ١٠٦.

باللام، وهذا التخفيف مشهور رواه ورش عن نافع^(٢٠٥). ويقول أبو علي الفارسي: أما القاء نافع حركة الهمزة المتحركة على لام المعرفة في مثل نحو (الأرض والآخر والاسماء) وحذف صورة الهمزة فذلك قياس مستمر في الهمزة المتحركة إذا خفت، وقبلها ساكن غير الف، وسواء كان ذلك كله في كلمة واحدة، كقوله «الخبء في السموات» أو من كلمتين منفصلتين مثل قد أفلح. ومن إله، فإذا خفت الهمزة فحذفت وأقيت حركتها على لام المعرفة الساكنة كان فيها لغتان:

منهم من يحذف همزة الوصل فيقول: لَحمر.

ومنهم من لا يحذفها، وإن تحرك ما قبلها، فيقول ألحمر^(٢٠٦).

ولما كان تخفيف الهمزة وحده كافياً لأن تسقط ألف الوصل من (الأيكة) فإن إضافة كلمة (أصحاب) إليها في كل المواضع قد جعل من سقوط همزة الوصل أمراً محتماً في اللفظ، فجرى الرسم على اللفظ في إسقاط همزة الوصل وإسقاط الهمزة بعد اللام في موضعين، واحتفظت الكلمة بأصل رسمها في الموضعين الآخرين. وهذا يعني أن الكلمة تدل على معنى واحد في الأربعة المواضع، وأنها تنطق نطقاً واحداً دون التفتات إلى رسمها الذي جرى في موضعين على الأصل. وفي موضعين على اللفظ. ولكن قد قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «أصحاب لَيْكَة» في الشعراء (ص) بلام مفتوحة من غير همزة بعدها ولا ألف قبلها وفتح التاء، والباقون بالألف واللام مع الهمزة وخفض التاء. والذي في الحجر و (ق) كذلك للجميع غير أن ورشا يلتقى فيها حركة الهمزة على اللام على أصله^(٢٠٧).

والقراءة الأولى كأنها تشير إلى أن الكلمة فيها تدل على غير ما تدل عليه الكلمة في القراءة الثانية، فقيل لذلك إن (ليكة) اسم القرية و (الأيكة) اسم

(٢٠٥) انظر الداني: التيسير ص ٣٥. والديماطي ص ٥٩.

(٢٠٦) الحجة ج ١ ص ٢٩٧.

(٢٠٧) انظر ابن مجاهد ص ٤٧٣ والداني: التيسير ص ١٦٦.

البلد. فصار الفرق بينها شبيهاً بالفرق بين مكة وبكة(٢٠٨).

لكن الفراء يذهب الى أن كلمة (الأيكة) في كل القرآن تدل دلالة واحدة سواء من قرأها مفتوحة التاء أم قرأها مجرّها، فيقول في كتابه معاني القرآن(٢٠٩) « قوله ﴿الأيكة﴾ (الحجر ١٥/٧٨) قرأها الأعمش وعاصم والحسن البصري ﴿الأيكة﴾ بالهمز في كل القرآن، وقرأ أهل المدينة كذلك إلا في الشعراء وص، فإنهم جعلوها بغير الألف ولام ولم يجروها. ونرى - والله أعلم - أنها كتبت في هذين الموضعين على ترك الهمز، فسقطت الألف لتحرك اللام فينبغي أن تكون القراءة فيها بالألف واللام لأنها موضع واحد في قول الفريقين. والأيكة الغيضة » ويؤيد مذهب الفراء أن ﴿الأيكة﴾ في قراءة عبد الله جاءت بالألف واللام في كل موضع(٢١٠).

★ ★ ★ ★

تلك هي أهم الخطوط العريضة لمشكلة الهمزة في العربية عامة والرسم العثماني على وجه الخصوص، والعوامل التي أثرت في رسمها، وأسهمت في ظهور بعض الكلمات المهموزة مرسومة بأكثر من صورة هجائية أو جاءت مرسومة بطريقة متميزة الى جانب بعض الظواهر التي لم يصل البحث فيها الى تفسير قاطع لقلّة الوسائل التي تعين في الوصول الى مثل ذلك التفسير أو عدمها، فتظل لذلك تنتظر ما سوف تكشف عنه بحوث المستقبل.

وقد أتيت دراسة هجاء الهمزة على النحو السابق استناداً الى التصور العام الذي واجهنا به المشكلة وهو أن رسم الهمزة في المصحف جرى على لغة وقراءة أهل الحجاز في تسهيل الهمزة، والذي دلت عليه دلائل كثيرة فمن اجماع أقوال علماء السلف على أن تخفيف الهمزة في غير أول الكلمة كان من خصائص لغة أهل الحجاز. الى تواتر الرواية بأن أصل قراءة أهل المدينة إنما هو

(٢٠٨) الجمعري ورقة ٢٠٠ ب. وجامع الكلام (المجهول) ورقة ٢٢ أ.

(٢٠٩) ج ٢ ص ٩١.

(٢١٠) انظر ابن أبي داود ص ٦٦.

التخفيف وترك الهمزة. ثم دلالة رسم المصحف نفسه على الطريقة التي جرى عليها رسم الهمزة فيه، وقد يسر علينا خطوات هذه الدراسة تبين الاتجاهين اللذين ظهرا في الكتابة العربية لتمثيل الهمزة، الأول كتابتها بالألف في جميع أحوالها على لغة من يحققونها والثاني كتابتها - في غير أول الكلمة حيث ظلت تصور بأصل رمزها وهو الألف لأنها لا تسهل في هذا المكان - على لغة أهل التخفيف حسب ما تؤول اليه في التخفيف من واو أو ياء أو حركة طويلة.

ويبدو أن هذا المبحث الخاص بدراسة رسم الهمزة قد استغرق صفحات كثيرة بالنسبة لمواضع البحث الأخرى إلا أن طبيعة المشكلة ومحاولة مواجهتها بتفسير شامل حتم تناول الموضوع بهذا الشمول والتتبع لكل الظواهر المتعلقة بمشكلة رسم الهمزة، ومع كل هذا فان ما عرضناه هنا إنما يمثل الاتجاهات العامة والظواهر البارزة في المشكلة، ولو رحنا نتتبع كل أمثلة الظواهر المتعلقة برسم الهمزة ونحاول أن نتبين أصل صور هجائها لتضاعف عدد صفحات هذا المبحث، ولكن اقتصرنا من الأمثلة على ما يفنى ذكره عن ايراد غيره من الأمثلة التي ترجع الى ظاهرة واحدة.

وربما كان ركام شتى المذاهب المتضاربة والآراء المتباينة، في الهمزة - صوتاً وكتابة - البعيدة عن واقع المشكلة قد حتم الإفاضة في بعض الجوانب لنصل الى الرأي الصحيح في ذلك ونتيجة لسعة موضوع الهمزة وما يتعلق به من قضايا فقد أثر ذلك أحياناً على العمق في البحث لتغطية المساحة الواسعة التي تمتد اليها المشكلة.

وبالرغم من ذلك كله - ومعه - فان الوصول الى التفسير الصحيح لهذه المشكلة التي شغلت جزءاً كبيراً من جهود العلماء على مدى العصور سواء في الرسم العثماني أم في الهجاء الاملائي يعد وحده مبرراً قوياً لأن تتسع صفحات هذا المبحث من أجل الاقتراب من ذلك التفسير الذي أرجو أن تكون الصفحات السابقة قد ساهمت في التقريب منه أو في الوصول إليه.

المبحث الخامس

الكلمة من وجهة نظر الرسم

تناولنا في المباحث السابقة من هذا الفصل رموز الأصوات الصامتة والحركات الطويلة، وما يتعلق بذلك بطريقة تحليلية تعتمد على اعتبار الصوت وحدة مستقلة، لكن اعتماد ذلك المنهج إنما كان لتيسير الدراسة، اذ ليس هناك في لغة من اللغات أصوات تنطق منفصلة في الكلام، إنما الكلام سلسلة من الأصوات المتصلة، حتى ليصعب أحياناً وضع حدود فاصلة بين صوت وآخر، ولكن هل تتضمن هذه السلسلة الكلامية في لغة من اللغات اذا نظر إليها من جهة الأصوات التي تتركب منها فحسب أقساماً يحسها المتكلم أم لا؟ الواقع أنه بما لا يشك فيه أنه توجد في كل جملة أيا كانت أقسام صوتية طبيعية، بل إن هذه الأقسام عديدة الأنواع، والتقسيم الى مقاطع يعد واحداً من أظهر هذه الأقسام^(١).

واللغة العربية حين النطق بها تتميز فيها مجاميع من المقاطع، تتكون كل مجموعة من عدة مقاطع ينضم بعضها الى بعض، وينسجم بعضها مع بعض، فهي وثيقة الاتصال، وبذلك ينقسم الكلام العربي الى تلك المجاميع من المقاطع، وكل مجموعة اصطلاح عادة على تسميتها بالكلمة. فالكلمة ليست في الحقيقة الا جزءاً من الكلام، تتكون عادة من مقطع واحد أو عدة مقاطع وثيقة الاتصال بعضها

(١) انظر فندريس ص ٨٤.

ببعض ، ولا تكاد تنفصم في أثناء النطق بل تظل مميزة واضحة في السمع ، ويساعد بلا شك على تمييز تلك الجاميع معانيها المستقلة في كل لغة^(٢) .

وبناء على ذلك فإن المكان المناسب لدراسة رموز الأصوات دراسة أكثر واقعية هو عند وجودها وتتابعها في الكلمة ، ولكن إذا كان من المتفق عليه تقسيم الكلام الى مجموعات صوتية تسمى كلمات ، فإن من غير اليسير إعطاء مقياس محدد ، وتعريف جامع للكلمة ، اذ يتنوع تعريف الكلمة تبعاً لاختلاف طرق البناء الصرفي لكل لغة^(٣) ، كذلك فإن مفهوم الكلمة من وجهة نظر الكتابة قد يختلف عنه من وجهة نظر الأصوات أو الصرف أو النحو أو المعجم ، لأن الاملاء نظام لغوي قائم بذاته كالنحو والصرف والمعجم ، ولأن العرف قد وضعه بشكله المعين دون رجوع شامل الى مقتضيات الدراسات اللغوية التي ترتبط به ، حتى انك لتجد في الكتابة العربية جملة بأكملها متصلة في الرسم نحو (سنستقبلهم) وتجد كلمة واحدة يستقل كل رمز منها عن الآخر نحو (داود) و (وزارة)^(٤) .

إلا أن المشكلة ليست كامنة في اتصال رموز بعض الكلمات في مثل (سنستقبلهم) وانفصالها في مثل (داود أو وزارة) ، لأن اتصال وانفصال الحروف خاضع لنظام الكتابة العربية التي امتازت فيها ستة حروف بإمكانية كتابتها مستقلة أو متصلة بما قبلها دون إمكانية وصلها بما بعدها . وهي : الألف والذال والذال والراء والزاي والواو ، فهذه الأحرف الستة لا تتصل بما بعدها البتة ، وإن كانت في كلمة واحدة^(٥) ، ولكن المشكلة تبرز حين تأتي بضع كلمات - من وجهة نظر التعريف النحوي - متصلاً بعضها ببعض ، فالمثال السابق الذي يكون

(٢) د. ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ص (١٦٢-١٦٣) .

(٣) فندريس ص ١٢٢ . ود. تمام حسان : مناهج البحث ص ٢٢٥ . وانظر في تعريف الكلمة نفس المصدرين ص ١٢٤ ، وص (٢٢٦-٢٢٨) على التوالي .

(٤) د. تمام حسان : مناهج البحث ص ٢٣٢ .

(٥) ابن درستويه ص ٢٢ ، والداني : المحكم ص ٢٨ .

جملة يتكون من أكثر من كلمة، فالسين في أول الكلمة تدل على معنى فهي كلمة، والضمير (هم) في آخرها يدل على معنى فهو كلمة، لكن هذا الضمير من وجهة النظر الكتابية المحضة جزء من كلمة لا كلمة مستقلة^(٦)، ومن ثم فإن تعريف النحاة للكلمة بأنها «اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع، وهي جنس تحته ثلاثة أنواع: الإسم والفعل والحرف^(٧)» أو ما أشبه ذلك من التعريفات - لا يساعد على تحديد الأساس الذي يبنى عليه حجم الكلمة في الكتابة. إذ نجد أن باء الجر - وكثيراً غيرها من حروف المعاني - كلمة باعتبار النظر النحوي، وهي لا تأتي إلا متصلة بما بعدها في الكتابة. وكذلك فإن نحو الرجل والغلام مما هو معرف بالألف واللام يدل على معنيين: التعريف والمعرف، وهو من جهة النطق كلمة واحدة وكذلك من جهة الكتابة، لكنه كلمتان من جهة النظر النحوي، إذ كان مركباً من الألف واللام الدالة على التعريف فهي كلمة، لأنها حرف معنى، والمعرف كلمة أخرى^(٨).

وقد بيّن سيبويه في باب (عدة ما يكون عليه الكلم) أحوال الكلمة العربية من حيث عدد الحروف التي تتألف منها، فأقل ما تكون عليه الكلمة حرف واحد، فمن ذلك ما يكون قبل الحرف الذي يجاء به له مثل: واو العطف، والفاء مثلها، وكاف الجر، ولام الإضافة، وباء الجر، وواو القسم، والتاء التي بمنزلتها، وسين الاستقبال، وألف الاستفهام ولام اليمين، وأما ما جاء منه بعد الحرف الذي جيء به له فالضمير مثل الكاف في (رأيتك) والتاء في (فعلت) والهاء في (عليه) ونحو ذلك، ثم يقول: واعلم أن ما جاء في الكلام على حرف قليل، ولم يشذ علينا منه شيء إلا ما لا بال له إن كان شذ^(٩).

(٦) انظر د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص ١١٢.

(٧) ابن يعيش ج ١ ص ١٨. وانظر الفخر الرازي ج ١ ص ٨، وابن منظور ج ١٥ ص ٤٢٨، ود. تمام حسان: مناهج البحث ص (٢٢٥-٢٢٦).

(٨) انظر ابن يعيش ج ١ ص ١٩.

(٩) الكتاب ج ٢ ص ٣٠٤. وانظر أيضاً في ما يكون عليه عدد حروف الكلم العربية القلقشندي ج ٣ ص (١٤٥-١٤٧).

ثم يقول سيبويه إنه قد جاء على حرفين ما ليس باسم ولا فعل ولكنه كالفاء والواو، وهو على حرفين أكثر منه على حرف، فمن ذلك: أم - أو - هل - لم - لن - إن - ما - لا - أن - كي - بل - قد - لو - أل تُعَرَّفُ الاسم - مذ - في - عن، وما جاء من الأسماء على حرفين من المتمكنة نحو يد ودم وغير المتمكنة نحو ذا - ذه - هو - هي - كم - من - قط - مع - اذ - مه - صه^(١٠).

ثم تحدث عما زاد عن حرفين فقال^(١١): «وأما ما جاء على ثلاثة أحرف فهو أكثر الكلام في كل شيء من الأسماء والأفعال وغيرها، مزيداً فيه وغير مزيد فيه، وذلك لأنه كأنه هو الأول، فمن ثم تمكن في الكلام، ثم ما كان على أربعة أحرف بعده، ثم بناء الخمسة وهي أقل، لا تكون في الفعل البتة، ولا يكسر بتمامه للجمع، لأنها الغاية في الكثرة، فاستثقل ذلك فيها، فالخمسة أقصى الغاية في الكثرة، فالكلام على ثلاثة أحرف وأربعة أحرف وخمسة، لا زيادة فيها ولا نقصان، والخمسة أقل الثلاثة في الكلام، فالثلاثة أكثر ما تبلغ بالزيادة سبعة أحرف، وهي أقصى الغاية والمجهود، وذلك اشهباب فهو يجري على ما بين الثلاثة والسبعة، والأربعة تبلغ هذا نحو احرنجام، ولا تبلغ السبعة إلا في هذين المصدرين، أما بنات الخمسة فتبلغ بالزيادة ستة نحو عَضْرَ فُوط، ولا تبلغ سبعة كما بلغت الثلاثة والأربعة لأنها لا تكون في الفعل فيكون لها مصدر نحو هذا، فعلى هذا عدة حروف الكلم».

ثم أورد بعد ذلك ما كانت عدة حروفه ثلاثة فصاعداً، من غير المتمكنة خاصة، نحو: على - الى - حتى - حسب - غير - سوى - كل - بعض - مثل - بئله - قبَل - نَوَل - اذا - لكن - سوف - قبل - بعد - كيف - أين - متى - حيث - خلف - أمام - قدام - فوق - ليس - أي - أن - ليت - لعل - عسى - لدن - لدى - دون - قبالة - بلى - نعم - بجَل - اذن - لَمَّا - لوما - لولا - أما - ألا - كلا - أنى .

(١٠) الكتاب ج ٢ ص (٣٠٥-٣٠٩).

(١١) نفس المصدر ج ٢ ص (٣٠٩-٣١٠).

ثم قال: وإنما كتبنا من الثلاثة على نحو الحرف والحرفين وفيه الأشكال والنظر^(١٢).

ويلاحظ على تعبيرات سيويه أنه يستعمل مصطلح (الحرف) استعمالاً غير محدد. ولعله يقصد به هنا الرموز الكتابية أو يقصد به الأصوات التي لها رموز كتابية على نحو ما عبر عنه في الفصل الذي ذكر فيه عدد حروف العربية، فباء الجر عند سيويه على حرف واحد، أما (في) أختها فعلى حرفين، والحقيقة أن باء الجر في مثل (بالبيت) تتكون من صامت وكسرة قصيرة، ولا تختلف عنها (في) إلا في أن كسرتها طويلة، وقد مثلت في الرسم برمز الباء، ويظهر ذلك حين نجدها في سياق مثل (في البيت) فإنها حينئذ تنطق نطقاً مساوياً لنطق الباء في (بالبيت)، لأن الكسرة الطويلة حين وجدت في مقطع مقفل قصرت فصارت تشبه في اللفظ باء الجر في كونها تتكون من صوت صامت تليه كسرة قصيرة.

وسبق أن أشرنا في الفصل التمهيدي إلى تاريخ تطور اتصال رموز الحروف العربية، وما يقبل الاتصال منها وما لا يقبله^(١٣)، وكان النظام الذي بلغته الكتابة العربية في وصل الحروف أو الكلمات ثمرة تطور عدة قرون، وقد استقر على طريقة معينة تقريباً قبل الرسم العثماني بنحو قرن من الزمن على نحو ما نجد ذلك مكتملاً في نقش حران (٥٦٨ ب م).

وقد نص علماء العربية أن حق كل كلمة أن تقع مفصولة في الكتاب عما قبلها

(١٢) الكتاب ج ٢ ص (٣١٠ - ٣١٢).

(١٣) تذكر رواية عربية قديمة (انظر الفصل التمهيدي) أن الرجال الطائيين الثلاثة وضعوا حروفاً مقطعة وموصولة، وتذكر رواية أخرى (انظر ابن عبد ربه ج ٤ ص ١٥٧) أن بني اسماعيل وضعوا الخط متصل الحروف حتى فرقه نبت وهميسع وقيدر، وهذه روايات غامضة وقد دل البحث التاريخي أن ظاهرة ارتباط الحروف العربية قديمة ترجع إلى الكتابة النبطية المبكرة (انظر ص ٣٤ من الفصل التمهيدي).

وما بعدها ليدل كل لفظ على ما وضع له مفرداً^(١٤)، فالأصل فصل الكلمة عن الكلمة لأن كل كلمة تدل على معنى غير معنى الكلمة الأخرى، فكما أن المعنيين متميزان فكذلك اللفظ المعبر عنها يكون، وكذلك الخط النائب عن اللفظ يكون متميزاً بفصله عن غيره^(١٥). وسبق أن أشرنا الى أن الحدود الفاصلة بين الكلمات تكاد تحتفي في النطق المتصل حتى «أن كثيراً من المقاطع بل ومن مجاميع المقاطع لا نعرف ما إذا كنا نعدّها كلمات مستقلة أو أن نصلها بالكلمات المجاورة لها^(١٦)»، ولذلك فإن الكلمات المكونة من مقطع قصير واحد والتي سماها سيبويه (الكلمات ذات الحرف الواحد) لا تأتي إلا متصلة بما بعدها أو ما قبلها من كلمة أخرى، ويعمل ابن درستويه ذلك بقوله «لأن العرب لا تنطق بحرف واحد مفرداً، فتبتدىء به وتقف عليه، وكذلك يجب أن لا يفرد مثل ذلك في الكتاب اتباعاً للفظ إلا أن يكون حرفاً من الحروف الستة التي لا تتصل بما بعدها^(١٧)». أما الكلمات المكونة من حرفين بمعنى أنها مكونة من مقطع طويل مفتوح واحد مثل (في - ما - لا)، أو المكونة من مقطع طويل مقفل (عن - من)، فقد جاءت - في أغلب الأحوال - منفصلة عن غيرها في الكتابة، ومن ثم فإن ملاحظة علماء الرسم من «أن الأصل في الخط أن تكتب كل كلمة على حرفين فصاعداً منفصلة عما بعدها ما لم يكن ضميراً متصلاً^(١٨)»، ملاحظة صادقة في فهم واقع الكتابة العربية.

وإذا كانت بعض الكلمات سواء كانت من ذوات الحرف أم من ذوات الحرفين قد اتخذت أسلوباً معيناً في الاتصال أو الانفصال فإن بعض الكلمات،

(١٤) ابن درستويه ص ٢٢.

(١٥) انظر السيوطي: همع الهوامع ج ٢ ص ٢٣٧.

(١٦) فندريس ص ٨٦.

(١٧) كتاب الكتاب ص ٢٢.

(١٨) ابن وثيق الأندلسي لوحة ١٦ وانظر ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ١٤٧.

من المرسومة برمزين خاصة، قد ترددت بين الاتصال والانفصال بحسب الصوت الذي يسبقها أو يلحقها أو بحسب نوع الكلمة كذلك، وتظهر هذه الظاهرة في الرسم العثماني بوضوح في بضعة أمثلة، حيث جاءت في بعض المواضع موصولة وفي بعضها مفصولة مستقلة برسمها، وقد سجل علماء الرسم كل الكلمات والأمثلة التي جاءت موصولة أو مقطوعة في الرسم في كتبهم، حتى إن ابن النديم يذكر من الكتب المؤلفة في (مقطوع القرآن وموصوله) ثلاثة كتب لكل من الكسائي وحمزة وعبد الله بن عامر اليحصبي^(١٩)، ولعل موضوع هذه الكتب هو ما وصل من كلمات في بعض المواضع وما فصل منها في مواضع أخرى في الرسم العثماني، وقد أفرد علماء الرسم لهذا الموضوع فصلا مستقلا في كتبهم يسمونه (الفصل والوصل) أو (القطع والوصل) أو (المقطوع والموصول)، وقال عنه أبو بكر الأنباري بأنه: باب الحرفين اللذين ضم أحدهما الى الآخر، فصارا حرفاً واحداً يحسن السكوت عليه إذ لا يجوز الوقف على أحدهما أي أولهما دون الآخر^(٢٠).

وقبل أن نورد الأمثلة التي جاءت مقطوعة وموصولة، وقبل أن نحاول تبين العوامل التي أدت الى ذلك نشير الى ظاهرة هامة تتعلق بطريقة رسم الكلمات وتوزيع حروفها على السطر في المصاحف العثمانية، وهي ما ذكره القلقشندي تحت عنوان (فصل بعض حروف الكلمة الواحدة عن بعض، وتفريقها في السطر والذي يليه) وينقل أن صاحب (منهاج الإصابة) قال: «انما وقع مثل ذلك في المصاحف التي كتبت في زمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - لأنها كتبت بقلم جليل مبسوط، فرمما وقع في بعض الأماكن اللفظة فيقطعها في آخر السطر ويجعل باقيها في السطر الثاني^(٢١)» ونجد هذه الظاهرة بوضوح في المصاحف المخطوطة مثل مصحف جامع عمرو ومصحف طشقند، ويكون ذلك

(١٩) الفهرست ص ٣٦ .

(٢٠) انظر في ورقة ٣٥٨ أ .

(٢١) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٥١ .

عادة في المقاطع الكتابية المفصولة عما قبلها فكلمة (السموت) نجد مرسومة في آخر سطر إلا أن رمز التاء - مثلا - يكون في بداية السطر الذي يليه، والأمثلة على هذه الظاهرة في المصحفين أكثر من أن تحصى، ونجد في بعض الكلمات التي تتوزع كتابتها على سطرين وفي نهاية السطر الأول بالذات - خطأ يشبه الخط المستعمل في الكتابات اللاتينية حين تتوزع كتابة كلمة فيها على سطرين فيجعلون في نهاية السطر الأول هذه العلامة (-) دلالة على توزع هجاء الكلمة على سطرين، فكلمة ﴿الْيَتَامَى﴾ مثلا (النساء ٤/٢)، في مصحف جامع عمرو، جاءت الألف في أولها مكتوبة في نهاية سطر وباقي الكلمة في أول السطر الذي يليه، وفي نهاية السطر الأول نجد هذه العلامة (-) ثابتة. ولكن هذه الظاهرة - رغم كثرة الأمثلة التي تظهر فيها - لا تطرد في كل كلمة يتوزع هجاؤها على سطرين، كذلك قد تظهر دون أن تكون ظاهرة توزع الكلمة موجودة وكأنما جيء بها للملاءمة الفراغ الموجود في نهاية السطر فحسب.

ويبدو أن ظاهرة توزع هجاء كلمة على سطرين تتعلق بظاهرة أخرى تخص توزيع رموز هجاء الكلمة الواحدة في السطر الواحد، فنتيجة لتمييز الرموز العربية الستة المشار إليها سابقاً بأنها لا توصل بما بعدها في الكتابة فقد بدأ هجاء الكلمة العربية مكوناً من مقاطع كتابية متعددة، تتكون من حرف أو حرفين أو أكثر بحسب طبيعة الحروف المكونة لها، لكن الكلمة إذا خلت من الحروف الستة جاءت مكونة من مقطع كتابي واحد لقابلية رموزها للاتصال.

وإذا كنا نجد أن الكلمة في الكتابة العربية أخذت في الفترات التالية للقرون الهجرية الأولى تمييز - بغض النظر عن عدد المقاطع الكتابية التي تتكون منها - بنوع من الاستقلال الشكلي حيث يترك الكتاب فراغاً مناسباً بين كلمة وأخرى لا نجد بين المقاطع المنفصلة التي تتكون منها كلمة معينة، فإن الكلمة في عصر نسخ المصاحف العثمانية إذا كانت مكونة من عدة مقاطع كتابية بدأ كل مقطع مستقلاً عن غيره من المقاطع التي تشاركه في بناء تلك الكلمة، فنجد الفسحة بين المقاطع الكتابية للكلمة الواحدة لا تختلف عن الفسحة

المتروكة بين رسم كلمة وكلمة أخرى، وهكذا يبدو المقطع الكتابي الواحد مهما كان عدد الحروف التي يتكون منها هو الأساس الذي يقوم عليه توزيع الكلمات في السطر، فجملة مثل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نجد فيها سبعة مقاطع كتابية بعضها مكون من حرف واحد (أ-ر-ب-أ)، وبعضها مكون من ثلاثة حروف ﴿لِلَّهِ﴾، أو أربعة ﴿لِحَمْدِ﴾ أو ستة ﴿لِعَالَمِينَ﴾، وكل مقطع من هذه المقاطع يفصله عما قبله وما بعده فراغ يعادل الفسحة المتروكة بين رموز كلمة وكلمة أخرى، سواء كان المقطع في نهاية كلمة أو في وسطها، ومن ثم فإن من اليسير إذا وقعت بعض مقاطع كلمة في نهاية سطر أن يرسم الكاتب المقاطع الأخرى منها في أول السطر التالي، وهو ما نجده في الرسم العثماني بشكل ظاهرة عامة - كما يبدو في المصاحف المخطوطة القديمة التي اطلعت عليها.

لقد كانت ظاهرة توزيع مقاطع الكلمة المكتوبة على الشكل الذي بيناه، ظاهرة عامة تميزت بها الكتابة العربية، في تلك الفترة، فبرزت في الرسم العثماني حين استعمل الصحابة - رضوان الله عليهم - الكتابة العربية بكل ما فيها من خصائص في تدوين القرآن الكريم في المصاحف، فنجد في نقش القاهرة (٣١ هـ) كلمة (الكتب) قد توزعت كتابتها بين السطر الخامس والسادس اذ كتب الكاتب (الألف) في نهاية السطر الخامس وبقية الكلمة في أول السطر السادس، كذلك نجد في نفس النص كلمة (الأخر) قد توزع هجاؤها بين نهاية السطر السادس وأول السابع، ونفس الظاهرة نجدها في نقش الأشعري (٦٤ هـ) فكلمة ﴿الْحَمْدُ﴾ موزعة بين السطر الثاني والثالث، وكذلك هجاء كلمة ﴿لِلَّهِ﴾ موزع بين السطر الثالث والرابع، وفي نفس النص نجد كلمة (اسر فيل) موزعة بين السطر السادس والسابع. وكذلك نجد الظاهرة نفسها في نقش الطائف المؤرخ بسنة (٥٨ هـ) في خلافة أمير المؤمنين معاوية، في كلمة ﴿اللَّهُمَّ﴾ حيث توزع هجاؤها بين السطر الثالث والرابع ومثلها كلمة أمير في نفس النقش في السطرين التاليين، ونجدها أيضاً في نقش طريق خان الحثورة (٨٦ هـ)، فكلمة (أمير) جاءت موزعة بين السطر الرابع والخامس، وربما استمرت هذه الظاهرة حتى القرن الثاني الهجري

حين بدأ العلماء يضعون قواعد الكتابة والهجاء العربي (أنظر صورة النقوش في الملحق).

ومن الممكن أن نقسم الأمثلة التي جاءت موصولة مرة ومفصولة أخرى في الرسم العثماني الى ما يحدث فيه تأثير بين آخر صوت من أصوات الكلمة الأولى وأول صوت من أصوات الكلمة الثانية، حين يتصلان في النطق اتصالاً مباشراً لا تفصل فيه بينهما حركة مع اتحاد مخرجي الصوتين أو قريبا، سواء أكان ذلك التأثير يصل الى درجة الفناء التام للصوت الأول في الثاني (الادغام) أم كانت درجة التأثير دون ذلك، والقسم الثاني هو ما لا يصحبه مثل ذلك التأثير المشار اليه اذ تفصل فيه بين الصوتين حركة تحول دون ذلك.

أولاً: ما اتصل رسمه بسبب التأثير الصوتي:

أما أمثلة القسم الأول فعلاً ما يكون الصوت الأول، وهو آخر الكلمة الأولى، نوناً ساكنة أو ميماً ساكنة يتلوه نون أو ميم أو لام، فمن ذلك:

(١) (أن لا): جاءت مرسومة بغير النون (الا) في كل مكان إلا في عشرة مواضع، رسمت فيها بالنون، (ان لا) على أصل وضع الكلمتين فمن ذلك (١١٨/٩) ﴿وَوَظَنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾^(٢٢).

(٢) (من ما) رسمت موصولة من غير نون (ما) إلا في ثلاثة مواضع رسمت مقطوعة بالنون، نحو (٢٥/٤) ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٢٣). وقال أبو عمرو الداني: فأما قوله ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ﴾ و ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ وشبهه من دخول (من) على اسم ظاهر فمقطوع حيث وقع. فاذا دخلت (من) على (من) نحو قوله ﴿مِمَّنْ مَنَعَ﴾ و ﴿مِمَّنْ افْتَرَى﴾ وشبهه فلا خلاف في شيء من

(٢٢) انظر ابن أبي داود ص ١٠٨، وأبو بكر الانباري ج ١ ص ١٤٥ والمهدوي ص ٨١ والداني: المقنع ص ٦٨. والمواضع التي وردت فيها مفصولة بالنون هي (١٠٥/٧) و (١٦٩، ١٤/١١، ٣٦، ٤٦/٢٢، ٦٠/٣٦، ١٩/٤٤، ١٢/٦٠، ٢٤/٤٨).

(٢٣) الموضعين الاخرين هما في الروم (٢٨/٣٠) والمنافقين (١٠/٦٣).

المصاحف في وصل ذلك، وحذف النون منه، وكذا كتبوا ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ في الطارق (٥/٨٦)(٢٤).

(٣) (عن ما): وكل ما جاء في كتاب الله عز وجل من ذكر ﴿عَمَّا﴾ فهو بغير نون الا حرفاً واحداً في الاعراف (١٦٦/٧) ﴿عَنْ مَا نُهَوَّا عَنْهُ﴾ فإنه بالنون^(٢٥). أما ما كان من ذكر (عن من) فقد جاء بالنون مفصلاً في النور (٤٣/٢٤) ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ وفي النجم (٢٩/٥٣) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ وليس في القرآن غيرها^(٢٦).

(٤) (إن ما) وليس في القرآن (إن ما) بالنون إلا حرفاً واحداً في الرعد (٤٠/١٣) ﴿وَإِنْ مَا نُرِيكَ﴾^(٢٧). وقد جاء في مصحف طشقند موضع آخر في غافر (٧٧/٤٠) ﴿فَإِنْ مَا نُرِيكَ﴾، لكن المشهور في رواية الأئمة في هذا الموضع (فإن ما).

(٥) (إن لم) جاءت في هود (١٤/١١) ﴿فَإَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ بغير نون أي موصولة، وفي القصص (٥٠/٢٨) ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ بالنون، كلمتين مفصولتين^(٢٨).

(٦) (أن لن) وكتب (أن لن) بغير نون في موضعين: في الكهف (٤٨/١٨) ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ وفي القيامة (٣/٧٥) ﴿أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ وقيل مثلها أيضاً حرف المزمّل (٢٠/٧٣) ﴿أَلَّنْ تُخْصَوهُ﴾^(٢٩). وكذلك وصلت (أن لو) في سورة الجن (١٦/٧٢) ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا﴾.

(٢٤) المقنع ص ٦٩ وانظر أيضاً ابن أبي داود ص ١١١ والمهدوي ص ٨٢.

(٢٥) المهدوي ص ٨٢، والداني: المقنع ص ٦٩.

(٢٦) انظر نفس المصدرين السابقين ص ٨٢، وص ٧١ على التوالي.

(٢٧) ابن أبي داود ص ١٠٩ وأبو بكر الانباري ج ١ ص ٣٣٠ والمهدوي ص ٨٣. والداني المقنع ص ٧٠.

(٢٨) نفس المصادر ص ١٠٨ وج ١ ص ٣٤٤ وص ٨٢ وص ٧٠ على التوالي المذكور.

(٢٩) أبو بكر الانباري ج ١ ص ٣٥٣ والمهدوي ص ٨٢ والداني: المقنع ص ٧٠.

(٧) (أَمْ مَنْ) وكل ما في القرآن من ذكر (أَمْ مَنْ) فهو في المصحف موصول إلا أربعة أحرف كتبت مقطوعة نحو (النساء ١٠٩/٤) ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾^(٣٠)، أما ما كان من مثل (أَمْ مَنْ) فقد جاء في المصحف موصولا على حرف واحد في الأنعام (١٤٣/٦ و ١٤٤) ﴿أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ﴾. ومعناه: أَمْ الذي اشتملت^(٣١).

(٨) روى الفراء: أن العرب تصل (من) في الاستفهام بـ(ذا) حتى تصيرا كالحرف الواحد وقال أنه رأها في بعض مصاحف عبد الله ﴿مَنْذَا﴾ متصلة في الكتاب^(٣٢). وقد جاءت ﴿إِنْ جَاءَكُمْ﴾ في الأعراف (٦٩/٧) مرسومة ﴿إِنْجَاءَكُمْ﴾ بالوصل في مصحف طشقند.

ثانياً: ما وصل من الكلم من غير وجود تأثير صوتي:

أما أمثلة القسم الثاني مما لم يتأثر فيه الصوت الأخير من الكلمة بالصوت الأول من الكلمة الثانية فهي:

- (١) (في ما) جاءت مقطوعة في أحد عشر موضعا من مثل (البقرة ٢٤٠/٢) ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾، ويروي الداني أن محمد بن عيسى قال: ومنهم من يصلها كلها ويقطع التي في الشعراء (١٤٦/٢٦)^(٣٣).
- (٢) (كل ما): جاءت مقطوعة في موضعين (٩١/٤) ﴿كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَبُوا فِيهَا﴾، و(٣٤/١٤) ﴿وَأَتَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، ومنهم من

(٣٠) وبقية المواضع هي (١٠٩/٩-١١/٣٧-٤٠/٤١).

(٣١) ابن أبي داود ص ١٠٧، وأبو بكر الانباري ج ١ ص ٣٤٣. والداني: المقنع ص ٧١ و ٨٤.

(٣٢) معاني القرآن ج ٣ ص ١٣٢.

(٣٣) المهدي ص (٨٥-٨٦)، والداني: المقنع ص (٧١-٧٢). أما بقية المواضع فهي: (٤٨/٥، ١٤٥/٦، ١٦٥، ١٠٢/٢١، ١٤/٢٤، ١٤٦/٢٦، ٢٨/٣٠، ٣/٣٩، ٦١/٥٦، ٤٦).

يصل التي في النساء ، وروي أن (كل ما) منقطعة في مصحف عبد الله في كل القرآن (٣٤).

(٣) (أين ما): جاءت موصولة في ثلاثة مواضع (أيضا)، في البقرة (١١٥/٢) ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، وفي النحل (٧٦/١٦)، وفي الشعراء (٩٢/٢٦). واختلفوا في التي في النساء (٧٨/٤) والتي في الأحزاب (٦١/٣٣) (٣٥).

(٤) (بئس ما): جاءت موصولة في ثلاثة مواضع في البقرة (٩٠/٢) ﴿بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾، وفيها أيضاً (٩٣) ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ وفي الاعراف (١٥٠/٧) ﴿بِئْسَمَا خَلَقْتُمُونِي﴾، ويروي الداني أن محمد بن عيسى قال: كلما في أوله لام فهو مقطوع (٣٦). فما فيه لام جاء في البقرة (١٠٢/٢) ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا﴾، وفي المائدة (٨٠/٥) ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾، وفيها أيضاً (٦٢) ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وكذلك ما جاء في أوله الفاء نحو (آل عمران ١٨٧/٣) ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (٣٧). وقال الداني في هذا الموضع: مقطوعة ولا لام في أولها، كأن الفاء خلفتها في الزيادة (٣٨).

(٥) (إنّ ما - أنّ ما): كتبوا (إنّ ما) مقطوعة في موضع واحد في الأنعام (١٣٤/٦) ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ ليس في القرآن غيرها، وكتبوا (أنّ ما) مقطوعة في موضعين في الحج (٦٢/٢٢) ولقمان (٣٠/٣١) ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ وقال الداني: أما قوله في الأنفال (٤١/٨) ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ وفي النحل (٩٥/١٦) ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهي في مصاحف أهل

(٣٤) المهدي ص (٨٤-٨٥) والداني: المقنع ص ٨٤.

(٣٥) نفس المصادر ص ٨٤، وص (٧٢-٧٣) على التوالي المذكور.

(٣٦) نفس المصادر ص ٨٣، و ٧٤.

(٣٧) ابو بكر الانباري ج ١ ص ٣٣٨.

(٣٨) المقنع ص ٨٤.

العراق موصولان وفي مصاحفنا القديمة مقطوعان، والأول أثبت وهو الأكثر. وكذلك رسمها الغازي بن قيس في كتابه موصولين^(٣٩).

(٦) (لكي لا): جاءت موصولة في أربعة مواضع، في آل عمران (١٥٣/٣) ﴿لَكَيْلًا تَحْزَنُونَ﴾ والحج (٥/٢٢) ﴿لَكَيْلًا يَعْلَمُ﴾ والأحزاب (٥٠/٣٣) ﴿لَكَيْلًا يَكُونُ﴾ والحديد (٢٣/٥٧) ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا﴾، ومقطوعة في ما سوى ذلك، نحو (الحشر ٧/٥٩) ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾، ونحو (الأحزاب ٣٧/٣٣) ﴿لَكَيْ لَا يَكُونُ﴾^(٤٠).

(٧) (ابن أم): وكتبوا في كل المصاحف في الأعراف (١٥٠/٧) ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّمٍ﴾ بالقطع، وكتبوا في طه (٩٤/٢٠) ﴿يَبْنُومُ﴾ بالوصل كلمة واحدة، وأصله ﴿يَا ابْنَ أُمِّمٍ﴾^(٤١).

(٨) (فمال): كتبوا في كل المصاحف في النساء (٧٨/٤) ﴿فَمَالٍ هُوَ آءٌ أَلْقَوْمِ﴾، وفي الكهف (٤٩/١٨) ﴿مَالٍ هَذَا الْكِتَابِ﴾، وفي الفرقان (٧/٢٥) ﴿مَالٍ هَذَا الرُّسُولِ﴾، وفي المعارج (٣٦/٧٠) ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، هذه الأربعة المواضع قطعت فيها لام الجر مما بعدها في الرسم^(٤٢).

إن تأمل أمثلة كل من هاتين المجموعتين يقفنا على أهم العوامل التي تجعل الكتاب يصلون بعض الكلمات المكونة من مقاطع قليلة ببعض، ففي المجموعة الأولى نجد أن التقاء النون ساكنة في آخر كلمة مع صوت آخر مقارب لها في

(٣٩) المهدي ص ٨٤، والداني: المقنع ص ٧٣.

(٤٠) ابن أبي داود ص ١١٤ وأبو بكر الانباري ج ١ ص ٣٤٢، والمهدي ص ٨٣، والداني المقنع ص ٧٥.

(٤١) الفراء: معاني القرآن ج ٢ ص ٣١٣ وج ٣ ص ١٣٢. والمهدي ص ٨٥، والداني المقنع ص ٧٦.

(٤٢) انظر نفس المصادر ج ١ ص ٢٧٨، وص ٨٥، وص ٧٥ على التوالي.

المخرج في أول كلمة ثانية يؤدي الى أن تتأثر النون بذلك الصوت، وقد يصل ذلك التأثير الى درجة الادغام التام، أي تحول النون الى جنس الصوت الثاني فيجد الكاتب نفسه حينئذ بين الاستجابة لواقع النطق فيصل الكلمتين وبين أن يحفظ لكل كلمة أصل رسمها، وقد قال أبو بكر الأنباري وهو يتحدث عن قطع ووصل (أن لا)^(٤٣): « فالمواضع التي كتبت فيها مقطوعة كتبت على الأصل، لأن الأصل فيه (أن لا)، والمواضع التي كتبت فيها موصولة بني الخط فيها على الوصل لأن الوصل فيه (أن لا) فأدغمت النون في الكلام لقرب مخرجها منها، وذلك أن من الفم أحد عشر مخرجاً، المخرج الخامس منها للام والسادس للنون، فلما اندغمت النون في اللام صارتا لا ماً مشددة، وبني الخط على اللفظ «، ويقول ابن درستويه^(٤٤): « فكان كتاب حرف أخف عليهم من كتاب حرفين، كما كان النطق بحرف مدغم أخف من النطق بحرفين مضاعفين «. ومثل (ان لا) في علة ورودها مرسومة بالوصل (من ما - من من - عن ما - إن ما - إن لم - أن لن - أم من).

أما رواية الفراء وصل (منذا) في حالة الاستفهام فعمل ذلك ناتج أيضاً من تأثير النون بالصوت الذي بعدها، حيث أنها تخفى قبل الذال فرجماً أحسن الكاتب بذلك التأثير وربما انضاف الى صغر حجم الكلمتين فوصلها، كذلك يبدو أن علة وصل ﴿إن جاءكم﴾ في مصحف طشقند هو ما أصاب النون من الخفاء قبل الجيم، وقد مر في بحث رموز الصوامت ما ذهب اليه بعض العلماء من حذف رمز النون في مثل ﴿نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ بسبب خفائها. ولكن ظاهرة اخفاء النون مع بعض الحروف لم تظهر في الكتابة إلا في هذه الأمثلة المحدودة - ان صح هذا

(٤٣) إيضاح الوقف والابتداء ج ١ ص (١٤٥-١٤٦)، وانظر المهدي ص ٨٦ وابن معاذ الجهني ورقة ٢٥٧ أ.

(٤٤) كتاب الكتاب ص (٢٥-٢٦).

المذهب - ولعل الكتاب لم يلتفتوا الى ظاهرة خفاء النون في بعض المواضع لعدم ذهابها في اللفظ كما يحدث في الادغام^(٤٥).

أما أمثلة المجموعة الثانية فليس سبب وصلها في بعض المواضع دون بعض هو تأثير الأصوات فيها، لعدمه، ويبدو أن السبب الأساسي في ذلك هو كون هذه الكلمات قليلة المقاطع فتميل الى الاتصال بغيرها كما جاءت الكلمات ذات الحرف الواحد متصلة بغيرها، وربما كان للمعنى أو الموقع النحوي للكلمة أثر في اتصالها وانفصالها.

ولعل وصل ﴿بِشْمًا﴾ أوضح مثال وأدل من غيره على أن سبب وصل بعض هذه الكلمات هو قلة عدد مقاطعها، فهي تميل الى الاتصال بما يجاورها متى وجدت فرصة لذلك، وقد اتصلت (ما) بكلمة (بئس) حين جاءت الأخيرة مجردة، ولكن حين استطالت باتصال اللام بها نجد أن (ما) تنفصل في الكتابة وترسم هكذا (لبئس ما) وليس ذلك مقصوداً على اللام، فحين تتصل الفاء ببئس تحدث نفس الظاهرة من انفصال (ما) عن بئس كما مر بيان ذلك^(٤٦). ويبدو أن اتصال (ما) بحرف الجر (في) واتصال (لا) بـ(كي) قد كان سبب قلة حروف هذه الكلمات، فإل الكتاب الى جمعها في كلمة واحدة.

أما اتصال (ما) بكل أو إن أو أن أو أين فقد ذهب علماء العربية الى أن (ما) اذا كانت موصولة أي بمعنى (الذي) كتبت مفصولة، وإذا كانت غير ذلك وصلت، لأنه كثر استعمالها مع هذه الأشياء حتى صارت كأنها منها فوصلت بها^(٤٧).

ويبدو أن هذه القاعدة التي توصل اليها علماء العربية بشأن وصل (ما) أو

(٤٥) انظر القلقشندي ج ٣ ص ١٧٤.

(٤٦) انظر ابن معاذ الجهني ورقة ٢٥٢ أ.

(٤٧) ابن درستويه ص ٢٤ وص (٢٦-٢٧) وانظر أيضاً ابن معاذ الجهني ورقة ٢٤٩ ب وما بعدها.

فصلها من الكلمات المذكورة كانت نتيجة استقراء ناقص للأمثلة الواردة في الرسم العثماني، أو أنهم أهملوا أصل استعمال العرب الأول لذلك في الكتابة، أو أنهم على عاداتهم في استبعاد الأمثلة التي لا تدخل تحت القاعدة العامة أهملوا الأمثلة التي لا تنطبق عليها القاعدة، وذلك لأن الأمثلة التي يقدمها الرسم لا تشير إلى أن كتبة المصاحف كانوا يتحرون فصل (ما) التي بمعنى الذي ووصل ما عداها، فلو كان ما يقوله النحاة دقيقاً لما وجدنا (ما) موصولة في مثل قوله تعالى (٤١/٨) ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ ومفصلة في (٩١/٤) ﴿كُلَّ مَا رُدُّوْا﴾ وغير ذلك من الأمثلة التي تشير إلى أن كتبة المصاحف لم يكونوا ينظرون إلى معنى (ما) لكي يصلوها أو يفصلوها.

لكن ذلك لا ينفي أن يكون لمعنى الكلمة أو موقعها في الجملة أثر في وصلها أو فصلها - في بعض المواضع - ويظهر ذلك من فصل الضمير (هم) في قوله سبحانه في المؤمن (١٦/٤٠) ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ﴾ وفي الذاريات (١٣/٥١) ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. فقد قال الداني (هم) منها في موضع رفع بالابتداء وما بعده خبره، فلذلك فصل (اليوم) عنه، و(هم) فيما عداها خفض بالإضافة فلذلك وصل (اليوم) به^(٤٨). نحو قوله (الأعراف ٥١/٧) ﴿فَالْيَوْمَ نَنسُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ وما أشبه ذلك.

وهكذا فإن الضمير (هم) حين يكون في محل رفع فإنه ينفصل في الكتابة عما قبله مكوناً كلمة مستقلة، دون ما كان في محل جر أو نصب، ولذلك جاء في قوله (المطففين ٣/٨٣) ﴿كَأَلْوَهُمْ أَوْ وَرَثَتُهُمْ﴾ موصولاً في الموضعين، من غير ألف بعد الواو^(٤٩). إذ لو كانت هناك ألف بعد الواو لدل ذلك على الانفصال.

أما وصل (يا ابن أم) فقد كان ذلك - على ما يبدو - بسبب نطق هذه

(٤٨) المقنع ص ٧٥ وانظر المهدي ص ٨٦.

(٤٩) الداني: المقنع ص ٧٧.

الكلمات في سياق متصل، الى جانب صغر حجمها، وقد بينّا أصل صورة ﴿يَبْنُومٌ﴾ من قبل، ومثل ذلك أيضاً (يومئذ) وما أشبهه^(٥٠).

أما فصل لام الجر في الأربعة المواضع المشار إليها فقد تحدث الفراء عن فصلها في سورة النساء (٧٨/٤) ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ فقال: كثرت في الكلام حتى توهموا أن اللام متصلة بـ(ما) وأنها حرف في بعضه^(٥١). وقد يكون ذلك أثراً قديماً لظاهرة انفصال رموز الكلمة الواحدة، وقد يكون راجعاً الى طبيعة الحرف الذي يسبق اللام وهو (ما) في الأمثلة الأربعة، حيث يكون معها شكل كلمة واحدة.

وينقل الداني أن معلى بن عيسى الورّاق قال: كنا اذا سألنا عاصماً (الجحدري) عن المقطوع والموصول قال: سواء، لا أبالي أقطع ذا أم وصل ذا، إنما هو هجاء^(٥٢)، ويعقب الداني على ذلك بقوله «وأحسبه يريد المختلف في رسمه من ذلك دون المتفق على رسمه منه».

ومهما يكن من شيء فإن موقف عاصم الجحدري (ت ١٢٨) من الكلمات التي جاءت موصولة مرة ومفصولة أخرى ينفي فكرة فصل (ما) عندما تكون موصولة (بمعنى الذي) ووصلها عندما تكون غير ذلك، فعاصم هذا كان من أئمة علماء الرسم كما كان من أوائل علماء العربية ولم يكن من اليسير غياب هذه الملاحظة عنه لو كانت تمثل اتجاهاً معروفاً عند الكتاب ولكن يبدو أن علماء العربية في فترات لاحقة حرصاً منهم على وضع قواعد محددة ذهبوا ذلك المذهب.

ومع ذلك فإن مذهب عاصم لا ينبغي إطلاقه في فهم وصل الكلمات المحدودة المقاطع أو فصلها، إذ إن الفصل والوصل ربما كان في بعض المواضع ذا دلالة نحوية، مثل ما رأينا في فصل (هم) في ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾، ووصلها في ﴿لِقَاءِ

(٥٠) ابن درستويه ص ٣٢.

(٥١) معاني القرآن ج ١ ص ٢٧٨.

(٥٢) المقنع ص ٧٢.

يَوْمِهِمْ هَذَا﴾، الى جانب ذلك فان كثيراً من تلك الكلمات المعدودة الحروف قد استقرت في الكتابة على أسلوب معين وفي ورودها في التركيب كذلك، فكلمة (قد) تفصل دائماً، بينما نجد (أل) التي للتعريف توصل دائماً، مع أن المبرد وهو يتحدث عن (أل) قد قال^(٥٣): «وزعم الخليل انها كلمة بمنزلة (قد) تنفصل بنفسها، وانها في الأسماء بمنزلة (سوف) في الأفعال، لأنك اذا قلت جاءني رجل فقد ذكرت منكورا، فإذا أدخلت الألف واللام صار معرفة معهوداً». ويبدو أن كثيراً من تلك الكلمات قد حدد استعمال الكتاب لها طريقة معينة في كيفية ورودها في السياقات استناداً الى الواقع اللغوي أحياناً واعتماداً على طبيعة الرموز التي تتكون منها الكلمة في أحيان أخرى.

(٥٣) المقتضب ج ١ ص ٨٣.

الفصل الخامس

تكميل الرسم العثماني

الفصل الخامس

تكميل الرسم العثماني

كانت النقوش العربية التي ترجع الى العصر الجاهلي مجردة من أية علامة، سواء أكانت فوق الحروف أم تحتها، وسواء كانت لتمثيل الحركات القصيرة أم لتمييز بعض الحروف المشابهة في الرسم. وكانت الكتابة العربية قد ورثت هذه الخصائص عن الكتابة النبطية، وبيّنت بإيجاز - من قبل - تاريخ تمثيل الحركات في الكتابات السامية عامة، والنبطية والعربية خاصة، كذلك أشرت الى أن اصل ظاهرة اشتراك بعض الأصوات برمز واحد، تلك الظاهرة التي يرجعها الباحثون في الكتابات القديمة الى ما أصاب الكتابة النبطية من ميل الى اتصال حروفها في الكلمة الواحدة بعد أن كانت تكتب منفردة غير متصلة ببعضها، فكان ذلك الاتصال سبباً في حدوث شبه شديد في رموز بعض الأصوات أدى في مرحلة لاحقة الى أن تظهر عدة أصوات ترسم برمز واحد.

وقد جاء الرسم العثماني ممثلاً لواقع الكتابة العربية في تلك الفترة ومتصفاً بما امتازت به في تمثيل الصوامت والحركات، إذ تواترت الروايات مؤكدة على أن الرسم العثماني كان مجرداً من أية علامة لتمييز الرموز التي يشترك فيها أكثر من صوت، كذلك لم يكن يمثل الحركات القصيرة بأية علامة. ونتيجة لذلك فقد واجهت المهتمين بإقراء القرآن منذ وقت مبكر - ربما يعود الى منتصف القرن الهجري الأول - مهمة تكميل^(١) الرسم العثماني وتيسير القراءة وضبطها منعاً لوقوع الخطأ واللحن في تلاوة القرآن الكريم.

(١) استعملت مصطلح (تكميل) دون أن استعمل ما عداه مما يوجد في كلام بعض =

وقد كان بالإمكان تلافي النقص المشار إليه في الكتابة العربية بوحدة من وسائل عدة، ولكن ساهمت تأثيرات تاريخية ودوافع عملية في تبني طريقة معينة واحدة من تلك الطرق التي يحرصها العلماء بالكتابة في ثلاث هي (٢):

١ - وضع رموز جديدة مستقلة لتمثيل الحركات القصيرة والأصوات الصامتة التي تشارك غيرها برمز واحد، واستعمالها استعمال رموز أصوات الأبجدية القديمة.

٢ - الاستعانة بالعلامات الخارجية لتمثيل الحركات القصيرة أو تمييز الرموز المشتركة.

٣ - وبالإمكان إلى جانب ذلك تمثيل الحركات القصيرة بالعلامات التي تتصل برموز الصوامت نفسها، أو بواسطة تغيير شكل الرمز تبعاً لاختلاف نوع الحركة.

ولما كانت الكتابة - بصورة عامة - تميل إلى المحافظة على صور هجاء الكلمات بحيث يصبح تغيير تلك الصور، حتى ولو كانت للملاحقة تطور نطق الكلمة، أمراً صعباً، بل يكاد يكون مستحيلاً، ولما كانت الطريقتان الأولى والأخيرة تحتان تحطيم الشكل المجهود لصور هجاء الكلمات فقد آثر نساخ المصاحف وكتاب العربية الطريقة الثانية التي تحقق تمثيلاً أدق للنطق مع المحافظة على الصور المعروفة لهجاء الكلمات.

وقد ساعد في اعتماد ذلك الاتجاه - أيضاً - عامل مهم جداً وهو أن صور

= الباحثين من مثل (تحسين أو إصلاح) (انظر د. المنجد ص ١٢٥). لأن الكتابة العربية كانت تعاني من نقص في تمثيل بعض الأصوات أو من اشتراك بعض الأصوات برمز واحد، وسد هذا النقص لم يكن يمثّل تحسناً للكتابة العربية أو إصلاحاً لخطأ فيها، وإنما كان (تكميلاً) لنقص عانت منه قد ورثته عن الكتابة النبطية.

(٢) انظر -Gelb (L.J): Writing, Encyclopaedia Britannica 1973, Vol. 23,

p.819.

هجاء الكلمات في المصحف الذي نسخ في خلافة عثمان - رضي الله عنه - وبأمره قد حرص المسلمون على المحافظة عليها، فهي الصورة التي رضىها الأمة دون ما سواها، وبذلك صار أي تفكير في تغيير تلك الصورة معناه انذار بتحريف قد يقع في نص القرآن الكريم، وقد حافظ المصحف بفضل ذلك على الصورة الأولى التي كتب بها في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وخلافة الصديق، لأن المصحف العثماني لم يكن إلا نسخة دقيقة لذلك، فكانت طريقة العلامات الخارجية أنسب طريقة تكمل النقص وتحافظ على الأصل، ومع ذلك فسلاحظ بعد قليل المعارضة التي ظهرت لإدخال أي شيء على المصحف العثماني، لكن سرعان ما خفت بعد أن تبينت ضرورة وفائدة ذلك، حتى لقد قال بعضهم «العجم نور الكتاب»^(٣). وقال آخرون «لا بأس به، هو نور له»^(٤) وقال الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ) «إعجام الكتاب نوره»^(٥).

ولم تتفرد الكتابة العربية بسلوك هذا الطريق في تكميل أصواتها بل شاركتها في ذلك بعض الكتابات السامية^(٦)، وقد استعان علماء اللغة المحدثون بهذه الطريقة في الكتابة الصوتية^(٧)، حيث استخدموا العلامات المميزة (diacritical marks) لتخصيص بعض الحالات النطقية تفادياً لازدياد عدد

(٣) انظر الداني: الحكم ص ١٢.

(٤) نفس المصدر ص ٢.

(٥) أبو أحمد العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف. ط ١ القاهرة. الباي الحلبي ١٩٦٣ م ص ١٤. وانظر السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ص ٢ المكتبة العلمية. المدينة المنورة ١٩٧٢ م ج ٢ ص ٦٨.

(٦) مثل العبرية والسريانية. انظر: المطران اقليميس يوسف داود: كتاب اللمعة الشبية في نحو السريانية ط ٢ الموصل ١٨٩٦ م ج ١ ص ١٦٤ وما بعدها. ونولده: ص ٦٠ وجويدي: أدبيات الجغرافيا ص ٨٣ وإسرائيل ولفسون ص ١٠٣ وانظر أيضاً Morag. P. 9

(٧) انظر د. تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٣٠ ود. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ١ ص ٧٨.

الرموز الصوتية الأصلية حين توضع تلك العلامات فوق الرمز أو تحته أو توصل به .

وقبل أن نمضي في بيان تاريخ تلك الحركة التكميلية نشير الى قضية مهمة تتعلق بابتداء إدخال تلك العلامات في الكتابة العربية، وقد أشير قبل قليل الى أن هذه العلامات منها ما يمثل الحركات القصيرة والتي عرفت أحياناً باسم نقط الإعراب، ومنها ما يخصص رموز بعض الأصوات التي كانت تشترك في رمز واحد، والتي عرفت باسم نقط الاعجام، أما نقط الإعراب فإن أقوال بعض القدماء وأقوال معظم المحدثين قد اتفقت على أنه مخترع بعد الإسلام^(٨)، وأما نقط الاعجام فرغم أن النقوش العربية الجاهلية خالية من أي أثر له فإن بعض علماء السلف ذهبوا الى أنه قديم، بل ربما يكون قد وجد مع وضع الحروف! وجاء المحدثون وأثيرت القضية من جديد، وقد عثر على بعض النصوص المكتوبة المهمة ترجع الى سنوات متقدمة من القرن الأول الهجري، وقد ظهرت فيها بعض نقط الاعجام فوق بعض الحروف، فمزج هؤلاء المحدثون بين تلك الروايات القديمة وما تدل عليه هذه النقوش ليخرجوا من ذلك كله بنتيجة تقول إن نقط الاعجام قديم، يعود الى العصر الجاهلي أو الى السنين الأولى من تاريخ الإسلام.

وعلينا أن نكون - في معالجة هذه القضية - حذرين في فهم تلك الروايات التاريخية، لأن أكثرها قيل في غيبة المعرفة التاريخية بأصل تطور الأبجدية، الى جانب أن الروايات المتواترة تعارضها، وبناء على ذلك سنحاول - هنا - عرض تلك الروايات ومناقشتها مرجئين دراسة دلالة النقوش والنصوص المكتوبة والروايات التي تقول إن إعجام الحروف قد اخترع بعد النصف الثاني من القرن الهجري الأول حتى نناقش موضوع الإعجام عامة بعد قليل.

وقد أشير - من قبل - الى الرواية التي تسند وضع الإعجام الى عامر بن

(٨) انظر ابن عاشر الأنصاري ص ٥٢ ود. الطاهر أحمد مكي ص ٦٦ .

جدرة^(٩)، ويعقب الفلقسندي على ذلك بقوله « وقضية هذا إن الإعجام موضوع مع وضع الحروف، وقد روي أن أول من نقط المصاحف ووضع العربية أبو الأسود الدؤلي من تلقين أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه، والظاهر ما تقدم إذ يبعد أن الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عريّة عن النقط الى حين نقط المصاحف^(١٠). وقال صاحب كشف الظنون^(١١): « إن الصدر الأول أخذ القرآن والحديث من أفواه الرجال بالتلقين ثم لما كثّر الإسلام اضطروا الى وضع النقط والإعجام، فقبل أول من وضع النقط مرار (مرامر) والإعجام عامر، وقبل الحجاج، وقبل أبو الأسود الدؤلي بتلقين علي رضي الله تعالى عنه، الا أن الظاهر أنها موضوعان مع الحروف إذ يبعد أن الحروف مع تشابه صورها كانت عرية عن النقط الى حين نقط المصاحف، وقد روي أن الصحابة قالوا جردوا المصحف من كل شيء حتى النقط، ولو لم يوجد في زمانهم لما يصح التجريد منه ».

كذلك يتراءى من بين أقوال بعض علماء العربية أنهم يرون أن نقط الإعجام موضوع مع وضع الحروف. يقول الزجاجي^(١٢): « جعلت بعض الحروف على صورة واحدة في الخط نحو الياء والتاء، والجيم والحاء والحاء، والذال والذال، وكذلك ما أشبهه لأنهم فرّقوا بينها بالنقط، فكان ذلك أخف عليهم من أن يجعلوا لكل واحد من هذه الحروف صورة على حدته فتكثر الصور ».

وقد ذهب بعض علماء السلف في تلك القضية الى حد القول بأن مجيء الرسم العثماني خالياً من كل علامة إنما كان عن قصد ليحتمل الرسم ما صح من القراءات، وقد قال الداني وهو يتحدث عن أول من نقط المصاحف: « وإنما

(٩) انظر الفصل التمهيدي ص ٣٤.

(١٠) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٥٥.

(١١) حاجي خليفة مج ١ عمود ٧١٢.

(١٢) الجمل ص ٢٧٢. وانظر حمزة الأصفهاني ص ٢٧ و٣٧. والبطلوسي ص ١٦٧.

أخلى الصدر منهم المصاحف من ذلك ومن الشكل من حيث أرادوا الدلالة على بقاء السعة في اللغات، والفسحة في القراءات التي أذن الله تعالى لعباده في الأخذ بها، والقراءة بما شاءت منها، فكان الأمر على ذلك الى أن حدث في الناس ما أوجب نقطها وشكلها»^(١٣). وردد ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) نفس المعنى حين قال:^(١٤) «ثم أن الصحابة - رضي الله عنهم - لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرصة الأخيرة مما صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما أدخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين». ويبدو أن ابن الجزري - رحمه الله - أخذ هذه الفكرة التي ردها بعض المحدثين منسوبة اليه من الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بألفاظها تقريباً، فقد قال الشيخ ابن تيمية في فتاويه:^(١٥) «إذا كان قد سَوَّغ لهم أن يقرأوه على سبعة أحرف كلها شاف كاف مع تنوع الأحرف في الرسم فلأن يسوغ ذلك مع اتفاق ذلك في الرسم وتنوعه في اللفظ أولى وأحرى. وهذا من أسباب تركهم المصاحف أول ما كتبت غير مشكولة ولا منقوطة لتكون صورة الرسم محتملة للأمرين كالتاء والياء والفتح والضم، وهم يضبطون باللفظ كلا الأمرين، وتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهاً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المعقولين المفهومين، فإن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلقوا عنه ما أمره الله بتبليغه اليهم من القرآن لفظه ومعناه جميعاً».

وحاول بعض أصحاب هذا الاتجاه أن يؤيد مذهبه هذا ببعض الأخبار المروية عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - فقد أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن أن أبا بكر بن عياش قال سمعت أبا حصين يقول

(١٣) الحكم ص ٣.

(١٤) النشرح ١ ص ٣٣.

(١٥) مج ١ ص ٣١٩.

« لما وجّه عمر الناس الى العراق قال لهم كذا وكذا، فذكر كلاماً، ثم قال: جردوا القرآن، واقلوا الرواية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا شريككم، أو قال على رسول الله »^(١٦) وأخرج أيضاً عن ابن الأحوص أن عبد الله بن مسعود قال:^(١٧) « جردوا القرآن ليربو فيه صغيركم ولا ينأى عنه كبيركم، فإن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة ». وأخرج أبو بكر الانباري عن الضحاک أن ابن مسعود قال:^(١٨) « جردوا القرآن، وزينوه بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنه عربي، والله يجب أن يعرب ». ونقله الداني:^(١٩) « جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء » وقد أوّل بعض العلماء أن المقصود بتجريد القرآن هو اخلاؤه من النقط، كما مر قول صاحب كشف الظنون.

لكن هذا الاتجاه في بيان تاريخ إدخال العلامات المميزة في الكتابة العربية لا تكاد الأدلة التي يقدمها القائلون به تكفي لتقرير أن نقط الإعجام أو نقط الإعراب كان موجوداً قبل الإسلام ومستعملاً في الكتابة العربية.

أما قول بعض علماء السلف إن النقط المميزة للحروف كانت قد وضعت مع وضع الحروف العربية فهذا يردّه ما كشف من تاريخ الكتابة العربية والأصل الذي اشتقت منه، ورغم الغموض الذي لا يزال يحيط بكثير من جوانب ذلك التاريخ فإن ما تم كشفه - مما ذكرنا بعضه في الفصل التمهيدي - كفيل بنفي هذه الفكرة.

وأما قولهم إن المصاحف جردت لتحتل ما صحح من القراءات فإنه لا يقوم دليلاً على ما ذهبوا إليه، لأن ذلك يحتاج أولاً الى إثبات أن النقط أو الشكل كان موجوداً ثم إثبات أن المصاحف جردت منه لتحتل ما صحح من القراءات،

(١٦) فضائل القرآن لوحة ٥ وانظر غريب الحديث (له) ج ٤ ص ٤٩.

(١٧) نفس المصادر لوحة ٥ و٥٧ وج ٤ ص ٤٦ على التوالي.

(١٨) إيضاح الوقف والابتداء ج ١ ص ١٦. وانظر القرطبي ج ١ ص ٢٣.

(١٩) المحكم ص ١٠ وانظر السيوطي: الإقتان ج ٤ ص ١٦٠.

أما النقط والشكل فلم يثبت الى اليوم أنه كان موجودا يوم كتبت المصاحف، وكذلك فإن تجريد المصحف ليحتمل القراءات الصحيحة لم يثبت فقد رجحنا من قبل أن المصحف العثماني لم يكتب الا لتمثيل القراءة العامة المشهورة في المدينة حينذاك.

وأما الاحتجاج بقول عمر أو ابن مسعود « جردوا القرآن » فيبدو أن هذا الخبر أعطي ذلك التفسير في فترات لاحقة لقوله حين بدأوا ينقطنون المصاحف فاحتج من كره ذلك بقول عمر وابن مسعود (جردوا القرآن). قال أبو عبيد^(٢٠): « وقد اختلف الناس في تفسير قوله جردوا القرآن، فكان ابراهيم يذهب به الى نقط المصاحف، ويقول: جردوا القرآن ولا تخلطوا به غيره، قال أبو عبيد: وإنما نرى أن ابراهيم كره هذا مخافة أن ينشأ نشء يدركون المصاحف منقوطة فيرى أن النقط من القرآن ولهذا المعنى كره من كره الفواتح والعواشر». ونقل السيوطي في الاتقان^(٢١): « قال الحرابي في غريب الحديث: قول ابن مسعود: جردوا القرآن، يحتمل وجهين: أحدهما جردوه في التلاوة، ولا تخلطوا به غيره. والثاني: جردوه في الخط من النقط والتشير. وقال البيهقي: الأبين أنه أراد: لا تخلطوا به غيره من الكتب ». وبناء على ذلك فان الاستدلال على وجود النقط وقت نسخ المصاحف بهذا الخبر غير كاف لإثبات ذلك، بل يبدو أن حمل الخبر على تجريد المصحف من إثبات التفسير أو الحديث فيه دون النقط أكثر انطباقاً على الواقع، وهذا لا ينبغي أن بعض الأئمة احتج بقول ابن مسعود حين أخذ الناس ينقطنون المصاحف، واعتبروا ذلك النقط تزيدياً ينبغي تجريد المصحف منه^(٢٢).

(٢٠) غريب الحديث ج ٤ ص ٤٧.

(٢١) الإقتان ج ٤ ص ١٦٢.

(٢٢) نقل أبو عبيد (فضائل القرآن لوحة ٥٧) عن هشيم أنه قال: أخبرنا مغيرة عن ابراهيم: « أنه كان يكره نقط المصاحف، ويقول جردوا القرآن ولا تخلطوا به » وانظر الداني: الحكم ص ١١.

وما يستوقف نظر الدارس لهذه القضية عند علماء السلف أن أبا عمرو الداني الذي يذهب أن المصاحف العثمانية جردت من النقط والشكل « من حيث أرادوا الدلالة على بقاء السّعة في اللغات، والفسحة في القراءات »، قد ردد في أكثر من كتاب من كتبه أن العرب لم تكن أصحاب شكل ونقط، قال في المحكم: (٢٣) « إن العرب لم تكن أصحاب شكل ونقط، فكانت تصور الحركات حروفاً، لأن الإعراب قد يكون بها كما يكون بهن، فتصور الفتحة الفاء، والكسرة ياء، والضمة واواً، فتدل هذه الأحرف الثلاثة على ما تدل عليه الحركات الثلاث من الفتح والكسر والضم، وما يدل على أنهم لم يكونوا أصحاب شكل ونقط وأنهم كانوا يفرقون بين المشتبهين في الصورة بزيادة الحروف الحاقهم الواو في (عمرو) فرقاً بينه وبين (عمر) ... ». وأورد الداني نفس الفكرة في كتابه (الموضح) وهو يتحدث عن فكرة الفرق بين الكلمات المتشابهة في الهجاء فقال « والعرب لم تكن أهل شكل ونقط ... » (٢٤). ونقل علم الدين السخاوي نص كلام الداني في الموضح في كتابه جمال القراء (٢٥).

وموقف الداني من هذه القضية - الذي يبدو غير خال من التناقض - يدفع الى الحذر عند دراسة أقوال علماء السلف في هذا الموضوع، خاصة أن تفاصيل كثيرة من تاريخ الكتابة العربية كانت غائبة عنهم، ولم تعرف الا منذ وقت قريب، ولعل موقف بعض الصحابة والتابعين وكراهتهم لنقط المصاحف (٢٦) يعتبر دليلاً على أن ذلك كان حدثاً جديداً في الإسلام ولم تكن تعرفه الكتابة العربية من قبل، وأنه حدث بعد نسخ المصاحف العثمانية أيضاً، إذ لو كان موجوداً لما تردد الصحابة في استعماله لضبط المصحف، وقد ظل التردد في أمر نقط المصاحف وضبطها يغلب على مواقف بعض العلماء، وقد كان الناس يسألون

(٢٣) ص ١٧٦-١٧٧.

(٢٤) ورقة ٢٥ ب.

(٢٥) انظر ورقة ١٨٦ ب-١٨٧/أ.

(٢٦) انظر الداني: المحكم ص (١٠-١١).

الإمام مالكاً (ت ١٧٩ هـ) إمام المدينة عن رأيه في نقط المصاحف، وما أحدثه الناس من الهجاء فيقول: «أما الإمام من المصاحف فلا أرى أن ينقط، ولا يزداد في المصاحف ما لم يكن فيها، وأما المصاحف الصغار التي يتعلم فيها الصبيان وألواحهم فلا أرى بذلك بأساً» (٢٧).

ودرس بعض المحدثين من المهتمين بتاريخ الكتابة العربية هذه القضية، وكان منهم ما يشبه التسليم العام بانعدام نقط الاعراب قبل الإسلام، (٢٨) ودارت مناقشتهم حول البحث عن أوليات نقط الإعجام الذي يميز الحروف المشابهة في الكتابة العربية، وكان الأستاذ حفي ناصف (ت ١٩١٨ م) أول من تحدث عن هذا الموضوع، فقال من بين ما قاله (٢٩): «ويبعد كل البعد أن تكون الحروف

(٢٧) انظر الداني: الحكم ص ١١.

(٢٨) ذكر حفي ناصف (تاريخ الأدب ص ٧٠ هامش ١): «أن النقط للإعجام أو الشكل لم يكن مستعملاً في زمن عثمان، وإنما النقط الذي كان في زمنه كان عبارة عن علامات خاصة باللغات التي كان الصحابة يقرأون بها... فقد كانت الصحف المودعة عند حفصة مبيّنة فيها اللغات الأخرى بنقط على الحروف اصطلاحاً على وضعها للدلالة على الإمالة وضم ميم الجمع والإشمام والهمز والتسهيل وغير ذلك من القراءات». ولا أدري على أي شيء استند الأستاذ المرحوم حفي ناصف في تقرير هذه الملاحظة إذ لم أعتز على خبر يشير إلى شيء من ذلك. وقد ادعى الدكتور عبد المحي الفرماوي قدم نقط الإعراب، وقال (ص ١٨٩) إنه «أقدم ميلاداً ووجوداً من نقط الإعجام». وقد فهم قول الدكتور ناصر الدين الأسد (ص ٤٠) عن نقش الطائف «فإن أكثر حروفه التي تحتاج إلى نقط منقوطة معجمة» فهماً خاطئاً فقال (ص ١٩١) بينما التصريح في نقش الطائف عن نقط الإعراب ونقط الإعجام «ورغم أن تعبير الدكتور الأسد (منقوطة معجمة) تعبير غير دقيق إلا أن نظرة واحدة إلى صورة النقش تكفينا تكلف القول في هذا الموضوع إذ لا يظهر في هذا النص غير نقط الإعجام.

(٢٩) تاريخ الأدب ص ٧٠. وقد نقل كلامه الزنجاني في تاريخ القرآن ص ٦٧ وانظر أيضاً: حامد عبد القادر ص ٨٦ ود. عبد العال سالم مكرم ص ٤٠.

موضوعة في أول أمرها على هذا اللبس المنافي لحكمة الواضعين، الذاهب بحسن الاختراع، فإما أن يكون لكل حرف شكل مخالف لسائر الحروف ثم اتحدت الأشكال المتقاربة، وصارت شكلاً واحداً، بتساهل الكتاب وطول الزمن، وأما أن يكون بعض الأشكال موضوعاً لعدة أحرف ووضع الإعجام لتمييزها بعضها عن بعض». ثم يقول: «إن الإعجام موضوع قبل الإسلام ولكن تساهل الكتاب في أمره شيئاً فشيئاً، حتى تنوسي ولم يبق الا النادر الى أن جاء زمن عبد الملك فحتم على كتاب دولته رعايته». وفي كلام الأستاذ حفي ناصف ما يلفت النظر وهو قوله «فأما أن يكون لكل حرف شكل مخالف لسائر الحروف ثم اتحدت الأشكال المتقاربة وصارت شكلاً واحداً بتساهل الكتاب وطول الزمن..» وهو ما يفسر به علماء الكتابات القديمة - في الوقت الحاضر - تشابه بعض رموز الكتابة العربية.

وبحث الدكتور ناصر الدين الأسد هذا الموضوع وتوسع فيه وجمع أدلة جديدة تعضد احتمال كون نقط الإعجام قديماً في الكتابة العربية، فبعد ان درس النقوش العربية التي ترجع الى ما قبل الإسلام وبين خلوها من النقط، عرض لأقوال بعض علماء السلف في مجيء المصاحف العثمانية من غير نقط ولا ضبط، فنقل كلاماً للقاضي أبي بكر بن العربي في ذلك ووضحه بكلام ابن الجزري الذي مر ذكره، ثم أورد ما فسر به الزمخشري قول ابن مسعود الذي ذكرناه من قريب وهو «جردوا القرآن...»^(٣٠). وجعل أقوال هؤلاء العلماء الثلاثة تكأة ضم اليها بعض الروايات والأقوال بلغت سبعة^(٣١). لا يكاد يقوم واحد منها دليلاً بيئياً إلا ما ذكره في الحتام من العثور على بردية مكتوبة بالعربية واليونانية ترجع الى سنة ٢٢ هجرية، وعلى نقش مكتوب سنة ٥٨ هـ قرب الطائف في الحجاز، وقد ظهرت بعض الحروف معجمة في هذين النصين ولكن

(٣٠) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص (٣٤-٣٥).

(٣١) نفس المصدر ص (٣٧-٤١).

قد صرح الدكتور الأسد « ان هذا كله لا يقوم وحده دليلاً قاطعاً عن وجود النقط قبل الإسلام ».

وتناول هذا الموضوع أيضاً الدكتور صلاح الدين المنجد، واستعان بالبردية المؤرخة سنة ٢٢ هجرية وبنقش الطائف (٥٨ هجرية)، وحاول استنطاق بعض الأخبار والآثار المروية من مثل قول ابن الجزري السابق في تجريد المصاحف ليدلل على أن نقط الإعجام كان معروفاً منذ أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن ما يقال من أن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر هما اللذان اخترعاه غير صحيح (٣٢).

وسنعود إلى موضوع الإعجام مرةً أخرى في الصفحات التالية، ويكفي أن نقرر هنا أن العلماء متفقون على أن الروايات التاريخية بشأن استعمال نقط الإعراب في المصاحف - مما سنورده بعد قليل - ليست موضع شك، أما قول بعضهم إنَّ نقط الإعجام قديم وإنه ربما وُضع مع الحروف أو إنه استعمل قبل الإسلام، استناداً إلى ما تقدّم من أقوال وأخبار، واستناداً إلى دلالة بعض الوثائق فنرى إنَّ الاعتقاد على تلك الأقوال وحدها غير كافٍ، خاصة إنها لا تخلو من غموض أو تناقض أو إنها قيلت في فترات متأخرة مع غياب معرفة التاريخ الصحيح لبداية نقط الإعجام عن القائلين بها. ثم إنَّ الاعتقاد على ما ظهر من نقط في البردية والنقش المشار إليها لا يكاد يرد الروايات المشهورة، أو يضع حداً للتساؤل في هذا المجال، خاصة إن كليهما لا يزال يحتاج إلى توثيق كما سيتبين بعد قليل.

إن الكتابة العربية كما تتجلى خصائصها في الرسم العثماني كانت في تلك الفترة لا تشير إلى الحركات القصيرة بأي رمز أو علامة، كذلك كانت عدة أصوات تشترك بـرمز كتابي واحد. ومن ثم فإن جهود العلماء انصبت على تكميل هذين النقصين، بايجاد علامات للحركات القصيرة وتمييز الرموز التي تدل على أكثر من صوت ليستقل كل صوت بـرمز واحد يدل عليه لا يشركه فيه غيره. ولم

(٣٢) انظر دراسات في تاريخ الخط العربي (ص ١٢٥-١٢٦)، وانظر بعض تلك الأخبار: السيوطي تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ج ٢ ص ٦٨ و٦٩ و٧١.

تقف جهودهم عند هذا الحد بل وضعوا علامات أخرى تشير الى بعض حالات النطق حرصاً منهم على ضبط الفاظ التلاوة، فقال ابن درستويه وهو يتحدث عن الشكل (٣٣) «ان الشكل زيادة تلحق الحروف للحاجة اليها، وهو على ضربين: ضرب هو صور الحركات والسكون اللذين تعرف بها الحروف وتبين كما كان المعجم صوراً للحروف، وضرب هو زيادة يوتى بها مع الحرف للفرق كما كان النقط كذلك... فأما الشكل الذي هو صور للحركات والسكون فاربعة أشياء: الفتحة والضممة والكسرة والوقفة... وأما الشكل الذي هو زيادة للفرق فهو خمس علامات التشديد والتنوين والهمزة والمدة وعلم الف الوصل».

وسوف أتناول المسائل المتقدمة من خلال ثلاثة مباحث، ادرس في الأول علامات الحركات القصيرة فقط، واتبع فيه تطورها من مجرد كونها نقطاً يخالف بين أماكنها الى اختصاص كل منها بصورة معينة. أما علامة السكون التي أدرجها ابن درستويه مع صور الحركات فلا نرى لها مكاناً معها، وادرس في الثاني العلامات التي مَيَّز بها الكتاب بين رموز الأصوات التي تشترك في رمز واحد. واتبع ذلك من خلال الروايات والمصاحف المخطوطة. وأتناول في الثالث العلامات التي استعملت لتخصيص حالات نطقية معينة وهي العلامات التي سماها ابن درستويه (زيادة يوتى بها مع الحرف للفرق) وسأضم الى الخمسة التي ذكرها علامة السكون لأنها لا تمثل في واقع النطق حركة معينة، وإنما هي تشير الى انعدام الحركة، حتى لا يظن القارئ أن الحرف مشدد أو محرك بمجرد قصيرة، فدرستها مع العلامات التي تخصص حالات نطقية معينة أولى من دراستها مع علامات الحركات.

وقبل أن أفصل القول في هذه الأنواع الثلاثة من العلامات أشير إشارة موجزة إلى ما كتب في هذا الموضوع من مؤلفات وما وصل إلينا منها. إذ أنها ستكون المصدر الذي اعتمد عليه في دراسة هذا الموضوع، ثم أذكر ما أتيت لي الاطلاع عليه من المصاحف والوثائق المخطوطة التي تقدم الدليل الملموس على صحة ما

كتبه علماء السلف ورووه في كتبهم عن هذا الموضوع.

ومثل ما رأينا من الأهمية العظمى لكتاب (المقنع) للداني في موضوع الرسم نجد كتابه (الحكم في نقط المصاحف) يتبوأ نفس الأهمية في موضوع نقط المصاحف وضبطها، بل ربما ناف على المقنع في ذلك، إذ تزداد هذه الأهمية حين نعلم قلة ما وصل إلينا من مؤلفات النقط والشكل، ويبدو أن التأليف في هذا الموضوع قديم حتى انه قد روى أن أبا الأسود الدؤلي الذي تنسب إليه أغلب المصادر العربية أولية وضع نقط الإعراب قد وضع مختصراً في ذلك^(٣٤)، ولا ندري هل كان هذا المختصر في النقط أم هو ما ينسب إليه من وضع بعض أبواب في النحو^(٣٥). وذكر ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) ستة من الكتب في هذا الموضوع أقدمها كتاب الخليل بن أحمد في النقط^(٣٦).

وذكر الداني (ت ٤٤٤ هـ) في مقدمة الحكم أشهر من ألف في الموضوع من سبقه فقال^(٣٧): «وأول من صنف النقط ورسمه في كتاب، وذكر علله الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) ثم صنف بعده جماعة من النحويين والمقرئين، وسلكوا فيه طريقه، واتبعوا سنته، واقتدوا بمذاهبه. منهم أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (ت ٢٠٢ هـ) وابنه أبو عبد الرحمن عبد الله بن أبي محمد (ت ٢٣٧ هـ)، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) وأبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى (ت ٣٣٤ هـ) وأبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) وأبو بكر محمد بن عبد الله بن أخته (ت ٣٦٠ هـ) وأبو الحسن علي بن محمد بن بشر مقرئ أهل بلدنا (ت ٣٧٧ هـ) وجماعة غيره غير هؤلاء.»

- (٣٤) انظر أبو بكر الأنباري ج ١ ص ٤١ والداني: الحكم ص ٤.

- (٣٥) انظر السيرافي: أبو سعيد الحسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين. بيروت ١٩٣٦. ص ١٨ وأبو بكر الزبيدي ص ١٣ وأبو البركات الأنباري ص ٩ والقفطي

ج ١ ص ٥.

(٣٦) الفهرست ص ٣٥.

(٣٧) الحكم ص ٩.

وأشار محقق كتاب الحكم في مقدمة التحقيق الى أسماء آخرين من الف في موضوع النقط غير من ذكرهم الداني، خاصة من علماء العربية منهم أبو اسحاق ابراهيم بن سفيان الزياتي (ت ٢٤٩ هـ) وابو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢ هـ). وأبو بكر محمد بن السري بن السراج (ت ٣١٦ هـ) وأبو بكر محمد بن القاسم الانباري (ت ٣٢٧ هـ) وأبو الحسن علي بن عيسى الرمازي (ت ٣٨٤ هـ) (٣٨)

ولم يصل من تلك المؤلفات شيء سوى كتاب (الحكم) للداني، ولا شك أن بقاءه سالماً حتى رأى النور مطبوعاً قد عوض فقد الأصول الاولى لهذا العلم، لأن الداني قد أودع في هذا الكتاب خلاصة كتب سابقه المؤلفة في موضوع النقط، كما أودع في (المقنع) خلاصة كتب سابقه المؤلفة في موضوع الرسم (٥).

وقد جعل الداني كتابه (الحكم) أبواباً يتحدث فيها عن تاريخ النقط ومذاهب الناقطين فبدأ بذكر أوليات النقط ومن بدأ به ثم من كره ذلك من السلف ومن ترخص فيه، وذكر باباً جامعاً في موضوع النقط، وتحدث بعده عن حروف التهجي وترتيبها وعن اعجام الحروف ونقطها بالسواد، وتحدث في الأبواب التالية عن كيفية نقط الحركات، ثم التشديد والسكون والمد والتنوين وإحكام نقط المظهر والخفي والمدغم من الحروف، واحكام همزة الوصل. وتحدث في عدة أبواب متتالية عن كيفية نقط الهمزة وموقعها من الحروف الثلاثة، ثم تحدث في الأبواب الأخيرة من الكتاب عن نقط ما نقص هجاؤه، ثم ما زيد فيه، وختم الكتاب بباب عن اللام الف، كل هذا على مذهب نقاط المصاحف، وقد الحق بالكتاب عدة أبواب تتعلق «بذكر مذاهب متقدمي أهل النقط من النحاة كالخليل واليزيدي وغيرها، ومذهب من سلك طريقهم واقتفى آثارهم من نقاط أهل المصريين، الكوفة والبصرة، وسائر العراق، وما جرى عليه استعمالهم، واتفقت عليه جماعتهم» (٤٠).

(٣٨) الدكتور عزة حسن: مقدمة التحقيق ص (٣٢-٣٣).

(٣٩) انظر أهمية هذا الكتاب: المصدر السابق ص (٢٠-٢١).

(٤٠) الحكم ص ٢٠٩. وقد استغرق ذلك من ص (٢٠٩-٢٥٩) من الكتاب.

وللداني كتاب صغير آخر في موضوع النقط هو الذي الحقه بكتاب (المقنع) والذي طبع معه، وقد تناول فيه من الموضوعات ما تناوله في كتاب الحكم الا انه جاء موجزاً خالياً من التفصيل الذي نجده في الحكم. وقد رجح محقق كتاب الحكم أن يكون للداني كتاب ثالث في نقط المصاحف هو كتاب (التنبية على النقط والشكل)^(٤١).

ومع أن كتاب (الحكم) للداني يعتبر أجمع وأقدم كتاب وصل في موضوع النقط فقد جاءت عن بعض المؤلفات التي ترجع الى فترات تسبق عصر الداني فصول صغيرة تتحدث عن الموضوع أو شيء من تاريخه. من ذلك ما ذكره أبو عبيد (ت ٢٢٤ هـ) في فضائل القرآن حول من كره نقط المصاحف ومن ترخص في ذلك من التابعين خاصة^(٤٢)، وسبق أن أشير الى أن لأبي حاتم السجستاني كتاباً في الموضوع، وقد قال عنه ابن النديم «كتاب أبي حاتم السجستاني في النقط والشكل، مجداول ودارات»^(٤٣)، ويبدو أن فصولاً من كتاب أبي حاتم قد وصلت إلينا بواسطة ابن أبي داود في كتابه (المصاحف) فبعد أن ذكر أول من نقط المصاحف ومن كره ذلك ومن ترخص فيه ذكر باباً عن كيفية نقط المصاحف ابتدأه بقوله: «قال أبو حاتم السجستاني، ونقطه بيده: هذا كتاب يستدل به على علم النقط ومواضعه»^(٤٤) ثم تحدث عن كيفية نقط الحركات الثلاث، ومقدار ما ينقط من الكلم، ثم كيفية نقط الهمزة ومواضعه، وذكر فصلاً عن كيفية نقط ما جاء على غير الهجاء من مثل (العلموا ونشوا) وما كان مثله من باب الهمز خاصة، ويبدو أن كل ما ذكره ابن أبي داود في هذا الباب^(٤٥) إنما نقله من كتاب أبي حاتم في النقط كما صرح في أوله. ولكننا لا نجد الجداول والدارات التي

(٤١) الدكتور عزة حسن ص ٢٥ من مقدمة التحقيق.

(٤٢) فضائل القرآن لوحة ٥٧.

(٤٣) الفهرست ص ٣٥.

(٤٤) المصاحف ص ١٤٤.

(٤٥) من ص (١٤٤-١٥٠) من كتاب المصاحف.

ذكرها ابن النديم ولعل ابن داود ترك بعضاً من الكتاب.

وقد وردت في كتاب أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه (٣٤٦ هـ) المسمى كتاب (الكتاب) فصول عن نقط الاعجام والشكل على مذاهب الكتاب وأهل العربية، وقد تضمن هذا الكتاب معلومات قيمة عن الكتابة العربية عامة وعن موضوع النقط والشكل خاصة^(٤٦).

أما ما كتب في موضوع النقط بعد عصر الداني فيبدو محدوداً، وما أُلّف فيه كان يدور حول كتاب المحكم أيضاً ويستمد منه بصورة عامة، فقد نظم أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله الأموي الشريشي الخراز المتوفى سنة ٥٧١٨ هـ، قواعد النقط في أرجوزة جعلها خاتمة نظمه المشهور بمورد الظمان الذي سبقت الإشارة إليه في مصادر الرسم، وقد اشتهرت هذه الأرجوزة باسم (ضبط الخراز) وبلغت أربعة وخسين ومائة بيت^(٤٧). وأبتدأها بعد أن أم ما أراد من موضوع الرسم بقوله: ^(٤٨)

هذا تمام نظم رسم الخطّ وها أنا أتبعه بالضبط
كيا يكون جامعاً مفيداً على الذي ألفيته معهوداً
مستنبطاً من زمن الخليل مشتهراً في أهل هذا الجيل

وضمنها الخراز من موضوعات النقط ما سبق أن أشرنا إليه من موضوعات المحكم من أحكام وضع الحركة ثم السكون والتشديد والمد والمدغم وأحكام الهمزة والصلة ونقط ما نقص هجاؤه وما زيد فيه، وكيفية نقط اللام الف، على اختلاف يسير بينه وبين المحكم حتمته هذه السنين الطويلة بينها، وما حدث خلالها من تطور في كيفية النقط.

(٤٦) انظر ص ٥١ وما بعدها من الكتاب، ونجد في الجزء الثالث من صبح الأعشى للقلقشندي معلومات جيّدة تساعد في معرفة تاريخ الشكل والنقط في الكتابة العربية.

(٤٧) المارغني ص ٤٣٩.

(٤٨) نفس المصدر ص ٣١٩.

ونظم ميمون بن مساعد المصمودي المتوفى بفاس سنة ٨١٦هـ^(٤٩) كتاب (الحكم) لأبي عمرو الداني، مع الاستفادة من كتب أخرى كالتزويل لأبي داود سليمان بن نجاح تلميذ الداني، في أرجوزة طويلة في نقط المصحف، سماها (الدرة الجلية)^(٥٠).

وقد شرح أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي (ت ٨٩٩هـ) (ضبط الخراز) وسَمَّى ذلك الشرح (الطراز في شرح ضبط الخراز)، واعتمد في شرحه على ما عند أبي عمرو الداني وتلميذه أبي داود^(٥١)، وتوجد من هذا الكتاب عدة نسخ مخطوطة^(٥٢)، ويبدو أن شرح التنسي لم يكن أول شرح لضبط الخراز، فقد صرح في المقدمة أن هناك شراحاً سبقوه حين يقول^(٥٣): «وبعد فاني لما رأيت من تكلم عن ضبط الأستاذ أبي عبد الله الشريشي المعروف بالخراز وجدتهم بين مختصر اختصاراً مغللاً، ومطول تطويلاً مملأ، فتاقت نفسي الى أن أضع عليه شرحاً متوسطاً يكون أنشط لقارئيه وأقرب لفهم طالبيه فشرعت فيه مستعيناً بالله تعالى، وسميته بالطراز في شرح ضبط الخراز». وأشارت من قبل الى أن المارغني شرح مورد الظمان والضبط معتمداً على شرحي ابن عاشر الانصاري وأبي عبد الله التنسي.

وإضافة الى ذلك نجد أحياناً فصولاً عن الضبط في بعض الكتب المؤلفة في رسم المصحف بعد عصر الداني، من ذلك الفصل الذي أورده ابن وثيق

(٤٩) عمر رضا كحالة ج ١٣ ص ٦٦.

(٥٠) انظر د.عزة حسن: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (علوم القرآن) دمشق ١٩٦٢ ص ٣٦٠، وفيها نسخة مخطوطة من الأرجوزة. وذكر صاحب معجم المؤلفين (ج ١٣ ص ٦٦) ان للمصمودي كتاباً في النقط غير الدرّة اسمه (المورد الروي في نقط المصحف العملي).

(٥١) انظر د.عزة حسن: مقدمة تحقيق الحكم ص ٣٤.

(٥٢) نفس المصدر ص ٣٥.

(٥٣) الطراز ورقة ١ ب.

الأندلسي (٥٦٧-٦٥٤ هـ) في آخر كتابه في الرسم^(٥٤). والفصل الذي أورده أبو طاهر العقيلي (ت ٦٢٣ هـ) في آخر كتابه أيضاً^(٥٥). ورغم أن هذه الفصول لا يتجاوز الواحد منها بضع صفحات إلا أنها مهمة في بيان تاريخ نقط المصاحف وتطوره، إذ كثيراً ما ينص المؤلفون على طريقة نقط المصاحف المتبعة في عصرهم.

ويبدو أن التأليف في موضوع النقط والشكل قد قل الاهتمام به بعد عصر الداني نسبياً، ويرى الدكتور عزة حسن أن السبب في ذلك هو انصراف الناس في العصور المتأخرة عن طريقة النقط المدور في ضبط المصاحف الى طريقة الشكل المأخوذ من صور الحروف الذي وضعه الخليل بن أحمد واتبعه النحويون وأهل اللغة، لأنها أسهل وأقرب الى فهم القارئ^(٥٦).

ويلاحظ أيضاً أن التأليف في هذا الموضوع بعد عصر الداني قد تركز في بلاد المغرب والأندلس، بينما لا نكاد نجد في المشرق من اهتم بهذا الموضوع في العصور المتأخرة، وكان أهل المغرب والأندلس كانوا أكثر تشبهاً بطريقة النقط المدور التي تحتاج الى خبرة ومعرفة واسعة بها من أهل المشرق الذين استعملوا طريقة الشكل الذي وضع أسسه الخليل منذ وقت مبكر على نحو ما سنبين ذلك بعد قليل.

أما الوثائق المخطوطة التي سوف استعين بها في متابعة تطور النقط والشكل في الكتابة العربية على نحو ما ترويه الكتب المؤلفة في هذا الموضوع فإن من الصعوبة بمكان الوصول الى كل ما هو موجود منها في مكتبات التراث الإسلامي في العالم، إذ لا تخلو مكتبة من تلك المكتبات من مصحف مخطوط أو أجزاء منه أو من بردية أو عملة معدنية أو كتاب قديم مخطوط أو كتابة على لوح من

(٥٤) لوحة (٣٣-٣٨).

(٥٥) انظر لوحة ٢٤ وما بعدها.

(٥٦) مقدمة تحقيق الحكم ص (٣٣-٣٤).

الصخر أو الرخام. وقد كان مما يسر لي الوصول الى كثير من نماذج المصاحف والكتب المخطوطة التي ترجع الى فترات متقدمة وغير ذلك من الوثائق المخطوطة، تلك المجموعات الخطية المصورة التي حرص مؤلفوها على انتقاء صور للمخطوطات العربية أيا كان موضوعها أو المادة التي كتبت عليها، موزعة على العصور المختلفة، وقد كان للمصاحف القسم الأكبر من تلك المجموعات رغم صعوبة تحديد تاريخ القديم منها تحديداً دقيقاً، ولعل أوسع مجموعة ضمت أشمل عدد من النماذج الخطية هي مجموعة B. Moritz الذي جمع فيها نماذج خطية تمتد من القرن الأول حتى نهاية القرن العاشر الهجري^(٥٧)، وقد ضمت دراسة الدكتور صلاح الدين المنجد عن تاريخ الخط العربي كثيراً من صور خطوط المصاحف والخطوط العربية القديمة على الحجر والرق وغيرهما^(٥٨). كذلك يمكن الاستفادة في هذا المجال من المجموعة الخطية التي جمعها الأستاذ ناجي زين الدين وأورد فيها نماذج مختلفة من أنواع الخط العربي^(٥٩)، الى جانب كثير من المصادر الأخرى التي اهتمت بموضوع الخط العربي وضمت لوحات من ذلك التراث، هذا الى جانب بعض المصاحف الكريمة المخطوطة التي أمكنني الاطلاع عليها في دار الكتب المصرية، مما سأشير اليه في موضعه.

ومع أن هذه المصادر قد أتاحت للبحث نماذج كثيرة ومن جهات متعددة ومتباعدة هي ثمرة جهود كثير من العلماء الذين سهلوا على الباحثين سبل الاطلاع عليها الا أن طريقة التصوير بالأبيض والأسود قد طمست الألوان المتعددة التي ضبطت بها بعض المصاحف القديمة، بحيث يصعب فهم دلالة العلامات أحياناً،

(٥٧) - B. Moritz: Arabic Palaeography. Cairo 1905

(٥٨) د. صلاح الدين المنجد: دراسات في تاريخ الخط العربي. بيروت ١٩٧٢.

(٥٩) ناجي زين الدين: مصور الخط العربي. بغداد، الجمع العلمي العراقي ١٩٦٨ م.
وللأستاذ ناجي كتاب آخر في الموضوع لا يخلو من فائدة في هذا المجال هو: بدائع الخط العربي. بغداد، وزارة الاعلام ١٩٧١.

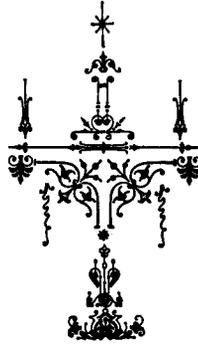
فالمصحف الذي أورد منه موريتز في مجموعته عدة لوحات (٣٦-٣١) بدت فيه العلامات جميعاً وأصل الخط بلون واحد، ولولا أني كنت اطلمت على أصل هذا المصحف بدار الكتب المصرية^(٦٠)، وعرفت طريقة رسم العلامات فيه والألوان التي استعملت في ذلك لما أمكن فهم طريقة ضبطه بسهولة، خاصة أنه يبدو قد ضبط على أكثر من قراءة، ومن ثم فإن عدم توضيح الوان المداد المستعملة في الصور الخطية في المراجع المذكورة يجعلنا نجمل ذلك أو نعجز عن تحديده، الى جانب ما قد يجلبه من صعوبة في فهم ضبط تلك اللوحات.

ولا بد من الإشارة هنا أيضاً الى حقيقة مهمة تتعلق بجانب الاعتقاد على النماذج المصورة وهي أن التصوير مهما جاء دقيقاً فإن احتمال غموض بعض ملامح الأصل يظل قائماً، خاصة إذا كان الأصل قد أثرت عليه عوامل البلى لتقادم السنين، كما سلاحظ في البردية المؤرخة سنة ٢٢ هجرية، ولعل أوضح مثال يجلي خطورة الاعتقاد على النماذج المصورة - وهو ما لا نجد بدأ منه - ما لاحظناه على صورة نقش القاهرة المؤرخ بسنة (٣١ هجرية) فقد بدت اللام في كلمة (لعبد الرحمن) في السطر الثاني منه منقطعة عن العين في أغلب المصادر التي نشرت صورته، وحاولت الاستعانة بهذه الظاهرة في تفسير انقطاع لام الجر في الرسم العثماني في مثل (مال هؤلاء) - كما مر بيان ذلك - ولكن بعد أن اطلمت على الأصل المحفوظ في متحف الفن الإسلامي وجدت أن ما ظننته من انقطاع اللام في (لعبد) غير صحيح وأن ما بدا في الصورة المنشورة للنقش من انقطاع اللام إنما هو بسبب عجز الصورة عن إظهار انكسارات الخط المنقوش على الصخر، ومع ذلك فلعل اليقظة في تأمل الصور الى جانب الحذر يمكن أن تخفف شيئاً قليلاً من خطر الاعتقاد عليها.

وبالمثل فإن إمكانيات البحث ووسائله تعجز عن إظهار الالوان في ضبط الكلمات كما روى علماء النقط، وكما نجد في بعض المصاحف المخطوطة القديمة،

(٦٠) محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ١ مصاحف.

وسأحاول توضيح ذلك بالوصف ما أمكن، وكذلك قد يصعب إعطاء صورة مطابقة لما يُروى في المصادر أو يوجد في بعض المصاحف المخطوطة وغيرها من علامات، ولكن سأحاول تبين ذلك بخط اليد ما أمكن ان عجزت عن إظهاره الآلة الكاتبة.



المبحث الأول

علامات الحركات القصيرة

كان نزول القرآن الكريم بالعربية، ودخول غير العرب في الاسلام، وحرصهم على تلاوة القرآن وتعلم العربية، وما حدث من انسياح المسلمين من قلب الجزيرة إلى كل جهات الأرض، وما صاحب ذلك كله من امتزاج لغوي ومن اتساع استعمال الكتابة - قد خلق وضعاً لغوياً جديداً لم يكن من اليسير على الكتابة العربية أن تستجيب له وهي على حالتها القديمة من إهمال تمثيل الحركات، فمع ازدياد حجم النصوص التي تكتب بها ضعفت السليقة التي كان يقرأ بها العربي النص المكتوب قراءة صحيحة، كذلك فإن المسلمين من غير العرب لم يكن من اليسير عليهم تجنب الخطأ فيما يقرأون من نصوص مكتوبة بها، فكان ذلك مدعاة للتفكير بوسيلة تعين على ضبط القراءة خاصة في القرآن الكريم ومن ثم فإن قول اللغوي الفرنسي فندريس^(١): إن العناية التي تبذلها اللغة في تسجيل الأصوات ترجع إلى انتشار اللغة بين أقوام لم يكونوا يتكلمونها بسليقتهم، يبدو صحيحاً.

وقد أدرك علماء السلف تلك الحالة التي صارت إليها اللغة في أفواه الناطقين بها، والكتابة التي لم تكن تقدم العون الكافي لتجنب الخطأ في القراءة، فصور

(١) اللغة ص ٤٠٦، وانظر يوهان فك ص ١١ حيث يقول « ان اتخاذ المسلمين الجدد لغة العرب لساناً لهم كان هو الدافع الأول للملاحظات النحوية ».

جانباً من ذلك أبو بكر الزبيدي بقوله^(٢): ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجاً، واقبلوا إليه أرسالا، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة ففشا الفساد في اللغة العربية، واستبان منها في الاعراب الذي هو حليها، والموضح لمعانيها، فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الامم بغير المتعارف من كلام العرب، فعظم الاشفاق من فشو ذلك وغلبته، حتى دعاها الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه وثقيفها لمن زاغت عنه.

وقد أحسن الداني في توضيح الأسباب التي دفعت السلف إلى تكميل الكتابة وخاصة في المصاحف حين قال^(٣): إن الذي دعا السلف، رضي الله عنهم، إلى نقط المصاحف بعد أن كانت خالية من ذلك وعارية منه وقت رسمها وحين توجيهها إلى الأمصار ما شاهدوه من أهل عصرهم، مع قربهم من زمن الفصاحة ومشاهدة أهلها، من فساد ألسنتهم، واختلاف ألفاظهم، وتغير طباعهم، ودخول اللحن على كثير من خواص الناس وعوامهم، وما خافوه مع مرور الأيام وتداول الأزمان من تزيّد ذلك، وتضاعفه فيمن يأتي بعد من هو - لا شك - في العلم والفصاحة والفهم والدراية دون من شاهدوه، ممن عرض له الفساد، ودخل عليه اللحن، لكي يرجع إلى نقطها ويصار إلى شكلها عند دخول الشكول وعدم المعرفة، ويتحقق بذلك إعراب الكلم، وتدرك كيفية الألفاظ.

وكانت علامات الحركات القصيرة الثلاث قد مرت بمراحل من التطور حتى استقرت على النحو الذي نراه اليوم في المصحف، وما يستعمله الناس في كتابتهم، فكانت تمثل في أول الأمر بواسطة نقط مدورة بلون يخالف لون المداد ثم أبدلت بمرور الأيام بعلامات أو حروف صغيرة توضع فوق الحرف أو تحته، وقد كان الانتقال من مرحلة النقط المدور لتمثيل الحركات إلى مرحلة الشكل

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ١ .

(٣) المحكم ص (١٨-١٩).

المستطيل قد استغرق قرناً وتباين سرعة وبطناً تبعاً لاختلاف الأمصار
الاسلامية شرقاً وغرباً^(٤).

(٤) هناك مصطلحات ثلاثة أو أربعة تتردد في مجال تكميل الرسم العثماني والكتابة العربية وهي النقط والشكل والإعجام وأخيراً الضبط، وما شارك هذه الكلمات في المادة، أما (النقط) فهو من نطق الحرف ينقُطه نقطاً، والاسم النقطة والجمع النقط والنقاط، ونقط المصاحف تنقيطاً فهو نقاط (انظر ابن منظور ج ٩ ص ٢٩٤ مادة نطق) وقد استعملت كلمة النقط في معنيين متقاربين الأول الدلالة على النقط الحمراء التي ينسب وضعها الى أبي الأسود الدؤلي والتي تمثل الحركات القصيرة وتُسمى (نقط الاعراب) أو (النقط المدوّر) تمييزاً له عن المعنى الثاني للنقط وهو إعجام الحروف في سمتها بالسواد لتتميز الحروف المتشابهة في الصورة وقد عرف هذا باسم (نقط الإعجام) «والعجم: النقط بالسواد، مثل التاء عليه نقطتان، يقال أعجمت الحرف، والتعجم مثله، ولا تقل عجمت» (الجوهرى ج ٥ ص ١٩٨١) «وتقول أعجمت الكتاب إعجاماً إذا نقطته، وهو معجم، وأنا له معجم. وكتاب معجم ومعجم أي منقوط» (الداني المحكم ص ٢٢-٢٣). وأما (الشكل) فقد قال أبو حاتم «شكلت الكتاب أشكله فهو مشكول إذا قيدته بالاعراب» (الأزهري ج ١ ص ٢٥ وابن منظور ج ١٣ ص ٣٨١) وهو مأخوذ من شكال الدابة (ابن دريد: الجمهرة ج ٣ ص ٦٨) قال «شكلت الدابة أشكله شكلاً إذا شددت قوائمه بالشكال». وقد تفرّد الخليل بإعطاء الشكل معنى الإعجام فقد ذكر ابن سيده (المخصص ج ١٣ ص ٥ وانظر ابن منظور ج ١٣ ص ٣٨١) «صاحب العين شكلت الكتاب أشكله شكلاً - أعجمته» وربما كان معنى الشكل عاماً يشمل كل ما يعين على ضبط الكتابة لكنه خصص بالعلامات التي وضعها الخليل ليستعملها أهل اللغة والنحو في ضبط الكتابة في كتبهم حتى لقد عرف باسم (شكل الشعر) ويقال له مصطلح (النقط المدوّر) للدلالة على النقط الحمراء التي تشير الى الحركات في المصاحف (انظر الداني: المحكم ص ٢٢) وقد عبر العقيلي (لوحه ٢٤) عن شكل الشعر بقوله (الشكل المستطيل) وهو تعبير أكثر توفيقاً إذا قارنا بين طبيعة العلامات في النقط المدوّر وشكل الشعر، ثم إن ما يُعرف بشكل الشعر استخدم في المصاحف، ومن ثم فإن إطلاق مصطلح الشكل المستطيل للدلالة على علامات التحليل استخدام مقبول، وإلى جانب هذه المصطلحات الثلاثة ظهر مصطلح آخر بالرغم من أن استخدامه جاء لاحقاً، وهو (علم الضبط) كمقابل لعلم الرسم، وقد استخدمه الداني كمرادف =

أولاً: النقط المدوّر:

يبدو أن وضع علامات للحركات في الكتابة قد ارتبط بعمل آخر وهو محاولة استكشاف قواعد اللغة العربية وكيفية بناء الجملة وأثر ذلك في حركة أواخر الكلم، فكانت العلامات الكتابية تعين على ضبط القراءة والقواعد النحوية تعين على النطق الصحيح.

كانت البصرة في العراق أسبق الأمصار الإسلامية في دراسة اللغة وتسجيلها، فوقع على عاتق علمائها النهوض بمهمة تكميل الرسم العثماني والكتابة العربية ووضع علامات الحركات، وقد قال ابن سلام الجمحي^(٥): « وكان لأهل البصرة في العربية قدمة، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية، وكان أول من استنّ العربية، وفتح بابها وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي - وهو ظالم بن عمرو بن سفيان... وكان رجل أهل البصرة ». وتقدم المصادر العربية روايات كثيرة عن أول من بدأ بتقعيد القواعد والأسباب التي دفعت إلى ذلك حتى لقد جمع منها السيوطي رسالة سماها: (سبب وضع علم العربية)^(٦). وأغلب تلك الروايات تشير إلى أبي الأسود الدؤلي وأنه أول من وضع العربية ورسم في

= للشكل يقول (الحكم ص ٢٢) « والشكل أصله التقييد والضبط، تقول شكلت الكتاب شكلاً، أي قيّدته وضبطته »، وقد استخدم أبو داود سليمان بن نجاح تلميذ الداني مصطلح (الضابط) للدلالة على ناقط المصحف (التنزيل لوحة ٤)، وكذلك استخدم أبو الحجاج البلوي مصطلح الضبط كمرادف للشكل (الف با، ج ١ ص ٧١ و ١٧٥) واستعمل العقيلي (لوحة ٢٤) مصطلح (الضبط المستطيل) كمرادف لمصطلح (الشكل المستطيل) وقد استخدمه الخراز في منظومته كعكس للرسم (انظر المارغني ص ٣١٩) وما لبث أن استخدم علم الضبط أو فن الضبط (انظر المارغني ص ٤ و ٣٢١). وسأحاول المحافظة على الاستعمال الواضح لهذه المصطلحات تحاشياً لخلط قد يؤدي الى غموض لم ينج منه بعض الدارسين.

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ١٢.

(٦) طبعت ضمن التحفة البهية باستانبول ١٣٠٢ هـ، وهي الرسالة الرابعة، من ص(٤٩-٥٣).

النحو رسوماً، وأنه أول من نقط المصاحف، ولا يعنيها - هنا - أمر ابتداء النحو كثيراً، ولا ما ورد من روايات توضح الدوافع والملاسات التي دفعت إلى ذلك إلا بالقدر الذي يتصل باختراع طريقة تمثيل الحركات القصيرة بواسطة النقط.

وتكاد الروايات المتعلقة ببداية النحو ونقط المصاحف تتفق في مضمونها، فهي تشير دائماً إلى خطأ لغوي قد وقع من بعض المتكلمين في كلامهم أو في تلاوة بعض الآيات الكريمة وذلك نتيجة لضعف في السليقة اللغوية وعدم مساعدة الكتابة العربية آنذاك على تحقيق القراءة الصحيحة وتجنب الخطأ، فتذكر بعض الروايات أن أبا الأسود الدؤلي سمع ابنته تلحن فدفعه ذلك إلى التفكير في عمل شيء يقي الناس من اللحن، وتذكر مصادر أخرى أن أبا الأسود سمع رجلاً فارسياً اسمه سعد وقد لحن في كلامه فضحك منه من سمعه، وبعضها يذكر أن زياداً - أمير البصرة - سمع لحناً فاحشاً من قوم حضروا عنده، فطلب من أبي الأسود أن يضع للناس ما يمنعهم من الخطأ في كلامهم. وتشير بعض الروايات إلى أن أبا الأسود سمع بعض من يخطئ في القراءة فدفعه ذلك إلى نقط المصحف ووضع أبواب في النحو. وتذكر بعض المصادر أن أمير المؤمنين علياً - رضي الله عنه - سمع لحناً في العراق فأمر أبا الأسود أن يضع للناس النحو، أو أنه دفع إليه صحيفة فيها بعض من ذلك وأمره أن ينحو نحوها^(٧). ومهما يكن من شيء فإن أغلب تلك الروايات تذكر لأبي الأسود الدؤلي دوراً هاماً في ذلك المجال، لكن بعضها يشير إلى أنه رسم أبواباً من النحو فحسب

(٧) انظر تفصيل تلك الروايات: أبو الطيب اللغوي: عبد الواحد بن علي: مراتب النحويين. مكتبة نهضة مصر. القاهرة ١٩٥٥. ص ٦ وما بعدها. وأبو الفرج الأصبهاني مج ١٢ ص (٣٠٢-٣٠٤) والسيرافي ص (١٥-١٨) وأبو بكر الزبيدي ص (١٤-١٥) وابن النديم ص ٤٠ وأبو البركات الأنباري ص ٤ وما بعدها والقفطي ج ١ ص (٤-٩) وابن خلكان ج ٢ ص (٢١٦-٢١٧) والسيوطي: المزه ج ٢ ص ٣٩٨ ورسالة في سبب وضع علم العربية (له) ص (٤٩-٥٣).

وبعضها ينص على أنه نقط المصاحف والبعض الآخر ينسب كلا العملين لأبي الأسود، والملاحظ أن الروايات التي تذكر نقط المصاحف ترجع جميعها إلى فترة ولاية زياد بن أبيه على البصرة (٤٤-٥٣هـ)^(٨).

ومن أمثلة الروايات التي تتحدث عن بداية النحو ونقط المصاحف ما رواه أبو بكر الأنباري قال: حدثني أبي قال حدثنا أبو عكرمة قال: قال العتيبي: كتب معاوية إلى زياد يطلب عبيد الله ابنه، فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن فرده إلى زياد، وكتب إليه كتاباً يلومه فيه ويقول: (أمثل عبيد الله يضيّع)، فبعث زياد إلى أبي الأسود فقال له: يا أبا الأسود، إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله فأبى ذلك أبو الأسود وكره إجابة زياد إلى ما سأل، فوجه زياد رجلاً وقال له: اقعد في طريق أبي الأسود فإذا مر بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن فيه ففعل ذلك، فلما مرّ به أبو الأسود رفع الرجل صوته يقرأ (إن الله بريء من المشركين ورسوله) - قرأها بجر رسوله - فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم رجع من فوره إلى زياد فقال له: يا هذا قد أجبته إلى ما سألت، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن فابعث إليّ بثلاثين رجلاً، فأحضرهم زياد فاختر منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس، فقال خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله، فإن أتبعته شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره. ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك^(٩).

(٨) تذكر بعض المصادر أن بعض أحداث تلك الروايات قد وقع بين أبي الأسود وبين عبيد الله بن زياد (ت ٦٧ هـ)، انظر أبو الفرج الأصبهاني ج ١٢ ص ٣٠٣، والسيرافي ص ١٧، والسيوطي: سبب وضع علم العربية ص ٥٢.

(٩) إيضاح الوقف والابتداء ج ١ ص (٣٩-٤١). ونقل هذا الخبر أبو عمرو الداني عن =

وكان محمد بن سلام الجمحي قد قال وهو يتحدث عن دور أبي الأسود في تأسيس علم العربية « فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم »^(١٠). وقال ابن قتيبة « هو أول من وضع العربية »^(١١). وقال أبو الطيب اللغوي « كان أول من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلي »^(١٢). ويروي أبو الفرج الأصبهاني عن أبي بكر بن عياش أن عاصم بن أبي النجود قال « أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي »^(١٣)، ويروي - أيضاً - عن المدائني أنه قال « أمر زياد أبا الأسود الدؤلي أن ينقط المصاحف، فنقطها ورسم من النحو رسوماً »^(١٤) ويروي أبو بكر الزبيدي أن أبا العباس محمد بن يزيد المبرد قال: « أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود ظالم بن عمرو »^(١٥). وقال ياقوت « الأكثر على أنه أول من وضع العربية، ونقط المصحف »^(١٦).

وإذا كانت روايات وأقوال هؤلاء العلماء تنص بشكل محدد على دور أبي الأسود الدؤلي في نقط المصاحف وتقدم لنا وصفاً دقيقاً للطريقة التي جرى عليها - وهو ما تؤيده المصاحف المخطوطة القديمة الباقية إلى اليوم - فإنه من غير اليسير تحديد دوره في وضع قواعد العربية رغم أن ابن سلام الجمحي وغيره قد ذكروا أسماء أبواب معينة من النحو، وليس من هدفنا هنا بحث هذه

= أبي بكر الأنباري (المحكم ص ٣-٤) وانظر السيوطي: سبب وضع علم العربية ص (٥٠-٥١).

(١٠) طبقات فحول الشعراء ص ١٢، وانظر ابن النديم ص ٤٠ والقفطي ج ١ ص (٤-٥).

(١١) المعارف ص ١٩٢.

(١٢) مراتب النحويين ص ٦.

(١٣) الأغاني ج ١٢ ص ٣٠٣ وانظر السيرافي ص ١٧. وأبو بكر الزبيدي ص ١٤.

(١٤) الأغاني ج ١٢ ص ٣٠٢. وانظر السيوطي: سبب وضع علم العربية ص ٥١.

(١٥) طبقات النحويين واللغويين ص ١٣.

(١٦) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٣٤.

القضية^(١٧)، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن طريقة أبي الأسود في نقط المصاحف - كما سنبينها بعد قليل - تعتمد على التمييز بين الحركات القصيرة في أواخر الكلم خاصة، وهذه العملية تتيح للقاءم بها نماذج عدة من تغير أواخر الكلمات تبعاً لتغير مواقعها، وهو موضوع النحو عند علماء العربية، وإذا لم يثبت أن لأبي الأسود دوراً في وضع أوليات النحو سوى نقط المصاحف فإن ذلك يعد - وحده - عملاً نحوياً كبيراً خاصة إذا تذكرنا أن ذلك يتم لأول مرة في تاريخ اللغة العربية وكتابتها.

ولورجعنا إلى الأقوال السابقة وتأملنا معنى (العربية) في مثل قولهم: كان أبو الأسود (أول من وضع العربية ونقط المصاحف) لما تبادر إلى الذهن غير ما يسمى اليوم بعلم النحو، ولكن تأمل بعض النصوص القديمة التي ترجع إلى فترات أقرب إلى عصر الدؤلي قد تساعد في تحديد معنى (العربية) التي تقترن دائماً بعمل أبي الأسود الثاني، وهو نقط المصاحف، فقد روى ابن أبي داود جملة أخبار عن الحسن بن يسار البصري (ت ١١٠هـ) ومحمد بن سيرين (ت ١١٠هـ) وهو إمام البصرة مع الحسن^(١٨)، حول كراهتها نقط المصاحف فيقول (كره أن تنقط المصاحف بالنحو أو إنها كانا يكرهان نقط المصاحف بالنحو)^(١٩). ثم ينقل أخباراً

(١٧) بحث هذه القضية الأستاذ ابراهيم مصطفى (انظر: أول من وضع النحو. مقال في مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد (القاهرة حالياً) مج ١٠ ج ٢ سنة ١٩٤٨)، ورفض كل الروايات العربية عن أوليات النحو العربي واعتمد على تتبع أقدم من نسب إليه رأي نحوي فوجده (عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي) فرفض لذلك القول بان أبا الأسود أول من وضع النحو وقال (ص ٧٢) «فعمل أبي الأسود هو نقط المصاحف كما أشارت إليه الروايات». وقد كتب الأستاذ عبد الوهاب حموده بحثاً نقض فيه ما جاء في المقال السابق في نفس المجلة (مج ١٣ ج ١ سنة ١٩٥١) وانظر أيضاً د. حسن عون ص ٢٤٥.

(١٨) ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ١٥١. وانظر ابن قتيبة: المعارف ص ١٩٤.

(١٩) كتاب المصاحف ص ١٤١.

أخرى عن تجويزها ذلك فيقول: عن الأشعث إن الحسن « كان لا يرى بأساً أن ينقط المصحف بالنحو »^(٢٠). ويروي عن محمد بن سيف انه قال: « سألت الحسن عن المصحف ينقط بالعربية »^(٢١). ويروي الداني أن ابن وهب قال: « حدثني الليث (ت ١٧٥) قال: لا أرى بأساً أن ينقط المصحف بالعربية »^(٢٢). فنجد في هذه النصوص أن كلمة (النحو) وكلمة (العربية) قد استعملت استعمالاً مرادفاً لكلمة (النقط)، أو ما عرف فيما بعد (بالشكل)، فهل يعني ذلك أن كلمتي (النحو والعربية) استعملتا بعد النصف الثاني من القرن الهجري الأول للدلالة على نقط المصاحف، وهل يمكن القول بناء على ذلك إن معنى قولهم إن أبا الأسود كان (أول من وضع العربية) هو أن أبا الأسود كان أول من وضع نظام النقط الخاص بالحركات، وأنه أول من استعمله في المصاحف؟ ربما يكون ذلك ممكناً إذا تحقق أن استعمال كلمة (النحو والعربية) بالمعنى الذي ذكر كان مستعملاً فعلاً في تلك الفترة.

ولا بد من الإشارة إلى أن بعض المصادر تنسب وضع نقط المصاحف إلى بعض العلماء الذين جاؤوا بعد أبي الأسود، فيروي ابن أبي داود عن هارون بن موسى أنه قال « أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر »^(٢٣)، وقال السيرافي^(٢٤) « اختلف الناس في أول من رسم النحو فقال قائلون أبو الأسود الدؤلي. وقال آخرون نصر بن عاصم الدؤلي ويقال الليثي، وقال آخرون عبد الرحمن بن هرمز ». وروى السيرافي أيضاً عن خالد الحذاء انه قال: « سألت نصر بن عاصم، وهو أول من وضع العربية: كيف تقرأها؟ قال ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ لم

(٢٠) كتاب المصاحف ص ١٤٢.

(٢١) نفس المصدر والصفحة.

(٢٢) المحكم ص ١٣.

(٢٣) المصاحف ص ١٤١ وانظر الداني: المحكم ص ٥.

(٢٤) أخبار النحويين البصريين ص ١٣.

ينون» (٢٥). وذكر أيضاً أن ابن لهيعة روى عن أبي النضر انه قال: «كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية» (٢٦).

ولكن لا ينبغي أن تصدنا هذه الروايات المحدودة عن ذلك الاجماع الواسع الذي تقدم على أن أبا الأسود هو المبتدئ بنقط المصاحف، ولعل هذه الأخبار التي تذكر نصر بن عاصم (ت ٥٩٠هـ) ويحيى بن يعمر (ت قبل ٥٩٠هـ) وعبد الرحمن ابن هرمز (ت ١١٧هـ) يمكن أن نفهمها من خلال إشارة المصادر إلى أن هؤلاء الثلاثة قد أخذوا عن أبي الأسود الدؤلي علم العربية وتعلموا عليه وتعلموا النقط منه (٢٧)، ولا تذكر المصادر أن عبد الرحمن بن هرمز نقط المصاحف لكنها أشارت إلى أنه أول من وضع العربية (٢٨) ويقول القفطي (٢٩): «والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وأظهر هذا العلم بالمدينة، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة. وكان أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش وما أخذ أهل المدينة النحو إلاّ منه، ولا نقلوه إلاّ عنه» (٣٠). وقال أيضاً (٣١): «قال بعض الرواة نصر بن عاصم أول من وضع النحو وسببه، وهو أول من أخذه عن أبي

(٢٥) نفس المصدر ص ٢٠ وانظر الداني: المحكم ص ٦.

(٢٦) نفس المصدر ص (٢١-٢٢) وانظر أبو بكر الزبيدي ص ٢٠ وابن النديم ص ٣٩.

(٢٧) انظر ابن سلام الجمحي ص ١٣. وأبو حاتم الرازي ج ١ ص ٣٧. وأبو الطيّب

اللفوي ص ١١ والسيرافي ص ٢٢ وابن النديم ص ٤١ والداني: المحكم ص (٦-٧)

وأبو البركات الأنباري ص ١١.

(٢٨) عبارة أبي بكر الزبيدي: عن أبي النضر (ص ٢) «من أول من وضع العربية».

(٢٩) إنباه الرواة ج ٢ ص ١٧٢ وانظر أبو البركات الأنباري ص ١٠.

(٣٠) قال أبو الطيّب اللفوي (٩٨): «فأما مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلا نعلم

بها إماماً في العربية» وقال أبو بكر الزبيدي (٢٠) «عن أبي النضر قال كان عبد

الرحمن بن هرمز من أول من وضع العربية، وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب

قريش. قال محمد: وابن هرمز مدني».

(٣١) إنباه الرواة ج ٣ ص ٣٤٣.

الأسود الدؤلي وفتق فيه القياس وكان أنبل الجماعة الذين أخذوا عن أبي الأسود فنسب إليه». وقال أبو عمرو الداني: «يحتمل أن يكون يحيى ونصر أول من نقطها للناس بالبصرة، وأخذاً ذلك عن أبي الأسود إذ كان السابق إلى ذلك والمبتدئ به»^(٣٢). ولا ينبغي أن يغيب عن البال أن من المحتمل جداً أن يكون معنى النقط الذي ينسب إلى يحيى وعاصم هو إعجام الحروف، كما تدل عليه الرواية المتعلقة باستعمال النقط لتمييز الحروف المشابهة في الصورة، كما سنذكر ذلك في المبحث التالي.

ومهما يكن من شيء فإن الاجماع العام يظل على أن أبا الأسود هو أول من نقط المصاحف حتى عرفت طريقته بنقط أبي الأسود، أما شخصية أبي الأسود فإنها لم تكن مجهولة في عصره، بل كانت لأبي الأسود مشاركة ملموسة في أحداث زمانه، فقد «كان رجل أهل البصرة، وكان علوي الرأي»^(٣٣). ويذكر الطبري لأبي الأسود دوراً في الأحداث التي جرت في أواخر خلافة أمير المؤمنين عليّ - رضي الله عنه - وكان على قضاء البصرة من سنة سبع وثلاثين حتى سنة أربعين من الهجرة^(٣٤)، ويروي أبو الفرج الأصبهاني عن الجاحظ انه قال: «أبو الأسود الدؤلي معدود في طبقات من الناس، وهو في كلها مقدم ماثور عنه الفضل في جميعها»^(٣٥). وقال عنها أبو الفرج نفسه «كان أبو الأسود الدؤلي من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم وقد روى عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فأكثر، وروى عن ابن عباس وغيره، واستعمله عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم»^(٣٦). وقد قال عنه ابن سعد

(٣٢) الحكم ص ٦.

(٣٣) ابن سلام الجمحي ص ١٢. وانظر أبو بكر الزبيدي ص ١٣.

(٣٤) انظر الطبري: التاريخ ج ٤ ص ٤٦١ و ٤٦٢ وج ٥ ص ٧٦ و ٧٩ و ١٣٦ و ١٥٥.

(٣٥) الأغاني ج ١٢ ص ٣٠٤ وانظر ياقوت: معجم الأدباء ج ٢ ص ٣٤.

(٣٦) الأغاني ج ١٢ ص ٣٠١.

في الطبقات الكبرى^(٣٧): « وكان شاعراً متشيعاً، وكان ثقة في حديثه إن شاء الله، وكان عبد الله بن عباس لما خرج من البصرة استخلف عليها أبا الأسود الدؤلي فأقره علي بن أبي طالب عليه السلام. » ويقول ابن الجزري^(٣٨): « إنه أسلم في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يره، وذكر انه كان قارئاً أخذ القراءة عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - فشخصية مثل شخصية أبي الأسود تلك صفاتها كانت مؤهلة لان تقوم بتلك المهمة العظيمة وهي تكميل الرسم العثماني وضبط المصحف، ووضع أولى لبنات علوم القرآن والعربية.

وتشير المصادر إلى أن أبا الأسود توفي سنة تسع وستين من الهجرة، وله خمس وثمانون سنة^(٣٩)، في الطاعون الجارف الذي أصاب البصرة^(٤٠). وقيل انه توفي سنة ٦٧ هـ^(٤١). فلا بد - إذن - أن يكون نقط المصاحف قد عرفه الناس قبل هذا التاريخ، وإذا صح ما تذكره الروايات من ارتباط ذلك بولاية زياد على البصرة فإنه يدل ان ذلك حدث بين سنتي (٤٤-٥٣ هـ) وهي سنوات ولايته على البصرة، وحتى لو كان ذلك قد تم في ولاية ابنه عبيد الله فإنه لن يتجاوز سنة ٦٥ من الهجرة، أي قبل وفاة الدؤلي.

وقبل أن أبين طريقة أبي الأسود في تمثيل الحركات القصيرة بواسطة النقط

(٣٧) مج ٧ ص ٩٩.

(٣٨) غاية النهاية ج ١ ص ٣٤٦.

(٣٩) أبو الفرج الأصبهاني ج ١٢ ص ٣٣٩ وانظر أبو بكر الزبيدي ص ١٩ وأبو البركات الأنباري ص ١١، وابن خلكان ج ٢ ص ٢١٨ وإنباه الرواة ج ١ ص ٢٠.

(٤٠) ذكر الطبري (التاريخ ج ٥ ص ٦١٢) ان الطاعون الجارف حدث سنة ٦٥ هجرية، فهلك به خلق كثير من أهل البصرة.

(٤١) ياقوت: معجم البلدان ج ١٢ ص ٣٥.

المدورة أشير إلى أن بعضاً من الباحثين قد ذهب إلى أن نقط الاعراب عرف قبل أبي الأسود^(٤٢) مستدلين على ذلك بما رواه الداني من أن ابن عمر كان يكره نقط المصاحف^(٤٣). وليس في ذلك أية دلالة على ما قالوه، لان عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - توفي سنة ثلاث وسبعين وقيل أربع وسبعين بعد الهجرة^(٤٤). وإن دلت كراهة ابن عمر على شيء فإنما تدل على أن النقط عرف قبل وفاته - رضي الله عنه - بل تدل على أن أبا الأسود كان فعلاً قد وضع نظام النقط.

واستدل بعضهم على « أن الصحابة هم الذين بدأوا بنقط المصاحف »^(٤٥) بما رواه الداني في المحكم، عن الأوزاعي انه قال: « سمعت قتادة يقول بدأوا فنقطوا، ثم خسوا، ثم عشروا، قال أبو عمرو: هذا يدل على أن الصحابة وأكابر التابعين، رضوان الله عليهم، هم المبتدئون بالنقط ورسم الخموس والعشور، لأن حكاية قتادة لا تكون إلا عنهم، إذ هو من التابعين »^(٤٦). واستدلوا أيضاً بما رواه الداني من أن أهل مكة كانوا على غير نقط أبي الأسود فتركوا نقطهم واتبعوا طريقة أهل البصرة، وينقل أن ابن أشتة قال: « رأيت في مصحف

(٤٢) د. عبد الحي الفرماوي ص (١٩٢-١٩٣).

(٤٣) المحكم ص ١٠. وهذا هو ما جاء في النسخة المطبوعة من كتاب المحكم، لكن جاء في نسخة مخطوطة للكتاب لم يطلع عليها محققه، محفوظة في مكتبة المدينة المنورة، ومنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (رقم ٣٤٤ من مخطوطات السعودية المصورة في المعهد) - ان الذي كره نقط المصاحف هو (أبو عمرو) بدلا من (ابن عمر) ولعل المقصود هو أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ)، وإذا صح ذلك بطل الاستدلال بهذه الرواية أساساً.

(٤٤) ابن سعد مج ٤ ص (١٨٧-١٨٨). وقد قال ابن قتيبة (المعارف ص ٨٠): « انه آخر من مات بمكة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ».

(٤٥) د. عزة حسن: مقدمة تحقيق المحكم ص ٣٠. ود. الفرماوي ص ١٩٧.

(٤٦) المحكم ص (٢-٣).

اسماعيل القسط، إمام أهل مكة، الضمة فوق الحرف، والفتحة قدام الحرف،
ضد ما عليه الناس» (٤٧).

وذلك كله لا يقوم دليلاً على أن نقط المصاحف عرف قبل الدؤلي، فقول
الداني إن حكاية قتادة الذي توفي سنة (١١٧هـ) (٤٨)، لا تكون إلا عن
الصحابة وأكابر التابعين لا تدل على شيء من أمر وضع النقط، فقتادة يتحدث
عمن نقط المصاحف من سبقوه، وهو توفي بعد نصف قرن من وفاة أبي الأسود،
ولا بد أن النقط قد عرف واستعمله الناس في خلال تلك السنين، ويصبح قول
قتادة (بدأوا فنقطوا) لا يدل إلا على عمل أبي الأسود الدؤلي وتلامذته الذين
أشاعوا طريقته.

أما القول بأن أهل مكة كانوا ينقطون على غير نقط أهل البصرة
والاستدلال بمصحف اسماعيل القسط حيث كانت الفتحة فيه قدام الحرف
والضمة فوقه، فلا يدل على أن النقط كان موجوداً في مكة قبل أبي الأسود،
فاسماعيل القسط عاش بين سنتي (١٠٠-١٧٠هـ) (٤٩) وهو تاريخ متأخر عن بداية
استعمال النقط في المصاحف، وإذا كانت دلالة النقط التي استعملها أبو الأسود
على الحركات دلالة اصطلاحية فليس غريباً أن يجعل اسماعيل القسط موضع
الفتحة في مكان الضمة ما دام هو نفسه يعرف دلالة كل نقطة، وطريقته في
أساسها لا تخرج عن طريقة أبي الأسود (٥٠).

(٤٧) المحكم ص (٨ - ٩).

(٤٨) ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٢٦.

(٤٩) ابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ١٦٥.

(٥٠) وانظر الداني (المحكم ص ٧-٨) حيث يبين الداني أن المقصود من قول أبي حاتم
(والنقط لأهل البصرة، أخذه الناس كلهم عنهم، حتى أهل المدينة كانوا ينقطون
على غير هذا النقط، فتركوه، ونقطوا نقط أهل البصرة) هو نقط الهمزة حيث لم
يكن أهل المدينة يحققون الهمزة، فكان نقطهم الهمزات بالصفرة دليلاً على أخذهم
ذلك عن أهل البصرة.

وإذا رجح الآن بما يشبه اليقين القول بأن أبا الأسود الدؤلي هو أول من نقط المصاحف نعرض لطريقة أبي الأسود في تمثيل الحركات بواسطة النقط، وقد مرت من قريب رواية أبي بكر الأنباري عن العتيبي في سبب نقط المصاحف وكيف استعان برجل من عبد القيس اصطفاه من ثلاثين رجلاً وقال له: «خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفقي فانقط واحدة فوق الحرف وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله، فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره»^(٥١).

وينقل الداني أن محمد بن يزيد المبرد قال^(٥٢): «لما وضع أبو الأسود الدؤلي النحو قال: ابغوا لي رجلاً، وليكن لقنا، فطلب الرجل فلم يوجد إلا في عبد القيس، فقال أبو الأسود إذا رأيتني لفظت الحرف، فضممت شفقي فأجعل أمام الحرف نقطة، فإذا ضممت شفقي بغنة فاجعل نقطتين، فإذا رأيتني قد كسرت فاجعل أسفل الحرف نقطة، فإذا كسرت شفقي بغنة فاجعل نقطتين، فإذا رأيت قد فتحت شفقي فاجعل على الحرف نقطة، فإذا فتحت شفقي بغنة فاجعل نقطتين، قال أبو العباس فلذلك النقط بالبصرة في عبد القيس إلى اليوم».

ومن المناسب أن نثبت بعض الروايات الأخرى التي تصف طريقة نقط أبي الأسود خاصة أنها تضيف بعض الأبعاد الجديدة التي لا ينبغي إغفالها. فذكر السيرافي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) إنه قال: «... فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر - قال أبو العباس أحسبه منهم - فقال له أبو الأسود إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت

(٥١) أبو بكر الأنباري ج ١ ص (٣٩-٤١)

(٥٢) الحكم ص (٦-٧).

الحرف، فإن أتبعته شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين، فهذا نقط أبي الأسود» (٥٣).

وذكر أبو الطيب اللغوي في وصف عمل الدؤلي: «قالوا: فجاء أبو الأسود إلى زياد فقال له: أبغني كاتباً يفهم عني ما أقول: فجيء برجل من عبد القيس فلم يرض فهمه، فأتى بآخر من قريش فقال له: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على أعلاه، وإذا ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعته شيئاً من ذلك غنة فاجعل النقطة نقطتين، ففعل، فهذا نقط أبي الأسود» (٥٤).

وقد نقل ابن النديم رواية أبي عبيدة كما ذكرها السيرافي سوى انه أهمل ذكر طريقة النقط مع الغنة (٥٥).

ورغم الاتفاق العام في ظاهر هذه الروايات فإنها تظهر قدراً محدوداً من الاختلاف في التعبيرات ربما انعكس فيما بعد على تطور بعض المصطلحات النحوية أو طريقة النقط، ولنتأمل تعبيراتهم في هذا الجدول من وضع الشفتين وموضع النقطة في ما يتعلق بالحركات خاصة، أما التنوين فسوف أتناوله فيما بعد:

(٥٣) أخبار النحويين البصريين ص ١٦.

(٥٤) مراتب النحويين ص (١٠-١١).

(٥٥) الفهرست ص ٤٠.

رواية أبي الطيب اللفوي	رواية السيرافي عن أبي عبيدة	رواية الداقي عن المبرد	رواية أبي بكر الأنباري عن العتي	التفاصيل
فتحت فمي بالحرف	فتحت فمي بالحرف	فتحت شفقي	إذا فتحت شفقي	التعبير عن حالة الفتح
على أعلاه	فوقه على أعلاه	على الحرف	فوق الحرف	موضع النقطة في حالة الفتح
ضممت فمي	ضممت فمي	فضممت شفقي	إذا ضممتها	التعبير عن حالة الضم
بين يدي الحرف	بين يدي الحرف	أمام الحرف	إلى جانب الحرف	موضع النقطة في حالة الضم
وإذا كسرت فمي	وإن كسرت	فإذا رأيتني قد كسرت	إذا كسرتها	التعبير عن حالة الكسر
تحت الحرف	تحت الحرف	أسفل الحرف	في أسفله	موضع النقطة مع الكسر

وتنقسم هذه الروايات إلى مجموعتين من حيث الوصف العضوي، فالمجموعة الأولى التي تمثلها رواية العتي ورواية المبرد تجعل التمييز بين الحركات الثلاث تبعاً لاختلاف أوضاع الشفتين وكأنها تعطي للحركات استقلالاً عن الحروف التي تسبقها، والمجموعة الثانية التي تتمثل برواية أبي عبيدة وما نقله أبو الطيب ربطت الحركات الثلاث والحروف التي تسبقها وهي تجعل وضع الفم وليس الشفتين فحسب علامة على نوع الحركة، وربما ألفت هذه التعبيرات التي تعد أولى

الخطوات في النحو العربي ظللاً على موقف علماء العربية من استقلال الحركات ومدى ارتباطها بالأصوات الصوامت.

ويبدو أن المصطلحات النحوية الثلاثة: الفتحة والضمة والكسرة قد استمدت تسمياتها من تعبير أبي الأسود السابق عن طبيعة حركة الشفتين أو الفم مع الحركات الثلاث، فكانت أسماؤها تمت بسبب إلى طبيعة الوضع العضوي لانتاجها.

أما موضع النقطة من الحرف فإن تعبيرات الروايات السابقة وإن اختلفت شيئاً قليلاً في اللفظ فإنها متفقة في الواقع العملي:
فنقطة الفتحة (فوق الحرف أو على الحرف أو فوقه على أعلاه أو على أعلاه).

ونقطة الضمة (إلى جانب الحرف أو أمام الحرف أو بين يدي الحرف)
ونقطة الكسرة (أسفل الحرف أو تحت الحرف).

ويبدو أن هذه النقطة لم توضع أصلاً لتمثل الحركات وإنما لتشير إلى أن الحرف تليه فتحة أو ضمة أو كسرة، ولكن بمضي الزمن وبتطور نظام النقط أصبحت تلك النقط تشير إلى نوع الحركة وصارت علامة لها، وبدأت الحركة لذلك وكأنها تابعة للصوت الصامت قبلها، وأنها لا تستقل بنفسها في النطق تماماً، كاستقلال الأصوات الصامتة^(٥٦). وقد بلغ ذلك التصور حد التساؤل عن محل الحركة من الحرف، وهل هي تحدث قبل الحرف أو معه أو بعده؟ ورغم أن القول بأن الحركة تحدث بعد الحرف هو مذهب أكثر النحاة فإن هذه القضية تشير إلى مدى الربط بين الحركة والصوت الصامت قبلها^(٥٧).

(٥٦) ابن جني: سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٣٦ و ٣٧ وانظر د. رمضان عبد التواب ص ٢٥٣ وجان كاتينيو ص ١٤٨.

(٥٧) انظر ابن جني: الخصائص ج ٢ ص (٣٢١-٣٢٢) وسر صناعة الإعراب (له) ج ١ ص ٣٢ وما بعدها وانظر أيضاً الفخر الرازي ج ١ ص ١٦.

والملاحظ أن الروايات السابقة تشير إلى أن أبا الأسود جعل تمييز نوع الحركة متوقفاً على وضع الشفتين أو الفم، وكان كاتبه كان معلق البصر يتابع حركة شفتيه، ولكن لا شك في أنه استطاع أن يميز بين الحركات الثلاث تبعاً لاختلاف الجرس المتولد عن كل منها بعد فترة قصيرة من ابتداء العمل، وقبل أن ينتهي من نقط المصحف، خاصة أن الروايات تؤكد أن الكاتب على درجة عالية من الفطنة والفهم.

والمفهوم من الروايات السابقة أن أبا الأسود لم يعالج حركات بنية الكلمة، واكتفى بضبط أواخر الكلمات بالنقط التي وضعها لتدل على الحركات الثلاث، وقد يكون هذا الصنيع مصداقاً لقول أبي الطيب اللغوي « إن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الاعراب »^(٥٨). ذلك لأن حركة أواخر الكلم تتغير تبعاً لتغير موقع الكلمة في الجملة، ومن ثم فإن احتمال وقوع الخطأ في تحديد نوعها أكبر من احتمال وقوعه في حركات بنية الكلمة^(٥٩). وستابع طريقة النقط المدور التي أرسى أسسها الدؤلي في المصاحف المخطوطة بعد أن نشير إلى الطريقة الأخرى لذلك.

ثانياً: الشكل المستطيل:

لم يكن من اليسير على نساخ الكتب المصنفة في علوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية وما جد من علوم أخرى استخدام طريقة النقط المدور في ضبط الكلمات فيما يكتبون لأنها تحتاج إلى لونين من المداد، واحد لرسم الحروف وآخر

(٥٨) مراتب النحويين ص ٥ وانظر أبو بكر الزبيدي ص ١ .

(٥٩) وقد ذهب بعض المحدثين (انظر د. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ٢ ص ٨٧-٨٨ ود. تامر حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص ١١-١٢) إلى أنه لا نستطيع مجال أن نحدد السابق أو اللاحق منها في وقوع اللحن فيه، وبمعزل عن موضوع ترتيب علوم العربية فإني أميل إلى الاعتقاد بأن احتمال وقوع اللحن في حركات الإعراب هو أسبق من احتمال وقوعه في حركات بنية الكلمة لأن حركات الإعراب عرضة للتغير الدائم بحيث لا يمكن ضبط قواعدها بسهولة.

لنقط الحركات، وربما أمكن استخدام مداد واحد قبل استخدام نقط إعجام الحروف في الكتابة، ولكن بعد ذلك الاستخدام أصبح من العسير تمثيل الحركات بنقط من نفس مداد الكتابة، ويبدو أن الأمر ظل على هذه الحالة من عدم الاستقرار حتى عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى سنة ١٧٠ هـ على الأكثر)^(٦٠)، الذي استطاع أن يجد الحل المناسب لهذه المشكلة الكتابية التي كانت تقف في وجه الكتاب والنساخ والعلماء، ولم يكن ذلك ممكناً من غير تخصيص كل حركة بعلامة تختص بها لا كما في حالة النقط المدور حيث تشترك كل الحركات بشكل واحد، ويميز بينها بالمخالفة في الموضع ولون المداد، وقد تم ذلك للخليل بما عرف له من فضل التقدم في علوم العربية.

روى الداني أن أبا الحسن بن كيسان قال^(٦١): «قال محمد بن يزيد: الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل، وهو مأخوذ من صور الحروف، فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف لثلاث تتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف». وذكر أبو الحجاج البلوي^(٦٢): «ان الخليل بن أحمد هو الذي بدأ التمدد والتشديد والروم والإشمام، وانه عمل الشكل الذي على الحروف، وأخذه من صورة الحرف، فالضمة واو صغيرة الصورة أعلى الحرف لثلاث تتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مسطوحة (مبطوحة) فوق الحرف...»^(٦٣).

(٦٠) انظر أبو بكر الزبيدي ص ٤٧ وابن النديم ص ٤٢ وأبو البركات الانباري ص ٤٨ وابن الجزري غاية النهاية ج ١ ص ٢٧٥.

(٦١) المحكم ص ٧.

(٦٢) الف با ج ١ ص ١٧٦. وقد قال الداني (المحكم ص ٦) «ثم جعل الخليل بن أحمد الهمز والتشديد والروم والإشمام». ويبدو على ضوء هذا القول إن كلمة (التمدد) التي جاءت في قول البلوي إنما هي تحريف كلمة (الهمز)، وربما أراد بها البلوي (المدة).

(٦٣) وانظر في ذلك أيضاً: علم الدين السخاوي الوسيلة ورقة ١٢/أ والسيوطي: الإتقان ج ٤ ص ١٦٢، وطاش كبري زاده ج ٢ ص ٢٣٣.

ويشير قول محمد بن يزيد المبرد الذي نقله الداني، وما ذكره أبو الحجاج البلوي إلى أن الخليل بن أحمد أخذ صور الحركات الثلاث من رموز الحركات الطويلة أي من الألف والواو والياء، وفي ذلك إشارة إلى إدراك سليم للعلاقة بين الحركات القصيرة والحركات الطويلة ذلك الإدراك الذي عبر عنه ابن جني أدق تعبير بقوله «الفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة»^(٦٤)، وإطلاق لفظ (الصغيرة) على الحركات القصيرة يشعر أنهم كانوا يعرفون أن علامات هذه الحركات أخذت من رموز الحركات الطويلة الثلاث، لكنها لم تكتب على السطر بين الحروف خشية التباسها بالرموز التي أخذت منها كما أشار إلى ذلك قول المبرد.

ولابن درستويه رأي آخر في أصل صور علامات الحركات القصيرة فقد قال وهو يتحدث عن الحركات الثلاث «هي رقوم مشتقة من حروف اسمائها، فرقم الحركات الثلاث (راء) غير محققة في الوجوه الثلاثة، وهي مأخوذة من راء الحركة، وقد زيدت على رقم الضمة علامة يفرق بها بينها وبين غيرها مأخوذة من الواو لاشتراك الضمة والواو في اللفظ والمخرج»^(٦٥).

ولا ندري هل أن مذهب ابن درستويه هذا في أصل صور علامات الحركات شيء نقله عن سبقة من العلماء الذين عرفوا ذلك من الخليل أم أنه نتيجة تأمله ونظره هو؟ ويبدو أن القول بأخذ الخليل علامات الحركات من صور الحروف أصح مما ذهب إليه ابن درستويه لأن علامات الخليل هي أقرب ما تكون إلى صور الحروف الثلاثة الألف والياء والواو، فالفتحة ألف مُمالة أو مبطوحة، والكسرة ياء مردودة صغرى، والضمة واو صغرى^(٦٦). لكن استعمال الكتاب

(٦٤) سر صناعة الإعراب ج ١ ص ١٩.

(٦٥) كتاب الكتاب ص ٥٥.

(٦٦) انظر الداني: المحكم ص ٤٥.

قد غير بعض صورها فحذفوا بعض الياء فصارت تشبه الفتحة لكنها توضع تحت الحرف^(٦٧).

أما الروم والاشام فإنها يتعلقان بمركات أو اخر الكلمات عند الوقف خاصة، وقد تحدث الداني عن حقيقة كل من الروم والاشام وقال « فأما حقيقة الروم فهو تضعيفك الصوت بالحركة حتى يذهب بذلك معظم صوتها، فتسمع لها صوتاً خفياً يدركه الأعمى بحاسة سماعه. وأما حقيقة الاشام فهو ضمك شفتيك بعد سكون الحرف أصلاً، ولا يدرك معرفة ذلك الأعمى لانه لرؤية العين لا غير، إذ هو إيماء بالعضو إلى الحركة. فأما الروم فيكون عند القراء في الرفع والضم والخفض والكسر، ولا يستعملونه في النصب والفتح لختفها، وأما الاشام فيكون في الرفع والضم لا غير. وقولنا الرفع والضم والخفض والكسر والنصب والفتح نريد بذلك حركة الاعراب المنتقلة وحركة البناء اللازمة^(٦٨).

والروم والاشام موجودان في لغة العرب مثلاً وردت بهما القراءة، وقد حكى مكى: « أن الروم والاشام إنما استعملتها العرب في الوقف لتبيين الحركة كيف كانت في الوصل^(٦٩). وتحدث سيبويه عن أنواع الوقف وقال إنها في كلام العرب أربعة: الروم والاشام والتضعيف والسكون، وذكر أن لكل منها علامة في الكتابة فقال^(٧٠): « ولهذا علامات فلاشام نقطة، والذي أجرى مجرى الجزم والاسكان خاء، ولروم الحركة خط بين يدي الحرف، وللتضعيف شين^(٧١)، وربما تكون هذه العلامات التي ذكرها سيبويه هي التي وضعها استاذة الخليل.

(٦٧) انظر حفي ناصف ص ٧٧.

(٦٨) التيسير ص ٥٩. وانظر التنسي: ورقة ١٦ ب والقسطلاي ج ١ ص ١٨٧.

(٦٩) الكشف ج ١ ص ١٢٢.

(٧٠) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٢.

(٧١) قال ابن يعيش (شرح المفصل ج ٩ ص ٦٨): « وقد جعل سيبويه لكل شيء من هذه الأشياء علامة في الخط، فعلمة السكون خاء فوق الحرف وعلامة الإشام نقطة بعد الحرف وعلامة الروم خط بين يدي الحرف وعلامة التضعيف شين فوق الحرف ».

وقبل أن ننتقل إلى النظر في الوثائق المخطوطة لنرى كيف استعمل نساخ المصاحف طريقة النقط المدور وطريقة الشكل المستطيل أجدني مضطراً للتعرض لموضوع لم يتوفر له من الأسباب ما يجعله يستحق البحث لولا أن بعض الدارسين قد أجلب عليه من ذات نفسه وألبس ما هو من باب الظن لباس اليقين فراه حقيقة مسلمة، ذلك الموضوع هو المصدر الذي أخذ منه أبو الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد طريقتيهما في تمثيل الحركات، أو هو ما مقدار الأثر الأجنبي في ذلك العمل؟

وقد بدأ موضوع الأثر الأجنبي في نظام تمثيل الحركات في الكتابة العربية مجرد احتمالات يذكرها بعض المستشرقين والباحثين الذين تخرجوا على أيديهم، وكان جرجي زيدان من أوائل الذين ساهموا في بث هذه الفكرة، فذكر وهو يتحدث عن بدايات النحو العربي « يغلب على ظننا أنهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان »^(٧٢). وقال وهو يتحدث عن دور أبي الأسود في وضع النحو العربي « وكأنه تعلم لغة السريان أو اطلع على نحوها فرغب في النسخ (لعله النسخ) على منواله »^(٧٣)، وعندما تحدث عن نقط الحركات الذي وضعه أبو الأسود الدؤلي قال: « والأرجح انه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه أو تعيين الكلمة الواقع هو فيها: إسم هي أم فعل أم حرف.. فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات »^(٧٤)، وتحدث المستشرق جويدي عن تاريخ استعمال الحركات في الكتابة السريانية وقال « انتفع منه علماء العرب فاتقنوه واصلحوه »^(٧٥).

(٧٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥١.

(٧٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢٥٢.

(٧٤) نفس المصدر ج ١ ص ٢٥٣.

(٧٥) محاضرات أدبيات الجغرافيا ص ٨٤، وقد نقل د. عزة حسن كلام جويدي بتصريف في مقدمة تحقيق المحكم (انظر ص ٢٨-٢٩).

وليس من هدف هذا البحث الكلام عن أصالة النحو العربي، ولا عن تاريخ علامات الحركات في الكتابة السريانية، وإنما اقتصر على مناقشة ما ذكره من أخذ أبي الأسود طريقته في النقط من السريانية، فاستناداً إلى تلك الأقوال الظنية غير المحددة مثل: (يغلب على ظننا... كأنه... الأرجح) وما أشبه ذلك مما لا يعتمد قائلوه فيه على دليل ردد بعض المحدثين تلك الأقوال، ولكن بعد أن عرضها بصياغة جديدة تخفي حقيقة كونها ظنوناً لا بل أوهاماً لم يبق عليها من الواقع دليل^(٧٦)، وقد بلغ ذلك الاتجاه الخطوء ذروته عند الاستاذ حسن عون الذي حاول أن يقدم الأدلة الواهية على ذلك فيقول^(٧٧):

« ولدنا من الأدلة ما يبين في وضوح أن أبا الأسود استمد طريقة نقط الشكل من لدن النحاة السريان، من هذه الأدلة أن أبا الأسود قد اتخذ بيئة العراق موطناً وكان بها والياً إدارياً، وفيها عالماً لغوياً، وزعيماً دينياً، ونحن نعلم أن هذه البيئة كانت قبل الفتح العربي وبعده مغزوة باللغة السريانية وبالمعارف السريانية وكانت إلى جانب ذلك أهلة بالعلماء السريان، وميداناً لدراساتهم ومناقشاتهم وجدلهم، لا في الناحية الدينية أو الفلسفية فقط، ولكن في مختلف العلوم الانسانية ومنها اللغة والنحو، ونعلم أيضاً أن اللغة العربية قد تعرضت بعد اتساع الفتوح الاسلامية إلى نفس الأزمة التي تعرضت لها اللغة السريانية في خلال القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد: ظهور لغات أخرى في ميدان الحديث والكتابة، وانتشار اللحن بين الناطقين، والخوف من أن يمتد هذا اللحن إلى نصوص الكتاب المقدس، هذه هي مظاهر الأزمة التي مرت بها اللغة السريانية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، واللغة العربية بعد اتساع الفتوح، ولقد كان من نتائج هذه الأزمة عند السريان أن فكروا في وضع ضوابط لشكل

(٧٦) انظر د. علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص (٢٤٨-٢٤٩) ود. ابراهيم جمعة: دراسات في تطور الكتابات الكوفية ص ٦٩ و ٧٣ وسهيلة الجبوري ص ٥٥ ود. سعاد ماهر ص ١٢٣.

(٧٧) اللغة والنحو. ط ١ الاسكندرية. مطبعة رويال ١٩٥٢ ص (٢٤٩-٢٥٠).

كتابهم المقدس، ولم تكن هذه الضوابط سوى طريقة النقط التي استعملها أبو الأسود الدؤلي في ضبط شكل القرآن، من هذا نرى أن المقدمات متشابهة والظروف متشابهة والنتائج متشابهة، وكلا العاملين قد حدث في بيئة واحدة، أليس من العناد إذن أن نقول إن أبا الأسود الدؤلي لم يستمد طريقة نقط الشكل من السريانيين الذين سبقوه بنفس العمل»، ثم يتحدث الاستاذ عون عن اتصال أبي الأسود باللغة السريانية وعلماؤها ويذهب في هذا بعيداً عن الواقع حين يقول^(٧٨): «على أننا نظن بل نرجح أن أبا الأسود كان يعرف اللغة السريانية معرفة تمكنه من التفاهم بها، وقراءة بعض نصوصها إلى حد ما، وذلك لإقامته الطويلة في بيئة العراق، واهتمامه الشديد بالأبحاث اللغوية والدينية أثناء إقامته في تلك البيئة، وهي تكاد تكون بيئة سريانية في أول عهد اتصال العرب بها».

ونحن إنما أثقلنا البحث بهذا النص الطويل لنأتي على كل الأدلة التي بنى عليها الباحث نتائجه، وإذا كانت الحقائق التاريخية تتفق مع ما وصف به الباحث أبا الأسود من تعدد جوانب شخصيته فإن ما ذكره عن بيئة العراق وأنها كانت «مغزوة باللغة السريانية والمعارف السريانية» وأنها «تكاد تكون بيئة سريانية في أول عهد اتصال العرب بها» لم يقدم عليه دليلاً واحداً، ولا أظن أن أحداً يملك اليوم مثل ذلك الدليل، وإذا كانت المصادر تذكر أن ديانة أهل الحيرة كانت النصرانية فإن المصادر تؤكد - أيضاً - أن غربي العراق وجنوبه كان يغلب عليه الطابع العربي، وأنه كان منزلاً للقبائل العربية، حتى بلاط إمارة اللخمين العرب في الحيرة كان عربياً ويكتب فيه بالعربية، وبيننا في الفصل التمهيدي كيف كان سكان القرى العربية غربي الفرات مثل الحيرة وعين التمر والأنبار وغيرها يكتبون بالعربية قبل دخول الاسلام بلاد العراق^(٧٩). فلم تكن هناك تلك الغلبة للسريانية على بيئة العراق كما يصور الاستاذ عون، وإذا تصورنا أن هناك لغة أخرى تنافس العربية في غربي العراق وجنوبه في السنين

(٧٨) اللغة والنحو: ص ٢٥١.

(٧٩) انظر الفصل التمهيدي ص ٢٦.

الأولى لظهور الاسلام فإنها اللغة الفارسية وليست السريانية.

ولم تكن الحيرة مركزاً للحركة النصرانية في الشرق، وإنما كانت إحدى امتدادات تلك الحركة، وما حدث من ظهور اتجاهات متعددة لتمثيل الحركات في الكتابة السريانية لم يحدث في جنوب العراق وإنما كان في نصيبين والرها في أطراف آسيا الصغرى^(٨٠)، إلى جانب أن تاريخ وضع علامات الحركات في الكتابة السريانية هو موضع جدل، وليس بعيداً أن يكون أبو الأسود قد نقط المصاحف والسريان لم يستخدموا النقط بعد لتمثيل الحركات^(٨١).

- (٨٠) انظر نولدكه ص ٦١ وجرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥١.
- (٨١) تبلورت عند السريان طريقتان للدلالة على الحركات إحداهما طريقة النقط الصغار فوق الحرف أو تحته أو فوقه وتحته، وهذه الطريقة شائعة عند السريان الشرقيين (الساطرة) خاصة، والطريقة الثانية هي طريقة الحروف التي أخذت من الأبجدية اليونانية، وهي توضع فوق الحروف أو تحتها، واستعملها السريان الغربيون (اليعاقبة) خاصة (انظر المطران اقليميس ص ١٦٤) ومن المؤكد الذي لا شك فيه أنه في حياة يعقوب الرهاوي الذي توفي في بادئ القرن الثامن الميلادي لم تكن بعد قد استنبطت طريقة للحركات لا اليونانية ولا النقطية (نفس المصدر ص ١٦٩) وقيل إن طريقة النقط الصغيرة لم تظهر الا في النصف الثاني من القرن الثامن (انظر. د. زاكية محمد رشدي: السريانية نحوها وصرفها. القاهرة. دار الثقافة ص ٣٢). وكان السريان قبل استخدام هاتين الطريقتين لتمثيل الحركات قد استخدموا النقط لتمييز الجمع وحرفي الدال والراء واستخدموا نقطاً كبيرة تقوم مقام الحركات لدفع الالتباس في القراءة فرسموا نقطة كبيرة تكتب من فوق الحرف المشبه أو من تحته (انظر المطران اقليميس ص ١٦١-١٦٢) لكن هذه النقط لم يكتب لها الانتشار لعدم كفايتها فاضطر السريان الى استخدام الطريقتين السابقتين اللتين وضعتا بعد زمن يعقوب الرهاوي (وانظر في استخدام علامات الحركات عند السريان: جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥٤، جويدي: محاضرات أدبيات الجغرافيا ص ٨٣-٨٤. نولدكه ص ٦٠-٦١، د. علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ٥٧ و٢٤٩) وكان يعقوب الرهاوي قد توفي سنة (٧٠٨م) (انظر د. زاكية محمد رشدي: السريانية ص ٣١) وهو ما يقابل سنة ٩٠ =

ولو سلمنا بانتشار السريانية في بعض الأوساط في جنوب العراق فإنها قطعاً لم تدخل البصرة في تلك الفترة المتقدمة، على ذلك النطاق الواسع الذي يصوره الاستاذ عون، فالبصرة أنشئت مدينة للجند والمقاتلة الذين خرجوا في الفتح الإسلامية من الجزيرة، وكانت بيئتها إسلامية عربية خالصة في نشأتها، بعيدة عن الحيرة التي من المحتمل أن تكون فيها آثار من الثقافة السريانية.

ومن ثم فإن قصة معرفة أبي الأسود، الذي اتخذ البصرة منزلاً له وكان قاضياً فيها فترة من الزمن، للغة السريانية وتعلمه القراءة فيها تصبح محض خيال لا يقوم على دليل صحيح، وهكذا تبدو دعوى الاستاذ عون وما حاول تأكيده صدى كاذباً لدعوى قديمة كانت ظنوناً وأوهاماً وحاول هو أن يقدمها على أنها حقيقة وبلغ به الحماس حد القول « أليس من العناد إذن أن نقول إن أبا الأسود لم يستمد طريقة نقط الشكل من السريانين ».

ونحن لا نحاول رفض مذهب وتأيد آخر عن هوى، فالحق أحق أن يتبع، ولكن ما دام ليس هناك دليل نقلي أو عقلي يبين لنا مقدار ذلك التأثير إن وجد، وما دام أصل تلك المقولة ظنوناً لا يؤيدها من الواقع دليل فليس على أحد في ردها وتجهيل القائلين بها شيء.

ورغم أن الروايات لا تبين لنا المصدر الذي استمد منه أبو الأسود الدؤلي

= هجرية) تقريباً، ومعنى ذلك أن طريقة كاملة لم تشع في الكتابة السريانية لتمثيل الحركات حتى ذلك التاريخ الذي يعتبر متأخراً بالنسبة لوفاة أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ وقيل قبل ذلك) الذي تجمع الروايات على أنه أول من نقط المصحف وإذا صح أن طريقة تمثيل الحركات بالنقط عند السريان لم تظهر حتى النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي الذي يقابل النصف الأول من القرن الهجري الثاني تقريباً فإن ذلك ينفي أن يكون الدؤلي قد أخذ أو استفاد طريقته من نظام تمثيل الحركات بالنقط عند السريان، ويظل احتمال استفادته من الطريقة القديمة التي لم تكن تمثل حركة معينة ويبدو أنها لم تنتشر وتعرف بدرجة كبيرة حتى بين السريان أنفسهم مشكوكاً فيه، ولا يسوغ كل ذلك الاندفاع الذي أبداه الأستاذ حسن عون في دعوى أخذ أبي الأسود طريقته عن الكتابة السريانية.

تلك الطريقة فإن ما ذكرناه في مطلع هذا الفصل من أن الطرق الثلاث الممكنة لتكميل الكتابة العربية لم يكن بالإمكان استخدام واحدة منها سوى تلك التي تعتمد على تمثيل الحركات بعلامات خارجية كالذي فعله أبو الأسود حين جعل الحركات نقطاً بلون مغاير للون المداد، ومن المحتمل كثيراً أن هذه الطريقة لو كانت منقولة أو مستوحاة من مصدر أجنبي لكان ذلك سنداً قوياً للذين كرهوا نقط المصاحف، ولكن لم تذكر الروايات أن أحداً احتج بذلك ممن كرهوا نقط المصاحف في أول الأمر^(٨٢).

ولعل مما يثير الدهشة ويجلب العجب أن باحثاً من المحدثين ينقل أن الخليل ابن أحمد أخذ الطريقة التي وضعها لتمثيل الحركات عن اليونانية، فقد ذكر الاستاذ ابراهيم مصطفى في مقال له عن (أول من وضع النحو) بعد أن تحدث عن الشكل الذي وضعه الخليل ما يلي: « وقالوا: وقد اتخذ ذلك عن اليونانية، وكان قد قرأها^(٨٣) ولم يقفنا الاستاذ ابراهيم على مصدر هذا القول، ولا عرفنا الجماعة الذين يعود عليهم ضمير (قالوا)، ولا ذكر كيف عرف الخليل اليونانية وكيف قرأها.

وقد وجدت أثناء القراءة لإعداد هذا البحث خبراً ذكره أبو بكر الزبيدي

(٨٢) قدم باحث سنة ١٩٦٩ رسالة ماجستير موضوعها (أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي) الى كلية الآداب بجامعة القاهرة، والباحث هو فتحي عبد الفتاح الدجني، وقد نفى فيها الأثر الأجنبي على النحو العربي، وأكد أن ما استفاده أبو الأسود من السريانية إنما هو نقط الاعراب التي نقطت بها المصحف (ص ٤٧ و ٥٣) وهو يؤيد معرفة أبي الأسود للسريانية (٤٣-٤٤) ويقول عن النقط التي وضعها أبو الأسود (ص ٤٣-٤٤) « لو كان أبو الأسود هو الذي ابتكر الحركات لابتكرها عربية خالصة أو تشير الى أنها عربية على الأقل كما فعل الخليل عندما طوّرها... فهل هذه النقاط تدل على أنها عربية؟... قطعاً كلا، إنها لا تدل على عربيتها» ولا أكاد أفهم معنى للتساؤل الأخير، ولا أدري ما المانع أن تكون النقاط عربية الأصل، وإنها لكذلك.

(٨٣) مجلة كلية آداب القاهرة مج ١٠ ج ٢ ص ٧٣.

في طبقاته، في أخبار الخليل وهو « ويروى أن ملك اليونانية كتب إلى الخليل كتاباً باليونانية فخلا بالكتاب شهراً حتى فهمه، فقيل له في ذلك، فقال: قلت انه لا بد له من أن يفتح الكتاب بـ بسم الله أو ما أشبهه، فبنيت أول حروفه على ذلك فاستقام لي» (٨٤). ولعل هذا الخبر هو مستند الاستاذ ابراهيم مصطفى فيما ذكره، ولا أدري كيف يسوغ لعافل أن يصدق ما جاء فيه وأن يستنتج منه أن الخليل قرأ اليونانية ومن ثم أخذ طريقة الشكل التي وضعها بديلاً للنقط المدورة (٨٥) ٢.

وبعد فإني كنت ضئيلاً بهذه الصفحات من البحث أن أناقش فيها هذا الموضوع، وكنت أعدها لذكر حقائق من تاريخ علامات الحركات في الكتابة العربية والرسم المصحفي لكن ما نجده في الكتب من أقوال عن ذلك التاريخ لا تستند إلى خبر صحيح أو نظر مبرراً دفعني إلى أن أوجز ذلك في هذه الصفحات المدودة، معتقداً أن إعطاء رأي قاطع في موضوع لم تكتمل له كافة الوسائل التي تعين على ذلك - ونحن نعلم أن تفاصيل كثيرة لم تصل إلينا بعد - إنما هو مجافاة للمنهج السديد والنظر الصائب، ومن لم يقتنع بما روته المصادر العربية عن هذا الموضوع وهي روايات عن اناس موثوق بهم عاشوا تلك الأحداث فليأت برأي أهدى من ذلك نتبعه!

(٨٤) ص ٤٧ .

(٨٥) ولعل دعوى اقتباس الخليل اشكال الحركات عن السريانية لا تقل بعداً عن الحق والواقع من قول من قال إنه أخذها عن اليونانية، فقد قال جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥٣-٢٥٤) « أما صور الحركات التي وصلت إلينا.. نعتي الضمة والفتحة والكسرة فلا نعلم واضعها أو واضعيها ولا الزمن الذي وضعت فيه، ولكن الغالب أنها وضعت في القرون الأولى للإسلام كما وضعت نقط الإعجام، اقتداء بالسريان ». (وانظر أيضاً: جان كانتينو ص ١٧٣)، وإذا كان جرجي زيدان لم يطلع على المصادر التي جاءت مبيّنة لتاريخ استخدام تلك الحركات فبني تصوراته على جهل بحقائق ذلك التاريخ فلنا أن نتصور بالمثل ما زعمه من أن أبا الأسود أخذ نقطه من السريان.

ثالثاً: الرسم المصحفي بين طريقة النقط المدوّر والشكل المستطيل:

مرّ في الصفحات التي مضت كيف استطاع علماء السلف الأولون تكميل الرسم العثماني في وقت مبكر، وأحدثوا طريقتين لتمثيل الحركات الأولى بواسطة النقط المدورة والثانية بواسطة العلامات الصغيرة، وإذا كانت الطريقة الأولى قد ارتبطت باسم أبي الأسود (ت ٦٧ وقيل ٦٩ هـ) والثانية باسم الخليل (ت حوالي ١٧٠ هـ) فإن استخدامها في المصحف لم يتم بسهولة خاصة الطريقة الثانية، ونحاول - هنا - أن نتعرف على مراحل استخدام هاتين الطريقتين في المصحف من خلال النصوص المروية والوثائق المخطوطة.

لعل استخدام النقط المدورة في تمثيل حركات الاعراب قد ظهر في المصحف ولو على نطاق محدود قبل وفاة أبي الأسود الدؤلي، إذ من غير المعقول أن تجمع المصادر على نسبة ذلك العمل إليه دون أن يستخدم في حياته.

روى الداني أن عبد الله بن عمر (ت ٧٣ وقيل ٧٤ هـ) كان يكره نقط المصاحف^(٨٦)، وروى أبو عبيد عن ابراهيم - ولعله ابراهيم النخعي (ت ٩٦ هـ) فقيه أهل الكوفة ومفتيها - «أنه كان يكره نقط المصاحف، ويقول جردوا القرآن ولا تخلطوا به»^(٨٧)، وينقل أبو عبيد وابن أبي داود والداني عن كل من الحسن البصري وابن سيرين (توفيا ١١٠ هـ) أنها كرها نقط المصاحف^(٨٨)، وقد روى ابن أبي داود عن الاوزاعي أن قتادة (ت ١١٧ هـ) قال «وددت أن أيديهم قطعت يعني من نقط المصاحف»^(٨٩).

وهذه الروايات تبين أن النقط دخل المصاحف في وقت مبكر ولكن لا

(٨٦) المحكم ص ١٠ ولا بد من الإشارة هنا أن في مخطوطة أخرى للمحكم جاء (أبو عمرو) بدلا من (ابن عمر).

(٨٧) فضائل القرآن لوحة ٥٧ وانظر الداني المحكم ص ١١.

(٨٨) انظر فضائل القرآن لوحة ٥٧ وكتاب المصاحف ص (١٤١-١٤٢) والمحكم ص ١٠.

(٨٩) المصاحف ص ١٤١.

يزال بعض الائمة يكرهون الزيادة في المصاحف العثمانية، وبذلك يكون القرن الهجري الأول قد انقضى ونقط المصاحف لا يزال محدود الاستعمال، لكن الحسن البصري وابن سيرين كما رويت عنهم أخبار عن كراهتهم ذلك رويت عنهم أخبار تشير إلى تجويزهم نقط الحركات في المصاحف، فقد روى أبو عبيد « عن هشيم قال أخبرنا منصور (ت ١٢٨هـ) قال سألت الحسن عن نقط المصاحف فقال لا بأس به ما لم تبغوا »^(٩٠). وروى ابن أبي داود عن أبي رجاء قال « سألت محمد ابن سيرين عن المصحف ينقط بالنحو، قال: أخشى أن يزيدوا في المصحف »^(٩١)، وقد روى ابن أبي داود أن ابن سيرين كان يقرأ في مصحف منقوط^(٩٢)، نقطه له يحيى بن يعمر^(٩٣)، وكذلك روى نافع بن أبي نعيم قارىء المدينة (ت ١٦٩هـ) عن شيخه ربعة بن أبي عبد الرحمن في شكل القرآن انه قال لا بأس به^(٩٤)، وروى الداني أن مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) قال^(٩٥): « ولا يزال الانسان يسألني عن نقط القرآن فأقول له: أما الإمام من المصاحف فلا أرى أن ينقط، ولا يزداد في المصاحف ما لم يكن فيها. وأما المصاحف الصغار التي يتعلم فيها الصبيان وألواحهم فلا أرى بذلك بأساً ». وروى الداني عن خلف بن هشام البزار انه قال « كنت أحضر بين يدي الكسائي (ت ١٨٩هـ) وهو يقرأ على الناس، وينقطنون مصاحفهم بقراءته عليهم »^(٩٦) ويعقب الذهبي على هذا الخبر بقوله^(٩٧): « قلت لم يكن ظهر للناس الشكل بعد، وإنما كانوا يعربون بالنقط ».

٩٠. فضائل القرآن لوحة ٥٧ وانظر الداني: الحكم ص ١٢.

٩١. المصاحف ص ١٤١. والداني: الحكم ص ١١.

٩٢. المصاحف ١٤٢، وانظر الداني: الحكم ص ١٢.

٩٣. أبو بكر الزبيدي ص ٢٣ والقرطبي ج ١ ص ٦٣.

٩٤. ابن أبي داود ص ١٤٢ والداني: الحكم ص ١٣.

٩٥. الحكم ص ١١.

٩٦. نفس المصدر ص ١٣ وانظر الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ١٠١.

٩٧. معرفة القراء ص ١٠١.

وهذه النصوص وأقوال العلماء تشير إلى أن كراهة نقط المصاحف أخذت تحف كلما تقدم الزمن، وذلك لازدياد الحاجة لضبط القراءة، حتى صار الكسائي إمام الكوفة ثم بغداد يجلس يقرأ والناس ينقطنون المصاحف بقراءته، وعلينا أن نلاحظ هنا أن المصاحف في القرون الأولى كانت تكتب أول ما تكتب مجردة من نقط الاعراب أو الاعجام ثم تنقط بعد ذلك على قراءة معينة أو تظل مجردة، وبناء على ذلك فإن نقط المصاحف صار أمراً مقبولاً بل محبباً قبل انقضاء القرن الهجري الثاني.

ويقول الداني^(٩٨): « وصل إليّ مصحف جامع عتيق كتب في أول خلافة هشام بن عبد الملك سنة عشر ومائة، كان تاريخه في آخره، كتبه مغيرة بن مينا في رجب سنة مائة وعشر، وفيه الحركات والهمزات والتنوين والتشديد نقط بالحمرة ». ومن المتوقع أن نقط هذا المصحف لم يتأخر عن تاريخ كتابته كثيراً.

وبعد هذه الحقائق، التي لا تحتمل الشك، عن استعمال النقط المدور في المصاحف في القرنين الأول والثاني نعجب من قول الدكتور صبحي الصالح بشأن تاريخ استخدام النقط، وما روي من أن يجيى كان أول من نقط المصاحف^(٩٩): « وتبلغ قصة أوليته هذه ذروتها من الإحكام والحبك حين يزعم ابن خلكان انه كان لابن سيرين مصحف منقوط نقطه يجيى بن يعمر، ومن المعلوم أن ابن سيرين توفي سنة ١١٠ هـ، فقد عرف - إذن - قبل هذا التاريخ مصحف كامل النقط تام الشكل، بتلك النقط المعوضة للحركات وهو أمر خطير جداً ليس من السهل التسليم به »، ولا نرى في الأمر تلك الخطورة التي وجدها الدكتور الصالح، بل الخطورة في إنكار ذلك، ولعله لم يطلع على المصادر التي نقلنا منها النصوص السابقة.

أما المصاحف المشكولة بطريقة النقط المدورة الباقية إلى اليوم فهي - والحمد

(٩٨) المحكم ص ٨٧.

(٩٩) مباحث في علوم القرآن ص ٩٣.

الله - ليست قليلة، وهي تقفنا على مرحلة من مراحل تكميل الرسم العثماني والجهود المحمودة التي بذلتها الأجيال المتتابة من علماء السلف في خدمة نص القرآن الكريم، ونجد في هذه المصاحف أو أجزاء منها الإشارة إلى الحركات الثلاث على نحو ما أوردنا وعلى نحو ما يصف الداني^(١٠٠): «إعلم أن الحركات ثلاث: فتحة وكسرة وضمة، فموضع الفتحة من الحرف أعلاه لان الفتح مستعل، وموضع الكسرة منه أسفله، لان الكسر مستفل، وموضع الضمة منه وسطه أو أمامه، لان الفتحة لما حصلت في أعلاه والكسرة في أسفله لأجل استعلاء الفتح وتسفل الكسر، بقي وسطه، فصار موضعاً للضمة، فإذا نقط (الحمد لله) جعلت الفتحة نقطة بالحمراء فوق الحاء، وجعلت الضمة نقطة بالحمراء في الدال، أو أمامها إن شاء الناظر، وجعلت الكسرة نقطة بالحمراء تحت اللام والهاء، وكذلك يفعل بسائر الحروف المتحركة بالحركات الثلاث، سواء كن إعراباً أو بناء أو كن عوارض».

وقد نقلت المجموعات الخطية المصورة التي أشرنا إليها من قبل صفحات لمصاحف كثيرة مبثوثة في مكتبات العالم، وتظهر علامات الحركات القصيرة فيها نقطاً مدورة ورغم أن الصور لا تميز اللون ولكن أرجح أن تكون تلك النقط باللون الأحمر، على ما وصف علماء السلف، وعلى ما رأيت في بقية من مصحف في دار الكتب المصرية^(١٠١)، وفي المصحف المنسوب لأمير المؤمنين علي والمحفوظ في مسجد الحسين بالقاهرة، وعلى نحو ما وصف لي مصحف النجف المحفوظ في مشهد الامام علي، وعلى نحو ما ذكر الاستاذ ناصر النقشبندي حين وصف مجموعة من الصحائف التي هي أجزاء من مصاحف قديمة كتبت على الرق محفوظة في المتحف العراقي^(١٠٢).

إن مما أوردته موريتز في مجموعته إحدى عشرة لوحة من مصحف يرجعه إلى

(١٠٠) المحكم ص ٤٢.

(١٠١) هو برقم (١١٥) مصاحف).

(١٠٢) انظر: المصاحف الكريمة في صدر الإسلام ص ٣٥.

القرن الثاني أو الثالث الهجري (لوحة ١٩-٢٩) وتظهر الحركات في هذه اللوحات نقطاً مدورة، ولكن لا تشمل النقط كل الحركات ففي قوله تعالى (الأحزاب ٣٣/٧٢) (لوحة ٢٣) ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ لا نجد إلا تقطتين: فتحة النون وفتحة الجيم. ولكن قد نجد بعض الكلمات يكاد نقطها يكون تاماً مثل (لوحة ٢٦) قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ...﴾ (الحاقة ٦٩/٥١)، فلم يترك من نقط حركاتها إلا فتحة الحاء، وتوجد في مجموعة موريتز أيضاً لوحتان (٣٧ و٣٨) من المصحف الذي أشير إليه قبل قليل والم محفوظ في دار الكتب المصرية (١١٥ مصاحف)، ولوحة (٣٩) وهي نفسها ٤٠ مكبرة) من مصحف منقوط بنفس الطريقة أرجعه إلى القرن الثالث، وفي اللوحة (٤٢) أورد صورة لأول المصحف المحفوظ في جامع الحسين منسوباً لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

وفي دراسات المنجد في تاريخ الخط العربي مجموعة ممتازة لصور صفحات من بعض المصاحف القديمة المحفوظة في مكتبات تركيا، وتظهر في بعضها الحركات مشاراً إليها بالنقط^(١٠٣)، وتظهر في هذه اللوحات بعض الكلمات مستوفية للنقط، والبعض الآخر قد يكون خالياً من النقط تماماً وقد يكون منقوطاً في بعض المواضع دون بعض.

ونجد في مجموعة الاستاذ ناجي زين الدين عدداً لصور من مصاحف محفوظة في مكتبات متباعدة في العالم، وتظهر فيها طريقة تمثيل الحركات بواسطة النقط المدورة^(١٠٤).

ولا شك أن من غير اليسير تحديد فترة تاريخية معينة ترجع إليها تلك المصاحف التي أخذت منها النماذج ولكن إن لم تكن كلها تعود إلى ما قبل القرن الثالث فإن بعضاً منها يعود إلى القرن الثاني على الأقل، فهي تمثل الطريقة التي وضع أساسها أبو الأسود الدؤلي، ويلاحظ في أغلب هذه المصاحف أن النقط قد يكثر في بعض الأحيان فيشمل حركات الاعراب والحركات الاخرى في الكلمة،

(١٠٣) انظر: شكل (٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣١ و ٣٢ و ٣٧ و ٣٨).

(١٠٤) انظر: مصور الخط العربي. شكل (٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٨ و ٨٣).

وقد يندر في أحيان أخرى حتى لا نكاد نجد الكلمة منقوطة في أكثر من حرف ، وقد يكون الحرف الأخير وقد يكون غيره .

إن الكسائي حين كان يجلس الناس إليه ينقطنون مصاحفهم على قراءته - كما في الخبر السابق - وتعقيب الذهبي على ذلك بقوله « لم يكن ظهر للناس الشكل بعد ، إنما كانوا يعربون بالنقط » لا يعني أن الشكل الذي وضعه الخليل لم يكن قد ظهر ، ولكن لم يستعمله الناس في المصاحف بل استعمله أهل اللغة والشعر خاصة ، في أول الأمر ، وظل الناس يستعملون النقط المدور في ضبط المصاحف قرونًا بعد الخليل وقبل أن يستخدموا الشكل الذي وضعه ، ويروي الداني أنه رأى في مصحف كتبه ونقطه حكيم بن عمران الناقط ، ناقط أهل الأندلس ، في سنة سبع وعشرين ومائتين الحركات نقطا بالحمرة^(١٠٥) .

ويبدو أن الشكل المستطيل الذي وضعه الخليل بدأ يستعمل في المصاحف في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، خاصة في بيئة العراق التي كانت مركز الحركة العلمية واللغوية ، وكانت نزاعة إلى الاستفادة من جهود العلماء ، ولكن بلاد المغرب والاندلس ظلت ، على ما يصور الداني (ت ٤٤٤هـ) متمسكة بالطريقة القديمة لأنها تعتبرها مما سنّه الصحابة والتابعون فهي أولى بالاتباع .

وقد نقل الداني رأي ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) في استعمال الشكل المستطيل والنقط المدور في ضبط المصاحف من كتابه الذي ألفه في النقط ، فقال^(١٠٦) : « قال أبو بكر بن مجاهد في كتابه في النقط ... والشكل والنقط شيء واحد ، غير أن فهم القارئ يسرع إلى الشكل أقرب مما يسرع إلى النقط ، لاختلاف صورة الشكل ، واتفاق صورة النقط ، إذ كان النقط كله مدوراً ، والشكل فيه الضم والفتح والهمز والتشديد بعلامات مختلفة ، وذلك عامته مجتمع في النقط ، غير أنه يحتاج أن يكون الناظر فيه قد عرف أصوله ، ففي النقط الاعراب ، وهو الرفع والنصب والحذف ، وفيه علامات المدود والمهموز والتشديد ... ولولا أن ذلك

(١٠٥) الحكم ص ٨٧ .

(١٠٦) نفس المصدر ص (٢٣-٢٤) .

كله فيه ما كان له معنى . قال : وقد كان بعض من يجب أن يزيد في بيان النقط ،
من يستعمل المصحف لنفسه ، ينقط الرفع والخفض والنصب بالحمرة ، وينقط
الهمز مجرداً بالخضرة ، وينقط المشدد بالصفرة ، كل ذلك بقلم مدور ، وهذا أسرع
إلى فهم القارئ من النقط بلون واحد بقلم مدور . قال : وفي النقط علم كبير ،
واختلاف بين أهله ، ولا يقدر أحد على القراءة في مصحف منقوط ، إذا لم يكن
عنده علم بالنقط ، بل لا ينتفع به إن لم يعلمه .

وهذا النص مفيد جداً لبيان موقف علماء السلف في أوائل القرن الرابع في
العراق من استعمال الشكل المستطيل في المصحف ، فلا يفهم من كلام ابن مجاهد
إمام أهل العراق إلا أنه يفضل استعمال الشكل في المصاحف لوضوحه وسرعة
فهمه بدل النقط المدور الذي يحتاج فهمه معرفة واسعة بطرائق الناقلين .

وكان أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي (ت ٣٣٦هـ) قد أجاز استعمال
الشكل المستطيل في المصاحف ، خاصة إذا جمع الناظر بين أكثر من قراءة فقد
قال في كتابه النقط كما يروي الداني^(١٠٧) : « وإن شئت أن تجعل النقط مدوراً فلا
بأس بذلك ، وإن شئت جعلت بعضه مدوراً ، وبعضه بشكل الشعر فغير ضائر ،
بعد أن تعطي الحروف ذوات الاختلاف حقوقها . » وذكر الداني في باب النقط
عند متقدمي النحاة وعلماء العربية في العراق « أنهم اتفقوا على نقط المتحرك من
الحروف بالحركات الثلاث ، ونقط المنون والمشدد والمهموز لا غير نقطاً
مدوراً »^(١٠٨) .

وقد كان الداني (ت ٤٤٤هـ) يأبى استعمال شكل الشعر في المصاحف
فيقول^(١٠٩) : « وترك استعمال شكل الشعر ، وهو الشكل الذي في الكتب الذي
اخترعه الخليل ، في المصاحف الجامعة من الأمهات وغيرها أولى وأحق ، اقتداء
بمن ابتدأ النقط من التابعين واتباعاً للأئمة السالفين . »

(١٠٧) المحكم ص ٢٢ .

(١٠٨) نفس المصدر ص ٢١٠ .

(١٠٩) نفس المصدر ص ٢٢ .

ويعمل الداني تمسكه بوجوب استخدام النقط المدور في المصاحف بقوله^(١١٠):
« وإنما جعلنا الحركات المشبعت نقطاً مدورة على هيئة واحدة، وصورة متفقة،
ولم نجعل الفتحة ألفاً مضجعة والكسرة ياء مردودة، والضمة واواً صغرى، على
ما ذهب إليه سلف أهل العربية، إذ كن مأخوذات من هذه الحروف الثلاثة
دلالة على ذلك، اقتداء منا بفعل من ابتداء النقط من علماء السلف، بحضرة
الصحابه - رضي الله عنهم - واتباعاً له، واستمسكاً بسنته، إذ مخالفته مع سابقته
وتقدمه لا تسوغ، وترك اقتفاء أثره في ذلك مع محله من الدين وموضعه من العلم
لا يسع أحداً أتى بعده... فاتباع هذا أولى، والعمل به في نقط المصاحف أحق،
لان الذي رآه أبو الأسود ومن بحضرتة من الفصحاء والعلماء، حين اتفقوا على
نقطها، أوجه - لا شك - من الذي رآه من جاء بعدهم لتقدمهم ونفاد بصيرتهم،
فوجب المصير إلى قولهم، ولزم العمل بفعلهم دون ما خالفه، وخرج عنه^(١١١).

ولم يتح لي الاطلاع على مصاحف مخطوطة مؤرخة ترجع إلى القرن الثالث -
وربما هي نادرة الوجود - لتبين من خلالها مراحل الانتقال من النقط المدور
إلى الشكل المستطيل، في بلاد الشرق الاسلامي خاصة، وقد بقي لنا مصحف
يرجع إلى أواخر القرن الرابع كنبه الخطاط البغدادي المشهور علي بن هلال
المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ هـ، وفي آخر المصحف تاريخ نسخه واسم

(١١٠) الحكم ص (٤٢-٤٣).

(١١١) قال حنفي ناصف (ص ٧٧) وهو يتحدث عن استعمال الشكل الذي وضعه
الخليل « وقد شاعت هذه الطريقة بين المشارقة، وأبي الأندلسيون اتباعها في أول
الأمر محافظة على الإصلاح الأموي وكراهية للإصلاح العباسي... » ويبدو هذا
القول غير دقيق، وما ذكره الداني من التمسك بما استنه الصحابة والتابعون
دون من تلاهم هو السبب المقبول في هذا المجال، ومما ينقض ما ذكر الأستاذ
ناصف أن ما سماه بالإصلاح الأموي ظل يستعمل في العصر العباسي نصف قرن
تقريباً قبل أن يضع الخليل الشكل، ثم هو ظل يستعمل في المشرق بعد وضع
الخليل للشكل حتى عصر ابن مجاهد (ت ٣٢٤)، كما يتبين ذلك من قوله المذكور
سابقاً.

ناسخه هكذا « كتب هذا الجامع علي بن هلال بمدينة السلم سنة إحدى وتسعين
وثلاثمائة حامداً لله تعالى.. »^(١١٢)، وهذا المصحف كامل الشكل على طريقة
الخليل، فالفتحة ألف صغرى مبطوحة فوق الحرف والضممة واو صغرى فوقه
أيضاً والكسرة مثل الفتحة لكنها أسفل الحرف^(١١٣).

وهناك مصحف آخر كتبه أبو القاسم سعيد بن ابراهيم بن صالح الذهب في
سنة ٤٢٧ هـ^(١١٤). ويبدو مشكولاً بنفس الطريقة التي نجدها في المصحف الذي
كتبه ابن البواب^(١١٥).

وقبل أن ننتقل إلى السنوات التي تلت هذه الفترة نشير إلى أن هناك خلافاً
في مقدار ما ينقط من الكلمة، وقد مر أن أبا الأسود الدؤلي لم ينقط إلا
حركات أواخر الكلمات ولكن بمضي السنين ظهر أن الحاجة إلى نقط حركات
الكلمة الاخرى ليست بأقل من نقط حركات الاعراب، ومع ذلك فإن بعض
العلماء يرى أن بعض الكلمات من الواضح بحيث أنها لا تحتاج إلى ضبط كل
حركاتها ويكتفى بما إذا لم ينقط أوقع في اللبس، بينما يرى آخرون أن النقط
يجب أن يشمل كل حركات الكلمة.

يروى الداني أن علماء العربية ومتقدمي النحويين من أهل العراق قد

(١١٢) انظر ذلك في لوحة أوردتها سهيلة الجبوري (شكل ٧) ص ٨١.

(١١٣) انظر صوراً من هذا المصحف: سهيلة الجبوري (شكل ٨ ص ٨٤ و ١٠ و ٨٦
و ١١ ص ٨٧) وكذلك أورد منه ناجي زين الدين لوحة في مصور الخط العربي
شكل ١٣٧ ص ٤٤ والمصحف محفوظ في مكتبة (جستربتي) في دبلن.

(١١٤) المصحف محفوظ في المتحف البريطاني وقد أورد منه ناجي زين الدين في بدائع
الخط العربي صفحة مصورة (شكل ١٥ ص ٤٥) وانظر لوحة أخرى منه في
مصور الخط العربي (له) شكل ١٤٢ ص ٤٥.

(١١٥) في دار الكتب المصرية مصحف كتب سنة ٤٩٩ هـ (رقم ٢٢٧ مصاحف) وآخر
كتب سنة ٥٥٥ هـ (رقم ١١٤ مصاحف) وثالث كتب سنة ٥٦٦ هـ (رقم ٢٣٨
مصاحف) وتبدو هذه المصاحف كاملة الشكل على طريقة الخليل.

اقتصروا أكثرهم في نقط المتحرك على أواخر الكلم^(١١٦)، ويقول^(١١٧): «وعامة أهل العراق من السلف والخلف لا يجعلون في المصاحف علامة للسكون ولا للتشديد ولا للمد، بل يعرفون الحروف من ذلك كله».

ومما نقله ابن أبي داود عن أبي حاتم السجستاني في موضوع النقط قوله^(١١٨): «وإنما النقط على الإيجاز لأنهم لو تبعوا كما ينبغي أن ينقط عليه فنقطوه لفسد المصحف، لو نقطوا قوله تعالى (البقرة ٢/٢٦٤) ﴿فَمَثَلُهُ﴾ على الفاء والميم والتاء واللام والهاء ونحو ذلك فسد، ولكنهم ينقطون على الميم واحدة فوقها، وواحدة بين يدي اللام، لأن اللام حرف الاعراب وقد تنصب وترفع وتجر، وفتحوا الميم لثلاثي القاريء أنها (فَمِثْل) وإذا جاء شيء يستدل بغيره ترك مثل قوله (آل عمران ٣/١٦٩) ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ينقط بين يدي القاف واحدة ولا ينقط على التاء شيئاً لأن ضممتها تدل على أنهم فعلوا وأما قوله (الأحزاب ٣٣/٦١) ﴿قَاتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ فإنك تنقط تحت التاء واحدة لأن هذه مشددة فتفرق بين المخفف والمشدد، فقس كل شيء بهذا إن شاء الله».

وكذلك ذهب هذا المذهب ابن مجاهد فقد قال في كتابه في النقط^(١١٩): «وليس على كل حرف يقع الشكل، وإنما يقع على ما إذا لم يشكل التيس، ولو شكل الحرف من أوله إلى آخره، أعني الكلمة، لأظلم، ولم تكن فائدة، إذ كان بعضه يؤدي عن بعض».

وذلك هو نفس موقف أبي الحسين بن المنادي أيضاً فإنه يقول^(١٢٠): «النقط والشكل إنما جعلاً للضرورات المشكلات يسراً، لا أن ينقط كل حرف من

(١١٦) المحكم ص ٢١٠.

(١١٧) نفس المصدر ص ٥٦.

(١١٨) كتاب المصاحف ص ١٤٤.

(١١٩) الداني: المحكم ص ٢٣، وانظر ص ٢١٠ أيضاً.

(١٢٠) نفس المصدر ص ٢١٠.

الكلمة، سكن أو تحرك فإذا ركب ناقط ذلك فقد خرج عن الحد إلى غيره، ولا طائل في ذلك كله». وهذا هو موقف الكتاب - كتاب الرسائل - أيضاً من مقدار النقط والشكل^(١٢١).

وكان بجانب هذا الاتجاه في مقدار الشكل أو النقط المدور اتجاه آخر يرى ضرورة استيفاء الكلمة نقط كافة حركاتها وما يلحق بذلك من علامات، وقد بين الداني ذلك أوضح بيان بقوله^(١٢٢): «وإذا كان سبب نقط المصاحف تصحيح القراءة وتحقيق الألفاظ بالحروف حتى يتلقى القرآن على ما نزل من عند الله تعالى، وتلقَى من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ونقل عن صحابته - رضوان الله عليهم - وأداه الأئمة - رحمهم الله تعالى - فسبيل كل حرف أن يوقى حقه بالنقط، مما يستحقه من الحركة، والسكون والشدة والمد والهمز وغير ذلك، ولا يخص ببعض ذلك دون كله».

وقد كان لهذا الاتجاه الذي ذكره الداني الغلبة في المصاحف منذ وقت مبكر كما يلاحظ في المصحف الذي كتبه ابن البواب سنة ٣٩١ هـ والمصحف الذي كتبه أبو القاسم سعيد بن ابراهيم سنة ٤٢٧ هـ. وظل هذا الاتجاه في نقط

(١٢١) قال ابن درستويه (ص ٥): «إعلم أن الكتاب.. لا ينقطون ولا يشكلون إلا ما التبس»، وقد كان النفور من الشكل في الكتب والمراسلات أشد، فقد عرض مرة على عبد الله بن طاهر كتاب مشكول، وكان خطه جيلاً فقال: ما أحسن هذا الخط لولا أنه أكثر شونيزه (انظر أبو حيان التوحيدي: رسالة في علم الكتابة. نسخة مصورة، عن الأصل المحفوظ في فينا، في مكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٩٠) (لوحة رقم ١٦) والشونيز هو الحبة السوداء. (انظر حفي ناصف ص ٦٩)، وذكر أبو حيان التوحيدي في رسالته السابقة أخباراً تدل على أن من كتاب الرسائل من كان يجيد إعجام وشكل الكتابة حتى نسب إلى محمد بن عبد الملك الوزير (لوحة ١٦) قوله: «الكتاب المعجم هو العربي وغير المعجم هو النبطي» وذكر (لوحة ١٧) أن عبد الحميد (لعله الكاتب الأموي) قال: «... الخط بلا نقط ولا إعجام كالأرض المساء والمنقوت المعجم كالروضة المنورة».

(١٢٢) الحكم ص ٥٦.

المصاحف وشكلها ملتزماً في المصاحف حتى الوقت الحاضر (١٣٣).

أما الاتجاه الذي ذكرناه أولاً فقد اختلف بالكتابات الأخرى فيما عدا المصحف حيث يندر أن تشكل الكلمة إلا ما قد يلبس، وظل هذا الاتجاه في الكتب إلى الوقت الحاضر (١٣٤)، ولكن علينا أن نتذكر أن كتب اللغة والشعر وما يشبهها كان النساخ يلتزمون فيها اتجاهها أقرب إلى الاتجاه السابق حيث تشكل كل كلمة بما تستحق من الشكل، ويقدم لنا مخطوط قديم لكتاب غريب الحديث لأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ) كتب سنة ٣١١هـ نموذجاً كامل الشكل إلى درجة مبالغ فيها (١٣٥)، ونجد ذلك الاتقان في الشكل أيضاً في مخطوط قديم لكتاب سيبويه كتب سنة ٣٥١هـ، ومخطوط لكتاب الامالي لأبي علي القالي كتب سنة ٤٨٦هـ (١٣٦)، ولا نزال نشهد ذلك الحرص على استيفاء ضبط الكلمات في كتب اللغة العربية والشعر فيما يطبع منها في الوقت الحاضر، ونجد ذلك الحرص أيضاً في استيفاء حق الكلمات من الحركات عند المحدثين الذين حرصوا على ضبط ألفاظ حديث رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - منذ الزمن الأول إلى اليوم (١٣٧).

(١٣٣) انظر نماذج من المصاحف المخطوطة بعد القرن الرابع الهجري في مجموعة موريتز ومصور الخط العربي للأستاذ ناجي زين الدين.

(١٣٤) قال صاحب مفتاح السعادة (ت ٩٦٢هـ) (ج ١ ص ٨١): «إن النقط والإعجام في زماننا واجبان في المصحف، وأما في غير المصحف فعند خوف اللبس واجب التبت لأنها ما وضعا إلا لإزالته». ونقل هذا القول صاحب كشف الظنون (ت ١٠٦٧هـ) (مج ١ عمود ٧١٢).

(١٣٥) محفوظ في مكتبة الأزهر. وانظر نموذجاً مصوراً منه في مجموعه موريتز لوحة (١١٩ و ١٢٠).

(١٣٦) المخطوطات في دار الكتب المصرية. وانظر نموذجاً لها في موريتز (لوحة ١٢١) (١٧٦).

(١٣٧) انظر السيوطي: تدريب الراوي ج ٢ ص ٦٨ وما بعدها.

ويبدو أن نساخ المصاحف اتجهوا بعد عصر الداني، في بلاد الأندلس والمغرب، إلى استعمال الشكل المستطيل فيما يتعلق بعلامات الحركات فجعلوا الفتحة ألفاً مبطوحة فوق الحرف والكسرة ياء مردودة صغرى تحته، والضممة واواً صغرى فوقه، بدل النقط المدورة، ويمكن أن نلاحظ مؤشرات عامة لذلك التحول في أقوال بعض العلماء الذين جاءوا بعد عصر الداني فقد قال أبو طاهر اسماعيل بن ظاهر العقيلي المصري (ت ٦٢٣هـ) بعد أن ذكر طريقة النقط المدور التي اختارها الداني في نقط المصاحف وطريقة الشكل المستطيل التي وضعها الخليل^(١٢٨)؛ «... والأمر قريب إن شاء الله تعالى، غير أن موافقة التابعين والأئمة المتقدمين عندي آثر، والمصير إلى ما عُرِفَ وأُلفَ أظهر فإن الضبط المستطيل الآن أشهر، والعمل به أكثر، وأصل الضبط إنما كان لا يوضح الكلم وتعليم النطق بها على مراد كاتبها». وقد بين أبو طاهر العقيلي في مطلع الفصل الذي عقده لموضوع الضبط بعد قوله السابق أن^(١٢٩): «كل شيء يجيء على مذهب من اختار النقط فإنه عند من اختار الشكل المستطيل كذلك إلا في المضموم فإن الضم عنده واو صغرى فوق الحرف لانه لا يشكل بالفتح لان الفتح ألف مبطوحة، وإنما يحتاج إلى تباير الموضعين من جمع بين الصورتين» فالعقيلي حين يتحدث عن هذا الموضوع يبين طريقة المذهبين جميعاً، ويترك القارىء بالخيار، وكأنه لا يزال هناك من يميل إلى استعمال النقط المدور.

ولا نجد بعد أبي طاهر العقيلي ما يشير إلى استعمال النقط المدور في تمثيل الحركات القصيرة فقد قال علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ) «وأما هذا الشكل فقد كان نقطاً بالحمرة أحدث الخليل له هذه الصور»^(١٣٠)، وتحدث ابن وثيق الأندلسي (ت ٦٥٤هـ) عن صور الحركات الثلاث التي وضعها الخليل دون الإشارة إلى طريقة النقط المدور في الفصل الذي تحدث فيه عن موضوع

(١٢٨) مختصر ما رسم في المصحف لوحة ٢٤.

(١٢٩) نفس المصدر واللوحة.

(١٣٠) الوسيلة ورقة ١٢ / أ.

الضبط^(١٣١)، وذكر الجعبري نقط الاعراب وقال: «وعدل إلى الخطوط لأنها أوضح ولا تلبس»^(١٣٢). وتحدث القلقشندي عن الطريقتين وقال إن المتقدمين استعملوا النقط المدورة وإن المتأخرين استعملوا علامات الخليل^(١٣٣). كذلك نجد الخراز (ت ٥٧١٨ هـ) قد قال في أرجوزة الضبط^(١٣٤):

ففتحةٌ أعلاه وهي ألفٌ مبطوحةٌ صُغرى، وضَمٌّ يُعَرَفُ
واواً كذا أمامه أو فوقاً وتَحْتَهُ الكسرةُ ياءٌ تُلْقَى

وقد قال التنسي (ت ٨٩٩ هـ) في شرح هذين البيتين^(١٣٥): «أشار في هذين البيتين إلى صفة الحركات الثلاث وإلى محالها من الحروف على مذهب الخليل الذي اختاره لجرى العمل به كما ذكر، وإن كان الداني اختار نقط أبي الأسود»، وقال السيوطي (ت ٩١١ هـ)^(١٣٦): «كان الشكل في الصدر الأول نقطاً، فالفتحة نقطة على أول الحرف والضممة على آخره والكسرة تحت أوله، وعليه مشى الداني، والذي اشتهر الآن الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف، وهو الذي أخرجه الخليل، وهو أكثر وأوضح وعليه العمل». وقد نقل صاحب مفتاح السعادة (ت ٩٦٢ هـ) قول السيوطي السابق^(١٣٧).

ويتبين من العرض السابق لتاريخ تمثيل الحركات أن ابتداء أبي الأسود (ت ٦٧ وقيل ٦٩ هـ) نقط المصاحف لا يعني أن النقط قد استعمل دائماً منذ ذلك التاريخ ولا أنه شمل كل حركات الكلمة، كذلك فإن اختراع الخليل لعلامات

(١٣١) رسالة في رسم المصحف لوحة ٣٥.

(١٣٢) خيلة أرباب المراد ورقة ٣١١ أ.

(١٣٣) انظر صبح الأعشى ج ٣ ص (١٦٥-١٦٦).

(١٣٤) المارغني ص ٣٤٤.

(١٣٥) الطراز في شرح ضبط الخراز ورقة ٤ ب.

(١٣٦) الإيقان ج ٤ ص ١٦٢.

(١٣٧) ج ٢ ص (٢٣٢-٢٣٣).

الحركات لا يعني أنها استعملت مباشرة في ضبط المصاحف، فقد مضت مدة طويلة حتى بدأ إدخالها في المصاحف، وقد لاحظنا أن أهل الاندلس والمغرب ظلوا يستعملون طريقة النقط المدور إلى عصر الداني (ت ٤٤٤هـ) حيث شاع استعمال علامات الخليل في تمثيل الحركات بعد تلك الفترة (١٣٨).

إن الروايات لم تحدد لون المداد الذي طلب أبو الأسود من كاتبه أن يستعمله في نقط المصحف لكن الذي اشتهر بعد ذلك استعمال اللون الأحمر في نقط الحركات والسكون والتشديد والتخفيف، وأما الصفرة فللهمزات خاصة، وهذه هي الألوان التي استخدمها نقاط أهل المدينة ونقاط الأندلسي - كما يروي الداني - أما نقاط أهل العراق فيستعملون للحركات وغيرها وللهمزات الحمرة وحدها وبذلك تعرف مصاحفهم، وتميز من غيرها (١٣٩).

أما نقط المصاحف بالسواد فقد نهى عنه الداني قال أبو عمرو: « فأما نقط المصاحف بالسواد من الحبر وغيره فلا استجزه، بل أُنْهَى عنه وأنكره اقتداء بمن ابتدأ النقط من السلف، واتباعاً له في استعماله لذلك صبغاً يخالف لون المداد، إذ كان لا يحدث في المرسوم تغييراً ولا تخليطاً، والسواد يحدث ذلك فيه، ألا ترى أنه ربما زيد في النقطة فتوهمت لاجل السواد الذي به ترسم الحروف أنها

(١٣٨) ومن ثم فإنه لا يمكن الاعتماد على نوع ضبط المصحف المخطوط لتحديد عصره دائماً، وقد وقعت الدكتور سعاد ماهر في خطأ منهجي حين ظنت أن تاريخ وفاة الخليل هو الحد الفاصل بين استعمال النقط المدور والشكل المستطيل، وهي لذلك حددت تاريخ المصحف المنسوب لأمر المؤمنين علي والمحفوظ في مسجد الحسين بالقاهرة والنقطة بطريقة أبي الأسود بناء على ذلك الظن وقالت (ص ١٢٩-١٣٠): « وأؤكد تاريخه في الفترة التي تقع بين النصف الثاني من القرن الأول الهجري والنصف الأول من القرن الثاني. وعلى وجه التحديد من (٦٧ هـ إلى ١٦٠ هـ) وهذه التواريخ التي اختارتها هي تاريخ وفاة أبي الأسود والخليل بن أحمد رغم أن المشهور في وفاة الخليل هو سنة ١٧٠ هـ.

(١٣٩) المحكم ص (١٩-٢٠).

حرف من الكلمة، فزيد في تلاوتها لذلك، ولاجل هذا وردت الكراهة عن تقدم من الصحابة وغيرهم في نقط المصاحف»^(١٤٠)، ولا شك في أن كراهة استعمال اللون الأسود في ضبط المصاحف قد انتفت حين استعملت العلامات التي وضعها الخليل والتي تتميز بالصورة لا بلون المداد والمخالفة في الموضع كما في طريقة النقط المدور.

أما استعمال الألوان المتعددة لجمع القراءات في المصحف فقد كرهته جماعة من العلماء كما يذكر الداني، وقد قال «وطوائف من أهل الكوفة والبصرة قد يدخلون الحروف الشواذ في المصاحف، وينقطنونها بالخضرة وربما جعلوا الخضرة للقراءة المشهورة الصحيحة، وجعلوا الحمرة للقراءة الشاذة المتروكة، وذلك تخليط وتغيير»^(١٤١). وكما أنكر الداني إثبات القراءات الشاذة في المصحف باستعمال ألوان مختلفة أنكر كذلك إثبات القراءات الصحيحة بتلك الطريقة، فقال^(١٤٢): «وأكره من ذلك وأقبح منه ما استعمله ناس من القراء وجهلة من النقاط من جمع قراءات شتى وحروف مختلفة في مصحف واحد، وجعلهم لكل قراءة وحرف لوناً من الألوان المخالفة للسواد، كالحمرة والخضرة والصفرة والألأزورد، وتسيبهم على ذلك في أول المصحف، ودالتهم عليه هناك، لكي تعرف القراءات وتميز الحروف. إذ ذلك من أعظم التخليط، وأشد التغيير للمرسوم». لكن الداني يذكر أن أبا الحسين بن المنادي قد أشار إلى إجازة ذلك فقد قال في كتابه في النقط: وإذا نقطت ما يقرأ على وجهين فأكثر فارسم في رقعة غير ملصقة بالمصحف أسماء الألوان، وأسماء القراء، ليعرف ذلك الذي يقرأ فيه، ولتكن الأصباغ صوافي لامعات، والأقلام بين الشدة واللين، قال: وإن شئت ان تجعل النقط مدوراً فلا بأس بذلك، وإن جعلت بعضه مدوراً وبعضه

(١٤٠) المحكم ص ١٩. وانظر كتاب النقط (له) ص ١٢٥.

(١٤١) المحكم ص ٢٠، وانظر ابن أبي داود ص ١٤٧.

(١٤٢) المحكم ص ٢٠.

بشكل الشعر فغير ضائر، بعد أن تعطي الحروف ذوات الاختلاف حقوقها» (١٤٣).

وما أشار إليه ابن المنادي من إمكانية جمع أكثر من قراءة بواسطة استخدام النقط المدور والشكل المستطيل معاً يفسر لنا ضبط مصحف مخطوط في دار الكتب المصرية كتب عليه - بقلم ربما كتب بعد كتب المصحف (١٤٤) - انه بخط جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ) وقد أرجعه موريتز في مجموعته إلى القرن الثاني أو الثالث، وأورد منه ست لوحات (٣٦-٣١)، ولعل هذا المصحف كتب بعد زمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ)، اعتماداً على طريقة الضبط التي اتبعت فيه، ولا تظهر اللوحات التي نقلها موريتز حقيقة ألوان الحركات، ولكن بعد أن اطلمت على أصل هذا المصحف المحفوظ في دار الكتب المصرية (١٤٥) - وهو يضم من القرآن حتى آخر الكهف - عرفت سر هذه الكثرة في العلامات، إذ يبدو ان هذا المصحف كتب أولاً على قراءة معينة وضبط بالعلامات التي وضعها الخليل بنفس المداد الذي استعمل في رسم الحروف، الفتحة ألف صفري مبسوطة فوق الحرف والكسرة مثل الفتحة تحت الحرف والضممة واو صفري فوقه، كذلك رسمت الشدة رأس شين والهمزة رأس عين بنفس المداد، ولما أريد ضبط هذا المصحف بالقراءة الاخرى (١٤٦) استعان الناقد بطريقة النقط المدور المفرغ الوسط، واستعمل لونين من المداد: الأول الحمرة للحركات والتنوين فالفتحة نقطة فوق الحرف والضممة نقطة أمام الحرف لكن الكسرة لم تكن نقطة مفرغة الوسط دائماً بل جعلها الناقد أحياناً مثل الفتحة تحت الحرف وباللون الأحمر،

(١٤٣) الحكم ص (٢١-٢٢).

(١٤٤) انظر ناجي زين الدين: بدائع الخط العربي شكل ٦٤٩ ص ٣٤٩ وانظر ص ٤٩١ تسلسل ٦٤٩.

(١٤٥) برقم (١ مصاحف).

(١٤٦) يرى الأستاذ حفي ناصف أن المصحف مضبوط على أكثر من قراءة (انظر تاريخ الأدب ص ٩٤).

أي أنه جعلها مثل الكسرة التي ضبط بها المصحف أولاً بنفس مداد الحروف، أما اللون الثاني فهو الأزرق (اللازورد) وقد استعمله للهمزات حيث جعلها نقطاً مدورة مفرغة الوسط أيضاً.

وما بيناه من مذاهب أئمة السلف في نقط الحركات الثلاث إنما يختص بالحركات المشبعة، أما تمثيل الحركة المختلطة والحفاة والمرامة والمشمة في مذاهب بعض القراء فقد بين الداني المستعمل من ذلك في نقطها حتى عصره، فيشار إلى المختلطة والحفاة والمرامة بأن تنقط بالنقط المدورة ويشار إلى الحركات المشبعة بعلامات الخليل التي هي حروف صغيرة « فيكون النقط وهذه الحروف الثلاثة فرقاً بين ما لم يَتَمَّ الصوت به من الحركات، ولم يشع اللفظ به، وبين ما أُتِمَّ به الصوت، ومطط به النطق ويميّز الجنسان، ويبيّن النوعان، وتدرك حقيقتهما بذلك » (١٤٧).

أما الحركة المشمة - ومعنى الاشمام هنا يختلف عن المعنى الذي سبق في حالات الوقف فمعناه هنا أن ينحى بكسرة أوائل بعض الأفعال مثل (قيل وسبق وغيض) نحو الضمة سيراً - إذا أريد نقطها فإنها تجعل نقطة أمام القاف والسين والغين، وما أشبه ذلك من الأمثلة، ليدل بذلك على اشمامها، ويقول الداني: « وإن تركت الحروف عارية من تلك النقطة وأخذ ذلك مشافهة عن القراء كان حسناً » (١٤٨).

ونقط الفتحة المائلة يكون بأن تجعل نقطة تحت الحرف الذي هي عليه كما تجعل الكسرة سواء، ويقول الداني: « وإن خيف إخلاص تلك الكسرة ترك الحرف عارياً منها، إلى أن تأتي المشافهة على ذلك » (١٤٩). وقد تكون علامة الامالة بعد أن استعمل الشكل المستطيل في نقط المصاحف هي علامة الكسرة

(١٤٧) المحكم ص (٤٦-٤٧). وانظر أيضاً التنسي ورقة ١٦ ب.

(١٤٨) المحكم ص ٤٨.

(١٤٩) نفس المصدر والصفحة.

توضع تحت الحرف مكان النقطة، وربما استعمل بعض النقاط كلمة (مل) مكتوبة بالمداد الأحمر علامة للإمالة فوق الحرف الممال^(١٥٠).

ونشير قبل أن ننتقل إلى المبحث التالي إلى نقط الحركات الطويلة إذ درج النقاط على أن يجعلوا نقطة على الحرف الذي تأتي بعده ضمة أو كسرة أو فتحة طوال وكأن تلك النقطة تشير إلى أن رمز الواو أو الياء أو الألف إنما هو ضمة أو كسرة أو فتحة طوال لا واو أو ياء أو همزة، أي انها حركات وليست صوامت وبعد أن حلت محل تلك النقط علامات الخليل واستعملت باطراد ارتبط بالأذهان أن الحركات الطويلة تتكون من الحركة القصيرة والواو أو الياء أو الألف بعدها، استناداً إلى ظاهر الرسم، وقد تحدث علماء العربية عن الحركات الطويلة على أساس من ذلك الفهم، فنجد سيبويه يتحدث عن الياء التي قبلها كسرة والواو التي قبلها حرف مضموم^(١٥١)، وأن الألف لا بد لها من حرف قبلها مفتوح^(١٥٢)، وقد تردد هذا الاتجاه في تعبيرات التالين^(١٥٣).

والحركات الطويلة من الناحية الصوتية ما هي إلا الحركات القصيرة لكنها طالت أو أصبحت ضعف الحركة القصيرة أو نحواً من ذلك كما دلت الدراسات الصوتية الحديثة^(١٥٤). وهو تصور ليس جديداً على علماء العربية - كما لاحظنا من قبل في تعبيرات ابن جنّي - ولكن يبدو أن ذلك التصور لم يكن يميز موقف كل علماء العربية بل حتى ابن جنّي نفسه قد عبر عن الحركات الطويلة بأنها ألف قبلها فتحة وياء قبلها كسرة وواو قبلها ضمة^(١٥٥).

(١٥٠) انظر د. عبد الفتاح شلي: الإمالة ص ٢٨٥ و ٢٩٠.

(١٥١) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٧.

(١٥٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٨٦.

(١٥٣) انظر مثلاً ابن جنّي: سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٥٨. ومكي: الكشف ج ١ ص ٤٥.

(١٥٤) انظر د. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ١ ص ٢٠١.

(١٥٥) انظر مثلاً الخصائص ج ٢ ص ١٤١ وج ٣ ص ١٢٧، وسر صناعة الاعراب =

وإذا كنا لا نجد مبرراً لإثبات علامات الحركات قبل الألف والواو والياء الدالة على الحركات الطويلة، من الناحية الصوتية، فإن إثبات تلك الحركات يجد ما يبرره من ناحية الكتابة، ذلك لأن الرموز الثلاثة لما كانت ذات جانبيين من حيث دلالتها على الأصوات الصامتة وعلى الحركات الطويلة في نفس الوقت فقد صار إثبات علامات الحركات القصيرة أمام تلك الرموز إشارة إلى كونها حركات طويلة وليست صوامت، ومن ثم فليس هناك داع إلى القول «إننا لسنا في حاجة إلى وضع علامات الحركات القصار قبل هذه الحروف»^(١٥٦) بشرط أن يكون فهمنا لطبيعة الحركات الطويلة فهماً صوتياً صحيحاً^(١٥٧).

(المخطوط) ورقة ٢٤٠ ب.

(١٥٦) د. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ١ ص ٢٠٢.

(١٥٧) انظر جان كانتينو ص ١٤٨.

المبحث الثاني

علامات تمييز الحروف المتشابهة في الصورة

إن الكتابة العربية بما تتابع عليها من تطور في أشكال حروفها - قبل الإسلام - قد تولد عنه تقارب كبير في رموز بعض الأصوات أدى في آخر المطاف الى اشتراك صوتين أو أكثر برمز واحد، وقد سبق بيان أسباب ذلك التحول وجذوره البعيدة بما لا يوجب اعادته هنا^(١). وكذلك قد أشير في أكثر من موضع سبق أن المصاحف العثمانية كتبت خالية من أية علامة لتمييز الحروف المتشابهة في الصورة مثل ما خلت من علامات الحركات القصيرة، وأشارت في مطلع هذا الفصل الى اتجاه يقول إن نقط الاعراب ونقط الاعجام قديمان في الكتابة العربية، وإن المصاحف جردت منها لتحتمل ما صح من القراءات، واتضح أن الأساس الذي بنيت عليه هذه المقولة أساس غير واضح ولا محدد ولا يصلح أن يكون دليلاً في قضية تحديد تاريخ استخدام النقط المميزة للرموز المتشابهة الصور في الكتابة العربية، ولم نهدف من تلك المناقشة متابعة تاريخ الموضوع وإنما بينا أن القول بقدم الشكل والاعجام وأن المصاحف العثمانية قد جردت منه لأسباب معينة قول لا يعتمد على دليل مؤكد بل رجحت أنه اتجاه مخطوء، وبعد أن انتهينا من بحث تاريخ تمثيل الحركات القصيرة اعتماداً على الروايات وعلى الوثائق المخطوطة أحاول أن أبحث تاريخ ادخال العلامات المميزة للرموز المتشابهة، وكما اتبع علماء السلف الأولون طريقة العلامات

(١) انظر ص ٧٢ من الفصل التمهيدي.

الخارجية في تكميل تمثيل الحركات اتبعوا كذلك نفس الطريقة في تمييز الحروف المتشابهة في الصورة^(٢).

إن هذا الموضوع يبدو أكثر تعقيداً من موضوع تمثيل الحركات ولذلك فهو لا يخلو من غموض، لنقص في الوثائق والروايات، ومن ثم سوف أتناوله بما تيسر من الروايات التاريخية محاولاً الاستعانة بالوثائق المخطوطة القليلة في الوصول الى المعالم البارزة لتاريخ تمييز الرموز المتشابهة الصور، تاركاً القضية بعد ذلك لجهود الباحثين، وما يمكن أن يكشفه المستقبل من روايات أو وثائق مخطوطة تصحح وتوضح ما بأيدي الناس اليوم.

وإذا تجاوزنا الرواية التي تنسب وضع الاعجام في الكتابة العربية الى عامر ابن جدره^(٣)، وحاولنا الاستعانة بالروايات التاريخية الأخرى نجدها على قسمين قسم يرى أن واضع الشكل هو الذي وضع الاعجام، فقد قال الجعبري^(٤): «الظاهر أن مبتدعه واضع الشكل» وقال ابن عاشر الأنصاري^(٥): «لم أجد

(٢) ذكر الصولي (ص ٥٥-٥٦) أنه «إذا اتصلت ياء وتاء ونون في كلمة فكان على عدد أشكال السين والشين دفعت الوسطى، مثل بينك وبيتك، ولو لم تفعل ذلك وسويت بين الثلاث لجاءت الكلمة كأنها شك أو سك ويحتمل الاثنان السين والشين». ويبدو أن ما ذكره الصولي كان وسيلة لجأ اليها الكتاب لتفادي اللبس الذي قد يحصل من اجتماع الياء والتاء والنون التي تكون في غير الطرف ما يشبه حرف السين، ونجد أمثلة لذلك في بعض مخطوطات المصاحف القديمة وبعض النقوش، ويقدم مصحف جامع عمرو أمثلة متعددة، من ذلك (٢٦/٤٨) (فانزل الله سكينته) إذ نجد أن سِنَّتِي الياء والتاء في كلمة (سكينته) جاءت أطول من سِنَّة النون التي تتوسطها وبذلك أشعر الكاتب أن هذه السَّنَات الثلاث ليست سينا.

(٣) انظر ص ٣٤ من الفصل التمهيدي، وقد نسب الداني (المحكم ص ٣٥) وضع الإعجام الى (أسلم بن خدره) نقلاً عن هشام الكلبي، وكأنه حدث تصحيف في الاسم في رواية الداني.

(٤) خيلة أرباب المراصد ورقة ٣١٦ أ.

(٥) فتح المنان المروي بمورد الظهآن ص ٥١.

نصاً في تعيين أول من نطق في المصاحف نطق الاعجام، وقال الجعبري في خاتمة الجميلة (الخميلة) الظاهر أن مبتدعه واضح الشكل، ويظهر لي والله أعلم أنهم لم يتعرضوا له لأنه كان موجوداً في نفسه»، ولا تعطي هذه الرواية تاريخاً محدداً، ولا تقدم شيئاً جديداً^(٦)، أما القسم الثاني من الروايات فهو أقدم بكثير من السابقة ومن الغريب أن الجعبري وابن عاشر لم يطلعا عليها، وهي في الحقيقة رواية واحدة، ورغم أنها تقدم معلومات محددة، وترتبط ادخال العلامات المميزة للرموز المتشابهة بأشخاص معروفين وبزمان ومكان معينين، إلا أنها لم تسلم من الغموض الذي يدفع الى عدم الاطمئنان الكامل الى ما ورد فيها.

وقد عرف الباحثون تلك الرواية عن طريق ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) أولاً، حيث نقلها في كتابه وفيات الأعيان، فقال: «وحكى أبو أحمد العسكري في كتاب (التصحيف) أن الناس غبروا يقرأون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه...»^(٧). وحين رجعت الى كتاب أبي أحمد العسكري (ت ٣٨٢ هـ) وجدت الرواية التي ذكرها ابن خلكان بنصها فيه^(٨)، ما عدا قليلاً من التغيير في بعض الألفاظ في نص ابن خلكان بالنسبة لنص أبي أحمد العسكري، لكن الرواية ظلت تقريباً كما هي لفظاً ومعنى، وفي أثناء قراءتي لإعداد هذا البحث عثرت على نفس الرواية في كتاب آخر في نفس الموضوع لمعاصر لأبي أحمد العسكري، وهو حمزة الأصفهاني (ت ٣٦٠ هـ) فقد أورد الرواية مع اختلاف يسير لم يغير المعنى بل حافظت على كثير من ألفاظ رواية العسكري^(٩)، وإذا كان أبو أحمد العسكري قد مات بعد حمزة الأصفهاني باثنتين وعشرين سنة فهل أن ذلك يدل على أن العسكري نقلها منه أو ان كليهما نقل عن مصدر واحد سبقهما؟ إن الإجابة على ذلك تحتاج الى التأكد من أيهما سبق في تأليف كتابه، وهل اطلع

(٦) انظر في نفس معنى الرواية: القلقشندي ج ٣ ص ١٥٥.

(٧) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٤.

(٨) انظر: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص ١٣.

(٩) انظر: التنبيه على حدوث التصحيف ص (٢٧-٢٨).

أحدها على كتاب صاحبه، وما لا يساعد على الوصول الى مصدر هذه الرواية هو أنها سبقت - في كلا المصدرين - دون ذكر مصدرها أي لم تسند، واكتفى العسكري بقوله (وروي) وأورد الأصفهاني الرواية رأساً، ونحن نورد هنا رواية الأصفهاني أولاً ثم رواية العسكري بعدها لننظر ما يمكن أن تفيدها في موضوع إعجام الحروف.

قال حمزة الأصفهاني « وأما سبب إحداث النقط فان المصاحف الخمسة التي استكتبتها عثمان رحمه الله وفرقها على الأمصار، غير الناس يقرأون فيها نيّفاً وأربعين سنة وذلك من زمان عثمان الى أيام عبد الملك، فكثر التصحيف على ألسنتهم، وذلك أنه لما جاءت الباء والتاء والثاء أشباهاً في الاتصال والانفصال، وكانت الياء والنون يحكيانها في الاتصال تمكن التصحيف في الكتابة تمكناً تاماً، فلما انتشر التصحيف بالعراق فزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فوضعوا النقط أفراداً وأزواجاً، وخالفوا في أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف، فغير الناس بعد حدوث النقط زماناً طويلاً لا يكتبون دفترا ولا كتاباً إلا منقوطة، فكان مع استعمالهم النقط يقع التصحيف، فأحدثوا الاعجام، فكانوا يتبعون ما يكتبون بالنقط مع الاعجام فاذا اغفل الاستقصاء على الكلمة فلم توفّ الحقوق كلها من النقط والاعجام اعترها التصحيف ... »

وقال أبو أحمد العسكري: « وقد روي أن السبب في نقط المصاحف أن الناس غبروا يقرأون في مصاحف عثمان - رحمة الله عليه - نيّفاً وأربعين سنة، الى أيام عبد الملك بن مروان، ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج الى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف، وبعضها تحت الحروف، فغير الناس بذلك زماناً لا يكتبون الا منقوطة، فكان مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف، فأحدثوا الاعجام، فكانوا يتبعون النقط بالإعجام، فاذا أغفل الاستقصاء على الكلمة فلم توف

حقوقها اعترى هذا التصحيف ، فالتمسوا حيلة ، فلم يقدرُوا فيها إلا الأخذ من أفواه الرجال .»

ومع أن كلا النصين يقدم تفصيلاً أكثر بالنسبة لما جاء في النص الآخر في جوانب معينة فإنها لم يقدماً توضيحاً للغموض الذي تكرر في كليهما والذي استوقف انتباه الباحثين المحدثين في أول لقاء لهم مع هذه الرواية التي عرفوها عن طريق ابن خلكان أولاً ، ولم يجدوا التفسير الواضح لما جاء فيها إلى اليوم^(١٠) ، فالرواية في كلا نصيها تتحدث عن تنقيط الحروف المشابهة لتمييزها وتخصيص كل صوت برمز واحد لا يشركه فيه غيره ، ويمكن أن نلاحظ أن الرواية تتحدث عن حدثين في تاريخ الكتابة العربية ، الأول هو تنقيط الحروف الذي تم في خلافة عبد الملك وولاية الحجاج على العراق ، والرواية صريحة في أن الذي تم عمله في زمن الحجاج هو نقط الحروف لتمييز المشابهة في الصورة منها ، ونص الأصفهاني يقدم تفصيلاً أكثر في هذا الجانب من نص العسكري ، ولكن هذا العمل لم يمنع وقوع التصحيف فيما يكتب الناس فكان لا بد من خطوة أخرى لتكميل الكتابة وقد كان من المتوقع أن تتحدث الرواية في الخطوة الثانية عن علامات الحركات وما يشبهها من علامات ، لكن الرواية تتحدث عن الخطوة الأخرى حديثاً غامضاً وتسميها (الاعجام) ، ومعلوم أن هذا المصطلح يطلق على نقط الحروف لتمييز المشابهة منها ، ومن ثم فإن تسمية الخطوة الثانية بالاعجام قد جعل معنى الرواية غير مستقيم ، ويشير هذا إلى احتمال حدوث تصحيف في الرواية ، ولكن العجب أن لفظ الاعجام جاء في كلا نصي الرواية وتكرر أكثر من مرة ، مما ينفي احتمال وقوع التصحيف وربما يستقيم معنى الرواية إذا تصورنا أن المقصود (بالاعجام) هو الشكل أي علامات الحركات ، وهو احتمال قوي ، ولا يعترض على ذلك بالقول ان علامات الحركات استعملت قبل زمن الحجاج ، لأن

(١٠) انظر جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥٦ ود.عدنان الخطيب: المعجم العربي بين الماضي والحاضر. القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ ص ٢٢ ود.عبد العال سالم مكرم ص ٣٧.

العلامات التي وضعها أبو الأسود قبل زمن الحجاج لم تستعمل في كتابات الكتاب فتصير عملية تكميل الكتابة العربية عند الكتاب تبدأ بتمييز الحروف المتشابهة أولاً ثم وضع علامات للحركات ثانياً عكس ما جرى في تكميل الرسم العثماني، ويبدو هذا التفسير للرواية محتملاً رغم أنها تنص في أولها على أن الأمر يتعلق بالمصاحف، نعم هو يتعلق بالمصاحف في الخطوة الأولى من الرواية أما الخطوة الثانية فالأمر يتعلق بكتابة الكتاب، ولعل المقصود بالخطوة الثانية التي تنص عليها الرواية هو عمل الخليل بن أحمد، وربما دل على ذلك نص الأصفهاني « فغير الناس بعد حدوث النقط زماناً طويلاً لا يكتبون دقترأ ولا كتاباً إلا منقوطةً » فبين زمن الحجاج ووفاة الخليل قرن من الزمان تقريباً، ثم أن اشارة الرواية في نهايتها - في نص العسكري - الى أنه اذا أغفل الاستقصاء على الكلمة ولم توفّ حقها اعتراها التصحيف فالتمسوا حيلة فلم يقدرُوا فيها إلا الأخذ من أفواه الرجال، فيها دليل على أن العمل الثاني هو الشكل الذي وضعه الخليل، ولعل مما يؤيد ذلك ما ذكره ابن سيده في المخصص من قول صاحب العين - الخليل بن أحمد - شكلت الكتاب أشكله شكلاً - أعجمته^(١١)، وإذا كان الشكل يأتي بمعنى الاعجام فان ذلك يسوغ القول بأن الاعجام كان يستعمل بمعنى الشكل أيضاً، ثم اختص معنى الاعجام في فترة لاحقة بنقط الحروف في سمتها.

وإذا نظرنا الى ما جاءت به الرواية فيما يتعلق باعجام الحروف - وسنعتبر القسم الأول من الرواية مستقيماً ومقبولاً - نلاحظ أنها تربط في كلا نصيها ذلك العمل بفترة خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) وولاية الحجاج على العراق (٧٥-٩٥هـ)، وبينما لا يبين نص الأصفهاني القائم بأمر وضع النقط على الحروف نجد العسكري يصرح « فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك ». وكان الأستاذ حفي ناصف قد أورد هذه الرواية بصيغة مستقيمة حيث اكتفى بإيراد ما يتعلق باعجام الحروف بالسواد - ولا ندري هل اطلع على نص مستقيم للرواية أم أنه اكتفى من رواية العسكري بما أوردته - الى جانب ذلك فانه قرن الى نصر

(١١) المخصص ج ١٣ ص ٥ وانظر ابن منظور ج ١٣ ص ٣٨١.

ابن عاصم يحيى بن يعمر العدواني، وأشركه في عمل اعجام الحروف^(١٢)، ولا نعرف كذلك المصدر الذي استقى منه الأستاذ ناصف ذلك، وهل هو استنتاج من عنده من الأخبار التي تذكر أن يحيى هو أول من نقط المصاحف.

ويبدو - حسبما تدل عليه هذه الرواية - أن الجيل الذي جاء بعد أبي الأسود هو الذي قام بإعجام الحروف وذلك أن أبا الأسود الدؤلي أخذ عنه العربية ونقط المصاحف عدد من علماء التابعين وقد ذكر ابن سلام الجمحي جماعة منهم فقال: وكان ممن أخذ عن أبي الأسود يحيى بن يعمر (ت قبل ٥٩٠ هـ) ونصر بن عاصم الليثي (ت ٥٩٠ هـ) وغيرها^(١٣)، ولا شك أن الاحساس بضرورة تمييز الحروف المشابهة في المصحف وغيره قد أخذ يزداد بتقدم الزمن، ومن المحتمل أن محاولة تكميل ذلك النقص قد تمت في خلافة عبد الملك التي تحقق فيها كثير من الانجازات اللغوية والفنية فكانت هذه الفترة عصر تجويد للخط وتنافس في ترقيته في كل أنحاء الدولة الإسلامية^(١٤)، تشهد لذلك هذه القبة العظيمة التي شيدها عبد الملك حول الصخرة، وجمع فيها من غريب الفن المعماري وطريفه^(١٥)، وفي خلافة عبد الملك تم تعريب دواوين الشام والعراق^(١٦)، وكان عبد الملك أول من نقش بالعربية على الدراهم^(١٧).

وسبق أن بعض الروايات تشير الى أن أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر

(١٢) انظر تاريخ الأدب ص ٧١ وما بعدها.

(١٣) طبقات فحول الشعراء ص (١٢-١٣). وانظر السيرافي ص ٢١ وأبو بكر الزبيدي ص ٢٢. وابن النديم ص ٤١ وأبو البركات الانباري ص ١١.

(١٤) د. ابراهيم جمعة: دراسات في تطور الكتابات الكوفية ص ١٣٦. وانظر د. صالح العلي ص ٢٠.

(١٥) انظر نموذجاً للكتابة التي رسمت حول تلك القبة في عصر عبد الملك في دراسات الدكتور المنجد عن تاريخ الخط العربي ص ٥٩، والكتابة مؤرخة سنة ٧٢ هجرية.

(١٦) البلاذري ص ٢٠١ و ٣٠٩ والجهمياري ص ٣٨ و ٤٠.

(١٧) ابن رسته مج ٧ ص ١٩٢.

ونصر بن عاصم^(١٨)، ويورد الدارسون تلك الروايات في معرض حديثهم عن أول من وضع نقط الاعراب، واذا ثبت أن أبا الأسود هو الذي وضع نقط الاعراب فان الأولية التي تنسب لها تصحيح موضع نظر، وربما أريد بها أنها أشاعا تلك الطريقة بعد استاذها وربما قصد بذلك أنها أول من وضع نقط الاعجام في المصاحف - وهو أرجح وتشير إليه الرواية التي ينقلها العسكري.

وقد كان يحيى بن يعمر عالماً مأموناً يروى عنه الفقه^(١٩)، وكان صاحب قراءة^(٢٠)، وكان نصر بن عاصم أحد القراء والفصحاء، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس^(٢١)، وذكر ابن عطية في مقدمة تفسيره أن الجاحظ قال في كتاب الأنصار «إن نصر بن عاصم أول من نقط المصاحف، وكان يقال له نصر الحروف»^(٢٢)، وهذا اللقب (نصر الحروف) ذو دلالة تشير الى دور ما لنصر بن عاصم في اعجام الحروف، أو شيء آخر يخصها.

واذا كانت رواية الأصفهاني والعسكري تشير الى أن نقط الاعجام قد ظهر في خلافة عبد الملك (٦٥-٨٦هـ) وولاية الحجاج على العراق (٧٥-٩٥هـ) فان ذلك يدل على أن اعجام الحروف قد تم بعد أن وضع أبو الأسود الدؤلي نقط الاعراب، لكن هناك رواية يذكرها الداني عن الأوزاعي (ت ١٥٧هـ)، انه قال: سمعت يحيى بن أبي كثير (ت ١٢٩هـ) يقول: «كان القرآن مجرداً في المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء، وقالوا لا بأس به، هو نور له»^(٢٣)، فهل يعني ذلك أن وضع النقط على الياء والتاء تم قبل وضع أبي

(١٨) انظر الداني: المحكم ص (٥-٦).

(١٩) ابن سلام الجمحي ص ١٢.

(٢٠) ابو بكر الزبيدي ص ٢٣ وابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٣٨١.

(٢١) السيرافي ص ٢٠ وابن النديم ص ٣٩.

(٢٢) مقدمة تفسير ابن عطية، نشر ارثر جفري، ص ٢٧٥.

(٢٣) المحكم ص ٣٥ وانظر أيضاً ص ٢ و ١٧.

الأسود لنقط الاعراب؟ لا يفهم من الروايات التي عرضنا بعضاً منها آنفاً إلا أن نقط الاعراب سبق نقط الاعجام في استخدامه في المصاحف، ولا ندري هل أن يحيى بن أبي كثير أدرك المصاحف مجردة وشهد وضع النقط، أم أنه روى ذلك عن رأى المصاحف مجردة، ومهما يكن من شيء فإن رواية ابن أبي كثير لا تعني بشكل قاطع أن نقط الاعجام تم وضعه قبل نقط الاعراب.

إن دلالة الروايات التاريخية على بداية وضع اعجام الحروف واستخدامه في المصاحف تكاد تحدد الفترة التي تمت خلالها تلك الخطوة، ويبدو أنها قد تمت وفقاً لتلك الروايات بعد النصف الأول من القرن الهجري الأول وقبل نهايته. وإذا ما حاولنا الاستعانة بالوثائق المخطوطة التي تعود الى ذلك القرن لتوكيد ما تدل عليه الروايات فإننا لن نستقر في ذلك على شيء، بل إن الوثائق المخطوطة تكاد تضع القضية وضعا جديداً لكنه لا يزال بعيداً عن درجة القطعية والثبوت، ففي أيدي الباحثين اليوم عدة وثائق مخطوطة ترجع الى فترة سابقة لخلافة عبد الملك بن مروان، وقد ظهر فيها بعض نقط الاعجام مما يبعث على التساؤل في صحة الروايات التاريخية أو في أصالة تلك النقط التي تظهر فوق بعض الحروف في تلك النصوص.

أما الوثائق المذكورة فهي بردية ونقشان. أما البردية فقد سبق أن أشرنا إليها في الفصل التمهيدي، ونحاول هنا أن نتعرض بتفصيل أكثر لتاريخها وقراءتها وأهميتها في بيان تاريخ اعجام الحروف العربية، وقد نشرت هذه البردية في مجموعة الأرشيدوق راينر Rainer التي ضمت البرديات العربية الموجودة في متحف فينا، تحت رقم (٥٥٨) وهي مكتوبة باللغتين العربية واليونانية، ويبدو أن الجزء العربي هو الأصل وأن الجزء اليوناني هو ترجمة له (٢٤).

وقد قدم جروهان قراءة لهذه البردية فقرأ السطر الأخير منها على هذا

- Grohmann: From the world of arabic Papyri, Al-Maaref press , (٢٤)

Cairo 1952. p. 113.

النحو: (.. في / شهر جمدى الأولى من سنة اثنتين وعشرين وكتب ابن حديدو)^(٢٥)، وذكر أن في الكتابة العربية لهذه البردية خمسة أحرف عليها نقط الاعجام وهي (ش ز ذ خ ن) واعتبر هذه البردية أقدم نص عربي مخطوط تظهر فيه نقط الاعجام^(٢٦).

ويبدو أن تاريخ البردية وإعجام بعض الحروف فيها لا يزالان - رغم الثقة بمعلومات البردي الكبير جروهان - موضع مناقشة، ولا بد من الإشارة الى أن الصور المنشورة لهذه البردية لا تعين كثيراً في توضيح ما يتعلق بهذين الجانبين، فرغم أن الدكتور المنجد نشر صورة مقبولة للبردية^(٢٧)، إلا أن هذه الصورة ليس من اليسير تبين الحروف المعجمة فيها، وتكاد كافة الصور المنشورة للبردية مما اطلمت عليه تتفق في مدى وضوح السطر الأخير فيها^(٢٨). وتظهر هذه الصور فراغاً بين كلمة (عشرين) وكلمة (ابن حديدو) هو على ما قرأ جروهان (وكتب)، ووافقته على هذه القراءة الدكتور المنجد، رغم أنه قرأ الكلمة الأخيرة (حديده) بدلا من قراءة جروهان (حديدو)^(٢٩)، لكن الأستاذ ناصر النقشبندى توقف في قراءة السطر الأخير وترك فراغاً بعد كلمة (عشرين) وبعد كلمة (حديد) فقرأ هكذا (شهر جمدى الأولى من سنة اثنتين وعشرين و... حديد...)^(٣٠)، وهو توقف له ما يبرره إذ أن في كافة الصور المنشورة لهذه البردية كلمة غير واضحة هي التي قرأها جروهان (كتب) وهناك بعد كلمة (حديد) بعض آثار كلمة، وليس من اليسير التسليم بقراءة جروهان (كتب) على

(٢٥) نفس المصدر ص ١١٤.

(٢٦) نفس المصدر ص ٨٢. وانظر د. ناصر الدين الأسد ص ٤٠ و Abbott, P.38 -

(٢٧) دراسات في تاريخ الخط العربي ص ٣٨ شكل ١٩.

(٢٨) انظر صورة البردية في كتاب السيدة N. Abbott (لوحة ٤) وفي آخر مقالة الأستاذ ناصر النقشبندى في مجلة سومر. وجروهان: المصدر السابق لوحة ١١.

(٢٩) الدكتور المنجد ص ٣٣.

(٣٠) منشأ الخط العربي ص ١٣٩.

ما هو مشاهد في صور هذه البردية، ولقراءة هذه الكلمة أثر كبير في تحديد تاريخ هذه البردية، فإذا صحت قراءة جروهان أصبح تاريخ البردية محدداً، لا يقبل الشك، وإذا أمكن قراءة تلك الكلمة قراءة أخرى تتعلق بالتاريخ ظل التاريخ المذكور موضع شك، ومن الغريب في أمر هذه البردية أن الدكتور المنجد أورد لوحة مكبرة من بردية ذكر أن جروهان نشرها لتوضيح تاريخ هذه البردية، وعلق عليه المنجد بقوله «ويبدو فيها التاريخ (اثنتين وعشرين) واضحاً»^(٣١)، وذلك المقطع المكبر رغم أنه يظهر فيه التاريخ المذكور إلا أنه ليس مكبراً عن البردية المعنية قطعاً، فان نسب المسافات بين الكلمات وطبيعة الكلمات التي تقابل كتابة التاريخ في السطر السابق له تختلف في كلا الصورتين اختلافاً بيناً. ولا أدري أيها مصدر هذا الخلط^(٣٢)، ولعل مما يعين على تحديد تاريخ هذه البردية هو معرفة التاريخ المذكور باليونانية ومقابلته بالسنوات الهجرية، وهو ما لم أتمكن من التحقق منه^(٣٣).

أما النقشان اللذان ظهرت على بعض حروفها نقط الاعجام فأحدهما عثر عليه في الحجاز والآخر في غرب الفرات في العراق، فقد عثر المهندس K.S.Twitchell سنة ١٩٤٥ وهو ينقب عن المصادر المعدنية في الحجاز على نقش في صخرة من بقايا سد قديم كان قد بني في زمن الخليفة الأموي الأول معاوية كما يدل على ذلك النقش الذي يقع قرب الطائف^(٣٤)، وقام بنشره

(٣١) دراسات في تاريخ الخط العربي ص ٣٩ شكل ٢٠.

(٣٢) الأغرب من ذلك هو أن الصورة التي نشرها الأستاذ ناجي زين الدين في مصور الخط العربي (شكل ٩٩ ص ٣١) قد بدت فيها كلمة (كتب) موضع الخلاف مكتوبة بوضوح تام يستلفت النظر ويبعث على الشك في كون الصورة التي نقل منها ناجي زين الدين قد وضحت كتابتها بقلم على ضوء قراءة جروهان، وتشمل ظاهرة الوضوح هذه كلمات أخرى في الصورة.

(٣٣) ذكر الدكتور عبد العزيز الدالي ترجمة لتاريخ النص اليوناني (ص ٤٦) وهو (في ٣٠ برمودة من السنة الأولى من البريديوس الأول).

(٣٤) انظر - Grohmann: Arabic Inscriptions, Louvain-Leuven. 1962 P 56.

وقراءته مايلز (G.C.Miles)^(٣٥)، وهو مؤرخ بسنة (٥٨ هجرية)، وتظهر على كثير من حروف هذه النقش تقط الاعجام - حسب الصورة المنشورة - وقد قرأه جروهان على هذا النحو^(٣٦):

- ١ هذا السد لعبد الله معوية
- ٢ أمير المؤمنين بنيه عبد الله بن صخر
- ٣ باذن الله لسنة ثمن وخسين أ
- ٤ اللهم اغفر لعبد الله معوية أ
- ٥ مير المؤمنين وثبته وانصره ومتع أ
- ٦ لمومنين به كتب عمرو بن حباب.

وكان مايلز قد قرأ السطر الأخير هكذا (أ/ (ميرا) لمومنين..) بزيادة كلمة (أمير) ظناً منه ان هناك كلمة ساقطة^(٣٧)، وقد اعترض الدكتور المنجد على الكلمة التي قدرها مايلز واعتقد أن الصواب أن توضع كلمة (اللهم) مكانها فقرأ العبارة عندئذ هكذا: (ومتع اللهم المومنين به)^(٣٨)، ويبدو أن القراءة الصحيحة هي التي ذكرها جروهان وأن كلا من مايلز والمنجد قد أخطأ في تقديرها، إذ أن النقش يعرض كلمة (أ/ لمومنين) بوضوح، وليس هناك مكان

= وانظر أيضاً: د. زاكية محمد رشدي ق ٢ مج ٢٩ ص ٤٢. والدكتور المنجد ص ١٠١.

- Journal of near Eastern studies V. 7, Part 4, october 1948 (٣٥) نشره في: P.236.

- تحت عنوان: Early Islamic Inscription near Ta'if in the Higaz

وانظر المصادر المذكورة في الهامش السابق ود. ناصر الدين الأسد ص ٤٠.

- Grohmann: Arabic Inscriptions PP.56-57. انظر (٣٦)

- Grohmann: Arabic Inscriptions P.57. انظر (٣٧)

(٣٨) انظر دراسات في تاريخ الخط العربي ص ١٠٣.

لكلمة (أمير) أو (اللهم) ولا يبدو هناك أي نقص في بداية السطر الأخير^(٣٩)،
والحروف التي تظهر عليها نقط الاعجام في هذا النقش في بعض المواضع هي
(الباء والتاء والياء والنون والفاء والحاء).

وقد كان من المعتقد أنه لا يوجد من النقوش التي تظهر فيها نقط الاعجام
على بعض الحروف مما يرجع الى القرن الهجري الأول سوى نقشين، نقش
الطائف الذي سبقت الاشارة اليه، ونقش آخر يرجع تاريخه الى سنة (٥٨٦ هـ)
وهو من منارات الطريق التي عملت في خلافة عبد الملك بن مروان، حيث
تظهر فيه كلمة (ثنية) في السطر الأخير معجمة^(٤٠)، لكن نقشاً ثالثاً عثر عليه في
العراق في منطقة حفنة الأبييض، وهو يشبه تذكراً كتبه ثابت بن يزيد
الأشعري، ويرجع الى سنة (٦٤ هـ) وقد ظهرت فيه ثلاثة حروف معجمة (الباء
والتاء والياء) وهذا النقش مكون من (١٣) سطراً ولسنا بصدد دراسته أو
ايراد قراءته^(٤١)، وإنما نكتفي بالاشارة الى المكان الذي وردت فيه الكلمات
المعجمة، وهو السطران الثاني والثالث:

- Grohmann: Arabic Inscriptions P.57.

(٣٩) انظر

(٤٠) ذهب الى ذلك جروهان (انظر نفس المصدر السابق ص ٥٨)، وانظر صورة هذا
النقش في كتاب السيدة N. Abbott (لوحة ٢ رقم ٦) ود. زاكية محمد رشدي ق ٢
مج ٢٩ ص ٥٠ ود. المنجد شكل ٦١ ص ١٠٨.

(٤١) عثر على هذا النقش السيد عز الدين الصندوق سنة ١٩٤٩ على صخرة أبعادها
(٥,٥ × ٤ م) على حافة وادي الأبييض في منطقة تسمى حفنة الأبييض غربي
كربلاء، وعلى هذه الصخرة كتابات أخرى ترجع الى تواريخ متأخرة أحدها الى سنة
(٣٥٦ هـ) انظر تفاصيل أخرى عن هذا النقش (عز الدين الصندوق: حجر حفنة
الأبييض مقال في مجلة سومر المجلد ١١ ج ٢ سنة ١٩٥٥ ص ٢١٣-٢١٧) وقد نقل
الأستاذ الصندوق صورة للنقش أوردها في المقال، وانظر صورة هذا النقش أيضاً
(د. فرج بصمة جي: كنوز المتحف العراقي وزارة الاعلام بغداد ١٩٧٢ شكل
٢٦٦ ص ٤٤٣) والدكتور صلاح الدين المنجد شكل ٥٨ ص ١٠٥، والصورة
المشورة لهذا النقش هي عن النسخة الجسسية المحفوظة في المتحف العراقي. وقد وهم =

٢ الله وكبر كبيراً وا

٣ الحمد لله كثيراً وسبحن ا

تلك هي النصوص المخطوطة الثلاثة التي ظهرت بعض حروف كلماتها معجمة، والتي ترجع الى تاريخ يسبق الفترة التي تحددها الرواية التاريخية. وقد كان بالامكان - اعتماداً على الصور المنشورة لهذه النقوش مع قبول ما ذكره جروهان عن بردية أهنس - القول بأن ظهور الاعجام في الكتابة العربية يرجع الى فترة تسبق تلك التي تحددها الرواية التاريخية أي الى سنة ٥٢٢ هـ أو قبل ذلك إن صح هذا التاريخ أو على الأقل الى سنة ٥٨ هجرية وهو تاريخ نقش الطائف - لولا أني اطلمت على ملاحظات لبعض الباحثين على هذه النصوص المذكورة تجمل المرء ينظر الى هذا الموضوع بحذر شديد بانتظار مزيد من الأدلة، فقد تشكك الدكتور الطاهر أحمد مكي في اصالة النقط الموجودة في بردية أهنس ونقش الطائف - رغم أنه لم يطلع عليها - فقد قال^(٤٢): «لم يتيسر لي الاطلاع على البردية التي أوردها جروهان، ولا أكاد أطمئن اليها، لأن الرسائل النبوية كتبت قبلها بما لا يزيد عن خمسة عشر عاماً، وأنفق فيها الكتاب كل جهدهم فناً وتجويداً لأنها كانت موجهة من رسول الى ملوك وأمراء، ويراد لها لكي تؤدي رسالتها كاملة أن تكون واضحة الخط كاملة الرسم سهلة القراءة، لا تحمل اعجاماً، وإن مصحف عثمان وقد كتب بعد هذه الوثيقة بثمانية أعوام كان خالياً منه، وما كان أحوجه اليه، فمن أجل الحفاظ على نصه فكر العلماء في النقط والاعجام، ووجود نقش وحيد بعض حروفه معجمة، ويرجع الى فترة لدينا منها نقوش أخرى غير معجمة لا تكفي لتأصيل قاعدة وتقرير حقيقة فرما أضيف اليه الاعجام فيها بعد عندما أصبح أمراً شائعاً في كتابة النصوص والوثائق».

= الدكتور المنجد وذكر (ص ١٠٤) أنها (محافظة في المتحف العراقي) والمفوظ في المتحف العراقي هو النسخة الجبسية المأخوذة عنها. أما الصخرة التي عليها النقش فلا تزال في مكانها (انظر عز الدين الصندوق ص ١٤ ود. فرج بصمة جي ص ٤١٦).

(٤٢) دراسة في مصادر الأدب ص (٦٣-٦٤).

وقد كان بالإمكان تجاوز احتمال إضافة نقط الاعجام وقبول تلك النصوص رغم ما قد يثار حولها من شك يسير لولا أن باحثة أخرى قامت بدراسة نقوش القرن الأول الهجري وتعرضت بالدراسة لنقش الطائف وقالت عنه^(٤٣): « وهذا النقش فيه بعض كلمات منقوطة، ويظهر من شكل النقط الموضوع على الباء والتاء والثاء والنون والياء أنها وضعت حديثاً لاثبات أن النقط كان موجوداً قبل سنة ٥٨ أي قبل تاريخ كتابة هذا النقش، لأن غور هذه النقط أقل من غور الكتابة نفسها»، وما ذكر هنا من إضافة نقط الاعجام بعد فترة لاحقة يقوّي الاحتمال الذي ذكره الدكتور الطاهر، ويدفع الى الحذر الشديد في إصدار حكم في هذا الموضوع، ولكن لا ندري كيف استطاعت الباحثة المذكورة معرفة أن غور نقط الاعجام أقل من غور الكتابة، وهل أن ذلك وحده يقوم دليلاً كافياً على القول إن تلك النقط مضافة؟.

وما قيل في نقش الطائف يمكن أن يقال عن نقش (حفنة الأبيض) خاصة أن هناك نقوشاً أخرى في نفس الصخرة ترجع الى فترات متأخرة عن تاريخ نقش ثابت الأشعري^(٤٤)، ولا تظهر في هذا النقش إلا ثلاثة حروف معجمة هي الباء والثاء والياء ويبدو أنها لم تتكرر في النقش إلا مرة واحدة في كلمتين هما (وكبر) في السطر الثاني و(كثيرا) في السطر الثالث، وربما كانت كلمة (كبيراً) في السطر الثاني معجمة الباء والياء أيضاً.

ونضيف الى ذلك ان ما اكتشف الى اليوم من برديات ونقوش على الصخرة وعملة معدنية مما يرجع الى القرون الأولى يندر فيه ظهور نقط الاعجام، فلم تظهر نقط الاعجام في نقوش القرن الأول في غير النقوش الثلاثة التي أشرنا اليها، فلم تظهر في نقش القاهرة (٣١ هـ) كذلك لم تظهر في نقش قبة الصخرة (٧٢ هـ) ولم تظهر في كتابات منارات الطريق في غير نقش منارة (باب الواد) التي

(٤٣) د. زاكية محمد رشدي: النقوش السامية ق ٢ مج ٢٩ ص ٤٣. وقد أهملت ذكر (الفا والحاء) بين الحروف المعجمة التي ذكرتها، وأظن أنها مقصودة بالحكم أيضاً.

(٤٤) انظر عز الدين الصندوق ص ٢١٥.

أشرنا الى اعجام كلمة (ثمنية) فيها^(٤٥)، كذلك لم تظهر في نقوش هذا القرن الأخرى، وقد ظلت النقوش الكتابية على الصخر خالية من اعجام الحروف حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري^(٤٦)، ولا تظهر في برديات القرن الهجري الأول - سوى بردية أهنس - نقط الاعجام إلا بدرجة نادرة جداً^(٤٧)، كذلك لا تظهر العملات الفضية والذهبية التي ترجع الى أواخر القرن الأول (٨٠-٥٨٨هـ) إلا قدراً ضئيلاً جداً من اعجام الحروف^(٤٨).

وإذا كان من الملاحظ أن النصف الثاني من القرن الهجري الأول وسنواته الأخيرة بالذات قد شهد اتجاهاً عاماً في نقط النصوص المكتوبة مما اكتشف الى اليوم فإن ذلك ربما يدل على حداثة عهد الناس بهذه الظاهرة فكانوا يجنحون الى إدخالها في كتابتهم، لكن تلك الرغبة قلت في السنين التالية على ما يبدو ولم يعد اعجام الحروف مرغوباً فيه في غير القرآن وكتب أهل اللغة الذين بالغوا في اعجام الحروف، ومن ثم غلب على الكتابات التي ترجع الى ما بعد القرن الأول ترك الاعجام بدرجة أكبر مما هي عليه في كتابات أواخر ذلك القرن، واستمرت هذه الظاهرة قروناً أخرى، وقد وجدت لها مبرراً أضفى عليها صفة من الثبوت وهي أن اعجام الكتاب الموجه الى حاكم أو عالم والمبالغة في ذلك يعد انتقاصاً لذلك الشخص في علمه واشعاراً بعدم قدرته على القراءة الصحيحة دون الاعجام، وقد قال ابن درستويه: «إن من شأن أهل النحو والشعر والغريب تقييد كل كلمة على ما يستحق كل حرف منها مبسوطاً ومركباً واستيفاء الشكل

(٤٥) انظر نماذج لتلك النقوش في كتاب N. Abbott (لوحة ٢ رقم ٥) ود. زاكية محمد رشدي ق ٢ مج ٢٩ ص ٤٩ و ٥١ و ٥٢.

(٤٦) انظر - Grohmann: arabic Inscriptions, P.58

وانظر د. ابراهيم جمعة: دراسة في تطور الكتابات الكوفية ص ٩٨.

(٤٧) انظر - Grohmann: From the world of Arabic papyri, P.82.

(٤٨) انظر نفس المصدر والصفحة.

وانظر د. ابراهيم جمعة: دراسة في تطور الكتابات الكوفية ص ٢٧٣.

والنقط احكاماً واستيثاقاً لأن علمهم غمض فتقييده أوضح على قارئه. ومن شأن كتاب الدواوين التخفيف واغفال الشكل من كل ما وضع ولم يلتبس كما أن ذلك شأنهم في النقط، فاذا التبست الكلمة أو الحرف فتقييدها لازم على جميع المذاهب»^(٤٩)، وعبر عن هذه الظاهرة أبو الخير صاحب مفتاح السعادة (ت ٩٦٢ هـ) بقوله: «إن النقط والاعجام في زماننا واجبان في المصحف، وأما في غير المصحف فعند خوف اللبس واجبان البتة لأنها ما وضعوا إلا لإزالته، وأما مع أمن اللبس فتركها أولى سيما إذا كان المكتوب إليه أهلاً...»^(٥٠).

وهذه الظاهرة تزيد من تعقيد مشكلة البحث عن بدايات الاعجام في الكتابة العربية وتجعل الدرس يتردد في إطلاق الحكم على انعدام الاعجام قبل الإسلام استناداً الى النقوش المدودة التي عثر عليها من كتابات تلك الفترة سيما أنها جميعاً كانت نقوشاً على الحجر وسطوراً قلائل، ولم يعثر على كتابة جاهلية على الرق أو البردي مثلاً، «فربما كان عدم النقط ناجماً عن اطمئنان الكاتب الى أن كلماته هذه المنقوشة في نجاة من التصحيف والخلط في القراءة لأنها أسماء أعلام وسنوات، وكلمات بينها من اليسير معرفتها»^(٥١) وقد ينطبق هذا الحكم بدرجة أقل على الكتابات العربية بعد الإسلام، لكن تواتر الأخبار ودلالة الوثائق المخطوطة تشير الى أن المصاحف العثمانية خالية من نقط الاعجام وعلامات الحركات، ولا نرى لذلك سبباً إلا أن الكتابة العربية لم تكن تعرف ذلك في تلك الفترة، أو لم يكن قد عرف أو شاع استعماله الى الدرجة التي تدفع الى إدخاله في النص المكتوب - مجرد احتمال - ولا يصح ما يقال في سبب تجريد المصاحف من بقاء السعة في اللغات والفسحة في القراءات، وإذا كانت الروايات التاريخية تحدد فترة خلافة عبد الملك وولاية الحجاج على العراق لابتداء استخدام نقط الاعجام في الكتابة العربية بدرجة تتجاوز مرتبة الشك فإن

(٤٩) كتاب الكتاب ص ٥، وانظر السيوطي: تدريب الراوي ج ٢ ص ٦٨.

(٥٠) مفتاح السعادة ج ١ ص ٨١ وانظر حاجي خليفة مج ١ عمود (٧١٢-٧١٣).

(٥١) د. ناصر الدين الأسد ص ٤٠ وانظر د. الطاهر أحمد مكي ص ٦٦.

الوثائق الثلاث التي ترجع الى ما قبل تلك الفترة وتبدو فيها تلك الظاهرة لا تكاد تقوم - وحدها - دليلاً على قدم الظاهرة.

ومع ذلك كله فإن أحداً من الدارسين لا يدري ما يكشف عنه في المستقبل من روايات وأخبار أو من نصوص كتابية على الرق والمعدن والصخر قد تأتي بما يساعد على تأكيد أحد الاحتمالات السابقة من نسبة ذلك العمل الى عامر بن جدرة أو نسبه الى نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر في خلافة عبد الملك، أو احتمال وجود هذه الظاهرة في وقت تاريخ بردية أهنس (٢٢ هـ) أو قبل ذلك أو بعده.

وإذا كنا قد وقفنا في تحديد تاريخ وجود ظاهرة اعجام الحروف في الكتابة العربية عند ذلك الحد فينبغي أن نولي وجوهنا تجاه الروايات والوثائق لنرى كيف استطاعت الكتابة العربية أن تتبنى هذا النظام في تمييز الحروف المشابهة في الصور مما لا نزال نستخدمه الى اليوم، وكيف استخدمه نساخ المصاحف في ابتداء الأمر حتى آل الى هذا النظام المتكامل الذي انتقل بالكتابة العربية نقلة جعلت فيها كل صوت صامت يختص برمز واحد، وهو هدف كل كتابة في أي عصر.

استعمل علماء السلف في بعض الأحيان مصطلح (النَّقْط) الذي استعمل أصلاً للدلالة على الحركات التي وضع نظامها أبو الأسود للدلالة على النقط التي تميز الحروف المشابهة في الصورة وهو ما استعمل له في الأكثر مصطلح الاعجام^(٥٢)، وقد عرفه الداني بقوله^(٥٣): «النقط عند العرب إعجام الحروف في سمتها» وقال^(٥٤): «إن النقط إنما استعمل ليفرق به بين المشتبه من الحروف في الصورة لا غير، ولولا ذلك لم يحتج اليه ولا استعمل». وعرفه ابن درستويه بقوله^(٥٥): «إن النقط زيادة تلحق الحرف فرقاً بينه وبين غيره، كما يزداد الحرف

(٥٢) انظر معنى الإعجام ص (٤٨٩) من هذا الفصل هامش (٤).

(٥٣) الحكم ص ٣٥.

(٥٤) نفس المصدر ص ٣٠.

(٥٥) كتاب الكتاب ص ٥١.

على الكلمة فرقاً بينها وبين غيرها ، ولذلك أجمعوا على اغفال ما لا نظير له من الحروف من النقط والرقم ، وذلك الألف واللام والواو والهاء والكاف لأن عدم نظائرها وتفردها بصورها قد أغنى عن ذلك .

وجعل ابن درستويه الزيادة التي تلحق الحرف للفرق بينه وبين المشبه له في الصورة نوعين - كما يتضح ذلك من قوله السابق - الأول النقط والثاني الرقم ، وقد وضح ذلك بقوله^(٥٦) : « والنقط على ضربين : نقط محض ، كنقط الباء والتاء والتاء والياء والنون ، وضرب قد يجري مجرى النقط كرقم الحاء والراء والسين والصاد والعين ، وفي كل واحد من النقط والرقم ما يقع فوق الحرف وما يقع تحته . » وإذا كان النوع الثاني من أنواع الزيادة وهو الرقم قد اختفى من الكتابة العربية تقريباً - إلا ما نجد في الكاف المتطرفة فان القدماء قد أكثروا من الحديث عنه بدرجة لا تقل عن حديثهم عن نقط الاعجام المحض ، واستخدموه في مدوناتهم مبالغة في الاحتراز من الخطأ أو التصحيف .

أولاً : نقط الإعجام المحض :

أما النوع الأول وهو الذي سماه ابن درستويه النقط المحض واشتهر باسم نقط الاعجام فيبدو أنه استعمل قبل استخدام الرقم ، فحين رأى الكتاب تشابه الحرفين والثلاثة في الكتابة أرادوا تمييز الحروف بعضها من البعض الآخر فنقطوا بعضاً وأهملوا بعضاً ، فكان ما نقط يتميز بالنقط ، وما أهمل يميزه أهمله ونقط مشابهة ، ولم يفكروا في أول الأمر بتقييد كل مشتبهين لكن لما خيف التباس المهمل بالمعجم قيدوا المهمل أيضاً وهو ما سماه ابن درستويه بالرقم .

وقد ذكر الداني أن الخليل بن أحمد إمام أهل العربية قد بين ما ينقط من الحروف وما يهمل وكيفية ذلك فقال^(٥٧) : « وروي عن الخليل بن أحمد أنه قال :

الألف ليس عليها شيء من النقط ، لأنها لا تلبسها صورة أخرى .

(٥٦) كتاب الكتاب ص ٥٢ .

(٥٧) المحكم ص (٣٥-٣٦) .

والباء تحتها واحدة .
والتاء فوقها اثنتان .
والتاء ثلاث .
والجيم تحتها واحدة .
والحاء فوقها واحدة .
والذال فوقها واحدة .
والشين فوقها ثلاث .
والضاد فوقها واحدة .

والفاء اذا وصلت فوقها واحدة ، وإذا انفصلت لم تنقط ، لأنها لا يلبسها شيء من الصور .

والقاف إذا وصلت فتحتها واحدة وقد نقطها ناس من فوقها اثنتين ، فإذا فصلت لم تنقط ، لأن صورتها أعظم من صورة الواو ، فاستغنوا بعظم صورتها عن النقط .

والكاف لا تنقط ، لأنها أعظم من الدال والذال .
واللام لا تنقط ، لأنه لا يشبهها شيء من الحروف .
والميم لا تنقط أيضاً لأنها لا تشبه شيئاً من الحروف وقصتها قصة اللام .
والنون إذا وصلت فوقها واحدة ، لأنها تلتبس بالباء والتاء فإذا فصلت لم تنقط ، استغنوا بعظم صورتها لأن صورتها أعظم من الراء والزاي .
والواو لا تنقط لأنها أصغر من القاف ، فلم تشبه بشيء من الحروف .
والهاء لا تنقط لأنها لا تشبه شيئاً من الحروف وقصتها قصة الواو .
ولام ألف حرفان قرنا فليس واحد منها ينقط .
والياء إذا وصلت نقطت تحتها اثنتين لئلا تلتبس بما مضى فإذا فصلت لم تنقط .»

ومن الملاحظ على هذه الرواية أن فيها ما يدل على أنها قديمة ، وربما تكون شيئاً من كتاب الخليل في النقط - مع أنها أهملت الحديث عن نقط الزاي رغم

ذكره مع الراء حين ذكر النون، كذلك أهملت الحديث عن نقط الظاء والغين^(٥٨) - وذلك أن الرواية تتحدث عن أشكال الحروف بما يشير الى صورتها القديمة في الخط الكوفي، فقوله «الكاف لا تنقط لأنها أعظم من الدال والذال» إنما يتحقق صدق هذا القول في الخط الذي كان يغلب على الكتابة العربية في القرون الأولى قبل تحسين الخطوط في زمن ابن مقلة (ت ٣٢٨هـ) حين كانت الكتابة العربية أكثر ميلا الى ما يعرف بالكتابة الكوفية، كذلك الحال في قوله عن إهال نقط النون اذا تطرفت «لأن صورتها اعظم من صورة الراء والزاي» ووصفه القاف المتطرفة ومقارنتها بالواو إنما يتحقق ذلك في صورة الكتابة العربية القديمة.

وذكر الداني رواية أخرى في اعجام الحروف العربية فقال^(٥٩): «وقال غير الخليل حروف المعجم ثمانية وعشرون حرفاً مختلفة، منفردة في التهجي، وهي سواكن، وقد دخل فيها لام ألف موصولين، لانفرادهما في الصورة، وهي أربعة أصناف:

صنف منها ستة أحرف متباينة، لا تحتاج الى الفصل بينها وبين غيرها بشيء من النقط.

(أ ك ل م و هـ).

وصنف منها سبعة أحرف متلاسة مخلاة (ح د ر س ص ط ع).

وصنف منها أحد عشر حرفاً متلاسة يفصل بينها وبين ما قبلها من المتلاسين بالنقط (ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ).

(٥٨) في نسخة كتاب (الحكم) المخطوطة المحفوظة في مكتبة المدينة المنورة برقم (٢٠ نحو) جاءت رواية الخليل كاملة، وتحدثت عن نقط كل من الزاي والطاء والغين بواحدة من فوق (انظر: غانم قدوري حمد: أوراق غير منشورة من كتاب الحكم. بحث منشور في مجلة كلية الإمام الأعظم - العدد الرابع ص ٤٠٣).

(٥٩) الحكم ص (٣٦-٣٧).

وصنف منها أربعة أحرف تحلى إذا لم يوصل بها شيء، وتنقط إذا وصل بها غيرها (ف ق ن ي).

فجميع ما ينقط منها لالتباسها بغيرها خمسة عشر حرفاً، منها ثمانية أحرف كل حرف منها بنقطة واحدة (خ ذ ز ض ظ غ ف ن)، واثنان بنقطتين من فوقهما (ت ق)، واثنان بثلاث نقط من فوقهما (ث ش)، واثنان بواحدة من تحتها (ب ج)، وحرف واحد بنقطتين من تحته (ي) .»

وتحدث ابن درستويه عما ينقط من الحروف وما يهمل وجعل ذلك أقساماً فقال^(٦٠): «وإنما يفرق بالنقط بين المشبهين من الحروف على ثلاثة أضرب: إما أن ينقط أحدهما ويغفل الآخر: كالحاء والحاء، والراء والزاي، وكالدال والذال والسين والشين، وكالصاد والضاد، وكالطاء، والظاء، وكالعين والغين.

وإما أن ينقط أحدهما نقطة والآخر نقطتين أو أحدهما نقطتين والآخر ثلاثاً: كالباء والياء والتاء والثاء، وكالفاء والقاف.

وإما أن ينقط أحدهما من عل والآخر من تحت كالجيم والحاء، وكالتاء والياء وكالباء والنون، وكالفاء والقاف في بعض المذاهب.

فما نقط نقطتين فلأن له نظيراً قد نقط نقطة واحدة كالنون والتاء والفاء والقاف والباء والياء.

وما نقط ثلاثاً فلأن له نظيرين ينقط أحدهما واحدة والآخر اثنتين، كالتاء والثاء والنون، وأما الشين فانها تنقط ثلاثاً لأسنانها الثلاث وهي في بعض المذاهب تنقط واحدة، وكذلك تنقط نظيرتها من تحت، ينقط ذلك من لا يغفل الحروف.

وما نقط من تحت فلأن له نظيراً ينقط من عل كالياء والتاء والجيم والحاء وكالباء والنون.»

(٦٠) كتاب الكتاب ص ٥٢.

وهذه الروايات الثلاث في غنى عن التعليق أو الشرح لأنها فصلت كيفية اعجام الحروف العربية بأجلى صورة وأوضح بيان، لكن لا ينبغي المرور عليها دون أن تستوقف قارئها بعض ملاحظات فيها، أهمها كيفية نطق الفاء والقاف، وإيهال نطق الكاف وإشارة ابن درستويه في حديثه عن نطق الشين الى نطق السين من تحت في مذهب من لا يغفل الحروف.

أما نطق القاف فقد جاء في رواية الداني عن الخليل «والفاء إذا وصلت فوقها واحدة... والقاف إذا وصلت فتحتها واحدة، وقد نطقها ناس من فوقها اثنتين» ويبدو هذا القول لأول وهلة غريباً لأن المشهور هو أن نطق القاف والفاء يجري على نحو ما يصور الداني: «أهل المشرق ينطقون الفاء بواحدة من فوقها والقاف باثنتين من فوقها، وأهل المغرب ينطقون الفاء بواحدة من تحتها والقاف بواحدة من فوقها^(٦١)». وهذا عكس ما ذكره الخليل، ويبدو أن قول الخليل يمثل الأصل في كيفية نطق القاف والفاء حتى عصره، فالتائع حينذاك نطق الفاء بواحدة من فوق الحرف والقاف بواحدة من تحت الحرف، وما ذكره الخليل من أن ناساً ينطقونها اثنتين فوقها يدل على عدم شهرته، لكن هذا الذي ذكره قد تنوسي وحل محله نظام آخر كما صوره الداني (ت ٤٤٤ هـ) ثم نصل إلى عصر القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) فيقطع أن القاف لا تنطق إلا من فوقها فيقول^(٦٢): «وأما القاف فلا خلاف بين أهل الخط أنها تنطق من أعلاها إلا أن من نطق الفاء بواحدة من أعلاها نطق القاف باثنتين من أعلاها ليحصل الفرق بينهما، ومن نطق الفاء من أسفلها نطق القاف من أعلاها».

وأمام قولي الداني والقلقشندي قد يتطرق الشك الى صحة رواية الداني عن الخليل لولا أنني وجدت في بضعة ورقات نشرت صورها من بعض المصاحف القديمة المخطوطة قد نطقت القاف فيها بواحدة من تحتها، ومن ثم يمكن الاطمئنان الى صحة الرواية وأصالة هذه الطريقة في اعجام القاف ومن هذه

(٦١) المحكم ص ٣٧ وانظر أبو الحجاج البلوي ج ١ ص ١٧٤.

(٦٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٥٨.

الأمثلة كلمة (فاحذرهم، والقوم، ويقولون) فقد نقطت الفاء بواحدة من فوقها ونقطت القاف في الكلمتين بنقطة من تحتها^(٦٣) ومن ذلك (قل أ بالله، ويخلقهم، وطائفة، وبالمعروف) حيث نقطت القاف في هذه الكلمات بخط تحت الحرف - سنتحدث عن هذه الطريقة من النقط بعد قليل - والفاء بخط فوقه^(٦٤)، وكذلك نجد في صفحتين من مصحف منسوب لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - الكلمات (قال الحواريون، والقدوس، وفضل الله، ويقولون، والحق، وقوما، ونفس) ففي هذه الكلمات نقطت القاف بخط تحتها والفاء بخط فوقها^(٦٥).

إن ما قاله الخليل عن نقط القاف وما ظهر في هذه النماذج كل ذلك يشير إلى أن الأصل في نقط الفاء والقاف هو أنها كانا ينقطان مثل النون والباء، الفاء بنقطة من أعلاها والقاف بنقطة من أسفلها، ونجد في نقش الطائف كلمة (اغفر) في السطر الرابع قد نقطت الفاء فيها بواحدة من فوقها، ولو وردت القاف في هذا النقش ونقطت لتوقعنا أن تنقط - وفقاً لقول الخليل - بواحدة من تحتها، ويبدو أن هذه الطريقة في اعجام الفاء والقاف لم تستقر، فقد نقل الداني - في قول الخليل السابق - أن ناساً جعلوا القاف بنقطتين من أعلاها وصار اعجامها مثل اعجام النون والتاء، ولعل الطريقة الأخرى لاعجام الفاء والقاف قد ظهرت بعد عصر الخليل، وهي عكس الطريقة القديمة تماماً فصارت الفاء بنقطة من أسفل والقاف بنقطة من فوق، كما نجد ذلك إلى اليوم في الخط المغربي في المصاحف وغيرها. أما في المشرق فقد اندثرت الطريقة القديمة - منذ وقت

(٦٣) انظر د. المنجد شكل ٤٨ ص ٩٣ وهو ورقة من مصحف في متحف الآثار الإسلامية باستانبول رقم ٨٧ (من مجموعة الوثائق الأموية).

(٦٤) نفس المصدر شكل ٤٥ ص ٨٨ وهو ورقة من مصحف على الرق في المتحف العراقي رقم ٦٧٨ وذكر الدكتور المنجد أنه من أواخر القرن الأول وأوائل الثاني.

(٦٥) انظر نفس المصدر شكل ٢٨ و٢٩ ص ٥٨ و٦٠ من مصحف في طوب قبو رقم

مبكر على ما يبدو - وحلت محلها طريقة نقطها من فوق، للفاء نقطة وللقاف نقطتان^(٦٦)، وهو ما نستعمله الى اليوم.

أما نقط السين من تحت وإهمال نقط الكاف فإن ذلك يتعلق بالنوع الثاني من الزيادة التي تفرق بين الحروف المشتبهة في الصورة وهو ما سماه ابن درستويه بالرقم الذي سوف نتناوله بعد أن نشير الى ظاهرة تتعلق باعجام الحروف في المصاحف القديمة خاصة، تلك هي استعمال الخطوط الصغيرة بدل النقط المدورة الصغيرة في إعجام الحروف فالعلامات التي توضع على الحروف لتخصصها بصوت معين هي إما نقط مدورة صغيرة تتناسب وخط الكتابة وهي أصغر حجماً من نقط الاعراب التي تكتب بمداد ذي لون يخالف لون نقط الاعجام التي تكتب بنفس مداد الكتابة، وإما ان تكون خطوطاً قصيرة توضع مكان النقط المدورة^(٦٧).

وقد تبدو ظاهرة الاعجام بالخطوط غريبة اليوم، إلا أنها تظهر في معظم نماذج المصاحف القديمة المكتوبة بالخط الكوفي القديم^(٦٨)، وقد جعل جروهمان تلك الظاهرة صفة لاعجام خط المصاحف القديمة جداً^(٦٩)، وذلك حين تحدث عن طريقة الاعجام في نقش منارة طريق (باب الواد) في كلمة (ثمنية)، ففي هذا النقش الذي يرجع تاريخه الى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ) نجد هذه الكلمة من بين كلماته قد أعجمت حروفها بواسطة الخطوط القصيرة، لكن الملاحظ في الصورة المنشورة لهذا النقش أنها لا تظهر فوق الثاء إلا خطين اثنين فقط، فهل يدل ذلك على أن كاتبها نقط الثاء تاء أم أن الخط الثالث لم تظهره

(٦٦) انظر حفي ناصف ص ٧٢ وهوداس ص ١٩٤.

(٦٧) ذكر القلقشندي (ج ٣ ص ١٥٥) أن ابن مقلة قال «وللنقط صورتان إحداهما شكل مربع والأخرى شكل مستدير». وغير واضح إن كان ابن مقلة يقصد بالمربع طريقة الإعجام بالخطوط.

(٦٨) انظر ناصر النقشبدي: المصاحف الكريمة في صدر الإسلام ص ٣٣.

(٦٩) - Grohmann: Arabic Inscriptions P.58.

الصورة ٢؟ ونجد في هذه الكلمة حرف النون قد أعجم بخط من فوقه والياء بائين من تحته.

إن ظاهرة الإعجام بالخطوط الصغيرة ظهرت في أكثر النماذج الخطية للمصاحف التي اطلعت عليها، وهي تشمل كل الحروف التي تحتاج الى إعجام رغم أنه ينذر العثور على كلمة كاملة الإعجام بهذه الطريقة. فتبدو هذه الظاهرة في مصحف طشقند في نسخته المصورة التي تحتفظ دار الكتب المصرية بواحدة منها، لكنها تكاد تكون نادرة، وقد ظهرت في (الباء والياء والنون والتاء والتاء والشين والفاء والحاء والغين). وهي في مصحف جامع عمرو بن العاص - الذي يرجعه موريتز الى القرن الأول أو الثاني الهجري^(٧٠) - تبدو أكثر وضوحاً حتى لنكاد نجد كلمات كاملة الإعجام مثل (آل عمران ٣/١٩٥) (حَبَاتٍ نَجْرِي) و(٣/١٩٦) (نَقَلِ) و(٣/١٩٧) (فَلَيْلٌ نَمَّ) و(النساء ٤/١٢) (تَوَرَّتْ... أَحَ أَوْ أَحًا). وتظهر هذه الخطوط مكتوبة بنفس مداد الكتابة بخط رفيع، وكأنما استعملت هذه الطريقة لتجنب اللبس الذي قد يحدث في حالة إعجام الحروف بالنقط السوداء واستعمال نقط الإعراب المدوّرة - رغم اختلاف اللون - ولذلك هي لا تظهر إلا في المصاحف القديمة، فتظهر في المصحف المنسوب لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - والمحفوظ في مسجد الحسين بالقاهرة^(٧١)، وكذلك في مصحف قديم محفوظ في متحف برلين^(٧٢). وفي مصحف قديم محفوظ في متحف طوب قبو بأستانبول^(٧٣)، وفي المصحف المنسوب لجعفر الصادق في دار الكتب المصرية نجد هذه الظاهرة تشمل كافة الحروف التي تحتاج الى إعجام، وفي كل

Moritz, PL. 1 - 12.

(٧٠) انظر

(٧١) انظر لوحة من هذا المصحف في كتاب مَخَلَّفَاتِ الرَسُولِ فِي الْمَسْجِدِ الْحُسَيْنِيِّ لِلدُّكْتُورَةِ

سعاد ماهر لوحة ١٦ .

(٧٢) نفس المصدر لوحة ١٧ .

(٧٣) انظر نماذج منه في كتاب د. المنجد شكل ٢٨ و٢٩ ص ٥٨ و٦٠ .

الكلمات بنفس مداد الكتابة^(٧٤)، وفي غير ذلك من المصاحف القديمة^(٧٥)، وربما كان استخدام هذه الخطوط في الإعجام مع الاحتراز من اللبس الذي قد يحدث لو كانت نقطا لتتناسب مع الخط العريض الذي كتبت به المصاحف القديمة.

أما كيفية وضع نقط الإعجام أو خطوطه القصيرة ومكانها من الحرف، فإن النقطة الواحدة (أو الخط) توضع غالباً تحت الجزء القائم من الحرف سواء كان أولاً أو وسطاً أو أخيراً وفوق الجزء القائم بالنسبة للحروف التي تنقط من فوق وهذا بالنسبة لما كان مثل الباء والنون، أما بقية الحروف التي تنقط بواحدة فإنها توضع تحت الحرف أو فوقه من أوله أو وسطه أو آخره، كذلك توضع النقطتان (أو الخطان) تحت الجزء القائم من الحرف أو فوقه، لكن قد تكونان في شكل عمودي (:): أو أفقي (..) أو على شكل خط مائل، أما الخطان فغالباً ما يأتي أحدهما فوق الآخر (=)، لكن الذي استقر عليه نساخ المصاحف في الغالب بعد القرون الأولى هو جعل النقطتين متتابعتين في وضع أفقي سواء فوق الحرف أم تحته^(٧٦).

أما النقطة الثالثة في الثاء والشين فإنها جاءت بصور مختلفة فنجدها في حرف الثاء قد كوّنت ما يشبه (الأثافي) أو مثلثاً رأسه إلى الأسفل مائلاً إلى اليسار قليلاً (٠٠٠) في نقش الطائف ونقش حفنة الأبيّض، ونجد هذا الشكل في أوراق من مصاحف قديمة محفوظة في متحف الآثار الإسلامية بأستانبول ضمن مجموعة

- Moritz, PL. 31 - 36.

(٧٤) انظر

(٧٥) انظر ناصر النقشبدي: المصاحف الكريمة في صدر الإسلام ص ٣٥ والمنجد شكل ١٤ و ٢٧ و ٣٢ وموريتز لوحة ١٧ و ١٩-٣٠ و ٣٩ و ٤٤. وانظر ناجي زين الدين: مصوّر الخط العربي شكل ٧٤ و ٧٩ و ٨٣.

(٧٦) قال أبو علي بن مقلة (انظر القلقشندي ج ٣ ص ١٥٥): «إذا كانت نقطتان على حرف فإن شئت جعلت واحدة فوق أخرى وإن شئت جعلتها في سطر معا، وإن كان بجوار ذلك الحرف حرف ينقط لم يجز أن يكون النقط إذا اتسعت إلا واحدة فوق الأخرى، والعملة في ذلك أن النقط إذ كن في سطر خرجن عن حروفهن فوق اللبس في الاشكال».

(الوثائق الأموية)^(٧٧). أما إعجام الثاء بالخطوط فإنها جاءت بعضها فوق بعض على الجزء القائم من الحرف في الغالب هكذا (تّ) وقد تحرف قليلاً نحو اليمين أو اليسار، ويكاد يندر شكل (الأثافي) في هذه الطريقة، وقد ظهر في صفحة من مصحف قديم نسبة موريتز الى القرن الثالث (لوحة ٣٩) هكذا (تّ) كذلك نجد الخطوط الثلاثة تشكل شكلاً أقرب الى الأثافي حين جعل الكاتب اثنتين منها فوق بعضها وجعل الثالثة أمامها هكذا (= -) في مصحف قديم محفوظ في طوب قبو^(٧٨). لكن الذي استقر عليه نساخ المصاحف هو جعل نقط الثاء على شكل مثلث رأسه الى الأعلى (ث ش ث).

أما مكان النقط الثلاثة في حرف الشين فإنها تتوزع على الرؤوس الثلاثة للحرف في حالة الإعجام بالخطوط القصيرة (شّ) ولم أعر على نموذج واحد أخذت فيه الخطوط القصيرة شكل الأثافي في هذه الطريقة، أما في حالة الإعجام بالنقط فإنها ظهرت موزعة على الرؤوس الثلاثة للحرف أيضاً مكونة خطأً مستقيماً في ورقة من مصحف ضمن (مجموعة الوثائق الأموية)^(٧٩). كذلك تظهر في كلمة (تسناة) في بردية أهنس بنفس الطريقة، ولعل مجيء نقط الشين على شكل صف مستقيم فوق الحرف هو الشكل الأصلي القديم لإعجام هذا الحرف ثم جاء الشكل المثلث في فترات لاحقة، كما نجد في مخطوطة غريب الحديث لأبي عبيد (كتبت سنة ٥٣١١ هـ) ومصحف ابن البواب (كتبه سنة ٥٣٩١ هـ) ولعل الشكل المثلث كان أكثر مناسبة للخط المتطور الذي هو أميل الى الليونة، كما يظهر في مخطوطة الكتاب والمصحف، وقد صارت هذه الطريقة هي النموذج الشائع لنقط الشين.

ثانياً: الإعجام الذي ليس محضاً:

أما النوع الثاني من أنواع الزيادة التي تلحق الحروف لتمييزها عن التي

(٧٧) انظر المنجد شكل ٤٨ و ٤٩.

(٧٨) نفس المصدر شكل ٢٨ ص ٥٨ سطر ٩.

(٧٩) نفس المصدر شكل ٤٧ ص ٩٢.

تشبهها في الشكل، وهو الرقم^(٨٠)، فقد كان نتيجة للمبالغة في حرص علماء العربية وساخ المصاحف والكتب على تجنب وقوع الخطأ في القراءة، فما أهمل من الحروف التي أعجم مشابهها مثل (الحاء والراء والسين والصاد والطاء والعين) كانت توضع عليها علامة زيادة في البيان، لكن علامات الرقم كان في استخدامها في الكتابة خلاف كبير، فكتب الرسائل لا يستعملون شيئاً من ذلك ويكتفون بإعجام واحد من المشتهين^(٨١) أما في المجالات التي تحتاج الى الدقة في ضبط الألفاظ فقد حرص الساخ على استعمالها، وقد صور ابن درستويه هذين الاتجاهين أحسن تصوير فقال^(٨٢): «اعلم أن من الكتاب من ينقط على كل مشتهين من الحروف، لا يغل واحداً منها، كنقطهم الراء والسين والصاد والطاء والعين من تحت لأن نظائرها ينقطن من عل، والجمهور على غير ذلك»، وتحدث في مكان آخر عن هذا الاتجاه فقال^(٨٣): «ومنها ما استغنى عن نقطه مؤلفاً وغير مؤلف بلزوم النقط ما شاركه في الصورة وذلك سبعة أحرف: الحاء والذال والراء والسين والصاد والطاء والعين، وفي هذه الأحرف اختلاف فمن الكتاب من يحدث نقطاً مخالفاً ما شابهها من الحروف أو علامات غير النقط، وهم أهل النحو والشعر والغريب يريدون بذلك الاحتياط، ولا معنى له، إذ كانت نظائرها بائنة منها بنقطها، وأما على مذهب كتاب الرسائل فلا يجوز نقطها ولا

(٨٠) في لسان العرب لابن منظور (ج ١٥ ص ١٣٩ مادة رقم): «الرقم والترقيم تعجيم الكتاب ورقم الكتاب يرقمه رقماً أعجمه ويينه، وكتاب مرقوم أي قد بينت حروفه بعلامتها من التنقيط.»

(٨١) ولم يقف بهم تساهلهم عند هذا الحد بل هم لا يرون بأساً بترك إعجام الحروف المتفق على إعجامها إذا لم يحدث ذلك لبساً، يقول ابن درستويه ص ٥٣: «فإن كان شيء من ذلك قد استعمل حتى علم فلم يلتبس ودل عليه ما قبله أو ما بعده أو غير ذلك من الحال فأغفاله من النقط في مذهب كتاب الرسائل أحسن، وإثبات النقط عند أصحاب النحو والغريب والشعر أوثق وأجود.»

(٨٢) كتاب الكتاب ص ٥٢.

(٨٣) نفس المصدر ص ٥٣.

التعليم على شيء منها غير السين وحدها ، وذلك أنهم يكتفون منها بخط من السين فيجملون العلامة الفارقة بينها خطأ فوق السين . وقد كره هذه العلامة قوم إذ كان الخط النائب على السين ينقط نقط الشين .»

وابن درستويه ذكر هنا أن هذه الحروف السبعة إما أن تنقط نقطاً مخالفاً لنقط مشبهاتها أو أن توضع عليها علامات لم يذكر منها إلا الخط الذي يوضع فوق السين ، ولكن يبدو أن هذه العلامات قد تفنن النساخ في تنويعها حتى ان الإمام النووي (ت ٦٧٦ هـ) ذكر منها خمساً حين قال^(٨٤): «وينبغي ضبط الحروف المهملة ، قيل:

تجعل تحت الدال والراء والسين والصاد والطاء والعين النقط التي فوق نظائرها .

وقيل كقلامة الظفر مضطجعة على قفاها .

وقيل تحتها حرف صغير مثلها .

وفي بعض الكتب القديمة فوقها خط صغير .

وفي بعضها تحتها همزة .

ونجد بعض تلك العلامات في مصحف ابن البواب (كتبه ٥٣٩١ هـ) فيبدو تحت كل من الحاء والصاد والعين - في الغالب - حرف صغير مثلها ، وتظهر على السين والراء علامة صفري تشبه (قلامة الظفر) أو هلالاً صغيراً متجهاً برأسيه الى الأعلى^(٨٥) . وهناك المخطوطة النادرة من كتاب غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) في مكتبة الجامع الأزهر ، وقد كتبت سنة (٥٣١١ هـ) ، تظهر لنا بجلاء تلك العلامات التي تحدث عنها ابن درستويه وذكرها النووي^(٨٦) ، فقد وضع فوق الراء والسين علامة تشبه رقم (٧) وتحت الحاء والعين علامة تشبه

(٨٤) السيوطي: تدريب الراوي ج ٢ ص (٧١-٧٢).

(٨٥) انظر سهيلة الجبوري ص ٨٣ .

(٨٦) انظر نموذجاً من ذلك المخطوط في مجموعة موريتز لوحة (١١٩ و ١٢٠).

حرف الدال (د) وتحت الهاء - المتطرفة خاصة - والطاء والدال نقطة، وتحت الصاد دائرة صفري مفرغة الوسط.

ولعل البحث في المخطوطات القديمة يكشف عن الطرق الأخرى التي ذكرها النووي وربما عن طرق أخرى لرقم تلك الحروف^(٨٧)، ولكن يبدو أن استعمال تلك العلامات قد قل بل انعدم في القرون المتأخرة حتى اننا لا نكاد نجد أثراً لذلك في نماذج المصاحف التي ذكر موريتز ما يرجع الى ما بعد القرن الخامس، ولعل الاحساس بأن التزام اعجام أحد المشتبهين وإهمال الآخر كفيل باجتناح الخطأ مع عدم اقبال الكتابة بكثرة العلامات التي تختص بتمييز الحروف وعلامات الحركات كما يظهر ذلك في مخطوط غريب الحديث هو الذي أدى بمرور الزمن إلى اختفاء ظاهرة الرقم في الكتابة العربية.

أما الكاف فإنها كانت في الخط العربي القديم ذات صورة مستقلة لا يشركها بها غيرها، وقد مر في قول الخليل عن إعجام الحروف أن الكاف اهملت لأنها أكبر حجماً من الدال والذال، حيث كانت صورتها أقرب الى صورتها في الخط الكوفي القديم، لكن تطور الحرف العربي قد أدى الى أن يقرب شكل حرف الكاف من حرف اللام، فاستدعى ذلك وضع علامة على الكاف فوضعت كاف صغيرة على الكاف المتطرفة. أما المتوسطة وتفرقتها عن اللام شكلة في أعلاها، يقول القلقشندي^(٨٨): «وأما الكاف فانها لا تنقط إلا أنها إذا كانت مشكولة علمت بشكلة، وإن كانت معرأة رسم عليها كاف صغيرة مبسطة لأنها ربما التبست باللام». وبمضي الزمن ظن البعض أن ما يوضع على الكاف إنما هو همزة^(٨٩)، وما هي في الواقع إلا صورة للكاف لكنها صغيرة أشبهت رأس العين التي هي علامة الهمزة. ولعل بالامكان أن نلاحظ تاريخ حدوث هذه النقلة في صورة الكاف والحاجة الى رقمها، فالكاف في مخطوطة غريب الحديث (كتبت

(٨٧) انظر السيوطي: تدريب الراوي ج ٢ ص ٧٢.

(٨٨) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٥٩.

(٨٩) انظر السيوطي: تدريب الراوي ج ٢ ص ٧٢.

٣١١هـ) تظهر بشكل متميز لا يشبه اللام وليس عليها أية علامة، بينما نجد لها في المصحف الذي كتبه ابن البواب سنة (٣٩١هـ) قد صارت الى شكل قريب جداً من شكل اللام وظهرت في داخلها الكاف الصغيرة التي تشبه رأس العين أو الهمزة، وهذا قد يمكن الاستنتاج منه ان ذلك التحول قد تم في القرن الرابع الهجري^(٩٠).

★ ★ ★ ★

وقد يتساءل المرء عن المعيار الذي كانت توضع بموجبه النقط فوق الحروف أو تحتها، والمعيار الذي يحدد عدد النقط المستعملة في كل حرف، وقد ذكر الداني أنه رأى بعض العلماء قد علل النقط، ونقل ذلك التعليل، ويبدو أن ما نقله الداني من أن عدد النقط في الحرف يتوقف على عدد الأصوات المشتركة بالرمز الواحد صحيحاً، فلأن الباء والنون والتاء والياء والتاء - مثلاً - تشارك برمز واحد فقد تعددت النقط واختلفت مواضعها، حتى يتميز كل منها عن الآخر، كذلك في الدال والذال اكنفى بنقطة واحدة حتى يتميز الذال عن الدال وهكذا^(٩١).

أما ما نقله الداني من تعليل موضع النقط من الحروف بطريقة نطق اسم ذلك الحرف فإن كان يتبع أول صوت من الاسم فتحة وضمت النقطة فوق الحرف مثل (ذال) وإن كانت كسرة وضمت النقطة تحته مثل (جيم)^(٩٢) - فيبدو متكلفاً، ولما كانت أصوات أسماء بعض الحروف تلفظ مفتوحة ووضمت النقط تحتها مثل (الباء والياء والفاء أو القاف في بعض المذاهب) وبعضها تلفظ مكسورة لكن النقط وضمت فوق الحرف مثل (السين) فقد تطلب ذلك تقديم تعليل لهذه الظاهرة حتى تطرد القاعدة، وقد جاءت تعليلات متكلفة في الغالب

(٩٠) حافظت الكاف في الخط المغربي على صورتها القديمة التي تستغني عن العلامة، كما يظهر ذلك في المصاحف المطبوعة بالخط المغربي.

(٩١) انظر المحكم ص ٣٧.

(٩٢) انظر نفس المصدر ص ٣٧ و ٣٨.

مثل القول في تعليل نقط الباء من أسفل: «إنما نقطت من تحتها للزوم الكسر لها، إذا كانت زائدة جارة كالتي في أول التسمية، وإنما لزمها الكسر اتباعاً لعملها إذ كانت لا تعمل إلا جراً، فجعل نقطها موافقاً لحركتها وألزمها مكاناً واحداً لذلك» (٩٣).

ويبدو أن عدد نقط الاعجام وموضعها من الحرف كان يتوقف - في الواقع - على طبيعة الرمز وعدد الأصوات التي يمثلها، فالقاعدة العامة هي أن ينقط الحرف بنقطة واحدة من فوق إذا اشترك فيه صوتان فحسب مثل (الدال والذال والراء والزاي والطاء والظاء والصاد والضاد والعين والغين) فيكون المهمل رمزاً لأحدهما والمعجم رمزاً للآخر، وقد يشترك في رمز واحد أكثر من صوتين كما في حالة الباء والنون والتاء والياء والثاء، خاصة في أول الكلمة ووسطها، فهذه خمسة أصوات اشتركت برمز واحد فكان لا بد من زيادة عدد النقاط والاستعانة بوضعها أسفل الحرف فكان نقطها على هذه الصورة المشهورة، ولو تصورنا أن صوتاً سادساً اشترك معها في أصل رمزها لتوقعنا أن يكون اعجامه بوضع ثلاث نقط أسفل الحرف عكس التاء، هذه هي القاعدة العامة التي يمكن استنتاجها من ملاحظة نقط حروف العربية، ولا نعلم كثيراً عن بدايات اعجام الحروف فالظاهر أنها بدأت في بعض الحروف ثم بمرور الزمن تكامل هذا النظام الذي نستعمله اليوم.

وقد أثار الداني تساؤلاً مقبولاً، ولكن الإجابة عليه لا تكاد تستقيم مع واقع الحال، قال (٩٤): «فان قال قائل: لم نقطت الباء بواحدة من تحتها؟ هلاً نقطت من فوقها ونقطت النون من تحتها مكان ذلك، فرقاً بينها؟ قيل له: إنما نقطت بواحدة، لما تقدم من قولنا انها أول الصور الثلاث، وان التاء ثانیتها والثاء ثالثتها، ولذلك نقطت التاء اثنتين والثاء ثلاثاً». والداني يرى - هنا - أن إعجام الحروف الخمسة قد تم بعد التحول من الترتيب الأبجدي القديم الى

(٩٣) المحكم ص (٤٠-٤١).

(٩٤) نفس المصدر ص ٤٠.

الترتيب الأبثني الحديث تتوالى فيه هذه الحروف الخمسة هكذا (ب ت ث .. ن .. ي) ومن المتوقع حسب ما رأينا من أن الأصل في الاعجام أن ينقط الحرف بواحدة من فوق ثم تزداد النقط ويخالف بينها في الموقع كلما ازداد عدد الأصوات المشتركة فيه أن نجد هذه الأحرف الخمسة حسب نظرة الداني قد أعجمت هكذا (ن ت ث .. ب .. ي) حسب الترتيب السابق، ولكن يبدو أن اعجام الحروف المشابهة قد تم دون تفكير بترتيب الحروف رغم ان الاعجام قد يكون هو السبب في ظهور الترتيب الجديد، ورواية حمزة الأصفهاني وأبي أحمد العسكري لا تشير الى أي معيار بنيت عليه هذه الخطوة التكميلية للكتابة العربية، فيصور نص العسكري عمل نصر على هذا النحو: «فوضع النقط أفراداً وأزواجاً، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف».

وما يلاحظ ان الحديث عن ظاهرة إعجام الحروف لم يشغل بال المؤلفين في موضوع النقط والشكل بنفس الدرجة التي تحدثوا فيها عن نقط الحركات، فقد تحدث الداني عن إعجام الحروف بالسواد في فصل لم يستغرق أكثر من سبع صفحات^(٩٥)، وإن كان قد تحدث في فصل آخر عن (حروف التهجي وترتيب رسمها في الكتابة)^(٩٦). أما بقية الكتاب فقد استأثر به موضوع نقط الحركات وشكلها ومذاهب النقاط في ذلك واختلافهم فيه وما يتعلق بهذا الموضوع^(٩٧)، ويبدو أن المؤلفين في موضوع النقط أهملوا معالجة اعجام الحروف بعد الداني، فلا يشير الخراز (ت ٧١٨ هـ) مثلاً الى هذا الموضوع في أرجوزته في ضبط المصحف، ولعل السبب في ذلك هو أن نظام إعجام الحروف في الكتابة العربية قد صار من الشيع والاسقرار بحيث لا يحتاج الى من يتكلم حوله، فالناس يتعلمونه حين يتعلمون حروف الهجاء.

(٩٥) المحكم ص (٣٥-٤١).

(٩٦) نفس المصدر ص (٢٥-٣٤).

(٩٧) جاء كتاب المحكم في ٢٦٠ صفحة ما عدا الفهارس.

إن التساؤل الذي أثاره الداني ونقلناه قبل قليل يدفعنا الى الإشارة الى أن الترتيب المعروف بيننا اليوم للحروف العربية قد استحدث بعد الإسلام في رأي أغلب الدارسين المحدثين^(٩٨)، وسبق أن أشرنا الى أن الترتيب القديم للحروف الذي يجري على نسق (أبجد هوز...) قد ورثته الكتابة العربية - في الراجح - عن الأمم السامية القديمة^(٩٩)، والمصادر العربية الأولى لا تحدثنا عن غير ترتيب (أبجد هوز...) الى الترتيب المعروف اليوم (أب ت ث...) إلا أن بالامكان استنتاج ان ذلك التحول قد تم في فترة متقدمة من تاريخ الاسلام ربما ترجع الى القرن الأول، فقد كان هذا الترتيب معروفاً زمن الخليل بن أحمد^(١٠٠)، ووصف ابن جني ذلك النظام في ترتيب الحروف العربية بالتأليف المشهور مرة^(١٠١)، وبالتأليف المألوف أخرى^(١٠٢)، ويعقب على ذلك بقوله «أعني على غير ترتيب الخارج^(١٠٣)» وكان ترتيب (أبجد...) قد تلاشى من الاستخدام إلا في بعض المجالات، ولم يتحدث ابن جني عن واضح هذا الترتيب الجديد. ونجد أبا الحجاج البلوي ينسب هذا الترتيب الى (أهل العلم) حين يقول^(١٠٤): «وقد رتب أهل العلم هذه الحروف أحسن ترتيب، ضموا الأشكال بعضها الى بعض مثل الباء والتاء والثاء والجيم والحاء والحاء الى غير ذلك مما هو معلوم^(١٠٥).

-
- (٩٨) انظر خليل مجيى نامي ص ١٠٧ ود. جواد علي ج ١ ص ٢٠٩ وج ٧ ص ٧.
- (٩٩) انظر ص ٤١ من الفصل التمهيدي.
- (١٠٠) انظر كتاب العين ج ١ ص ٥٢ و ٥٣. وانظر أيضاً ابن النديم ص ٤٣.
- (١٠١) ابن جني: سر صناعة الإعراب ج ١ ص ٥٠.
- (١٠٢) نفس المصدر (القسم المخطوط) ورقة ٣٠٧ ب.
- (١٠٣) نفس المصدر ج ١ ص ٥٠.
- (١٠٤) الف با ج ١ ص ١٧٤.
- (١٠٥) اختلف ترتيب أهل المغرب لحروف (أ ب ت ث...) عن ترتيب أهل المشرق (انظر القلقشندي ج ٣ ص ٢٢) تبعاً لاختلافهم في ترتيب أبجد هوز، لأنه أصل الترتيب الحديث، وانظر هامش رقم ٩٧ ص ٤٣ من الفصل التمهيدي.

ومن اللافت للنظر في موضوع ترتيب الحروف العربية على (أب ت ث ...) ان بعض الدارسين المحدثين ينسبون هذا الترتيب الى نصر بن عاصم وقد يشركون معه يحيى بن يعمر، ويحددون ذلك بخلافة عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي، وكأنهم قد جعلوا ترتيب الحروف جزءاً مكملًا لما ينسب اليهما من اعجام الحروف العربية، وأول من ذكر ذلك من المحدثين هو الأستاذ حفي ناصف^(١٠٦)، ولا نعرف المصدر الذي استقى منه الأستاذ ناصف ذلك، ولعل ما شاع عن دور نصر في إعجام الحروف وتلقيبه (بنصر الحروف) هو الذي أوحى اليه بذلك، وقد ردد المحدثون من بعده هذا المعنى دون أن ينسبه أحد منهم الى مصدر معين^(١٠٧)، وربما نقلوه من الأستاذ حفي ناصف^(١٠٨).

(١٠٦) انظر تاريخ الأدب ص ٢٧ و ٧٣.

(١٠٧) انظر د. عدنان الخطيب ص ٢٢ ود. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ٢ ص ٧٣ ود. محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية ص ١٠٣.

(١٠٨) جعل صاحب مفتاح السعادة (ج ١ ص ٨٠) (علم ترتيب حروف التهجي) من العلوم المتعلقة بكيفية الصناعة الخطية.

المبحث الثالث

العلاماتُ المخصَّصة لبعضِ الحالاتِ النُّطقيةِ

عرضنا في المبحث الأول من هذا الفصل لعلامات الحركات وهي علامات أخذت حكم رموز الأصوات الصامتة والحركات الطويلة - رغم أنها كانت توضع خارج السطر - من حيث دلالتها على صوت لغوي معين، وهي لذلك تتصف بقابلية تبادل المواقع في الكلمات كلما تغيرت صيغ تلك الكلمات أو مواقعها، وعرضنا في المبحث الثاني لعلامات أضيفت الى بعض الحروف على صفة الثبوت، وهي لا تدل على صوت لغوي معين، لكنها ساهمت في تخصيص صوت معين برمز معين وهذه العلامات التي هي نقط الاعجام ليست ذات قابلية لتبادل المواقع في الحروف، فقد أصبحت جزءاً أساسياً في شكل الحرف كأنها ذنب له أو عراقة منه تميزه عن غيره من الحروف، فكما أن عراقة القاف المتطرفة تختلف عن عراقة الفاء المتطرفة فيتميز الحرفان كذلك فإن اعجام الباء يختلف عن اعجام الياء - مثلاً - فيتميز الحرفان بذلك بعد أن كانا يشتركان بصورة خطية واحدة في غير حالة التطرف.

والى جانب هذين النوعين هناك نوع ثالث من العلامات يختلف عن كلا النوعين السابقين لكنه مع ذلك يأخذ من خصائص كل منهما، فهو كالحركات يتبادل في الموقع - غالباً - لكنه يكاد يكون كالأعجام في عدم تمثيل صوت لغوي معين، فعلامات هذا النوع تقوم بتخصيص حالات نطقية معينة لا تمثيل أصوات

لغوية بأعيانها، لأن الأصوات العربية استوفت حقها من الرموز والعلامات بعد وضع علامات الحركات القصيرة الثلاث، ولذلك فإن ما عداها من علامات لم يعد يمثل أصواتاً لغوية بالمعنى الدقيق لذلك بل هي علامات تعين القارىء على تحقيق كيفية نطقية معينة.

وسبق أن أوردنا قول ابن درستويه الذي ميز فيه بين ضربين من الشكل ضرب هو صور الحركات والسكون، وضرب هو زيادة يوتى بها مع الحرف للفرق، وتقوم مقام الاعجام في الحروف، ويمكن أن نسمي الضرب الأول شكلاً محضاً والثاني شكلاً ليس محضاً. أما الضرب الثاني من الشكل فقد تحدث عنه ابن درستويه بقوله^(١): «أما الشكل الذي هو زيادة للفرق فهو خمس علامات: التشديد والتنوين والهمزة والمدة وعلم الف الوصل». وقد جعل ابن درستويه السكون مع علامات الشكل المحض، والواقع اللغوي يأبى ذلك، لأن السكون من الوجهة الصوتية المحضة ليس صوتاً مثل الحركات أو غيرها، وليس هو الا علامة على انعدام الحركة^(٢). فهو اذن سادس هذه العلامات.

وقد مر في المبحث السابق أن الخليل بن أحمد وضع الى جانب علامات الحركات الثلاث علامة الهمزة والتشديد والروم والاشمام^(٣). ويجعل أبو الحجاج البلوي مكان الهمزة كلمة (التمدد) - كما سبق - ولعله يقصد علامة المد أو أنه تحريف لكلمة الهمزة، إذ يبدو أنه نقل كلام الداني السابق، ونحاول في هذه الصفحات أن نتبع هذه العلامات وتطورها في المصاحف والكتابة العربية.

أولاً: علامة الهمزة

لم تعان الكتابة العربية - على ما يبدو - من مشكلة تتعلق بالهمزة في السنين الأولى من تاريخ الإسلام وفي ما سبق ذلك، بل الظاهر أن المصاحف العثمانية

(١) كتاب الكتاب ص ٥٦.

(٢) انظر د. كمال محمد بشر: دراسات في علم اللغة ق ١ ص ١٨٤.

(٣) المحكم ص ٦.

كُتبت والناس في الحجاز لا يعرفون للهمزة رمزاً سوى (الألف) وربما لم يكونوا يستعملون مصطلح الهمزة حينذاك، ويكتفون باستعمال الاسم القديم، كما بيَّنا ذلك في فصل سابق.

وبعد أن أرسلت المصاحف العثمانية إلى الأمصار الإسلامية كانت معتمد الأمة في كل الأقطار والأمصار، ليس في تحقيق الفاظ التلاوة وحسب بل في رسم الكلمات أيضاً وقد مرت الأيام بسرعة وحدث ما أشرنا إلى بعضه من تعرض اللغة العربية في المجتمعات الجديدة إلى امتزاج لغوي بين لهجات العربية التي كانت تتقاسم سكان الجزيرة. وكانت ظاهرة الهمز إحدى جوانب ذلك الامتزاج اللغوي، وقد بيَّنا في الفصل السابق أن العربية أخذت تتبنى ظاهرة الهمز وأن ذلك الاتجاه لقي دعماً في تبني الحركة العلمية اللغوية في العراق له، بسبب اتجاه العلماء إلى أخذ اللغة عن قبائل شرق الجزيرة ووسطها، وبسبب أن بلاد العراق كانت على اتصال دائم ومفتوحة على وسط الجزيرة ونزلت أقوام كثيرة من عربها فيه، وذكرنا هناك بعض الملاحظات في هذا الموضوع وإنما نكتفي منها - ههنا - بالنتيجة التي أدت إليها تلك الملاحظات وهي أن الرسم العثماني جرى على قراءة ولغة أهل الحجاز في إسقاط الهمزة في غير أول الكلمة وأن رسم الهمزة لم يتحقق في الرسم العثماني إلا في أوائل الكلمات حيث تمثل برمز الألف، أما في وسط الكلمة وطرفها فإن الواو أو الياء أو إحدى الحركات الطويلة هي التي تحمل محل الهمزة صوتاً وكتابة.

ولم تكن هناك مصاحف رسمت على لغة من يحققون الهمزة - إلا ما ذكر أن في بعض مصاحف عبد الله كانت الهمزة ترسم الفاء دائماً - ولذلك فإن المسلمين في الأمصار حين قرأوا القرآن في المصاحف العثمانية كانوا يجرون على ما رووه عن شيوخهم من تحقيق الهمزة أو تركها، دون الالتفات إلى أن الهمزة لم ترسم الفاء إلا في أوائل الكلمات، فكان أهل التحقيق يهمزون على حسب روايتهم في القراءة رغم أن الهمزة كانت مرسومة في المصحف - على لغة أهل التسهيل - واوا أو ياء أو الفاء، ومن هنا كان لا بد من تعيين الألفات والواوات والياءات

التي تهمز في المصحف مما ليس هو من باب الهمز لكي لا يلتبس الأمر على الناس في ذلك.

ان النقاط المدورة التي وضعها أبو الأسود علامات للحركات لم يكن من بينها ما يشير الى الهمزة، ولعل هذا يدل على أن مشكلة الهمزة لم تكن قد برزت بشكل يلفت النظر ويستدعي المعالجة في تلك الفترة، لكن هناك ما يشير الى أن القرن الأول لم ينقض قبل أن يستخدم نقاط المصاحف علامة للإشارة الى موضع الهمزة من الحروف الثلاثة (الألف والواو والياء) فقد استخدموا لذلك نقطة مدورة مثل نقط الحركات بالحمرة أو بالصفرة على اختلاف في مذاهب الناطقين بين أهل العراق وغيرهم، فقد ذكر الداني أنه رأى في المصحف الذي كتب سنة (١١٠ هـ) الهمزات نقطاً بالحمرة^(٤)، وأشار الى أن مذهب أهل المدينة في الهمزات أن ينقطوها بالصفرة وذكر أن قالون (عيسى بن مينا راوية نافع ت ٢٢٠ هـ) قال^(٥): « في مصاحف أهل المدينة ما كان من الحروف التي بنقط الصفرة فمهموزة ». لكن سلف أهل العراق خالفوا سلف أهل المدينة في ذلك، فجعلوها بالحمراء كالحركات، ويرى الداني أن ما جرى عليه استعمال أهل المدينة من جعلها بالصفراء فرقاً بينها وبين الحركات هو الوجه وعليه العمل^(٦). وذكر أن الهمزة إذا سهلت نقطت بالحمرة بدل الصفرة^(٧). وبذلك أصبحت النقطة الحمراء أو الصفراء تشير الى مواضع الهمزة في الكلمات التي رسمت على لغة أهل الحجاز في التخفيف، وكانت هذه النقطة بداية مرحلة لكي تكسب هذه الحروف والنقط فوقها صفة الدلالة على الهمزة، ولم يكن من اليسير تغيير رسم الكلمات وإثبات الهمزة فيها الفأ، فكان استخدام النقط للإشارة الى موضع

(٤) المحكم ص ٨٧.

(٥) نفس المصدر ص ١٤٨.

(٦) نفس المصدر ص ١٤٧.

(٧) نفس المصدر ص ٩٥.

الهمزة في الكلمة هو الحل الأمثل الذي اهتدى اليه علماء الرسم لا علماء العربية
الأول.

ولا بد من وقفة هنا عند هذا التحول في طريقة تمثيل الهمزة - التي هي صوت صامت لا يختلف عن أصوات اللغة الأخرى التي مثلت برمزمعين - في الكتابة، فبعد أن كانت الهمزة تستأثر وحدها برمز الالف اشتركت الفتحة الطويلة معها في هذا الأمر، وبعد أن اتخذ الرسم العثماني نموذجاً كتابياً في غير بلاد الحجاز كان ذلك يشبه انتقال الكتابة من بيئة لغوية معينة إلى بيئة لغوية أخرى ذات خصائص تختلف في بعضها عن الأولى، وهذا يعرض بعض الرموز إلى أن تفقد دلالتها على أصوات معينة في البيئة الأولى لتكتسب دلالة جديدة في البيئة الثانية لما قد يكون من اختلاف يسير في كلتا اللهجتين، كما حدث في الكلمات التي جاءت مرسومة في الرسم العثماني بالواو وهي تلفظ فتحة طويلة مثل (الصلوة والزكوة والحياة..). فما تعرضت له الهمزة يشبه الى حد ما تلك الحالة، حيث أصبحت الألف والواو والياء في الرسم العثماني تقع موقع الهمزة المحققة في البيئات الجديدة وذلك اقتضى وضع علامة معينة على تلك الحروف الثلاثة إذا كانت واقعة موقع الهمزة، وقد كانت تلك العلامة في أول الأمر نقطة حمراء أو صفراء، ثم تغيرت تلك النقطة الى رأس عين ينسب وضعها الى الخليل بن أحمد، وبذلك صار الناس حين يكتبون في المصاحف وفي الأمور العلمية والحياتية الأخرى يصورون الهمزة بأحد الحروف الثلاثة مع العلامة التي تدل على الهمزة فو، خاصة إذا كان المصحف يضبط على قراءة تحقق الهمزة، اقتداء بالرسم العثماني، ونسي أن الألف هي الأصل في رمز الهمزة، ونسي أن المصاحف العثمانية كتبت في الحجاز بلغة الذين يسهلون الهمزة الا في أوائل الكلمات، لكن حرص الناس على التمسك بما أجمع عليه الصحابة في المدينة وهو الرسم العثماني جعلهم يحرصون على الاحتفاظ بصور الكلمات كما جاءت في المصحف، وكانت الكلمات المهموزة قد رسمت على التسهيل أي أن الهمزة كانت تلفظ وترسم واواً أو ياء أو ألفاً، وحين استعملوا صور هجاء الكلمات المهموزة الواردة في الرسم

العثماني أبقوا الرسم على حاله واكتفوا بالتعليم على الحروف التي تقع في موقع الهمزة بعلامة توضع فوقها، وكانت نقطة في أول الأمر ثم صارت بعد الخليل رأس عين لم يستعملها نساخ المصاحف ونقاطها الا بعد فترة من الزمن، وقد ظلت هذه الازدواجية في تمثيل الهمزة الى اليوم مع نسيان رمزها القديم، وهو الألف.

وقد تحدّث أبو عمرو الداني عن كيفية نقط الهمزة والهمزتين من الكلمة الواحدة والكلمتين ويبيّن مذاهب النقاط في ذلك على حسب اختلاف الفاظ التلاوة في ثلاثة فصول من كتابه الحكم^(٨). لكن المهم في موضوع نقط الهمزة هو كيفية تعيين موضع النقطة من الألف أو الواو أو الياء، وقد اجمع أئمة القراءة والرسم وعلماء العربية على أن موضع الهمزة من الكلمة يتمنح بالعين، فحيثما استقرت العين فهو موضع الهمزة^(٩)، فنقطة الهمزة تقع من الألف المرسومة في الخط قبلها وذلك إذا تقدمتها الهمزة ولفظ بالفتحة الطويلة بعدها نحو (ءامن)، وتقع الهمزة في الألف إذا كانت صورة لها نحو (أخذ) وتقع بعدها وذلك إذا تأخرت الهمزة ولفظ بالفتحة الطويلة، التي تمثل بالألف قبل الهمزة نحو (جاء) ويتضح موضع الهمزة في ما كان مثل هذه الكللات إذا جعلنا مكان الهمزة عيننا فنقول: في الأول (عامن) فالهمزة قبل الألف المرسومة، ونقول في الثاني (عخذ) فالهمزة هي الألف، ونقول في المثال الأخير (جاع) فالهمزة بعد الألف. وهي مع الواو والياء في ذلك مثلها مع الألف. فالهمزة تقع منها المواقع السابقة في أي مكان من الكلمة^(١٠).

واستعمال صوت العين - أو أي صامت غيره - في تعيين موضع الهمزة من

(٨) من ص ٩٠-١١٨.

(٩) الداني: الحكم ص ١٤٦، وانظر كتاب النقط له ص ١٤٣، والمبرد ج ١ ص ١٤١، وابن أبي داود ص ١٤٥. والعقيلي لوحة ٢٦ وابن وثيق لوحة ٣٤.

(١٠) انظر الداني: الحكم ص ١١٩ و ١٣٠ و ١٣٨.

الحروف الثلاثة وسيلة دقيقة مكّنت أهل النقط من ضبط مواضع نقطة الهمزة من تلك الحروف، لكن بعض النقاط، خاصة من أهل النحو، قد أسرفوا في تعيين مواضع نقطة الهمزة من الحروف الثلاثة، قال الداني^(١١): «فأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من النقاط والنحويين من جعلهم للهمزة مع حروف المد أحكاماً كثيرة سوى ما ذكرناه، وإيقاعهم إياها في أماكن شتى منهن، وتلقيبهم الواو والألف وموضع الهمزة منها بألقاب جمة كقولهم هامة الواو وإفوخ الواو وقمحدوة الواو وجبهة الواو وخاصة الواو ومضجع الواو وقفا الواو، وذنب الواو إلى غير ذلك من الألقاب التي قضا لوقوع الهمزة في الألف والياء والواو، فشيء لا وجه له من قياس، ولا معنى في نظر ولا حقيقة في تلاوة ولا أثر له في نقل». ثم يستدل الداني على انحصار مواقع الهمزة الثلاثة من تلك الحروف بإحلال العين محل الهمزة، وهي تقع قبل الحرف أو فيه أو بعده، فتوقع النقطة في الموضع الذي تظهر فيه العين.

وإذا كانت النقطة تجعل في موضع العين التي يحتبّر بها موضع الهمزة فإن أهل النقط اتفقوا على موقعها في حالة كون الهمزة قبل الحرف أو بعده بصورة عامة، أما إذا كانت الهمزة تقع نفس موقع الألف والياء والواو فمنهم من يجعلها في أنف هذه الحروف ويوقع الحركات فوق الحرف أو تحته أو أمامه، ومنهم من يخالف بها فيجعل المفتوحة وحركتها فوق الحرف والمكسورة وحركتها تحت الحرف والمضمومة وحركتها في الحرف، ويجمع بين الهمزة وبين حركتها، ولا يفرق بينهما كما لا يفرق بين سائر الحروف وبين حركاتهن، ويرى الداني أن القول الأول أوجه، وذلك من حيث كانت الهمزة حرفاً من حروف المعجم فكما تلزم الحروف غيرها موضعاً واحداً من السطر كذلك ينبغي أن تلزم الهمزة أيضاً

(١١) نفس المصدر ص ١٤٦. وقد بيّن الداني مذاهب النحويين في نقط الواو والألف بالحركات والهمز والتنوين في الملحق الذي بيّن فيه مذاهب أهل العربية والنحاة في النقط.

موضعا واحداً، وأن تجعل لها في الكتابة صورة، وتكون الحركات دالة على ما تستحقه منهن كما تدل على سائر الحروف^(١٢).

ومن أهل النقط من يجعل الهمزة المبتدأة خاصة نقطة بالصفراء فقط دون حركة معها ويخالف بها في الألف، فتجعل المفتوحة في رأس الألف، وتجعل المكسورة تحت الألف وتجعل المضمومة في وسط الألف، ويكتفى بذلك عن تحريكها^(١٣).

ويذكر الداني أن الألف الثابتة في مثل (ءَامَنَ) ونحوه هي رمز الفتحة الطويلة التي بعد الهمزة، وأن رمز الهمزة هو المحذوف، ومن ثم إذا أريد نقطها جعلت الهمزة نقطة بالصفراء، وحركتها عليها قبل الألف المصورة في البياض^(١٤). ولا شك أن هذا المذهب في نقط ما كان مثل كلمة (ءَامَنَ) هو أوضح من القول بأن الألف الثابتة هي رمز الهمزة وأن رمز الفتحة الطويلة محذوف يجري ضبطه بالنقط، وهو ما يقتضي جعل نقطة صفراء فوق الألف لتدل على الهمزة ورسم الف صفري بالحمرة بعد الألف، لكن مذهب الداني رغم عمليته يشمل النظر ذلك لأن الألف المرسومة أن تكون رمز الهمزة أرجح من أن تكون رمزاً للفتحة الطويلة. ويظهر أثر اختلاف علماء الرسم والنقط في دلالة الألف في مثل (ءَامَنَ) حين تدخل همزة استفهام على همزة مفتوحة فتحة قصيرة أو طويلة في مثل (ءَأَنْذَرْتَهُمْ وءَأَنْتُمْ وءَأَلِدُ) ومثل (ءَأْمَنْتُمْ وءَأَهْتُنَا) فقد اختلفوا في الألف المثبتة هل هي رمز للهمزة الأولى أم الثانية، ويتبع ذلك الاختلاف في نقط تلك الكلمات تبعاً لموقف الناظر من الألف المرسومة، وتصور

(١٢) انظر المحكم ص ١٠٨-١٠٩.

(١٣) الداني: المحكم ص ١٢٥، وقد ذكر السيوطي (تدريب الراوي ج ٢ ص ٧٢) ان للكتاب اصطلاحين في موضع الهمزة من الألف، فمنهم من يجعلها فوق الألف والكسرة أسفلها ومنهم من يجعلها أسفل الألف، والثاني أصح عند السيوطي.

(١٤) المحكم ص ١٥٦.

الفتحة الطويلة في المثاليين الأخيرين الفأ بالحمرة بعد استيفاء نقط الهمزتين قبلها^(١٥).

وقد اختلف علماء الرسم والعربية في أي الطرفين من اللام الف هو الألف وأيها اللام؟ فذهب الخليل بن أحمد وعامة أهل النقط من المتقدمين والمتأخرين الى أن الطرف الأول هو الألف وأن الثاني هو اللام واستدلوا على ذلك بأن أصل اللام الف لام اتصلت بها الألف هكذا (لا) مثل (يا وما) لكن تلك الصورة لم يستغفها ذوق الكتاب فغيروا تلك الصورة وحسنوا رسمها بالتضفير، فضموا أحد الطرفين الى الآخر فصارت هكذا (لا)^(١٦)، لكن الأخفش سعيد بن مسعدة ذهب الى عكس ذلك فزعم أن الطرف الأول هو اللام وأن الطرف الثاني هو الهمزة واستدل على صحة ذلك بأن الملفوظ به من حروف الكلم أولاً هو المرسوم في الكتابة أولاً، وأن الملفوظ به من حروفهن آخرأ هو المرسوم آخرأ^(١٧). ولا شك في أن ما ذهب اليه الخليل ومن تابعه هو الحق والصواب، ولكن ليس على أنها حرفان ضمرا ولكن لأن الأصل النبطي لهذا الشكل يشير الى أن الطرف الأول هو طرف الألف وأن الثاني هو اللام^(١٨). ومن ثم فان نقط الهمزة في هذا الشكل يقع على الطرف الأول بأن تجعل نقطة بالصفراء وعليها حركتها بالحمراء فوقها أو تحتها أو بين يديها^(١٩).

وأشرنا في مطلع هذا الفصل الى أن الداني أورد مذاهب متقدمي النحاة وأهل العربية في النقط في ملحق جعله في آخر كتابه (الحكم) بين فيه مذاهبهم التي لا تخلو من اختلاف عما جرى عليه عامة أهل النقط فالى جانب التقسيمات الكثيرة لموضع الهمزة من الألف والواو واللام الف نجدهم ينقطنون الهمزة

(١٥) الحكم ص ٩٥ و ٩٩.

(١٦) نفس المصدر ص (١٩٧-١٩٨).

(١٧) نفس المصدر ص (١٩٨-١٩٩).

(١٨) انظر ص ٤١٠ من الفصل الرابع.

(١٩) الداني: الحكم ص ٢٠٠.

المفتوحة الممدودة في مثل (ءامن وءادم وءاخر) بعد الألف أي على جبهتها ويسارها وينقطنون الهمزة المفتوحة فتحة قصيرة في مثل (أمر، أخذ، أتى) قبل الألف، وهو قفاها ويينها^(٢٠)، وقد قال الزجاجي^(٢١): «كل ألف استفهام أو ألف غير ممدودة مفتوحة فالنقطة في قفاها». وهذا عكس ما ذهب إليه عامة أهل النقط، وعكس ما تدل عليه العين حين نمتحن بها موضع الهمزة من الكلمة.

وقد جرى أبو حاتم السجستاني في نقط الهمزة فيما نقله عنه ابن أبي داود على مذهب أهل العربية ومتقدمي النحاة^(٢٢)، ولكن لا بد من الإشارة الى أن الأمر قد اختلط على محقق الكتاب^(٢٣) في فهم مصطلحات أهل النقط، ومن ثم فقد جاء موضع النقط في الأمثلة التي حاول اثباتها في الهامش بالخط الكوفي مغلوطاً في الغالب، فقد أخطأ في فهم (قفا الألف) و(بين يدي الألف) فجعل موضع النقطة التي في قفا الألف على يسار الألف في أعلاها، ويجعل موضع النقطة التي بين يدي الألف على يمين الألف في أعلاها^(٢٤)، والصواب هو أن قفا الألف هو يمينها وبين يدي الألف هو يسارها^(٢٥). وقد ظهر أثر هذا الفهم الخاطيء حين نقط كلمة (فَمَثَلُهُ) (البقرة ٢/٢٦٤) فقد جعل النقطة قبل اللام بينما يقول أبو حاتم كما ينقل ابن أبي داود عنه «ينقطنون على الميم واحدة فوقها وواحدة بين يدي اللام»^(٢٦). فالمقصود بين يدي اللام هو أن توضع النقطة بعد اللام لا قبلها كما فعل المحقق، مثل كل الحروف المضمومة، وقد سبق أن بينا كيف عبر أهل

(٢٠) الداني: المحكم ص ٢٢٩ وما بعدها.

(٢١) الجمل ص ٢٧٥ وانظر ابن أبي داود ص ١٤٤.

(٢٢) المصاحف ١٤٤ وما بعدها.

(٢٣) هو المستشرق آرثر جفري.

(٢٤) انظر ابن أبي داود (ص ١٤٤-١٤٥).

(٢٥) انظر الداني ص ٢٢٩ و٢٣٠ و٢٣٧ و٢٤٦ و٢٥٣.

(٢٦) كتاب المصاحف ص ١٤٤.

النقط عن موضع نقطة الضمة من الحرف الذي قبلها بقولهم (الى جانب الحرف أو أمام الحرف أو بين يدي الحرف)^(٢٧). وأخطأ المحقق كذلك في فهم مصطلح (قدام الحرف) الذي هو يساره لكنه حسبه يمينه^(٢٨). وكذلك فهم (جبهة الحرف) بأنها يمين الحرف^(٢٩). والصواب هو أن جبهة الحرف هي يساره^(٣٠).

وقبل أن نترك كيفية نقط الهمزة نشير الى أن من مصطلحات نقط الهمزة عند النحويين ما يسمى (بالألف المقيدة)، نقل ابن أبي داود^(٣١): «إذا كانت الهمزة منتصبة نحو (القرءان) و(٩٤/٩) ﴿نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ و(٨/٣٥) ﴿قَرَأَهُ حَسَنًا﴾ فانها تنقط عليها ثنتان واحدة قبل الألف والأخرى بعدها الا أن التي بعدها أرفع من الأولى سناً وهي تسمى المقيدة، وإنما نقطت بثنتين لأن واحدة للهمزة والأخرى للنصب وهي الثانية». وقال الداني وهو يتحدث عن مواضع الهمزة من الألف عند النحويين: «وألف على خاصرتيها نقطتان، وتسمى المقيدة، والألف بينهما، نقطة للهمزة ونقطة للفتحة وذلك مثل (مبوءاً صدق) و(أنشأكم) و(ذراًكم) وشبهه»^(٣٢). وإنما سميت هذه الألفات مقيدة لأنها تنقط قدام ووراء^(٣٣)، والألف إنما تكون مقيدة - على ما يبدو - حين تقع الهمزة مفتوحة قصيرة أو طويلة بعد فتحة قصيرة^(٣٤).

ولا شك في أن مذهب عامة أهل النقط أوضح وأقرب الى الواقع من

(٢٧) انظر الجدول ص (٥٠٣) من هذا الفصل.

(٢٨) انظر ابن أبي داود ص ١٤٦ والداني: الحكم ص ٢٥٣.

(٢٩) انظر ابن أبي داود ص ١٤٧.

(٣٠) الداني: الحكم ص ٢٩٩.

(٣١) المصاحف ص ١٤٦.

(٣٢) الحكم ص ٢٤٧.

(٣٣) نفس المصدر ص ٢٢١.

(٣٤) انظر نفس المصدر ص ٢٢٤.

مذهب النحاة في نقط الهمزة خاصة، فمذهب النحاة في نقط ما كان مثل (ءامن) و(أخذ) يجعل النقطة على يسار الألف في الأول وعلى يمين الألف في المثال الثاني شيء لا يستقيم مع حقيقة موضع الهمزة من الألف التي هي قبل الألف في المثال الأول، لأننا نقول (عامن) وفي الألف في الثاني لقولنا (عخذ)، ومن ثم فإن مذهب عامة أهل النقط حين يجعلون النقطة قبل الألف في المثال الأول وفي الألف أو فوقه في المثال الثاني أصح وأقرب الى الواقع، وكذلك فإن ما سماه النحاة الألف المقيدة كان يكفيهم فيها أن يجعلوا مكان الهمزة حيث تظهر بالنسبة للألف نقطة، مع جعل نقطة الحركة معها، والاستغناء عن النقطتين على يمين الألف ويسارها. فنقط كلمة (القرءان ونبأنا) عند عامة أهل النقط بأن تجعل قبل الألف في الكلمة الأولى نقطة بالصفراء تدل على الهمزة والألف بعدها تدل على الفتحة الطويلة، وفوق الألف نقطة بالصفراء عليها الفتحة نقطة بالحمراء في الكلمة الثانية، دونما حاجة الى تقييدها بنقطتين يزيدان في غموض الأمر حتى لقد قال ابن أشته «الألفات المقيدات مما يشتهه على الناقط» (٣٥).

أما كيف استعمل أهل النقط رأس العين في المصاحف بدل النقطة الصفراء او الحمراء للدلالة على الهمزة فقد أشرنا من قبل الى أن الخليل بن أحمد وضع للهمزة علامة كما وضع للحركات الثلاث علامات، وجعل علامة الهمزة «طائفة مأخوذة من العين غير معقفة لأنها مشتركان في المخرج وأنها تمثل بها» (٣٦). واستعملت هذه العلامة في موضع النقطة التي كان أهل النقط يوقعونها على الحروف الثلاثة حسب موقعها منها.

وقد ذكر ابن درستويه في موضعين من كتابه (الكتاب) ملاحظة تبعث على التأمل في الهدف الذي وضع الخليل من أجله هذه العلامة، فقد قال وهو يتحدث عن العلامة التي وضعها الخليل للهمزة «وهي التي وضعها الخليل للهمز،

(٣٥) الداني: الحكم ص ٢٢١.

(٣٦) ابن درستويه ص ٥٦، وانظر الداني: الحكم ص ١٤٧.

فلم يستعملها الناس، وكتبوا الهمزة على صورة حروف اللين وصيروا ما وضعه الخليل شكلاً لها»^(٣٧). وقال في الموضع الآخر: «وذكروا أن الخليل زاد في حروف المعجم صورة الهمزة فلم يعتمد عليها الناس وجعلوها شكلاً لها»^(٣٨). وهذا يعني أن الخليل أراد لهذه العلامة أن تستعمل مثل أي حرف من حروف الأبجدية وتحل محل الألف والواو والياء التي هي آثار من كتابة المصحف على التسهيل وترك الهمز. لكن ذلك لم يتحقق لأنه استدعي تغييراً كبيراً في صور الكلمات.

ولا نعلم كيف أراد الخليل لهذا الحرف أن يستعمل في الأوضاع المختلفة لوروده في الكلمة، لكن الذي يبدو هو أن العلامة التي وضعها الخليل للهمزة استعملت، منذ وقت مبكر، في مكان النقطة التي كانت تشير إلى موضع الهمزة في المصحف، ولا شك أنها استعملت أولاً في غير المصحف، ثم استعملها نساخ المصاحف في المشرق قبل أهل المغرب، فبدأت علامة الهمزة في مصحف ابن البواب الذي كتبه سنة (٣٩١ هـ) على شكل رأس عين، لكن أهل المغرب كانوا يأبون الزوال عن استعمال الطريقة القديمة في نقط الهمزة وجعلها نقطة بالصفرة، وظل هذا الاستعمال بعد الداني أجيالاً، فقد قال ابن وثيق (ت ٦٥٤ هـ) وهو يتحدث عن علامة الهمزة^(٣٩): «وقد اصطلح كتاب المصاحف على أن جعلوا علامة الهمزة نقطة بالصفراء» وأشار إلى استعمال رأس العين في المصاحف أيضاً^(٤٠). كذلك جعل الخراز (ت ٧١٨ هـ) علامة الهمزة في أرجوزته في موضوع الضبط نقطة مدورة بالصفراء^(٤١). وهكذا كان أهل المشرق أسرع في استعمال

(٣٧) كتاب الكتاب ص ٥٦.

(٣٨) نفس المصدر ص ٦٤.

(٣٩) لوحة ٣٣.

(٤٠) نفس المصدر لوحة ٣٤.

(٤١) انظر المارغني ص ٣٦١ و ٣٧١.

العلامة الجديدة للهمزة كما كانوا أسرع من أهل المغرب في إدخال علامات الحركات في المصحف^(٤٢).

أما كيف تظهر علامة الهمزة في الوثائق المخطوطة التي أمكن الاطلاع عليها فقد ظهرت في بقية المصحف المنقوطة المحفوظ في دار الكتب المصرية^(٤٣) نقطة بالحمراء، وكأنها نقطت على مذهب النحاة في النقط، فنقطة الهمزة في كلمة (أو) تظهر في قفا الألف، مثل ما نقط النحاة كلمة (أخذ) في قفا الألف، لكن كلمة (أنزل) تظهر نقطة الهمزة فيها بين يدي الألف، وتظهر في كلمة (شهداء) في جبهة الألف على يسارها.

وتظهر نقطة الهمزة في صفحتين من مصحف قديم أوردتها المنجد^(٤٤) في كلمة (ءامنوا - ءاخرين) على جبهة الألف وهو يسارها، وفي كلمة (إنّ والى) تحت الألف، وفي (طائفة) تحت الياء وفي كلمة (أنصار - أفلا) في قفا الألف، وفي كلمة (الأرض) تظهر النقطة في قفا الطرف الأول من اللام الف(لا).

وفي مجموعة أوراق أوردتها موريتز (لوحه ١٩-٣٠) من مصحف قديم أرجعه الى القرن الثاني أو الثالث الهجري تظهر الهمزة في مثل (أنت - أما - أن - أذن - أما) نقطة في قفا الألف، وفي (إنه - إنّا - إنما - إلا) نقطة تحت الألف، وفي (قران) تظهر الألف مقيدة بنقطة عن يمينها ونقطة عن يسارها. وفي (الألباب) تظهر الهمزة نقطة في قفا الطرف الأول من اللام الف مثل نقط الهمزة في كلمة (الأرض)، وفي (أخذوا) الهمزة نقطة بين يدي الألف.

وتظهر الهمزة المتوسطة والمتطرفة في هذه الأوراق بعلامة تشبه هلالاً صغيراً أو دالاً، ففي كلمة (الملئكة) في موضعين وكلمة (سئلت) تظهر الهمزة على

(٤٢) انظر القلقشندي ج ٣ ص ١٦٧.

(٤٣) هو برقم (١١٥) مصاحف).

(٤٤) شكل ٢٨ و ٢٩، وهما ورقتان من مصحف قديم في متحف طوب قبور رقم ١٩٤.

شكل هلال صغير تحت الياء، وطرفاه متجهان الى الأعلى ومتصلان بطرفي الياء على هذا النحو (ث). وفي كلمة (السماء) تظهر الهمزة مثل دال في داخلها أو أمامها نقطة هكذا (ج). وفي (شاء) هلالاً صغيراً بعد الألف طرفاه متجهان الى الأعلى وفي وسطه نقطة علامة للفتحة، كذلك تظهر الهمزة في (جاءه - جاءك) ولكن بدون نقطة للحركة.

وظهرت الهمزة في قطعة من الخشب مكتوب عليها سورة البينة بعلامة تشبه العلامة السابقة تقريباً، ففي كلمة (جاءتهم - حنفاء) تظهر الهمزة على شكل دال معكوسة أو علامة تشبه رقم (٤) أثبتت في البياض بعد الألف، وفي كلمة (أولئك) ظهرت الهمزة بنفس العلامة، ولكن تحت الياء^(٤٥).

وتظهر الهمزة في المصحف المنسوب الى جعفر الصادق - أرجعه موريتز الى القرن الثاني أو الثالث^(٤٦) - والمحفوظ بدار الكتب المصرية^(٤٧)، بعلامتين الأولى رأس عين مرسومة بنفس مداد الحروف، ودائرة مفرّعة باللأزورد، وهما تتخذان مكاناً واحداً أو توضعان متجاورتين.

ويبدو أن استعمال رأس العين في المصاحف قد ظهر في المشرق في القرن الرابع على الأقل، أما في المغرب فانهم ظلوا الى فترات متأخرة يصورون الهمزة نقطة صفراء، كما يظهر ذلك في مصحف بالخط المغربي يرجع الى القرن الثامن الهجري محفوظ في مكتبة جستر بيتي في دبلن^(٤٨).

(٤٥) انظر: Mohamed Aziza: La calligraphie arabe. Tunis. 1973, P. 24.

(٤٦) انظر لوحة ٣١-٣٦.

(٤٧) محفوظ برقم (١ مصاحف).

(٤٨) انظر نموذجاً منه: ناجي زين الدين: مصوّر الخط العربي شكل ٦٩٩ ص ٢٤٦. ورغم أن الصورة لا تظهر الا اللون الأسود إلا أن دائرة الهمزة رسمت بمداد غير مداد الكتابة. وأرجح أنها بلون الصفرة.

ثانياً: العلامات الأخرى:

١ - علامة السكون:

السكون ليس حركة وإنما هو سلب الحركة^(٤٩)، ووضعوا له علامة لتدل على عدم وجود حركة بعد الحرف أو أنه غير مشدد، وقد استعملت عدة علامات لتدل على هذه الحالة، فنقاط المصاحف يستعملون للسكون إما جرة فوق الحرف مثل علامة الفتحة، وإما دائرة صغيرة فوق الحرف، بالحمرة، والعلامة الأولى استعملها أهل الأندلس والثانية يستعملها نقاط أهل المدينة^(٥٠)، وأهل العربية من سيبويه وعامة أصحابه يجعلون علامته خاء^(٥١)، وقيل هي جيم بغير عراقية^(٥٢)، ومن أهل العربية من يجعل علامة السكون هاء، اختص بها الوقف الذي يلزم فيه تسكين المتحرك، وذلك في نحو قوله تعالى (كتابه) وشبهه^(٥٣).

أما أصل الدارة ف قيل هي مأخوذة من ميم (جزم) وحذفوا عراقية الميم استخفافاً، وسموا تلك الدائرة جزمة أخذوا من الجزم الذي هو لقب السكون، ويحتمل أن يكونوا أتوا بتلك الدائرة على صورة الصفر في حساب الهنود وغيرهم، إشارة إلى خلو المرتبة من الأعداد لأن الصفر هو الخالي^(٥٤).

وأما الخاء ف قيل هي مأخوذة من أول خفيف^(٥٥)، وقيل هي جيم غير معقفة ولا محققة مأخوذة من جيم الجزم^(٥٦)، ويرى الداني أن الجرة التي يستعملها نقاط

(٤٩) ابن يعيش ج ٩ ص ٦٧.

(٥٠) الداني المحكم ص ٥١.

(٥١) انظر نفس المصدر ص ٥١ وسيبويه ج ٢ ص ٢٨٢ وابن يعيش ج ٩ ص ٦٨.

(٥٢) ابن درستويه ص ٥٥ والقلقشندي ج ٣ ص ١٦٥.

(٥٣) الداني: المحكم ص ٥٢.

(٥٤) نفس المصدر ص ١٩٥ وانظر القلقشندي ج ٣ ص ١٦٥.

(٥٥) الداني: المحكم ص ٥٢.

(٥٦) ابن درستويه ص ٥٥ والقلقشندي ج ٣ ص ١٦٥.

أهل الاندلس علامة للسكون ما هي الا الحاء المأخوذة من أول خفيف الا أنهم اختصروها بأن حذفوا رأسها وأبقوا مطتها فصارت جرّة كآلف مبسوحة، لكثرة استعمال هذا الضرب وتكرره^(٥٧).

ويلاحظ أن الدارة التي تستعمل للسكون استخدمها نقاط المصاحف أيضاً على الحرف الخفيف المختلف فيه بالتشديد أو التخفيف، والحرف الذي يخاف أن يشدده من لا معرفة له، دلالة على خفته^(٥٨)، وقد ظهرت هذه الدارة في ورقة من مصحف قديم يرجع الى القرن الثاني أو الثالث (موريتز لوحة ٢٢) على الباء من ربما في قوله تعالى (الحجر ٢/١٥) ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ وقد ظهر السكون في مصحف ابن البواب (كتبه ٣٩١ هـ) على شكل رأس خاء تقريباً، وفي مصحف محفوظ في دار الكتب المصرية كتب سنة (٤٩٩ هـ) ظهر السكون على شكل دائرة مجوفة صفري^(٥٩).

٢ - علامة التشديد:

سبق أن الكتابة العربية وعامة الكتابات السامية تمثل الصوت المشدد برمز واحد، ومن ثم فإن أحداً قد يظن أن الرمز لا يدل الا على صوت واحد، ولذلك فقد حرص نقاط المصاحف على تبيين تلك الحالة بعلامة معينة، وقد استعمل للتشديد علامتين: الأولى رأس شين، وهي التي أشرنا من قبل الى أنها من وضع الخليل بن أحمد، أخذها من أول (شديد)^(٦٠). وقد قال الخليل في كتاب العين إن «التشديد علامة الادغام»^(٦١) وهذا هو مذهب الخليل وسيبويه وعامة

(٥٧) المحكم ص ٥٢.

(٥٨) نفس المصدر ص ٥١.

(٥٩) محفوظ برقم (٢٢٧ مصاحف).

(٦٠) انظر سيبويه ج ٢ ص ٢٨٢ وابن درستويه ص ٥٦ والداني المحكم ص ٧ وص ٤٩.

(٦١) كتاب العين ج ١ ص ٥٥.

أصحابها، وعلى ذلك سائر أهل المشرق من النقاط وغيرهم^(٦٢). والعلامة الثانية للتشديد هو أن يجعل دالا، وهو مذهب أهل المدينة ومن تابعهم من أهل المغرب والأندلس، وإنما جعل أهل المدينة علامة التشديد دالا من حيث كانت الدال آخر كلمة (شديد) فدلوها عليه بآخر حرف من كلمته، كما دلّ النحويون ونقاط المشرق بأول حرف من كلمته، وفي كل واحد من الحرفين، الشين والدال، دلالة عليه، لكن الداني يرى أن اتباع أهل المدينة أولى، والعمل بقولهم الزم^(٦٣). وقد ذكر ابن وثيق الأندلسي ان بعضهم يجعل علامة الشدة مثلا قلامه الظرفان كان الحرف مضموماً جعلها معكوسة على الضمة وان كان مكسوراً جعلها معكوسة تحت الكسرة وان كان مفتوحاً جعلها فوق الفتحة غير معكوسة، وقد يستغني بعضهم بعلامة الشدة إذا كانت هكذا عن الحركة^(٦٤)، ويبدو أن هذه العلامة التي يتحدث عنها ابن وثيق هي نفسها الدال التي يستعملها أهل المدينة والأندلس.

وفي كيفية نقط التشديد وجهاً أحدها أن تجعل علامته أبداً فوق الحرف، ويعرب الحرف بالحركات اللائي يلحقنه، وهو مذهب من جعل الشين علامة للتشديد، والوجه الثاني أن تجعل علامة التشديد دالا فوق الحرف اذا كان مفتوحاً وتحتته اذا كان مكسوراً وأمامه اذا كان مضموماً، وبعض أهل النقط يجعل مع الشدة الحركات^(٦٥)، وقد ذكر القلقشندي أن رأي المتأخرين قد استقر على المذهب الأول، غير أنهم يجعلون بدل النقط الدالة على الاعراب علامات الاعراب التي اصطالحوا عليها من الفتحة والضمة والكسرة، فيجعلون الفتحة والضمة بأعلى الشدة، ويجعلون الكسرة بأسفل الحرف الذي عليه الشدة،

(٦٢) الداني: المحكم ص ٥٠.

(٦٣) نفس المصدر ص ٥٠ وانظر القلقشندي ج ٣ ص (١٦٦-١٦٧).

(٦٤) لوحة ٣٥.

(٦٥) انظر الداني: المحكم ص (٤٩-٥٠) والقلقشندي ج ٣ ص (١٦٦-١٦٧).

وبعضهم يجعلها أسفل الشدة من فوق الحرف^(٦٦).

نجد علامة التشديد في المصحف الذي كتبه ابن البواب على شكل رأس شين، كذلك هي في المصحف المنسوب الى جعفر الصادق، وفي المصحف المخطوط سنة (٥٤٩٩ هـ) المحفوظ في دار الكتب المصرية، وكذلك في المصحف المكتوب بالخط المغربي الذي يرجع الى القرن الثامن وسبقت الإشارة اليه من قريب.

٣ - علامة المد:

اذا جاء بعد حروف المد الثلاثة الألف والياء والواو همزة أو حرف ساكن مثل (خائفين، قروء، الضالين، حادّ الله) تمكّن وازدودن طولاً، وجعل لهذه الحالة علامة ذكر الداني أنها مطة بالحمراء دلالة على زيادة تمكينهن^(٦٧)، وذكر ابن وثيق: «ان صورة المد تجعل بالحمرة كالميم الصغرى ممدودة، في آخرها دال صغرى هكذا (مد) وموضعها حروف المد واللين ..»^(٦٨). وقد ظهرت علامة المد في مصحف قديم مرسوم بالخط المغربي كتب سنة (٥٥٥٧ هـ) تشبه الى حد كبير كلمة (مد) صغيرة فوق الحرف أو في موضع المد^(٦٩). كذلك نجد نفس الشكل في مصحف آخر كتب في القرن الثامن الهجري^(٧٠). ونجدها في مصاحف أخرى متأخرة كأنها بقية من كلمة (مد) بعد حذف رأس الميم وإزالة رأس الدال^(٧١). وينص الداني على أن موضع علامة المد فوق الحروف الثلاثة الواو والياء والألف مباشرة^(٧٢).

(٦٦) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٦٧.

(٦٧) المحكم ص ٥٤.

(٦٨) لوحة ٣٤.

(٦٩) انظر موريتز لوحة ٣٤.

(٧٠) انظر نموذجاً من ذلك المصحف: ناجي زين الدين: مصوّر الخط العربي شكل ٢٣١

ص ٧١ وانظر موريتز لوحة ٨٦ و٨٨.

(٧١) ناجي زين الدين: مصوّر الخط العربي شكل ٦٩٩ ص ٢٤٦.

(٧٢) المحكم ص ٥٥.

٤ - علامة الف الوصل:

الف الوصل أو همزة الوصل مما يتحقق اللفظ بها في الابتداء فحسب وتسقط في درج الكلام، ومن ثم فقد أحوجت الى علامة أخرى غير علامة الهمزة التي يحققها أهل التحقيق في كل مكان، وقد جعلها المتقدمون من أهل المغرب جرّة لطيفة كالجرة التي هي علامة السكون كما يقول الدايني^(٧٣). وعلى صورة الفتحة على قول ابن وثيق^(٧٤)، وموضع هذه الجرة فوق الألف اذا تحرك ما قبلها بالفتح وتحتة إذا تحرك بالكسر، وان تحرك بالضم جعلت الجرّة في وسط الألف دلالة على انضمام ما قبلها^(٧٥). وأهل النقط يسمون هذه الجرة (صلة) لأن الكلام الذي قبل الألف يوصل بالذي بعده، فيتصلان، وتذهب هي من اللفظ بذلك^(٧٦).

أما أهل المشرق فإنهم يخالفون أهل المغرب في ذلك، فيجعلون صلة ألف الوصل دالاً مقلوبة كالتى يخلق بها على الكلام الزائد في الكتب، دلالة على سقوطه وزيادته كذلك هم يجعلونها في الكسر على رأس الألف أبداً^(٧٧).

ويذكر ابن درستويه ان علامة الف الوصل - عند الكتاب - صاد غير معرقة ولا محققة مأخوذة من الوصل^(٧٨)، وينص القلقشندي أن المتأخرين استعملوا لألف الوصل - ربما في المصاحف - صاداً لطيفة إشارة الى الوصل، وجعلوها بأعلى الحرف دائماً ولم يراعوا في ذلك الحركات اكتفاء باللفظ^(٧٩).

(٧٣) المحكم ص ٨٦ وانظر القلقشندي ج ٣ ص ١٧٠.

(٧٤) لوحة ٣٦.

(٧٥) انظر الدايني: المحكم ص ٨٤ والقلقشندي ج ٣ ص ١٧٠.

(٧٦) الدايني: المحكم ص ٨٥.

(٧٧) نفس المصدر ص ٨٦.

(٧٨) كتاب الكتاب ص ٥٦.

(٧٩) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٧٠.

وقد استعمل نقاط أهل الأندلس بالإضافة الى الجرة الحمراء التي تدل على الحركة التي تسبق الف الوصل في درج الكلام علامة أخرى للدلالة على كيفية الابتداء بهمزة الوصل فهم « يجعلون فوق الألف نقطة بالحضراء أو اللزورد، فرقاً بين حركتها التي لا توجد الا في حال الابتداء فقط وبين حركات الهمزات وسائر الحروف اللائي يثبتن في الحالين، من الوصل والابتداء، ويجعلن نقطاً بالحمرة، وذلك اذا ابتدئت بالفتح، فإن ابتدئت بالكسر جعلوا تلك النقطة تحت الحرف، وان ابتدئت بالضم جعلوها أمامها. ونقاط أهل المشرق لا يفعلون ذلك» (٨٠).

وذكر الداني أنه رأى في المصحف الذي كتبه ونقّطه حكيم بن عمران الناقط سنة (٢٢٧هـ) أن الصلة فوق الألف اذا انفتح ما قبلها، وتحتها اذا انكسر ما قبلها وفي وسطها اذا انضم ما قبلها^(٨١)، ويبدو أن نساخ المصاحف كانوا كثيراً ما يجعلون وضع أية علامة على همزة الوصل، لذلك لا نجد لها أثراً في المصحف الذي كتبه ابن البواب سنة (٣٩١هـ) حسب ما اطلعت عليه من صور لذلك المصحف، كذلك لم يجعل ناسخ المصحف المكتوب (سنة ٤٩٩هـ) والمحفوظ بدار الكتب المصرية علامة لهزمة الوصل، بينما نجد علامة همزة الوصل في ورقة من مصحف كتب سنة (٥٥٩هـ) أوردتها موريتز في مجموعته (لوحة ٨٦) صاداً صفراً فوق الحرف، ونجد علامة الصلة في مصحف كتب بالخط المغربي سنة (٥٥٦هـ) أورد منه موريتز ورقة (لوحة ٤٧) جرة صغيرة فوق الألف اذا كان ما قبلها مفتوحاً وتحتها اذا كان مكسوراً وفي وسطها اذا كان مضموماً، ويبدو أن الناسخ قد وضع على ألف الوصل إضافة الى ذلك دائرة قد تكون باللون الأخضر تشير الى كيفية الابتداء بهمزة الوصل، ويبدو أن ظاهرة ايهال علامة الف الوصل قد امتدت الى فترات لاحقة فلا نجد لها أثراً في مصحف كتب سنة (٦٣٥هـ) (موريتز لوحة ٨٨) لكن علامة الوصل تظهر في أكثر نماذج المصاحف

(٨٠) الداني: المحكم ص (٨٦-٨٧). وانظر ابن وثيق لوحة ٣٧.

(٨١) الداني: المحكم ص ٨٧.

التي أوردتها موريتز والتي يرجع تاريخها الى ما بعد القرن السابع.

٥ - علامة التنوين:

التنوين ^١ نون ساكنة تلحق آخر الأسماء المنصرفة اذا تجردت من الألف واللام ولم تلحقها الاضافة، وسبق أن كتبت المصحف لم يرسموا التنوين نوناً، فلم يثلوه بشيء في حالة الرفع والخفض وأثبتوا الفأ في حالة النصب، وهي الألف التي تظهر في اللفظ عند الوقف، لكن تمييز الكلمة التي يلحقها التنوين من غيرها بوضع علامة على آخرها غداً أمراً ضرورياً منذ وقت مبكر، ولذلك نجد أبا الأسود حين نقط حركات الاعراب في المصحف لم تفته الإشارة الى الكلمات المنونة، فجعل بدل النقطة نقطتين واحدة للحركة والأخرى تشير الى التنوين، ووضعت نقطة التنوين بجانب نقطة الحركة فوق الحرف في حالة النصب وأمامه في حالة الرفع وتحت الحرف في حالة الكسر، وكان ذلك باللون الأحمر مثل الحركات (٨٢).

وحين وضع الخليل علامات الحركات الثلاث وأحلها الكتاب محل النقط استعملوا كذلك هذه العلامات في الإشارة الى التنوين فجعلوا مكان النقطتين علامتين، لكن استعمال ذلك في المصاحف لم يتم دفعة واحدة في زمن الخليل بل كان تابعاً لمراحل استعمال علامات الحركات في المصاحف، على النحو الذي مر في مبحث سابق.

وقد ذكر ابن درستويه أن التنوين « طائفة مأخوذة من النون أو من نقطتها » (٨٣). لكن ما ذكرناه من أصل علامة التنوين هو الذي يدل عليه واقع الروايات والوثائق المخطوطة، فحين جعل الدؤلبي للتنوين النقطتين جعل من استعمال علامات الخليل بدل النقطتين علامتين (٨٤)، ويذكر القلقشندي أن من

(٨٢) وانظر الداني: المحكم ص ٥٨.

(٨٣) كتاب الكتاب ص ٥٦.

(٨٤) انظر القلقشندي ج ٣ ص (١٦٥-١٦٦).

التأخرين من يجعل علامة التنوين مع الضم واوا صغيرة وخطه بعدها فيقول^(٨٥):
« فإن لحق حركة الضم تنوين رسموا لذلك واوا صغيرة بخطه بعدها: الواو إشارة للضم والخطه إشارة للتنوين، وعبروا عنها برفعتين (ضمتين). وبعضهم يجعل عوض الخطه واوا أخرى مردودة الآخر على رأس الأولى ».

وقد اتفق أهل النقط على جعل النقطتين في حالة الرفع أمام الحرف الأخير من الكلمة وفي حالة الجر تحته لكنهم اختلفوا في موضعها في حالة المنصوب بين جعلها على الحرف الأخير من الكلمة أو على الألف التي عوض من التنوين على أربعة أقوال^(٨٦):

فمنهم من ينقط بأن يجعل نقطتين بالحمراء على الألف المرسومة ويعري الحرف المتحرك منها ومن إحداها، وهذا مذهب أبي محمد اليزيدي وعليه نقاط أهل المصريين، البصرة والكوفة، ونقاط أهل المدينة.

ومنهم من يجعل النقطتين معا على الحرف المتحرك، ويعري الألف منها ومن إحداها. وهذا مذهب الخليل وأصحابه.

ومنهم من يجعل إحدى النقطتين، وهي الحركة، على الحرف المتحرك، ويجعل الثانية، وهي التنوين، على الألف.

ومنهم من يجعل نقطة واحدة على الحرف المتحرك، ونقطتين على الألف، وذهب الى هذين الوجهين الأخيرين قوم من متأخري النقاط ولا إمام لهم فيها، كما يقول الداني، الذي اختار المذهب الأول في نقط التنوين في حالة النصب^(٨٧).

وقد ذكر الداني أن نقطتي الحركة والتنوين تجعلان متراكبتين، واحدة فوق الأخرى في حالات الاعراب الثلاث، إذا جاء بعد التنوين حرف من حروف

(٨٥) القلقشندي: ج ٣، ص ١٦٥.

(٨٦) الداني: المحكم ص (٦٠-٦١).

(٨٧) نفس المصدر ص ٦٢.

الحلق الستة: الهمزة والهاء والحاء والعين والحاء والغين، دلالة على إظهار النون، وان أتى بعد الاسم المنون في الأحوال الثلاثة من النصب والجر والرفع باقي حروف المعجم سوى حروف الحلق جعلت النقطتان، من الحركة والتنوين، متتابعين، واحدة أمام الأخرى، دلالة على ما يلحق النون من الادغام او الاخفاء، وذكر أن ذلك إجماع من السلف الذين ابتدأوا النقط وابتدعوه، وعليه جرى استعمال سائر الخلف^(٨٨).

ولا نجد في الرواية التي تحكي عمل الدؤلي إشارة الى كيفية وضعه نقطتي التنوين، ومع ما ذكره الداني فإن امعان النظر في بعض المصاحف المنقوطة بالنقط المدور يظهر خروجاً على القاعدة المذكورة عن كيفية وضع النقطتين متراكبتين أو متتابعين، ويبدو ذلك في بقية مصحف محفوظ في دار الكتب المصرية (١١٥ مصاحف) ففي قوله تعالى (النساء ٤/١٣٥) ﴿غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ نجد النقطتين متراكبتين واحدة فوق الأخرى، رغم أن ما بعد التنوين في الكلمة الأولى حرف حلق وما بعد الثانية ليس بحرف حلق، وفي قول الله تعالى (النساء ٤/١٥٨) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِن مِّنْ أَهْلٍ﴾ النقطتان في الكلمة الأولى متتابعتان وفي الثانية متراكبتان، وفي قوله سبحانه (المائدة ٦/٥) ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا﴾ في الكلمة الأولى متتابعتان وفي الكلمتين الأخيرتين متراكبتان، ويظهر الخروج على القاعدة التي ذكرها الداني في مجموعة أوراق من مصحف قديم أوردها موريتز^(٨٩)، ويبدو من مجموع الأمثلة التي اطلمت عليها أن النقطتين مع المنصوب تجعلان في الغالب متراكبتين بجانب الألف، خاصة إذا رسمت الألف التي تخلف التنوين في الوقف، وأنها تجعلان في حالتي الرفع والجر متتابعين في الغالب. ولا أدري ما تكون عليه نتيجة استقراء عدد أكبر من النماذج المعربة بالنقط المدور؟ ويبدو

(٨٨) الداني: الحكيم ص (٦٨ - ٧٢).

(٨٩) لوحة (١٩-٣٠)، ويظهر ذلك في صفحتين من مصحف قديم محفوظ في تركيا. انظر

د. المنجد شكل ٢٨ و٢٩ ص ٥٨ و٦٠.

أن العلامتين اللتين تدلان على الحركة والتنوين تجريان على نسق واحد فلا يظهر أي اختلاف في وضعهما في كافة المواضع، فيما اطلمت عليه من مصاحف مخطوطة مشكولة بعلامات الخليل.

ثالثاً: ضبط ما نقص هجاؤه أو زيد فيه

ليس هناك كتابة تطابق رموزها المكتوبة أصوات لغتها المنطوقة مطابقة تامة- كما تبين ذلك في الفصل التمهيدي - والكتابة العربية في الفترة التي نسخت فيها المصاحف العثمانية كانت تتميز بجملة مزايا، من بينها أن رمز الفتحة الطويلة لم يثبت في كثير من الكلمات وكذلك حذف رمزي الضمة والكسرة الطويلتين إذا اجتمعتا مع الواو والياء، ولم تكن الكتابة العربية آنذاك تمثل الحركات القصيرة أيضاً، وبالمقابل كانت هناك بعض الرموز تبدو زائدة ليس لها دلالة في النطق مثل الألف التي ترسم بعد الواو المتطرفة، ومثل ما يظهر من رسم الهمزة في بعض المواضع رسماً مزدوجاً بألف وياء أو بألف وواو، وكذلك رسم الفتحة الطويلة في بعض المواضع بالواو أو بالياء.

وقد استطاع نقاط المصاحف أن يكملوا النقص المتعلق بالحركات القصيرة بواسطة العلامات الخارجية، أما ما نقص من رموز الحركات الطويلة وما زاد من الرموز الثلاثة: الألف والواو والياء فلم يكن من اليسير إضافة الرموز المحذوفة ولا حذف الرموز الزائدة، كذلك لم يكن من اليسير تغيير ما رسمت فيه الفتحة الطويلة بالواو والياء إلى الألف، ولذلك استعمل نقاط المصاحف بعض الوسائل لدلالة القارئ على الرمز المحذوف ووقفه على الرمز الزائد، وجعلوا هذا الباب من متعلقات علم نقط المصاحف وضبطها، فيقول ابن وثيق^(٩٠): «وما يتعلق بالضبط أيضاً تصوير ما حذف من الحروف بالحمرة».

أما كيفية ضبط ما نقص هجاؤه فقد عقد الداني في الحكم فصولاً عن كيفية

(٩٠) لوحة ٣٧.

نقط ما اجتمعت فيه الفان فحذفت إحداهما اختصاراً^(٩١). ونقط ما اجتمعت فيه ياءان فحذفت إحداهما إيجازاً^(٩٢). ونقط ما اجتمعت فيه واوان فحذفت احدهما تخفيفاً^(٩٣)، وفصلاً آخر عن نقط ما نقص هجاؤه من الالفات المحذوفة والواوات والياءات^(٩٤)، فكل الف حذفت من الخط وهي في اللفظ ثابتة تصور بالحمرة في موضعها لو كانت ثابتة نحو (الرحمن وسحر والعلمين والصلحت والسلسل ولبثين) وما أشبه ذلك. وكذلك فان كل واو حذفت من الخط لأجل واو بعدها أو قبلها صورت بالحمرة نحو (داود وتلون) وما أشبه ذلك وتصور واو صلة الضمير بالحمرة أيضاً، خاصة إذا وقعت بعد بعدها همزة نحو (أولياءه إن) و(أءنذرتهم أم). ومن ذلك أيضاً إذا كانت الياء محذوفة من الخط تصور بالحمرة كما في مثل (الأميين والنبيين) وكذلك إذا كانت الياء صلة للضمير فإنها تصور بالحمرة خاصة اذا وقع بعدها همزة، ولذلك فقد ذكر أبو داود سليمان بن نجاح أن على ناسخ المصحف أن يترك في موضع الألف والياء والواو التي لم ترسم في بعض الكلمات فسحة يثبت فيها الحرف المحذوف بالحمرة^(٩٥).

ومن هذا الباب أيضاً كل الف كتبت واوا فانها تصور بالحمرة على الواو نحو (الصلوة والزكوة) وما كان مثله، ومنه كل ألف كتبت ياء فانها تصور بالحمرة على الياء نحو (أتى والهدى وحتى ومسمى ويحيى) وما أشبهه. وكذلك تصور النون الثابتة المحذوفة في قراءة بعضهم في مثل (نجى) بالحمرة^(٩٦).

أما كيفية نقط ما زيدت فيه الألف أو الياء أو الواو^(٩٧) فإن نقاط سلف أهل

(٩١) الحكم ص ١٥٣ وما بعدها.

(٩٢) نفس المصدر ص ١٦٥ وما بعدها.

(٩٣) نفس المصدر ص ١٦٨ وما بعدها.

(٩٤) نفس المصدر ص ١٨١ وما بعدها.

(٩٥) انظر التنزيل لوحة ٤.

(٩٦) ابن وثيق لوحة (٣٧-٣٨).

(٩٧) انظر الداني الحكم ص ١٧٤ وما بعدها.

المدينة وأهل الأندلس اصطالحوا على جعل دارة صغرى بالحمرء على الحروف الزوائد في الخط المدومة في اللفظ^(٩٨). نحو الواو في (أولئك وأولات وأولي وسأوريكم) وشبهه، والياء في مثل (نباي المرسلين وباييد) وما أشبه ذلك، والألف في مثل (لا أوضعوا ومائة وامرؤا ونبؤا) وما أشبهه من الزيادة^(٩٩).

وقد اختلف في موضع الهمزة في (أولئك) وما كان مثله، فمنهم من يجعلها على الألف ومنهم من يجعلها على الواو، ومن نقاط المصاحف من يجعل الهمزة على الألف أو فيها ويجعل الحركة على الواو^(١٠٠)، وقد ذهب ابن أبي داود فيما نقله في المصاحف الى أن الهمزة في الألف، لأن الواو ليس لها موضع لأن قياسها (علائك)^(١٠١)، وسبق بيان أصل هذه الواو وما شابهها من ياء أو ألف، ومن ثم فإن من حقق الهمزة ينقط الهمزة وحركتها على الألف، والواو أو الياء هي الزائدة بهذا الاعتبار، وينقط من خفف على الواو أو الياء، والألف هي الزائدة في هذه الحالة.

(٩٨) الداني: الحكم ص ١٩٣.

(٩٩) انظر ابن وثيق لوحة ٣٦.

(١٠٠) العقيلي لوحة ٢٦.

(١٠١) المصاحف ص ١٤٦.

المبحث الرابع

الرسم المصحفي في عصر الطباعة

لقد يسّرت الطباعة الحديثة نشر ما لا يحصى من النسخ الموحدة الشكل من القرآن الكريم، ورغم هذا الأثر غير المحدود لتسهيل نشر المصاحف الذي أحدثته الطباعة فإنها لم تكن ذات أثر ملحوظ في شكلها العام وطريقة كتابتها، لأن الرسم المصحفي كان قد اكتمل من كافة جوانبه المتعلقة بمصر اللفظ منذ وقت مبكر بعد أن وضع الخليل بن أحمد علامات الحركات وغيرها، وبعد أن استخدمها نساخ المصاحف بعده بفترة ليست طويلة على تردد من بعضهم استمر قروناً خاصة في بلاد المغرب الإسلامي على نحو ما بينا معالم ذلك الاستخدام في مبحث سابق من هذا الفصل، وقد تبلورت الاتجاهات المختلفة لنوع الخط وطريقة الضبط في المصاحف في مذهبين: الأول ساد في المشرق ويمثل مصحف ابن البواب (كتبه سنة ٣٩١هـ) نموذجاً ممتازاً له، ويغلب على هذا الاتجاه استعمال العلامات التي وضعها الخليل واستعملها الكتاب وأهل اللغة، والثاني هو الاتجاه الذي يمتاز باستعمال الخط المغربي ويظهر ميلاً أكثر للإبقاء على العلامات القديمة، وقد ساد هذا الاتجاه في بلاد المغرب الإسلامي، ولا تزال آثار هذين الاتجاهين باقية على ما يطبع من مصاحف الى اليوم.

ولما كان اختراع آلات الطباعة واستعمالها (١٤٣١م) قد سبقت اليه البلاد الأوروبية كان ظهور المصحف المطبوع في تلك البلاد قبل غيرها على أيدي المستشرقين، ويكاد ينمقد الإجماع على أن أول مصحف أخرجته المطابع ورأى النور كان في سنة (١٦٩٤م = ١١٠٦هـ تقريباً) الذي وقف على طبعه

هنكلمان (Abrahmi Hinckelmanni) في مدينة هامبورج (Hamburgh) بألمانيا^(١).

وقد طبع ذلك المصحف بطريقة تنضيد الحروف وليس تصويراً لمصحف مخطوط^(٢)، وعانى هذا المصحف مما تعاني منه التجربة الأولى خاصة إذا كانت تتم على يد رجل يفتقد كثيراً من متطلبات مثل هذا العمل ولذلك فقد وقعت فيه أخطاء فاحشة تكاد تقابل الناظر فيه كل صفحة منه، سواء من حيث الرسم أم من حيث الضبط، من مثل وضع كلمة مكان كلمة^(٣)، أو وصل ما لا ينبغي أن يوصل من الكلمات^(٤)، إلى أخطاء أخرى لا تدل إلا على معرفة سقيمة باللغة العربية وقواعدها^(٥).

وقد جرى ضبط هذا المصحف على طريقة الخليل وأهل المشرق فالفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف، والضمة واو صفرى فوق الحرف أيضاً، والكسرة مثل الفتحة تحت الحرف، والتنوين علامتان منها، والسكون دائرة مفرغة، والصلة رأس صاد، والشدة رأس شين، والمهزمة رأس عين، والمدة بقية من كلمة

(١) انظر حفي ناصف ص ١١٢ ومحمد ظاهر الكردي: تاريخ القرآن ص ١٦ و١٨٦ ود. صبحي الصالح ص ٩٩ وتوجد من هذا المصحف نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم (١٧٦ مصاحف) ومنه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة.

(٢) يقع هذا المصحف في (٥٦٠ صفحة) في كل صفحة ١٦ سطراً، مع مقدمة في ٨٠ صفحة لعلها باللاتينية وعلى رأس كل آية رقماً مع علامة تدل على انتهائها.

(٣) مثل وضع (الذي) مكان التي في قوله تعالى (٢٤/٢) ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا﴾ ووضع (الذين مكان (المتقين) في قوله (١٥/٥١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

(٤) مثل وصل (ان شاء) (٦٥/٢) ووصل (يوم هم) في قوله تعالى (١٣/٥١) ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

(٥) مثل ضم كلمتي (ابراهيم وربه) في قوله تعالى (١٢٤/٢) ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ ورفع أحب (٢٤/٩) ورفع (نذير ونكير) (١٧/٦٧ و١٨) وجزم (يأتيكم) (٣٠/٦٧).

(مد)، ويلاحظ أن كتابة هذا المصحف قد جرت على الإملاء الاصطلاحي، لذلك أثبتت الألفات المحذوفة في الغالب على نحو ما يجري في اللفظ.

وتوالفت طباعة المصاحف منذ ذلك التاريخ، ودخلت البلاد الإسلامية^(٦)، فظهرت المصاحف المطبوعة في دار الخلافة العثمانية ومصر والهند وغيرها من بلاد المسلمين ومن سواهم، ومن تلك المصاحف المتقدمة مصحف طبع في (قران)^(٧) سنة (١٢٩٥ هـ = ١٨٧٧ م) وهو مطبوع بالحروف مثل المصحف المطبوع في هامبورج، ورغم أنه لم يخل من الأخطاء إلا أن القائمين على طبعه قد حرصوا على الإشارة إلى مواضع الخطأ مقرونة بالصواب في خاتمه^(٨)، وهو مضبوط على طريقة أهل المشرق تماماً إلا في حالة الضمة والتنوين معها، فعلامة الضمة القصيرة فيه واو صغيرة مطموسة الرأس، وعلامة الضمة الطويلة التي لم ترسم كالتي تأتي بعد ضمير الغائب وميم الجمع واو صغيرة أكبر من علامة الضمة القصيرة مفرغة الرأس، توضع فوق الحرف أيضاً، أما علامة التنوين مع المضموم فهي ضمتان متتابعتان إذا كان بعد التنوين أحد حروف الحلق التي تظهر معها النون والتنوين وضمتان الثانية مردودة على الأولى إذا كان بعد التنوين غير حروف الحلق، وليس في المصحف أرقام للآيات لكن القائم على طبعه أثبت اختلاف العلماء في مواضع رؤوس الآي بأن خالف بالأشكال التي يجعلها عند رؤوس الآي على أساس اصطلاح قد بينه في آخر المصحف، وفيه علامات الوقف مثبتة فوق السطر.

(٦) ذكر د. صبحي الصالح (ص ٩٩) نقلاً عن بلاشير أن أول طباعة إسلامية خالصة للقرآن ظهرت في سانت بترسبورج بروسيا سنة ١٧٨٧ م قام بها مولاي عثمان، وانظر في المراحل التالية في تاريخ طباعة المصاحف نفس المصدر ومحمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص ١٨٦ وما بعدها.

(٧) يقع هذا المصحف في ٥٣٤ صفحة و٩ صفحات فهرس في آخره، أبعاده ٢٠ سم x ١٥ سم تقريباً توجد منه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة برقم (٢١٥٤٢).

(٨) وردت في هذا الجدول (١٠٧) مواضع أغلبها يتعلق بعلامات الضبط.

وما يلفت النظر في هذا المصحف أنه التزم فيه الرسم العثماني من مثل عدم إثبات رمز الألف في بعض الكلم وكتابة الألف واوا في بضع كلمات وزيادة بعض الحروف مثل الياء في (باييد)، وإثبات ألف زائدة بعد الواو المتطرفة وحذفها في مثل (جاءو) وما أشبه ذلك.

ولم تكن كل المصاحف المطبوعة تجري على طريقة تنضيد الحروف بل الغالب هو تصوير مصحف مخطوط بطريقة ما، كما يلاحظ على مصحف طبع في ليبسك على أصل مصحف مخطوط من قبل الخطاط التركي المشهور بحافظ عثمان (ت ١١١٠هـ)^(٩)، كان قد كتبه سنة (١٠٩٤هـ) كما هو مكتوب في آخر المصحف^(١٠).

وقد اشتهر بمصر في أوائل القرن الهجري الحالي (أواخر القرن التاسع عشر الميلادي) مصحف كتبه رضوان بن محمد الشهير بالخللاقي، صاحب كتاب (إرشاد القراء والكتابيين الى معرفة رسم الكتاب المبين) وقد قدم لذلك المصحف بمقدمة عن تاريخ القرآن والرسم العثماني، وطبع سنة (١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م)^(١١)، وقد حرص كاتبه أن يلتزم فيه بمخائص الرسم العثماني^(١٢)، إلا أن المصحف الذي فاق كافة المصاحف المطبوعة في الشهرة هو الذي أشرفت على طبعه لجنة من علماء الأزهر في مصر^(١٣)، والذي كتبه بخطه الشيخ محمد علي خلف الحسيني سنة

(٩) انظر محمد طاهر الكردي: تاريخ الخط العربي ص ٣٣٩.

(١٠) انظر نموذجاً من المصحف في مكتبة جامعة القاهرة برقم (٤٤٠٥).

(١١) طبع في القاهرة بالمطبعة البهية. انظر: الشيخ عبد الفتاح القاضي: تاريخ المصحف الشريف. مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني القاهرة ١٩٦٥ ص (٩١-٩٢).

(١٢) توجد منه عدة نسخ في مكتبة الجامع الأزهر.

(١٣) تتكون من الشيخ محمد علي خلف الحسيني الشهير بالحداد، والأساتذة حفي ناصف ومصطفى عناني وأحمد الاسكندري، رحمهم الله (انظر صفحة ٥ من التعريف بالمصحف، ط ٤ سنة ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م والتي صورتها مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة سنة ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م) وانظر أيضاً: محمد طاهر الكردي: تاريخ الخط =

١٣٧٧ هـ^(١٤)، وظهرت طبعته الأولى سنة (١٣٤٢ هـ ١٩٢٣ م)^(١٥). وقد ضبط هذا المصحف على ما يوافق رواية حفص عن عاصم «على حسب ما ورد في كتاب (الطراز على ضبط الخراز) للإمام التنسي مع إبدال علامات الأندلسيين والمغاربة بعلامات الخليل بن أحمد وأتباعه من المشاركة»^(١٦).

وقد بين العلماء الذين أشرفوا على رسم ذلك المصحف وضبطه وطباعته في التعريف به الذي أحقوه في آخره طريقة الضبط التي جروا عليها فيه ودلالة العلامات التي استعملوها فيه، وما يلاحظ أن علامة السكون في هذا المصحف رأس خاء غير معجمة هي التي ذكرنا من قبل أنها مأخوذة من أول (خفيف) وهو مذهب الخليل وسيبويه وأصحابها، وهو ما استعمله ابن البواب في المصحف الذي كتبه سنة ٣٩١ هـ.

أما طباعة المصاحف المكتوبة على طريقة أهل المغرب فلم أقف على تاريخ لبداية ذلك، وربما لم تتأخر كثيراً عن بداية طبع المصاحف في المشرق، ولا شك في أن طباعة المصاحف بالخط المغربي لم تغير شيئاً كثيراً من طريقة رسم الكلمات أو ضبطها في تلك المصاحف إلا ما قد تحتمه ضرورة الاكتفاء بلون واحد في ضبطها لعدم سهولة إظهار ألوان الضبط المختلفة من حمرة أو صفرة.

وضبط المصاحف على طريقة أهل المغرب والأندلس كما بيّنها الخراز في النظم الذي ذيل به (مورد الظمان) يجري في الحركات الثلاث وفقاً لعلامات

= العربي ص (٤٤١-٤٤٢). ود. صبحي الصالح ص ٩٩ والشيخ عبد الفتاح القاضي: تاريخ المصحف ص ٩٢.

(١٤) انظر التعريف بالمصحف في خاتمه صفحة (ض).

(١٥) انظر محمد طاهر الكردي: تاريخ الخط العربي ص ٤٤١ ود. صبحي الصالح ص ٩٩.

(١٦) التعريف بالمصحف صفحة (د-ه).

الخليل، كذا التنوين^(١٧)، أما الفتحة المائلة فيشار إليها بنقطة تحت الحرف^(١٨)، والسكون دائرة، والتشديد رأس شين، وعلامة المد مطة هي بقية كلمة (مد) بعد حذف رأس الميم ورأس الدال^(١٩)، وعلامة الهمزة المحققة نقطة بالصفراء والمسهلة نقطة بالحمراء^(٢٠)، وعلامة الصلة على نية الوصل جرة حمراء فوق الألف إن كان ما قبلها مفتوحاً وتحتة إن كان مكسوراً، وفي وسطه إن كان مضموماً^(٢١)، أما على نية الابتداء فعلاقة الصلة هي نقطة بالخضراء فوق الألف إذا ابتدء بهمزة مفتوحة وأسفل منه إذا كان الإبتداء بهمزة مكسورة وأمامه إذا كان الإبتداء بهمزة مضمومة^(٢٢)، وحكم الهمزة التي تنقل حركتها وتسقط عند ورش حكم همزة الوصل^(٢٣)، ويلحق ما نقص من الهجاء من ألف أو ياء أو واو، صفرى بالحمراء في الموضع المناسب، على نحو ما ذكرنا ذلك من قبل، وعلامة الحرف المزيّد دائرة بالحمراء تجعل فوقه^(٢٤).

وإذا تأملنا نموذجاً للمصاحف المطبوعة بالخط المغربي فلن نجد اختلافاً كبيراً بالنسبة لعلامات لضبط التي ذكرها الخراز، ففي مصحف طبع في مصر تحت إشراف لجنة تصحيح المصاحف ومراجعتها في الأزهر^(٢٥)، يبدو أنه ضبط على

(١٧) انظر المارغني ص ٣٢٤ و ٣٢٥.

(١٨) نفس المصدر ص ٣٤٢.

(١٩) نفس المصدر ص ٣٥٠.

(٢٠) نفس المصدر ص ٣٦١.

(٢١) نفس المصدر ص ٣٨٦.

(٢٢) نفس المصدر ص ٣٩٠.

(٢٣) نفس المصدر ص ٣٩١.

(٢٤) نفس المصدر ص ٤٢٨.

(٢٥) طبع سنة (١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠ م) في مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة، وأعيد تصويبه سنة ١٩٧٣ من قِبَل الناشر نفسه مع رسالة (القول الأصدق في بيان ما خالف فيه الاصباهاني الأزرق) لعلي محمد الضباع.

رواية ورش عن نافع، وفي جزء من مصحف طبع بتونس^(٢٦)، نجد أن الحركات الثلاث هي العلامات التي وضعها الخليل إلا أن الضمة تكاد تكون رأسها مزالة، فهي تشبه قوساً أو هلالاً صغيراً، والتنوين علامتان تشكلايان وفقاً للحرف الذي يأتي بعد التنوين، لكن علامة التنوين مع المضموم إذا جاء بعد التنوين حرف من غير حروف الإظهار يكون على شكل قوسين صغير وكبير، وعلامة السكون دائرة مفرغة الوسط، والشدة رأس شين، وعلامة المد تكاد تكون كلمة (مد) كاملة، أما علامة الهمزة فقد جعلت رأس عين مثل ما هي عليه عند أهل المشرق، ويبدو أن عدم إمكان تحقيق نقطها بالصفرة في الطبع هو الذي دفع إلى العدول عن النقطة الصفراء إلى رأس العين، أما همزة الوصل فهي كما وصف الخراز إلا أن الجرة الحمراء والنقطة الخضراء جعلتا بنفس لون الكتابة وهو السواد، لأنها لا تلتبس بغيرها، بعد أن جعلت الهمزة المحققة رأس عين، وعلامة إمالة الفتحة قصيرة أم طويلة هي نقطة بالسواد تحت الحرف الذي تليه الفتحة، أما الحرف الزائد فعليه دائرة بالسواد تشبه دائرة السكون، وعلينا أن نتذكر أن نقط الفاء والقاف يجري في هذه المصاحف المطبوعة على نحو ما أشرنا إليه من قبل من نقط الفاء بوحدة من أسفل والقاف بوحدة من أعلى.

وقبل أن ننتهي من هذا الفصل نشير إلى ظاهرة تتعلق بمدى التزام نساخ المصاحف بصور هجاء الكلمات كما رويت عن المصاحف العثمانية، وقد لاحظنا أن المصاحف القديمة التي تعود إلى القرون الهجرية الأولى من مثل مصحف طشقند ومصحف جامع عمرو بن العاص لم تلتزم بما يروى في مصادر الرسم فحسب وإنما هي تضيف ظواهر هجائية جديدة، لكن استعمال ما اصطلاح عليه علماء العربية من الإملاء في رسم المصاحف قد بدأ يظهر منذ وقت مبكر حتى أن الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) سئل عن رأيه في كتابة المصاحف على ما أحدث الناس من الهجاء، كما مرت الإشارة إلى ذلك.

على أن بعضاً من الخطاطين ونساخ المصاحف لم يكونوا على دراية كافية

(٢٦) هو جزء (عم) طبع في الدار التونسية للنشر في تونس (د. ت).

بصور هجاء الكلمات كما جاءت في المصاحف العثمانية، لذلك نجدهم يستعملون ما تعارف عليه الناس من الهجاء في زمانهم خاصة فيما يتعلق بإثبات الألف في الكلمات التي حذفت منها، ونجد هذه الظاهرة جلية في المصحف الذي كتبه ابن البواب (ت ٤١٣ هـ) في سنة (٣٩١ هـ)، كما يظهر ذلك من الصفحات التي اطلعت عليها منه، فأكثر الكلمات التي جاءت محذوفة الألف أثبتت فيها سواء كانت جمعاً سالماً أم ألف ياء النداء أم غير ذلك، ونجد بعض الفتحات الطويلة المرسومة ياء قد رسمت بالألف، خاصة المتوسطة مثل كلمة (مأواهم)، كذلك نجد (الصلوة) مكتوبة بالألف. ونلاحظ مثل هذه الظاهرة في عامة المصاحف التي ترجع الى فترة لاحقة لعصر ابن البواب، من ذلك - مثلاً - ما نجده في مصحف كتبه في سنة (٦٩٠ هـ)^(٢٧)، الخطاط البغدادي المشهور ياقوت المستعصي (ت ٦٩٨ هـ)، حيث تظهر كافة الألفات المحذوفة ثابتة كذلك نجد كلمة الليل - مثلاً - قد كتبت بلامين.

وقد أشار أبو يحيى الشيرازي (ت ٧٨٠ هـ) في أول كتابه في الرسم العثماني الى تلك الظاهرة بقوله^(٢٨): « حتى تتبعت رسم خط الإمام وهو مصحف عثمان، ورأيت كتابته مخالفة لما يكتب في هذا الزمان، وعلمت أن الكتابة منقولة كما أن القراءة منقولة... فإذا كان كذلك أردت أن أحبي رسمه وخطه وأجمع مختصراً مما ليس فيه خلاف بين المصاحف ».

ولا شك في أن كثيراً من الكلمات حافظت على هجائها القديم في المصاحف، كما أن التأليف في موضوع الرسم لم ينقطع مما يجعل المادة قريبة من أيدي النساخ ليهتدوا بها في ما يكتبون، وجاء العصر الحديث - عصر طباعة المصاحف - وقد رأينا أول مصحف طبع كان بالاملاء الاصطلاحي، لكن المصاحف المطبوعة التي تلتزم الرسم العثماني كانت في ازدياد كما رأينا في مصحف (قران)

(٢٧) محفوظ في تركيا (أمانة رقم ٧٩) ومنه نسخة (ميكروفلم) في معهد المخطوطات العربية تحت رقم (٣) كتب ساوية.

(٢٨) كشف الأسرار لوحة (١).

ومصحف (المخلّاتي) وكان المصحف الذي أشرفت على كتابته وضبطه وطبعه لجنة من علماء الأزهر وطبع لأول مرة سنة (١٣٤٢ هـ) قد بلغ الغاية في هذا المجال.

وأصدرت لجنة الفتوى في الأزهر سنة ١٣٥٥ هـ فتوى بعدم جواز طبع المصحف الكريم بقواعد الاملاء الاصطلاحي الذي يستعمله الناس اليوم، ورأت لزوم الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه^(٢٩)، لكنها ترى أيضاً جواز التنبيه في ذيل كل صفحة على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف^(٣٠). وقد جرى على هذه الطريقة الشيخ عبد الجليل عيسى في التفسير الذي جعله على هامش المصحف الذي أشرفت على كتابته وضبطه وطبعه لجنة من علماء الأزهر - والذي أشرنا إليه قبل قليل - فقد أعطى لكل كلمة في نص المصحف جاءت على غير المشهور من قواعد الهجاء المعروفة اليوم رقماً متسلسلاً في كل صفحة وبيّن رسمها المعروف بين الناس في أسفل الصفحة، وتحققت بذلك المحافظة على الرسم العثماني والتيسير في القراءة اذا تصورنا أن أحداً يعجز عن القراءة في المصحف المكتوب بالرسم العثماني المضبوط بالعلامات التي بيّنت في المباحث السابقة.

(٢٩) انظر مجلة الأزهر المجلد السابع - الجزء العاشر شوال ١٣٥٥ (باب الأسئلة والفتاوى) ص ٧٢٩ وما بعدها.

(٣٠) انظر مجلة الأزهر المجلد العشرون صفر ١٣٦٨ ص ١٩٢.



الفصل السادس



علاقة الأداء بالرسم



الفصل السادس

علاقة الأداء بالرسم

إن الحديث عن العلاقة بين الكلام المنطوق وبين الرموز المكتوبة التي تمثله يعني بادية ذي بدء أن هناك قصوراً ما في جانب الكتابة، إذ من الخطأ أن نظن أن النص المكتوب يعتبر تمثيلاً دقيقاً للكلام، فلسنا، على عكس ما يتصور كثير من الناس، نكتب كما نتكلم، بل إننا نكتب كما يكتب غيرنا^(١)، ومن ثم فإن من غير اليسير أن نقول بأن تلك الكلمة المكتوبة تنطق على هذا النحو، وأن تلك الكلمة المنطوقة تكتب على ذلك^(٢)، وقد بيّنا مظاهر القصور التي تبدو في الأبجديات عامة في هذا المجال، والأسباب التي أدت إلى هذه الظاهرة التي برزت في فترة متأخرة عن تاريخ استعمال الكتابة في تمثيل لغة معينة لأول مرة، وأشرنا إلى أن الكتابة العربية أحسن حالاً من كثير من الكتابات في ذلك - في البحث الثالث من الفصل التمهيدي من هذا الكتاب - ونحاول في هذا الفصل دراسة علاقة القراءة بالرسم العثماني، ومدى قدرة الرسم في الدلالة على وجوه التلاوة المختلفة.

إن القضية - هنا - ذات شقين: الأول هو ما تتصف به الكتابة عامة من قصور من مثل ما لاحظناه في الرسم العثماني من عدم إثبات رموز بعض الحركات الطويلة وبعض الصوامت أو وجود رموز مكتوبة دون مقابل لفظي لها، وفي ما

(١) فندريس ص (٤٠٤-٤٠٥).

(٢) نفس المصدر ص ٤١٤.

يبدو من تمثيل بعض الأصوات برموز غير رموزها من مثل رسم الفتحة الطويلة واواً أو ياء، ورسم الهمزة بأحد رموز أصوات المد واللين الثلاثة وما الى ذلك، وهذا الجانب مجد ذاته واضح يكفي فيه أن نحقق الرواية في كيفية اللفظ ثم نسلم بالفرق الموجود بين اللفظ والرسم، على نحو ما يقول أبو الحسين بن المنادي^(٣): «إن من المكتوب ما لا تجوز به القراءة من وجه الاعراب، وإن حكمه أن يترك على ما خط، ويطلق للقارئ أن يقرأوا بغير الذي يروونه مرسوماً».

أما الشق الثاني فهو أن تعدد وجوه القراءة الذي تشير اليه رخصة الأحرف السبعة قد جعل الرسم الواحد تتوارد عليه أكثر من قراءة، لما امتاز به الرسم العثماني من خصائص، إذ إن المصاحف حين كتبت في المدينة كتبت لتمثل القراءة العامة المشهورة فيها، لكن ظروفًا معينة قد جعلت الرسم العثماني الذي كتب أساساً لتمثيل قراءة واحدة يحتمل أكثر من قراءة، ويتخذ مقياساً للقراءات المروية جميعاً، وصار كل ما خرج عن الرسم شاذاً لا تجوز القراءة به.

ولا بد أن نعرض بإيجاز اتجاهات القراءات خاصة في القرن الأول والثاني بعد الهجرة قبل أن نحاول تحديد العلاقة بين القراءات الصحيحة وغيرها وبين الرسم، ثم نبين شروط القراءة الصحيحة وكيف صارت موافقة الرسم العثماني شرطاً من تلك الشروط، ثم نعرض لوجوه المخالفة الجائزة للرسم وما يتعلق بذلك من اختلاف المصاحف العثمانية في رسم بضع كلمات، وأجدني مضطراً لأن أختم هذا الفصل بتوضيح شبهة نجمت في عقول بعض من غاب عنهم جانب من تاريخ القراءات فأخطأوا في فهم العلاقة بين القراءات والرسم.

(٣) الداني: المحكم ص ١٨٥.

المبحث الأول

تاريخ القراءات في القرون الثلاثة الأولى

إن المعرفة الصحيحة لتاريخ القراءات وبيان علاقتها بالرسم تقتضي الرجوع الى العصر الأول للدعوة الاسلامية حين تلقى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أمر السماء لأول مرة ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ١/٩٦-٥)، ثم تتبع الكيفية التي تلاها رسول الله القرآن على أسماع الناس امتثالاً لأمر الله ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة ٦٧/٥)، ثم كيف كان الصحابة يقرأونه ويقرئونه للأجيال المتتالية منذ عصر الخلافة الراشدة وما تلاها حتى ظهرت اختيارات القراء التي اقرنت شهرتها بأسماء معينة مثل قراءات السبعة أو غيرهم.

إلا أن الأمر ليس من السهولة بحيث يمكن الاحاطة بكل جوانب ذلك التاريخ، بسبب قصور الهمم في محاولات البحث عن تاريخ هذا الموضوع، خاصة أن مصادر القراءات الأولى لم يزل أكثرها مخطوطاً، وأقدم ما طبع فيها لا يرجع الى أبعد من أواخر المائة الثالثة، وهو كتاب (السبعة) القيم لابن مجاهد (٥٣٢٤هـ) وقد لا يكون هناك أقدم منه قد بقي من المؤلفات الأساسية الأولى في القراءات من مثل كتاب أبي عبيد وأبي حاتم وابن جرير الطبري وغيرها من المؤلفات التي يرجع أقدمها الى أواخر القرن الهجري الأول.

وليس الهدف هنا تفصيل ذلك التاريخ أو استقصاء كل ما تقدمه المصادر

المتاحة في هذا المجال، إذ إن ذلك يحتاج الى مكان أوسع مما تسمح به طبيعة هذا البحث، وإنما اكتفي بما يحقق القصد الذي أشرت اليه وهو معرفة العلاقة بين القراءات وبين الرسم العثماني، وما سأذكره إنما هو نتيجة للمعلومات التي توصلت إليها ولا أدري ما ستكون عليه صورة ذلك العرض إذا ما توفرت روايات وأخبار جديدة تؤيد أو تصحح ما سأذكره، ولست بواقف عند رأي يظهر خطؤه ولا معرض عن رأي جديد تظهر صحته إن شاء الله.

أولاً: قراءة القرآن في حياة النبي وفترة الخلافة الراشدة:

إن بداية ذلك التاريخ مرتبط ببداية نزول الوحي على رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - وتلاوته القرآن على الناس بمكة، فكانت تلاوة القرآن أولى وسائل الدعوة التي كان يلقي بها النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - الناس في المواسم، فكان يدعوهم ويقرأ عليهم القرآن^(١)، وكان الداخلون في الإسلام يقرأون القرآن أو يُتلى عليهم لمعرفة أركان الإسلام ومتطلبات الايمان من جانب، ويتلونه للتعبد من جانب آخر^(٢)، وكان رسول الله يحثهم على ذلك بمثل قوله: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الابل في عقلها»^(٣)، أو مثل قوله الذي ورد في حديث عثمان «أفضلكم (وفي لفظ خيركم) من تعلم القرآن وعلمه»^(٤).

وقد كان النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - يوجه الصحابة الذين أتقنوا القرآن عنه أن يقرئوا الداخلين في الإسلام، إذ لم يكن يجد الفرصة دائماً ليتلو هو على

(١) انظر مثلاً: ابن هشام ق ١ ص ٤٣٣.

(٢) روى الحاكم (المستدرک ج ١ ص ٥٥٥) حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه (.. أتله فان الله يأجرکم على تلاوته كل حرف عشر حسنات، أما أني لا أقول ألم حرف ولكن الف لام ميم) وقال عنه صحيح الإسناد.

(٣) مسلم ج ١ ص ٥٤٥.

(٤) البنا الساعاتي ج ١٨ ص ٥ ونخرجه ثمة، وانظر أيضاً أبو حيان: البحر المحيط مج ١

كل المسلمين خاصة بعد أن كثروا، فقد أرسل مصعب بن عمير الى المدينة بعد بيعه العقبة قبل الهجرة: « وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمّى المقرئ بالمدينة، مصعب »^(٥)، وإذا دخل رجل في الإسلام دفعه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الى الصحابة، وقال لهم « فقهوا أحكام في دينه، وأقرئوه وعلموه القرآن .. »^(٦)، ولعل مما يصور جانباً من ذلك الحرص على أن يتعلم كل مسلم القرآن حديث الصحابي عبادة بن الصامت، قال^(٧): « كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَشْغَلُ، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دفعه الى رجل منا، يعلمه القرآن، فدفع إليّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رجلاً، وكان معي في البيت، أعشيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن فأنصرف انصرافاً الى أهله، فرأى أن عليه حقاً، فأهدى إليّ قوساً لم أر أجود منه عوداً ولا أحسن منه عطقاً، فأتيت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقلت ما ترى يا رسول الله فيها؟ قال جرة بين كنفيك تقلدتها أو تعلقتها^(٨) ».

- (٥) ابن هشام: ق ١ ص ٤٣٤، وانظر علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ٦ أ.
- (٦) الطبري: التاريخ ج ٢ ص ٢٧٤. وقد قال علم الدين السخاوي (الوسيلة ورقة ٦ أ) « كان صلى الله عليه وسلم إذا أسلم الرجل أمره بقراءة القرآن قبل كل شيء ».
- (٧) البنا الساعاتي: ج ١٨ ص ٩، وذكر تحريجه: « أبو داود في سننه وابن ماجه، والحاكم في المستدرک، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (البخاري ومسلم) وأقره الذهبي ».
- (٨) كان من أخلاق القراء الا يأخذوا على تعليم القرآن شيئاً، فيذكر ابن سعد (مج ٦ ص ١٧٣ وانظر الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٤٧) أن ابا عبد الرحمن السلمي (ت ٧٣ وقيل ٧٤ هـ) « جاء وفي الدار جلال وجزر، قالوا: بمث بهذا عمرو بن حريث، أنك علمت ابنه القرآن، قال: ردّها، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً »، ويروي عن حمزة الزيات أنه ختم عليه القرآن رجل من مشاهير حلوان فبعث إليه بألف درهم فقال لابنه: « قد كنت أظن لك عقلاً، أنا آخذ على القرآن أجراً؟ أرجو على هذا الفردوس ». (انظر الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٩٤)

وتضع هذه الروايات اللبنة الأولى في مجال قراءة القرآن، وتصدق قول علم الدين السخاوي « ولم يزل المسلمون يدينون بتلاوة القرآن، ويرون ذلك من أفضل الأعمال في أول الإسلام وهم جراً (٩) ».

وكان قارئ القرآن يُقدّم في كثير من مجالات الحياة، فقد روي عن ابن عمر أن سالماً مولى أبي حذيفة، كان يؤم المهاجرين بقاء فيهم عمر بن الخطاب وأبو سلمة قبل أن يقدم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لأنه كان أقرأهم وأكثرهم قرآناً (١٠)، وحين دفن المسلمون شهداء أحد كان في القبر الواحد الاثنان والثلاثة، وقال لهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « قَدُّمُوا أَكْثَرَهُمْ قَرَأَنَا » (١١)، وكان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد امتدح بعض الصحابة لحسن قراءتهم مثل أبي موسى الأشعري (١٢)، وأبي بن كعب (١٣)، وابن مسعود (١٤)، وكان عدد من الصحابة قد حفظوا القرآن في حياة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذكرت أسماء بعضهم في فصل سابق (١٥).

وكانت طريقة قراءة القرآن في هذه الفترة تشير الى حرص كبير على الاتقان

(٩) الوسيلة ورقة ٦ أ.

(١٠) ابن سعد مج ٣ ص ٨٥، وانظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ١ ص (١٢١-١٢٢).

(١١) أبو عبيد فضائل القرآن لوحة ٧. وانظر في تقديم القارئ أيضاً: ابن سعد مج ٧ ص ٢٣٥.

(١٢) انظر ابن سعد مج ٤ ص ١٠٧ و ١٠٩.

(١٣) نفس المصدر مج ٣ ص ٤٩٩.

(١٤) البخاري ج ٦ ص ٢٢٩.

(١٥) انظر الفصل الثاني، المبحث الثاني ص ١٢١، وانظر الى جانب المصادر المذكورة هناك: أبو عبيد فضائل القرآن لوحة ٥٣، والبنا الساعاتي ج ١٨ ص ٢٢، وابن النديم ص ٢٧، والذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٣٩، وسير أعلام النبلاء (له) ج ١ ص ٢٤٢ وج ٢ ص ٢٤٥، وطاش كبري زاده ج ١ ص ٣٤٨، ومحمد بنجيت المطيعي ص (٣-٤).

وتحري الدقة والضبط، فقد كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث^(١٦)، ولعل هذا بعد اكتمال نزول القرآن. وكان أبي بن كعب يحتم القرآن في ثمان ليال، وكان تميم الداري يحتمه في سبع^(١٧)، وسئلت أم سلمة - رضي الله عنها - عن قراءة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فوصفت حرفاً حرفاً، وسئل أنس بن مالك عنها فقال: كان يد صوته مدّاً^(١٨).

وتشير طريقة تلقي الصحابة للقرآن من النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الى تلك المعاني من الحرص على الاتقان وتحري الدقة والضبط، فقد روي عن أبي عبد الرحمن السلمي حديثاً مشهوراً يبين فيه تلك الطريقة، قال ابن مجاهد^(١٩): «وحدثونا عن يحيى بن أبي كثير، عن عطاء بن السائب قال: أخبرني أبو عبد الرحمن، قال: حدثني الذين كانوا يقرئوننا: عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب - رضي الله عنهم - أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها الى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل فتعلموا القرآن والعمل جميعاً»، والعشر المذكورة في هذه الرواية يقصد بها عشر آيات كما توضح ذلك روايات المصادر الأخرى لهذا الخبر^(٢٠).

وقد مر في فصل سبق أن قراءة القرآن في حياة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كانت تتم في ظلال رخصة الأحرف السبعة، حتى أن بعض الصحابة أنكروا قراءات سمعها، لكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صوّب الجميع بقوله «إن هذا

(١٦) ابن سعد مج ١ ص ٣٧٦.

(١٧) نفس المصدر مج ٣ ص ٥٠٠.

(١٨) نفس المصدر مج ١ ص ٣٧٦.

(١٩) كتاب السبعة ص ٦٩.

(٢٠) انظر تلك الروايات ابن سعد مج ٦ ص ١٧٢ والبنا الساعاتي ج ١٨ ص ٩ والحاكم ج ١ ص ٥٥٧، والذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٤٦ و٤٨ وسير أعلام النبلاء (له) ج ١ ص ٣٥٠.

القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه أو منها». وقصة عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم وغيرها مشهورة.

وفي عهد الخلافة الراشدة ازدادت الحاجة الى تعليم القرآن لكثرة من دخل في الإسلام من العرب وغيرهم من الأمم، وقد تم في هذه الفترة جمع القرآن في خلافة الصديق بين اللوحين، ثم توحيد المصاحف في خلافة عثمان، ويبدو أن تعليم القرآن لم يكن متروكاً للجهود الفردية، بل كان منظماً وخاضعاً لرقابة الولاة في الأمصار الإسلامية فقد كتب يزيد بن أبي سفيان - أحد قادة الجيوش الإسلامية التي فتحت الشام وأحد ولائها - الى عمر بن الخطاب أيام خلافته: إن أهل الشام قد كثروا وملأوا المدائن، واحتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم، فوجه اليه معاذ بن جبل وعبادة ابن الصامت، وأبا الدرداء، وقال لهم: ابدأوا بجمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة، منهم من يلحن فإذا رأيت ذلك فوجهوا اليه طائفة من الناس فإذا رضيت منهم فليقم بها واحد، وليخرج واحد الى دمشق والآخر الى فلسطين، وقدموا حص فكانوا بها حتى اذا رضوا من الناس أقام بها عبادة وخرج أبو الدرداء الى دمشق ومعاذ الى فلسطين، اما معاذ فمات عام طاعون عمواس، وأما عبادة فصار بعد الى فلسطين فمات بها، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات. رضي الله عنهم^(٢١).

وعلى هذا النحو الذي تصوره الرواية بدأت تنشأ مدارس القراءة في الأمصار الإسلامية حين راح الصحابة يعلمون الناس في الأمصار التي نزلوا فيها ويقرئونهم القرآن على النحو الذي حفظوه، وهو حفظ لا يخلو من وجوه رخصة الأحرف السبعة، وقد أدى ذلك بمضي الزمن الى تفاقم الخلاف والتراجع في القرآن، مما دفع الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه الى توحيد المصاحف وبثها في الأمصار الإسلامية قطعاً للخلاف وحفاظاً على نص القرآن.

(٢١) ابن سعد مج ٢ ص ٣٥٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٤٨، نقل الرواية عن محمد بن كعب القرظي (ت ١٠٨ وقيل بعد ذلك).

ويبدو أنه كما كان الهدف توحيد المصاحف كان أيضاً توحيد القراءة في الأمصار، وقد أورد الجعبري عن أبي علي أنه قال: أمر عثمان زيد بن ثابت (ت ٤٥٥ هـ على الأكثر) أن يقرء بالمدني، وبعث عبد الله بن السائب (ت في حدود ٥٧٠ هـ) مع المكي، والمغيرة بن شهاب مع الشامي (ت ٩١ هـ). وأبا عبد الرحمن السلمي (ت ٧٣ وقيل ٧٤ هـ) مع الكوفي. وعامر بن عبد قيس مع البصري^(٢٢)، لكن ذلك لم يجل - على ما يبدو - دون استمرار رواية القراءات المتعددة، خاصة ان ابن أبي داود يذكر أن عثمان - رضي الله عنه - قد قال للذين أنكروا عليه تحريق المصاحف المخالفة وأمرهم بالقراءة بما كتب: إقرأوا كيف شئتم، إنما فعلت ذلك لئلا تختلفوا^(٢٣)، لكن هجاء الكلمات في المصاحف ظلت كما رسمت في المصاحف العثمانية، وقرأ الناس بما رووه وتعلموه من الصحابة الذين نزلوا بين أظهرهم، ولا شك أن بعضاً من تلك الروايات كان خارجاً عن رسم المصحف، ولكن تلك الروايات قل نقلها واعتمد الناس تدريجياً نقل الروايات التي لا تخرج عن الرسم.

وفي فترة الخلافة الراشدة برزت مدارس القراءة وترسخت آداب تعلم

(٢٢) خيلة أرباب المرصد ورقة ٦٧ ب، ولا أدري من هو أبو علي المذكور، وأورد هذا الخبر المارغني (ص ١٧) ربما نقله عن ابن عاشر الأنصاري، لكنه ذكر عامر بن قيس بدل عبد قيس، وذكر ابن الجزري (غاية النهاية ج ٢ ص ٣٠٥) أن الصواب في اسم المغيرة هو (المغيرة بن أبي شهاب) وذكر أن أبا عبيد سماء (المغيرة بن شهاب) وقال إنه وهم في ذلك (انظر علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٤٩ ب) لكن الذهبي ذكره باسم (ابن شهاب) أيضاً (معرفة القراء ج ١ ص ٤٣) أما عامر بن عبد قيس فقد قال عنه أبو عبيد في كتابه القراءات (انظر علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٤٩ ب) وهو يتحدث عن التابعين من القراء: (ومن أهل البصرة عامر بن عبد الله وهو الذي يعرف بابن عبد قيس، كان يقرء الناس). لكن الذي ورد في غاية النهاية لابن الجزري من وصفه بالمصري (ج ١ ص ٣٥٠) يبدو أنه تحريف فات محقق الكتاب.

(٢٣) المصاحف ص ٣٦ وانظر علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ٨٤ أ.

القرآن وقراءته فقد كان أبو الدرداء (ت ٣٢ هـ) قاضي دمشق وسيد القراء فيها^(٢٤)، يجعل الناس حين يجتمعون عليه بعد صلاة الغداة للقراءة عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفاً أو ملقناً، حتى بلغ عدد الذين يقرأون القرآن عنده أزيد من ألف رجل^(٢٥)، وهو قد يقف في المحراب يرمقهم ببصره وقد يطوف عليهم قائماً، فإذا أحكم الرجل منهم تحول الى أبي الدرداء يعرض عليه، وكان ابن عامر عريفاً على عشرة، فلما مات أبو الدرداء خلفه ابن عامر^(٢٦)، وكان أبو الدرداء هو الذي سن الحلق للقراءة^(٢٧)، وكان أبو موسى الأشعري يعلم الناس القرآن في مسجد البصرة، يجلسون اليه حلقاً حلقاً^(٢٨)، وكان يعلم القرآن خمس آيات خمس آيات^(٢٩)، كذلك كان أبو عبد الرحمن السلمي يقرئ عشرين آية بالغداة وعشرين آية بالعشي، ويخبرهم بموضع العشر والخمس، ويقرئ خمس آيات خمس آيات^(٣٠)، وكان يحيى بن وثاب (ت ١٠٣ هـ بالكوفة) قد تعلم القرآن من عبيد بن نضيلة (ت ٧٥ هـ) آية آية^(٣١)، وكان أبو جعفر المدني وشيبة بن نصاح يقرآن على كل رجل عشر آيات عشر آيات^(٣٢).

-
- (٢٤) الذهبي سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٤١ .
- (٢٥) كان كافة المسلمين يحرصون على تعلم القرآن وقراءته يدل على ذلك ما ذكره ابن الجزري (منجد المقرئين ص ٨) أن حمزة كان يقدم الفقهاء من طلبة العلم وأن أبا عبد الرحمن السلمي وعاصماً كانا يبدآن، بأهل السوق لئلا يحتسبوا عن معاشهم .
- (٢٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٥٤-٤٥٥ ومعرفة القراء (له) ج ١ ص ٣٨ .
- (٢٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٤٩ .
- (٢٨) الحاكم ج ٢ ص ٢٢٠ .
- (٢٩) ابن الجزري غاية النهاية ج ١ ص ٦٠٤ .
- (٣٠) ابن سعد مج ٦ ص ١٧٢، والذهبي معرفة القراء ج ١ ص ٤٦ .
- (٣١) ابن سعد مج ٦ ص ٢٩٩ وانظر الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٥١ وابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٣٨٠ .
- (٣٢) انظر ابن الجزري غاية النهاية ج ١ ص ٦١٦ .

ويبدو أن القراءة العامة التي كتب عليها المصحف العثماني لم تزل متميزة عن غيرها طوال القرن الأول، وكانت القراءات الأخرى لا تزال متميزة، وقد كانت الكوفة من أكثر الأمصار الإسلامية التي شهدت تنافساً شديداً بين القراءات، فقد كانت قراءة الكوفيين هي قراءة عبد الله بن مسعود الذي أرسله عمر الى الكوفة ليعلمهم، فأخذت عنه قراءته ونقلها عنه أصحابه^(٣٣)، قال ابن مجاهد: ولم تزل قراءة عبد الله بالكوفة لا يعرف الناس غيرها، وأول من قرأ بالكوفة القراءة التي جمع عثمان - رضي الله عنه - الناس عليها أبو عبد الرحمن السلمي واسمه عبد الله بن حبيب، فجلس في المسجد الأعظم ونصب نفسه لتعليم الناس القرآن، ولم يزل يقرئ بها أربعين سنة^(٣٤)، وذكر صاحب كتاب المباني في مقدمته أن السلمي أقام على زيد بن ثابت ثلاث عشرة سنة يقرأ عليه القرآن^(٣٥)، وكان قد أخذ القراءة إضافة الى زيد عن عثمان وابن مسعود وأبي، وقرأ على عليّ وقرأ عليه وهو يسك المصحف^(٣٦).

ولم تحتف قراءة ابن مسعود من الكوفة بسهولة - رغم إقامة أبي عبد الرحمن السلمي الطويلة فيها - فقد كان له تلامذة حملوا عنه قراءته^(٣٧)، وقد روى ابن مجاهد بسند الى الأعمش أنه قال «أدركت الكوفة وما قراءة زيد فيهم الا قراءة عبد الله فيكم اليوم، ما يقرؤها إلا الرجل والرجلان^(٣٨)»، وينقل

(٣٣) انظر علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٥٣ ب.

(٣٤) كتاب السبعة ص ٦٨ وانظر علم الدين السخاوي المصدر السابق وابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٤١٣.

(٣٥) انظر ص ٢٥.

(٣٦) علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٥٣ ب وانظر الذهبي سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣١٦ وابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٤١٣.

(٣٧) أبو عبيد فضائل القرآن لوحة ٥٣. وانظر ابن الجزري ج ١ ص ٤٥٨.

(٣٨) كتاب السبعة ص ٦٧.

الذهبي ان سعيد بن جبير (ت ٩٤ وقيل ٩٥ هـ) كان يؤم الناس في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت^(٣٩).

وهناك ما يشير الى أن قراءة ابن مسعود بما وافق خط المصحف رواها القراء ضمن قراءاتهم، فقد قال عاصم بن أبي النجود (ت ١٢٩ هـ)^(٤٠): ما أقرأني أحد حرفاً إلا أبو عبد الرحمن السلمي وكان قد قرأ على عليّ - رضي الله عنه - وكنت أرجع من عند أبي عبد الرحمن فأعرض على زر بن حبيش، وكان زر قد قرأ على عبد الله بن مسعود. ويذكر ابن قتيبة أن بين روايتي ابي بكر بن عياش وأبي عمر حفص بن سليمان عن عاصم اختلافاً في حروف كثيرة^(٤١)، ونجد تعليلاً لهذا الاختلاف في قول عاصم نفسه لحفص^(٤٢): القراءة التي أقرأتك بها فهي التي قرأتها عرضاً على أبي عبد الرحمن السلمي عن علي، والتي أقرأتها أبا بكر بن عياش فهي التي كنت أعرضها على زر بن حبيش عن ابن مسعود.

ثانياً: الاختيار وأثره في القراءات:

كان المصحف العثماني قد كتب على قراءة واحدة - كما بيننا ذلك في المبحث الثالث من الفصل الثاني - وخطه محتمل لأكثر من قراءة اذ لم يكن منقوطةً ولا مضبوطةً^(٤٣)، وبعد أن أرسلت المصاحف العثمانية الى الأمصار «قرأ أهل كل مصر من قراءتهم التي كانوا عليها بما يوافق خط المصحف، وتركوا من قراءتهم

(٣٩) الذهبي معرفة القراء ج ١ ص ٥٧ وانظر ابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٣٠٥.

(٤٠) ابن مجاهد ص ٧٠.

(٤١) المعارف ص ٢٣١، قال ابن مجاهد (ابن الجزري غاية النهاية ج ١ ص ٢٥٤): بين حفص وأبي بكر من الخلاف في الحروف خمس مائة وعشرين حرفاً في المشهور عنها.

(٤٢) ياقوت: معجم الأدباء ج ١ ص ٢١٦ وابن الجزري غاية النهاية ج ١ ص ٢٥٤.

(٤٣) انظر مكّي: الإبانة ص ٤.

ما خالف خط المصحف^(٤٤)، ويبدو أن الذين أرسلهم عثمان مع المصاحف لم يحاولوا حمل الناس على القراءة التي يقرأونها، وقد قال أبو طاهر بن أبي هاشم (ت ٣٤٩ هـ) تلميذ ابن مجاهد^(٤٥):

« إن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التي وجهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل، قال: فثبت أهل كل ناحية على ما كان تلقوه سماعاً عن الصحابة بشرط موافقة الخط وتركوا ما يخالف الخط، امتثالاً لأمر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة لما رأوا في ذلك من الاحتياط للقرآن ».

وإذا كان المصحف العثماني قد كتب على قراءة بعينها فلماذا لا نجدها متمثلة بقراءة قارئ أو مصر من الأمصار اذن؟ يمكن القول بناء على ما تقدم إن قراءة أهل المدينة كانت في القرن الهجري الأول أقرب الى أن تكون تلك القراءة، وهي التي كانت تعرف بقراءة العامة^(٤٦)، وقراءة الجماعة^(٤٧)، ويبدو أن معالم تلك القراءة أخذت تختفي شيئاً فشيئاً، لأن أئمة القراءة كانوا قد قرأوا على شيوخ كثيرين، فكانوا ينتخبون من قراءات أولئك الشيوخ قراءة يستمرون عليها، وقد حدثت هذه الظاهرة منذ وقت مبكر، فينقل ابن الجزري أن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) « كان يقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت الا ثمانية عشر حرفاً أخذها من قراءة ابن مسعود^(٤٨) ».

وقد عرفت ظاهرة تأليف قارئ قراءة من مروياته عن أكثر من شيخ

(٤٤) انظر مكّي: الإبانة ص ٢٩.

(٤٥) ابن حجر: فتح الباري ج ١٠ ص ٤٠٦، وانظر مكّي: الإبانة ص (١٤-١٥).

(٤٦) انظر الزركشي ج ١ ص ٢٣٧.

(٤٧) أبو بكر الباقلاني ص ٤١٧.

(٤٨) غاية النهاية ج ١ ص ٤٢٦.

بالاختيار، فكان أئمة الإقراء في القرون الأولى ينتخبون قراءة من مجموع ما يرونه عن شيوخهم، وكان نافع بن أبي نعيم (ت ١٦٩ هـ) إمام أهل المدينة يقول: قرأت على سبعين من التابعين، « فنظرت الى ما اجتمع عليه اثنان منهم فأخذته، وما شد فيه واحد تركته، حتى ألّفت هذه القراءة من هذه الحروف »^(٤٩)، ويروى أن نافعاً قال « تركت من قراءة أبي جعفر سبعين حرفاً »^(٥٠)، وأبو جعفر هو يزيد ابن القعقاع من أكبر شيوخ نافع.

وهناك أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة، فعليّ بن حمزة الكسائي قرأ على حمزة وهو يخالفه في نحو ثلاث مائة حرف^(٥١)، لأنه كان يتخير القراءات فأخذ من قراءة حمزة ببعض وترك بعضاً^(٥٢)، قال ابن النديم: وكان الكسائي من قراء مدينة السلام، وكان أولاً يقرئ الناس بقراءة حمزة ثم اختار لنفسه قراءة فاقراً الناس في خلافة هارون^(٥٣) وقال عنه الأزهري واختياراته في حروف القرآن حسنة^(٥٤)، وكذلك قرأ أبو عمرو بن العلاء على ابن كثير، وهو يخالفه في حروف كثيرة لأنه قرأ على غيره، واختار من قراءته ومن قراءة غير قراءة^(٥٥)، وكان لكثير من علماء القراءات اختيار في القراءة، فلأبي عبيد اختيار في القراءة وافق فيه العربية والأثر^(٥٦)، ولأبي حاتم السجستاني اختيار لم يخالف مشهور

(٤٩) ابن مجاهد ص ٦٢، ومكي: الإبانة ص ١٧.

(٥٠) الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٩١.

(٥١) مكي: الإبانة ص ١٧.

(٥٢) ابن مجاهد ص ٧٨ وياقوت: معجم الأدباء ج ١٣ ص ١٦٨، وعلم الدين السخاوي:

جمال القراء ورقسة ١٥٠ أ. والذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ١٠١ وابن الجزري:

غاية النهاية ج ١ ص ٥٣٨.

(٥٣) الفهرست ص ٣٠.

(٥٤) تهذيب اللغة ج ١ ص ١٧.

(٥٥) مكي: الإبانة ص ١٧.

(٥٦) ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ١٨.

السبعة إلا في حرف واحد^(٥٧)، وكذلك ليحيى بن المبارك اليزيدي اختيار خالف فيه أبا عمرو في حروف يسيرة^(٥٨)، واختيارات القراء أكثر من أن نحصرها هنا، وقد كان لكثير من القراء اختيران أو أكثر^(٥٩).

ويقول أبو عمرو الداني إن معنى إضافة ما أنزل الله تعالى إلى من أضيف إليه من الصحابة كأبي وعبد الله وزيد وغيرهم من قبَل أنه كان أضبط له وأكثر قراءة واقراء به، وملازمة له وميلا إليه، لا غير ذلك، وكذا إضافة أن ذلك القارئ وذلك الامام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة وآثره على غيره وداوم عليه ولزمه حتى اشتهر به وعرف به وقصد فيه وأخذ عنه، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء، وهذه الاضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد^(٦٠).

ولم تستمر ظاهرة الاختيار طويلا فقد وجد الأئمة بعد فترة أن تكاثر اختيارات الأئمة بلغ حداً يحتاج إلى جهود كبيرة، ورأوا أن يقصروا نشاطهم على ضبط الرواية عن تقدمهم. ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه الجديد أبو بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) شيخ الصنعة الذي قال عنه ابن الجزري^(٦١): «وبعد صيته واشتهر أمره وفاق نظراءه مع الدين والحفظ والخير، ولا أعلم أحداً من شيوخ القراءات أكثر تلاميذ منه»، وقد كان من اليسير على ابن مجاهد أن يختار له قراءة يحملها عنه تلاميذه، لكنه لم يفعل ذلك وأبى حين طلب منه، على نحو ما ينقل تلميذه أبو طاهر بن أبي هاشم (ت ٣٤٩ هـ) حين يقول^(٦٢): «سأل رجل ابن

(٥٧) ابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٣٢٠.

(٥٨) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٧٦.

(٥٩) القرطبي ج ١ ص ٤٦ والزرکشي ج ١ ص ٢٢٧.

(٦٠) جامع البيان ورقة ٩ ب وانظر ابن الجزري: النشرح ج ١ ص ٥٢.

(٦١) غاية النهاية ج ١ ص ١٤٢.

(٦٢) الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٢١٧.

مجاهد لم لا يختار الشيخ لنفسه حرفاً يحمل عليه؟ فقال: نحن أحوج الى أن نعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه ائمتنا، أحوج منا الى اختيار حرف يقرأ به من بعدنا .

وإذا كان أبو بكر بن مجاهد قد امتنع أن يختار حرفاً ينسب اليه فانه قد عمل على حفظ اختيارات أئمة القراءة، فاختر من كل مصر من الأمصار قراءة قارئ اشتهر بالحفظ والأمانة، وأطبق عليه أهل بلده، فعمل من ذلك كتاب السبعة وقد كان لعمل ابن مجاهد هذا أثره في تاريخ القراءات الى اليوم، على نحو ما سنشير الى ذلك بعد قليل.

وتدفع ظاهرة الاختيار الى البحث عن المسوغات التي تجعل قارئاً ما يرجح قراءة معينة من مروياته عن شيوخه، فالذين اختاروا من القراء إنما قرأوا لجماعة وبروايات، فاختر كل واحد مما قرأ وروى قراءة تنسب اليه بلفظ الاختيار^(٦٣)، فالاختيار لا يكون إلا ما رواه الأئمة، وقد كان عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ) عالماً بالنحو غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق العامة ويستنكرها الناس لذلك^(٦٤)، ولعل أهم تلك المسوغات بعد ثبوت الرواية هو موافقة خط المصاحف العثمانية، خاصة بعد أن صارت هي معتمد الأمة، فما كان مخالفاً للخط خارجاً عليه قلّت روايته واتجه أئمة القراء الى رواية ما وافق الخط والاختيار منه، يروي ابن مجاهد أن الكسائي قال: السين في (الصراط) أسير في كلام العرب، ولكن أقرأ بالصاد اتبع الكتاب، الكتاب بالصاد^(٦٥)، والمقصود بالكتاب هنا خط المصحف، وقد جاءت كلمة (سل) في قوله تعالى ﴿وَسَلِّ الْقُرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (يوسف ٨٢/١٢) بالهمز وتركه، لكن يحيى بن زياد الفراء يرجح قراءة ترك الهمز، فيقول: «ولست أستهي ذلك، لأنها

(٦٣) مكى: الإبانة ص ٤٩ .

(٦٤) علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٥٠ ب .

(٦٥) كتاب السبعة ص ١٠٧ .

لو كانت مهموزة لكتبت فيها الألف كما كتبوها في قوله ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ (طه ٧٧/٢٠) و﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾ يس ١٣/٣٦) بالألف»^(٦٦)، وقال أبو عبيد في الوقف على (الظنوننا - الرسولا - السيللا): «اختياري تعهد الوقف على هذه الحروف الثلاثة، وان يسكت عليها بالألف، ليوافق خط المصحف، ولا يخرج بها عن مذهب من مذاهب العرب، ولغة من لغاتهم»^(٦٧) وردد العلماء هذا المعنى كثيراً^(٦٨)، حتى قال مكّي: إنك تنظر ما يوافق الخط فتؤثره على الآخر^(٦٩).

وبعد أن انتشر النحو ودرسه القراء صار أداة في أيديهم للترجيح بين القراءات المروية التي توافق الخط في الاختيار، فقد كان الغالب على الكسائي اللغات والعلل والاعراب^(٧٠)، وكان قد قرأ على حمزة الزيات ثم اختار لنفسه قراءة غير خارجة عما قرأ به السلف، وكان ورش عثمان بن سعيد (ت ١٩٧ هـ) قد أخذ القراءة عن نافع إمام المدينة ثم اشتغل بالعربية ومهر فيها^(٧١)، و«لما تعمق في النحو اتخذ لنفسه مقراً يسمى مقراً ورش»^(٧٢)، ونجد روايات كثيرة تشير الى ترجيح بعض الروايات على بعض استناداً الى القواعد التي قعدها علماء العربية^(٧٣)، لكن الاستعانة بالنحو لم تدفع أحداً من القراء الى الخروج عن

(٦٦) معاني القرآن ج ١ ص ١٢٤. وانظر أيضاً ج ٢ ص ٣٥ و ١٨٣.

(٦٧) مقدمة كتاب المباني ص ١٦٥.

(٦٨) انظر: أبو بكر الأنباري ج ١ ص ١٠٨، والزخشي: الكشاف ج ٢ ص ٣٦٤.

(٦٩) الكشاف ج ١ ص ١١٣.

(٧٠) الأزهري ج ١ ص ١٧.

(٧١) ابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٥٠٢.

(٧٢) الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ١٥٠.

(٧٣) انظر القراء: معاني القرآن ج ١ ص ٤٢ وج ٢ ص ٣٨٥ و ٤٠٧، وانظر أيضاً أبو

بكر الأنباري ج ١ ص ٢٤٠.

روايات الأئمة، وإذا حدث ذلك أنكره علماء القراءة والناس، ولم يقرأوا به كما
مر مع عيسى بن عمر الثقفي، وكما سنلاحظ ما حدث لابن مقسم بعد قليل (٧٤).

(٧٤) سبق أن أوردنا الحديث الشريف الذي جاء فيه (اتلوه فإن الله يأجرم على تلاوته
كل حرف عشر حسنات) وقد انعكس هذا المعنى على اختيارات القراءة الأول فقد
روى حفص عن عاصم أنه كان لا يهزم (هزوا وكفوا) ويقول: أكره أن تذهب مني
عشر حسنات بحرف أدعه إذا همزته، وذكر عاصم أن أبا عبد الرحمن السلمي كان
يقول ذلك (انظر ابن مجاهد ص ١٥٩) وكأنا غاب عنها أن الهمزة حرف يجزئ محل
الواو، وربما فهم أن المقصود بالحرف هو المرسوم، وقد أشار الزجاج (إعراب
القرآن ومعانيه، تحقيق هدى محمود قراعة، رسالة دكتوراه، مقدمة الى كلية الآداب
بجامعة القاهرة ١٩٧٥، ومنها نسخة بمكتبة الجامعة) الى ذلك المعنى وهو يتحدث
عن إثبات الياء وحذفها من قوله تعالى (البقرة ٢/٤٠) (نعمتي التي) فقال (ص ٨٥)
«والاختيار إثبات الياء وفتحها، لأنه أقوى في العربية، وأجزل في اللفظ، وأتم
للثواب، لأن القارئ يجازى على كل ما يقرؤه من كتاب الله بكل حرف حسنة».

هذا يستلزم أن يحمل عليه الأضحية (١٣٣) العلم -

المبحث الثاني

مُوافقة الرَّسْمِ أَحَدَ أَرْكَانِ الْقِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ

إن ظاهرة الاختيار والعوامل التي أسهمت في توجيهها في إطار ما وافق خط المصحف تنقلنا إلى الكلام عن الضوابط التي اشترطها علماء القراءة، في أية قراءة، لكي تكون مقبولة تصح روايتها، وكيف صارت موافقة الخط الأساس الأول لقبول القراءات المروية أو تركها، ولا شك أن القراءة إذا لم تنقل وتصح روايتها لا تسمى قراءة سواء وافقت الرسم أم خالفته «بل مكذوبة يكفر معتمداها»^(١). وبعد نسخ المصاحف العثمانية ونشرها في الأمصار تركت القراءة بما خالفها من حروف. وهكذا صارت صحة الرواية وموافقة الخط أهم شرطين لقبول القراءة، وقد لاحظنا من قبل أن من مسوغات الاختيار بين القراءات المروية الموافقة للرسم قوة الوجه في العربية، فصارت هذه الأركان الثلاثة شرطاً لقبول القراءة وصحة روايتها وميز العلماء بين ما توافرت فيه هذه الضوابط من القراءات وما عداها.

وأركان القراءة الصحيحة الثلاثة لم تكن من صنع المتأخرين، بل وجدت من يوم تلقى الصحابة - رضوان الله عليهم - القرآن الكريم عن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - ومن يوم خطت المصاحف العثمانية وأرسلت إلى الأمصار، وكان هذان المقياسان - صحة الرواية وموافقة الخط - يعملان في توجيه نقل القراءات منذ زمن مبكر قبل أن يبدأ التأليف وتدوين القراءات في الكتب،

(١) ابن الجزري: منجد المقرئين ص ١٧ وانظر أيضاً ص ١٨.

وقبل أن ينظر علماء العربية في اللغة، ويقعدوا قواعدها، وربما برزت بشكل منظم مع بداية التأليف في القراءات التي لا تخرج عن خط المصحف، وينقل أبو بكر الأنباري أن أبا عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) قد بين اختياره في الوقف على ما رسمت فيه هاء السكت بقوله^(٢): «الاختيار عندي في هذا الباب كله الوقوف عليها بالهاء بالتمعد لذلك، لأنها إن أدمجت في القراءة مع إثبات الهاء كان خروجاً من كلام العرب، وإن حذفت في الوصل كان خلاف الكتاب، فإذا صار قارئها إلى السكت عندها على ثبوت الهاءات اجتمعت له المعاني الثلاثة:

من أن يكون مصيباً في العربية

وموافقاً للخط

وغير خارج من قراءة القراء.»

وأشار أبو عبيد إلى هذه الضوابط الثلاثة أيضاً في كتابه فضائل القرآن بقوله^(٣): «وإنما نرى القراء عرضوا على أهل المعرفة بها ثم تسكوا بما علموا منها مخافة أن يرفعوا عن ما بين اللوحين بزيادة أو نقصان، وهذا تركوا سائر القراءات التي تخالف الكتاب، ولم يلتفتوا إلى مذاهب العربية فيها، إذا خالف ذلك خط المصحف وإن كانت العربية فيه أظهر بياناً، ورأوا تتبع حروف المصاحف وحفظها عندهم كالسنة القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعدها.»

وأكثر العلماء بعد أبي عبيد من ذكر هذه الأركان الثلاثة بعبارات متقاربة لا تختلف عما ذكره أبو عبيد فيما نقله عنه أبو بكر الأنباري، قال مكّي^(٤): «وأكثر اختياراتهم إنما هو في الحرف إذا اجتمع فيه ثلاثة أشياء: قوة وجهه في العربية، وموافقته للمصحف واجتماع العامة عليه» ثم بين أن المقصود بالعامية هو ما اتفق عليه أهل المدينة وأهل الكوفة، وقيل ما اجتمع عليه أهل الحرمين، لكنه عبر -

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ج ١ ص ٣١١.

(٣) لوحة ٥١.

(٤) الإبانة ص ٤٩.

في موضع آخر، عن هذا الركن بقوله^(٥): « أن ينقل عن الثقات إلى النبي صَلَّى الله عليه وسلّم ». وأشار إلى هذه الأركان الثلاثة للقراءة أبو عمرو الداني^(٦). ونقل ما قاله مكّي في أركان القراءة الصحيحة كل من علم الدين السخاوي^(٧)، والزركشي^(٨)، وابن حجر^(٩)، ثم جاء من انتهى إليه علم القراءات شمس الدين أبو الخير بن الجزري (ت ٨٣٣هـ) وأفاض في بيان أركان القراءة الصحيحة، وقال^(١٠): « كل قراءة وافقت العربية، ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية، ولو احتمالاً. وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها » وفصل كل ركن من هذه الأركان شارحاً وناقلاً وناقداً ومبيناً، وقد قال السيوطي^(١١): « وأحسن من تكلم في هذا النوع إمام القراء في زمانه شيخ شيخنا أبو الخير الجزري » ثم نقل كلامه في أركان القراءة.

وسأعرض لكل ركن من هذه الأركان الثلاثة لمعرفة المقصود من كل واحد منها مركزاً على بعض الجوانب التي تزيد قضية العلاقة بين القراءات والرسم بياناً ووضوحاً:

أولاً: صحة السند أو ثبوت الرواية والنقل:

المقصود بهذا الضابط هو أن تكون القراءة مروية عن واحد أو أكثر من الصحابة الذين سمعوا من النبي صَلَّى الله عليه وسلّم - وقرأوا بين يديه^(١٢)، وثبوت الرواية مع صحة الاسناد هو أهم ما علق عليه العلماء صحة القراءة، فلا

(٥) الإبانة ص ١٨.

(٦) ابن الجزري: النشر ج ١ ص ٩.

(٧) انظر جمال القراء ورقة ١٥٤ ب.

(٨) البرهان ج ١ ص ٣٣١.

(٩) فتح الباري ج ١٠ ص ٤٠٧.

(١٠) النشر ج ١ ص ٩.

(١١) الإتيان ج ١ ص ٢١٠ وانظر إتمام الدراية (له) ص ٣٦.

(١٢) انظر ابن الجزري: النشر ج ١ ص ١٣.

بد أولاً من ثبوت النقل. ثم ينظر في توافر الشروط الأخرى بعد ذلك (١٣).
والاسناد «خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسنة بالغة من السنن
المؤكدّة» (١٤). ولذلك لا بد في القراءة من المشافهة والسماع (١٥)، فلو حفظ إنسان
الشاطبية (١٦) - مثلاً - فليس له أن يقرأ بما فيها، إن لم يشافه من شوفه به
مسلسلاً، لأن في القراءات شيئاً لا يحكم إلا بالسماع والمشافهة (١٧). ومن ثم نجد
الداني يميز في مقدمة كتابه الكبير (جامع البيان في القراءات السبع المشهورة) بين
أخذ القراءة تلاوة أي مشافهة وبين أخذها رواية من الكتب دون مشافهة،
فيقول (١٨): «وأفردت قراءة كل واحد من الائمة برواية من أخذ القراءة عنه
تلاوة وأدى الحروف عنه حكاية دون رواية من نقلها سماعاً في الكتب ورواية في
الصحف إذ الكتب والصحف غير محيطة بالحروف الجليلة ولا مؤدية عن الألفاظ
الخفية والتلاوة محيطة بذلك ومؤدية عنه». وتصادف - دائماً - في كتب
القراءات وطبقات القراء التمييز بين أخذ القراءة مشافهة وأخذها من الكتب،
وكثيراً ما تصادفنا في (غاية النهاية في طبقات القراء) لابن الجزري مثل عبارة
(أخذ القراءة عرضاً... روى عنه القراءة عرضاً) (١٩)، و(أخذ القراءة عرضاً
وسماعاً) (٢٠) و(روى الحروف... روى عنه الحروف) (٢١)، و(روى الحروف

(١٣) انظر السيوطي: الإتيان ج ١ ص ٢١٣.

(١٤) القسطلاني ج ١ ص ١٧٣.

(١٥) ابن الجزري النشرح ج ٢ ص ٣٥٨.

(١٦) هي نظم أبي محمد القاسم بن فيرّه الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) لكتاب التيسير لأبي عمرو
الداني.

(١٧) القسطلاني ج ١ ص ١٧١.

(١٨) جامع البيان ورقة ٢ أ.

(١٩) انظر مثلاً ج ١ ص ٣٥٢ و ٣٥٥ و ٤١٩ وج ٢ ص ٢٧٢.

(٢٠) انظر ج ١ ص ٤٩٧.

(٢١) انظر ج ١ ص ٤٦٢ وج ٢ ص ٤٨ و ١٠١.

سماعاً... قرأ عليه الحروف^(٢٢) و(أخذ القراءة عرضاً، وروى الحروف سماعاً... روى القراءة عنه عرضاً وروى عنه الحروف)^(٢٣). وما اقترن من هذه الأقوال بلفظ القراءة فإنما يدل على تلقي العرض والسماع وما اقترن بلفظ (الحروف) فإنما يدل على تلقي الرواية من الكتب لمواقع الخلاف فقط دون أن يشمل ذلك قراءة القرآن كاملاً^(٢٤).

وقد جاءت روايات كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين تؤكد أن (القراءة سنة) أي أنها تتلقى ولا يجوز معها الرأي والاجتهاد، جاء ذلك عن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعروة بن الزبير ومحمد بن المنكدر وعمر بن عبد العزيز وعامر الشعبي^(٢٥). فروى أبو عبيد عن خارجة بن زيد أن زيد بن ثابت (ت ٤٥هـ) قال « القراءة سنة » ويعقب أبو عبيد على ذلك بقوله « وقول زيد هذا يبين لك ما قلنا^(٢٦) لأنه الذي ولي نسخ المصاحف التي أجمع عليها المهاجرون والأنصار فرأى اتباعها سنة واجبة »^(٢٧). ويورد أبو عبيد في نفس الموضع رواية أخرى عن عروة بن الزبير أنه قال « ان قراءة القرآن سنة فأقرأوا كما أقرئتموه ».

وينقل ابن مجاهد بضعة أخبار في هذا المعنى منها قول عروة وقول زيد السابقان إلا أنه يروي رواية أخرى عن خارجة بن زيد عن أبيه أنه قال « القراءة سنة. فأقرأوه كما تجدوناه ». وروي عن محمد بن المنكدر (ت ١٣٠هـ) أنه قال « القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول » ثم يقول ابن مجاهد إنه روى

(٢٢) انظر ج ١ ص ٢٨٨.

(٢٣) ج ٢ ص ١٣٠.

(٢٤) انظر: د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص (١٩٩-٢٠٠) وانظر فؤاد سيزكين مج ١ ص ١٤٧.

(٢٥) ابن مجاهد ص (٤٩-٥٠).

(٢٦) يشير الى قوله الذي ورد في ص (٦٣٢) من هذا الفصل.

(٢٧) لوحة ٥١.

عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز مثل ذلك، ويروى أن عامراً الشعبي (ت ١٠٣ وقيل بعدها) قال: «القراءة سنة، فأقرأوا كما قرأ أولوكم» (٢٨). وقال أبو عمرو الداني (٢٩): «والأخبار الواردة عن السلف والأئمة والعلماء بهذا المعنى كثيرة».

ويذكر ابن مجاهد أن أبا عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) إمام أهل عصره في اللغة وقارئ أهل البصرة كان «لا يقرأ بما لم يتقدمه فيه أحد»، ويروى عن الأصمعي أنه سمع أبا عمرو قال «لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قد قرىء به لقرأت حرف كذا وحرف كذا كذا» (٣٠).

والروايات والشواهد التي تؤكد أن وجوه القراءات المختلفة منقولة عن الصحابة أكثر من أن تحصر، وإذا انتقلنا إلى تتبع بعض الأمثلة التي خضعت فيها بعض القراءات للنقد بسبب ضعف السند لوجدنا منها ما عقب به ابن خالويه على قراءة الحسن «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ» (ق ٢٤/٥٠) بقوله «ولا يقرأ به لأن في سنده ضعفاً» (٣١) وكان ابن خالويه قد نص في أول كتابه الذي قال فيه ذلك إن «كل ما ذكرت من اختلاف العلماء (في) القراءة فقد رويت عن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم» (٣٢). ومنه ما ذكره الفراء أن الكسائي قال عن قراءة ذكر له أن بعض القراء قرأ بها «لو حفظت الأثر فيه لقرأت به» (٣٣). وكثيراً ما يروي ابن مجاهد أن أبا بكر بن عياش أحد رواة عاصم أنه لم يحفظ عن عاصم

(٢٨) انظر هذه الروايات: كتاب السبعة ص (٥٠-٥١).

(٢٩) جامع البيان ورقة ١٢ ب. وانظر مكى: الإبانة ص ٣٢ وانظر أيضاً ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ٢١٤.

(٣٠) كتاب السبعة ص ٤٨ وانظر في نفس الخبر: الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٨٥ وابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٢٩٠.

(٣١) إعراب ثلاثين سورة ص ١٤٠.

(٣٢) نفس المصدر ص ١٥.

(٣٣) معاني القرآن ج ٣ ص ٣٥.

كيف قرأ، ففي قوله تعالى ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا﴾ (الأنعام ١٠٩/٦) يقول ابن مجاهد^(٣٤): «وأما أبو بكر بن عياش فقال يجيى عنه أنه لم يحفظ عن عاصم كيف قرأ كسراً أم فتحاً»، ونجد ابن مجاهد نفسه ينص أنه لم يعلم كيف قرأ بعض القراء في حرف معين، يقول: «وليس عندي عن أبي بكر عن عاصم في (فيقول) شيء»^(٣٥). وورد قوله تعالى ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور ١١/٢٤) في السيرة النبوية لابن هشام (ت ٢١٣ وقيل ٢١٨ هـ) الذي عقب عليها بقوله «يقال كبره وكُبره في الرواية، وأما في القرآن فكبره بالكسر»^(٣٦).

ولم تكن هذه النظرة إلى القراءات مقصورة على المختصين بالقراءة فحسب، بل نجدها عند علماء العربية منذ وقت مبكر، فهذا سيبويه شيخ النحاة وإمامهم على الإطلاق يصرح بعد أن ذكر وجهاً محتملاً في آية من القرآن «إلا أن القراءة لا تخالف، لأنها السنة»^(٣٧). وقال الزجاج في أول كتابه (إعراب القرآن ومعانيه) وهو يتحدث عن حركة كلمة ﴿الْحَمْدُ﴾ في أول فاتحة الكتاب^(٣٨): «فأما القرآن فلا يقرأ فيه إلا بالرفع، لأن السنة تتبع في القرآن ولا يلتفت فيه إلى غير الرواية الصحيحة التي قرأ بها القراء المشهورون بالضبط والثقة» ويقول في مكان آخر من كتابه^(٣٩): «ولا ينبغي أن يقرأ بما يجوز إلا أن تثبت رواية صحيحة، أو يقرأ به كثير من القراء».

(٣٤) كتاب السبعة ص ٢٦٥ وانظر مثله ص ٦٢٩.

(٣٥) نفس المصدر ص ٤٦٣.

(٣٦) السيرة النبوية ق ٢ ص ٣٠٣.

(٣٧) الكتاب ط بولاق ج ١ ص ٧٤. ووردت في الطبعة التي حققها عبد السلام هارون، دار القلم ١٩٦٦ ج ١ ص ١٤٨ هكذا «إلا أن القراءة لا تخالف لأن القراءة السنة». وقد نقل الزركشي (البرهان ج ١ ص ٣٢٢) أن سيبويه قال في الكتاب في قوله تعالى ﴿ما هذا بشراً﴾ (يوسف ٣١/١٢): «وبنو تميم يرفعونه إلا من درى كيف هي في المصحف».

(٣٨) ص ٦.

(٣٩) نفس المصدر ص ١٣.

وكل هذه الأخبار والروايات تؤكد معنى واحداً هو أن القراءات لم تكن نتيجة اجتهاد القراء أو إعمال فكرهم في حمل الكلام على ما هو أنسب^(٤٠)، بل هي مروية عن الصحابة الذين أخذوا القرآن عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقرأوا عليه، ويقول ابن الجزري^(٤١): «إن من يزعم أن أئمة القراءة ينقلون حروف القرآن من غير تحقيق ولا بصيرة ولا توقيف فقد ظن بهم ما هم منه مبرءون وعنه منزهون»، ويقول في موضع آخر «ونعوذ بالله من قراءة القرآن بالرأي والتشهي، وهل يحل لمسلم القراءة بما يجد في الكتابة من غير نقل»^(٤٢).

ولم يكن هذا الركن الأساسي أقوالاً تردد على الألسنة وتسرد في الكتب بل إن وراءه جهداً كبيراً في تلقي القراءات وعرضها، ويكفي المرء أن ينظر في مقدمات الكتب المؤلفة في القراءات حيث يذكر المؤلفون أسماء الرواة والرجال الذين يروون عنهم ما يذكرون في كتبهم من قراءات ليجد مثلاً أعلى من إحكام الضبط والتدقيق البالغ غايته^(٤٣).

وقد عثرت على قطعة من كتاب (القراءات) لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) أوردها علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ) في كتابه جمال القراء^(٤٤)، يتحدث فيها عن طبقات القراء من زمن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى زمانه، ولعل هذه القطعة هي مقدمة كتاب القراءات لأبي عبيد، وهي مهمة جداً في بيان تاريخ القراءات في القرنين الأول والثاني الهجريين، وبيان كيف نقلت القراءات، والأئمة الذين انتصبوا لقراءتها وروايتها في كل عصر ومصر، وتزداد أهمية هذا النص حين نعلم أنه يرجع إلى فترة لم تكن قد خصصت فيها السبعة بل هو يسبق ابن مجاهد الذي سَبَّحَ السبعة بقرن كامل، وأعتقد أن من

(٤٠) انظر ابن تيمية: الفتاوى ج ١ ص ٣١٩.

(٤١) النشر ج ٢ ص ٢١٤.

(٤٢) ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ٢٦٣.

(٤٣) انظر د. عبد الفتاح شلي: رسم المصحف ص ٤٧.

(٤٤) من ورقة (١٤٨ ب - ١٥٠ ب).

المناسب والمكمل لتوضيح ركن صحة النقل في رواية القراءات أن أورد ذلك النص المهم كما جاء في كتاب السخاوي، مع إثبات تاريخ وفيات الأئمة المذكورين فيه.

« قال أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب القراءات له: هذه تسمية أهل القرآن من السلف على منازلهم.

فما نبداً بذكره في كتابنا سيد المرسلين وامام المتقين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن.

ثم المهاجرون والأنصار وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفظ عنه منهم في القراءة شيء، وإن كان ذلك حرفاً واحداً فما فوقه.

قال فمن المهاجرين: أبو بكر الصديق (ت ١٣هـ) وعمر بن الخطاب (٢٣) وعثمان بن عفان (٣٥) وعلي بن أبي طالب (٤٠) وطلحة بن عبيد الله (١٨) وسعد بن أبي وقاص (٥٥) وعبد الله بن مسعود (٣٢) وسالم مولى أبي حذيفة (١١) وحذيفة بن اليان (٣٥) وعبد الله بن عباس (٦٨) وعبد الله بن عمر (٧٣) وقيل (٧٤) وعبد الله بن عمرو (٦٥) وعمرو بن العاص (٥٨) وأبو هريرة (٥٨) ومعاوية بن أبي سفيان (٦٠) وعبد الله بن الزبير (٧٣) وعبد الله بن السائب (في حدود ٧٠) قارىء مكة.

ومن الأنصار - رضي الله عنهم - أبي بن كعب (١٩) وقيل غير ذلك) ومعاذ ابن جبل (١٨) وأبو الدرداء (٣٢) وزيد بن ثابت (٤٥) ومجمع بن جارية (ت في خلافة معاوية) وأنس بن مالك (٩٣).

وقال ومن أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم: عائشة (٥٧) وحفصة (٤٥) وأم سلمة (٥٩).

قال: وقد علمنا أن بعض من ذكرنا أكثر في القراءة وأعلى من بعض، غير أننا سميناهم على منازلهم في الفضل والاسلام، وإنما خصصنا بالتسمية كل من وصف بالقراءة وحكي عنه منها شيء وإن كان يسيراً، وأمسكنا عن ذكر من لم

يبلغنا عنه منها شيء وإن كانوا أئمة هداة في الدين .

فأما سالم الذي ذكرناه فإنه كان مولى لامرأة من الأنصار، وإنما نسبناه لأبي حذيفة لأنه به يعرف. وأما حذيفة بن اليان فإن عداده في الأنصار وإنما ذكرناه في المهاجرين لأنه خرج مع أبيه مهاجراً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم، ولم يكن من ساكني المدينة فهو مهاجري الدار أنصاري العداد ونسبه في عبس بن قيس عيلان.

قال أبو عبيد رحمه الله ثم التابعون:

فمنهم من أهل المدينة: سعيد بن المسيب (٩٤) وعروة بن الزبير (٩٣) وسالم ابن عبد الله (١٠٦) وعمر بن عبد العزيز (١٠١)، وقد كان بالمدينة والشام، وسليمان بن يسار، (١٠٧) وعبد الرحمن بن هرمز الذي يعرف بالأعرج (١١٧) وابن شهاب (١٢٥) وعطاء بن يسار (١٠٣) ومعاذ بن الحارث (٦٣) والذي يعرف بمعاذ القاريء. وزيد بن أسلم (١٣٦).

قال ومن أهل مكة: عبيد (الله) بن عمير الليثي وعطاء بن أبي رباح (١١٥) وطاووس (١٠٦) وعكرمة مولى ابن عباس (١٠٥) وعبد الله بن أبي مليكة (١١٧).

ومن أهل الكوفة علقمة بن قيس (٦٢) والأسود بن يزيد (٧٥) ومسروق بن الأجدع (٦٣) وعبيدة السلماني (٧٢) وعمرو بن شرحبيل (٦٣) والحارث بن قيس والربيع بن خثيم (قبل ٩٠) وعمرو بن ميمون (٧٥) وأبو عبد الرحمن السلمي (٧٣) وقيل (٧٤) ووزر بن حبيش (٨٢) وإبراهيم بن يزيد النخعي (٩٦) وعامر الشعبي (١٠٥) وهو عامر بن شراحيل.

ومن أهل البصرة: عامر بن عبد الله وهو الذي يعرف بابن قيس. كان يقرئ الناس وأبو العالية الرياحي (٩٠) وأبو رجاء العطاردي (١٠٥) ونصر بن عاصم الليثي (٩٠) ويحيى بن يعمر (قبل ٩٠) ثم انتقل إلى خراسان، وجابر بن زيد (٩٣) والحسن بن أبي الحسن (١١٠) ومحمد بن سيرين (١١٠) وقتادة بن دعامة (١١٧).

ومن أهل الشام: المغيرة بن شهاب المخزومي (٩١) صاحب عثمان بن عفان في القراءة قال: كذلك حدثني هشام بن عمار الدمشقي، قال حدثني عراك بن خالد المري قال سمعت يحيى بن الحارث الذماري يقول ختمت القرآن على عبد الله بن عامر اليحصبي، وقرأ عبد الله بن عامر على المغيرة بن شهاب المخزومي وقرأ المغيرة على عثمان ليس بينه وبينه أحد.

قال فهؤلاء الذين سميناهم من الصحابة والتابعين هم الذين يحكى عنهم عظم القراءة وإن كان الغالب عليهم الفقه والحديث.

قال ثم قام من بعدهم بالقرآن قوم ليس لهم أسنان من ذكرنا ولا قدمتهم غير أنهم تجردوا للقراءة واشتدت بها عنايتهم ولها طلبهم حتى صاروا بذلك أئمة يأخذها الناس عنهم، ويقتدون بهم فيها، وهم خمسة عشر رجلاً من هذه الأمصار المسماة في كل مصر منهم ثلاثة رجال:

فكان من قراء المدينة: أبو جعفر القارئ واسمه يزيد بن القعقاع (١٣٠) مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وشيبة بن نصاح (١٣٠) وقيل (١٣٨) مولى أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم. ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (١٦٩)، وكان أقدم هذه الثلاثة أبو جعفر قد كان يقرئ الناس بالمدينة قبل وقعة الحرة (سنة ٦٣هـ). حدثنا ذلك اسماعيل بن جعفر عنه. ثم كان من بعده شيبة على مثل منهاجه ومذهبه، ثم ثلثها نافع بن أبي نعيم. وإليه صارت قراءة أهل المدينة وبها تسكوا إلى اليوم. فهؤلاء قراء أهل الحجاز في دهرهم.

وكان من قراء مكة: عبد الله بن كثير (١٢٠) وحמיד بن قيس (١٣٠) الذي يقال له الأعرج، ومحمد بن محيصن (١٢٣)، وكان أقدم هؤلاء الثلاثة ابن كثير، وإليه صارت قراءة أهل مكة وأكثرهم به اقتدوا فيها. وكان حميد بن قيس قرأ على مجاهد قراءته فكان يتبعها لا يكاد يعدوها إلى غيرها، وكان ابن محيصن أعلمهم بالعربية وأقواهم عليها. فهؤلاء قراء أهل مكة في زمانهم.

وكان من قراء الكوفة: يحيى بن وثاب (١٠٣) وعاصم بن أبي النجود (١٢٨)

والأعمش (١٤٨) وكان أقدم الثلاثة وأعلامهم يحيى ، يقال أنه قرأ على عبيد بن نضيلة صاحب عبد الله . ثم تبعه عاصم . وكان أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش . ثم كان الأعمش فكان إمام الكوفة المقدم في زمانه عليهم حتى بلغ إلى أن قرأ عليه طلحة بن مصرف ، وكان أقدم من الأعمش ، فهؤلاء هم رؤساء الكوفة في القراءة ، ثم تلاهم حمزة بن حبيب الزيات رابعاً (١٥٦) . وهو الذي صار أعظم أهل الكوفة إلى قراءته من غير أن تطبق عليه جماعتهم . وكان ممن اتبع حمزة في قراءته سليم بن عيسى وممن وافقه . وكان ممن فارقه أبو بكر بن عياش فإنه اتبع عاصماً وممن وافقه .

وأما الكسائي (١٨٩) فإنه كان يتخير القراءات فأخذ من قراءة حمزة ببعض وترك بعضاً . فهؤلاء قراء أهل الكوفة .

وكان من قراء أهل البصرة عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي (١١٧) وأبو عمرو بن العلاء (١٥٤) وعيسى بن عمر الثقفي (١٤٩) . وكان أقدم الثلاثة ابن أبي اسحاق وكانت قراءته مأخوذة عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، وكان عيسى بن عمر عالماً بالنحو غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة العامة ، ويستنكرها الناس ، وكان الغالب عليه حب النصب ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، قوله حمالة الخطب ، والزانية والزاني ، والسارق والسارقة ، وكذلك قوله هؤلاء بناتي هن أطهر لكم .

والذي صار إليه أهل البصرة في القراءة فاتخذوه إماماً أبو عمرو بن العلاء ، فهؤلاء قراء أهل البصرة ، وقد كان لهم رابع ، وهو عاصم الجحدري (١٢٨) لم يرو عنه في الكثرة ما روي عن هؤلاء الثلاثة .

وكان من قراء أهل الشام عبد الله بن عامر اليحصبي (١١٨) ويحيى بن الحارث الذماري (١٤٥) وثالث قد سمي لي بالشام ونسبت اسمه . فكان أقدم هؤلاء الثلاثة عبد الله بن عامر وهو إمام أهل دمشق في دهره ، وإليه صارت قراءتهم ثم اتبعه يحيى بن الحارث ، وخلفه في القراءة وقام مقامه . وقد ذكروا الثالث بصفة لا أحفظها .

فهؤلاء قراء أهل الأمصار الذين كانوا بعد التابعين .»

وقد عقب السخاوي على ما نقله عن أبي عبيد بقوله: « قلت هو أبو خلود بن سعد^(٤٥) صاحب أبي الدرداء ، ولكن أطبق أهل الشام على ابن عامر ، يحيى بن الحارث وأهل الآفاق . ورجع .. يحيى إلى قراءته والنقل عنه والتعويل عليه . وهذا الذي ذكره أبو عبيد - رحمه الله - يعرفك كيف كان هذا الشأن من أول الإسلام إلى آخر ما ذكره ، فلما كان العصر الرابع سنة ثلاث مائة وما قاربها كان أبو بكر بن مجاهد رحمه الله قد انتهت إليه الرياسة في علم القراءة ، وتقدم في ذلك على أهل ذلك العصر اختار من القراءات ما وافق خط المصحف ومن القراء بها من اشتهرت عدالته وقامت معرفته وتقدم أهل زمانه في الدين والأمانة والمعرفة والصيانة واختاره أهل عصره في هذا الشأن وأطبّقوا على قراءته وقصد من سائر الأمصار وطالت ممارسته للقراءة والاقراء وخص في ذلك بطول البقاء ورأى أن يكونوا سبعة تأساً بعدة المصاحف الائمة ، بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف من سبعة أبواب فاختر هؤلاء السبعة أئمة الأمصار ، فكان أبو بكر رحمه الله أول من اقتصر على هؤلاء السبعة ، وصنف كتابه في قراءتهم ، واتبعه الناس على ذلك ولم يسبقه أحد إلى تصنيف قراءة هؤلاء السبعة »^(٤٦) .

إن ما ذكره أبو عبيد من أسماء القراء حتى عصره على مدى ثلاثة أجيال: الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم يقدم لنا تاريخاً واضحاً لنشأة مدارس القراءة . ويلاحظ أن القراء السبعة الذين اشتهروا في وقت متأخر هم من ضمن الذين ذكر أبو عبيد أن أهل بلداتهم أطبقوا عليهم ، وكذلك فإن من اشتهر من القراء العشرة والأربعة عشر هم من ضمن أولئك: أبو جعفر وابن محيصة والحسن البصري والأعمش إلا يحيى بن المبارك اليزيدي (ت ٢٠٢هـ) ويعقوب بن اسحاق الحضرمي (ت ٢٠٥هـ) البصريين ، وخلف بن هشام البزار (ت ٢٢٩هـ)

(٤٥) سمّاه ابن الجزري (غاية النهاية ج ١ ص ٦٠٦) خلود بن سعد .

(٤٦) جمال القراء ورقة ١٥٠ ب-١٥١ أ .

فإنهم كانوا معاصرين لأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، ويبدو أنهم لم يبلغوا من الشهرة آنذاك ما دفع أبا عبيد إلى ذكرهم.

وعقد أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن باباً يتحدث فيه عن عرض القرآن وأخذه عن أهل القراءة واتباع السلف فيها والتمسك بما يعلم منها، وأشار في بدايته إلى ما رواه البخاري عن فاطمة وابن عباس وأبي هريرة من أن جبريل - عليه السلام - كان يلتقى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في كل ليلة في شهر رمضان يعرض عليه القرآن وأنه كان يعارضه في العام مرة وأنه عارضه في العام الذي قبض فيه مرتين^(٤٧)، ثم تحدث بعد ذلك عن تلقي القراءات وعرضها على القراء وذكر سند قراءة ابن عامر إمام أهل الشام وروى عن يحيى بن الحارث الذماري أنه قال « ختمت القرآن على عبد الله بن عامر اليحصبي، وقرأ عبد الله على المغيرة بن شهاب الخزومي، وقرأه المغيرة على عثمان بن عفان - رضوان الله عليه ورحمته - ليس بينه وبينه أحد » ثم ينقل أن عاصم بن بهدلة (ابن أبي النجود) قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش وأن أبا عبد الرحمن قرأ على عليّ وقرأ زر على عبد الله. ثم يروي أن مجاهداً عرض القرآن على ابن عباس ثلاث مرات وان عبد الله بن اسحاق الحضرمي أخذ القرآن عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم الليثي^(٤٨).

وتحدث أبو عبيد أيضاً عن مصادر قراءة أحد شيوخه وهو اسماعيل بن جعفر الأنصاري المدني القاريء (ت ببغداد سنة ١٨٠هـ) فقال^(٤٩): « حدثنا اسماعيل ابن جعفر:

أنه قرأ القرآن على عيسى بن وردان الحذاء (ت في حدود ١٦٠هـ).
قال وقرأت القرآن أيضاً على سليمان بن مسلم بن جاز (ت بعد ١٧٠هـ) وقرأ

(٤٧) صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٢٩ وفضائل القرآن لأبي عبيد لوحة ٥٠.

(٤٨) انظر فضائل القرآن لوحة ٥٠.

(٤٩) نفس المصدر لوحة (٥٠-٥١).

سليمان على أبي جعفر يزيد بن القعقاع (ت ١٣٠ هـ) مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة (ت ٧٨ هـ) قال: قال سليمان: وأخبرني أبو جعفر أنه كان يمك المصحف على عبد الله بن عياش، وعنه أخذ القرآن. قال وأخبرني أبو جعفر أنه كان يقرأ القرآن في مسجد رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - قبل الحرة وكانت الحرة سنة ثلاث وستين.

وقال اسماعيل وقرأت القرآن على شيبة بن نصاح (ت ١٣٠ وقيل ١٣٨ هـ) مولى أم سلمة قال وكان إمام أهل المدينة في القراءة، وكان قديماً، قال اسماعيل: أخبرني سليمان بن مسلم بن جمار أن شيبة أخبره أنه أتى به أم سلمة، وهو صغير، فمسحت رأسه وباركت عليه. قال اسماعيل ثم هلك شيبة، فتركت قراءته وقرأت بقراءة نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم.

وهذا نموذج جيد يمثل لنا حرص القراء على بيان مصادرهم في القراءة وذكر إسنادها والنظر في كتب طبقات القراء يجد مؤلفيها ينصون على الشيوخ الذين أخذ عنهم القارئ، وطريقة الأخذ، ومن أخذ عنه القراءة، ويستطيع المرء دائماً أن يتتبع مصادر قراءة أي قارئ حتى يصل إلى جيل الصحابة الذين أخذوا عن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم -، فأبو عمرو بن العلاء - مثلاً - أخذ القراءة عن ثمانية عشر من أئمة التابعين، الذين ترجع قراءتهم إلى أحد عشر من الصحابة الذين كانوا أقطاب القراءة والمشتغلين بها من أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - وليس في القراء السبعة أحد أكثر شيوخاً منه (٥٠).

ثانياً: موافقة خط المصحف.

صارت موافقة القراءة لهجاء الكلمات في المصاحف العثمانية مقياساً لقبولها وصحة روايتها ونقلها، كما سبق في مطلع هذا الفصل، وقد صارت موافقة خط المصحف أحد أركان القراءة، فما صح نقله من القراءات ينظر إليه من خلال مقدار دلالة الخط عليه فما وافق الخط قرئ به وصح نقله، وما كان غير ذلك

(٥٠) انظر د. عبد الصبور شاهين: الأصوات في قراءة أبي عمرو ص ٣٧ و ٣٩ وابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٢٨٩.

اعتبر من الشاذ الذي لا تجوز القراءة به، لكن موافقة الخط ليست موافقة مطلقة، إذ أن في كل الكتابات الأجدية قصوراً في تمثيل الخط لأصوات اللغة، يتمثل ذلك القصور في زيادة بعض الرموز أو نقصانها، وسأحاول تبين مقدار المخالفة الجائزة للرسم في المبحث التالي.

وسبق أن المصاحف العثمانية كتبت على القراءة العامة، لكن كون خطها مجرداً من علامات الحركات وتمييز الحروف المتشابهة قد جعل الرسم محتملاً لأكثر من قراءة، تلك التي لا تقتضي تغيير هجاء الكلمة خاصة، فثبت أهل كل مصر من الأمصار على ما تلقوه من قراءات موافقة للخط عن الصحابة الذين نزلوا بينهم، وتركوا ما كان خارجاً عن خط المصاحف العثمانية وهكذا صارت موافقة القراءة للخط ركناً ثانياً من أركان القراءة الصحيحة و«اجتمع القراء على ترك كل قراءة تخالف المصحف»^(٥١). من مثل ما روي عن بعض الصحابة من حروف تخالف خط المصاحف العثمانية.

وعقد أبو عبيد باباً في فضائل القرآن سماه (باب الزوائد من الحروف التي خولف بها الخط)^(٥٢). ذكر فيه أكثر من مئة رواية من قراءات بعض الصحابة والتابعين لبضعة حروف خرجت عن خط المصحف بإبدال كلمة مكان كلمة مثل قراءة ابن مسعود ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقِيَّةً وَاحِدَةً﴾ قال أبو عبيد وهي في قراءتنا (يس ٢٩/٣٦) ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾ ومثل قراءة سعيد بن جبير (كالصوف المنفوش) وهي في المصحف العثماني (القارعة ٥/١٠١) ﴿كَأَلْمِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾، أو بزيادة كلمة مثل قراءة ابن عباس ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جِنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ﴾ بزيادة (في مواسم الحج). ومثل قراءة حفصة وعائشة وابن عباس (والصلوة الوسطى صلاة العصر) ومثل قراءة عثمان (يأخذ كل سفينة صالحة غصباً)^(٥٣).

(٥١) أبو بكر الأنباري ج ١ ص ٢٨٢.

(٥٢) انظر لوحة (٣٧-٤٣).

(٥٣) يرى أبو حيان (البحر المحيط ج ٧ ص ٦٥) إن ما جاء مخالفاً للخط هو « في =

وقد انعقد الاجماع بعد نسخ المصاحف العثمانية وبثها في الأمصار على ترك ما كان مثل تلك القراءات مما يخالف المصحف سواء كان بإبدال كلمة أو زيادة كلمة أو تقديم أو تأخير وما إلى ذلك، قال ابن قتيبة وهو يتحدث عن القراءات التي تجوز القراءة بها^(٥٤): «كل ما كان منها موافقاً لمصحفنا غير خارج عن رسم كتابه جاز لنا أن نقرأ به، وليس لنا ذلك فيما خالفه».

وقد استعمل مقياس الخط في رد ما خالفه من قراءات سواء عند علماء القراءة أم غيرهم، قال الفراء^(٥٥): «اتباع المصحف إذا وجدت له وجهاً من كلام العرب وقراءة القراء أحب إليّ من خلافه». وقد قال في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذُن لَسَجِرَان﴾ (طه ٢٠/٦٣): «ولكننا نمضي عليه لثلاثا نخالف الكتاب»^(٥٦). وقال عبد الله بن أبي داود^(٥٧): «لا نرى أن نقرأ القرآن إلا لمصحف عثمان الذي إجتمع عليه أصحاب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فإن قرأ إنسان بخلافه في الصلاة أمرته بالاعادة». وكان الزجاج لا يجوز القراءة بما هو خلاف المصحف، ويجوز ذلك في العربية^(٥٨). وقد قال وهو يتحدث عن قوله تعالى ﴿إِنَّ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ﴾ (آل عمران ٣/١٤٠): «لو قرئت أن يمسكم كان صواباً، ولكن لا تقرأن به لخالفته للمصحف، ولأن القراءة سنة»^(٥٩). وقال في قوله تعالى (البقرة ٢/٤٦) ﴿مُلْقُوا رَبَّهُمْ﴾ إن المعنى (ملاقون ربهم) ثم يقول «ولا يجوز في القرآن إثباتها لانه خلاف للمصحف، ولا يجوز أن يقع شيء في المصحف مجمع

= الحقيقة تفسير لا قراءة لخالفه ذلك سواد المصحف». وانظر القرطبي ج ١ ص ٨٦.

(٥٤) تأويل مشكل القرآن ص ٣٢.

(٥٥) معاني القرآن ج ٢ ص ٢٩٣، ونقل ذلك ابن فارس (ص ١١) وقد ردد الفراء هذا المعنى في معاني القرآن في عدة مواضع انظر: ج ٢ ص ٣٥ و ٦٥.

(٥٦) معاني القرآن ج ٢ ص ١٨٣.

(٥٧) كتاب المصاحف ص ٥٤.

(٥٨) انظر الكرماني ص ١٦.

(٥٩) كتاب إعراب القرآن ومعانيه ص ٦٦٨.

عليه فيخالف، لان اتباع المصحف أصل اتباع السنة»^(٦٠). وقال في (٨٣/٢) ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ان القراءة بالياء والتاء ثم قال «وروي وجه ثالث، لا يؤخذ به، لأنه مخالف للمصحف، قرأ ابن مسعود لا تعبدوا»^(٦١). كذلك قد رد ابن خالويه قراءة من قرأ (مليك) في فاتحة الكتاب بقوله «ولم يقرأ به أحد لأنه يخالف المصحف ولا إمام له»^(٦٢). وقد استعمل ابن مجاهد هذا المقياس كثيراً في كتاب السبعة^(٦٣). ليس هذا فحسب بل أن هذا المقياس استعمل في الحكم على قراءة بكاملها، فقد ذكر ابن الجزري عن قراءة ابن محيصة المكي (ت ١٢٣هـ) «ولولا ما فيها من مخالفة المصحف لألحقت بالقراءات المشهورة»^(٦٤).

وتظهر قوة هذا الركن في قبول القراءة أو ردّها بما أقدم عليه محمد بن أحمد ابن أيوب المعروف بابن شنبوذ (ت ٣٢٨هـ) فقد «كان يرى جواز القراءة بما صح سنده، وإن خالف رسم المصحف»^(٦٥). ويرى جواز الصلاة بما جاء في مصحف أبي، ومصحف ابن مسعود وبما صح في الأحاديث^(٦٦). وقد ذكر ابن النديم أمثلة لقراءته من مثل (إذا نودي للصلوة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله)، ومثل (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً) وما شابه ذلك^(٦٧).

وكان قد ناهضه ابن مجاهد لقراءاته تلك وعقد له الوزير ابن مقلة مجلساً بحضور ابن مجاهد وجماعة من العلماء والقضاة وكتب عليه به المحضر واستتيب

(٦٠) إعراب القرآن ومعانيه، ج ١، ص ٩٣.

(٦١) ص ١٣٢ وانظر مثلاً آخر ص ٢٠٢.

(٦٢) إعراب ثلاثين سورة ص ٢٣.

(٦٣) انظر ص ١٠٧ و ٤٢٠ و ٦٨٤.

(٦٤) غاية النهاية ج ٢ ص ١٦٧.

(٦٥) القسطلاني ج ١ ص ١٠٥.

(٦٦) الذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ٢٢٢ وانظر ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٥٤.

(٦٧) الفهرست ص ٣١. وانظر ابن الجزري: غاية النهاية. ج ٢ ص ٥٥.

عنه بعد اعترافه به^(٦٨). وقد أورد ابن النديم صورة لكتاب رجوعه عن قراءاته تلك وهو: «يقول محمد بن أحمد بن أيوب، قد كنت أقرأ حروفاً تخالف مصحف عثمان الجمع عليه، والذي اتفق عليه أصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على قراءته، ثم بان لي أن ذلك خطأ، وأنا منه تائب وعنه مقلع، وإلى الله جل اسمه منه بريء إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لا يجوز خلافه، ولا يقرأ غيره»^(٦٩). وكان أبو بكر الأنباري قد ألف كتاباً في وجوب اتباع ما في المصحف الامام^(٧٠)، وربما يكون موضوعه الرد على مذهب ابن شبوذ والتأكيد على وجوب ترك القراءة بما خالف خط المصحف العثماني من قراءات.

ثالثاً: موافقة العربية :

نزل القرآن الكريم والعرب يتكلمون باللغة على هدى مما توارثوه وتعارفوا عليه من مجاري الكلام وطرائقه، وسمع المسلمون الأول القرآن الكريم الذي نزل على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بلسانهم^(٧١)، وكان نزول القرآن على سبعة أحرف قد أتاح لمن لم يستطع أن يتلوه على حرف أن يتلوه على الحرف الذي يستطيعه، لكن تقدم السنين في القرن الأول وما تلاه من امتداد بلاد الاسلام ودخول الناس فيه أفواجاً قد دفع إلى أن يحرص بعض المهتمين بقضية اللغة وسلامتها على التفكير بتدوين قواعد اللغة وكانت أولى الخطى العملية لذلك التفكير ما قام به أبو الأسود الدؤلي من نقط المصاحف وتابع تلامذة أبي الأسود ذلك الجهد - وهو تاريخ أوسع من أن نحيط به هنا - وقد انتهى بدراسة اللغة وتحليلها ووضع قواعدها، لكن الملاحظ على ذلك الجهد الذي يمثله

(٦٨) ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٥٤ .

(٦٩) الفهرست ص ٣٢ .

(٧٠) انظر الأزهري ج ٥ ص ١٤ .

(٧١) قال الله سبحانه (سورة ابراهيم ١٤/٤): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ .

أشمل تمثيل كتاب سيبويه أنه يهتم بالأمثلة المطردة، ويعتبر ما جاء مخالفاً لها شاذاً يحفظ ولا يقاس عليه، وهو منهج قصد به تيسير تعليم اللغة، وهو المنهج المناسب لهذه الغاية، لكن اتخاذ القواعد المطردة التي نجدتها في كتب النحو مقياساً لدراسة ظواهر لغوية سابقة لتاريخ وضع تلك القواعد، في وقت كان الناس يتكلمون فيه اللغة دون تأثر بقاعدة نحوية أو منطق لغوي موضوع، إخلال بالمنهج السديد، ووقوع في خطأ لا يختلف عن الخطأ الذي وقع فيه علماء العربية حين نظروا إلى ظواهر الرسم العثماني من خلال القواعد الاملائية التي وضعوها في فترات لاحقة للفترة التي ترجع إليها ظواهر الرسم، لأن المنهج المناسب لدراسة اللغة وتحليلها هو الذي يقوم على دراسة ما كان لا ما ينبغي أن يكون.

وسبق أن مقياس قبول القراءة صار بعد نسخ المصاحف صحة نقلها وعدم خروجها عن الرسم، ولم يكن من بين شروط القراءة الصحيحة موافقة العربية، لأن هذا الشرط لم يكن له مكان في وقت كانت تعتبر فيه العربية هي ما كان يتكلمه العرب كلهم لا ما وجد فيما بعد في كتب النحو، لكن بعد أن استقرت قواعد النحاة واعتبروا ما خرج عن المطرد شاذاً نظر إلى القراءات من خلال ذلك المبدأ، خاصة من قبل النحاة، وتحقيقاً لأن تكون القراءة القرآنية بالغة المثل الأعلى في عربيته جعلت موافقة العربية شرطاً لقبول القراءة، وتعرضت بعض القراءات لنقد من جراء هذا المقياس^(٧٢).

وكان مذهب معظم القراء هو أن القراءة متى صح نقلها ووافقت خط المصحف فهي القراءة الصحيحة المقبولة، وقد أكد هذا المعنى أبو بكر الأنباري كثيراً في كتابه إيضاح الوقف والابتداء، وهو يتحدث عن القراءات، والوجوه الجائزة في العربية، وكان يردد كثيراً مثل قوله « ويجوز في العربية... ولا يجوز

(٧٢) انظر ابن مجاهد ص ١٦٨ و ٢٧٨ و ٣٠٠ و ٣٣٦ و ٤٠١ و ٤٠٩ و ٥٥٣ و ٦٨٦ و ٦٩٢ وابن جنّي: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات. القاهرة. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ج ١ ص ٣٣. والزرکشي ج ١ ص ٣١٨. وانظر أيضاً د: عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٢٠٣ وما بعدها.

لأحد أن يقرأ بهذا لأنه لا إمام له» (٧٣). ومثل « وهذا الوجه الثالث سمعه الكسائي من العرب. ولا يجوز لأحد أن يقرأ به لأنه لا إمام له » (٧٤). ويقول « زعم الفراء أن من العرب من يقول (أني اقتلوا) و(أني اضرب بعصاك الحجر) وليس مما قرأت به الفراء، ولكنه مذهب للعرب غير داخل في القراءة» (٧٥). فالرواية وصحة النقل هي الأساس عنده. وقد عبر الزجاج عن نفس هذا المعنى وهو يناقش قراءة الحسن (أجمعون) في قوله تعالى (البقرة ٢/١٦١) ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فقال (٧٦): « وهذا جيد في العربية إلا أنني أكرهه لمخالفة المصحف، والقراءة إنما ينبغي أن تلزم فيها السنة، ولزوم السنة فيها أيضاً أقوى عند أهل العربية، لأن الاجماع في القراءة إنما يقع على المعنى الجيد البالغ ».

واستناداً إلى هذا الموقف نص الفراء والنحاة على أن القراءة لا يجوز فيها القياس، قال ابن جني إن القراءات « تؤثر رواية ولا تتجاوز » (٧٧). وتحدث كل من ابن مجاهد وأبو الطيب عبد المنعم بن غلبون (ت ٣٨٩هـ) وأبو علي الفارسي عن عدم جواز القياس في القراءات، فقال ابن مجاهد (٧٨): « ولو كانت القراءة قياساً إذن لزم من أمال (في الغار) و(بخارجين) أن يميل ﴿بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء ٢٦/١١٤) و﴿الْفَارِسِينَ﴾ (التوبة ٩/٦٠) ». وقال ابن غلبون (٧٩):

(٧٣) ايضاح الوقف والابتداء ج ١ ص ٣٢١ وانظر أيضاً ص ٣١٤ و ٣١٩.

(٧٤) نفس المصدر ج ١ ص ٤٥٤.

(٧٥) نفس المصدر ج ١ ص ٤٦٥.

(٧٦) إعراب القرآن ومعانيه ص ٢٠٢.

(٧٧) الخصائص ج ١ ص ٣٩٨.

(٧٨) كتاب السبعة ص ١٤٩.

(٧٩) قال في كتابه (الاستكمال في التفخيم والإيمالة)، مخطوط، في مكتبة المتحف البريطاني برقم (٢/٣٩٤١ شقيقات) ورقة ٥٤ أ نقلاً عن د. أحمد نصيف الجنابي: الدراسات اللغوية والنحوية في مصر. رسالة دكتوراه. مقدمة لكلية الآداب =

« لا قياس في القرآن لا في فتح ولا امالة ». وقال أبو علي: « وليس كل ما جاز في قياس العربية تسوغ التلاوة به حتى ينضم إلى ذلك الأثر المستفيض بقراءة السلف له، وأخذهم به لأن القراءة سنة »^(٨٠).

وكان هذا الفهم للقراءات هو المقياس الذي ينظر من خلاله إلى اختيارات القراء فقد ذكر أبو عبيد قراء مكة الذين انتهت إليهم القراءة بعد جيل التابعين، وهم ابن كثير وحيد بن قيس الأعرج ومحمد بن محيصن، وقد قال عن ابن محيصن « وكان ابن محيصن أعلمهم بالعربية وأقواهم عليها »^(٨١). وقال عن قراءته ابن مجاهد « كان لابن محيصن اختيار في القراءة على مذهب العربية، فخرج به عن إجماع أهل بلده فرغب الناس عن قراءته، وأجمعوا على قراءة ابن كثير لاتباعه »^(٨٢). وكان عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري (ت ١٤٩) قد عرض القرآن على عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وعاصم الجحدري وروى عن ابن كثير وابن محيصن وكانت له اختيارات في القراءة على قياس العربية^(٨٣). وقد قال عنه أبو عبيد « وكان عيسى بن عمر عالماً بالنحو غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة العامة ويستنكرها الناس. وكان الغالب عليه حب النصب ما وجد إلى ذلك سبيلاً »^(٨٤).

ولعل أوضح مثال يدل على أن القراءة سنة تروى وليس فيها مجال للقياس ولا لما يجوز في العربية إذا لم يصح النقل ما كان من موقف القراء من مذهب أبي

= جامعة عين شمس ١٩٧٥ ص ٤٢.

(٨٠) الحجة ج ١ ص ٥ وانظر أبو حيان: البحر المحيط مج ١ ص ٢٠.

(٨١) علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٥٠ / أ وانظر ابن الجزري غاية النهاية ج ٢ ص ١٦٧.

(٨٢) ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ١٦٧.

(٨٣) نفس المصدر ج ١ ص ٦١٣.

(٨٤) علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٥٠ ب. وابن الجزري: غاية النهاية ج ١ ص ٦١٣.

بكر محمد بن الحسن بن مقسم العطار البغدادي (ت ٣٥٤) (٨٥). فقد كان من أحفظ الناس لنحو الكوفيين وأعرفهم بالقراءات (٨٦)، لكنه زعم أن كل ما صح عنده في العربية من القرآن يوافق خط المصحف فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها، وإن لم تكن لها مادة (٨٧). وقد قال عنه الخطيب البغدادي (٨٨): «وما طعن عليه به انه عمد إلى حروف من القرآن فخالف الاجماع وقرأها وأقرأها على وجوه ذكر أنها تجوز في اللغة العربية، وشاع ذلك عنه عند أهل العلم فأنكروه عليه، وارتفع الأمر إلى السلطان فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء، فأذعن بالتوبة وكتب محضر بتوبته، وأثبت جماعة من حضر ذلك المجلس خطوطهم فيه بالشهادة عليه».

ونقل الخطيب البغدادي كلاماً لأبي طاهر بن أبي هاشم المقرئ صاحب أبي بكر ابن مجاهد نقله من كتابه المسمى (البيان) ذكر فيه أبو طاهر ما ذهب إليه ابن مقسم وما قام به أبو بكر بن مجاهد من محاولة رده عن بدعته، ويذكر الخطيب أن أبا طاهر قال كلاماً كثيراً في ذلك في أول كتابه البيان، وأحال إليه من أراد الوقوف عليه كله، ونقل من كلام أبي طاهر ذاك ما يظهر لنا منهج القراء في الاختيار والأساس الذي بنوا عليه اختياراتهم، وما قاله أبو طاهر بن أبي هاشم عن ابن مقسم (٨٩): «وقد دخلت عليه شبهة لا تخيل (٩٠) بطولها وفسادها

(٨٥) هذا هو المشهور في تاريخ وفاته إلا أن ابن النديم ذكر (ص ٣٣) ان وفاته كانت سنة ٣٦٢ هـ.

(٨٦) الخطيب البغدادي ج ٢ ص ٢٠٦ وابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ١٢٤.

(٨٧) أبو البركات الأنباري ص ٢٨٩. وانظر الذهبي معرفة القراء ج ١ ص ٢٤٨ وابن الجزري غاية النهاية ج ١ ص ١٧ والسيوطي: بغية الوعاة ج ١ ص ٨٩.

(٨٨) تاريخ بغداد ج ٢ ص (٢٠٦ - ٢٠٧) وانظر الذهبي معرفة القراء ج ١ ص ٢٤٨ وابن الجزري غاية النهاية ج ٢ ص ١٢٤.

(٨٩) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٠٨ وانظر أبو البركات الأنباري ص (٢٨٩ - ٢٩٠).

(٩٠) لا يخفى فسادها على ذي لب) هذا هو نص أبي البركات الأنباري (انظر الهامش السابق).

على ذي لب وفطنة صحيحة، وذلك أنه قال: لما كان لخلف بن هشام وأبي عبيد وابن سعدان أن يختاروا، وكان ذلك لهم مباحاً غير منكر، كان ذلك لي أيضاً مباحاً غير مستنكر، فلو كان هذا هذا حدوهم فيما اختاروه، وسلك طريقاً كطريقهم، كان ذلك مباحاً له ولغيره غير مستنكر، وذلك أن خلفاً ترك حروفاً من حروف حمزة واختار ان يقرأ على مذهب نافع، وأما أبو عبيد وابن سعدان فلم يتجاوز واحد منها قراءة أئمة القراء بالأمصار، ولو كان هذا الغافل نحاً نحوهم كان مسوغاً لذلك غير ممنوع منه، ولا معيب عليه، بل إنما كان النكير عليه شذوذه عما عليه الأئمة الذين هم الحجة فيما جاءوا به مجتمعين ومختلفين.»

ويبدو ان إنكار ما ذهب إليه ابن مقسم من تجويزه القراءة بأي وجه صح من حيث العربية ووافق المصحف وإن لم ينقل كان إجماعاً من عامة أهل زمانه، حتى أن ابن درستويه (ت ٣٤٦هـ) ألف كتاباً سماه (كتاب الرد على ابن مقسم في اختياره)^(٩١)، ولعله ألفه في الرد على مذهب ابن مقسم في القراءة كما يدل عنوان الكتاب.

وهذه الأقوال والمواقف التي عرضناها تدل على إجماع القراء وعلماء العربية على ان قراءة القرآن لا تجوز بالقياس ولا بالاجتهاد ولا بد فيها من صحة النقل أولاً وموافقة الخط ثانياً، لكن هناك وجهاً آخر للقضية وهو الموقف الذي اتخذته بعض العلماء من النحاة خاصة تجاه بعض القراءات التي لا تنطبق عليها قواعدهم واتهامها بالشذوذ والضعف من حيث العربية^(٩٢). وهو موقف يأباه القراء ولا يلتفتون إلى القائلين به - والحق معهم - ذلك لأن القواعد التي وضعها النحاة جاءت لاحقة، ووضعت لفرض تعليمي بحت ينفي الشذوذ ولا يعني إلا بالامثلة المطردة، والقراءات مهما كانت من حيث الصحة والشذوذ هي أصدق تعبير عن

(٩١) انظر ابن النديم ص ٦٣. والقفطي ج ٢ ص ١١٤. وكان ابن النديم قد ذكر لابن درستويه (ص ٣٥) كتاباً آخر هو كتاب الاحتجاج للقراء.

(٩٢) انظر هامش (٧٢) ص (٦٥٠) من هذا الفصل.

واقع العربية في فترة ظهور الاسلام من حيث الأصوات والمفردات والتراكيب^(٩٣).

وخير ما يمثل موقف القراء من هذه القضية هو ما قاله أبو عمرو الداني في كتابه (جامع البيان) وهو يتحدث عن قراءة أبي عمرو بن العلاء (بارئكم) (البقرة ٥٤/٢) بالاسكان بدل حركة الاعراب، قال^(٩٤): «وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفضى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والاصح في النقل والرواية إذا ثبتت لا يردها قياس عربية ولا فصولغة، لان القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها».

وظل ما قاله الداني يمثل موقف القراء من هذا الموضوع، وقد صرح ابن الجزري ان «من المحال أن يصح في القراءة ما لا يسوغ في العربية، بل قد يسوغ في العربية ما لا يصح في القراءة، لأن القراءة سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول»^(٩٥). وقد عدل ابن الجزري نتيجة لهذا الموقف في صيغة الركن الثالث من أركان القراءة الصحيحة فقال مرة «كل قراءة وافقت العربية مطلقاً»^(٩٦). وقال في أخرى «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه...»^(٩٧). فأضاف (ولو بوجه)، وقد بين الغرض من هذه الاضافة بقوله^(٩٨): «وقولنا في الضابط (ولو بوجه) نريد به وجهاً من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحاً، مجمماً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الائمة

(٩٣) انظر د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٨ والقراءات القرآنية (له) ص ٧.

(٩٤) جامع البيان ورقة ١٧١ / أ وانظر ما قاله الفخر الرازي ص ٢٢٢ من هذا البحث.

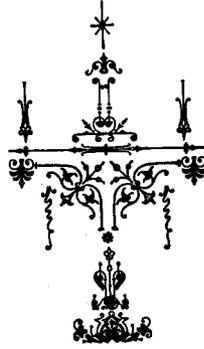
(٩٥) النشر ج ١ ص ٤٢٩.

(٩٦) منجد المقرئين ص ١٥.

(٩٧) النشر ج ١ ص ٩.

(٩٨) نفس المصدر ج ١ ص ١٠ وانظر السيوطي الإتيان ج ١ ص ٢١١.

بالإسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم بل أجمع الائمة المقتدى بهم من السلف على قبولها...» ثم أورد أمثلة لتلك القراءات التي أنكرها بعض النحاة من مثل اسكان ﴿بَارِيكُمْ﴾ (البقرة ٥٤/٢) و﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ (٦٧/٢) وخفض ﴿الْأَرْحَامِ﴾ (النساء ١/٤) والفصل بين المضافين في ﴿قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾ (الأنعام ١٣٧/٦) وغير ذلك. ثم نقل قول الداني الذي نقلناه قبل قليل.



المبحث الثالث

مقياسُ الشُّذُوذِ وَتَطَوُّرِهِ

ذكر ابن جني أن مواضع (ش ذ ذ) في كلام العرب هو التفرق والتفرد^(١)، وقال علم الدين السخاوي: والشاذ مأخوذ من قولهم شذَّ الرجل يشُدُّ ويشذ شذوذاً إذا انفرد عن القوم، واعتزل عن جماعتهم، ثم يقول: وكفى بهذه التسمية تشبيهاً على انفراد الشاذ وخروجه عما عليه الجمهور. والذي لم يزل عليه الأئمة الكبار القدوة في جميع الأمصار من الفقهاء والمحدثين وأئمة العربية توقيف القرآن واجتناب الشاذ واتباع القراءة المشهورة ولزوم الطرق المعروفة في الصلاة وغيرها^(٢).

ويتبين من العرض السابق لأركان القراءة الصحيحة أن تشديد القراءات بدأ منذ نسخ المصاحف في خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - واعتبر ما خرج عن هجاء الكلمات فيها شاذاً، إذ كان بعض الصحابة يقرأون بما خالف رسم المصحف العثماني قبل كتابته والاجماع عليه^(٣)، ولم تكن القراءات في تلك الفترة تنسب إلى أشخاص بأعيانهم. ولم تكن معدودة بعدد، فكل قراءة ثبتت نقلاً ووافقت المصحف قرئ بها وجازت روايتها، وقد عبر عن ذلك الأئمة المتقدمون، فينقل أبو منصور الأزهري أن «من قرأ بحرف شاذ يخالف المصحف، وخالف بذلك جمهور القراء المعروفين فهو غير مصيب، وهذا مذهب

(١) الخصائص ج ١ ص ٩٦.

(٢) جمال القراء ورقة ٨٢ ب.

(٣) ابن الجزري: منجد المحدثين ص ٢١.

الراسخين في علم القرآن قديماً وحديثاً والى هذا أومى أبو العباس النحوي وأبو بكر الأنباري في كتاب ألفه في اتباع ما في المصحف الامام، وافقه على ذلك أبو بكر (بن) مجاهد مقرئ أهل العراق وغيره من الأثبات المتقنين، ولا يجوز عندي غير ما قالوا^(٤) .»

ومع أن الأزهري (ولد ٢٨٢ - ت ٣٧٠ هـ) كان معاصراً لأبي بكر بن مجاهد وتلامذته الذين رووا عنه القراءات السبع التي اختارها من قراءات أئمة الأمصار المشهورين بالقراءة في زمانه فإنه عبر بقوله هذا عن موقف الأجيال السابقة حتى عصره من تعريف الشاذ بأنه ما خالف رسم المصحف، لكن هذا المقياس اختل قليلاً على يد تلامذة ابن مجاهد الذين حصروا القراءات الصحيحة في السبع التي اختارها ابن مجاهد من بين قراءات الأئمة وأطلقوا على ما عداها اسم الشذوذ، وقد ظلت آثار هذا الاتجاه بادية في مواقف بعض العلماء، لكن التعريف القديم للشاذ بأنه ما خالف رسم المصحف عاد تدريجياً في السنين التالية، إلا أن تأليف ابن مجاهد كتابه الكبير في قراءات الأئمة السبعة كان نقطة تحول في دراسة القراءات وروايتها وتغيير مفهوم الشذوذ فيها، فقد كانت الرواية والتأليف قبله تشمل كافة القراءات واختيارات الأئمة المشهورين، لكن عمله ذاك جعل الجهود تتركز على تلك السبع، وضمَّ إليهم بعد ذلك ثلاثة من القراء الأوائل ثم هناك من يزيد أربعة آخرين. وقد اعتبر ما عدا السبع من القراءات - حيناً من الدهر - شاذاً.

إن محاولة التعرف على طريقة التأليف في كتب القراءات قبل ابن مجاهد تبين لنا عمق أثر اختياره في هذا المجال، فقد روى ابن عطية في مقدمة تفسيره الجامع وهو يتحدث عن نقط المصحف في خلافة عبد الملك ان الحجاج «أمر وهو والي العراق الحسن ومجيب بن يعمر بذلك، وألّف أثر ذلك بواسطة كتابا في القراءات جمع فيه ما روي من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس

(٤) تهذيب اللغة ج ٥ ص ١٤ .

على ذلك زماناً طويلاً إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات^(٥). ويفهم من هذا النص أن يحيى بن يعمر (ت قبل ٩٠ هـ) هو الذي ألف ذلك الكتاب. وألفت كتب كثيرة بين تاريخ تأليف يحيى لكتابه الذي اعتبر فيه ما خالف الخط شاذاً كما يفهم من النص السابق وبين عصر ابن مجاهد، وقد أحصى باحث محدث الكتب التي ذكر أنها ألفت في القراءات حتى عصر ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) فذكر أربعة وأربعين كتاباً^(٦). وأولها كتاب يحيى بن يعمر، ثم تتوالى الكتب بعد ذلك فيذكر أحد عشر كتاباً ترجع إلى القرن الثاني، وتسعة وعشرين كتاباً ترجع إلى القرن الثالث وثلاثة إلى أوائل القرن الرابع، وليس بعيداً ألا يكون هذا الاحصاء جامعاً لكل ما ألف، لكنه يكشف عن حقيقة ربما غابت عن بعض الدارسين وهي أن تدوين القراءات والتأليف فيها قد بدأ في وقت مبكر. وكان ذلك مواكباً للنقل الشفاهي والرواية^(٧).

(٥) مقدمة تفسير ابن عطية ص ٢٧٥ ونقل هذا النص القرطبي ج ١ ص ٦٣. وانظر فؤاد سيزكين ج ١ ص ١٤٧.

(٦) د. عبد الهادي الفضلي: قراءة ابن كثير وأثرها في الدراسات النحوية، رسالة دكتوراه، مقدمة لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ١٩٧٥ (ص ٦٠-٦٥) وأنظر ابن النديم ص ٣٥ ود. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٢١٧.

(٧) ذكر جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤) أن القراءات تنوقلت بالإسناد ولم تدون في الكتب إلا بعد نضج التمدن الإسلامي - حسب تعبيره - وذكر أن أشهر ما وصل إلينا منها كتاب إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) - علماً أن هذا الكتاب في موضوع الوقف في القرآن - ثم كتاب التيسير وجامع البيان والمفردات لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) وهذا كلام فيه قصور شديد يتناسب والفترة التي كتب فيها وثقافة كاتبها، ولم يزل البحث يكشف كل يوم جديداً في تاريخ القرآن والقراءات، ولكن نجد من يأبى إلا الرجوع إلى ما كتبه جرجي زيدان في كتابه عن تاريخ العلوم الإسلامية واعتبار ما ذكره - على سبيل الظن - حقيقة مسلمة مخالفاً ضال حائد عن الحق، فقد رأينا من قبل موقف الدكتور حسن عون وما جرّه عليه اعتماده على معلومات جرجي زيدان من أخطاء في موضوع نقط المصاحف ووضع الحركات في الكتابة العربية، =

ويبدو أن كل تلك المؤلفات لم يصل إلينا منها شيء كامل، ولكن وردت أخبار ونصوص منها، والذي يهمننا في هذا المقام هو أن نعرف طريقة التأليف فيها، أو عدد القراءات التي ذكرت فيها، فقد جرى المؤلفون فيها على ذكر ما رووه وسمعوه من قراءات الأئمة المشهورين واختياراتهم، دون تقييد بعدد أو بقراءة شخص معين. فقد ذكر ابن الجزري أن أبا عبيد القاسم بن السلام في كتابه الذي ألفه في القراءات^(٨)، «جعلهم - فيما أحسب - خمسة وعشرين قارئاً»^(٩). وسبق أن أوردنا قطعة من كتاب أبي عبيد ذكر فيها أن الأئمة الذين أجمعت عليهم بلدانهم واشتهروا بالاتقان والضبط في القراءة هم خمسة عشر أو يزيدون قليلاً. ولا بن قتيبة كتاب في القراءات^(١٠) لا نعلم عدد القراءات التي ذكرها فيه لكنه في كتابه المعارف ذكر أصحاب القراءات فجعلهم عشرين. ولعلمهم هم الذين ذكرهم في كتابه ومن بينهم أصحاب القراءات الأربعة عشر الـ يعقوب واليزيدي والحسن^(١١)، وذكر ابن الجزري أن إسماعيل القاضي (ت ٢٨٢ هـ) جمع في كتابه القراءات عشرين قراءة منها السبع المشهورة^(١٢). وأن أبا جعفر محمد بن جرير

= وهو هنا يتخذ نفس الموقف فيزعم (ص ٢٠٣) «أن هذه القراءات تنقلت بالرواية ولم تأخذ شكلها العلمي المنظم إلا في القرن الرابع الهجري. حيث نجد أول كتاب دون في هذا العلم، وهو كتاب الإيضاح في الوقف والابتداء لمحمد بن القاسم الانباري سنة ٣٢٨ هـ» ثم يقول (ص ٢٠٤): «ومعنى هذا أن علم القراءة بدأ في خلافة عثمان واستمر يمارس مشافهة دون تدوين حتى القرن الرابع الهجري». ولا أكاد أشك أن جريري زيدان هو مصدر هذا الكلام، وفيه من التخليط في العبارة والجهل بالحقائق ما لا يخفى على من له أدنى اتصال بتاريخ القرآن وعلومه.

(٨) أنظر ابن النديم ص ٧١ والقفطي ج ٣ ص ٢٢ والذهبي: معرفة القراء ج ١ ص ١٤٢.

(٩) الشرح ١ ص ٣٤.

(١٠) ابن النديم ص ٣٥.

(١١) المعارف ص (٢٣٠-٢٣٢).

(١٢) الشرح ١ ص ٣٤.

الطبري (ت. ٣١٠هـ) جمع كتاباً حافلاً سماه (الجامع) ذكر فيه نيفاً وعشرين قراءة^(١٣).

ولا يعني ذلك أنه لم تُولف كتب ورسائل في قراءة معينة أو بضعة قراءات لكن الظاهرة العامة هي عدم التقيد بعدد من القراءات فأية قراءة توافر لها النقل وموافقة الخط ووجه في العربية كانت قراءة مقبولة يصح نقلها والقراءة بها. ولم تشهد السنون التي سبقت عصر ابن مجاهد التأليف في القراءات الصحيحة النقل الموافقة للخط فحسب، بل شهدت أيضاً التأليف فيما شذ عن ذلك من القراءات التي تروى عن بعض الصحابة التي فيها ابدال كلمة بأخرى أو زيادة كلمة وما الى ذلك. فقد كان هارون بن موسى العتكي الأعمور (ت قبل ٢٠٠) أول من تتبع الشواذ وبحث عن أسانيدها. وكان قد كره الناس عمله حتى أن الأصمعي قال عنه كنت أشتهي أن يضرب لمكان تأليف الحروف^(١٤).

وفي نهاية القرن الهجري الثالث وأوائل الرابع اختار ابن مجاهد قراءة سبعة من قراء الأمصار لم يكونوا ممن عاصروهم ولكنهم ممن اشتهرت قراءتهم ولا يزال الناس يقرأون بها ويروونها حتى عصره، وألف كتابه المشهور في القراءات السبعة. وقد كان ابن مجاهد مشهوراً بالعلم والقراءات والتقدم فيها، قال ابن النديم: ^(١٥) «آخر من انتهت اليه الرياسة بمدينة السلام في عصره أبو بكر أحمد ابن موسى بن العباس بن مجاهد، وكان واحد عصره غير مدافع، وكان مع فضله وعلمه وديانته ومعرفته بالقراءات وعلوم القرآن حسن الأدب رقيق الخلق كثير المداعبة. ثاقب الفطنة، ومولده سنة خمس وأربعين ومائتين وتوفي يوم الاربعاء، ليلية بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثلاث مائة». ووصفه الذهبي بأنه

(١٣) نفس المصدر والصفحة. وقد ذكر الطبري في تفسيره (ج ١ ص ١٤٨) أنه استقصى وجوه الخلاف في القراءات في كتابه (كتاب القراءات).

(١٤) علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ٨٣ ب، أنظر ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٣٤٨.

(١٥) الفهرست ص ٣١.

(شيخ العصر)^(١٦). وقال عنه ابن الجزري (شيخ الصنعة وأول من سبَّ السبعة)^(١٧).

وقد بين مكِّي بن أبي طالب الحاجة الى العمل الذي قام به ابن مجاهد، وسبب استهواره بقوله: «إن الرواة عن الأئمة من القراء كانوا في العصر الثاني والثالث كثيراً في العدد كثيراً في الاختلاف، فأراد الناس في العصر الرابع أن يقتصروا من القراءات التي توافق المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به، فنظروا الى إمام مشهور بالثقة والأمانة وحسن الدين، وكمال العلم، قد طال عمره، واشتهر أمره وأجمع أهل مصره على عدالته فيما نقل، وثقته فيما قرأ وروى، وعلمه بما يقرأ، فلم تخرج قراءته عن خط مصحفهم المنسوب اليهم فأفردوا من كل مصر وجه اليه عثمان مصحفاً إماماً هذه صفته وقراءته على مصحف ذلك المصر، فكان أبو عمرو من أهل البصرة، وحمزة وعاصم من أهل الكوفة وسوادها. والكسائي من أهل العراق، وابن كثير من أهل الكوفة، وابن عامر من أهل الشام، ونافع من أهل المدينة. كلهم ممن اشتهرت إمامته، وطال عمره في الإقراء، وارتحال الناس اليه من البلدان. وأول من اقتصر على هؤلاء أبو بكر بن مجاهد قبل سنة ثلاث مائة أو في نحوها، وتابعه على ذلك من أتى بعده الى الآن، ولم تترك القراءة بقراءة غيرهم. واختيار من أتى بعدهم الى الآن^(١٨)».

وقيل إن ابن مجاهد جعلهم سبعة لأن عثمان - رضي الله عنه - كتب سبعة مصاحف ووجه بها إلى الأمصار فجعل عدد القراء على عدد المصاحف، ولأن عددهم على عدد الحروف التي نزل بها القرآن وهي سبعة^(١٩)، ولا يشك أن هذا مجرد استنتاج لا يستند الى قصد من ابن مجاهد الى ذلك، لأن عدد المصاحف في

(١٦) معرفة القراء ج ١ ص ٢١٦.

(١٧) غاية النهاية: ج ١ ص ١٣٩.

(١٨) الإبانة (٤٧-٤٨). وانظر ابن حجر ج ١٠ ص ٤٠٧.

(١٩) مكِّي: الإبانة ص ٥١. وانظر الزركشي ج ١ ص ٣٢٧. وعلم الدين السخاوي:

جمال القراء ورقة ١٥٠ ب.

الرأي الراجح خسة، وقد كان عدد من العلماء قد كرهوا اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء، وقالوا ألا اقتصر على دون هذا العدد أو زاده حتى لا يظن أن المقصود بهذه القراءات الحروف السبعة^(٢٠).

وكلام ابن مجاهد في مقدمة كتاب (السبعة) الذي طبع محققاً أخيراً يبين أنه إنما أراد أن يستخلص للأمة أهم القراءات التي اشتهرت في الأمصار الإسلامية^(٢١)، فيقول: «وحملة القرآن متفاضلون في جملة، ولنقله الحروف منازل في نقل حروفه، وأنا ذاكر منازلهم، ودالّ على الأئمة منهم، ونخبر عن القراءة التي عليها الناس بالحجاز والعراق والشام، وشارح مذاهب أهل القراءة ومبين اختلافهم واتفاقهم إن شاء الله»^(٢٢). ولا شك في أن ابن مجاهد اختار من القراءات ما وافق خط المصحف ومن القراء بها من اشتهرت عدالته وقامت معرفته، وتقدم أهل زمانه في الدين والأمانة والمعرفة والصيانة واختاره أهل عصره في هذا الشأن، وأطبّقوا على قراءته وقصد من الأقطار، وطالت ممارسته القراءة والاقراء وخص بطول البقاء^(٢٣).

ونتيجة لشهرة ابن مجاهد ومكانته في مجال القراءات ولأنه اختار أشهر القراء الذين أخذوا قراءاتهم عن كبار التابعين فقد دب شعور بأن ما عدا السبعة من القراءات هو أقلّ علواً من حيث السند والرواية، ومن هنا غلب إطلاق لفظ الشذوذ على ما عدا قراءات الأئمة السبعة. وهو معنى جديد للشذوذ، وقد غدّى هذه الفكرة وساعد على انتشارها ابن مجاهد وتلامذته. فقد ألف ابن مجاهد نفسه كتاباً ذكر فيه شواذ القراءة، كان معتمداً على ابن جنّي في المحتسب^(٢٤). وألف أبو طاهر عبد الواحد بن عمر بن أبي هاشم (ت ٣٤٩ هـ) كتاباً في (شواذ

(٢٠) أنظر ابن الجزري: النشر ج ١ ص ٣٦، حيث ينقل أقوال عدد من العلماء في ذلك.

(٢١) مقدمة د. شوقي ضيف لكتاب السبعة ص ٢٢.

(٢٢) كتاب السبعة ص ٤٥.

(٢٣) علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٥٠ ب.

(٢٤) أنظر ابن جنّي: المحتسب ج ١ ص ٣٥.

السبعة^(٢٥). والف أبو علي الفارسي كتاباً في الاحتجاج للقراءات التي أوردها ابن مجاهد في كتاب السبعة^(٢٦). ثم أن ابن جني ألف كتابه المحتسب في الاحتجاج للقراءات التي أوردها ابن مجاهد في كتاب القراءات الشاذة.

وحين تحدث ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) عن القراءات والقراء ذكر أولاً (اخبار القراء السبعة وأسماء رواياتهم وقراءتهم)^(٢٧)، ثم تحدث بعد ذلك عن (قراء الشواذ)^(٢٨)، فذكر ما عدا السبعة من مشهوري القراء الآخرين، فذكر خمسة من قراء أهل المدينة منهم شيبه بن نصاح وأبو جعفر. وأربعة من أهل مكة منهم ابن محيصن وحמיד بن قيس الأعرج، وخسة من أهل البصرة منهم عاصم الجحدري وعيسى بن عمر الثقفي ويعقوب الحضرمي، وذكر من قراء الكوفة أربعة ومن أهل الشام ثلاثة ومن أهل اليمن واحداً، ومن أهل بغداد ذكر خلف ابن هشام. وادراج ابن النديم لأكثر هؤلاء بين قراء الشواذ لم يكن لشيء إلا لأن قراءاتهم ليست من السبع التي اختارها ابن مجاهد، مع العلم ان من بين هؤلاء شيوخاً كباراً للقراء السبعة أو تلامذة نجباء لهم، ولم يكن بينهم من الاختلاف في القراءة إلا اليسير.

إن تشديد ما عدا القراءات السبع الذي وضع أساسه ابن مجاهد في كتابه الكبير وكتابه الآخر في ما شذ عن السبعة لم يستمر طويلاً رغم أن أثره ظل يترأى بين الحين والآخر. وما حصر القراءات في سبع أو عشر إلا أثر من آثاره. لكن المقياس الأول للقراءة الصحيحة وهو أن تتوفر فيها الأركان الثلاثة من صحة النقل وموافقة الخط وأن يكون لها وجه في العربية عاد هو الأساس في وصف القراءة التي تتوفر فيها بالصحة وما عداها بالشذوذ، وقد قال أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ) انه إن اختل أحد هذه الأركان الثلاثة أطلق على القراءة أنها شاذة

(٢٥) ابن النديم ص ٣٢.

(٢٦) أنظر الحجة ج ١ ص ٣.

(٢٧) الفهرست ص (٢٨-٢٩).

(٢٨) نفس المصدر ص (٣٠-٣١).

وضعيفة^(٢٩). وقد وصف ابن تيمية القراءة الشاذة بأنها هي القراءة الخارجة عن رسم المصحف العثماني^(٣٠).

وظهر الى جانب ذلك اتجاه الى ضم قراءات صحيحة أخرى الى السبعة في التأليف منذ النصف الأول من القرن الهجري الرابع، فقد ألف ابراهيم بن عبد الرازق الأنطاكي (ت ٣٣٨ هـ) كتاباً في القراءات الثمان^(٣١). ولأبي الحسن علي بن مرة النقاش (ت ٣٥٢ هـ) كتاب القراء الثانية، أضاف الى السبعة رواية خلف بن هشام البزار^(٣٢). وكان ابن جبير المقرئ - عاش قبل ابن مجاهد - قد ألف كتاباً سماه الثانية زاد فيه على السبعة يعقوب الحضرمي^(٣٣). وذكر ابن حزم في رسالة ألحقها بكتابه جوامع السيرة قراءات الامصار في زمانه (ت ٤٥٦ هـ) فذكر السبعة وأضاف اليهم الأعمش من قراء الكوفة، ويعقوب الحضرمي من قراء البصرة^(٣٤)، ثم إن من المؤلفين في القراءات من ضم الى السبعة أبا جعفر المدني الى جانب يعقوب الحضرمي وخلف بن هشام البزار، وسمى كتابه كتاب العشرة^(٣٥).

ومن ناحية أخرى لم تنقطع القراءة بقراءات الأئمة الثلاثة المتمين للعشرة

(٢٩) أنظر الزركشي ج ١ ص ٣٣١.

(٣٠) مجموعة فتاوى ابن تيمية مج ١ ص ٣١٥. وانظر ابن الجزري: منجد المقرئين، ص (١٦-١٧).

(٣١) الذهبي معرفة القراء ج ١ ص ٢٣٠.

(٣٢) ابن النديم ص ٣٩. وقد ذكر ابن الجزري في غاية النهاية (ج ٢ ص ١٨٦) محمد بن عبد الله بن محمد بن مرة، ويقال ابن أبي مرة، أبو الحسن الطوسي ثم البغدادي يعرف بابن أبي عمر النقاش أخذ القراءة عن جماعة منهم أبو بكر بن مجاهد وروى اختيار خلف عرضاً وتوفي سنة ٣٥٢ هـ. ولعله هو الذي ذكره ابن النديم وحدث تحريف في احد المصدرين.

(٣٣) مكّي: الإبانة ص ٥١. ونقل الزركشي هذا النص ج ١ ص ٣٢٩.

(٣٤) جوامع السيرة ص (٢٦٩-٢٧١)

(٣٥) الزركشي ج ١ ص ٣٢٩.

بل توالى القراءة بها وروايتها خلفاً عن سلف^(٣٦). رغم أنها وصفت في فترة من الزمن بأنها شاذة، وقد بين ابن الجزري في كثير من المواضع ان المقياس الأول الذي يجب أن يقوم عليه قبول القراءة أو تشديدها هو الأركان الثلاثة المشهورة. وقد صرح بأن « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه. ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن. ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت من السبعة أم عن أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف^(٣٧) ».

وقد جعل ابن الجزري القراءات بناء على منهجه السابق: متواترة، ويعني بالتواتر ما رواه جماعة عن جماعة كذا الى منتهاه، يفيد العلم من غير تعيين عدد، وقيل بالتعيين. ويذكر أن من قال إن القراءات المتواترة لا حد لها إن أراد في زماننا فغير صحيح لأنه لا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء العشرة. وإن أراد في الصدر الأول فيحتمل إن شاء الله^(٣٨). والنوع الثاني صحيحة، وهي على قسمين قسم استوفى الأركان الثلاثة إلا أنه لم يكن يبلغ مبلغ المتواتر، وقسم وافق العربية وصح سنده لكنه خالف الرسم، فهذه القراءة تسمى شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه^(٣٩). وكان مكى قد صنف القراءات من قبل تصنيفاً لا يختلف كثيراً عن تصنيف ابن الجزري فقد جعلها ثلاثة أقسام: قسم مقبول يقرأ به وهو ما اجتمعت فيه الأركان الثلاثة. والثاني ما خالف الرسم ونص على أنه يقبل ولكن لا تجوز القراءة به، والثالث ما نقله غير ثقة أو نقله

(٣٦) ابن الجزري: منجد المقرئين ص ٢٩.

(٣٧) النشرح ١ ص ٩.

(٣٨) أنظر منجد المقرئين ص (١٥-١٦).

(٣٩) نفس المصدر ص (١٦-١٧). وانظر السيوطي: الإتيان ج ١ ص (٢١٥-٢١٦).

ثقة ولا وجه له في العربية، فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف^(٤٠). وقد جعل القسطلاني القراءات بالنسبة للتواتر ثلاثة أقسام: متفق على تواتره وهو السبع المشهورة وقسم مختلف فيه وهي الثلاث بعدها، وقسم اتفق على شذوذه وهي قراءات الأئمة الأربعة الباقية: اليزيدي والحسن وابن محيصن والأعمش^(٤١). وجرى الدمياطي على هذا التقسيم إلا أنه نص على أن الصحيح المختار في الثلاثة بعد السبعة التواتر^(٤٢).

(٤٠) الإبانة (١٨-١٩). وانظر ابن الجزري: النشر ج ١ ص (١٣-١٦).

(٤١) لطائف الإشارات ج ١ ص ١٧٠.

(٤٢) أنظر إتحاف فضلاء البشر ص ٧.

المبحث الرابع

وَجُوهُ الْمَخَالَفَةِ الْجَائِزَةِ لِلرَّسْمِ

سبق في الفصل الأول بيان مظاهر قصور الكتابة في تمثيل النطق تمثيلاً دقيقاً، وأشير إلى ذلك في مطلع هذا الفصل، وأحاول في هذا البحث بيان العلاقة بين وجوه القراءات المختلفة وبين الرسم، ومدى المخالفة الجائزة والمسموح بها في مخالفة القراءة للرسم، معتمداً في ذلك على حقيقتين:

الأولى هو ما أشير إليه أكثر من مرة في هذا البحث من كون الكتابة لا تحصر جهة اللفظ دائماً، وإن تطور اللغة قد عمل عمله في توسيع الفجوة بين رموز الكلمة المكتوبة وبين نطقها ذلك لأن النطق أكثر استجابة للتطور والتغير بينما الكتابة أكثر ميلاً للمحافظة على هجاء الكلمات المعروف رغم ما قد يلحق نطقها من تغير.

والثانية هي أن الرسم العثماني إنما كتب لتمثيل القراءة العامة المشهورة في المدينة - وهو ما رجحته من قبل - ثم أن المسلمين في الأمصار الإسلامية قرأوا القرآن على ما رووه وحفظوه عن الصحابة الذين نزلوا بينهم، وفيه كثير مما تحتمله رخصة الأحرف السبعة، ولكنهم قرأوا بما يوافق خط المصحف دون ما خالفه، رغبة منهم في عدم الخروج على إجماع الصحابة. ومن ثم فقد ارتبطت بالرسم كل القراءات التي صح نقلها ولم تخرج عن الرسم. وصارت موافقة الرسم أحد شروط القراءة الصحيحة - كما مر بيان ذلك من قريب - وعلينا أن نلاحظ أن تحديد القراءة التي رسم عليها المصحف لم يعد ممكناً، فقد صارت كل قراءة موافقة للرسم يمكن أن تكون هي تلك القراءة. وقد كان لظاهرة الاختيار

في القراءات أثر في ذلك، وكان مكّي بن أبي طالب قد فصل هذه القضية وبيّن أن المصحف كتب على حرف واحد وأن خطه محتمل لأكثر من حرف، إذ لم يكن منقوطةً ولا مضبوطةً، ولكننا لا نعلم ذلك الحرف بعينه، فجاز لنا أن نقرأ بما صحت روايته مما يحتمله ذلك الخط، لتتحرى مراد عثمان - رضي الله عنه - ومن تبعه من الصحابة وغيرهم. ولا شك أن ما زاد على لفظ واحد في كل حرف اختلف فيه ليس مما أراد عثمان، فالزيادة لا بد أن تكون من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ثم يقول أخيراً «وقد أجمع المسلمون على قبول هذه القراءات التي لا تخالف المصحف، ولو تركنا القراءة بما زاد على وجه واحد من الحروف لكان لقائل أن يقول: لعل الذي تركت هو الذي أراد عثمان»^(١).

أولاً: وجوه المخالفة الجائزة التي ترجع إلى طبيعة الكتابة.

أحسن علماء الرسم والقراءات والعربية أن هجاء بعض الكلمات كثيراً ما يشتمل على رموز زائدة لا تلفظ، ورموز تلفظ على غير ما يدل عليه رسمها، وأصوات تلفظ وليس في الكتابة ما يدل عليها، ولذلك أشاروا إلى وجوب اتباع النطق المروي والمعروف دون الالتفات إلى المكتوب. قال ابن المنادي - وقد نقلنا قوله هذا من قبل - : «إن من المكتوب ما لا تجوز به القراءة من وجه الاعراب، وإن حكمه أن يترك على ما خطّ، ويطلق للقارئ أن يقرأوا بغير الذي يروونه مرسوماً»^(٢). وقال ابن الجزري: «كم من موضع خولف فيه الرسم وخولف فيه الأصل، ولا حرج في ذلك إذا صحت الرواية»^(٣). وهذه المخالفة بين الرسم وبين القراءة جائزة مقبولة، بل تحتملها ضرورة تحقيق الكلام المنطوق على وجهه الصحيح. ولا يلتفت إلى ما في الرسم من زيادة أو نقص أو غير ذلك، وقد قال الزركشي «اتفقت في خط المصاحف أشياء خارجة عن القياسات التي يبنى عليها علم الخط والهجاء، ثم ما عاد ذلك بنكسر ولا نقصان لاستقامة اللفظ

(١) أنظر الإبانة (٤-٥)

(٢) الداني: المحكم ص ١٨٥.

(٣) النشرج ٢ ص ١٤١.

وبقاء الحفظ، وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف» (٤).

ومن أمثلة ذلك رسم رمز الفتحة الطويلة واواً في بضعة كلمات هي (الصلوة - الزكوة - الحيوة - منوة - مشكوة - الغدوة - الربوا). أو رسمها ياء في كثير من الكلمات من مثل (رمى - هدى - يسمى - يخشى - الاعلى - المرعى - الذكرى - موسى - عيسى...) فيلطف في مثل هذه الكلمات بالفتحة الطويلة دون الالتفات إلى كونها مرسومة واواً أو ياء. ويمكن كذلك أن ندرج مع هذه الأمثلة كيفية رسم الهزمة، ذلك لأنها رسمت في المصحف على لغة من يترك الهمز، وكتب ما خلفها في اللفظ واواً أو ياء أو ألفاً، ومن ثم فإن الذين يحققون الهزمة إنما ينطقون صوتاً لا يدل الرسم عليه. وقد أشرنا إلى ذلك مفصلاً من قبل، وكيف صار رمز الهزمة مركباً من أحد الحروف الثلاثة وعليه رأس العين. ومثل ذلك أيضاً ما رسم من رموز زائدة لتمثيل نطق قديم قد حل محله نطق ورموز جديدة، لكن الرمز القديم ظل في الكتابة ثابتاً، ويتجلى هذا في مسألة تمثيل الهزمة فقد رسمت بألف وواو في مثل (أولئك - سأوريكم) وألف وياء في مثل (بايية - باييد - مائة - نبأى - تلقاى) وما أشبه ذلك، ولا شك أن هذين الرمزين لا يقابلها في اللفظ إلا صوت واحد، والقارئ لا يلتفت إلى الرمز الزائد، ومن هذا الباب أيضاً الألف الزائدة التي ترسم بعد الواو المتطرفة، فهي لا يقابلها في النطق شيء وعلى القارئ أن يهملها حقاً.

ولم تكن الكتابة العربية في زمن نسخ المصاحف العثمانية تمثل الحركات القصيرة وبعض الحركات الطويلة، خاصة رمز الفتحة الطويلة، ولا بد للقارئ من الاستعانة بالحفظ والمتعارف عليه من اللفظ لاستيفاء نطق الأصوات الحركية غير المثلة في الرسم.

وقد ذهب بعض علماء الرسم والقراءات - بناء على ذلك - إلى أن موافقة القراءة لخط المصحف تكون تحقيقاً أو تقديراً، مع تفاضيمهم عن رموز الحركات القصيرة، فقد قال الجعبري: إن موافقة المصاحف تكون تحقيقاً كقراءة ﴿مَلِكِ

(٤) البرهان ج ١ ص ١٧٢.

يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحمد ١/٤) بالقصر. وتقديراً كقراءة المد، وهذا الاختلاف اختلاف تغاير، وهو في حكم الموافق، أي لا يلزم من صحة أحدهما بطلان الآخر، ويكون اختلاف تضاد وتناقض، أي يلزم من صحة أحدهما بطلان الآخر، والواقع هو الأول. وتحقيقه ان الخط تارة يحصر جهة اللفظ، فمخالفه مناقض، وتارة لا يحصرها، بل يرسم على أحد التقادير، فاللافظ به موافق تحقيقاً، وبغيره موافق تقديراً لتمدد الجهة إذ البدل في حكم المبدل، وما زيد في حكم المدم، وما حذف في حكم الثابت، وما وصل في حكم الفصل وما فصل في حكم الوصل، وحاصله أن الحرف يبدل في الرسم ويلفظ به اتفاقاً مثل ﴿أَصْطَبِينَ﴾ (مرم ٢٠/٦٥)، ويرسم ولا يلفظ به اتفاقاً مثل (الصلوة)، ويرسم ويختلف في اللفظ به مثل (الغدوة)، ويزاد ويلفظ به اتفاقاً مثل ﴿حِسَابِيَّة﴾ (الحاقة ٦٩/٢٠) ويزاد ولا يلفظ به اتفاقاً مثل ﴿أُولَئِكَ﴾ و(مائة)، ويزاد ويختلف في النطق به، مثل ﴿سُلْطَنِيَّة﴾ (الحاقة ٦٩/٢٩)، ويجذف كذلك نحو ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ و﴿يَرْب﴾ وكذلك ﴿الرَّحْمَن﴾ وكذا ﴿الدَّاع﴾ (البقرة ٢/١٨٦) ويوصل ويتبعه اللفظ مثل ﴿مَنْسِكِكُمْ﴾ (البقرة ٢/٢٠٠) و(عليهم)، ويخالفه نحو ﴿كَهَيْعَص﴾ و﴿يَنْوَم﴾ (طه ٢٠/٩٤) ويختلف فيه نحو ﴿وَيَكَان﴾ (القصص ٢٨/٨٢). ويفصل ويوافق نحو ﴿حَمَّ عَق﴾ ولا يوافق مثل ﴿إِسْرَائِيل﴾، ويختلف فيه نحو (مال)^(٥).

وتحدث ابن الجزري أيضاً عن المخالفة الجائزة للرسم فذكر أن من شروط القراءة الصحيحة «موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً» وبين انه يعني بقوله ولو احتمالاً ما يوافق الرسم ولتقديراً، وأشار إلى أن موافقة الرسم قد تكون تحقيقاً وهي الموافقة الصريحة، وقد تكون تقديراً وهي الموافقة احتمالاً، ثم بين ما يجوز وما لا يجوز من وجوه المخالفة، فقال: إن مخالف صريح الرسم في حرف مدغم أو ثابت أو محذوف أو نحو ذلك لا يعد مخالفاً إذا ثبتت القراءة به

(٥) خيلة أرباب المراد ورقة (٦ أ-٧ ب) ونقل هذا النص القسطلاني ج ١ ص (٢٨٤-٢٨٥).

ووردت مشهورة مستفاضة ألا ترى أنهم لم يعدوا إثبات ياءات الزوائد وقراءة ﴿وَأَكُونُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون ٦٣/١٠) والظاء في (بضنين) (التكوير ٢٤/٨١) ونحو ذلك من مخالفة الرسم المرذودة، فإن الخلاف في ذلك يقتفر إذ هو قريب يرجع إلى معنى واحد، وتمشيه صحة القراءة وشهرتها وتلقيها بالقبول، وذلك بخلاف زيادة كلمة ونقصانها وتقديمها وتأخيرها حتى ولو كانت حرفاً واحداً من حروف المعاني فإن حكمه في حكم الكلمة لا تسوغ مخالفة الرسم فيه، وهذا هو الحد الفاصل في حقيقة إتباع الرسم ومخالفته^(٦).

وتحدث أبو بكر الأنباري عن الوقف على ما رسم بالتاء أو بالهاء من الاسماء المؤنثة وذكر اختلاف القراء في ذلك، وهو يظهر هنا جانباً من المخالفة الجائزة للرسم، فقد ذكر أن كل هاء دخلت للتأنيث فالوقف عليها بالهاء، والتاء جائز، ألا ترى أنهم كتبوا في المصحف بعضها بالتاء وبعضها بالهاء، واختلف القراء في ذلك، فكان أكثرهم يقولون: الوقف على ما في المصحف لا يتعدى، فما كان في المصحف بالتاء وقفنا عليه بالتاء، وما كان بالهاء وقفنا عليه بالهاء، وقال آخرون: أنت مخير في ذلك، إن شئت وقفت على كل هاء للتأنيث في كتاب الله عز وجل بالهاء، وإن شئت وقفت بالتاء، فإذا وقفت بالهاء احتججت بأنك مرید للسكت، وإذا وقفت بالتاء احتججت بأنك مرید للوصل. ويعقب أبو بكر على ذلك بقوله: وهذا المذهب لا يعجبنا، لأنه لو جاز خلاف المصحف في الوقف جاز خلافه في الوصل، فلما اجتمع القراء على ترك كل قراءة تخالف المصحف كان كل من تعمد خلاف المصحف في وصل أو وقف مخطئاً^(٧).

وهذا النوع من المخالفة الناتج عن طبيعة الكتابة ليس للقارئ منه مفر، ولا بد أن يتعداه ويقراً بما يرويه ولا يلتفت إلى مخالفة الرسم لما يقرأ لأن صور هجاء الكلمات التي تظهر فيها رموز زائدة أو على غير ما يدل عليه النطق إنما هي متأثرة بمنطق قديم زال من الاستعمال وحل محله نطق جديد وظلت الكتابة

(٦) أنظر النشرح ١ ص (١١-١٢).

(٧) كتاب إيضاح الوقف والابتداء ج ١ ص (٢٨١-٢٨٢).

تشبث بالصورة القديمة، أو أن الكتابة لم تستكمل بعد تمثيل كافة أصواتها، فعلى الناطق أن ينطق باللفظ كاملاً سواء كانت رموزه تدل على كافة أصواته أم كانت بعض أصواته لا رموز لها في الكتابة.

ولما كان هجاء الكلمة العربية يتحدد بنطق الكلمة موقوفاً عليها بصورة عامة فإن ما جاء من كلمات مرسومة على وصل الكلام بما بعده في الرسم العثماني يسمح بقدر من المخالفة، ذلك لان الأصل هو الوقف بالسكون^(٨)، ومن ثم فإن وقوف القارئ على آخر الكلمة التي رسمت على الوصل يجعله بين أن يلتزم بالقاعدة ويقف بالسكون وقد يصادف أن رسم الكلمة على الوصل قد يختلف عن رسمها على الوقف، وبين أن يقف على الكلمة مع مراعاة أصل كتابتها على الوصل، فما رسم من الهمزات المتطرفة المضمومة واواً في مثل (العلموا - الضعفوا - شركوا - نشوا - يعبوا) قد يضطر القارئ أن يقف على هذه الكلمات فيجد نفسه بين التزام الرسم الذي بني على الوصل وبين أن يقف بالسكون، وقد كان حمزة إذا وقف على حرف لم يهززه وكان يقف على

يتبع في الوقف على الهمز خط المصحف^(٩). ومذهبه مشهور فيما يسمى بالتخفيف الرسمي والمراد به هو انه كان يتبع في الوقف على الهمز خط المصحف^(١٠). ومثل ذلك أيضاً هاء السكت التي دخلت على بضعة كلمات لتبين بها حركة ما قبلها وهي في القرآن سبعة مواضع (يَتَسَّنَّه - سُلْطَنِيَّة - مَالِيَّة - حِسَابِيَّة - مَاهِيَّة - كِتَابِيَّة - أَقْتَدِه) وقد سبقت الاشارة إلى هذه الظاهرة من قبل والقراء كلهم يقفون عليها بالهاء إن وقفوا اتباعاً للمصحف، فإذا أدرجوا اختلفوا، فحمزة يسقطها درجاً، والكسائي يسقط بعضاً ويثبت بعضاً. وسائرهم يثبتها وصلأً ووقفاً^(١١). وقال أبو بكر الأنباري عن هذه الهاء من أثبتها في

(٨) ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ١٢٠.

(٩) أبو بكر الانباري ج ١ ص ٣٨٤. وانظر ابن الجزري النشر ج ١ ص ٤٦٨.

(١٠) ابن الجزري: النشر ج ١ ص ٤٤٥ و ٤٥٩. وانظر الداني: جامع البيان ورقة ١٥٦ ب.

(١١) ابن خالويه: إعراب ثلاثين سورة ص ١٦٤.

الوقف وحذفها في الوصل قال إنما تدخل الهاء في السكت لتبين بها الحركة التي قبلها، فكرهنا أن نقف عليها من غير هاء فلا تبين الفتحة، فلما كانت إنما تدخل في السكت لتبين بها الحركة ثم زال السكت زالت، ومن أثبتها في الوصل والوقف قال أردت أن أبين بها الفتحة التي في آخر الحرف، وبنيت الوصل على الوقف^(١٢). ومثل هذا ما جاء من ما الاستفهامية المجرورة بحرف الجر في (عم - فيم - بم - لم - مم) فإنها رسمت بدون هاء، واختلف القراء في الوقف عليها، وقد روي عن يعقوب والبزي الوقف عليها بالهاء، لنفس المعنى الذي أثبتت له في الكلمات السبعة السابقة^(١٣).

ومما يتعلق بهذا الجانب أيضاً هو أن نطق بعض الأصوات ذات الرموز المستقلة قد يعرض لها حين تنطق في كلمة مع أصوات أخرى بعض التغيير في الصفات الصوتية، قد ينقلها ذلك التغيير إلى خصائص أصوات أخرى؛ لكن ذلك لا يحتم تغيير الرسم لان هذا التغيير في نطق الصوت لا يؤثر في المعنى، فالصوت الجديد هو فرع للصوت الأصلي، وهو ما يسميه علماء اللغة المحدثون (بالفونيم) ومن ثم فإن القراءات التي تخضع لهذه الظاهرة تعد من وجوه المخالفة الجائزة.

ومن الأمثلة على تأثر الأصوات بسبب المجاورة في القراءات دون تغيير الرسم كلمة ﴿الصَّرَاطِ﴾ (الحمد ١/٦) فقد كان حمزة يلفظ بها بين الصاد والزاي كذلك روي عن أبي عمرو في إحدى رواياته^(١٤). ومثل ذلك أيضاً اختلافهم في كلمة (أصدق - تصديق - يصدقون - فاصدع - قصد - يصدر) وما أشبه ذلك إذا سكنت الصاد وأتى بعدها دال، فقد قرأ حمزة والكسائي وخلف بإشمام الصاد الزاي، وافقهم رويس عن يعقوب في ﴿يُصْدِرُ﴾ وهو في القصص (٣٣/٢٨) و﴿يُصْدِرُ﴾ في الزلزلة (٦/٩٩)، واختلف عنه في غيره،

(١٢) إيضاح الوقف والابتداء ج ١ ص (٣٠٥-٣٠٦).

(١٣) ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ١٣٣.

(١٤) أبو علي الفارسي ج ١ ص ٣٦. وابن الجزري النشر ج ١ ص ٢٧١.

وقرأ الباقون بالصاد الخالصة^(١٥). وإشمام الصاد الزاي أو اللفظ بها بين الصاد والزاي ما هو إلا الجهر بالصاد. فكما أن الزاي تقابل السين من حيث الجهر والهمس كذلك يقابل الصاد المهموسة صوت من موضعها مجهور هو هذا المذكور، وقد عبر ابن مجاهد عن هذه الظاهرة بتسمين الصاد فقال وهو يتحدث عن القراءات في (الصراط): «إن حمزة كان يسمن الصاد، فيلفظ بين الصاد والزاي، ولا يضبطها الكتاب»^(١٦). وفي الكلمات الأخرى اتصلت الصاد المهموسة بالبدال الجهورية فلحق الصاد الجهر، وليس في الكتابة العربية رمز للصاد الجهورية لأنه ليس صوتاً أساسياً في اللغة العربية، وعليه فإن النطق بهذه الكلمات بالصاد الجهورية يعتبر من المخالفة الجائزة لأن تأثر الأصوات بالمجاورة أمر معروف لا يستدعي تغيير الرمز، وقد أحسن مؤلف كتاب المباني حين قال في مقدمته عن هذا الموضوع^(١٧): قالت العرب «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ» بتشبيهم الصاد بالسين وإشمامها الزاي فحملت السين على الزاي، وقد قيل: كل واحد من الزاي والسين لا يغير صورة الصاد، كما أن النون الواقعة قبل الباء والنون ساكنة في قولهم (من بعد والعنبر)، وشبهها كل واحد منهن الصوت فيه لفظه يشبه لفظ الميم وهو غير مستعمل في الخط تغليبا لأصل النون، فكذلك الزاي والسين لا يغيران صاد الصراط، كما لا تغير الميم في العنبر لفظ النون وصورتها في الخط دلالة على الأصل. وقد أشبهت الصاد النون بمضارعتها المجهور ودخوله على لفظها كما النون مجهورية.

ثانياً: وجوه المخالفة الجائزة التي ترجع إلى طبيعة علاقة القراءات بالرسم وطبيعة الرسم العثماني نفسه.

لم تكن الكتابة العربية في زمن نسخ المصاحف العثمانية تميز بين الرموز

(١٥) ابن الجزري: النشرج ٢ ص (٢٥٠-٢٥١)

(١٦) كتاب السبعة ١٠٦ وأنظر ص ١٤٢.

(١٧) مقدمة كتاب المباني ص ١٤٧.

المتشابهة في الصورة ولم تكن تمثل الحركات القصيرة أيضاً، إلى جانب أن بعض رموز الحركات الطويلة لم ترسم في كثير من المواضع خاصة الألف، والواو والياء في بعض الأحوال إذا اقترنتا بثلثها، ومن ثم جاء الرسم العثماني متصفاً بهذه الخصائص، وحين أرسلت المصاحف إلى الأمصار الاسلامية أتاحت طبيعة الرسم العثماني لقراء تلك الأمصار مجالاً واسعاً للاحتفاظ بقراءاتهم المروية لأن الرسم المجرد من نقط الاعجام ومن الشكل وما يتصف به من حذف رموز الحركات الطويلة قد مكن أن تحوز قراءات مختلفة كثيرة على شرط موافقة الرسم، ويمكن أن نتأمل الامكانيات التي أتاحتها الرسم للقراءات الصحيحة معتمدين في ذلك - غالباً - على ما ورد في كتاب: (النشر في القراءات العشر) لابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) فهو أشمل مصدر متوفر في هذا الصدد^(١٨).

(١٨) ذكر ابن الجزري في كتاب (النشر) قراءات عشرة من أئمة الأمصار، وأورد لكل قارئ روايتين قال (ج ١ ص ٥٤): «فعمدت إلى أثبت ما وصل إليّ من قراءاتهم، وأوثق ما صح لديّ من رواياتهم من الأئمة العشرة قراء الأمصار، والمقتدى بهم في سالف الأعصار، واقتصرت عن كل إمام براويين وعن كل راوٍ بطريقين، وعن كل طريق بطريقين: مغربية ومشرقية، مصرية وعراقية، ومع ما يتصل إليهم من الطرق، ويشعب عنهم من الفرق:

فنافع (ت ١٦٩ هـ) من روايتي قالون (ت ٢٢٠ هـ) وورش (ت ١٩٧ هـ) عنه.
وابن كثير (١٢٠) من روايتي البزي (٢٥٠) وقنبل (١٩١) عن أصحابها عنه.
وأبو عمرو (١٥٤) من روايتي الدوري (٢٤٦) والسوسي (٢٦١) عن اليزيدي (٢٠٢) عنه.

وابن عامر (١١٨) من روايتي هشام (٢٤٥) وابن ذكوان (٢٠٢) عن أصحابها عنه.
وعاصم (١٢٧) وقيل (١٢٨) من روايتي أبي بكر شعبة (١٩٣) وحفص (١٨٠) عنه.
وحزمة (١٥٦) من روايتي خلف (٢٢٩) وخلاد (٢٢٠) عن سليم (١٨٨) عنه.
والكسائي (١٨٩) من روايتي أبي الحارث (٢٤٠) والدوري (٢٤٦) عنه.
وأبو جعفر (١٣٠) من روايتي عيسى بن وردان (١٦٠) وسليمان بن جاز (١٧٠) عنه.
ويعقوب (٢٠٥) من روايتي رويس (٢٣٨) وروح (٢٣٥) عنه.
وخلف (٢٢٩) من روايتي إسحاق الوراق (٢٨٦) وإدريس الحداد (٢٩٢) عنه.

أ - في مجال الصوامت:

تشارك بعض الصوامت برموز كتابية متشابهة، مثل اشتراك الباء والنون والياء والتاء والثاء برمز واحد، خاصة في غير الطرف، ولما كانت لم تتميز بعد باستعمال النقط فإن هذا الرمز (ا، ب) المجرد - مثلاً - يمكن أن يكون أحد تلك الأصوات الخمسة حسب تردده في الرواية، والإمكانات التي يسمح بها الرسم العثماني في مجال الصوامت محدودة بالنسبة الى ما أتاحة في مجال الحركات، فهي لم تشمل إلا عدداً محدوداً من الصوامت خاصة الأصوات الخمسة التي تشارك برمز واحد، إذ لم يبلغ مجموع ما أحصيته في كتاب النشر للقراء العشرة الثلاثين حرفاً في غير أول المضارع، ومن أمثلة ذلك، والأمثلة مكتوبة حسب رواية حفص عن عاصم.

١- ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ (البقرة ٢/٢١٩) قرأ حمزة والكسائي بالثاء المثناة (كثير) وقرأ الباقون بالباء الموحدة^(١٩).

٢- ﴿نُنَشِّرُهَا﴾ (البقرة ٢/٢٥٩) قرأ ابن عامر والكوفيون (عاصم وحمزة والكسائي) بالزاي المنقوطة وقرأ الباقون بالراء المهملة^(٢٠).

٣- ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ (النساء ٤/٩٤) مرتين والحجرات (٦/٤٩) قرأ حمزة والكسائي وخلف في الثلاثة (فتثبتوا) من التثبث، وقرأ الباقون في الثلاثة (فتبينوا) من التبين^(٢١).

٤- ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ (الأنعام ٦/٥٧) قرأ المدنيان (أبو جعفر ونافع) وابن كثير وعاصم (يقص) بالصاد مهملة مشددة من القصص، وقرأ الباقون بإسكان القاف وكسر الضاد معجمة من القضاء^(٢٢).

(١٩) ابن الجزري: الشرح ٢ ص ٢٢٧.

(٢٠) الشرح ٢ ص ٢٣١.

(٢١) الشرح ٢ ص ٢٥١.

(٢٢) الشرح ٢ ص ٢٥٨.

٥- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا﴾ (الاعراف ٥٧/٧) و(الفرقان ٤٨/٢٥) و(النمل ٦٣/٢٧) قرأ عاصم بالباء الموحدة وضمها وإسكان الشين في المواضع الثلاثة، وقرأ ابن عامر بالنون وضمها وإسكان الشين. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون وفتحها وإسكان الشين. وقرأ الباقون بالنون وضمها وضم الشين^(٢٣).

٦- ﴿أَهْلِكْنَهَا﴾ (الحج ٤٥/٢٢) قرأ البصريان (أبو عمرو ويعقوب) بالياء مضمومة من غير ألف وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وألف بعدها^(٢٤).

٧- ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَةَ﴾ (لقمان ٢٠/٣١) قرأ المدنيان وأبو عمرو وحفص بفتح العين وهاء مضمومة على التذكير والجمع ﴿نِعْمَهُ﴾ وقرأ الباقون بإسكان العين وتاء منونة منصوبة على التأنيث والتوحيد ﴿نِعْمَةً﴾^(٢٥).

٨- ﴿وَأَلْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب ٦٨/٣٣) قرأ عاصم بالياء الموحدة من تحت، واختلف عن هشام، وقرأ الباقون بالياء المثلثة (كثيراً)^(٢٦).

٩- ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات ١٠/٤٩) قرأ يعقوب بكسر الهمزة وإسكان الخاء وتاء مكسورة على الجمع، وقرأ الباقون بفتح الهمزة والخاء والياء ساكنة على التثنية^(٢٧).

أما في أول الفعل المضارع فإن القراء رووا حرف المضارعة نوناً على التكلم أو تاء على الخطاب أو ياء على الغائب، وصورة الحرف تحتل القراءات الثلاث، وقد بلغ مجموع ما أحصيته من حروف في هذا الباب قريباً من مائتين

(٢٣) النشر ج ٢ ص ٢٦٩.

(٢٤) النشر ج ٢ ص ٣٢٧.

(٢٥) النشر ج ٢ ص ٣٤٧.

(٢٦) النشر ج ٢ ص ٣٤٩.

(٢٧) النشر ج ٢ ص ٣٧٦.

وعشرة أحرف. ومن أمثلة ما نقله ابن الجزري في النشر من خلاف بين القراء في هذا النوع في سورتي التوبة ويونس:

١- ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ التوبة (٥٤/٩) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير. وقرأ الباقون بالتاء.

٢- ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ (٦٦/٩) قرأ عاصم ﴿نَعْفُ﴾ بنون مفتوحة وضم الفاء ﴿نُعَذِّبُ﴾ بالنون وكسر الذال. ﴿طَائِفَةً﴾ بالنصب. وقرأ الباقون ﴿يُعْفُ﴾ ياء مضمومة وفتح الفاء ﴿تُعَذِّبُ﴾ بتاء مضمومة وفتح الذال ﴿طَائِفَةً﴾ بالرفع (٢٨).

٣- ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ (١١٧/٩) قرأ حمزة وحفص بالياء على التذكير. وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث (٢٩).

٤- ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ (يونس ٥/١٠) قرأ ابن كثير والبصريان وحفص بالياء وقرأ الباقون بالنون (٣٠).

٥- ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨/١٠) وفي موضعي النحل (٣١/١٦) وفي الروم (٤٠/٣٠) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب في الأربعة وقرأ الباقون بالغيب فيهن (٣١).

٦- ﴿مَا تَمَكَّرُونَ﴾ (٢١/١٠) روى روح بالغيب، وقرأ الباقون بالخطاب (٣١).

٧- ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ (٥٨/١٠) قرأ أبو جعفر وابن عامر ورويس بالخطاب وقرأ الباقون بالغيب (٣٣).

(٢٨) النشر ج ٢ ص ٢٨٠.

(٢٩) النشر ج ٢ ص ٢٨١.

(٣٠) النشر ج ٢ ص ٢٨٢.

(٣١) النشر ج ٢ ص ٢٨٢.

(٣٢) النشر ج ٢ ص ٢٨٢.

(٣٣) النشر ج ٢ ص ٢٨٥.

٨- ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨/١٠) قرأ أبو جعفر وابن عامر ورويس
بالخطاب وقرأ الباقون بالغيب^(٣٤).

٩- ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ (١٠٠/١٠) روى أبو بكر بالنون، وقرأ الباقون
بالياء^(٣٥).

ولما لم يكن للتونين رسم معين في الرسم العثماني فقد أتاح ذلك مجالاً للقراء ان
يرووا الاختلاف في إثبات التونين وتركه خاصة مع الضم والكسر، وتحقق في
كلا القراءتين موافقة الرسم. فقد اختلفوا في تونين ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿لَا
خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة ١٩٧/٢)
و﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ (٢/٢٥٤) و﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾
(ابراهيم ٣١/١٤) و﴿لَا لَفْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ (الطور ٢٣/٥٢) فقرأ يعقوب ﴿لَا
خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ حيث وقعت بفتح الفاء وحذف التونين، وقرأ الباقون بالرفع
والتونين، وقرأ أبو جعفر وابن كثير والبصريان ﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ﴾ بالرفع
والتونين وكذلك قرأ أبو جعفر ﴿وَلَا جِدَالٌ﴾ وقرأ الباقون الثلاثة بالفتح من
غير تونين. وكذا قرأ ابن كثير والبصريان ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ في
البقرة و﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ في ابراهيم. و﴿لَا لَفْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ في
الطور. وقرأ الباقون بالرفع والتونين في الكلمات السبع^(٣٦).

ونجد أمثلة أخرى لهذه الظاهرة من دون لا النافية، من ذلك قوله تعالى
﴿مَوْهِنٌ كَيْدٍ﴾ (الأنفال ١٨/٨)^(٣٧) و﴿بِخَالِصَةِ ذِكْرِ الْوَادِعِ﴾ (ص ٤٦/٣٨)^(٣٨).
و﴿هَلْ هُنَّ كَشِفَتْ ضُرَّهُ... هَلْ هُنَّ مُنْسِكَتْ رَحْمَتِهِ﴾ (الزمر ٣٨/٣٩)^(٣٩).

(٣٤) النشر ج ٢ ص ٢٨٥

(٣٥) النشر ج ٢ ص ٢٨٧

(٣٦) النشر ج ٢ ص ٢١١

(٣٧) النشر ج ٢ ص ٢٧٩

(٣٨) النشر ج ٢ ص ٣٦١

(٣٩) النشر ج ٢ ص ٣٦٣

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ (الصف ٦١/٨)^(٤٠). و﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ (الطلاق ٦٥/٣)^(٤١). و﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا﴾ (النازعات ٧٩/٤٥)^(٤٢). في كل هذه المواضع قرأ بعض القراء بالتنوين وقرأ بعضهم بتركه على الاضافة، على تفصيل في ذلك مذكور في المواضع المشار إليها من النشر. ومن قرأ في مثل هذه المواضع بالتنوين يعتبر موافقاً للرسم. ومن قرأ بدونه يعتبر موافقاً كذلك.

فهذه الأمثلة المتقدمة من القراءات إنما تختلف في حرف صامت، وقد أتاحت طبيعة الرسم العثماني للقراء أن يرووا هذه الاختلافات وتتحقق في قراءاتهم شروط القراءة الصحيحة التي منها موافقة الرسم، ونجد قراءات أخرى يقع الاختلاف بينها في حرف صامت أيضاً، لكنها عدت شاذة لأنها تقتضي تغيير صورة هجاء الكلمة، ففقدت لذلك شرط موافقة خط المصحف ولو احتمالاً^(٤٣).

ب - في مجال الحركات:

سبق أن أشير إلى أنه قد ثبت أن الكتابة العربية لم تكن تمثل الحركات القصيرة بأية علامة، وكذلك جاء الرسم العثماني، ولم يحاول أبو الأسود الدؤلي محاولته في وضع علامات للحركات إلا في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، والعلماء حين ينصون على أن من شروط القراءة الصحيحة موافقة الرسم إنما يعنون الرسم العثماني المجرد، وعلى ذلك فقد سمحت هذه الخاصية بنقل كثير من وجوه الخلاف في القراءة مما صح نقله وعلت روايته.

ولما كانت اللغة العربية - وبقية اللغات السامية - تجعل المعنى العام مرتبطاً بعدد من الأصوات الصامتة ثم تعتمد في تغيير معاني الكلمة المكونة من مجموعة

(٤٠) النشر ج ٢ ص ٣٨٧.

(٤١) النشر ج ٢ ص ٣٨٨.

(٤٢) النشر ج ٢ ص ٣٩٨.

(٤٣) أنظر أمثلة لذلك: د. عبد الصبور شاهين: القراءات ص (٢٦٥-٢٦٦).

من الصوامت على تغيير الحركات التي تأتي بعيد الصوامت^(٤٤)، فقد استغرقت ظاهرة تغير الحركات القصيرة القسط الأكبر من وجوه الخلاف بين القراءات الصحيحة التي رواها أئمة القراءة في الأمصار. وأعرض هنا بعض الأمثلة التي توضح مقدار ما سمحت به طبيعة الرسم العثماني في نقل القراءات المتعددة الوجوه التي تختلف في حركة قصيرة حذفاً أو إثباتاً أو تغييراً.

فمن أمثلة إثبات الحركة القصيرة وحذفها:

- ١- ﴿وَلِيَحْكُمُ﴾ (المائدة ٤٧/٥) قرأ حمزة بكسرة اللام ونصب الميم، وقرأ الباقون بإسكان اللام والميم^(٤٥).
- ٢- ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ (طه ٣٩/٢٠) قرأ أبو جعفر بإسكان اللام وجزم العين وقرأ الباقون بكسر اللام والنصب^(٤٦).
- ٣- ﴿وَلِيُوقُوا نُدُورَهُمْ وُلِيُوقُوا﴾ (الحج ٢٩/٢٢) روى ابن ذكوان كسر اللام فيها وقرأ الباقون بإسكانها منها. وروى أبو بكر فتح الواو وتشديد الفاء من ﴿وَلِيُوقُوا﴾^(٤٧).
- ٤- ﴿الْمَنْزِلِ﴾ (الانعام ١٤٣/٦) قرأ ابن كثير والبصريان بفتح العين والباقون بسكونه^(٤٨).
- ٥- ﴿قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ (يونس ٢٧/١٠) قرأ ابن كثير ويعقوب والكسائي بإسكان الطاء، وقرأ الباقون بفتحها^(٤٩).

(٤٤) أنظر د. عبد الصبور شاهين: القراءات ص ٢٨٣.

(٤٥) ابن الجزري: النسخ ج ٢ ص ٢٥٤.

(٤٦) النسخ ج ٢ ص ٣٢٠.

(٤٧) النسخ ج ٢ ص ٣٢٦.

(٤٨) النسخ ج ٢ ص ٢٦٦.

(٤٩) النسخ ج ٢ ص ٢٨٣.

٦- ﴿زَهْرَةَ الْحَيَوةِ﴾ (طه ١٣١/٢٠) قرأ يعقوب بفتح الهاء، وقرأ الباقون بإسكانها^(٥٠).

٧- ﴿فِي أَيَّامِ نَحْسَاتٍ﴾ (فصلت ١٦/٤١) قرأ أبو جعفر وابن عامر والكوفيون بكسر الحاء. وقرأ الباقون بإسكانها^(٥١).

ومن أمثلة الاختلاف في نوع الحركة القصيرة في غير آخر الكلمة:

١- ﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ﴾ (البقرة ١٧٣/٢) اختلفوا في (اضطر) فقرأ أبو جعفر بكسر الطاء حيث وقع وقرأ الباقون بالضم^(٥٢).

٢- ﴿يَعْرِشُونَ﴾ في الاعراف (١٣٧/٧) وفي النحل (٦٨/١٦) قرأ ابن عامر وأبو بكر بضم الراء فيها، وقرأ الباقون بكسرها فيها^(٥٣).

٣- ﴿فَإِذَا بَرِقَ أَلْبَسْرُ﴾ (القيامة ٧/٧٥) قرأ المدنيان بفتح الراء، وقرأ الباقون بكسرها^(٥٤).

٤- ﴿مَيْسِرَةَ﴾ (البقرة ٢٨٠/٢) قرأ نافع بضم السين. وقرأ الباقون بفتحها^(٥٥).

٥- ﴿حِجُّ أَلْبَيْتِ﴾ (آل عمران ٩٧/٣) قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بكسر الحاء، وقرأ الباقون بفتحها^(٥٦).

٦- ﴿مَطَّلِعَ أَلْفَجْرِ﴾ (القدر ٥/٩٧) قرأ الكسائي وخلف بكسر اللام. وقرأ الباقون بفتحها^(٥٧).

(٥٠) النشر ج ٢ ص ٣٢٢.

(٥١) النشر ج ٢ ص ٣٦٦.

(٥٢) النشر ج ٢ ص ٢٢٦.

(٥٣) النشر ج ٢ ص ٢٧١.

(٥٤) النشر ج ٢ ص ٣٩٣.

(٥٥) النشر ج ٢ ص ٢٣٦.

(٥٦) النشر ج ٢ ص ٢٤١.

(٥٧) النشر ج ٢ ص ٤٠٣.

ومن أمثلة اختلاف حركات أواخر الكلم:

- ١- ﴿فَتَذَكَّرْ﴾ (البقرة ٢/٢٨٢) قرأ حمزة برفع الراء ، والباقون بفتحها^(٥٨).
- ٢- ﴿وَيَجْعَلْ لَكَ﴾ (الفرقان ١٠/٢٥) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر برفع اللام. وقرأ الباقون بجزمها^(٥٩).
- ٣- ﴿فَتَنْفَعُهُ﴾ (عبس ٤/٨٠) قرأ عاصم بنصب العين ، وقرأ الباقون برفعها^(٦٠).
- ٤- ﴿الْأَرْحَامِ﴾ (النساء ١/٤) قرأ حمزة بخفض الميم وقرأ الباقون بنصبها^(٦١).
- ٥- ﴿فَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ (النساء ١١/٤) قرأ المدنيان بالرفع. وقرأ الباقون بالنصب^(٦٢).
- ٦- ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ﴾ (المائدة ٥/١١٩) قرأ نافع بالنصب في (يوم) وقرأ الباقون بالرفع^(٦٣).

ولم تكن الكتابة العربية تمثل الفتحة الطويلة المتوسطة في كثير من الحالات ، كذلك الضمة والكسرة الطويلتان إذا اقترنت الضمة الطويلة بواو والكسرة الطويلة بياء ، إلى جانب أن رموز الحركات الثلاث قد حذفت في أواخر بعض الكلمات خاصة رمز الكسرة الطويلة ، ويبدو أن ظاهرة عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة المتوسطة كانت أكبر أثراً في توافر شرط موافقة الرسم في قراءات كثيرة من أثر عدم إثبات رمزي الضمة والكسرة الطويلتين. وهذه أمثلة لقراءات اتاحتها هذه الظاهرة في الفعل المضارع والأمر والماضي وفي الأسماء مفردة وجمعاً:

-
- (٥٨) النسخ ج ٢ ص ٢٣٦.
 - (٥٩) النسخ ج ٢ ص ٣٣٣.
 - (٦٠) النسخ ج ٢ ص ٣٩٨.
 - (٦١) النسخ ج ٢ ص ٢٤٧.
 - (٦٢) النسخ ج ٢ ص ٢٤٧.
 - (٦٣) النسخ ج ٢ ص ٢٥٦.

١- ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ (البقرة ٩/٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم الياء وألف بعد الخاء وكسر الدال. وقرأ الباقون بفتح الياء وسكون الخاء وفتح الدال من غير ألف (٦٤).

٢- ﴿تَزَوَّرُ﴾ (الكهف ١٧/١٨) قرأ ابن عامر ويعقوب ﴿تَزَوَّرُ﴾ بإسكان الزاي وتشديد الراء من غير ألف، وقرأ الكوفيون بفتح الزاي وتخفيفها وألف بعدها وتخفيف الراء. وقرأ الباقون كذلك إلا أنهم شددوا الزاي (٦٥).

٣- ﴿حَتَّى يُلْقُوا﴾ في الزخرف (٨٣/٤٣) والطور (٤٥/٥٢) والمعارج (٤٢/٧٠) قرأ أبو جعفر بفتح الياء وإسكان اللام وفتح القاف من غير ألف قبلها في الثلاثة ﴿يُلْقُوا﴾ وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وألف بعدها وضم القاف في (يلاقوا) (٦٦).

٤- ﴿فَلَا يَخْفُ ظُلْمًا﴾ (طه ١١٢/٢٠) قرأ ابن كثير ﴿يَخْفُ﴾ بالجزم، وقرأ الباقون بالرفع (٦٧).

٥- ﴿قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ﴾ (الانبياء ٤/٢١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (قال) بألف على الخبر. والباقون (قُلْ) بغير ألف على الأمر (٦٨).

٦- ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى﴾ في البقرة (٥١/٢) والاعراف (١٤٢/٧). وفي طه (٨٠/٢٠) ﴿وَوَعَدْنَكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ قرأ أبو جعفر والبصريان بقصر الألف من الوعد، وقرأ الباقون بالمد من المواعدة (٦٩).

(٦٤) الشرح ٢ ص ٢٠٧.

(٦٥) الشرح ٢ ص ٣١٠.

(٦٦) الشرح ٢ ص ٣٧٠.

(٦٧) الشرح ٢ ص ٣٢٢.

(٦٨) الشرح ٢ ص ٣٢٣.

(٦٩) الشرح ٢ ص ٢١٢.

- ٧- ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾ في النساء (٤/٤٣) والمائدة (٥/٦) قرأ حمزة والكسائي وخلف
بغير ألف فيها. وقرأ الباقون فيها بالألف^(٧٠).
- ٨- ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحمد ١/٤) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف
بالألف مدأً، وقرأ الباقون بغير ألف قصراً^(٧١).
- ٩- ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ﴾ (الذاريات ٥١/٤٤) قرأ الكسائي ﴿الصَّعِقَةُ﴾
بإسكان العين من غير ألف، وقرأ الباقون بكسر العين وألف قبلها^(٧٢).
- ١٠- ﴿عِظًا نَّخِرَةً﴾ (النازعات ٧٩/١١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر
ورويس (ناخرة) بالألف. وقرأ الباقون بغير ألف^(٧٣).
- ١١- ﴿أَنْ يَغْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ (التوبة ٩/١٧) قرأ البصريان وابن كثير
﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ على التوحيد. وقرأ الباقون بالجمع^(٧٤).
- ١٢- ﴿ءَايَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (يوسف ١٢/٧) قرأ ابن كثير بغير ألف على التوحيد.
وقرأ الباقون بالألف على الجمع^(٧٥).
- ١٣- ﴿يَكْفِ عِبْدَهُ﴾ (الزمر ٣٩/٣٦) قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف
(عباده) وقرأ الباقون (عبده)^(٧٦).

ففي هذه المواضع وأخرى غيرها من قرأ بدون الفتحة الطويلة وافق الرسم
تحقيقاً - بغض النظر عن الحركات القصيرة - ومن قرأ بإثباتها في اللفظ وافق
الرسم تقديراً واحتمالاً، ذلك لأن حذف رمز الفتحة الطويلة في وسط الكلمة

(٧٠) النسخ ج ٢ ص ٢٥٠.

(٧١) النسخ ج ١ ص ٢٧١.

(٧٢) النسخ ج ٢ ص ٣٧٧.

(٧٣) النسخ ج ٢ ص ٣٩٧.

(٧٤) النسخ ج ٢ ص ٢٧٨.

(٧٥) النسخ ج ٢ ص ٢٩٣.

(٧٦) النسخ ج ٢ ص ٣٦٢.

ظاهرة عامة في الكتابة العربية في عصر انتساخ المصاحف العثمانية أتاحت للقراء أن ينقلوا من القراءات ما جاء بإثبات الفتحة الطويلة رغم أنها غير ثابتة في الرسم.

وكانت الكتابة العربية ولا زالت تكتب الصوت المشدد برمز واحد، وكذلك كتابته في الرسم العثماني، وقد جاءت عدة قراءات اختلفت بين تضعيف الصوت وبين استبدال التضعيف بفتحة طويلة، فمن ضَعَّف الصوت موافق للخط ومن أبدل فتحة طويلة موافق. ومن أمثلة ذلك:

١- ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ في الأنعام (١٥٩/٦) والروم (٣٢/٣٠) قرأها حمزة والكسائي (فارقوا) بالألف مع تخفيف الراء، وقرأ الباقر بن غير ألف مع التشديد فيها^(٧٧).

٢- ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ (لقمان ١٨/٣١) قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر ويعقوب بتشديد العين من غير ألف، وقرأ الباقر بن بتخفيفها وألف قبلها^(٧٨).

وسبق أن أشير إلى أن الفتحة الطويلة رسمت ياء في آخر كثير من الكلمات، فهي ياء في الرسم فتحة طويلة في اللفظ، وقد رويت قراءات في ما رسم من تلك الكلمات بالياء فقرئت كسرة طويلة أو ياء، وتتحقق الموافقة للرسم في القراءتين ومن أمثلة ذلك:

١- ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ (يونس ١١/١٠) قرأ ابن عامر ويعقوب بفتح القاف والضاد وقلب الياء ألفاً ونصب (أجلهم) وقرأ الباقر بن بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء ورفع (أجلهم)^(٧٩).

(٧٧) النسخ ج ٢ ص ٢٦٦.

(٧٨) النسخ ج ٢ ص ٣٤٦.

(٧٩) النسخ ج ٢ ص ٢٨٢.

٢- ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ (النحل ٣٧/١٦) قرأ الكوفيون بفتح الياء وكسر الدال، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الدال^(٨٠).

٣- ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ (الشورى ٣/٤٢) قرأ ابن كثير بفتح الحاء بالبناء للمجهول، وقرأ الباقون بكسرها على التسمية^(٨١).

ولما كان رمزا الواو والياء يمثلان الضمة والكسرة الطويلتين إلى جانب الصوتين الصامتين فإن ذلك يتيح رواية القراءات التي تقرأ بالواو والياء أو بالحركتين الطويلتين مع تحقيق موافقة الخط في كل منها من ذلك ﴿مُوصٍ وَمُوصٍ﴾^(٨٢) و﴿رُوحٌ وَرُوحٌ﴾^(٨٣) و﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ (محمد ٢٢/٤٧) روى رويس بضم التاء والواو وكسر اللام وقرأ الباقون بفتحهن^(٨٤).

كذلك في حالة الياءات المحذوفة رسماً المختلف في إثباتها وحذفها وصلها أو وصلها ووقفها. في مثل (الداع - الْجَوَارِ - المناد - التناد - يأت - يسر - نبغ) وشبه ذلك، فمن قرأ بحذف الياء كان موافقاً تحقيقاً ومن قرأ بإثباتها كان موافقاً تقديراً^(٨٥). ومثل ذلك أيضاً وصل هاء الضمير للواحد المذكور إذا انضم، وسكن ما قبله بواو، وإذا انكسر، وسكن ما قبله بياء في قراءة ابن كثير خاصة، فإذا وقف حذف تلك الصلة^(٨٦).

ورمز الألف في الكتابة العربية يمثل الهمزة سواء كانت همزة قطع أم همزة وصل. ويمثل الفتحة الطويلة، وقد أتاح ذلك رواية القراءات التي اختلفت في

(٨٠) النشر ج ٢ ص ٣٠٤.

(٨١) النشر ج ٢ ص ٣٦٧.

(٨٢) النشر ج ٢ ص ٢٢٦.

(٨٣) النشر ج ٢ ص ٣٨٣.

(٨٤) النشر ج ٢ ص ٣٧٤.

(٨٥) ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ١٦١ و ١٨٠. وانظر أبو بكر الأنباري ج ١ ص ٢٣٣ وما بعدها.

(٨٦) أنظر الداني: التيسير ص ٢٩.

ذلك مع تحقق شرط موافقة الرسم فيها، فمن الاختلاف في الألف هل هي همزة قطع أم وصل:

١- ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ (البقرة ٢/٢٥٩) قرأ حمزة والكسائي بالوصل وإسكان الميم على الأمر، وإذا ابتدأ كسراً همزة الوصل، وقرأ الباقون بقطع الهمزة والرفع على الخبر (٨٧).

٢- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا﴾ (المؤمن ٤٠/٤٦) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر بوصل همزة (ادخلوا) وضم الخاء، ويبتدون بضم الهمزة، وقرأ الباقون بقطع الهمزة مفتوحة في الحالين وكسر الخاء (٨٨).

٣- ﴿أَنْظِرُونَا﴾ (الحديد ٥٧/١٣) قرأ حمزة بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الظاء. وقرأ الباقون بوصل الهمزة وضم الظاء (٨٩).

ومن أمثلة الاختلاف في الألف هل هي همزة أو فتحة طويلة:

١- ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَخِيرٍ﴾ (النمل ٢٧/٨٧) قرأ حمزة وخلف وحفص بفتح التاء وقصر الهمزة وقرأ الباقون بمد الهمزة وضم التاء (٩٠).

٢- ﴿مِنْسَاتَهُ﴾ (سبأ ٣٤/١٤) قرأ المدنيان وأبو عمرو بألف بعد السين من غير همز، وروى ابن ذكوان بإسكان الهمزة واختلف عن هشام. وقرأ الباقون بفتح الهمزة (٩١).

٣- ﴿ءِاسِنٍ﴾ (محمد ٤٧/١٥) قرأ ابن كثير بغير مد بعد الهمزة. وقرأ الباقون بالمد (٩٢).

(٨٧) ابن الجزري النشرح ٢ ص ١٣١.

(٨٨) النشرح ٢ ص ٣٦٥.

(٨٩) النشرح ٢ ص ٣٨٤.

(٩٠) النشرح ٢ ص ٣٣٩.

(٩١) النشرح ٢ ص ٣٤٩.

(٩٢) النشرح ٢ ص ٣٧٤.

وهذه الأمثلة سواء منها ما يتعلق بالصوامت أم الحركات طويلة وقصيرة وأمثلة أخرى غيرها لا يتسع المكان لإيرادها توضح كيف أتاح الرسم العثماني بما اتصف به من خصائص أن يقرأ المسلمون في الأمصار ما تلقوه من الصحابة الذين نزلوا بينهم مما يوافق الرسم العثماني المجرد، وتركوا ما كان يخالفه من قراءات فيها تقديم كلمة أو تأخيرها أو زيادة حرف لا يحتمله الرسم أو نقصانه، وبذلك أصبح الرسم ركناً ينبغي توفر موافقة القراءة له لكي تعد قراءة صحيحة، بعد ثبوت روايتها، لكن موافقة القراءة للرسم كانت تسمح بقدر من المخالفة الجائزة التي يرجع بعضها إلى طبيعة الكتابة والبعض الآخر إلى طبيعة علاقة القراءات بالرسم العثماني.

ولم تكن موافقة الرسم الشرط الوحيد الذي ينبغي توفره في القراءة الصحيحة بل لا بد من صحة النقل قبل كل شيء، كما بينا ذلك مفصلاً من قبل، ولذلك فقد وردت قراءات توافق الرسم لكنها اعتبرت شاذة لأنها لم يتحقق فيها النقل المتواتر على نحو ما تحقق في القراءات الصحيحة وهناك أمثلة كثيرة للقراءات التي عدت شاذة لمخالفتها الرسم، وأمثلة أخرى للقراءات التي عدت شاذة لعدم علوها في الرواية رغم موافقتها للرسم أو احتمالها لها^(٩٣).

(٩٣) من أمثلة القراءات الشاذة المخالفة للرسم ما ورد في الفصل الذي عقده أبو عبيد في فضائل القرآن تحت عنوان (الزوائد من الحروف التي خولف بها الخط) (أنظر فضائل القرآن لوحة ٣٧-٤٣). ومن أمثلة القراءات الشاذة التي قد توافق الرسم وقد تخالفه ما أورده ابن أبي داود في كتاب المصاحف، والقسم الذي جمعه آرثر جفري محقق كتاب المصاحف والذي طبع مع كتاب المصاحف، ثم ما ورد في مختصر كتاب البديع لابن خالويه، والمحتسب لابن جني، وهناك مصادر أخرى للشواذ، أنظر في ذلك: د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ١٠ وما بعدها. وقد أورد الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه (القراءات القرآنية) أمثلة كثيرة للقراءات الشاذة. منها ما يوافق الرسم ومنها ما يخالفه. خاصة في موضوع الهمز وتركه وموضوع اختلاف الحركات.

المبحث الخامس

الكلمات التي اختلفَ رَسمُها في المصاحف العُثمانيَّة

ومما يتصل بموضوع علاقة القراءات بالرسم هو أن عدداً من الكلمات قد اختلف هجاؤها بين المصاحف العثمانية بزيادة حرف أو نقصان حرف، وقد جاءت الرواية بتحديد هذه الكلمات المختلفة عن الأئمة المتقدمين الذين حصروا تلك الحروف منذ وقت مبكر، وألّفت في هذا الموضوع بضعة كتب ذكر ابن النديم منها: (كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق) لابن عامر اليحصبي إمام أهل الشام (ت ١١٨ هـ) و (كتاب اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة) عن الكسائي (ت ١٨٩ هـ) و (كتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف) للفرّاء (ت ٢٠٧ هـ) و (كتاب اختلاف المصاحف) لخلف بن هشام البزار (ت ٢٢٩ هـ) و (كتاب اختلاف المصاحف) لابن أبي داود، ولعله كتاب المصاحف المطبوع أو غيره، وذكر ابن النديم كتباً أخرى غير هذه^(١).

ولم يعثر على واحد من تلك الكتب اليوم عدا كتاب ابن أبي داود إذا اعتبرنا أن المقصود به كتاب (المصاحف) المطبوع، رغم أنه جمع معلومات كثيرة تتعلق بتاريخ القرآن وقراءته ومصاحف الصحابة وشيئاً يسيراً عن اختلاف المصاحف العثمانية، وإذا لم يكن قد وصل إلينا كتاب من تلك الكتب فإن ما تضمنته من تفاصيل قد وصل إلينا رواية في كتب أخرى، فقد روى الاختلاف

(١) أنظر الفهرست ص ٣٦.

بين المصاحف أبو عبيد في كتابه (فضائل القرآن)^(٢)، وابن أبي داود في المصاحف^(٣)، وجمعها الداني في المنع^(٤)، وذكر طرفاً منها أبو العباس المهدي في كتابه (هجاء مصاحف الأمصار)^(٥)، وأورد أبو حيان عن خلف بن هشام البزار ما اختلف فيه مصحف أهل المدينة وأهل العراق^(٦). ووردت حروف الاختلاف في مصادر أخرى^(٧).

ويجب التمييز بين نوعين من اختلاف هجاء الكلمات في المصاحف العثمانية، فهناك بعض الكلمات رُسمت في بعض المصاحف بإثبات الألف رمزاً للفتحة الطويلة وبعضها جاء بحذف الألف، وما أشبه ذلك، واللفظ واحد في كلا الحالتين، وكذلك وصل أو فصل بعض الكلمات مما لا يترتب عليه اختلاف في اللفظ غالباً، من مثل ﴿قُلْ بِئْسَ مَا يَأْمُرُكُمْ﴾ (البقرة ٩٣/٢) في بعض المصاحف مقطوع وفي بعضها ﴿بِسْمَا﴾ موصول، وفي بعض المصاحف ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ﴾ (المائدة ١٨/٥) وفي بعضها ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ بغير واو، وفي بعض المصاحف ﴿وَلَا أَوْضَعُوا﴾ (التوبة ٤٧/٩) وفي بعضها ﴿وَلَا أَوْضَعُوا﴾ بألف زائدة. وفي بعض المصاحف ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ (الإسراء ٩٣/١٧) بالألف وفي بعضها ﴿سُبْحَنَ﴾ بغير ألف^(٨). فالاختلاف في هذه الأمثلة وما يشبهها لا يترتب عليه اختلاف في اللفظ، فالقراءة واحدة في كلا الرسمين، ولا أثر لاختلاف الهجاء في القراءة.

وهناك قسم آخر من الاختلاف في هجاء الكلمات يشمل زيادة حرف أو

(٢) لوحة ٤٤-٤٦.

(٣) ص ٣٧ وما بعدها.

(٤) ص ٩٢ وما بعدها.

(٥) أنظر ص (١١٨-١٢٢).

(٦) البحر المحيط مج ١ ص ٣٩٨.

(٧) أبو بكر الباقلاني ص (٣٨٩-٣٩٤) ومقدمة كتاب المباني (المجهول) ص ١١٧.

(٨) أنظر هذه الأمثلة وأخرى غيرها: الداني: المنع ص ٩٢ وما بعدها.

نقصه أو تبديل حرف مكان آخر، مما يترتب عليه تغير في طريقة اللفظ، وهو المقصود في هذا البحث، وقد أثبتت المصادر الأولى أن هذا الخلاف يرجع الى المصاحف الأئمة التي أرسلت من المدينة الى الأمصار في زمن الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه - أو أنها وجدت في المصاحف القديمة التي انتسخت من تلك المصاحف المرسله.

وأقدم مصدر نقل ذلك الاختلاف - حسب ما أطلعت عليه من مصادر - هو الرواية التي يذكرها ابو عبيد في فضائل القرآن - وقد نقلها الداني في المقنع مسندة الى أبي عبيد^(٩). وسأورد هنا رواية أبي عبيد بنصها، فهي أقدم رواية معروفة في هذا المجال، وأحاول أن أورد بعد ذلك ما جاء في الروايات الأخرى في الموضوع.

جاء في فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام^(١٠):

« حروف القرآن التي اختلفت فيها مصاحف أهل الحجاز وأهل العراق، أبو عبيد قال: حدثنا اسماعيل بن جعفر المدني أن أهل الحجاز وأهل العراق اختلفت مصاحفهم في هذه الحروف:

- ١ - كتب أهل المدينة في سورة البقرة (١٣٢/٢) ﴿وَأَوْصَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ﴾ بالألف، وكتب أهل العراق ﴿وَوَصَّىٰ﴾ بغير ألف.
- ٢ - وكتب في سورة آل عمران (١٣٣/٣) أهل المدينة ﴿سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ بغير واو، وأهل العراق ﴿وَسَارِعُوا﴾ بالواو.
- ٣ - وفي سورة المائدة (٥٣/٥) أهل المدينة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا هُوَ لَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ بغير واو، وأهل العراق بالواو، ﴿وَيَقُولُ﴾.
- ٤ - وفيها أيضاً (٥٤/٥) أهل المدينة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدِدُ مِنكُم﴾

(٩) المقنع ص (١٠٨-١١٢)

(١٠) فضائل القرآن لوجه (٤٤-٤٦)

- عَنْ دِينِهِ ﴿بَدَالِينَ، وَأَهْلَ الْعِرَاقِ ﴿مَنْ يَرْتَدَّ﴾ بِدَالٍ وَاحِدَةٍ .
- ٥ - وفي سورة براءة (١٠٧/٩) أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾
بغير واو، وَأَهْلَ الْعِرَاقِ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ بِالْوَاوِ .
- ٦ - وفي سورة الكهف (٣٦/١٨) أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾
على اثنين، وَأَهْلَ الْعِرَاقِ ﴿خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ عَلَى وَاحِدَةٍ .
- ٧ - وفي سورة الشعراء (٢١٧/٢٦) أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ﴾ بِالْفَاءِ، وَأَهْلَ الْعِرَاقِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ بِالْوَاوِ .
- ٨ - وفي سورة المؤمن (٢٦/٤٠) أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿وَأَنْ يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ
الْفَسَادَ﴾ بغير ألف، وَأَهْلَ الْعِرَاقِ ﴿أَوْ أَنْ﴾ بِالْفِ .
- ٩ - وفي سورة عسق (الشورى ٣٠/٤٢) أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾
بغير فاء، وَأَهْلَ الْعِرَاقِ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ بِالْفَاءِ .
- ١٠ - وفي سورة الزخرف (٧١/٤٣) أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ بِالْهَاءِ،
وَأَهْلَ الْعِرَاقِ ﴿تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ﴾ بغير هاء .
- ١١ - وفي سورة الحديد (٢٤/٥٧) أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ بغير
﴿هُوَ﴾ وَأَهْلَ الْعِرَاقِ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .
- ١٢ - وفي سورة والشمس وضحها (١٥/٩١) أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾
بِالْفَاءِ، وَأَهْلَ الْعِرَاقِ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ بِالْوَاوِ .
- وقال أبو عبيد: وهذه الحروف التي اختلفت فيها مصاحف أهل الشام وأهل
العراق، وقد وافق أهل الحجاز في بعض وفارقت بعضاً:
- قال أبو عبيد: حدَّثنا هشام بن عمار عن أيوب بن تميم عن يحيى بن الحارث
الذماري عن عبد الله بن عامر اليحصبي . قال هشام وحدَّثنا سويد بن عبد العزيز
أيضاً عن الحسن بن عمران عن عطية بن قيس عن أم الدرداء عن أبي الدرداء
أن هذه الحروف في مصاحف أهل الشام، وقد دخل حديث أحدهما في حديث
الآخر، وهي ثمانية وعشرون حرفاً، في مصاحف أهل الشام:

- ١٣- في سورة البقرة (١١٦/٢) ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ بغير واو.
- ١٤- وفي سورة آل عمران (١٣٣/٣) ﴿سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بغير واو.
- ١٥- وفيها أيضاً (١٨٤/٣) ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ كلهن بالباء.
- ١٦- وفي سورة النساء (٦٦/٤) ﴿وَمَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ بالنصب.
- ١٧- وفي سورة المائدة (٥٣/٥) ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بغير واو.
- ١٨- وفيها أيضاً (٥٤/٥) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدِذِ مِنكُمْ﴾ بدالين.
- ١٩- وفي سورة الأنعام (٣٢/٦) ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ بلام واحدة.
- ٢٠- وفيها أيضاً (١٣٧/٦) ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمُ شُرَكَائِهِمْ﴾ بنصب «الأولاد» وخفض «شركاء» ويتأولونه قتل شركائهم أولادهم.
- ٢١- وفي سورة الأعراف (٣/٧) ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بتاءين.
- ٢٢- وفيها أيضاً (٤٣/٧) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بغير واو.
- ٢٣- وفيها أيضاً (٩٠/٧) في قصة شعيب ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بغير واو.
- ٢٤- وفيها أيضاً (٧٥/٧) في قصة صالح ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ بالواو.
- ٢٥- وفيها أيضاً (١٤١/٧) ﴿وَإِذْ أَنجَكُم مِّن آلِ فِرْعَوْنَ﴾ بغير نون.
- ٢٦- وفي سورة براءة (١٠٧/٩) ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ بغير واو.
- ٢٧- وفي سورة يونس (٢٢/١٠) ﴿هُوَ الَّذِي يُنشِرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنون والشين.
- ٢٨- وفيها أيضاً (٩٦/١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ على الجمع.

٢٩ - وفي سورة بني إسرائيل (٩٣/١٧) ﴿قَالَ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ﴾ بالألف على الخبر.

٣٠ - وفي سورة الكهف (٣٦/١٨) ﴿خَيْرًا مِنْهُمَا مُنْقَلَبًا﴾ على اثنين.

٣١ - وفي سورة المؤمنون (٨٥/٢٣ و ٨٧ و ٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ لِلَّهِ ثَلَاثُهَا﴾ ثلاثهن بغير ألف.

٣٢ - وفي سورة الشعراء (٢١٧/٢٦) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ بالفاء.

٣٣ - وفي سورة النمل (٦٧/٢٧) ﴿أَنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ بنونين بغير استفهام^(١١).

٣٤ - وفي سورة المؤمن (٢١/٤٠) ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ بالكاف.

٣٥ - وفيها أيضاً (٢٦/٤٠) ﴿وَأَن يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ بغير ألف.

٣٦ - وفي سورة عنتق (الشورى ٣٠/٤٢) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بغير فاء.

٣٧ - وفي سورة الرحمن (١٢/٥٥) ﴿وَالْحَبُّ ذَا الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ بالنصب.

٣٨ - وفيها أيضاً (٧٨/٥٥) ﴿تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ بالرفع.

٣٩ - وفي سورة الحديد (٢٤/٥٧) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ بغير ﴿هُوَ﴾.

٤٠ - وفي سورة والشمس (١٥/٩١) ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ بالفاء.

قال أبو عبيد: وقد ذكرنا ما خالفت فيه مصاحف أهل الحجاز وأهل الشام مصاحف أهل العراق نفسها، فلم تختلف مصاحفها فيما بينها إلا في خمسة أحرف بين مصاحف الكوفة والبصرة، كتب الكوفيون:

٤١ - في سورة الأنعام (٦٣/٦) ﴿لَئِن أَنْجَنَّا مِنْ هَذِهِ﴾ بغير تاء.

٤٢ - وفي سورة الأنبياء (٤/٢١) ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ بالألف على الخبر.

٤٣ - وفي سورة المؤمنون (١١٢/٢٣) ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بغير ألف.

(١١) لا يعتبر هذا الحرف في الواقع من المختلف لأن (أنا وأئنا) ترسمان برموز واحدة.

٤٤ - وكذلك التي تليها (١١٤/٢٣) ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مثل الأول .
٤٥ - وفي سورة الأحقاف (١٥/٤٦) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ بألف
قبل الحاء وأخرى بعد السين .

وكتبها البصريون ﴿لَئِن أَنْجَيْتَنَا﴾ بالتاء ، وكتبوا ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾
على الأمر بغير ألف ، وكتبوا ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بالألف على الخبر ،
وكذلك التي تليها ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ مثل الأول . وكتبوا ﴿بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا﴾ بغير
ألف .

تلك هي رواية أبي عبيد للكلمات التي اختلف رسمها في المصاحف العثمانية ،
وقد ردد هذه الرواية من جاء بعده ، وزادوا فيها تفصيلاً ، ونقلها اللداني في
المُنع - كما أُشير قبل قليل إلى ذلك - وقد جمع إليها روايات أخرى وزاد فيها
على ما جاء في رواية أبي عبيد بضعة عشر حرفاً: أكثرها عن مصحف أهل
مكة ، فقد ذكر ما تفرّدت به مصاحف أهل مكة فقال (١٢) : حدّثنا محمد بن علي
قال: حدّثنا ابن مجاهد ، قال: في مصاحف أهل مكة:

٤٦ - في سورة التوبة (١٠٠/٩) ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ عند رأس المائة
بزيادة ﴿مِنْ﴾ .

٤٧ - وفي سورة سُبْحَانَ (٩٣/١٧) ﴿قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ بألف .

٤٨ - وفي سورة الكهف (٩٥/١٨) ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ﴾ بنونين .

٤٩ - وفي سورة الأنبياء (٣٠/٢١) ﴿أَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بغير واو .

٥٠ - وفي سورة الفرقان (٢٥/٢٥) ﴿وَنَزَّلَ الْمَلَكُ﴾ بنونين .

٥١ - وفي سورة النمل (٢١/٢٧) ﴿أَوْ لِيَأْتِنِي﴾ بنونين .

٥٢ - وفي القصص (٣٧/٢٨) ﴿قَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ﴾ بغير واو .

وذكر الداني أيضاً في باب جامع الحروف المشهورة التي اختلفت فيها المصاحف العثمانية فنقل ما جاء في رواية أبي عبيد وذكر ما رواه عن ابن مجاهد فيما تفردت به مصاحف أهل مكة - التي ذكرت قبل سطور - وزاد على ذلك ستة مواضع، وقد ابتدأ الباب بقوله^(١٣): « وهذا الباب سمعناه - من غير واحد من شيوخنا ». والمواضع الستة هي:

٥٣- في سورة النساء (٣٦/٤) قال الكسائي والفرّاء في بعض مصاحف أهل الكوفة: ﴿وَأَلْجَارَ ذَا الْقُرْبَى﴾ بألف. قال الداني: ولم نجد ذلك كذلك في شيء من مصاحفهم ولا قرأ به أحد منهم^(١٤).

٥٤- وفي سورة يس (٣٥/٣٦) في مصاحف أهل الكوفة ﴿وَمَا عَمِلْتَ أَيْدِيهِمْ﴾ بغير هاء بعد التاء، وفي سائر المصاحف ﴿وَمَا عَمَلْتَهُ﴾ بالهاء^(١٥).

٥٥- وفي سورة الزمر (٦٤/٣٩) في مصاحف أهل الشام ﴿تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ بنونين وفي سائر المصاحف ﴿تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ بنون واحدة^(١٦).

٥٦- وفي سورة الزخرف (٦٨/٤٣) في مصاحف أهل المدينة والشام ﴿يَعْبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ بالياء، وفي مصاحف أهل العراق ﴿يَعْبَادِ﴾ بغير ياء^(١٧).

٥٧- وفي القتال (١٨/٤٧) قال خلف بن هشام البزار في مصاحف أهل مكة والكوفيين: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بالكسر مع الجزم. وقال الكسائي ذلك كذلك في مصاحف أهل مكة خاصة، قال خلف بن هشام: ولا نعلم أحداً منهم قرأ به^(١٨).

٥٨- وفي الحديد (١٠/٥٧) في مصاحف أهل الشام ﴿وَكُلُّ وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ بالرفع، وفي سائر المصاحف ﴿وَكُلًّا﴾ بالنصب^(١٩).

(١٣) نفس المصدر ص ١٠٢.

(١٧) نفس المصدر ص ١٠٦.

(١٤) نفس المصدر ص ١٠٣.

(١٨) نفس المصدر ص ١٠٧.

(١٥) نفس المصدر ص ١٠٦.

(١٩) نفس المصدر ص ١٠٨.

(١٦) نفس المصدر ص ١٠٦.

ويلاحظ في هذه الستة المواضع الأخيرة أن الداني يشك في رواية الموضع الأول ﴿والجار ذا القربى﴾ ولكن نجد أن الفراء قد ذكره في معاني القرآن وهو يتحدث عن قوله تعالى (الرحمن ٥٥/١٢) ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ وذكر أنه في مصاحف أهل الشام ﴿ذا العصف﴾ لكنه يقول ولم نسمع بها قارئاً^(٢٠). بينما ينص ابن مجاهد ان ابن عامر قرأها ﴿ذا العصف﴾^(٢١). ثم يقول الفراء^(٢٢). « كما أن في بعض مصاحف أهل الكوفة ﴿والجار ذا القربى﴾ ولم يقرأ به أحد، وربما كتب الحرف على جهة واحدة، وهو في ذلك يقرأ بالوجه، وبلغني: ان كتاب علي بن أبي طالب - رحمه الله - كان مكتوباً: هذا كتاب من علي بن أبو طالب، كتبها أبو في كل الجهات، وهي تعرب في الكلام اذا قرئت ». والفراء هنا يشير الى أن بعض صور هجاء الكلمات قد تحجرت على هيئة معينة لكنها قد تقع موقعا اعرابياً تلفظ فيه على نحو يخالف ما هي عليه في الرسم، ويؤيد ما ذكره الفراء ان نفس هذه الكلمة قد جاءت في مصحف طشقند مرسومة بالألف، أعني قوله تعالى ﴿والجار ذا القربى﴾.

إن أحد عشر موضعاً من مواضع الاختلاف بين المصاحف قد تكررت في هذه الروايات. فثمانية من الحروف التي خالفت بها مصاحف أهل المدينة مصاحف أهل العراق تتفق معها مصاحف أهل الشام (الأرقام ٢-٣-٤-٥-٦-٧-٨-١٠-١١-١٢) وتقابلها الأرقام: ١٤-١٧-١٨-٢٦-٣٠-٣٢-٣٥-٣٦-٣٩-٤٠). ونجد أن رقم (٢٩) من المواضع التي خالف فيها مصحف أهل الشام مصاحف أهل العراق يتفق مع رقم (٤٧) من المواضع التي انفرد بها مصحف أهل مكة. وكذلك فإن رقم (٢٣) تفرد بذكره أبو عبيد، ونجد أيضاً أن رقم (٣٣) ليس من مواضع اختلاف المصاحف العثمانية لأن قراءة ابن عامر والكسائي

(٢٠) معاني القرآن ج ٣ ص ١١٤.

(٢١) كتاب السبعة ص ٦١٩. وانظر الداني: التيسير ص ٢٠٦.

(٢٢) معاني القرآن ج ٣ ص ١١٤.

(اننا مخرجون) وقراءة الباقي (ائنا) بالاستفهام^(٢٣)، تعتبران موافقتين للخط. وكذلك فان الأرقام (٢٨-٢٩-٤٢-٤٣-٤٤-٥٦) يمكن أن تكون من وجوه المخالفة الجائزة، فالخمسة المواضع الأولى اختلفت في حذف وإثبات الألف التي تمثل الفتحة الطويلة، والسادس في إثبات أو حذف الياء في آخر الكلمة، وكل ذلك مما يكثر في الرسم العثماني. ويجب التنبيه الى أن رقم (٢١) قد رواه أبو عبيد (تذكرون) بتاءين^(٢٤). بينما يذكره الداني في الرواية التي ينقلها عن أبي عبيد (يتذكرون) بياء وتاء^(٢٥). وذكر أيضاً أن ابن عامر قرأ هذا الحرف (يتذكرون) وغيره (تذكرون) بدون ياء^(٢٦)، لكن ابن مجاهد ذكر الروایتين فقال: «قرأ ابن عامر: (قليلاً ما يتذكرون) بياء وتاء، وقد روي عنه بتاءين»^(٢٧).

إن مجموع ما جاء في الروايات السابقة ثمانية وخمسون موضعاً، منها أحد عشر موضعاً مكررة، وواحد تفرد به أبو عبيد، وسبعة أخرى يمكن أن تكون من باب المخالفة الجائزة فيكون بذلك مجموع ما بقي منها تسعة وثلاثين موضعاً، لم تختلف فيها إلا بزيادة حرف أو نقصانه مثل زيادة أو نقصان الألف والواو واللام والهاء والفاء والياء والنون والميم والذال أو مجلول حرف مكان حرف مثل تبادل الفاء والواو أو الألف والواو أو الألف والياء أو الواو والياء أو الكاف والهاء، أو بتغيير محدود في شكل الكلمة كما في رقم (٢٧) ولم يصل الاختلاف الى مستوى الاختلاف في كلمة إلا في موضعين (١١ و ٤٦) وفي كلا الحالتين تتكون الكلمة المختلف فيها من حرفين (هو ومن).

وقد تحدّث علماء الرسم والقراءات عن سبب وجود هذه الحروف المختلفة في

(٢٣) الداني: التيسير ص ١٦٩.

(٢٤) فضائل القرآن لوحة ٤٥.

(٢٥) أنظر المقنع ص ١١١ وأنظر ابن أبي داود ص ٤٥.

(٢٦) التيسير ص ١٠٩ وأنظر ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ٢٦٧.

(٢٧) كتاب السبعة ص ٢٧٨.

هجائها، فقال أبو عبيد بعد أن ذكر الرواية التي نقلناها قبل قليل: هذه الحروف التي اختلفت في مصاحف الأمصار ليست مثل الزوائد التي خالفت الخط لأن هذه مثبتة بين اللوحين وهي كلها منسوخة من الامام الذي كتبه عثمان بن عفان ثم بعث الى كل أفق مما نسخ بمصحف، ومع هذا إنها لم تختلف في كلمة تامة ولا في سطر إنما كان اختلافها في الحرف الواحد من حروف المعجم كالواو والهاء والألف وما أشبه ذلك إلا في الحرف الذي في الحديد وهو (١٠/٥٧) ﴿فإن الله الغني الحميد﴾ فإن أهل العراق زادوا كلمة ﴿هو﴾. وأما سائرها فهو ما أعلمتك ليس لأحد انكار شيء منها ولا شك هي كلها عندنا كلام الله والصلاة بها تامة إذا كانت هذه حالها^(٢٨).

وقال المهدي حول هذا الموضوع «إنما أقر عثمان ومن اجتمع على رأيه من سلف الأمة هذا الاختلاف في النسخ التي اکتبت وبعثت الى الأمصار لعلمهم أن ذلك من جملة ما أنزل عليه القرآن فأقر ليقراه كل قوم على روايتهم»^(٢٩).

وتحدّث أبو عمرو الداني عن هذه الحروف المختلفة فقال^(٣٠): «فإن سأل سائل عن السبب الموجب لاختلاف مرسوم هذه الحروف الزوائد في المصاحف، قلت السبب في ذلك عندنا: أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - لما جمع القرآن في المصاحف ونسخها على صورة واحدة، وآثر في رسمها لغة قريش دون غيرها مما لا يصح ولا يثبت، نظراً للأمة واحتياطاً على أهل الملة. وثبت عنده أن هذه الحروف من عند الله عزّ وجل كذلك منزلة، ومن رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - مسموعة، وعلم أن جمعها في مصحف واحد على تلك الحال غير متمكن إلا بإعادة الكلمة مرتين وفي رسم ذلك كذلك من التخليط

(٢٨) أنظر فضائل القرآن لوحة ٤٦ ونقل الداني بعض ما قاله أبو عبيد في المقنع

ص ١٠٨ وانظر الباقلاني ص ٣٩٤.

(٢٩) هجاء مصاحف الأمصار ص ١٢١.

(٣٠) المقنع ص (١١٤-١١٥).

والتغيير للمرسوم ما لاختفاء به ففرّقها في المصاحف ، لذلك جاءت مثبتة في بعضها ومحدوفة في بعضها لكي تحفظها الأمة كما نزلت من عند الله عز وجل ، وعلى ما سُمعت من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فهذا سبب اختلاف مرسومها في مصاحف أهل الأمصار .»

وتحدث عن هذا الموضوع أيضاً أبو القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي^(٣١) فقال: والذي بلغني من السبب في إثبات هذه الحروف وإخلاء بعضها منها أن الصحابة - رضي الله عنهم - ثبت عندهم الوجهان فلم يمكنهم إيداع كلا الوجهين في مصحف واحد بخلاف القراءات من نحو (يكذبون ويكذبون) بالتخفيف والتشديد ، (يقبل وتقبل) بالياء والتاء ونحو ذلك ، ففرقوها في المصاحف لئلا تبطل قراءة دون قراءة ويأتوا على جميع ذلك ، وصح عند الكافة أن كلا الوجهين بإثبات الحرف وحذفه سائغ مروى متلّو به ، ثم من بعد اتصلت التلاوة والرواية على نحو ما استودعوه - رضي الله عنهم أجمعين - في المصاحف من اثبات وحذف فلزمنا اتباعهم فيه^(٣٢) .

إن ما ذكره أبو عبيد بشأن هذا الموضوع يقتصر على تأكيد أن هذه الحروف كلها ثابتة في المصاحف الأئمة التي نسخت في المدينة وأرسلت الى الأمصار وأن قبولها واجب وليس لأحد انكار شيء منها . وأشار المهدي الى أن كلا الوجهين هو مما أنزل عليه القرآن فأثبت ليقراه كل قوم على روايتهم ، ويبين قولاً الداني وابن عبد الكافي أن هذه الحروف قد ثبت أنها من عند الله عز وجل كذلك منزلة ومن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسموعة ، ولما استحال جمعها في مصحف فرقت في المصاحف لكي تحفظها الأمة ولا يبطل منها شيء .

(٣١) هو تلميذ أبي الحسن علي بن عبد الله الفارسي صاحب ابن مهران (ت ابن مهران ٣٨١ هـ) وقد سماه ابن الجزري (غاية النهاية ج ١ ص ٤٠٠) عبد الكافي فقط . وانظر المصحف المطبوع ص (هـ) من التعريف بالمصحف .

(٣٢) كتاب في القراءات ، مخطوط ، دار الكتب المصرية برقم (قراءات ٢٦٥ طلعت) ورقة ٥-أ-٥ ب .

وقد أشير من قبل أكثر من مرة الى أن الراجح هو أن تكون المصاحف العثمانية قد رسمت على قراءة واحدة، ومن ثم فإن دعوى اثبات هذه الحروف هو محافظة على ما لا يحتمله رسمها من وجوه القراءات المختلفة التي تشملها رخصة الأحرف السبعة من الضياع تصبح موضع نظر، فالقصد من توحيد المصاحف كان إثبات وجه واحد وان الوجوه المخالفة للرسم أكثر من هذه الحروف المعدودة التي اختلف رسمها في المصاحف الأئمة، ويبدو أن القول بأن الوجهين اللذين يروى عليهما الحرف الواحد قد صارا من الشهرة والذيع بحيث استوى إثبات أي منها عند الصحابة الذين تولوا نسخ المصاحف، فأثبتوا أحدهما في مصحف وأثبتوا الآخر في مصحف ثان، وكأنهم لم يكتبوا الا حرفاً واحداً - هو القول الأقرب الى الواقع في تفسير هذه الظاهرة. فما كتب في المصاحف الأئمة هو حرف واحد أي قراءة واحدة الا هذه الحروف المعدودة التي استوى فيها الوجهان فأثبت أحدهما في بعض المصاحف والآخر في المصاحف الأخرى، سواء كان ذلك عن قصد من الصحابة - رضوان الله عليهم - أم أن علو كلا الوجهين وتقاربها قد جعلهم يكتبونها في المصاحف وكأنها وجه واحد.

ويرأى هذا المعنى من قول ابن حجر العسقلاني في مسألة اشتال المصحف العثماني على الأحرف السبعة كلها أو بعضها حين يقول: «والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على انزاله المقطوع به، المكتوب بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - وفيه بعض ما اختلف فيه من الأحرف السبعة لا جميعها، كما وقع في المصحف المكي ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ في آخر براءة (١٠٠/٩) وفي غيره مجذف ﴿من﴾. وكذا ما وقع من اختلاف مصاحف الأمصار من عدة واوات ثابتة في بعضها دون بعض، وعدة هاءات، وعدة لامات وهو محمول على أنه نزل بالأمرين معاً، وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بكتابتها لشخصين أو أعلم بذلك شخصاً واحداً، وأمره بإثباتها على الوجهين، وما عدا ذلك من القراءات مما لا يوافق الرسم فهو مما كانت القراءة جوّزت به توسعة على الناس

وتسهيلاً، فلما آل الحال إلى ما وقع من الاختلاف في زمن عثمان وكفر بعضهم بعضاً اختار الاختصار على اللفظ المأذون في كتابته وتركوا الباقي» (٣٣).

ومما قد يؤيد أن هذه الوجوه المختلفة كانت في الشهرة بمنزلة واحدة فكتبت لذلك بوجه في مصحف وبوجه آخر في مصحف ثان كون كلا الوجهين يُمثل اتجاهاً لغوياً لطائفة من العرب، في الغالب، وقد تتبع صاحب كتاب المباني هذه الوجوه المختلفة حرفاً حرفاً وبين وجهها في العربية وكيفية استعمالها في القرآن^(٣٤). وأوضح مثال على ذلك هو كتابة الفعل المضعف الآخر (يرتد) في قوله تعالى (المائدة ٥/٥٤) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ...﴾ بدالين في مصاحف أهل المدينة ﴿يَرْتَدِدْ﴾ وبدال واحدة ﴿يَرْتَدَّ﴾ في مصاحف أهل العراق، فقد عقد سيويوه باباً سماه (باب مضاعف الفعل واختلاف العرب فيه) بين فيه أن العرب مُجمعون على الإدغام إذا تحرك آخر الفعل المضعف، فإذا كان الحرف في موضع تسكن فيه لام الفعل فإن أهل الحجاز يفكُون الإدغام ويجركون أول المضعف فيقولون اردد وأجتر وأما بنو تميم فيدغمون المجزوم كما أدغموا إذا كان الحرفان متحركين فيسكنون الأول ويجركون الثاني وهو قول غيرهم من العرب وهم كثير^(٣٥). فيقولون رَدَّ وأجتر. وقد قال جمال الدين بن مالك: «أنزل الله القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلاً فإنه نزل بلغة التميميين كالإدغام في ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ﴾ (الأنفال ٨/١٣) وفي ﴿وَمَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ (المائدة ٥/٥٤) فإن إدغام المجزوم لغة تميم، ولهذا قل، والفك لغة الحجاز ولهذا كثر، نحو ﴿وَلِيُمَلِّلْ﴾ (البقرة ٢/٢٨٢) ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ (آل عمران ٣/٣١) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَرْزِي﴾ (طه ٢٠/٣١) ﴿وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غُضْبِي﴾ (طه

(٣٣) فتح الباري ج ١٠ ص ٤٠٥. وقد نقل القسطلاني في لطائف الإشارات (ج ١ ص ٦٥) كلام ابن حجر المذكور.

(٣٤) أنظر ص (١٢١-١٣٣) من مقدمة الكتاب التي نشرها آرثر جفري.

(٣٥) أنظر الكتاب ج ٢ ص (١٥٨-١٥٩).

٨١/٢٠) «(٣٦). وتتبع الوجوه الأخرى وملاحظة مذاهب العرب في التعبير في مثلها تكشف عما يلاحظ في (يرتد ويرتد) تأمل مثلاً (وصى - أوصى) وتأمروني - تأمروني)، ويكفي قبل كل هذا ومعه أن هذه الوجوه قد ثبتت فيها الرواية وصحّ النقل وجاءت مجيء التواتر رسماً وتلاوة.

أما علاقة الأداء بهذه الكلمات المرسومة على أكثر من وجه في المصاحف فإن تأمل اتجاهات القراءة في أول نشأتها تظهر - كما سبق - أن قراء كل مصر من الأمصار الإسلامية قد نقلوا من القراءات التي أخذوها من الصحابة ما يوافق خط مصحفهم لذلك فإنّ الغالب أن توافق قراءة كل إمام مصحف أهل بلده، وقد قال ابن الجزري: إذا اختلفت المصاحف في رسم حرف فينبغي أن تتبع في تلك المصاحف مذاهب أئمة أمصار تلك المصاحف، فينبغي إذا كان مكتوباً مثلاً في مصاحف المدينة أن يجري ذلك في قراءة نافع وأبي جعفر، وإذا كان في المصحف المكي فقراءة ابن كثير، والمصحف الشامي فقراءة ابن عامر، والبصري فقراءة أبي عمرو ويعقوب، والكوفي فقراءة الكوفيين؛ هذا هو الأليق بمذاهبهم والأصوب بأصولهم^(٣٧). ولكن ربما قرأ بعض القراء بعض هذه الحروف على خلاف مصحفه، على نحو ما يرويه عمّن أخذ قراءته عنه^(٣٨). ولذلك قال الإمام أبو عمرو الداني: والقطع عندنا على كيفية ذلك في مصاحف أهل الأمصار على قراءة أئمتهم غير جائز إلا برواية صحيحة عن مصاحفهم بذلك؛ إذ قراءتهم في كثير من ذلك قد تكون على غير مرسوم مصحفهم، ثم يضرب الداني مثلاً لذلك بقراءة أبي عمرو بن العلاء قوله تعالى: (الزخرف ٦٨/٤٣) ﴿يَعْبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ بالياء وهو في مصاحف أهل البصرة بغير ياء، وقراءته ﴿وَأَكُونُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون ١٠/٦٣) بالواو والنصب. وهو في كل المصاحف بغير واو مع الجزم. وقراءته في والمرسلات (١١/٧٧) ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ وُتَّتْ﴾ بالواو من

(٣٦) السيوطي: الإتيان ج ٢ ص ١٠٣.

(٣٧) الشرح ج ٢ ص ١٥٨.

(٣٨) أنظر المهدي ص ١٢١.

الوقت وهو في كل المصاحف بالألف ثم يذكر أمثلة أخرى من هذا الباب ويقول:
وأما بينت هذا الفصل ونهت عليه لأنني رأيت بعض من أشار الى جمع شيء من
هجاء المصاحف من منتحلي القراءة من أهل عصرنا قد قصد هذا المعنى وجعله
أصلاً فأضاف بذلك ما قرأ به كل واحد من الأئمة من الزيادة والنقصان في
الحروف المتقدمة وغيرها الى مصاحف أهل بلده ، وذلك من الخطأ الذي يقود
اليه إهمال الرواية وإفراط الغباوة وقلة التحصيل إذ من غير الجائز القطع على
كيفية ذلك الا بخبير منقول عن الأئمة السالفين ورواية صحيحة عن العلماء
المختصين بعلم ذلك ، المؤتمنين على نقله وإيراده لما بيّناه من الدلالة (٣٩).

وما ذكره الداني - ها هنا - إنما يؤكد أن كلا من هجاء الكلمات في
المصاحف وقراءة قراء الأمصار ينبنى على الرواية والنقل وليس أحدهما تبعاً
للآخر وان كان الرسم قد صار أحد أركان القراءة الصحيحة ، ولكن لما كان أئمة
القراءة في الأمصار قد ثبتوا على قراءة ما يوافق خط مصحف بلدهم فمن
المتوقع أن تأتي قراءتهم موافقة لما فيه ، ولكن قد لا توافق روايات أولئك القراء
ما في مصاحف بلدانهم فيعتمدون على الرواية ويتركون الرسم على ما خط عليه .

وقد ظهر من تتبع مواضع الاختلاف السابقة في كل من كتاب السبعة لابن
مجاهد والتيسير للداني والنشر لابن الجزري أن قراء الأمصار يوافقون مصاحفهم
في الحروف التي اختلفت في الرسم غالباً ، ولما كانت القراءة رواية وتلقيا فقد
ظهرت أمثلة متعددة لمخالفة بعض القراء لمصاحف بلدانهم في ما اختلفت فيه
المصاحف من حروف ، وهو شاهد أكيد على أن المعتمد في القراءة هو الرواية
والمشاهدة أولاً ثم موافقة الرسم مما صح نقله من قراءات ثانياً ، فإن لم تتحقق
الموافقة فيما يرويه القارئ من قراءات ثبتت على روايته وإن خالفت الرسم . وقد
قال أبو طاهر العقيلي « ومرسوم المصحف لم يكن وضع على قراءة أهل البلد
الذي سير اليه كل مصحف حتى يكون تابعا لهم ، وإنما مرجع ما أضيف الى

مصحف كل قطر العنينة أيضاً، وربما وافق قراءتهم مصحفهم وهو الغالب، وربما اختلفا ولا غرة»^(٤٠).

ومن الأمثلة التي توضح ذلك أن في سورة يونس (٢٢/١٠) رسم في مصاحف الشام ﴿يُنشِرُكُمْ﴾ وفي بقية المصاحف ﴿يُسِيرُكُمْ﴾^(٤١)، وقد قرأ ابن عامر وأبو جعفر المدني ﴿يُنشِرُكُمْ﴾^(٤٢)، فأبن عامر موافق لمصحف بلده، وأبو جعفر غير موافق لمصحف بلده.

ورسم في مصحف الكوفة في سورة يس (٣٥/٣٦) ﴿وَمَا عَمَلَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بغير هاء بعد التاء، وفي سائر المصاحف ﴿وَمَا عَمَلَتْهُ﴾ بالهاء^(٤٣). وقد قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم (عملت)، وقرأ حفص عن عاصم (وما عملته) بالهاء مثل باقي القراء^(٤٤). ويكون عاصم من طريق أبي بكر - بذلك - موافقاً لمصحف بلده وغير موافق من طريق حفص.

ورسم في مصحف الكوفة في سورة المؤمن (٢٦/٤٠) ﴿أَوْ أَنْ يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ بألف قبل الواو. وفي سائر المصاحف ﴿وَأَنْ يُظْهَرَ﴾^(٤٥). وقد قرأ الكوفيون ويعقوب البصري ﴿أَوْ أَنْ﴾^(٤٦). فيكون يعقوب بذلك مخالفاً لمصحف أهل البصرة.

ورسم في سورة الزخرف (٧١/٤٣) في مصاحف أهل العراق ومكة ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ﴾ بغير هاء في تشهي. وفي مصاحف المدينة والشام ﴿تَشْتَهِيهِ﴾

(٤٠) مختصر ما رسم في المصحف الشريف لوحة ٢٣.

(٤١) أنظر: أبو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٤٥ وابن أبي داود ص ٤٦ والمهدوي

ص ١١٩ والداني: المقنع ص ١٠٤.

(٤٢) ابن الجزري: النشرح ٢ ص ٢٨٢.

(٤٣) الداني: المقنع ص ١٠٦.

(٤٤) ابن مجاهد ص ٥٤٠ والداني: التيسير ص ١٨٤ وابن الجزري: النشرح ٢ ص ٣٥٣.

(٤٥) الداني: المقنع ص ١٠٦.

(٤٦) ابن الجزري: النشرح ٢ ص ٣٦٥.

بإثبات الهاء^(٤٧). وقد قرأ المدنيان وآبن عامر وحفص عن عاصم ﴿تَشْتَهِي﴾ بهاء بعد الياء^(٤٨). ويكون عاصم بذلك مخالفاً لمصحف الكوفة من طريق حفص.

ويبدو أن هذه المواضع التي اختلف هجاؤها بين مصاحف الأمصار أخذت ترسم في فترات متأخرة وفق قراءة القارئ التي يضبط بها المصحف. ونجد هذا في المصحف الذي خط وطبع بمصر سنة (١٩٢٣ م = ١٣٤٢ هـ) تحت إشراف لجنة من العلماء والذي أشرنا إليه من قبل، فقد جاء في التعريف بالمصحف ما نصه «أما الأحرف اليسيرة التي اختلفت فيها أهجية تلك المصاحف فاتبع فيها الهجاء الغالب مع مراعاة قراءة القارئ الذي يكتب المصحف لبيان قراءته»^(٤٩). ولذلك فقد رسم فيه ﴿وَمَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ (يس ٣٦/٣٥) بالهاء، وهي في مصاحف الكوفة بدونها، وكذلك رسم ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ (الزخرف ٤٣/٧١) بالهاء عكس ما عليه مصاحف الكوفة أيضاً، حتى توافق رواية حفص هذه الحروف، وهو يوافق بذلك المصاحف غير الكوفية.

(٤٧) أنظر: أبو عبيد: فضائل القرآن لوحة ٤٥ وابن أبي داود ص ٤٧ والمهدوي ص ١٢٠، والداني: المقنع ص ١٠٧، وابن الجزري: النشر ج ٢ ص ٣٧٠.

(٤٨) ابن مجاهد ص ٥٨٨، الداني: التيسير ص ١٩٧، وابن الجزري: النشر ج ٢ ص ٣٧٠.

(٤٩) أنظر ص (ج-د) من التعريف بالمصحف في خاتمته.

المبحث السادس

أخطاءٌ وشبهاتٌ حولَ الرسمِ

قبل أن نترك الحديث عن العلاقة بين القراءة والرسم نشير الى قضيتين قد أسيء فهمهما ووضعنا بشكل يوحى لمن لم يكن على إلمام كاف بتاريخ القرآن أن هناك تقصيراً قد وقع بجانب هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فُصِّلَتْ ٤٢/٤١). أولاً ما نسب الى الحجاج بن يوسف أنه غيّر رسم أحد عشر حرفاً في المصحف، والثانية هي ما ادعاه جولدسيهر في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي) من ان قسماً كبيراً من القراءات قد نشأ بسبب ما امتازت به الكتابة العربية في زمن نسخ المصاحف الأئمة من عدم تمييز الحروف بالنقط وعدم تمثيل الحركات القصيرة منها خاصة، ورغم أن ما تقدم في هذا الفصل من بيان تاريخ القراءات وعلاقتها بالرسم يعتبر توضيحاً كافياً لكثير من جوانب هاتين القضيتين فسأعرض لهما هنا بقدر ما يسمح المكان من تفصيل وبما يكشف عن الوضع الصحيح لهاتين القضيتين.

أولاً: ما نُسب الى الحجاج من تغيير أحد عشر حرفاً في المصحف:

أورد ابن أبي داود في كتابه (المصاحف) هذه الرواية: « حدّثنا أبو حاتم السجستاني، حدّثنا عبّاد بن صُهيب عن عوف بن أبي جميلة أنّ الحجاج بن يوسف غيّر في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً، قال:

١ - كانت في البقرة (٢/٢٥٩) ﴿لَمْ يَتَسَنَّ وَأَنْظُرُ﴾، بغير هاء، فغيّرّها ﴿لَمْ يَتَسَنَّ﴾ بهاء.

- ٢ - وكانت في المائدة (٤٨/٥) ﴿شَرِيعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ فغيرها ﴿شَرَعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ .
- ٣ - وكانت في يونس (٢٢/١٠) ﴿هُوَ الَّذِي يُنْشِرُكُمْ﴾ فغيره ﴿يُسِيرُكُمْ﴾ .
- ٤ - وكانت في يوسف (٤٥/١٢) ﴿أَنَا آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ فغيرها ﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ .
- ٥ - وكانت في المؤمنون (٨٥/٢٣ و ٨٧ و ٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ لِلَّهِ ثَلَاثِينَ﴾ فجعل الآخرين ﴿اللَّهُ اللَّهُ﴾ .
- ٦ - وكانت في الشعراء في قصة نوح (١١٦/٢٦) ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ .
- ٧ - وفي قصة لوط (١٦٧/٢٦) ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ . فغير قصة نوح ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ وقصة لوط ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ .
- ٨ - وكانت في الزخرف (٣٢/٤٣) ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ﴾ فغيرها ﴿مَعِيشَتَهُمْ﴾ .
- ٩ - وكانت في الذين كفروا (١٥/٤٧) ﴿مِنَ مَاءٍ غَيْرِ يَاسِينٍ﴾ فغيرها ﴿مِنَ مَاءٍ غَيْرِ يَاسِينٍ﴾ .
- ١٠ - وكانت في الحديد (٧/٥٧) ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَتَقُوا لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فغيرها ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ .
- ١١ - وكانت في إذا الشمس كورت (٢٤/٨١) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ فغيرها ﴿بِضَنِينٍ﴾^(١) .

ونقل ابن أبي داود هذه الرواية في موضع آخر من كتاب المصاحف عن أبيه (قال أبو بكر كان في كتاب أبي حدثنا رجل فسألت أبي من هو؟ فقال: حدثنا عباد بن صهيب عن عوف بن أبي جميلة أن الحجاج بن يوسف غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً... « فذكر ما جاء في الرواية التي سبقت^(٢) » ، وذكر الباقلاني بعضاً من هذه المواضع في الانتصار^(٣) .

(١) كتاب المصاحف (٤٩-٥٠) .

(٢) كتاب المصاحف ص (١١٧-١١٨) .

(٣) أنظر نكت الانتصار ص ٣٩٩ .

وظاهر ألفاظ هذه الرواية يشير الى أن الحجاج غير تلك الحروف، وقد فهم بعض الباحثين منها ذلك المعنى، وراح يورد الحجج لإبطالها وردها^(٤)، ولكن تأمل الرواية والكلمات التي تضمنتها يكشف عن حقيقة ربما تغيب عن الناظر فيها لأول وهلة، وقبل أن أشير الى ما في الرواية نفسها من حقائق أورد بعض الأخبار التي تكشف عن دور الحجاج في خدمة المصحف والحفاظة عليه، وقد سبق أن اعجاب خط المصاحف، تم تحت إشراف الحجاج وبأمر من عنده، وقد أورد ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) هذا الخبر وهو يتحدث عن عاصم الجحدري: «وكان الحجاج وكُل عاصما هذا، وناجية بن رمح، وعلي بن أصمع بتتبع المصاحف، وأمرهم أن يقطعوا كل مصحف وجدوه مخالفاً لمصحف عثمان، ويعطوا صاحبه ستين درهماً، خبرني بذلك أبو حاتم عن الأصمعي، قال وفي ذلك يقول الشاعر:

والا رسوم الدار قفرا كأنه كتاب محاه الباهلي^(٥) ابن أصمعا^(٥)
وأورد أبو الطيب اللغوي في أخبار الأصمعي قوله «وكان علي بن أصمع جدّ أبي الأصمعي يتولى نحو المصاحف المخالفة لمصحف عثمان من قبل الحجاج. وإياه عنى الشاعر بقوله: «إلا رسوم الدار...»^(٦)».

وتشير هذه الرواية التي أوردتها ابن قتيبة وأبو الطيب الى أن الحجاج كان حريصاً على الحفاظة على هجاء الكلمات في المصاحف كما هو عليه في المصاحف الأئمة، ولما كانت الكوفة منزل عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - في العراق، وما كان من رفضه وأصحابه تسليم مصاحفهم أو حرقها - أول الأمر - بعد توحيد المصاحف فمن المحتمل أن تكون بعض الحروف قد تسلت الى المصاحف العثمانية في الكوفة من مصاحف ابن مسعود وأصحابه القديمة، ومن ثم فإن حرص

(٤) أنظر د. عبد العال سالم مكرم ص (٣٢-٣٣).

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٣٧.

(٦) مراتب النحويين ص ١٠٥ (ط ٢).

الحجاج على أن تبقى المصاحف موحدة في هجائها جعله يكل الأمر الى جماعة من العلماء في عصره لينظروا في المصاحف ويقطعوا أو يمحوها ما كان مخالفاً للمصحف العثماني ويعطوا صاحبه من المال ما يستطيع به أن يجوز على نسخة من المصحف العثماني، ومن ثم فإن هناك احتمالاً قوياً أن يكون أولئك الجماعة قد وجدوا بعض المصاحف لا تخالف المصحف العثماني إلا في حروف يسيرة فرأوا تغييرها فقط دون اتلاف المصحف بكامله، ولعل جزءاً مما قاموا به ارتبط باسم الحجاج لأنه الأمر به وجاءت الرواية تقول ان الحجاج غير في المصحف أحد عشر حرفاً بناء على أمره بتصحيح تلك المواضع.

وإذا نظرنا في نص الرواية نجد أنها تذكر لفظ (غير) أي بَدَل، ولا يشترط أن يكون التغيير من الصواب الى الخطأ بل قد يكون من الخطأ الى الصواب، ويكون الخطأ دافعاً للتغيير الى الصواب، والخطأ المتوقع في هذه الحالة هو أن بعض المصاحف كتبت فيها حروف على نحو ما يوجد في قراءة ابن مسعود مما يخالف المصحف العثماني، ويكون الصواب هنا تغييرها الى مثل ما هي عليه في مصاحف الأمة.

وبناء على ذلك فإن هذه الرواية يمكن أن تفهم في ظل هذا الاتجاه. بل لا أكاد أجد لها وجهاً آخر يمكن أن تحمل عليه اذا نظرنا الى الحروف الأحد عشر المذكورة فيها فالحرف الأول (٢/٢٥٩) ﴿لم يتسن﴾ قد سبقت الإشارة في آخر الفصل الثاني من هذا البحث أن زيدا والجماعة الذين معه سألوا عثمان - رضي الله عنه - في إضافة الهاء اليه فأقرهم أن يشبثوها فكتبوه ﴿لم يتسنه﴾. وقد روي أن هذا الحرف في مصحف ابن مسعود ﴿يتسن﴾ بدون هاء^(٧). وكذلك نجد الثاني (٥/٤٨) في مصحف ابن مسعود ﴿شريعة﴾^(٨). والثامن (٤٣/٣٢) في

(٧) أنظر: Jeffery, (AR.): Materials for the history of the text of the qur'an.

- The old codices, Leiden. Brill. 1937 P. 31.

(٨) نفس المصدر ص ٣٩.

مصحف ابن مسعود ﴿معايشهم﴾^(٩). والحادي عشر (٢٤/٨١) ﴿بظنين﴾ كذلك هو في مصحف ابن مسعود^(١٠). ونجد الحرف الثالث (٢٢/١٠) والخامس (٨٥/٢٣ و ٨٧ و ٨٩) هما مما اختلفت فيه المصاحف الأئمة - كما مر ذلك في البحث السابق - ولا أدري إن كانت المواضع: (٤-٦-٧-٩-١٠) هي قراءات وحروف من بعض مصاحف الصحابة أم أنها غير ذلك. ويمكن القول بناء على ذلك ان هذه المواضع الأحد عشر كانت تخالف ما في المصحف العثماني ولما كان الحجاج يسمى الى نفي أي خلاف أو تحريف في المصحف كان من الطبيعي أن يأمر بتغييرها أي إصلاحها لأن ما يذكر من مواضع أقرها الحجاج هي التي كانت الأمة قد أجمعت عليها من قبل.

ومما يزيد الأمر وضوحاً ما قاله القاضي أبو بكر الباقلاني وهو يعلق على ما روي من أن الحجاج غير حروفاً في مصاحف أهل العراق وهو قوله^(١١): «قد روي أن الحجاج قدم العراق ولم يكن أحد من الأمراء أشد نظراً في المصاحف منه، وكان الناس يكتبون في مصاحفهم أشياء، كانوا يكتبون (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة) و (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في موسم الحج)، وأشياء غير هذا، فبعث الحجاج الى حفاظ البصرة وخطاطها فجمعهم عنده ثم أدخل عليه منهم خمسة: هم أبو العالية (ت ٩٠ وقيل ٩٦) ونصر بن عاصم الجحدري^(١٢). وابن أصمع ومالك بن دينار، وبعث الحجاج فأتى بمصحف عثمان، وهو عندئذ عند آل عثمان فقال لهؤلاء الخمسة^(١٣) اكتبوا المصاحف واعرضوا وصيروا فيما اختلفتم فيه الى قول هذا الشيخ، يعني الحسن، فغيروا أحد عشر

(٩) نفس المصدر ص ٨٧.

(١٠) نفس المصدر ص ١٠٨ وأنظر ص ١٧٦ و ٢٠٧.

(١١) نكت الانتصار ص ٣٩٦.

(١٢) لعل المقصود به عاصم الجحدري الذي أشير اليه في روايتي ابن قتيبة وأبي الطيب، وكما يتضح ذلك من آخر الرواية التي ينقلها الباقلاني نفسها.

(١٣) لم يذكر إلا أربعة، ولعل الخامس هو الحسن المذكور بعد قليل انه كان شيخهم.

حرفاً بأمر الحسن والجماعة المذكورة، قال الراوي: قلت لمالك من ولي له العرض؟ قال: عاصم الجحدري . قلت الحسن فيهم؟ قال كان شيخهم .»

ويفهم من هذه الرواية أن الحروف التي غيروها قد تم تغييرها على ضوء ما هو موجود في المصحف العثماني، وقد كان هؤلاء الجماعة الذين قاموا بالعمل من أئمة البصرة في علم القرآن، فدعاهم الحجاج من هناك الى الكوفة فإن عاصماً الجحدري كان من علماء الرسم والقراءة (ت ١٢٨ هـ) وإن مالك بن دينار كان من مجودي الخط وكان يكتب المصاحف بالأجرة، وكان من أحفظ الناس للقرآن (ت ١٢٧ هـ)^(١٤). أما الحسن (ت ١١٠ هـ) فقد كان إمام أهل البصرة في زمانه علماً وعملاً^(١٥)، وكان أبو العالية من كبار التابعين، وقد قال عنه ابن أبي داود ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن منه^(١٦).

ويذكر الباقلاني أيضاً الرواية التي تشير الى أن الحجاج أمر عاصماً الجحدري وابن أصمغ بتتبع المصاحف، وأمرهم أن يقطعوا كل مصحف وجدوه مخالفاً لمصحف عثمان، ويعطوا صاحبه ستين درهماً، ثم يقول: «أراد الحجاج أن يرد المصاحف الى مصحف عثمان ولا تتغير عنه لئلا ينخرق الأمر، ويمكن أن يكون أسقط منها ما روى رواية الآحاد، أو نسخت تلاوته»^(١٧).

ومما يشير الى اهتمام الحجاج بالمصاحف ونسخها وضبطها ما نقله السهودي عن ابن زبالة صاحب مالك بن أنس، فقد روى عن مالك قوله: «أرسل الحجاج بن يوسف الى أمهات القرى بمصاحف، فأرسل الى المدينة بمصحف كبير منها، وهو أول من أرسل بالمصاحف الى القرى»^(١٨).

(١٤) ابن الجزري: غاية النهاية ج ٢ ص ٣٦.

(١٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢٣٥.

(١٦) نفس المصدر ج ١ ص (٢٨٤-٢٨٥).

(١٧) نكت الانتصار ص ٣٩٧.

(١٨) نقلاً عن د. صلاح الدين المنجد ص ٤٦، وهو يشير إلى (وفاء الوفاء بأخبار دار

المصطفى) للمصطفى ٦٦٨/١.

ولعل في ما ذكرناه من روايات وما يتبين من معنى التغيير المذكور في الرواية التي ينقلها ابن أبي داود ثم معرفة طبيعة المواضع التي قيل إن التغيير شملها ما يعطي الفهم الصحيح للرواية، وهو أن الجماعة الذين أمرهم الحجاج بالنظر في المصاحف قد صححوا تلك المواضع على نحو ما في المصحف العثماني، وتنتفي بذلك هذه الشبهة أصلاً.

ثانياً: الشبهة التي أثبتت حول أثر الرسم في تعدد وجوه القراءات:

يبدو أن طائفة من المستشرقين قد غفلوا وهم يدرسون تاريخ القرآن وقراءاته عن حقيقة جلية واضحة هي أن القرآن أنزل على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكان يتلوه على الناس من حفظه لا من كتاب، وهم يسمعونه ويحفظونه، ولم تكن الكتابة هي الوسيلة في نشر القرآن وتعليمه، رغم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمر بكتابه وحفظه وأذن لمن شاء من الصحابة أن يكتبه، وهو حين أراد أن يعلم أهل المدينة القرآن قبل الهجرة لم يعطهم مصحفاً يقرأونه، وإنما أرسل معهم مقرئاً يتلو القرآن فيسمعونه، وظلت تلك سنة مأثورة بعد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فحين طلب يزيد بن أبي سفيان من عمر أن يعينه على تعليم أهل الشام القرآن أرسل إليه ثلاثة من كبار القراء من الصحابة ولم يرسل اليهم مصاحف يقرأون فيها. وحين بعث عثمان المصاحف الأئمة التي نسخت في المدينة إلى الأمصار أرسل معها من يقرء الناس بما فيها. والشواهد في هذا المعنى كثيرة، وما أشهر القول المأثور عن الصحابة والتابعين (القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول أو القراءة سنة لا تتعدى) غفل هؤلاء عن هذه الحقيقة الكبرى في تاريخ القرآن والقراءات فادعى بعضهم أن كثيراً من القراءات كانت نتيجة لما اتصف به الرسم العثماني من تجرده من علامات الحركات وتمييز الحروف المتشابهة فضلوا بهذا القول وأضلوا كثيراً.

ولعل أشهر من عرف قوله في ذلك من المستشرقين هو جولدتسيهر المجري الأصل (ت ١٩٢١م) فقد قال في أول كتابه مذاهب التفسير الإسلامي وهو

يتحدث عن اختلاف القراءات^(١٩): «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات الى خصوصية الخط العربي، الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعاً لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يجده، الى اختلاف مواقع الاعراب للكلمة، وهذا الى اختلاف دلالتها، وإذا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في الحصول الموحد القالب من الحروف الصامتة، كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوفاً أصلاً، أو لم تتحرر الدقة في نقطه أو تحريكه».

ثم يقدم بعد قوله هذا أمثلة حاول الاستدلال بها على أثر الخط في نشأة القراءات فذكر من الأمثلة التي أرجعها الى عدم وجود نقط الإعجام الذي يميز بين الحروف المتشابهة في الرسم^(٢٠):

١ - في سورة الأعراف (٤٨/٧) ﴿... قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ذكر أن بعضهم قرأ ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ بالباء بعد الكاف.

٢ - وفي نفس السورة (٥٧/٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قرئت ﴿نُشْرًا﴾ بالنون بدل الباء.

٣ - وفي سورة التوبة (١١٤/٩) ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ﴾ بالياء، ويذكر أن حماداً الراوية قرأ ﴿أباه﴾ بالباء الموحدة.

٤ - وفي سورة النساء (٩٤/٤) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قرئت ﴿فَتَبَيَّنْتُوا﴾.

(١٩) مذاهب التفسير الاسلامي ص (٨-٩).

(٢٠) نفس المصدر ص (٩-١٣).

٥ - وفي سورة البقرة (٥٤/٢) ﴿... فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾
ذكر أنها قرئت ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

٦ - وفي سورة الفتح (٤٨/٨-٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *
لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ذكر أنها
قرئت ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾.

وذكر من الأمثلة التي استدل بها في أثر عدم وجود علامات الحركات في
الخط على نشأة بعض القراءات^(٢١):

٧ - في سورة الحجر (٨/١٥) ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾ قرئت
﴿نُنزِّلُ وَتُنزِّلُ وَتُنزِّلُ﴾.

٨ - في سورة الرعد (٤٣/١٣) ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ الْكِتَابِ﴾ وذكر أن عدة
قراءات وردت في هذه الآية ﴿وَمِنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ الْكِتَابِ﴾ أو ﴿وَمِنْ عِنْدَهُ
عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

٩ - في سورة المائدة (٦/٥) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَىٰ الصَّلَاةِ
فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ
إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وذكر أن ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ قرئت بكسر اللام أيضاً.

وكان قد ردد مقالته جولدتسيهر بعض المستشرقين^(٢٢)، وبعض من دارسي
الشرق المستغربين ثقافة، الذين يجهلون كثيراً من تفاصيل تاريخ القرآن أو أنهم
فهموا تفاصيل ذلك التاريخ فهماً غير سديد^(٢٣). ولكن لم يكن هؤلاء ولا أولئك

(٢١) مذاهب التفسير الاسلامي ص (١٣-١٤).

(٢٢) منهم بروكلمان (أنظر تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٤٠) وأوتو برتزل (أنظر
مقدمة تحقيق كتاب التيسير للداني ص ي) وأرثر جفري (أنظر مقدمة تحقيق كتاب
المصاحف لابن أبي داود ص ٧).

(٢٣) منهم د. جواد علي (أنظر مقالته لهجة القرآن الكريم ص ٢٨٩ و ٢٩٣) ود. عبد الله
خورشيد (أنظر القرآن وعلومه في مصر ٩١) ود. صلاح الدين المنجد (أنظر
دراسات في تاريخ الخط العربي ص ٤٢).

على الحق المستبين الذي ينكشف ويزداد وضوحاً كلما تعمق المرء في دراسة ذلك التاريخ ونظر إليه بروح تتطلع الى الروح التي انبنى عليها وقامت أركانها على أساس منها .

ومنذ أن عرف هذا المذهب بين المختصين في الدراسات القرآنية وهم يشيرون اليه في دراساتهم ويبيّنون ما فيه من انحراف وميل عن الصواب، ويقدمون الأدلة - تبعاً لاختلاف مناهجهم في البحث - على أن الصواب في خلافه، وان القراءات ثبتت رواية قبل أن يدوّن الناس المصاحف ويقرأون فيها القرآن، وقد تراوحت تلك المناقشة لمذهب جولدسيهر ومن وافقه بين فصل في كتاب^(٢٤)، وبين رسالة أو كتيب مستقل^(٢٥)، وقد تضمنت تلك الدراسات تفاصيل ومناقشات كثيرة فيها غناء وكفاية في تصحيح الخطأ الذي وقع فيه جولدسيهر وكل من تابعه في رأيه. ولا نهدف نقل كل ذلك ها هنا وإنما نكتفي بالإشارة الى جملة حقائق تتعلق بتاريخ القراءات والرسم تقدمت في ثنايا هذا الفصل وهي كفيّلة بكشف ذلك الخطأ الذي أنتجه جهل بالأمر أو قصور في الفهم أو تعمد في التحريف .

فأولاً: إن المنهج الذي رسمه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لتعلم القرآن وقراءته هو التلقي مشافهة فكان يتلو ما ينزل عليه من القرآن على الناس من حفظه الذي كفله الله له، وكان يبعث الصحابة يعلمون الناس قراءة القرآن - وقد مر بيان ذلك في مطلع هذا الفصل بشيء من التفصيل - وكانت

(٢٤) من ذلك ما كتبه عبد الوهاب حمودة في كتابه القراءات واللهجات ص (١٨٢-٢١٣)

وما كتبه د. عبد الصبور شاهين في تاريخ القرآن ص (٢٠٩-٢١٦) وانظر دراسات

أخرى أشار إليها د. عبد الهادي الفضلي ص ١٢٥ .

(٢٥) كتب د. عبد الفتاح اسماعيل شلي كتابه (رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات)

لمناقشة جولدسيهر أساساً (طبع ١٩٦٠ م) وكتب الشيخ عبد الفتاح القاضي

كتابه (القراءات في نظر المستشرقين والملحدّين) (طبع ١٩٧٢) في هذا الموضوع

أيضاً .

كتابة القرآن في حياة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - محدودة في نطاق ضيق من الصحابة من كتبة الوحي خاصة، وحين جمع زيد القرآن في خلافة الصديق أشار الى أنه استعان بالحفظ على ما هو مكتوب في القطع، ولم يكتف بما في المصحف، إذ لم تكن قراءة القرآن مرتبطة بما هو مكتوب في المصحف، بل كان «الاعتاد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب»^(٢٦). ولذلك قد حذر العلماء من أخذ القرآن عن مصحفي^(٢٧). وهو الذي يقرأ في المصحف من غير أن يشافه به العلماء الذين نقلوه مشافهة عن سبقهم خلفاً عن سلف^(٢٨). وظل هذا المنهج هو القاعدة التي سار عليها القراء في كل الأعصار، فكانت صحة نقل القراءة شرطاً أساسياً لقبول القراءة.

وثانياً: كان تعدد وجوه القراءة معروفاً في حياة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وما تعدد تلك الوجوه إلا الترجمة العملية للرخصة التي خص الله بها الأئمة والتي يشير إليها الحديث الشريف الصحيح المتواتر (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرأوا ما تيسر منه) وكان ما نشأ من حوار بين بعض الصحابة حول بعض القراءات التي كانوا يقرأونها هو الدافع الأول الذي دفع الخليفة الثالث - رضي الله عنه - أن يأمر بنسخ المصاحف من المصحف التي كتبت في خلافة أبي بكر الصديق، وبثها في الأمصار وترك ما سواها، فلم يكن تعدد وجوه القراءة أمراً حادثاً بعد نسخ المصاحف العثمانية، بل كانت تلك القراءات متلقاة عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكان نسخ المصاحف العثمانية محاولة لوضع الرخصة في إطار معين يحفظ للأمة الوحدة في كتاب ربها.

وثالثاً إن المصاحف الأئمة التي كتبت بأمر عثمان على القراءة العامة في

(٢٦) ابن الجزري: الشرح ١ ص ٦.

(٢٧) أنظر أبو أحمد العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص ١٠ وانظر أيضاً: كتاب تصحيقات المحدثين (له) مخطوط بدار الكتب المصرية (٥٤٥) حديث - تيمور) ص ٣.

(٢٨) أنظر أبو أحمد العسكري: تصحيقات المحدثين ص ٨.

المدينة، وحين أرسلت الى الأمصار الاسلامية ثبت أهل كل مصر على ما تلقوه من قراءات عن الصحابة الذين نزلوا بينهم مما وافق خط المصحف، وتركوا القراءة بما يخالفه، ولو كان تجرد الخط من نقط الاعجام وعلامات الحركات هو سبب نشأة القراءات - كما يدعي هؤلاء - لما وجدنا هناك قراءات خارجة عن الرسم، ولأنحصر الخلاف فيما يحتمله الرسم، لكن التاريخ الحق يشير الى أن هناك قراءات كان يقرأ بها بعض الصحابة كانت تخالف المصحف، لكن الاجماع على المصحف العثماني صير تلك الوجوه كالمسوخة^(٢٩). لا بل إن من بين قراءات السبعة ما يخالف خط المصحف كما أشير الى ذلك من قبل. فلم يكن خط المصاحف - اذن - سبباً في وجود القراءات القرآنية أو اختلافها، ولكنه كان سبباً في حفظ الاختلاف الموجود أصلاً، لأن القراءة سنة متبعة^(٣٠). وقد كان الرسم حين عدت موافقته شرطاً في قبول القراءة مقياساً وقائياً، يمنع ما لا يدخل في نطاقه، مما صح من الروايات، فالرسم لا ينشئ القراءة ولكنه يحكم عليها^(٣١).

وأخيراً فإن القرآن لم ينقل في الصحف والكتب فحسب وإنما ظاهر نقل الكتب والصحف حفظ الحفاظ والتلقي بالمشافهة والعرض والسماع، وتواتر طبقات القراء، وما نقلناه من كتاب أبي عبيد عن القراءات في القرنين الأول والثاني يصور ذلك المنهج الذي كان يسير عليه القراء في تلقي القرآن ونقله، ومرت صور من حرص القراء على عرض القرآن وسماعه، وطريقتهم في ذلك. وقد وجد القراء - أحياناً - أن الكتابة لا تضبط اللفظ فكانوا ينصون أن ذلك الحرف لا يضبط إلا بالمشافهة، فقراءة حمزة كلمة ﴿الصراط﴾ في فاتحة الكتاب بين الصاد والزاي، أي جهر الصاد، ليس في الكتابة العربية رمز يمثلها،

(٢٩) انظر مكي: الإبانة ص ١٠.

(٣٠) د. عبده الراجحي ص ٧١.

(٣١) د. عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية ص ٢١٠.

لذلك نجد ابن مجاهد يقول « ولا يضبطها الكتاب »^(٣٢). ويقول في مكان آخر في قراءة حمزة « مستهزون » في البقرة (١٤/٢) « ولا يضبط إلا باللفظ »^(٣٣). وبلغ بالقراء التحري ان احدهم إذا شك في حفظه تركه وقرأ بما حفظه قارئ آخر فينقل ابن مجاهد أن أبا بكر بن عياش قال: « كان حفطي عن عاصم »^(بيئس) الاعراف (١٦٥/٧) على وزن فيعل، قال ثم جاءني منها شك، فتركت روايتها عن عاصم وأخذتها عن الأعمش « بيئس » مثل حمزة^(٣٤). وقرأ ابن كثير وحده « رأفة » (النور ٢/٢٤) مفتوحة الهمزة ها هنا، وفي سورة الحديد (٢٧/٥٧) ساكنة الهمزة. قال ابن مجاهد: « كذا قرأت على قنبل، وقال لي قنبل: كان ابن أبي بزة قد وهم. فقرأها جميعاً بالتحريك، فلما أخبرته أنه إنما هذه وحدها رجع »^(٣٥). وقد بلغ حرص القراء على إتقان الرواية أنه إذا تقدمت السن بالقارئ توقف عن الإقراء خشية التحريف، فكان سليمان بن مهران الأعمش يقرئ الناس ثم ترك ذلك في آخر عمره^(٣٦).

ولا ندري لماذا يصير جولدتسيهر على اعتبار القراءات ناتجة عن خصائص الخط العربي القديم بعد هذا العرض الموجز جداً لتاريخ القراءات وواقعها الذي يبين زيف دعواه وبطلانها؟ ولعل الأمر كان كذلك لأن همه كان أن يدلل على أن الاختلاف في القراءات إنما كان عن هوى من القراء لا عن توقيف ورواية، وهذا هو سر خطئه في منهجه، حيث لم يعتبر أن القراءات إنما هي رواية بالسند الصحيح، وهي سنة يتبعها الآخر عن الأول، ونسي أن القراء لم يأخذوا قراءاتهم إلا بعد بحث وتمحيص للسند وللرجال الذين أخذوا عنهم، ونسي أيضاً مقياسهم الذي وضعوه ليميزوا بين صحيح القراءة وسقيمها وبين متواترها وشاذها^(٣٧).

(٣٢) كتاب السبعة ص ١٠٦ . (٣٣) نفس المصدر ص ١٤٢ .

(٣٤) نفس المصدر ص ٢٩٧ . (٣٥) نفس المصدر ص ٤٥٢ .

(٣٦) ابن سعد مج ٦ ص ٣٤٢ . (٣٧) انظر عبد الوهاب حموده ص (١٨٢-١٨٣).

وإذا رجعنا الى الأمثلة التي استدلت جولدتسيهر بها وجدنا خطأ في المنهج الذي اتبعه في عرضها فهو يخلط بين قراءات صحيحة وأخرى شاذة بل هي ليست قراءات، وهو ما يكشف عن منهج غريب عن طبيعة الموضوع الذي يعتمد في أساسه على الرواية بالسند والمشافهة في التلقي، لكن المستشرقين عامة كما يصور ذلك آرثر جفري: «طريقتهم في البحث أن يجمعوا الآراء والظنون والأوهام والتصورات بأجمعها ليستنتجوا بالفحص والاكتشاف ما كان منها مطابقاً للمكان والزمان وظروف الأحوال معتبرين المتن دون الاسناد»^(٣٨) ولكن متى كان تاريخ القرآن والقراءات يأخذ من الظنون والآراء والأوهام ولا يميز بين الصحيح وبين المكذوب إلا في عقول المستشرقين الذين لم يفهموا أو لم يريدوا أن يفهموا أن هذا القرآن وحي من السماء وأن قراءته حين تنقل فإنما تنقل على ذلك الأساس غير خاضعة لهوى ولا يعترها تقصير، ولكن آفة المستشرقين أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المسلمة، ويقيسون الماضي الذي لم يكن يوماً جزءاً من تاريخهم، وبالتالي لم يكن من مكونات ضائرتهم بمقياس حاضرهم، مع تباين المكان والزمان والعقلية والروح، وآية ذلك أنهم يفضون أبصارهم عن الطابع الرباني الذي نشأت في ظله أحداث التاريخ القرآني، على عهد النبوة، وهم يرفضون مناهج المسلمين في نقد الأخبار ورواياتها^(٣٩). فالبدأ عند علمائنا في جميع منابع الثقافة الإسلامية هو اثباتها أولاً من طريق الرواية والبحث فيها اسناداً وممتناً، ووضعوا لذلك مقاييس ليس بعدها دقة، أما المستشرقون فلا يعترفون بغير المتن - حتى وإن كان مكذوباً - ولا يقرون اثبات شيء من طريق الرواية، وإنما كل همهم امتحان النص امتحاناً لا يقوم على أصول ثقافية ولا قواعد منهجية^(٤٠).

(٣٨) مقدمة كتاب المصاحف ص ٤ .

(٣٩) د.عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٧ .

(٤٠) انظر عبد الوهاب حموده ص (٢٠٠-٢٠١).

إن الأمثلة التي أوردتها خلط فيها بين القراءة الصحيحة المتواترة وبين القراءة الشاذة أو التي لم يعرف أن أحداً رواها أو قرأ بها. فالمثالان رقم (٢) و (٤) هما قراءتان صحيحتان، فقد قرأ عاصم ﴿بشراً﴾ (الاعراف ٥٧/٧) بضم الباء وإسكان الشين، وقرأ ابن عامر بالنون وضمها وإسكان الشين ﴿نشراً﴾ وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون وفتحها وإسكان الشين ﴿نشراً﴾ وقرأ الباقر بالنون وضمها وضم الشين ﴿نشراً﴾، وكذلك قرأوا في الموضعين الآخرين في الفرقان (٤٧/٢٥) والنمل (٦٣/٢٧)^(٤١). وفي قوله سبحانه في النساء (٩٤/٤) في الموضعين وفي الحجرات (٦/٤٩) قرأ حمزة والكسائي وخلف في الثلاثة المواضع ﴿فتشبتوا﴾ وقرأ الباقر ﴿فتبينوا﴾^(٤٢). كذلك رقم (٩) فإن كلا القراءتين صحيحة فقد قرأ كل من نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وحفص ﴿وأرجلكم﴾ (المائدة ٦/٥) بنصب اللام وقرأ الباقر بالخفض^(٤٣).

والى جانب هذه القراءات الصحيحة أورد قراءات شاذة وغير معروفة ومنكرة في الأرقام (١-٣-٥-٦)^(٤٤). وخلط قراءات صحيحة وأخرى شاذة في رقم (٧) و (٨)^(٤٥). وما ثبت من قراءات في هذه المواضع هو المعتمد وما سواه شاذ بل هو منكر لا يعتبر قراءة، فقد نص جولدتسيهر في رقم (٣) أن حماداً الراوية قرأ ﴿أباه﴾ بالباء. وهذه الملاحظة تنقلنا إلى الحديث عن أصل هذه القراءات التي ينقلها عن حماد الراوية، وعن ظاهرة التصحيف في الكتابة العربية، ذلك أن تاريخ اللغة العربية حافل بذكر كثير من التصحيفات التي وقعت من علماء مشهورين حتى ألفت في ذلك كتب مستقلة فقد ألف أبو أحمد العسكري اللغوي

(٤١) ابن الجزري: النشر ج ٢ ص (٢٦٩-٢٧٠)

(٤٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٥١.

(٤٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٥٤.

(٤٤) انظر: الشيخ عبد الفتاح القاضي: القراءات في نظر المستشرقين والمحدثين. مجمع

البحوث الإسلامية ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م ص ٩٨ و ٩٩ و ١٠١ و ١٠٤.

(٤٥) نفس المصدر ص ١٠٧ و ١٠٩.

كنايين في ذلك الأول خاص بما هو من علم أصحاب اللغة والشعر وأهل النسب والثاني خاص بما يحتاج اليه أصحاب الحديث ورواة الأخبار^(٤٦). ومن تلك المؤلفات كتاب حمزة الأصفهاني (التنبيه على حدوث التصحيف). وقد ذكر محقق كتاب حمزة الأصفهاني سبعة كتب في هذا الموضوع^(٤٧).

إن القراءة التي ينسبها جولدتسيهر الى حماد الراوية ما هي بقراءة ولكنها من تصحيفات حماد في القرآن، فقد ذكر أبو أحمد العسكري^(٤٨) وحمزة الأصفهاني^(٤٩) أن حمادا الراوية قرأ يوماً ﴿والغاديات صباحا﴾ وأن بشاراً الأعمى سعى به الى عقبة بن مسلم، أمير البصرة، أنه يروي جل أشعار العرب ولا يحسن من القرآن غير أم الكتاب، فامتحنه عقبة بتكليفه القراءة في المصحف، فصحف فيه عدة تصحيفات، وقد ذكر العسكري في كتابه (شرح ما يقع فيه التصحيف) أن الكوفيين يروون أن حماداً الراوية كان حفظ القرآن من المصحف فكان يصحف نيّفاً وثلاثين حرفاً^(٥٠). وأورد في كتابه الآخر سبعة عشر موضعاً من تصحيفات حماد، بينما يذكر الأصفهاني واحداً وعشرين موضعاً، وهذه أمثلة مما ذكرها:

- ١ - في سورة النحل (٦٨/١٦) ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ صحفها حماد الى ﴿النخل﴾ بالخاء.
- ٢ - وفي التوبة (١١٤/٩) ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ صحفها حماد الى ﴿أباه﴾ بالباء.
- ٣ - وفي القصص (٨/٢٨) ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ صحفها الى و﴿حربا﴾.
- ٤ - وفي مريم (٧٤/١٩) ﴿وَهُمْ أَحْسَنُ أُمَّتًا وَرِزْيَا﴾ صحفها حماد الى ﴿وزيا﴾.

(٤٦) أنظر أبو أحمد العسكري: تصحيفات المحدثين ص ٢.

(٤٧) أنظر مقدمة تحقيق الكتاب ص ٥.

(٤٨) تصحيفات المحدثين ص ٤٢ وشرح ما يقع فيه التصحيف (له) ص ١٢.

(٤٩) التنبيه على حدوث التصحيف ص (٥-٦)

(٥٠) أنظر ص ١٢.

٥ - وفي القصص (١٥/٢٨) ﴿فَاسْتَفَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾ صفحتها حماد ﴿فاستعانه﴾.

وقد أورد العسكري والأصفهاني غير ما أثر عن حماد من تصحيفات أمثلة أخرى وقعت من بعض الجهال، على سبيل الخطأ والإهال^(٥١)، وهذه الأمثلة التي أوردنا منها خمسة لم تكن تروى على أنها قراءات بل تذكر في كتب التصحيف والتحريف على أنها تصحيفات وقعت من بعض الناس، ليحذر القارئ من الوقوع في مثلها، ولو كان الرسم هو السبب في نشأة القراءات - كما يدعي جولدتسيهر - لعد حماد أحد القراء المشهورين من السبعة أو من فوقهم! ولكن أنى يكون ذلك، فالقراءات منقولة نقلاً متواتراً حتى منتهاها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وما عدا ذلك لم يقبل ولم يرو على أنه قراءة، ولو كان ما يدعيه جولدتسيهر صحيحاً لقبول اختيار ابن مقسم العطار الذي سبقت الإشارة إليه، فقد كان من أحفظ الناس لنحو الكوفيين وأعرفهم بالقراءات لكنه زعم أن كل ما صح عنده في العربية من القرآن ويوافق خط المصحف فقراءته جائزة وإن لم ينقل، إلا أن مذهبه هذا رُدَّ ووقف بوجه علماء زمانه حتى استتيب ورجع عن بدعته، وقد قال أبو طاهر العقيلي: مما ينبغي أن ينبه عليه وقد وهم فيه جماعة من الناس أن يعلم أن اختلاف القراء لم يكن لاختلاف المرسوم، ولا اختلاف المرسوم أيضاً لم يكن في مصر من الأمصار راجعاً إلى قراءة أهله فإن قراءتهم متلقة من أئمتهم مشافهة وعمتها العنينة حتى تنتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى لم يخل عصراً من الأعصار من لدن الصحابة إلى هلم جرا من يقوم بكتابه العزيز غاية القيام ويهتدي فيما أشكل على الأنام وفاء بوعده الكريم في قوله (الحجر ٩/١٥) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٥٢).

(٥١) أنظر د. عبد الصبور شاهين تاريخ القرآن ص ٢١١ وما بعدها.

(٥٢) أنظر مختصر ما رسم في المصحف الشريف لوحة ٢٢.

فإذا كان جولدتسيهر قد بنى رأيه على تصحيفات حماد ومن شاكلة فليس على الله ولا على رسوله حجة في ذلك، وإذا كان قد بناه على ما جاء من وجوه متعددة في القراءات الصحيحة فليس لأحد أن ينكر ما رخص به الله لعباده، وهو في كلتا الحالتين قد نكب عن الصراط المستقيم، وتعلق بأوهى الأسباب وأضعف الأدلة. وإذا كان جولدتسيهر عذره في كونه بعيداً بروحه وثقافته عن القرآن وتاريخه، فما بال الناس يدعون أنهم من أهل هذا الدين يرددون ما قاله هذا المستشرق وأصحابه، بعد ما تبين لهم أن المستشرقين ليسوا المصدر الصحيح لتفسير تاريخ الاسلام عامة وتاريخ القرآن على وجه الخصوص؟

إن القرآن العظيم لم يكن يوم أنزل أو في أي يوم آخر نقشاً عثر عليه الاثاريون في خرائب أقوام بادوا، واقتضى حل رموزه وطلسماته عرضه على المستشرقين ليختلّفوا في قراءته وتفسيره بل كان هناك وحي يوحى ورسول كريم يتلقى الوحي ويتلوه على الناس، وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - حريصاً على تبليغ كل آية نزلت عليه ليؤدي الأمانة التي اختاره الله لها، وهياً الله سبحانه من يحمل هذا القرآن في كل عصر من لدن الصحابة الى اليوم والى ما شاء الله رب العالمين ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)﴾ (من سورة العنكبوت).

*

مبحث أخير

علاقة الإملاء بالحديث بالرسم المصحفي

نشأت الدراسات العربية بفروعها المختلفة متعلقة بالقرآن الكريم، كتاب الله العزيز، فكان القرآن هو المحور الذي دارت حوله تلك الدراسات سواء منها تلك الدراسات التي تتعلق تعلقاً مباشراً بتفسير القرآن، وتوضيح آياته وتبيين معناه واستنباط أحكام الشريعة منه، أو تلك التي تخدم هذه الأغراض جميعها، بالبحث في دلالة اللفظ واشتقاق الصيغ وتركيب الجمل والأسلوب والصور الكلامية واختلافها باختلاف المقام، حتى تلك الدراسات التي تتعلق بالرسم الإملائي والفلك والرياضة واستكناه أسرار الطبيعة، كل هذه الدراسات قامت أساساً لخدمة الدين الإسلامي ولفرض فهم القرآن الكريم مصدر التشريع الإسلامي ودستور المسلمين^(١). والرسم الإملائي ولا شك قديم وسابق للوقت الذي أنزل فيه القرآن غير أن العناية بالقرآن الكريم وصيانته عن اللحن هي التي دعت العلماء في الصدر الأول الى البحث عن طريقة تمنع من يتلو النص القرآني من الوقوع في اللحن بسبب خلوه من رموز الحركات، واشتراك بعض الأصوات في رمز كتابي واحد^(٢).

وكانت من مظاهر أثر الإسلام على الكتابة العربية هذه المجالات الرحبة التي دخلتها الكتابة وذلك الاستعمال الواسع الذي نقلها من مجرد كونها كتابة محصورة

(١) أنظر د. رمضان عبد التواب ص ٩٠.

(٢) نفس المصدر ص ٩٥.

في معاملات تجارية وأغراض دينية محدودة لبضع جماعات من العرب الى كتابة عالمية تخدم حاجات دولة امتدت في قرن من الزمن الى مساحات مترامية وضمت أقواماً شتى استعملوا هذه الكتابة كما لو كانت كتابتهم منذ سحيق الزمن لأنها كانت الكتابة التي كتب بها القرآن الكريم الذي آمنوا بما جاء فيه وأحبوه .

ويضع الرسم العثماني أمامنا نموذجاً صادقاً لما كانت عليه الكتابة العربية في النصف الأول من القرن الهجري الأول، حين كان الناس في تلك الأيام لا يحسون بفرق بين كتابتهم وما يجدونه في المصحف، وكان أكثر الصحابة ومن وافقهم من التابعين واتباعهم يوافقون الرسم المصحفي في كل ما يكتبونه ولو لم يكن قرآناً ولا حديثاً واستمر الأمر على ذلك الى أن ظهر علماء البصرة والكوفة وأسسوا لهذا الفن ضوابط وروابط بنوها على أقيستهم النحوية وأصولهم الصرفية وسموها علم الخط القياسي أو الاصطلاحي المخترع وسموا رسم المصحف بالخط المتبع^(٣). وكلما تقدم الزمن ازدادت الحاجة الى توحيد قواعد الكتابة وازدادت الحاجة الى ضبطها، ومن ثم فإن أكثر الظواهر الكتابية التي تظهر في الرسم العثماني مرسومة على قاعدتين قد مالت الى التوحد، وكان علماء العربية يراعون هذا الاتجاه ويضعون له القواعد والضوابط التي تيسره وتوضحه .

ويبدو أنه كان لذلك الاتجاه أثر في ناحيتين، الأولى ظهور كتب ورسائل توضح القواعد المتطورة لرسم الكلمات وقد قام بهذه المهمة علماء العربية . والناحية الأخرى هو ظهور المؤلفات التي تصف كيفية رسم الكلمات في المصاحف لكي يحافظ الناس في كتابة المصاحف على الصورة التي كتبت بها في المدينة المنورة وقام بهذا العمل علماء القراءات خاصة، ولعل بداية حركة التأليف في هذين الموضوعين قد ظهر منذ بداية القرن الهجري الثاني، وسبق أن أشرنا بتفصيل الى مؤلفات الرسم وبداياته، ولعل التأليف في موضوع الرسم المصحفي سابق للتأليف في موضوع الإملاء لأن المختصين بعلم القرآن قد أثار انتباههم أول

(٣) أنظر نصر الموريني ص ٢٦ .

محاولة للخروج على شكل هجاء الكلمات في الرسم المصحفي فسارعوا الى وصف الكلمات في المصحف بينما ظل الناس يكتبون في المجالات الأخرى ويطورون رسم الكلمات دون تأثير مباشر من جانب العلماء ، حتى احتاج الأمر الى ضبط وتقعيد فأسهم علماء العربية بشكل مباشر بتوجيه تلك الحركة وانتقلوا من مجرد اقتصارهم على ملاحظات يثونها في مؤلفاتهم كالذي نجده في معاني القرآن للفراء - مثلا - من كلام عن كيفية رسم بعض الكلمات في المصحف وكيف يكتبها الناس في غير القرآن ، الى تأليف رسائل وكتب في هذا الموضوع ترشد الكتاب الى الطريق الأنسب لرسم الكلمات . وتذكر كتب طبقات اللغويين والنحاة بضعة مؤلفات في موضوع الخط والهجاء ، وهو المصطلح الذي كان يطلق على ما يسمى بالإملاء اليوم ، فمنها:

- ١ - (كتاب الخط والهجاء) لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) (٤).
- ٢ - (كتاب الهجاء) لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ) (٥).
- ٣ - (كتاب الهجاء) لأبي الحسن محمد بن أحمد بن كيسان (ت ٢٩٩هـ) (٦) وسماه ياقوت (كتاب الهجاء والخط) (٧).
- ٤ - (كتاب الهجاء) لأبي بكر محمد بن السري السراج (ت ٣١٦هـ) (٨).
- ٥ - (كتاب الهجاء) لأبي بكر محمد بن عثمان المعروف بالجعد (ت سنة نيف ٣٢٠هـ) (٩).

-
- (٤) ابن النديم ص ٥٩ وياقوت: معجم الأدباء ج ١٩ ص ١٢١ والقفطي ج ٣ ص ٢٥١.
 - (٥) ابن النديم ص ٧٤ وياقوت: نفس المصدر ج ٥ ص ١٤٣ والقفطي ج ١ ص ١٥١ . وابن خلكان ج ١ ص ٨٧ والسيوطي: بغية الوعاة ج ١ ص ٣٩٧ .
 - (٦) ابن النديم ص ٨١ والقفطي ج ٣ ص ٥٩ .
 - (٧) معجم الأدباء ج ١٧ ص ١٣٩ .
 - (٨) ياقوت: نفس المصدر ج ١٨ ص ٢٠٠ وانظر السيوطي: بغية الوعاة ج ١ ص ١١٠ .
 - (٩) ابن النديم ص ٧٢ وياقوت: نفس المصدر ج ١٨ ص ٢٥٠ والقفطي ج ١ ص ٢٦٩ . والسيوطي: بغية الوعاة ج ١ ص ١٧١ .

- ٦ - (كتاب الهجاء) لأبي الحسين أحمد بن سعد الكاتب (كان حياً سنة ٣٢٤ هـ) (١٠).
- ٧ - (كتاب الهجاء) لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ) (١١).
- ٨ - (كتاب الهجاء) لأبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه (ت ٣٤٧ هـ) (١٢).
- ٩ - (كتاب الهجاء) لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤ هـ) (١٣). وقد سماه القفطي: (شرح الهجاء لابن السراج) (١٤).
- ١٠ - (كتاب الهجاء) لأبي الحسين محمد بن الحسين (ت ٤٢١ هـ) ابن أخت أبي علي الفارسي (١٥). وألّف في هذا الموضوع غير هؤلاء (١٦).

ولم يصل إلينا من هذه الكتب - على ما عرفت - إلا كتاب واحد هو كتاب ابن درستويه (١٧). رغم أن المطبوع منه يعرف باسم كتاب (الكتّاب). ويبدو أن تسميته باسم كتاب (الهجاء) كان وصفاً لموضوع الكتاب وليس اسمه الذي ذكره المؤلف، يشير الى ذلك قول بعض أهل كتب الطبقات وهم يتحدثون عن كنبه (وفيها كتابه في الهجاء) (١٨). وقد قال ابن درستويه في فاتحة الكتاب «وسميناه كتاب الكتاب

-
- (١٠) ياقوت: نفس المصدر ج ٣ ص ٣٩. والسيوطي: بغية الوعاة ج ١ ص ٣٠٨.
- (١١) الزجاجي: كتاب الجمل ص ٢٩١.
- (١٢) أبو بكر الزبيدي ص ١٢٧ وابن النديم ص ٦٣ والقفطي ج ٢ ص ١١٣.
- (١٣) ابن النديم ص ٦٤ وياقوت معجم الأدباء ج ١٤ ص ٧٥.
- (١٤) إنباه الرواة ج ٢ ص ٢٩٥.
- (١٥) ياقوت معجم الأدباء ج ١٨ ص ١٨٧ والسيوطي بغية الوعاة ج ١ ص ٩٤.
- (١٦) أنظر ابن النديم ص ٧٤ و٧٣ ود.أحمد نصيف الجنائي ص ١١٠.
- (١٧) نشر الدكتور عبد الحسين محمد (كتاب الخط) لأبي بكر بن السراج في مجلة (المورد) المجلد الخامس - العدد الثالث ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦. وذلك بعد طبع هذا البحث، وتقديمه للمناقشة. ولعل هذا الكتاب هو كتاب (الهجاء) الذي ذكرناه.
- (١٨) أبو بكر الزبيدي ص ١٢٧ والقفطي ج ٢ ص ١١٣.

اذ كان قصدنا فيه لما يكتب من نهج وقراءة دون غيره»^(١٩) وكتاب ابن درستويه هذا غاية في الأهمية لتقدمه واحتوائه معلومات قيمة عن الكتابة العربية ومراحل تطورها، وقد شعر الأقدمون بهذه الأهمية العظيمة للكتاب حين قالوا عنه وهم يتحدثون عن مؤلفاته: «ومنها كتابه في الهجاء وهو فائت في معناه، غريب في مفزاه»^(٢٠) وتزداد أهمية هذا الكتاب بالنسبة لعصرنا حين لا نجد غيره من الكتب القديمة في موضوع الهجاء^(٢١).

وقد وردت فصول عن الهجاء في بعض الكتب اللغوية والنحوية والأدبية القديمة، وهي مهمة، لا سيما أنها ترجع الى فترة متقدمة مثل ما نجده في كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ومثله كتاب الصولي (ت ٣٣٦هـ) (أدب الكتاب)^(٢٢). وفي كتاب (المقصور والمدود) لابن ولاد (ت ٣٣٢هـ) بابان في موضوع الهجاء^(٢٣). وفي كتاب (الجمل) للزجاجي (ت ٣٤٠هـ) عدة أبواب في موضوع الهجاء^(٢٤)، كذلك نجد باباً عن الهجاء في (الشافية) لابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)^(٢٥). وفي كتاب (تسهيل الفوائد) لابن مالك^(٢٦). وفي صبح الأعشى

(١٩) كتاب الكتاب ص ٤.

(٢٠) أبو بكر الزبيدي ص ١٢٧ وقال عنه القفطي (ج ٢ ص ١١٣) (وهو من أحسن كتبه).
(٢١) جاء في النسخة المطبوعة لكتاب (الكتاب) لابن درستويه (ص ٤) «هذا كتاب آلفناه في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله». وهذه الصيغة تثير جدلاً حول صحة نسبة الكتاب لابن درستويه لأن المعتصم مات سنة ٢٢٧هـ، لكن الأستاذ عبد الله الجبوري صحح هذا الخطأ بالرجوع إلى مخطوطات الكتاب الباقية وذكر أن الصواب فيها هو المعتضد بالله المتوفى سنة ٢٨٩هـ (أنظر كتاب: ابن درستويه. بغداد. مطبعة العاني ١٩٧٤ ص ٧٧).

(٢٢) ربما كان كتابا (أدب الكتاب) و (صناعة الكتاب) لأبي جعفر النحاس (ت ٣٣٧هـ) يحتويان فصولاً عن الكتابة والهجاء (أنظر ياقوت معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٢٨).

(٢٣) أنظر ص (١٦٢-١٦٧).

(٢٤) كتاب الجمل ص (٢٦٩-٢٨٠).

(٢٥) أنظر الأسترابادي: شرح الشافية ص (٣٨٢-٣٩٥).

(٢٦) تسهيل الفوائد ص (٣٣٢-٣٣٨).

للقلقشندي (ت ٨٢١هـ) (٢٧)، وذكر السيوطي باباً واسعاً عن الهجاء والخط في آخر كتابه همع الهوامع (٢٨)، الى جانب اشارات عن هذا الموضوع في مصادر أخرى (٢٩).

وليس الهدف هنا تفصيل قواعد الهجاء والاملاء العربي المستعمل الآن فقد تكفلت المصادر التي أشرت الى أكثرها ومصادر أخرى حديثة ببيان ذلك المقصد وإنما أريد أن أوضح مدى العلاقة بين ما نكتب به الآن من الكتابة العربية وبين الرسم المصحفي، فقد تحدث كثير من القدماء والمحدثين بأسلوب يوحي أن هناك انفصلاً وتباعداً بينهما، وردد الناس قول ابن درستويه «ووجدنا كتاب الله جل ذكره لا يقاس هجاؤه ولا يخالف خطه، ولكنه يتلقى بالقبول على ما أودع المصحف» (٣٠). حتى لقد قال أبو حيان «فقد صار الاصطلاح في الكتابة على ثلاثة أنحاء: اصطلاح العروض واصطلاح كتابة المصحف واصطلاح الكتاب في غير هذين» (٣١). وتحدث ابن خلدون في مقدمة تأريخه عن الكتابة العربية بأسلوب يوحي أنه كانت هناك طريقتان للكتابة في زمن نسخ المصاحف الأئمة، الأولى ما كتب في المصاحف والثانية ما يجري عليه الكتاب في غير ذلك (٣٢).

والحقيقة أن هناك خطأ وقع فيه كثير من الدراسين حين نظروا الى الرسم العثماني من خلال القواعد التي وضعها علماء العربية. واعتقدوا أن الكتابة العربية كانت في النصف الأول من القرن الهجري الأول على نحو ما نجده في كتب علماء العربية عن الهجاء، ومن ثم فقد اعتبروا ما جاء في الرسم العثماني من

(٢٧) أنظر صبح الأعشى ج ٣ ص ١٧٢ وما بعدها.

(٢٨) أنظر همع الهوامع ج ٢ ص (٢٣١-٢٤٤).

(٢٩) أنظر نصر الهوريني ص (٣-٤).

(٣٠) ابن درستويه: كتاب الكتاب ص ٥.

(٣١) السيوطي همع الهوامع ج ٢ ص ٢٤٣.

(٣٢) أنظر تاريخ ابن خلدون مج ١ ص ٧٥٧.

ظواهر كتابية خروجاً على تلك القواعد واعتبرها بعضهم خطأ واكتفى آخرون بالقول بأن الرسم لا يقاس عليه ولا يخالف « ولكنه يتلقى بالقبول على ما أودع المصحف (٣٣) » .

والموقف الحق والمنهج الصواب في فهم حقيقة العلاقة بين الرسم المصحفي والإملاء العربي هو أن الكتابة العربية أتت عليها حين من الدهر كانت تكتب بالصورة التي نجدها في الرسم العثماني تشهد لذلك النقوش التي ترجع الى القرن الهجري الأول، ولكن اتساع استخدام الكتابة العربية في القرون الهجرية الأولى قد أظهر الحاجة بوضوح الى قواعد للكتابة أكثر تحديداً وضبطاً فاتجه الناس منذ القرن الأول الى تكميل ما يبدو في الكتابة العربية من نقص والى توحيد ما فيها من تعدد القواعد وأسهم علماء العربية في هذه الحركة والأفوا مع مرور السنين رسائل وكتباً في هذا الموضوع، لكن هذه الحركة التكميلية والتفصيلية للكتابة العربية لم تتعد بها عما هي عليه في رسم المصاحف الأئمة .

وقد ظل الرسم المصحفي نموذجاً يلتزمه كثير من الكتاب في رسم بعض الكلمات في القرون الهجرية الأولى يدل على ذلك ما نجد من إشارات في بعض الكتب المتقدمة من حرص الكتاب على التزام صور هجاء الكلمات في الرسم في ما يكتبون . فقد ذكر ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) عن كتابة (الصلوة والزكوة والحياة) بالواو فقال (٣٤): « ولولا اعتياد الناس لذلك في هذه الأحرف الثلاثة وما في مخالفة جماعتهم لكان أحب الأشياء إليّ أن يكتب هذا كله بالألف » . وأشار الى هذا المعنى الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ) أيضاً (٣٥) . وتحدث ابن قتيبة عن الألف التي تزداد بعد الواو المتطرفة وقال (٣٦): « غير أن متقدمي الكتاب لم يزالوا على ما أنبأتك من الحاق ألف الفصل بهذه الواوات كلها ليكون الحكم في كل موضع

(٣٣) أنظر المبحث الثاني من الفصل الثالث في موقف علماء السلف من ظواهر الرسم .

(٣٤) أدب الكاتب ص ٢٥٣ .

(٣٥) الجمل ص ٢٧٦ .

(٣٦) أدب الكاتب ص ٢٣٧ .

واحداً (٣٧). وهذه اشارات تدل على أن كل ما نجده في الرسم العثماني من ظواهر كتابية إنما كان يستعمله الكتاب في كل ما يكتبون، لكن الفجوة بين ما نجده في الرسم وما يستعمله الكتاب أخذت تتسع كلما تقدمت السنون، اعتباراً من النصف الثاني من القرن الهجري الأول حتى وضع علماء العربية القواعد واستقرت الكتابة نسبياً على ما ذكروه في كتبهم.

ومع ذلك فإن الفجوة والاختلاف بين ما استقر عليه الاملاء العربي وبين ما نجده في الرسم المصحفي لم تكن كبيرة جداً بحيث تسوغ الحديث عن نظامين أو ثلاثة للكتابة العربية، ففي مجال رموز الصوامت ليس هناك اختلاف بين الرسم والاملاء إلا في أمور جزئية جداً من مثل كتابة تاء التانيث في الأسماء المفردة هاء مربوطة والتعليم عليها بنقطتين دلالة على التاء بعد أن كانت ترسم في المصحف تاء طويلة في بعض المواضع وهاء مربوطة في أخرى، أما التنوين والحرف المشدد فليس هناك اختلاف في تمثيلها إلا أن لام التعريف إذا دخلت على كلمة في أولها لام صارت تكتب لامين في الغالب بعد أن كانت تكتب لاماً واحدة في الأكثر.

أما رسم الهمزة فقد استقر الأمر فيه على كتابتها على حسب ما تؤول إليه في التخفيف - كما هي مرسومة في المصحف - والتعليم على الألف والواو والياء برأس العين. وقد صارت القاعدة في الكتابة هي الابتداء بالكلمة والوقف على آخرها ومن ثم اختفت بعض صور هجاء الكلمات المهموزة التي كتبت في المصحف على الوصل من مثل (العلموا - ضعفوا - نشوا...)، ولا تزال الكتابة العربية تحتفظ ببعض الحفريات الكتابية القديمة في كتابة الهمزة حين تأتي مرسومة برمزين مثل (أولئك ومائة).

أما في مجال الحركات فان الكتابة العربية استكملت ما كانت تعانيه من نقص في تمثيل الحركات القصيرة بفضل حرص علماء القراءات والعربية على

(٣٧) أنظر نفس المصدر ص ٢٥١ و ٢٦٣ و ٢٦٨ حيث يذكر أمثلة أخرى مماثلة.

صيانة القرآن عن اللحن، ولا نكاد نجد اختلافاً كبيراً في هذا الباب بين الرسم المصحفي والاملاء الذي نستخدمه في الكتابة إلا في أن الرسم كان يمثل الفتحة الطويلة المتوسطة دائماً بينما نحرص الآن ومنذ قرون كثيرة على تمثيلها أيماً وقعت، ومع ذلك فلا تزال هناك كلمات تشير الى الظاهرة القديمة التي نجدها في رسم المصحف مثل (لكن - هذا - ذلك - هؤلاء...) ونستعملها كما جاءت في الرسم.

أما ظاهرة حذف احدى الواوين أو الياءين حين تجتمع في الرسم في مثل: الأميين - النبيين - الحواريين - تلوون - يستوون - الفاوون - داوود) فإنها اختفت في كتابتنا الآن إلا في مثل (داود). كذلك اختفى من كتابتنا التي نستخدمها اليوم رسم الفتحة الطويلة واواً بينما ظل رسمها ياء كما هو في المصحف إلا أننا في حالة اتصال ضمير بالكلمة المنتهية بالفتحة الطويلة المرسومة ياء نجعلها ألفاً مثل (رمى - رماه، ويخشى - يخشاه، وذكري - ذكراه) وما شابه ذلك^(٣٨). وربما كتب ذلك كله بالألف^(٣٩). لكن المذهب الشائع ما سبق ذكره.

أما علامات الحركات القصيرة والعلامات المخصصة الأخرى فإن ما يستعمله الكتاب اليوم ومنذ قرون كثيرة لا يخرج عما هو موجود في الرسم المصحفي، سوى اننا نهمل استخدام تلك العلامات إلا حيث يخشى حدوث اللبس أو في بعض الكتب اللغوية والتعليمية.

أما وصل الكلمات أو فصلها فلم يختلف الأمر كثيراً إلا أن الأمر انتقل من المرحلة التي كان يمثلها قول عاصم الجحدري «سواء، لا أبالي أقطع ذا أم وصل ذا، إنما هو هجاء»^(٤٠) الى مرحلة يعتمد وصل الكلمات فيها أو قطعها على المعنى النحوي فوصل (ما) أو فصلها - مثلاً - إنما يعتمد على معناها فإذا كانت بمعنى (الذي) فصلت، وتوصل إذا كانت غير ذلك^(٤١). وكان - بذلك - لقواعد النحو

(٣٨) ابن درستويه ص ٢٠.

(٣٩) الفراء: المنقوص والممدود. القاهرة. دار المعارف ١٩٦٧ ص ١١.

(٤٠) الداني: المقنع ص ٧٢.

(٤١) انظر ابن درستويه ص ٢٦ والصولي ص ٢٥٨.

أثر في توجيه بعض القواعد الاملائية التي يذكرها علماء العربية في كتبهم على نحو ما يصور أبو حيان في قوله: وعلم الخط ويقال له الهجاء ليس من علم النحو، وإنما ذكره النحويون في كتبهم لضرورة ما يحتاج إليه المبتدئ في لفظه وفي كسبه، ولأن كثيراً من الكتابة مبني على أصول نحوية ففي بيانها بيان لتلك الأصول، ككتابة الهمز على نحو ما يسهل به، وهو باب من النحو كبير^(٤٢).

ومهما يكن من شيء فإن قصارى ما يمكن قوله عن العلاقة بين الرسم المصحفي والاملاء الذي يستخدمه الكاتبون منذ القديم الى اليوم في غير المصحف هو أن الرسم كان يمثل مرحلة من مراحل الكتابة العربية، حمل خصائص تلك المرحلة، وما إملأونا اليوم الا امتداد للرسم في معظم خصائصه. وقد كان للحرص على تيسير تلاوة القرآن على الناس وصونه عن اللحن والخطأ أثر كبير في دفع الكتابة العربية نحو الكمال في تمثيل كافة أصوات اللغة وتخصيص كل صوت فيها برمز كتابي واحد سواء في ذلك الأصوات الصامتة أم الحركات وهي غاية لا تزال تقصر عن اللحاق بها كافة أجديات الدنيا.

(٤٢) السيوطي: همع الهوامع ج ٢ ص ٢٤٣.

الخاتمة

أهم نتائج البحث:

أولاً: إن دراسة تاريخ وخصائص الكتابة العربية سواء أتمثلت بالرسم العثماني أم بأية وثيقة أخرى - لا بد من أن تكون في إطار ارتباط الكتابة العربية بمجموعة كتابات أخرى، هي مجموعة الكتابات السامية، فالكتابة العربية هي - في الرأي الراجح - متطورة عن الكتابة النبطية، التي هي أحد فروع الكتابة الآرامية، وقد حملت الكتابة العربية بسبب ذلك كثيراً من خصائص الكتابات السامية في تمثيل الصوامت والحركات، ولا يمكن فهم تلك الخصائص إلا في إطار تلك العلاقة.

ثانياً: إن قصور الكتابات الهجائية في تمثيل النطق تمثيلاً دقيقاً، أي كان شكل ذلك القصور، يعد أمراً طبيعياً، ومن خصائص الكتابة بصورة عامة، لاستحالة مسايرة الكتابة لحركة اللغة، فتظل الكتابة تحتفظ بمظاهر كثيرة من مخلفات النطق القديم مع قصورها - أحياناً - في تمثيل النطق الجديد.

ومن ثم فإن دعوى أن (الأصل في الكتابة مطابقة الحظ للفظ) خطأ جسيم، وقع فيه كثير من الدارسين، وهم يبحثون في بعض الصور الهجائية في الرسم المصحفي، وقد حرّمهم ذلك فرصة البحث الجاد عن أصل تلك الصور التي يبدو فيها نوع من القصور فتطرفوا بين القول بالتوقيف، والقول بالخطأ.

وبناء على هذا الفهم لطبيعة الصور الهجائية التي زيد فيها رمز أو نقص من هجائها رمز، أو كتبت بغير ما يدل عليه النطق - أمكن الكشف، في هذا

البحث، عن أصول كثير من تلك الصور وإعطاء تفسير أقرب الى الواقع لها، خاصة فيما يتعلق برموز الحركات الطويلة (الألف والواو والياء)، وما يتعلق بتمثيل الهمزة، وما الى ذلك.

ثالثاً: تكاد تنحصر عوامل قصور بعض الصور الهجائية في تمثيل النطق تمثيلاً دقيقاً في عاملين:

الأول: ميل الكتابة الى الاحتفاظ بصور هجائية تمثل نطقاً قديماً، فالكتابة لا تواكب حركة اللغة في تطورها، ومن هنا قد نجد رموزاً قديمة تمثل أصواتاً جديدة، وهذا العامل يفسر لنا أمثلة كثيرة من صور هجاء الكلمات في الرسم العثماني والكتابة العربية، في تمثيل الصوامت والحركات على السواء.

الثاني: إن الغالب في هجاء الكلمات العربية تمثيل أصوات الكلمة مبدوءاً بها وموقوفاً عليها، لكن كلمات كثيرة جاءت مرسومة بحسب نطقها في درج الكلام، ولا شك في أن أصوات اللفظ في السلسلة الكلامية المتصلة يلحقها تغير كبير أحياناً، من مثل انتقال المخرج أو تغير الصفة أو تقصير طول الصوت، وقد ينعكس ذلك على هجاء الكلمة اذا رسمت حسب نطقها في درج الكلام، كما فعل كتبة المصاحف في الرسم العثماني في بعض المواضع، ويفسر لنا هذا العامل كثيراً من أمثلة حذف رموز الحركات الطويلة، وتغير رموز بعض الأصوات الصامتة، وبعض أمثلة هجاء الهمزة، وجانباً من أمثلة هجاء الكلمات الموصولة.

رابعاً: لم يكن أمام علماء السلف إلا طريقة واحدة لتكميل الرسم العثماني، من بين الطرائق الممكنة الثلاث، وهي طريقة العلامات الخارجية التي بواسطتها استطاعت الكتابة العربية أن تجعل لكل صوت لغوي واحد رمزاً كتابياً واحداً، لأن ما عدا طريقة العلامات الخارجية يترتب عليها تحطيم الشكل الهجائي للكلمات مما قد يفتح باباً لدخول التحريف الى نص القرآن الكريم، خاصة بعد أن صارت موافقة الخط أحد شروط القراءة الصحيحة، وقد

استطاع علماء السلف بهذه الطريقة تمييز الرموز المتشابهة الصور، وتمثيل الحركات القصيرة، وتخصيص بعض الحالات النطقية، دون المساس بطريقة هجاء الكلمات، فطريقة العلامات الخارجية هي الطريقة الوحيدة التي تحافظ على الأصل وتكمل النقص.

خامساً: لم يكن لطبيعة الرسم العثماني أثر في تعدد وجوه القراءة، وإنما كان الرسم وسيلة لحفظ القراءات الثابتة النقل، إذ أن تلك الوجوه المختلفة لم يكن لها إلا سبب واحد ومصدر واحد، هو التلقي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وكل من يزعم أن الرسم كان سبباً في وجود بعض القراءات التي يروها علماء القراءة - مخطيء، أو جاهل بتاريخ القرآن والقراءات وبحكمة تلك الوجوه، أو أنه ضال ذو غرض يتبع هواه، وليس فيما يروى عن حماد الراوية، أو عمّن سواه ممن لا صلة له بنقل القرآن، من أنه صحف بعض الكلمات حيناً قرأ في المصحف - حجة في ذلك إطلاقاً.

سادساً: إن هجاء الكلمات في كتابتنا اليوم لا يختلف عما جاء في الرسم المصحفي سوى أننا نشير إلى الفتحة الطويلة في كافة مواضع ورودها - رغم احتفاظ عدد محدود من الكلمات بصور هجائها القديمة - ثم اننا نحاول في كتابتنا توحيد رسم الكلمات على قاعدة أن الأصل هو كتابة الكلمة بحروف هجائها مبدوءاً بها وموقوفاً عليها، ولم يؤد ذلك إلا إلى تغيير هجاء بعض الكلمات، مما نجده في الرسم العثماني مكتوباً على أكثر من قاعدة، تغييراً محدوداً.

وأخيراً فإن الرسم المصحفي كان ذا أثر كبير في بلوغ الكتابة العربية هذه الدقة في تمثيل أصوات اللغة، ولولا جهود علماء السلف من علماء الرسم والعربية لما تحقق للكتابة العربية هذا المستوى الذي يطمح إليه كثير من الكتابات في تمثيل الأصوات المنطوقة وهكذا فكما كان للقرآن الكريم أثره العميق في حياة العرب كان له أثره المائل في لغتهم وكتابتهم بما هيأها لأن تكون لغة وكتابة عالمية يعترف بها كل مسلم.

ولا بد لي، بعد عرض نتائج البحث هذا العرض الموجز، أن أؤكد ما أجمع

عليه علماء السلف والخلف من وجوب المحافظة على رسم المصاحف العثمانية فيما ينسخ ويطبع من مصاحف، لا لأنه توقيف، إذ لم يثبت ذلك بنص، على ما أعرف، والشواهد تدل على أن الصحابة كتبوا القرآن بكتابتهم التي كانوا يستخدمونها في كافة أمور حياتهم، بل لأنه:-

أولاً: أثر كريم من أيدٍ كريمة، يتحسس قارئ القرآن من خلاله حرّ أنفاس الصحابة - رضوان الله عليهم - وهم يخطون القرآن الكريم في المصاحف لأول مرة منذ ما يقارب أربعة عشر قرناً من الزمان.

ثم إن الرسم العثماني صار أحد الشروط الثلاثة التي يجب تحققها في كل قراءة لتعد صحيحة تجوز القراءة بها، وإذا ما غيرنا هجاء بعض الكلمات في الرسم فسوف يحتل ركن مهم من أركان القراءة الصحيحة، ويؤدي ذلك الى خلل أو تضييع، ولا تمنع المحافظة على هجاء الكلمات كما جاءت في المصاحف العثمانية من ضبط المصاحف على أي من القراءات الصحيحة، كما نجد ذلك في المصاحف المطبوعة في مصر اليوم على رواية حفص أو ورش.

وإلى جانب ذلك فإن الرسم قد يدل على معانٍ دقيقة في مجال دراسة اللغة والكتابة والقراءات، ولو ظل الرسم المصحفي يتغير كلما تغيرت طريقة كتابة الكلمات في أيدي الكتاب لفتّ ذلك على الدارسين معاني كثيرة يمكن أن تستفاد من صور هجاء الكلمات كما جاءت في الرسم العثماني، فرسم كلمة (العلماء) في قوله تعالى (فاطر ٣٥/٢٨): ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ بالواو، يدل الألف، يدل على أن الصحابة حين كتبوا هذه الكلمة كانوا يقرأونها بالضم، كذلك فإن رسم الهمزة في الرسم العثماني يدل بصورة عامة على قراءتها بالتسهيل، الى غير ذلك من الظواهر الكتابية، ولا يعني ذلك أن الرسم هو المعتمد في تحقيق ألفاظ التلاوة، إلا أن الرسم مع ذلك قادر على أن يشير الى قراءة معينة من بين القراءات المروية الموافقة للرسم على أنها القراءة التي قصدتها كتبة المصحف حين رسموا الكلمة المعينة.

وأخيراً فإن الرسم المصحفي بصورته التي نجدها اليوم في المصاحف لا يعجز

كل من عرف القراءة والكتابة بدرجة مناسبة أن يقرأه دون أن يخطيء ، مع أن في القراءة شيئاً - أكثر من كون الحرف متحركاً أو ساكناً - لا تحكمه الكتابة ، لا بد أن يضبط عن القراء ، والرسم العثماني بعد ذلك لا يختلف عن كتابتنا سواء في هجاء الكلمات أو علامات الحركات إلا في كلمات يسيرة معلومة ، زيد في هجائها حرف أو نقص منه حرف ، وقد بين علماء الرسم والضبط تلك المواضع بعلامات لا يضل من عرفها ، ولا أعتقد أن أحداً صحت عزمته على قراءة كلام رب العالمين يجد صعوبة في الرسم المصحفي المكتوب في المصاحف التي بأيدي الناس اليوم ، بعد تلك الجهود الكبيرة التي خدم بها علماء السلف النص الكريم .

ولعل بلوغ هذا الشوط من البحث يشفع لي أن أتقدم باقتراحين اثنين أرجو أن تكون في تحققها فائدة وإضافة جديدة :

الأول : إعادة دراسة الاملاء العربي الذي نكتب به اليوم على ضوء علاقته بالرسم المصحفي ، فهو مرحلة لاحقة للرسم العثماني ، وهذه الدراسة تمكننا من تقديم فهم صحيح لظواهره الهجائية ، الى جانب أنها تتيح كتابة تاريخ أقرب الى الواقع للكتابة العربية .

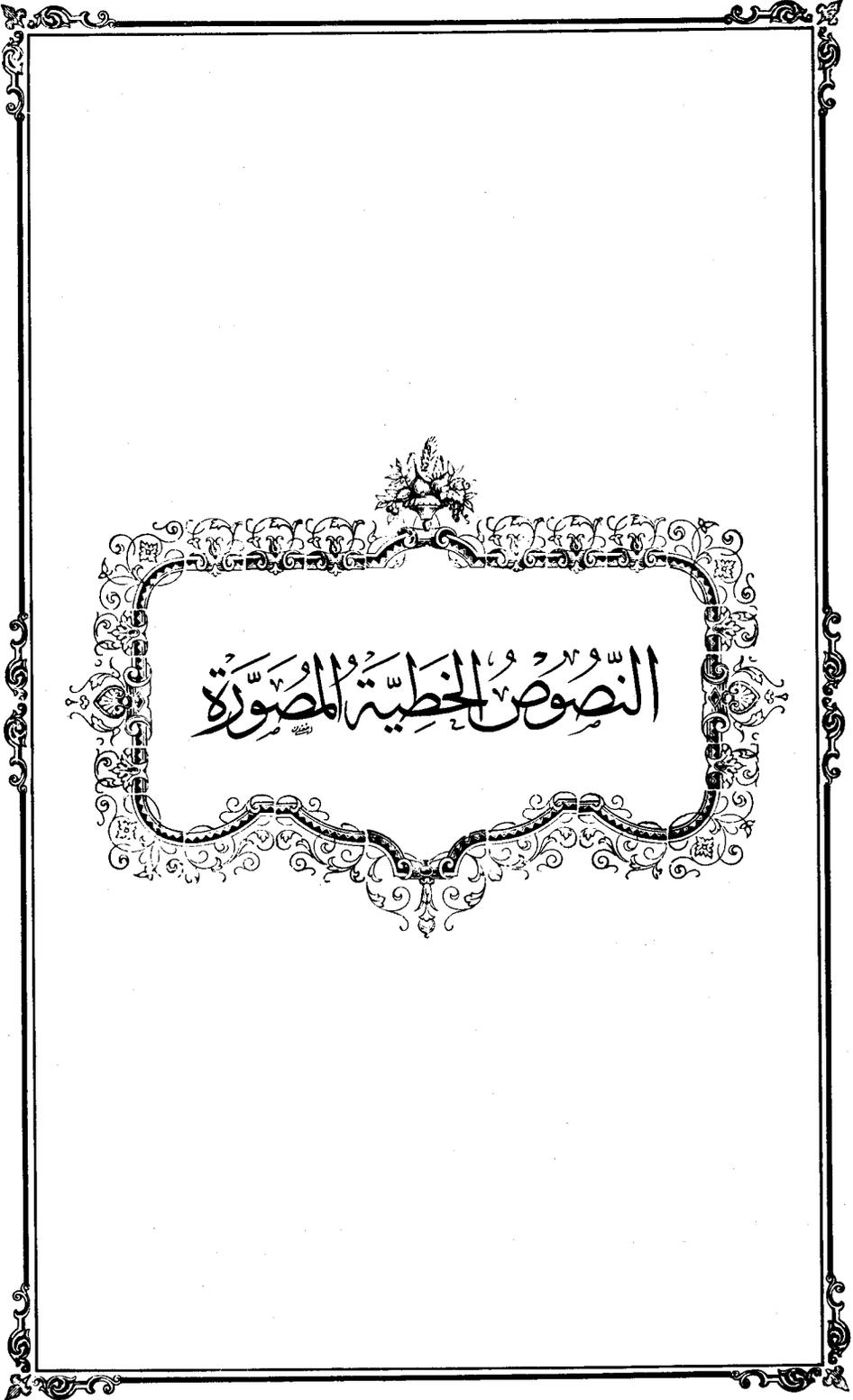
الثاني : الاهتمام بمخطوطات المصاحف والكتب القديمة والوثائق المخطوطة على اختلاف أشكالها وعصورها ، فهي - الى جانب أهميتها العلمية - تقدم طريقة رسم الكلمات فيها المادة الحقيقية التي يمكن من خلالها تتبع مراحل تطور صور هجاء الكلمات ، وكتابة تاريخ الكتابة العربية ، ولعل من أبرز مظاهر ذلك الاهتمام تمكين الدارسين من الاطلاع عليها والقراءة فيها ، سواء تم ذلك عن طريق تصويرها أم عن أي طريق غيره .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * * *

* *

*



النصوص الخطية للصورة

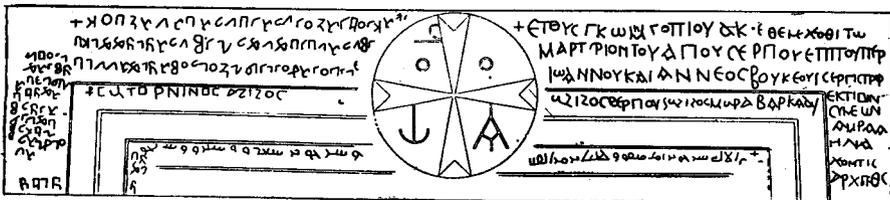


١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥
 ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥
 ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥

شكل ٢ - نقش أم الجبال الأول (تاريخه سنة ٢٥٠ ب.م.).

١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥
 ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥
 ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥
 ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥
 ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥ ١٥٥

شكل ٣ - نقش النارة، وهو شاهد قبر أمريء القيس (تاريخه سنة ٣٢٨ ب.م.).



شكل ٤ - نقش زبد (تاريخه سنة ٥١٢ ب.م.).

أنا سر حيزر كلامو سب دا / المرقور
 سب بكو لكسر علا مسد
 لاسر
 لاسر

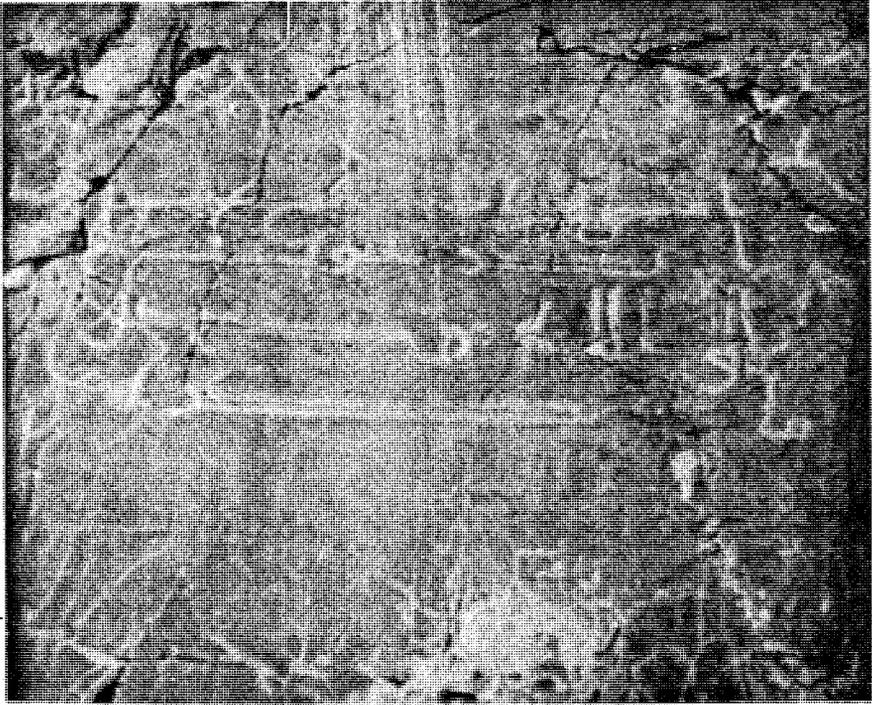
شكل ٥ - نقش حرّان (تاريخه سنة ٥٦٨ ب. م.).

انا سر حيزر كلامو سب دا
 سب بكو لكسر علا مسد
 لاسر
 لاسر

شكل ٦ - نقش أم الجبال الثاني (تاريخه يعود إلى أواخر القرن السادس ب. م.).



شكل ٧ - كتابة منارة الطريق بباب الواد (نقلًا عن فان برشم)



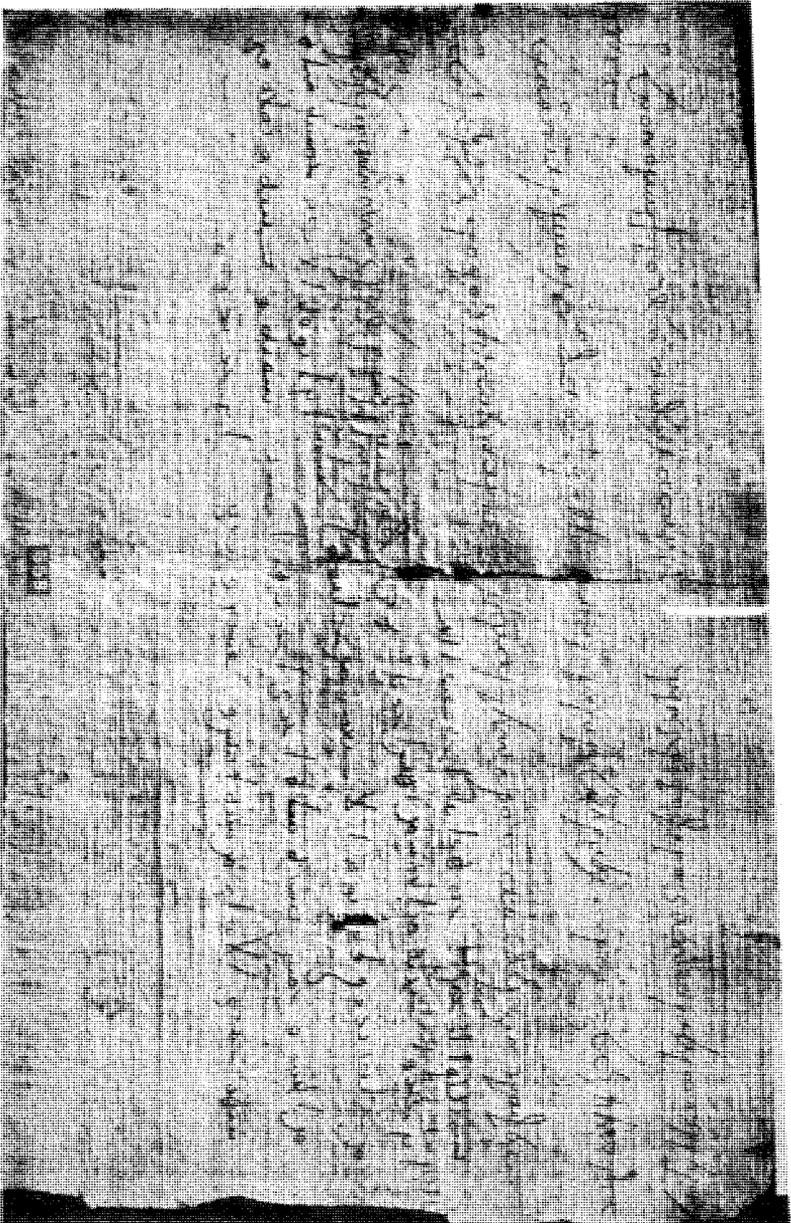
ما
أمرى وما أصبح
وأمرى وما أصبح
أمرى وما أصبح
أمرى وما أصبح

شكل ٨ - نموذج للكتابة الحجرية المنقوشة في جبل سلع بجوار المدينة المنورة. منسوبة لعهد الخلفاء الراشدين.

(نقلًا عن Islamic Culture)



شكل ٩ - صورة رسالة النبي محمد ﷺ إلى كِسْرَى ملك الفُرس يدعُوهُ فيها إلى الإسلام. (عن الأصل المحفوظ في خزانة هنري فرعون-بيروت)



شكل ١١ - صورة البردية المورخة سنة ٢٢ هـ. أي في عهد الخليفة عمر . وهي بالخط العربي
النسخي القديم واليوناني . وجدت في حفائر بلدة اهنس في مصر . (محفوطة في
متحف قينا - مجموعة الأرشيدوق رينر رقم ٥٥٨) نقلًا عن جروهان :

From the World of Arabic papyri, p. 82, Cairo 1952.



نقش القاهرة

شكل ١٢ - صورة شاهد قبر عبدالرحمن بن خير. مؤرخ سنة ٣١ هـ. أي في زمن الخليفة عثمان. محفوظ في متحف الآثار الإسلامية بالقاهرة. (نقلًا عن دليل متحف القاهرة - الشواهد القبرية. رقم ١).



شكل ١٣ - كتابة سد معاوية، وهي من أقدم الكتابات العربية التي وُجِدَت
بالقرب من الطائف في الحجاز. كُتبت بأخط اليباس سنة ٥٨ هـ.
(نقلًا عن مايلز).

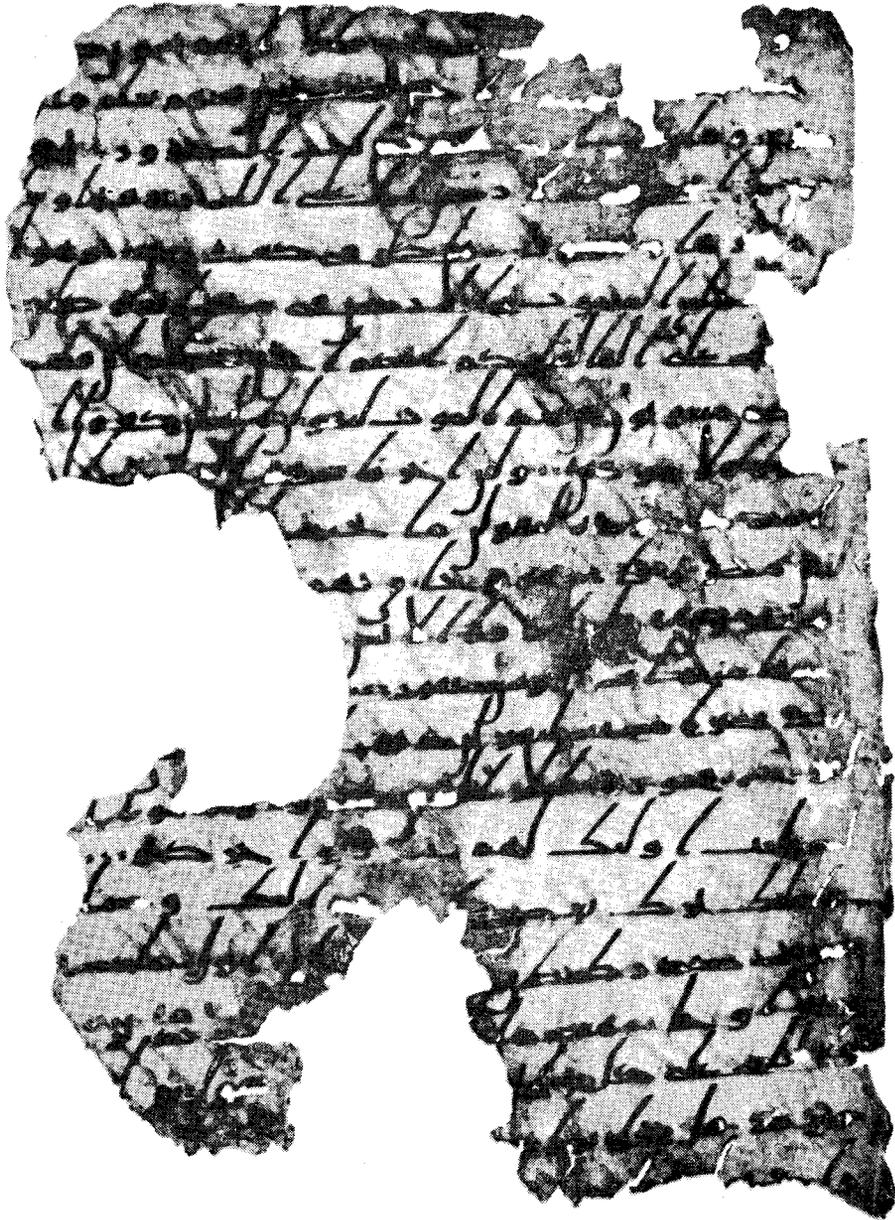
هكذا السك لعبد الله معويه
امد المومس بنيه عبد الله برطهر
ماكر الله لسهه ثمر و خمسيرا
للهما عفر لك الله معويه
مد المومس وثينه وانطده ومتعرا
[مدا] لمومس بنه كتب عمرو رحباب

شكل ١٤ - رسم لكتابة سد الطائف الذي بناه الخليفة الأموي الأول معاوية
سنة ٥٨ هـ. وهي أقدم كتابة عربية مورخة في الحجاز. (نقلًا عن
مايلز).

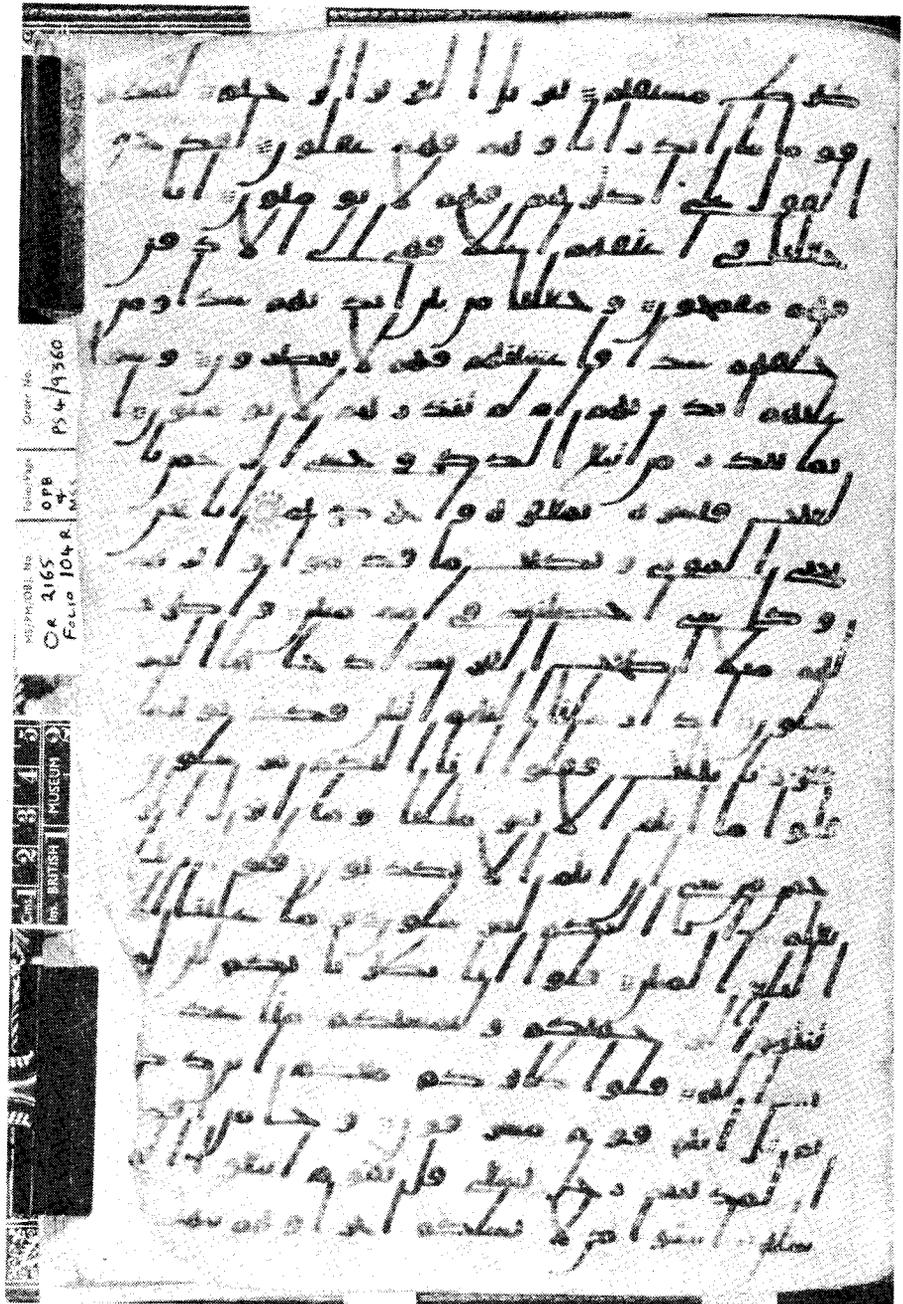


حجر حفنة الأبيّض

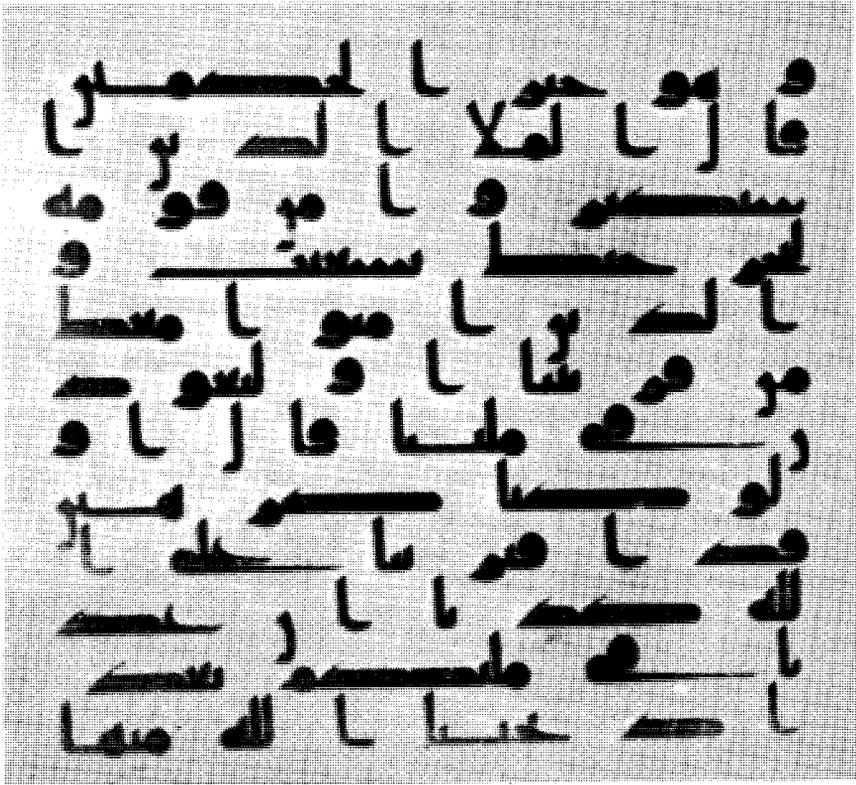
شكل ١٥ - كتابة عربيّة كوفيّة على شاهد قبر ثابت بن يزيد الأشعري،
مورّخة سنة ٦٤ هـ. عثرت عليها دار الآثار العراقيّة في وادي
حفنة الأبيّض بلواء كربلاء. (صورة المتحف العراقي).



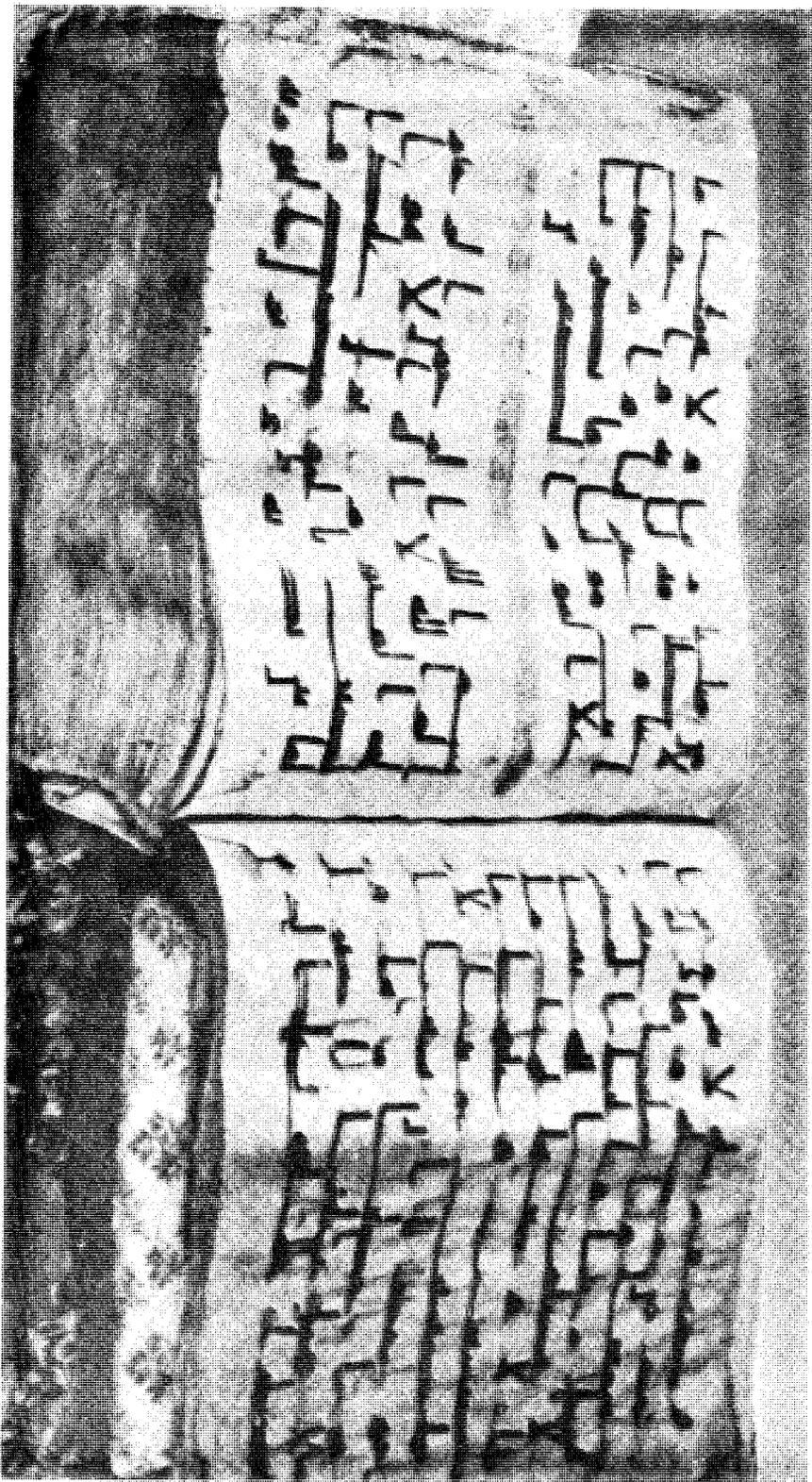
شكل ١٦ - ورقة من مصحف قديم على الرق يعود إلى القرن الأول الهجري،
تحتفظ به مكتبة الفاتيكان (رقم 1605 عربي) وهو نموذج للخط
المكي المائل (نقلًا عن G. levi della Vida)



شكل ١٧ - ورقة من مصحف قديم على الرق، بأخط المائل، وهو من أواخر العصر الأموي. موجود في المتحف البريطاني (رقم Or, 2165)



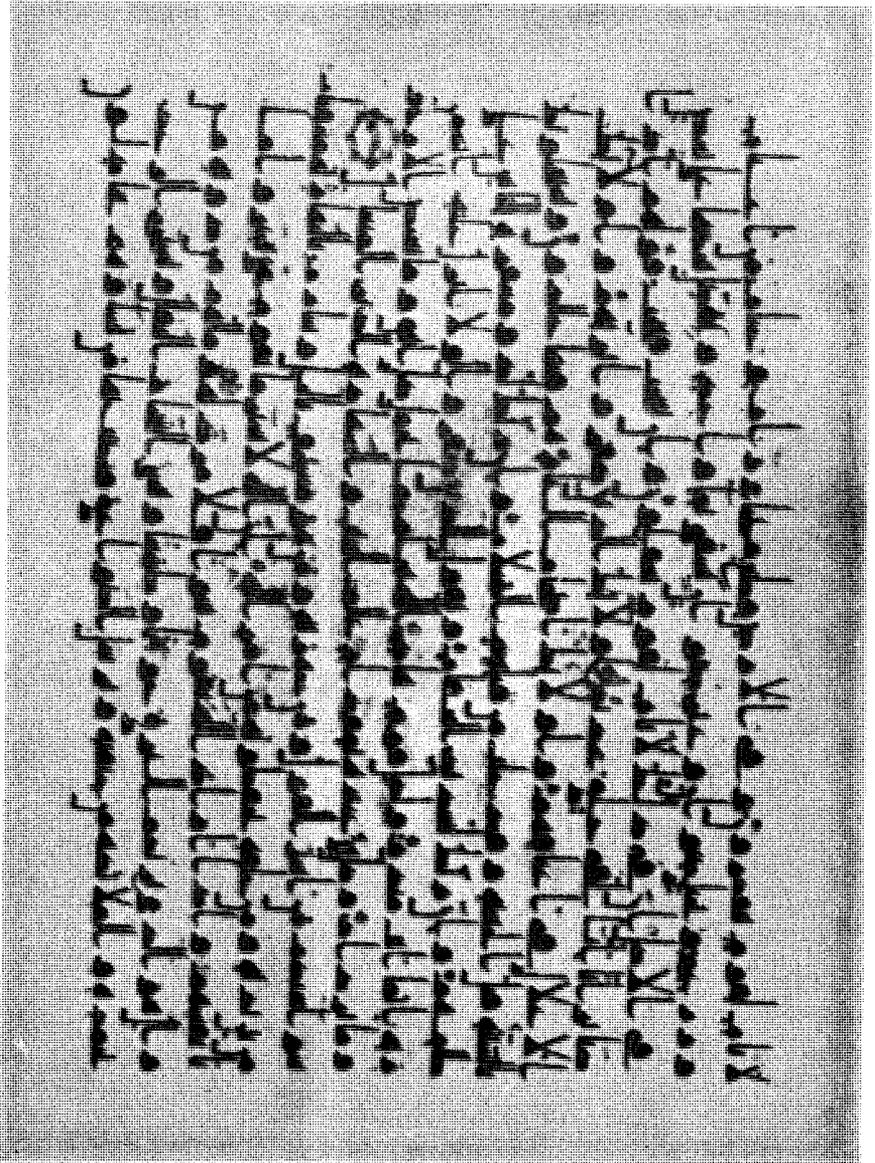
شكل ١٨ - نموذج من مصحف طشقند المنسوب إلى عثمان بن عفان، كُتِبَ
بأخط الكوفي المُجرّد من النقط في القرن الثالث الهجري.



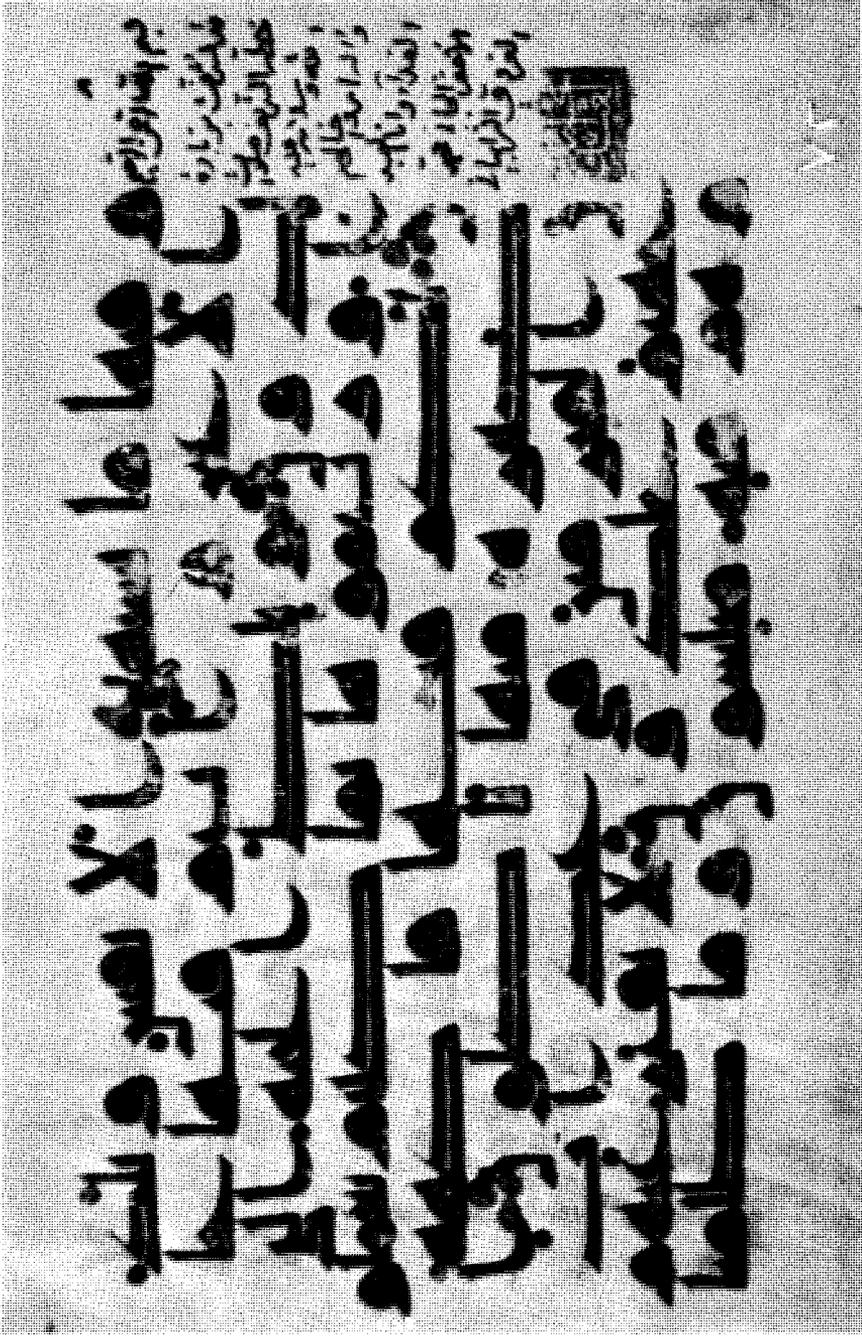
شكل ١٩ - صفحتان من المصحف النسوب إلى عثمان بن عفان ، المحفوظ في الشهد الحسيني بالقاهرة (نتلاً عن مجلة المور المصرية ، العدد ٢٢٦٥ ، ٨ مارس ١٩٦٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُرِيهِ نُجُومَهُ
وَالَّذِي يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
الْمَلَائِكَةُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَبِأَمْرِ اللَّهِ
يُسَبِّحُونَ

شكل ٢٣ - ورقة من مصحف آخر منسوب إلى الإمام علي ، محفوظ في متحف طرب قيو
سراي باستانبول (أمانة رقم 29 ، الورقة a 4)

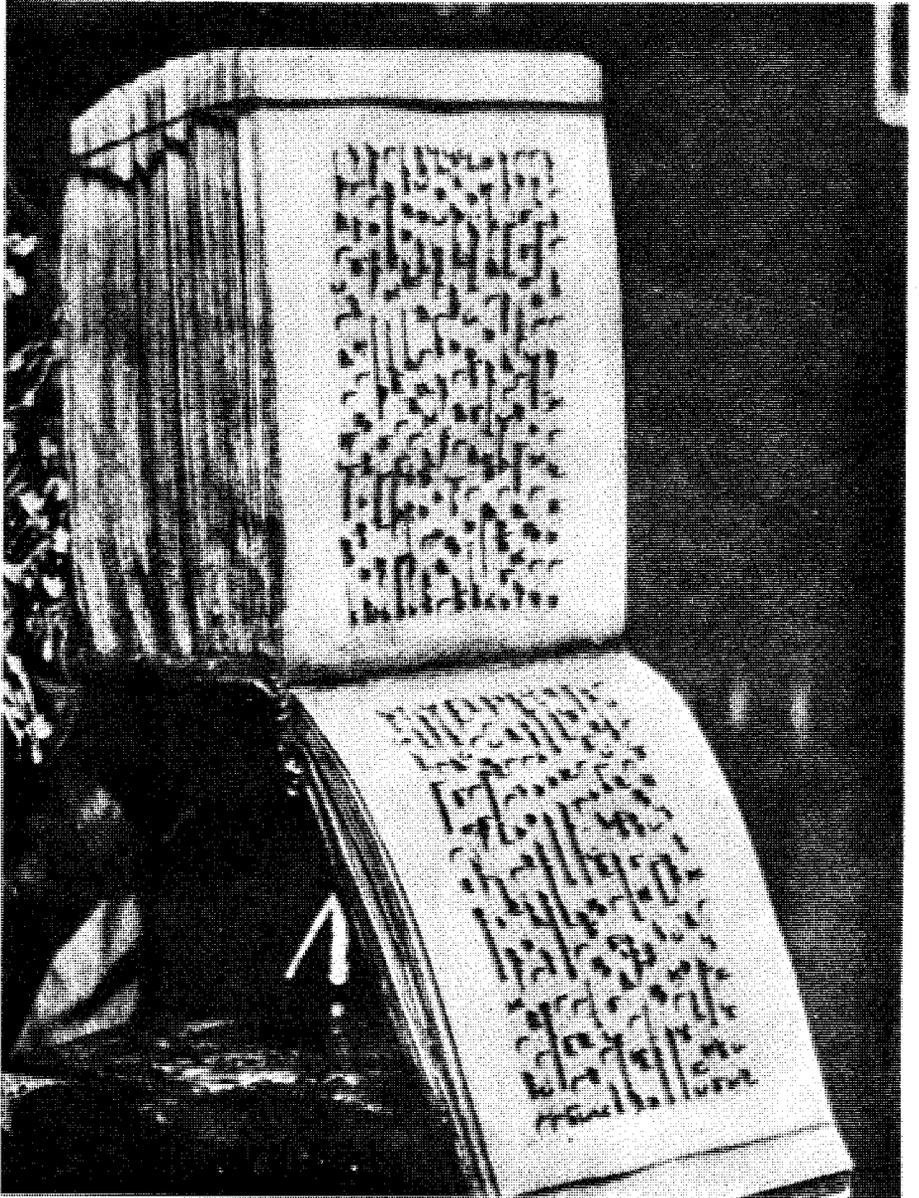


شكل ٢٥ - ورقة من المصحف المنسوب إلى الإمام علي ، المحفوظ في الروضة الحيدرية
بالتنجف (نقلًا عن نشرة الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة)



٧٢

شكل ٢٦ - ورقة من المصحف المنسوب إلى الإمام علي، المحفوظ في مكتبة أمير المؤمنين علي بالنجف.



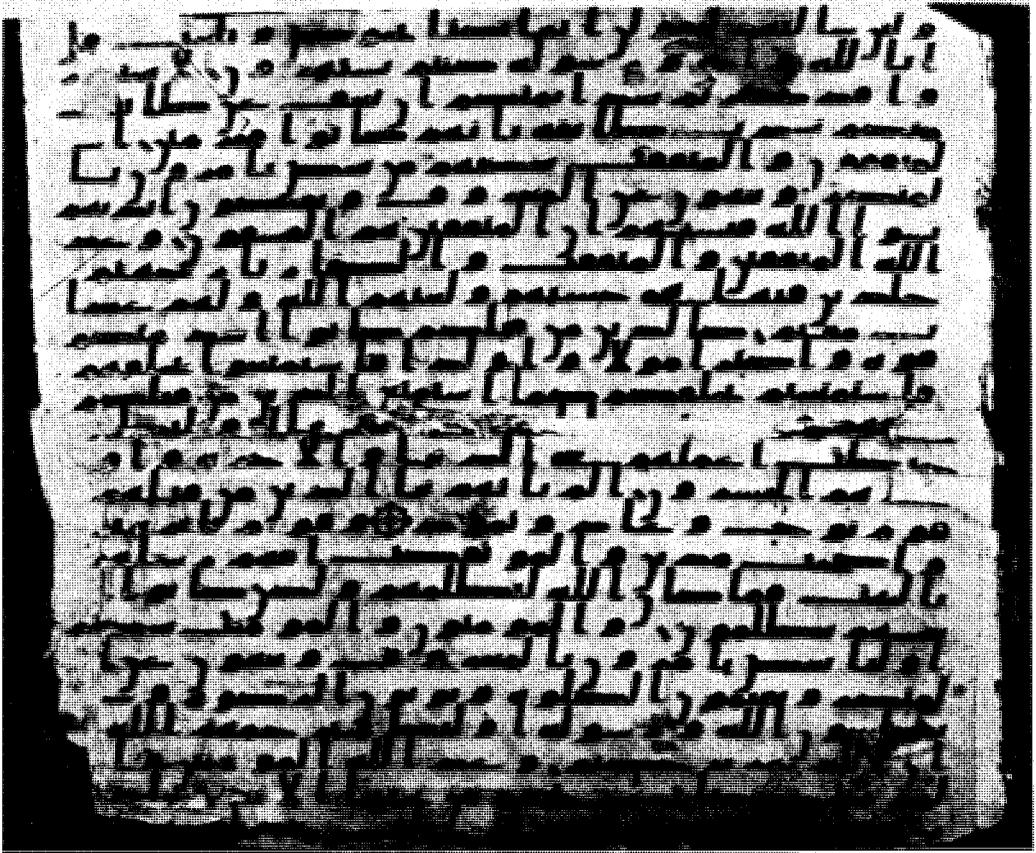
شكل ٢٧ - صفحاتان من المصحف المنسوب إلى الإمام علي، المحفوظ في الشهد الحسيني
بالقاهرة (نقلًا عن مجلة المصور المصرية، العدد ٢٢٦٥، ٨ مارس ١٩٦٨).



شكل ٢٨ - ورقة من المصحف المنسوب إلى عقبة بن عامر، المكتوب سنة ٥٢ هـ. محفوظ في متحف طوبو قيو سراي بآستامبول (أمانة رقم 40 ، الورقة b 130)



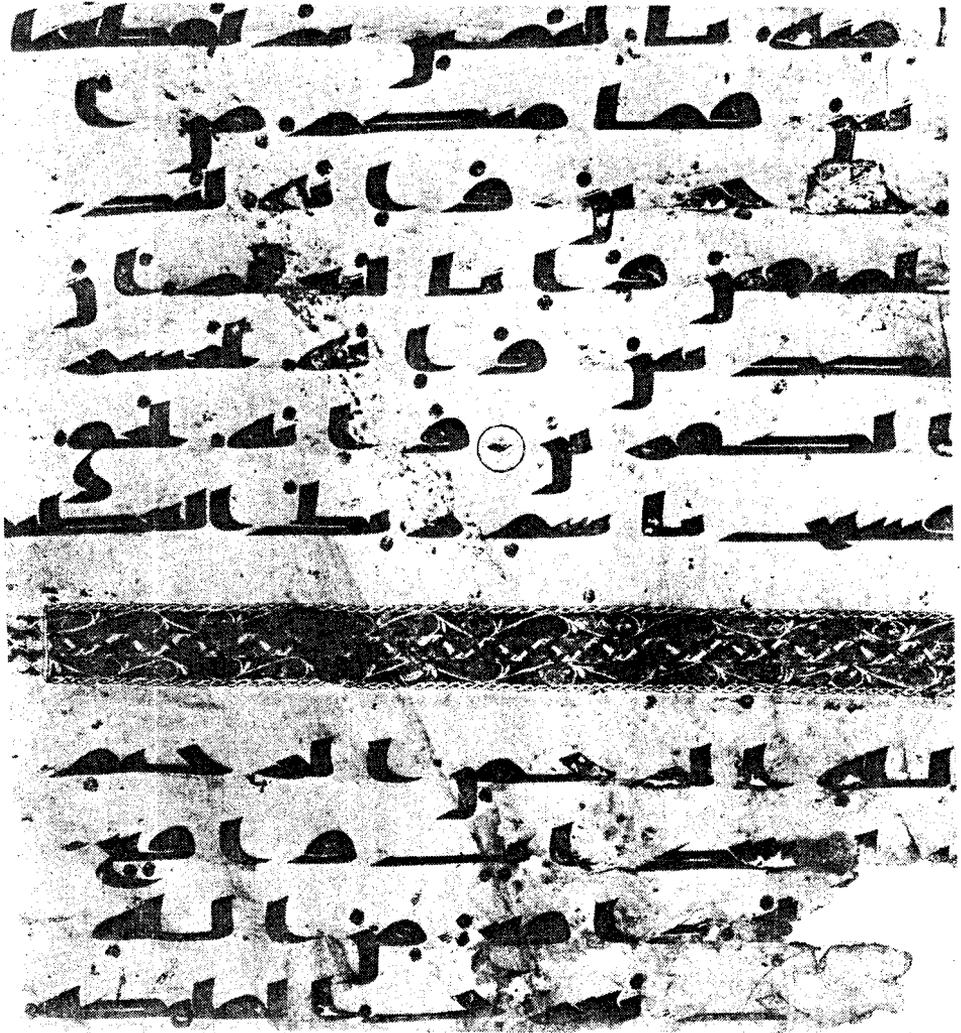
شكل ٢٩ - ورقة من مصحف خديج بن معاوية بن مسلمة الأنصاري، كتبه
 للأمير المستجاب له عقبه بن نافع الفهري سنة ٤٩ هـ. محفوظ في
 متحف طوپ قپو سراي بأستامبول (أمانة رقم 44، الورقة 1b)



شكل ٣٠ - ورقة من مصحف على الرق محفوظ في المتحف العراقي ، رقم ٦٧٨ ، من أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري .

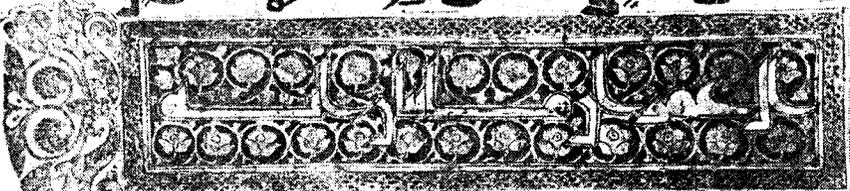
Handwritten Arabic text on a palm leaf manuscript. The text is arranged in approximately 15 horizontal lines. A prominent feature is a decorative horizontal separator consisting of a series of small, repeating circular or floral motifs, located roughly in the middle of the page. The script is a cursive style, likely Maghrebi or similar, and the leaf shows signs of age and wear.

شكل ٣١ - ورقة مصحف في متحف الآثار الإسلامية بأستامبول (رقم 87) من أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري (من مجموعة الوثائق الأموية)



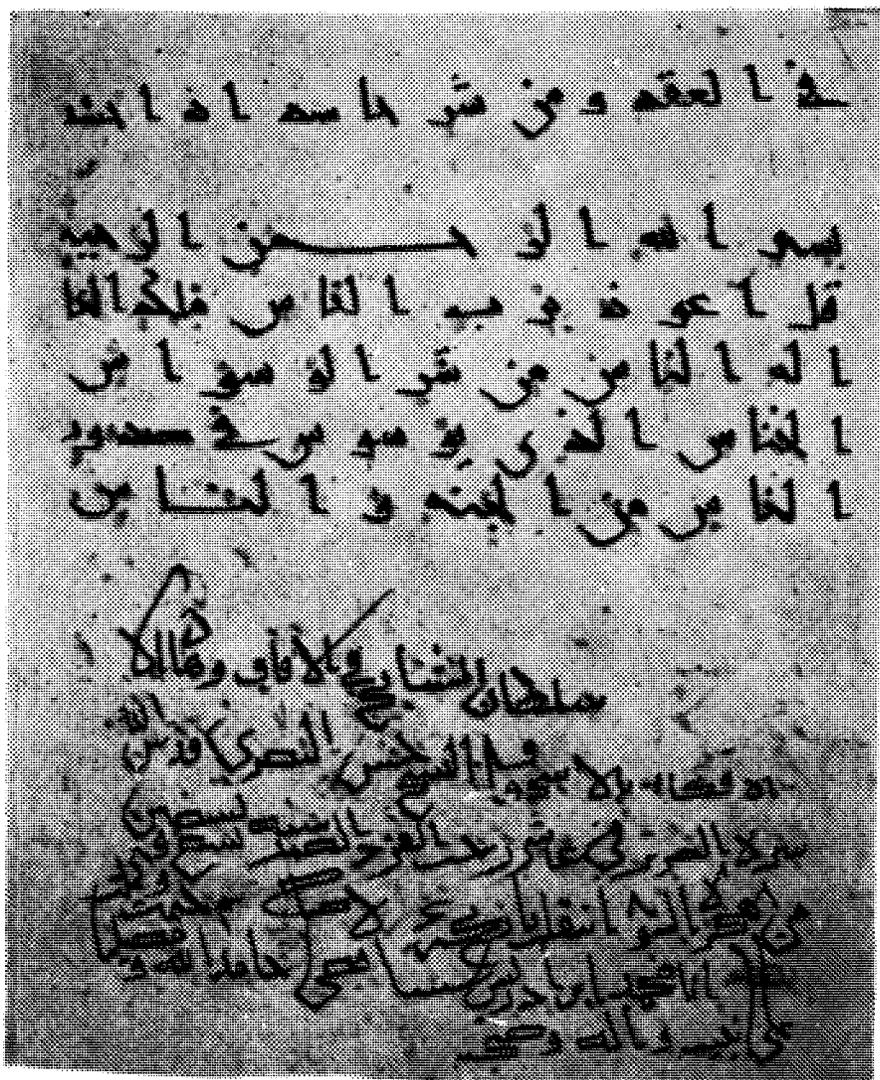
شكل ٣٣- ورقة من مصحف منقوطة بطريقة أبي الأسود الدؤلي (نقلًا عن مجموعة موريتز)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ



الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ

شكل ٣٤ - ورقة من المصحف المنسوب إلى الإمام جعفر الصادق (نقلًا عن مجموعة موريتز)



شكل ٣٥ - الصفحة الأخيرة من مصحف مضبوط الشكل بخط شبه كوفي كتبه حسن البصري، مؤرخ سنة ٩٧هـ، والشرح في أسفل الصفحة بخط الإمام محمد بن إدريس الشافعي (م محفوظ في متحف طوب قيو سراي بأستامبول)

الروم مع ما
هو سالا وجر و
هم من السب كلهم
الفرعون من نبط
الفرعون من نبط
فرعون من نبط
ملك الروم

شكل ٣٦- ورقة من مصحف بخط كوفي من أواخر القرن الثاني للهجرة،
منقوطة نقط إعراب (محفوظ في لينينغراد بمكتبة معهد
الدراسات الشرقية، رقم ٣٢٢).

وهو يذكرون له عما هذا الزمان أم لا يعلم الظالمون
وهذا هو تكويناها الملا ما علمت لهم من السبع
غيره فأوردوا بها ما كان على الظالمين واليهما
صحبوا على أطلال الرأه هو من واثق لا يظنهم
السكاه من واثق كرم و جوده من الأوسم يهد
لهم و سطو النعم البدل لا يوجد من قال خذنا وخذ
فمن يداهم في اليوم وانسطر كيف كان عاقبه
الظالمين من جعلناهم أرقه بق عوز الر التام ونور
للقيام فلا يتصبرون والبعثا لهم في وجه التمثال
لغنه و يوم الغرامة هم من المفقوحين ولقد أينا
عوزي السكاه من يخدمها أم لكنا القوم والاولي
بما أوردنا في كتب و دعمة لعلمهم بدم كرم
و ما سكت جازب الفرقه انه فسيفس الر موهوم
الأمور ما سكت من القياهم من واثق التماس
من واثق ظاهرا علمه العزم و ما سكت نورا
من أما من نورا عليهم أياها و لكنا كراما
و ما سكت عباد السكاه ما كان بها و ليس وجه
من كذا لثمة قوم ما النعم من نورا و ذلك
لهم بعد خبر من واولا أن يصعبهم مسكت
ما سكت من نورا و ذلك لثمة لثمة لثمة
الظالمين من واثق و ذلك لثمة لثمة
لثمة لثمة لثمة لثمة لثمة لثمة لثمة

شكل ٣٧- ورقة من مصحف كُتب بخط كوفي عراقي منسوب للوزير ابن
مُقلة (٢٧٢ - ٣٢٨ هـ) كامل النقط والشكل للإعراب والإعجام.
نشرتها مجلة ثقافة الهند، ويُحتمل أن تكون من مكتبة هرات.



الخط النسخي كما أبدعه الخطاط البغدادي ابن البواب

شكل ٣٨ - ورقة من المصحف الذي كتبه علي بن هلال، المعروف بأبن البواب، سنة ٣٩١ هـ. (محفوظ في خزانة چستر بيتي بدبلن - ايرلندا)



شكل ٣٩ - نموذج صفحتان من المصحف الفريد في العالم الذي كتبه أبو القاسم إبراهيم بن صالح المذهب في سنة ٤٢٧ هـ. بخط نسخ دقيق جيد، بعد وفاة ابن البواب بمدة وجيزة، وقد كتبت فواصل السور بخط كوفي على مهاد مزخرف، وفي الحواشي رُسِمَت علامات =



= الأجزاء والأرباع والأعشار على أشكال دوائر مُشابهة بعض الشيء لمصحف ابن البواب بحيث يمكن مُقارنته للدراسة. (مُحفوظ في المتحف البريطاني برقم ADD. 7214 Rich.)



شكل ٤٠- نموذج صفحة من مصحف نادر، بخط نسخ رائع كتبه ياقوت
المستعصي سنة ٦٩٣ هـ. نصها من سورة ﴿مريم﴾ في الجزء
السادس عشر من الآية (٦٧) إلى الآية (٧٨).

«محفوظ في خزانة الروضة الحسينية» دار الآثار العراقية: (م ت ٣ / ٦٠ / ٨٥٥ - ٨٥٥)

مَصَادِرُ البَحْثِ وَمَرَاجِعُهُ

أولاً: المصاحف

أ - المخطوطة:

- ١ - مصحف كريم، مكتوب على رق، بخط كوفي ثقيل، غير مؤرخ، محفوظ بدار الكتب المصرية (رقم ١٣٩ مصاحف)، محضر من جامع عمرو بن العاص، وهو الذي يشار إليه بمصحف جامع عمرو.
- ٢ - بقية مصحف كريم، مكتوب على رق بخط كوفي ثقيل، غير مؤرخ، محفوظ بدار الكتب المصرية (رقم ١١٥ مصاحف).
- ٣ - نسخة مُصَوِّرة عن المصحف الموجود بطشقند محفوظة بدار الكتب المصرية (رقم ٢٠٤). والنسخة الأصلية مكتوبة على الرق، وناقصة في كثير من المواضع.
- ٤ - مصحف كريم مكتوب على الرق بخط كوفي، منسوب للإمام علي ومحفوظ في مشهد الإمام علي في النجف. (لَدَيَّ ثَمَانِي لَوْحَاتٍ مَصَوِّرَةٌ مِنْ هَذَا المصحف).
- ٥ - مصحف كريم مكتوب على رق بخط كوفي، محفوظ بدار الكتب المصرية (رقم ١ مصاحف) الموجود منه النصف الأول حتى آخر سورة الكهف.
- ٦ - مصحف كريم، الموجود منه ثلاثة أرباعه، من أوّله إلى الصّافّات، بخط عبد الملك بن محمد الزاهد الأصفهاني، كتبه سنة ٤٩٩ هـ. محفوظ بدار الكتب المصرية (رقم ٢٢٧ مصاحف).

- ٧ - مصحف كريم، بخط مسعود بن محمد الكاتب الأصفهاني، كتبه سنة ٥٥٥ هـ، محفوظ بدار الكتب المصرية (رقم ١٤٤ مصاحف).
- ٨ - مصحف كريم بخط بكر بن أحمد بن عبيد الله الغزنوي، كتبه سنة ٥٦٦ هـ، محفوظ بدار الكتب المصرية (رقم ٢٣٨ مصاحف).
- ٩ - مصحف كريم بخط ياقوت المُستعصمي (ت ٦٩٨ هـ)، كتبه سنة ٦٩٠ هـ، محفوظ بتركيا (أمانة رقم ٧٩)، ومنه نسخة (ميكروفلم) في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة (رقم ٣ كنب سماوية).
- ب - المطبوعة:

- ١٠ - مصحف كريم، طبع هامبورج سنة ١٦٩٤ م، توجد منه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة (رقم ٣١٩٦٤) وأخرى في دار الكتب المصرية (رقم ١٧٦ مصاحف).
- ١١ - مصحف كريم، طبع قران سنة ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٧ م، توجد منه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة رقم (٢١٥٤٢).
- ١٢ - مصحف كريم، طبع ليسك (د. ت) عن الأصل الذي كتبه الخطاط التركي المشهور حافظ عثمان (ت ١١١٠ هـ) سنة ١٠٩٤ هـ. وتوجد منه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة رقم (٤٤٠٥).
- ١٣ - مصحف كريم، طبع القاهرة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٣ م، تحت إشراف لجنة من علماء الأزهر، الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م التي صورتها مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة سنة ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م، وهو المصحف المعتمد في هذا البحث بصورة عامة ويُشار إليه بالمصحف المطبوع.
- ١٤ - مصحف كريم، طبع القاهرة ١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠ م، بالخط المغربي، مكتبة ومطبعة الشهد الحسيني وأعاد الناشر تصويره سنة ١٩٧٣ م.
- ١٥ - جزء (عم يتساءلون) بالخط المغربي طبع الدار التونسية للنشر، تونس، (د. ت).

ثانياً: الكتب العربية

أ - المخطوطة:

١٦ - التنسي: محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت ٨٩٩ هـ): الطراز في شرح ضبط الخراز مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢٦١ قراءات) ٩٨ ورقة. خط سنة ١٠٥٧ هـ.

١٧ - الجمعري: برهان الدين ابراهيم بن عمر (ت ٧٣٢ هـ): خيلة (جميلة) أرباب المراصد في شرح عقيلة أتراب القوائد. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢٤٩ قراءات) ٣١٧ ورقة. خط حديث.

١٨ - ابن جنّي: أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ): سر صناعة الإعراب. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (١٢٠ لغة) ٣١١ ورقة (الاستفادة من القسم غير المطبوع منه).

١٩ - الجهني: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن معاذ (ولد ٣٧٩ هـ ت في حدود ٤٤٢ هـ): كتاب البديع في الهجاء. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢٣٣١٨ ب) ضمن مجموع (٢٤٨-٢٦٥). فيه خرم بعد الملزمة الأولى.

٢٠ - أبو حيان التوحيدي: علي بن محمد بن العباس (ت ٤١٤ هـ): رسالة في علم الخط. نسخة مصوّرة عن الأصل المخطوط في فينا محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة رقم (٢٤٠٩٠).

٢١ - الداني: أبو عمرو عثمان بن سعيد (ت ٤٤٤ هـ): جامع البيان في القراءات السبع المشهورة. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٣ قراءات م). ٣٧٥ ورقة خط سنة ١١٤٦ هـ.

٢٢ - الداني (السابق): الموضح في الفتح والإمالة. مخطوط بمكتبة الأزهر رقم (١٠٣) قراءات. ضمن مجموع (٧٣-٢٣) خط سنة ٨٣٦ هـ.

٢٣ - سليمان بن نجاح أبو داود الأموي الأندلسي (ت ٤٩٦ هـ): التنزيل في

هجاء المصاحف مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم (٥٩٦٤). عندي
منه نسخة (ميكروفلم).

القسم الأول حتى آخر الكهف ١٥٢ ورقة خط سنة ١١٧٨ هـ .

القسم الثاني حتى آخر المصحف ١٣٢ ورقة خط سنة ١٢٢٤ هـ .

٢٤ - الشيرازي: أبو يحيى محمد بن محمود بن محمد القاريء (ت ٧٨٠ هـ): كشف
الأسرار في رسم مصاحف الأمصار. مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد رقم
(٢٤٠٥ مجاميع) عندي نسخة مصورة عنه (٢٨ لوحة).

٢٥ - ابن عاشر الأنصاري: أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي (ت بفاس
سنة ١٠٤٠ هـ): فتح المنان المروي بمورد الظمان، مخطوط بدار الكتب
المصرية رقم (٢١٥ تفسير - تيمور).

٢٦ - ابن عبد الكافي: أبو القاسم بن محمد، تلميذ أبي الحسن الفارسي صاحب
ابن مهران (ت ابن مهران ٣٨١ هـ): كتاب في القراءات، مخطوط بدار
الكتب المصرية رقم (٢٦٥ قراءات - طلعت) ١١٧ ورقة خط سنة
١٠٧٤ هـ .

٢٧ - أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي الهروي (ت ٢٢٤ هـ): فضائل القرآن
ومعالمه وأدبه. نسخة مصورة بالفوتستات عن مخطوطة مكتبة الدولة
ببرلين - ٥٨ لوحة، محفوظة بدار الكتب المصرية رقم (٢٠١٠١ ب).

٢٨ - أبو أحمد العسكري: الحسن بن عبد الله (ت ٣٨٢ هـ): كتاب تصحيفات
المحدثين مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٥٤٥ حديث - تيمور) ٣٦٤
صفحة. نسخة كتبت سنة ١٣٤٠ هـ عن نسخة كتبت ٦٢١ هـ .

٢٩ - العقيلي: أبو طاهر إسماعيل بن ظاهر بن عبد الله (ت ٦٢٣ هـ): مختصر
ما رسم في المصحف الكريم، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢٦٠)
قراءات) عندي منه نسخة بالفوتستات عن الميكروفلم المحفوظ بمهد
المخطوطات العربية - ٣١ لوحة.

٣٠ - علم الدين السخاوي: أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد (ت ٦٤٣ هـ):
جمال القراء وكمال الإقراء. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم
(٩ قراءات م) ٢٤٢ ورقة خط سنة ١١٣٥ هـ.

٣١ - علم الدين السخاوي (السابق): الوسيلة الى كشف العقيلة (شرح رائية
الشاطبي). مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢٩ قراءات - قوله) ٧٤
ورقة، خط سنة ٧٤١ هـ.

٣٢ - الكرماني: رضی الدين أبو عبد الله محمد بن أبي نصر بن عبد الله (من
علماء أواخر القرن السابع): كتاب في شواذ القراءة واختلاف المصاحف.
مخطوط بمكتبة الأزهر. رقم (٢٤٤ قراءات) ٢٧٣ ورقة.

٣٣ - اللبيب: أبو بكر بن أبي محمد عبد الله: الدرّة الصقيلة في شرح العقيلة.
مخطوط بمكتبة الأزهر رقم (٢٩٠ قراءات) ٩٢ ورقة خط سنة ١٠٥٢ هـ.

٣٤ - مؤلف مجهول: جامع الكلام في رسم المصحف الإمام، مخطوط في دار
الكتب المصرية، رقم (قراءات ٤٩ ق) ضمن مجموع.

٣٥ - مؤلف مجهول: كتاب الهجاء. مخطوط بمكتبة وهي أفندي (رقم ٧) ٣٨
ورقة. عندي منه نسخة مصوّرة بالفوتستات عن الميكروفلم المحفوظ بمعهد
المخطوطات العربية. وهو كتاب استخرجه مؤلفه من خمسة عشر كتاباً
ذكرها في الخاتمة.

٣٦ - المهدي: أبو العباس أحمد بن عمّار (ت بعد سنة ٤٣٠ هـ): مختصر وجوه
القراءات والاعتلال على الروايات. وهو شرح لكتاب الهداية في القراءات
السبع (له). محفوظ بالخزانة الملكيّة بالرباط ومنه نسخة مصوّرة (ميكروفلم)
بمعهد المخطوطات العربية رقم (١٩٥) ١٥٠ ورقة خط سنة ١١٤٧ هـ.

٣٧ - ابن وثيق الأندلسي: ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد الأموي
(ولد بأشبيلية سنة ٥٦٧ هـ/ت بالاسكندرية سنة ٦٥٤ هـ): رسالة في رسم
المصحف. مخطوط بمكتبة شهيد علي رقم ٢٧٦ (١) ٣٧ ورقة خط سنة ٧٩٧ هـ.

عندي منه نسخة بالفوتستات عن الميكروفلم المحفوظ بمعهد المخطوطات العربية.

ب - رسائل جامعية غير مطبوعة:

٣٨ - أحمد نصيف الجنائي: الدراسات اللغوية والنحوية في مصر منذ نشأتها حتى نهاية القرن الرابع الهجري. رسالة دكتوراه. كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٧٥، نسخة الباحث.

٣٩ - الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن السري (ت ٣١٠ هـ في الأرجح): كتاب إعراب القرآن ومعانيه. الجزء الأول. تحقيق هدى محمود قراعة. رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة القاهرة - ١٩٧٥ - نسخة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة رقم (١٣٩٥).

٤٠ - عبد الحي حسين الفرماوي: رسم المصحف ونقطه. رسالة دكتوراه. كلية أصول الدين - جامعة الأزهر ١٩٧٤. نسخة الباحث.

٤١ - عبد الصبور شاهين (دكتور): الأصوات في قراءة أبي عمرو بن العلاء. رسالة ماجستير كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٩٦٢، نسخة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة رقم (٢٨٣).

٤٢ - عبد العزيز الدالي: البرديات العربية في مصر، دراسة لغوية، رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة القاهرة (د. ت) نسخة محفوظة في مكتبة جامعة القاهرة، رقم (٥١١).

٤٣ - عبد الهادي الفضلي: قراءة ابن كثير وأثرها في الدراسات النحوية. رسالة دكتوراه كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٩٧٥ نسخة الدكتور أمين السيد المشرف على الرسالة.

٤٤ - عوض المرسي جهاوي: ظاهرة التنوين في اللغة العربية. رسالة ماجستير. كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - ١٩٦٧ نسخة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة رقم (٦٥٥).

٤٥ - فتحي عبد الفتاح الدجني: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي.
رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٦٩ نسخة محفوظة
بمكتبة جامعة القاهرة رقم (٧٤٢).

ج - المطبوعة:

٤٦ - ابراهيم أنيس (دكتور): الأصوات اللغوية، ط ٤، مكتبة الأنجلو
المصرية. القاهرة ١٩٧١.

٤٧ - ابراهيم أنيس (دكتور): دلالة الألفاظ، ط ١، مكتبة الأنجلو المصرية.
القاهرة ١٩٥٨.

٤٨ - ابراهيم أنيس (دكتور): في اللهجات العربية ط ٣، مكتبة الأنجلو
المصرية. القاهرة ١٩٦٥.

٤٩ - ابراهيم أنيس (دكتور): من أسرار اللغة، ط ٣، مكتبة الأنجلو المصرية.
القاهرة ١٩٦٦.

٥٠ - ابراهيم جمعة (دكتور): دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار
في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة. دار الفكر العربي. القاهرة
١٩٦٩.

٥١ - ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الملقب بعز الدين
(ت ٦٣٠ هـ): الكامل في التاريخ. ادارة الطباعة المنيرية. مصر ج ٢ سنة
١٣٤٩ هـ، ج ٣ سنة ١٣٥٦ هـ.

٥٢ - أحمد بن المبارك: كتاب الإبريز الذي تلقاه عن قطب الواصلين سيدي
عبد العزيز ط ١، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٦ هـ.

٥٣ - الأزهرى: أبو منصور محمد بن أحمد (٢٨٢-٣٧٠ هـ): تهذيب اللغة.
القاهرة. طبع الجزء الأول سنة ١٩٦٤، وطبع الجزء الخامس عشر سنة
١٩٦٧. حققه جماعة.

٥٤ - الأسترابادي: رَضِيُّ الدين محمد بن الحسن (ت نحو ٦٨٦ هـ): شرح الشافية
لابن الحاجب. دار الطباعة العامرة (د. ت)

- ٥٥ - اسرئيل ولفسون: تاريخ اللغات السامية، ط ١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٤٨ هـ = ١٩٢٩ م.
- ٥٦ - اقليمس يوسف داود (مطران دمشق على السريان): كتاب اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية على كلا مذهبي الغربيين والشرقيين، ط ٢، طبع في الموصل في دير الآباء الدومنيكيين ١٨٩٦ م.
- ٥٧ - أمين مدني: العرب في أحقاب التاريخ ج ١ التاريخ العربي وبدايته. دار المعارف بمصر ١٩٦٥.
- ٥٨ - أبو البركات الأنباري: كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (٥١٣-٥٧٧ هـ): نزهة الألباء في طبقات الأدباء. دار نهضة مصر. القاهرة ١٩٦٧. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.
- ٥٩ - أبو بكر الأنباري: محمد بن القاسم بن بشار (٢٧١-٣٢٨ هـ): كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١ تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان.
- ٦٠ - أبو بكر الباقلاني: محمد بن الطيب (ت ٤٠٣ هـ): نكت الانتصار لنقل القرآن. اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصيرفي. منشأة المعارف. الاسكندرية ١٩٧١ تحقيق د. محمد زغلول سلام.
- ٦١ - البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ): صحيح البخاري مطبوعات محمد صبيح وأولاده. القاهرة (د.ت).
- ٦٢ - برجستراسر: (المستشرق الألماني ت ١٩٣٣ م): التطور النحوي للغة العربية. مطبعة السامح القاهرة ١٩٢٩.
- ٦٣ - بروكلمان (كارل): تاريخ الأدب العربي (مترجم) ج ١ دار المعارف بمصر ١٩٥٩ نقله الى العربية د. عبد الحليم النجار.
- ٦٤ - البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت ٢٧٩ هـ): كتاب فتوح البلدان. ط ١. شركة طبع الكتب العربية. القاهرة ١٩٠١.

- ٦٥ - بلاشير: تاريخ الأدب العربي (مترجم) ج ١، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥٦. تعريب د. ابراهيم الكيلاني.
- ٦٦ - البلوي: أبو الحجاج يوسف بن محمد (ت ٦٠٤ هـ): ألف باء. جمعية المعارف بصر ١٢٨٧ هـ.
- ٦٧ - البنا الساعاتي: أحمد عبد الرحمن: الفتح الرباني لترتيب مُسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني. ج ١، ط ١، مصر ١٣٧٤ هـ.
- ٦٨ - تمام حسان (دكتور): اللغة بين المعيارية والوصفية، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨.
- ٦٩ - تمام حسان (دكتور): اللغة العربية معناها ومبناها. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣.
- ٧٠ - تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٥.
- ٧١ - ابن تيمية: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت ٧٢٨ هـ): مجموعة فتاوى ابن تيمية. مج ١، مطبعة كردستان العلمية القاهرة ١٣٢٦ هـ.
- ٧٢ - جان كاتينو: دروس في علم أصوات العربية (مترجم). الجامعة التونسية. ١٩٦٦. نقله الى العربية صالح القرمادي.
- ٧٣ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية. طبعة جديدة، دار الهلال ١٩٥٧. مراجعة د. شوقي ضيف.
- ٧٤ - جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام. طبعة جديدة. دار الهلال (د.ت) مراجعه د. حسين مؤنس.
- ٧٥ - جروهمان (أدولف) أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية. مطبعة دار الكتب المصرية ج ١ طبع ١٩٣٤ ج ٤ طبع ١٩٦٧. ترجمة د. حسن ابراهيم حسن.
- ٧٦ - ابن الجزري: أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت ٨٣٣ هـ): غاية النهاية في طبقات القراء. مكتبة الخانجي ١٩٣٢. تحقيق برجستراسر.

- ٧٧ - ابن الجزري: منجد المقرئين ومرشد الطالبين. مكتبة القدسي. القاهرة
١٣٥٠ هـ .
- ٧٨ - ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، مطبعة مصطفى محمد بمصر
(د.ت) أشرف على تصحيحه علي محمد الضباع.
- ٧٩ - الجمحي: محمد بن سلام (١٣٩-٢٣١ هـ): طبقات فحول الشعراء.
دار المعارف. القاهرة ١٩٥٢. شرحه محمود محمد شاكر.
- ٨٠ - ابن جنّي: (أنظر رقم ١٨): الخصائص، ط ٢، دار الكتب المصرية.
ج ١ طبع ١٩٥٢، والثاني ١٩٥٥، والثالث ١٩٥٦. تحقيق محمد علي النجار.
- ٨١ - ابن جنّي: سر صناعة الإعراب. ج ١، ط ١، مكتبة ومطبعة مصطفى الباي
الخلي بمصر ١٩٥٤. تحقيق مصطفى السقا وجماعة.
- ٨٢ - ابن جنّي: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها.
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ج ١ طبع ١٩٦٦ ج ٢ طبع
١٩٦٩. تحقيق علي النجدي ناصف ود. عبد الفتاح اسماعيل شلي ود عبد
العليم النجار.
- ٨٣ - الجهشياري: محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ): كتاب الوزراء والكتّاب.
مطبعة مصطفى الباي الخلي - القاهرة ١٩٣٨. تحقيق مصطفى السقا -
إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلي.
- ٨٤ - جواد علي: (دكتور): تاريخ العرب في الإسلام. السيرة النبوية. مطبعة
الزعيم. بغداد ١٩٦١.
- ٨٥ - جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج ١ (القسم السياسي) وج ٧ (القسم
اللغوي). الجمع العلمي العراقي ج ١ طبع ١٩٥٠ وج ٧ طبع ١٩٥٧.
- ٨٦ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ط ١ دار العلم للملايين
بيروت ١٩٦٩.

- ٨٧ - جولدسيهر (إجناس): مذاهب التفسير الإسلامي (مترجم)، مكتبة الخانجي مصر ١٩٥٥. ترجمة د. عبد الحلیم النجار.
- ٨٨ - الجوهری: اسماعیل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ) تاج اللغة وصحاح العربية دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٥٦. تحقیق أحمد عبد الغفور عطار.
- ٨٩ - جویدی: محاضرات أدبیات الجغرافیا والتاریخ واللغة عند العرب. أقيمت على طلبة الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨-١٩٠٩. مكتبة مجلة الجامعة المصرية (د.ت).
- ٩٠ - حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. وكالة المعارف الجليلية. استانبول. مج ١ طبع ١٩٤١ ومج ٢ ١٩٤٣. عنى بتصحيحه محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي.
- ٩١ - الحاكم النيسابوري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥ هـ): المستدرک على الصحيحین في الحديث. ط ١. دائرة المعارف النظامية في الهند ج ١ طبع ١٣٣٤ هـ، ج ٢ طبع ١٣٤٠ هـ.
- ٩٢ - ابن حجر: أحمد بن علي الصقلاني (ت ٨٥٢ هـ). فتح الباري شرح البخاري مصطفى الباي الحلبي بصر ١٩٥٩ م.
- ٩٣ - ابن حجر: الطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: تحقیق المحدث الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي (د.ت) ولم يذكر مكان الطبع.
- ٩٤ - ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤-٤٥٦ هـ): جوامع السيرة، وخمس رسائل أخرى لابن حزم. دار المعارف بصر (د.ت) تحقیق د.إحسان عباس ود.ناصر الدين الأسد.
- ٩٥ - حسن عون (دكتور): اللغة والنحو. ط ١. مطبعة رويال. اسكندرية ١٩٥٢.
- ٩٦ - حفني ناصف: تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية، ط ٢، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٨.

- ٩٧ - حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة. ط ١. دار اليمامة. الرياض ١٩٧٠.
- ٩٨ - حمزة بن الحسن الأصفهاني (٢٨٠-٣٦٠ هـ): كتاب التنبيه على حدوث التصحيف. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٨. حققه محمد أسعد طلس.
- ٩٩ - أبو حيان الأندلسي: أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي ابن حيان (٦٥٤-٧٥٤ هـ): البحر المحيط. مكتبة ومطابع النصر الحديثة. الرياض (د.ت).
- ١٠٠ - ابن خالويه: أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ): كتاب اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم. جمعية المعارف العثمانية بجيدر آباد ١٩٤١.
- ١٠١ - ابن خالويه: مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع. ط ١. المطبعة الرحمانية. القاهرة ١٩٣٤ تحقيق برجستراسر.
- ١٠٢ - الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ): تاريخ بغداد أو مدينة السلام. مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد ١٩٣١.
- ١٠٣ - الخطيب البغدادي: تقييد العلم. المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٤٩. حققه يوسف العشي.
- ١٠٤ - ابن خلدون: عبد الرحمن المغربي (ت ٨٠٨ هـ): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر وهو المسمى بتاريخ ابن خلدون. دار الكتاب اللبناني. بيروت مج ١ وهو المسمى بالمقدمة طبع ١٩٥٦ مج ٢ طبع ١٩٥٧.
- ١٠٥ - ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد (٦٠٨-٦٨١ هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ط ١. مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨. حققه محمد محيي الدين عبد الحميد.
- ١٠٦ - الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٠ هـ): كتاب العين ج ١. مطبعة العاني. بغداد ١٩٦٧، تحقيق د. عبد الله درويش.

- ١٠٧ - خليل مجيبى نامى: (دكتور): أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الإسلام. مطبعة بول بارييه. القاهرة ١٩٣٥ .
- ١٠٨ - ابن خير: أبو بكر محمد بن خير بن عمر الأشبيلي (٥٠٢-٥٧٥ هـ): فهرسة ما رواه عن شيوخه. ط ٢. المكتب التجاري بيروت ومكتبة المثنى بغداد. ومؤسسة الخانجي القاهرة ١٩٦٣ .
- ١٠٩ - الداني (أنظر رقم ٢١): التيسير في القراءات السبع. مطبعة الدولة. استانبول ١٩٣٠ صححه أوتو برتزل .
- ١١٠ - الداني: الحكم في نقط المصاحف. مديرية احياء التراث القديم، وزارة الثقافة والإرشاد دمشق ١٩٦٠ تحقيق د. عزة حسن .
- ١١١ - الداني: المنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار. مكتب الدراسات الإسلامية. دمشق ١٩٤٠ تحقيق محمد أحمد دهمان .
- ١١٢ - الداني: كتاب النقط، طبع في آخر المنع (أنظر المصدر السابق).
- ١١٣ - ابن أبي داود: أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦ هـ) كتاب المصاحف. ط ١. المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٦ . صححه آرثر جفري .
- ١١٤ - ابن درستويه: أبو محمد عبد الله بن جعفر (٢٥٨-٣٤٦ هـ): كتاب الكتاب. مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٢١ . نشره لويس شيخو .
- ١١٥ - ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن (٢٢٣-٣٢١ هـ): الاشتقاق. مؤسسة الخانجي بمصر ١٩٥٨ . تحقيق عبد السلام هارون .
- ١١٦ - ابن دريد: جمهرة اللغة. ط ١. دائرة المعارف العثمانية. مجيد آباد ١٣٤٥ هـ .
- ١١٧ - الدمياطي: الشيخ أحمد بن محمد الشهير بالبناء (ت ١١١٧ هـ): تحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر. مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي بمصر ١٣٥٩ هـ . صححه علي محمد الضباع .

١١٨ - الذهبي: شمس الإسلام محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ): سير أعلام النبلاء. معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف. القاهرة ج ١ حققه د. صلاح الدين المنجد ١٩٥٦ ج ٢ حققه ابراهيم الأبياري ١٩٥٧.

١١٩ - الذهبي - معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار. ط ١. دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٩. حققه محمد سيد جاد المولى.

١٢٠ - الرازي: أبو حاتم أحمد بن حمدان (ت ٣٢٢ هـ): كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية، ط ٢، ج ٢ مطبعة الرسالة ١٩٥٨. القاهرة. حققه حسين بن فيض الله الهمداني.

١٢١ - ابن رسته: أبو علي أحمد بن عمر: كتاب الأعلام النفيسة مج ٧ - ليدن ١٨٩١.

١٢٢ - رمضان عبد التواب (دكتور): فصول في فقه العربية. ط ١. مكتبة دار التراث القاهرة ١٩٧٣.

١٢٣ - زاكية محمد رشدي (دكتورة): السريانية نحوها وصرفها. دار الثقافة. القاهرة (د. ت.).

١٢٤ - الزبيدي: أبو الفيض محمد بن محمد الشهير بمرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ): حكمة الإشراق الى كتاب الآفاق. ط ١. سلسلة نواذر المخطوطات المجموعة الخامسة ١٩٥٤ تحقيق عبد السلام هارون.

١٢٥ - الزبيدي: أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ): طبقات النحويين واللغويين. ط ١. مكتبة الخانجي. القاهرة ١٩٥٤. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

١٢٦ - الزجاجي: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت ٣٤٠ هـ): الجمل. ط ٢. مطبعة كلنسيك باريس ١٩٥٧. حققه العلامة ابن أبي شنب.

- ١٢٧ - الزرقاتي: الشيخ محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن . ط ٣ . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٣ .
- ١٢٨ - الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (٧٤٥-٥٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن . ط ١ . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٥٧ . تحقيق أبو الفضل إبراهيم .
- ١٢٩ - الزركلي: خير الدين: الأعلام . ط ٣ . بيروت ١٩٦٩ .
- ١٣٠ - الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ): أساس البلاغة، دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٢ - ١٩٢٣ .
- ١٣١ - الزمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . ط ٢ . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥٣ . تحقيق مصطفى حسين أحمد .
- ١٣٢ - الزنجاني (أبو عبد الله): تاريخ القرآن . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٣٥ .
- ١٣٣ - أبو زهرة: الشيخ محمد: المعجزة الكبرى . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٧٠ .
- ١٣٤ - سعاد ماهر (دكتورة): مَخَلَّفَاتُ الرَّسُولِ فِي الْمَسْجِدِ الْحُسَيْنِيِّ . وزارة الأوقاف المصرية ١٩٦٥ .
- ١٣٥ - سعاد ماهر: مشهد الإمام علي في النجف . دار المعارف . القاهرة ١٣٨٨ هـ .
- ١٣٦ - ابن سعد: أبو عبد الله محمد الزهري (ت ٢٣٠ هـ): الطبقات الكبرى . دار صادر - دار بيروت . بيروت ١٩٥٧ .
- ١٣٧ - ابن السيّد البطلوسي: أبو محمد عبد الله بن محمد (ت ٥٢١ هـ): الاقتضاب في شرح أدب الكتاب . دار الجيل . بيروت ١٩٧٣ .

- ١٣٨ - سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق المكتبة الأهلية. بغداد ١٩٦٢ .
- ١٣٩ - سيويه: أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠ هـ): الكتاب. المطبعة الأميرية ببولاق مصر ١٣١٧ هـ .
- ١٤٠ - ابن سيده: أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي (ت ٤٥٨ هـ): المخصص. ط ١. ج ١٣. المطبعة الأميرية ببولاق مصر ١٣٢٠ هـ .
- ١٤١ - السيرافي: أبو سعيد الحسن بن عبد الله (ت ٣٦٨ هـ): كتاب أخبار النحويين البصريين. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٣٦ نشره فريتس كرنكو .
- ١٤٢ - ابن سينا: الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله (ت ٤٢٨ هـ): أسباب حدوث الحروف المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٥٢ .
- ١٤٣ - السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ): الإتيان في علوم القرآن. ط ١. مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني. القاهرة ١٩٦٧. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .
- ١٤٤ - السيوطي: إتمام الدراية لقراء النقاية. مطبوع بهامش كتاب مفتاح العلوم. لأبي يعقوب السكاكي. ط ١. المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ هـ .
- ١٤٥ - السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. ط ١. عيسى البابي الحلبي. القاهرة ١٩٦٤. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .
- ١٤٦ - السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. ط ٢. المكتبة العلمية. المدينة المنورة ١٩٧٢. حققه عبد الوهاب عبد اللطيف .
- ١٤٧ - السيوطي: رسالة في سبب وضع علم العربية، الرسالة الرابعة من كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية. مطبعة الجوائب. قسطنطينية (استانبول) ١٣٠٢ هـ .

١٤٨ - السيوطي: رسالة في علم الخط. الرسالة الخاصة من الكتاب المذكور في المصدر السابق.

١٤٩ - السيوطي: الزهر في علوم اللغة وأنواعها. ط ٤. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٩٥٨. حققه محمد أحمد جاد المولى - محمد أبو الفضل ابراهيم - علي محمد البجاوي.

١٥٠ - السيوطي: همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية. ط ١. الخانجي الكتبي بمصر ١٣٢٧ هـ. صححه محمد بدر الدين النعساني.

١٥١ - صالح أحمد العلي (دكتور): التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري. ط ٢. دار الطليعة. بيروت ١٩٦٩.

١٥٢ - صبحي الصالح (دكتور): مباحث في علوم القرآن. ط ٣. دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٤.

١٥٣ - صلاح الدين المنجد (دكتور): دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته الى نهاية العصر الأموي. ط ١. دار الكتاب الجديد. بيروت ١٩٧٢.

١٥٤ - الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ): أدب الكتاب: المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٤١ هـ. صححه محمد بهجة الأثري.

١٥٥ - طاش كبرى زاده: أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٢ هـ): كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة. ط ١. دائرة المعارف النظامية مجيدر آباد. (د.د).

١٥٦ - الطاهر أحمد مكي (دكتور): دراسة في مصادر الأدب. ج ١. ط ٢. دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

١٥٧ - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤-٣١٠ هـ): تاريخ الرسل والملوك. دار المعارف بمصر. ج ١. طبع ١٩٦٠. تحقيق أبو الفضل ابراهيم.

- ١٥٨ - الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن المشهور بتفسير الطبري. دار المعارف بمصر ١٣٧٤ هـ ، حققه محمود محمد شاكر .
- ١٥٩ - أبو الطيّب اللغوي: عبد الواحد بن علي الحلبي (ت ٣٥١ هـ): مراتب النحويين. مكتبة نهضة مصر. القاهرة ١٩٥٥. حققه محمد أبو الفضل ابراهيم .
- ١٦٠ - ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣ هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب. مكتبة نهضة مصر. القاهرة ١٩٦٠. تحقيق علي محمد الجاوي .
- ١٦١ - عبد الجليل عيسى (الشيخ): مقدمة المصحف المُيسّر. ط ٤. دار الشروق ١٩٦٩ .
- ١٦٢ - ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٧ هـ). كتاب العقد الفريد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤٤ - تحقيق أحمد أمين - أحمد الزين - ابراهيم الأبياري .
- ١٦٣ - عبد الرحمن أيوب (دكتور): العربية ولهجاتها. معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٦٤ - عبد الصبور شاهين (دكتور): تاريخ القرآن. دار القلم ١٩٦٦ .
- ١٦٥ - عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. مكتبة دار العلوم. القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٦٦ - عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث. دار القلم ١٩٦٦ .
- ١٦٧ - عبد الصبور شاهين: مقدمة ترجمة كتاب العربية الفصحى لهنري فليش. المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٦ .
- ١٦٨ - عبد العال سالم مكرم (دكتور): القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية. دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

- ١٦٩ - عبد العزيز فهمي: الحروف اللاتينية لكتابة العربية. مطبعة مصر. القاهرة ١٩٤٤.
- ١٧٠ - عبد الفتاح إسماعيل شلبي (دكتور): الإمالة في القراءات واللهجات العربية ط ١. مكتبة نهضة مصر. القاهرة ١٩٥٧.
- ١٧١ - عبد الفتاح إسماعيل شلبي: رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات. مكتبة نهضة مصر. القاهرة ١٩٦٠.
- ١٧٢ - عبد الفتاح القاضي (الشيخ): تاريخ المصحف الشريف. مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني. القاهرة ١٩٦٥.
- ١٧٣ - عبد الفتاح القاضي: القراءات في نظر المستشرقين والملحدّين. مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٢.
- ١٧٤ - عبد الله الجبوري: ابن درستويه. مطبعة العاني. بغداد ١٩٧٤.
- ١٧٥ - عبد الله خورشيد البري (دكتور): القرآن وعلومه في مصر. دار المعارف بمصر ١٩٧٠.
- ١٧٦ - عبد الوهاب حمودة: القراءات واللهجات. ط ١. مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨.
- ١٧٧ - عبده الراجحي (دكتور): اللهجات العربية في القراءات القرآنية. دار المعارف بمصر ١٩٦٩.
- ١٧٨ - أبو عبيد (أنظر رقم ٢٧): كتاب الأموال ط ١. مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٨. تحقيق محمد خليل هراس.
- ١٧٩ - أبو عبيد: غريب الحديث. ط ١. دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ١٩٦٤-١٩٦٧. تحت مراقبة د. محمد عبد المعين خان.
- ١٨٠ - أبو عبيدة: معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ): مجاز القرآن. ط ١. الخانجي الكتبي بمصر ١٩٥٤. حققه د. محمد فؤاد سزكين.

- ١٨١ - عدنان الخطيب (دكتور): المعجم العربي بين الماضي والحاضر. معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة ١٩٦٧.
- ١٨٢ - ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله (٤٦٨-٥٤٣هـ): أحكام القرآن ط ١. دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٨. تحقيق علي محمد البجاوي.
- ١٨٣ - عزة حسن (دكتور): فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية. علوم القرآن، المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٢.
- ١٨٤ - عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ): الإشارة الى الإيجاز في بعض أنواع المجاز. المطبعة العامرة. الأستانة ١٣١٣ هـ.
- ١٨٥ - عز الدين بن عبد السلام: الفوائد في مشكل القرآن. وزارة الأوقاف، الكويت ١٩٦٧ تحقيق د. سيد رضوان علي الندوي.
- ١٨٦ - عز الدين بن عبد السلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة ١٩٦٨.
- ١٨٧ - العسكري (أنظر رقم ٢٨): شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف. ط ١. الباي الحلبي بمصر ١٩٦٣. تحقيق عبد العزيز أحمد.
- ١٨٨ - ابن عطية: عبد الحق بن أبي بكر بن عبد الملك الغرناطي (ت ٥٤٣هـ): مقدمة تفسيره (الجامع المحرر) نشرها آرثر جفري ضمن (مقدمتان في علوم القرآن). مكتبة الخانجي ١٩٥٤.
- ١٨٩ - علي عبد الواحد وافي (دكتور): علم اللغة. ط ٣. لجنة البيان العربي ١٩٥٠.
- ١٩٠ - علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة. ط ٤. لجنة البيان العربي ١٩٥٦.
- ١٩١ - أبو علي الفارسي: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (ت ٣٧٧هـ): الحجة في علل القراءات السبع. ج ١ دار الكتاب العربي ١٩٦٥ تحقيق علي النجدي ناصف - د. عبد الحليم النجار - د. عبد الفتاح شلي.

- ١٩٢ - عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين. المكتبة العربية بدمشق ١٩٥٧ .
- ١٩٣ - فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي (مترجم): الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. القاهرة ١٩٧١ ترجمة: د. فهمي أبو الفضل. مراجعة د. محمود فهمي حجازي.
- ١٩٤ - ابن فارس: أحمد (ت ٣٩٥ هـ): الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. المكتبة السلفية. القاهرة ١٩١٠ .
- ١٩٥ - الفخر الرازي: محمد بن عمر (٥٤٤-٦٠٦ هـ): مفاتيح الغيب. المشتهر بالتفسير الكبير. ط ١. المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٧ هـ .
- ١٩٦ - أبو الفرج الأصبهاني: علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ): كتاب الأغاني. دار الثقافة بيروت مج ١٢ و ١٥ طبع ١٩٥٨ مج ٢٣ طبع ١٩٦١ تحقيق عبد الستار فراج.
- ١٩٧ - فرج بصره جي (دكتور): كنوز المتحف العراقي. مديرية الآثار العامة، بغداد ١٩٧٢ .
- ١٩٨ - الفراء: أبو زكرياء يحيى بن زياد (ت ٢٠٧ هـ): معاني القرآن. ط ١. ج ١ دار الكتب المصرية ١٩٥٥ ج ٢ الدار المصرية للتأليف (د. ت). ج ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢، تحقيق محمد علي النجار وجماعة.
- ١٩٩ - الفراء: كتاب النقص والمدود، دار المعارف بمصر ١٩٦٧. تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي.
- ٢٠٠ - فندريس: اللغة (مترجم). مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٥٠ ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص.
- ٢٠١ - الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ): القاموس المحيط. ط ٢. مصطفى الباوي الحلبي بمصر ١٩٥٢ .
- ٢٠٢ - فيليب حتي (دكتور): تاريخ العرب. دار الكشاف. بيروت ١٩٤٩ .

- ٢٠٣ - ابن القاصح: أبو البقاء علي بن عثمان بن محمد (ت ٨٠١هـ): تلخيص الفوائد وتقريب المتباعد في شرح عقيلة أتراب القوائد. ط ١. مصطفى الباي الحلبي بمصر ١٩٤٩، مراجعة الشيخ عبد الفتاح القاضي.
- ٢٠٤ - ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣-٢٧٦هـ): أدب الكاتب. المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٥٥ هـ. حققه محمد محي الدين عبد الحميد.
- ٢٠٥ - ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة. مكتبة الحلبي. القاهرة ١٩٦٧.
- ٢٠٦ - ابن قتيبة الدينوري: تأويل مختلف الحديث. مطبعة كردستان العلمية بمصر ١٣٢٦ هـ.
- ٢٠٧ - ابن قتيبة الدينوري: تأويل مشكل القرآن. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٩٥٤. تحقيق السيد أحمد صقر.
- ٢٠٨ - ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء. ط ٢. دار المعارف بمصر ١٩٦٦. تحقيق أحمد محمد شاكر.
- ٢٠٩ - ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار. دار الكتب المصرية. مج ١ طبع ١٩٢٥. مج ٢ طبع ١٩٢٨.
- ٢١٠ - ابن قتيبة الدينوري: المعارف. ط ٢. دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٧٠. صححه محمد اسماعيل عبد الله الصاوي.
- ٢١١ - القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأندلسي (ت ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن. ط ٢. دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٥٢.
- ٢١٢ - القسطلاني: أبو العباس أحمد بن محمد (٨٥١-٩٢٣هـ): لطائف الإشارات لفنون القراءات. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة ١٩٧٢. تحقيق الشيخ عامر السيد عثمان ودكتور عبد الصبور شاهين.
- ٢١٣ - القفطي: أبو الحسن علي بن يوسف (٥٦٨-٦٤٦هـ): إنباه الرواة

- على أنباه النحاة. ط ١. دار الكتب المصرية ١٩٥٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٢١٤ - القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ) صبح الأعشى في كتابة الإنشا. دار الكتب الخديوية (المصرية). القاهرة ١٩١٣.
- ٢١٥ - ابن قيمّ الجوزية: أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب الدمشقي (ت ٧٥١هـ): زاد المعاد في هدى خير العباد. ط ١. المكتبة الحسينية المصرية ١٩٢٨.
- ٢١٦ - ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ): فضائل القرآن. مطبعة المنار بمصر ١٣٤٧ هـ. صححه محمد رشيد رضا.
- ٢١٧ - الكلاعي: أبو الربيع سليمان بن موسى الأندلسي (٥٦٥-٦٣٤هـ): كتاب تاريخ الردة. اقتبسه خورشيد أحمد فارق من (الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء)، معهد الدراسات الإسلامية. دلهي ١٩٧٠.
- ٢١٨ - كمال محمد بشر (دكتور): دراسات في علم اللغة. دار المعارف بمصر ١٩٦٩.
- ٢١٩ - كمال محمد بشر: علم اللغة العام: الأصوات. دار المعارف بمصر ١٩٧١.
- ٢٢٠ - لبيب السعيد: الجمع الصوقي الأول للقرآن الكريم. دار الكتاب العربي. القاهرة (د. ت).
- ٢٢١ - المارغني: ابراهيم بن أحمد التونسي: دليل الحيران شرح مورد الظمان للخراز. دار القرآن. القاهرة ١٩٧٤. مراجعة الشيخ عبد الفتاح القاضي.
- ٢٢٢ - ابن مالك: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجبائي (٦٠٠-٦٧٢هـ): تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. دار الكتاب العربي. القاهرة ١٩٦٧. حققه محمد كامل بركات.
- ٢٢٣ - المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد (٢١٠-٢٨٥هـ): المقتضب. المجلس

- الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٨٦ هـ . تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة .
- ٢٢٤ - ابن مجاهد: أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس البغدادي (ت ٣٢٤هـ): كتاب السبعة في القراءات. دار المعارف بمصر ١٩٧٢ تحقيق د. شوقي ضيف .
- ٢٢٥ - مجهول: مقدمة تفسير (كتاب المباني في نظم المعاني) كتبه سنة ٤٢٥ هـ . نشرها آرثر جفري في (مقدمتان في علوم القرآن) أنظر رقم (١٨٨) .
- ٢٢٦ - محمد بن حنيت الطيمي (الشيخ) (ت ١٣٥٤هـ): الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن. ط ١ . المطبعة الخيرية القاهرة ١٣٢٣ هـ .
- ٢٢٧ - محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـ): كتاب المنمق في أخبار قريش. ط ١ . دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ١٩٦٤ .
- ٢٢٨ - محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر. ط ٥ . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ .
- ٢٢٩ - محمد حميد الله الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٤١ .
- ٢٣٠ - محمد طاهر عبد القاهر الكردي الخطاط: تاريخ الخط العربي وآدابه. ط ١ . مكتبة الهلال ١٩٣٩ .
- ٢٣١ - محمد طاهر عبد القاهر الكردي: تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه. ط ١ . جدة ١٩٤٦ .
- ٢٣٢ - محمد عبد العزيز مرزوق: المصحف الشريف دراسة تاريخية فنية. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ . (مقال نُشر في مجلة الجمع العلمي العراقي المجلد العشرون ١٩٧٠) .
- ٢٣٣ - محمد محمد عبد اللطيف (يُسَمَّى نفسه ابن الخطيب): الفرقان: جمع القرآن وتدوينه .. ط ١ . دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٨ (ممنوع من التداول) .

٢٣٤ - محمود السمران (دكتور): علم اللغة مقدمة للقارئ العربي. دار المعارف بمصر فرع الاسكندرية ١٩٦٢.

٢٣٥ - محمود فهمي حجازي (دكتور): علم اللغة العربية. وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٣.

٢٣٦ - محمود فهمي حجازي: اللغة العربية عبر القرون. دار الكتاب العربي. القاهرة ١٩٦٨.

٢٣٧ - مُسلم: الإمام أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ): صحيح مُسلم. دار الكتب العربية. ١٩٥٤. حققه محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٣٨ - مكّي: أبو محمد بن أبي طالب حموش القيسي (٣٥٥-٤٣٧هـ): الإبانة عن معاني القراءات. مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠. حققه د. عبد الفتاح اسماعيل شليبي.

٢٣٩ - مكّي: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤. تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان.

٢٤٠ - ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري: لسان العرب. ط ١. المطبعة الميرية ببولاق مصر ١٣٠٠-١٣٠٧هـ.

٢٤١ - المهدي: أبو العباس أحمد بن عمار (ت بعد ٤٣٠هـ): كتاب هجاء مصاحف الأمصار. حققه ونشره محيي الدين عبد الرحمن رمضان في مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد ١٩، الجزء الأول (ص ٥٣-١٤١).

٢٤٢ - ناجي زين الدين: بدائع الخط العربي. وزارة الإعلام. بغداد ١٩٧١.

٢٤٣ - ناجي زين الدين: مصوّر الخط العربي. الجمع العلمي العراقي. بغداد ١٩٦٨.

٢٤٤ - ناصر الدين الأسد (دكتور): مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ط ٣. دار المعارف بمصر ١٩٦٦.

- ٢٤٥ - الندوى: أبو الحسن علي الحسيني: النبي الخاتم. ط١. المختار الاسلامي. القاهرة ١٩٧٥.
- ٢٤٦ - ابن النديم: محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥ هـ): الفهرست. مكتبة خياط بيروت (مصورة من طبعة فلوجل. ليسك ١٨٧١).
- ٢٤٧ - نصر المهوريني: أبو الوفاء: المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية ط٢. المطبعة الميرية ببولاق مصر ١٣٠٢ هـ.
- ٢٤٨ - نولدكه (تيودور): اللغات السامية تخطيط عام (مترجم) دار النهضة العربية ١٩٦٣. ترجمة دكتور رمضان عبد التواب.
- ٢٤٩ - ابن هشام: عبد الله بن يوسف الأنصاري النحوي (ت ٧٦١ هـ): مغني اللبيب عن كتب الأعراب. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح. القاهرة (د. ت).
- ٢٥٠ - ابن هشام: أبو محمد عبد الملك الماعري (ت ٢١٨ وقيل ٢١٣ هـ): السيرة النبوية. ط٢. مصطفى الباي الحلبي بمصر ١٩٥٥. حققها مصطفى السقا - ابراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلي.
- ٢٥١ - الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ): كتاب المغازي. دار المعارف بمصر ١٩٦٤-١٩٦٦ تحقيق د. مارسدن جونس.
- ٢٥٢ - ابن ولاد: أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد (ت ٣٣٢ هـ): كتاب المقصور والمدود. ليدن ١٩٠٠.
- ٢٥٣ - ابن وهب: أبو الحسين إسحاق بن ابراهيم بن سليمان: البرهان في وجوه البيان ط١. مطبعة العاني. بغداد ١٩٦٧. تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي.
- ٢٥٤ - ياقوت الحموي: أبو عبد الله بن عبد الله الملقب بشهاب الدين (٥٧٤-٦٢٦ هـ): معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) الطبعة الأخيرة (١) مكتبة عيسى الباي الحلبي بمصر ١٩٣٦-١٩٣٨ م.

- ٢٥٥ - ياقوت الحموي: معجم البلدان. ط١. مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦.
صححه محمد أمين الخانجي.
- ٢٥٦ - اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن أبي واضح الكاتب (ت ٢٨٤ هـ):
كتاب البلدان. مطبوع في نهاية الأعلام النفيسة لابن رسته. (أنظر رقم
١٢١).
- ٢٥٧ - ابن يعيش: موفق الدين يعيش بن علي (ت ٦٤٣ هـ): شرح المفصل.
إدارة الطباعة المنيرية. بمصر (د.ت).
- ٢٥٨ - يوهان فك: العربية دراسات في اللغة واللهجات (مترجم). مكتبة
الخانجي. القاهرة ١٩٥١. نقله الى العربية وحققه وفهرس له دكتور عبد
الحليم النجار.

ثالثاً: المقالات

- ٢٥٩ - ابراهيم مصطفى: أول من وضع النحو. مجلة كلية الآداب -
جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) المجلد العاشر - الجزء الثاني ديسمبر
١٩٤٨.
- ٢٦٠ - أحمد الاسكندري (الشيخ): تيسير الهجاء العربي. مجلة مجمع اللغة
العربية بالقاهرة. الجزء الأول ١٩٣٥.
- ٢٦١ - جريدة الأهرام القاهرية: رسالة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -
الى هرقل عدد ١٢/٢/١٩٧٤ ص ٧ وعدد ٩/٤/١٩٧٥ ص ٣.
- ٢٦٢ - جواد علي (دكتور): لهجة القرآن الكريم. مجلة المجمع العلمي العراقي.
المجلد الثالث. الجزء الثاني ١٩٥٥.
- ٢٦٣ - حامد عبد القادر: دفاع عن الأبجدية والحركات العربية. مجلة مجمع
اللغة العربية بالقاهرة. ج ١٢ سنة ١٩٦٠.
- ٢٦٤ - حسن محمد الهواري: أقدم أثر إسلامي (شاهد مؤرخ سنة ٣١ هـ). مجلة
الهلل - الجزء العاشر - السنة الثامنة والثلاثون، أغسطس ١٩٣٠.

- ٢٦٥ - خليل ابراهيم الحماش (دكتور): دراسة مقارنة للنواحي الصوتية في كتاب العين والنظرية الحديثة في علم الصوت. مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد. العدد السادس عشر ١٩٧٣.
- ٢٦٦ - خليل محمود عساكر (دكتور): طريقة لكتابة اللهجات العربية الحديثة بحروف عربية. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء الثامن ١٩٥٥.
- ٢٦٧ - زاكية محمد رشدي: النقوش السامية. مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة القسم الأول منشور في المجلد ٢٨ لسنة ١٩٦٦ والقسم الثاني في المجلد ٢٩ سنة ١٩٦٧.
- ٢٦٨ - طه باقر: أصل الحروف الهجائية. مجلة سومر. مديرية الآثار - بغداد ج ٢ تموز ١٩٤٥ السنة الأولى.
- ٢٦٩ - عبد الحليم النجار (دكتور): في قراءات القرآن. مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن). المجلد العاشر ج ١ مايو ١٩٤٨.
- ٢٧٠ - عز الدين الصندوق: حجر حفنة الأبيص. مجلة سومر المجلد الحادي عشر - الجزء الثاني ١٩٥٥.
- ٢٧١ - ليمان (أنو): لهجات عربية شمالية قبل الإسلام. مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة الجزء الثالث ١٩٣٧.
- ٢٧٢ - ناصر النقشبندي: المصاحف الكريمة في صدر الإسلام. مجلة سومر - المجلد الثاني عشر ج ١ و٢ سنة ١٩٥٦.
- ٢٧٣ - ناصر النقشبندي: منشأ الخط العربي وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين. مجلة سومر المجلد الثالث ج ١ كانون الثاني ١٩٤٧.
- ٢٧٤ - هوداس: محاولة في الخط المغربي (معرب). حوليات الجامعة التونسية. العدد الثالث ١٩٦٦. تعريب عبد المجيد التركي.

★ ★ ★

رابعاً: المراجع الأجنبية:

- 1 - Abbott (N): The Rise of the North Arabic script and it's development, with a full description of the Kur'an manuscripts in the oriental institute. The University of Chicago Press-1939.
- 2 - Atkinson (B.F.C.) and (J.W.H.): Alphabet. Encyclopaedia Britannica, Vol. 1-1973.
- 3 - Aziza (M.): la Calligraphie Arabe, Tunis 1973.
- 4 - Beeston (A.F.L.): The Arabic language today. First published. London 1970.
- 5 - Berezin (F.M.): Lectures on linguistics. Moscow 1969.
- 6 - Diringer (D.): The Alphabet, a key to the history of Mankind. Third edition. London 1968.
- 7 - Grohmann (Ad.): Arabic inscriptions, Louvain-Leuven 1962.
- 8 - Grohmann (Ad.): From the world of Arabic papyri. Al-Maaref press-Cairo 1952.
- 9 - Hamidullah (M.): Some Arabic inscription of Medinah of the early years of Hijrah. Islamic culture, Vol. 13-No. 4. 1939 India.
- 10 - Hockett (Ch.F.): A course in modern linguistics, Indian Edition 1970.
- 11 - Jeffery (AR.): Materials for the history of the text of the Qur'an-the old Codices. Brill-leiden, 1937.
- 12 - Morag (Sh.): The vocalization systems of Arabic, hebrew, and Aramaic. Netherlands 1962.
- 13 - Moritz (B.): Arabic palaeography. A collection of Arabic texts from the first century of the Hidjra till the year 1000. Cairo 1905.
- 14 - Moscati (S.): An introduction to the comparative grammar of the semitic language. Printed in Germany 1964.

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

٦-٥	التعريف بالكتاب:.....
١٣-٧	المقدمة:.....

الفصل الأول

فصل تمهيدى

الكِتابَةُ العَرَبِيَّةُ

تأريخها وخصائصها قبل الرسم العثماني

٩٠ - ١٥

٥٧-٢١	المبحث الأول : أصل الكتابة العربية وعلاقتها بالخطوط السامية
٢١	أولاً : حالة الكتابة العربية قبل الرسم العثماني
٢٨	ثانياً : الروايات العربية في أصل الكتابة
٣٧	ثالثاً : رأي المُحدثين في أصل الكتابة العربية
٤١	١- ترتيب حروف العربية
٤٣	٢- أسماء حروف العربية
٤٤	٣- تطوُّر أشكال حروف الكتابة العربية
٥٠	رابعاً : مكان وزمان نشوء وتطوُّر الكتابة العربية
٧٥-٥٩	المبحث الثاني : خصائص الكتابة العربية قبل الرسم العثماني
	على ضوء الكتابات السامية
٥٩	أولاً : الوثائق المتاحة للمبحث
٦٨	ثانياً : خصائص الكتابة العربية قبل الرسم العثماني
٩٠-٧٧	المبحث الثالث : المبادئ التي تقوم عليها الكتابة
٧٧	أولاً : موقف المُحدثين
٨٢	ثانياً : موقف علماء السلف

الفصل الثاني

تأريخ كتابة القرآن الكريم وجمعه

٩١-١٥٢

- المبحث الأول : كتابة القرآن قبل الرسم العثماني ٩٥-١٠٦
 أولاً : كتابة القرآن في حياة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . ٩٥
 ثانياً : جمع القرآن في الصُّحُفِ في خلافة الصِّدِّيقِ ١٠٠
 المبحث الثاني : توحيد المصاحف ونسخها في خلافة عثمان ١٠٧-١٢٨
 أولاً : الأسباب والدوافع ١٠٧
 ثانياً : إتمام العمل ، والقائمون به ١١٠
 ثالثاً : ما اقتقده زيد من القرآن في الجمع الأول ، وأثبتته بعد
 السؤال عنه ١١٧
 رابعاً : ترتيب الآيات والسُّور ١١٩
 خامساً : عدد المصاحف ، وتاريخ النسخ ١٢٣
 المبحث الثالث : القاعدة التي كُتِبَ على أساسها المصحف العثماني ١٢٩-١٥٢
 أولاً : حديث الأحرف السبعة بين الصحة والشذوذ ١٣٠
 ثانياً : معنى الأحرف السبعة ١٣٣
 ثالثاً : المصحف العثماني والأحرف السبعة ١٤٥

الفصل الثالث

الرسم العثماني

مصارفه وموقف علماء السلف من ظهوره

١٥٣-٢٣٣

- المبحث الأول : مصادر الرسم العثماني ١٦٣-١٩٥
 أولاً : الكتب المؤلفة في الرسم ١٦٨
 ثانياً : المصاحف المخطوطة ١٨٨

- المبحث الثاني : موقف علماء السلف من ظواهر الرسم ١٩٧-٢٣٣
 أولاً : موقفهم من التزامه في كتابة المصحف ١٩٧
 ثانياً : موقفهم من تفسير ظواهره ٢٠٣
 ١- تعليل بعض ظواهر الرسم بعلة لغوية أو نحوية. ٢٠٥
 ٢- حمل تلك الظواهر على خطأ الكاتب ٢٠٦
 * مناقشة روايات يُفهم منها وقوع خطأ في الرسم. ٢١٢
 ٣- اختلاف الرسم لاختلاف المعنى ٢٢٣
 ٤- تفسير الزيادة والحذف بأحتمال القراءات ٢٣٠
 ٥- الرسم بُنيَ على حكمةٍ ذهبَتْ بذهابِ كَتَبَتِهِ ٢٣٢

الفصل الرابع

الرسم العثماني : دراسة لغوية

٢٣٥ - ٤٦١

- المبحث الأول : الأسس التي تقوم عليها هذه الدراسة ٢٣٩-٢٤٧
 ١- استبعاد فكرة الخطأ في دراسة ظواهر الرسم العثماني ٢٤٢
 ٢- عدم الاقتصار على المبدأ القائل : إنَّ الأصل في الكتابة
 مُطابِقة الخطِّ للفظ
 ٣- عدم اعتبار قواعد الهجاء التي وضعها علماء العربية
 مقياساً للرسم ٢٤٤
 ٤- الإفادة من القراءات الصحيحة جمعاء في توجيه ظواهر
 الرسم العثماني
 المبحث الثاني : رموز الصوامت في الرسم العثماني ٢٤٩-٢٧٨
 أولاً : أصوات اللغة العربية ورموزها عند علماء العربية ٢٥٠
 ثانياً : تمثيل الصوامت في الرسم العثماني ٢٥٦
 ثالثاً : أثر الوقف على رموز بعض الصوامت ٢٦٤

- ٢٦٥ ١- رسم التنوين أَلْفًا
- ٢٦٩ ٢- رسم تاء التأنيث في الأسماء « هاء »
- ٢٧٥ ٣- هاء السكت في الرسم العثماني
- ٢٧٧ رابعاً : الأحرف المقتطعة في الرسم العثماني
- المبحث الثالث : رموز الحركات في الرسم العثماني ٢٧٩-٣٤٩
- أولاً : رمز الكسرة الطويلة ٢٨٥
- ١- تمثيل الكسرة الطويلة المتوسطة ٢٨٧
- ٢- تمثيل الكسرة الطويلة في آخر الكلمة (أ) حذف رمز الكسرة الطويلة في الفواصل (ب) حذف رمز الكسرة الطويلة في غير الفواصل
- لكراهة مقطعية ٢٩٠
- (ج) - حذف رمز الكسرة الطويلة من آخر المنادى ٢٩٣
- ٣- حالات أخرى ٢٩٥
- ثانياً : رمز الضمة الطويلة ٢٩٧
- ثالثاً : رمز الفتحة الطويلة (الألف) ٣٠١
- ١- عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة (أ) - موقف علماء السلف من الظاهرة (ب) - التفسير الراجح للظاهرة ٣٠٥
- ٢- رسم الفتحة الطويلة « ياء » (أ) - موقف علماء السلف من الظاهرة (ب) - مناقشة آراء علماء السلف (ج) - التفسير الراجح للظاهرة ٣١٣
- ٣- رسم الفتحة الطويلة « واو » (أ) - موقف علماء السلف من الظاهرة (ب) - التفسير الراجح للظاهرة ٣١٤
- ٣٢٣ ٣- رسم الفتحة الطويلة « واو »
- (أ) - موقف علماء السلف من الظاهرة ٣٢٩
- (ب) - التفسير الراجح للظاهرة ٣٣٠
- ٣٣٣

- ٤- زيادة رمز الألف بعد الواو المتطرفة ٣٣٨
 (أ) - مواضع زيادتها
 (ب) - موقف علماء السلف من زيادتها ٣٤٢
 (ج) - هل يمكن تقديم تفسير لزيادتها؟ ٣٤٧

- المبحث الرابع : رمز الهمزة في الرسم العثماني ٣٥١-٤٤٢
 أولاً : طريقة تمثيل الهمزة في الكتابة العربية ٣٥١
 * الطريقة الأولى ٣٥٣
 * الطريقة الثانية ٣٥٤

- ثانياً : القاعدة العامة لتمثيل الهمزة في الرسم العثماني ٣٦٠
 ١- رسم الهمزة في أول الكلمة ٣٦١
 ٢- تمثيل ما يخلف الهمزة المتوسطة في حالة التسهيل ٣٦٢
 - رسم ما يخلف الهمزة المخففة المتوسطة «ياءً» ٣٦٣
 - رسم ما يخلف الهمزة المخففة المتوسطة «واواً» ٣٦٥
 - رسم ما يخلف الهمزة المخففة المتوسطة «ألفاً» ٣٦٨
 - رسم الكلمة التي تسقط منها الهمزة عند التخفيف

- دون أن تُعوّض بشيء ٣٧١
 ٣- الهمزة المتطرفة في الرسم العثماني ٣٧٢

- ثالثاً : العوامل التي أسهمت في تعدّد صور هجاء ٣٧٧
 الكلمات المهموزة
 ١- رسم الكلمات المهموزة على الوصل ٣٧٨
 (أ) - رسم الهمزة المبتدئة التي يعرض لها ٣٨٣
 التوسط بألفٍ و واوٍ
 (ب) - رسم الهمزة الأخيرة التي يعرض لها ٣٩١
 التوسط وواواً

- (ج) - رسم الهمزة المتدئة التي يعرض لها ٣٩٥
 التوسط بـألفٍ وياٍ
- (د) - رسم الهمزة الأخيرة التي يعرض لها ٤٠٣
 التوسط بـألفٍ وياٍ
- (هـ) - زيادة رمز الألف بعد اللام أَلْف ٤٠٦
- (و) - رسم الهمزتين في أول الكلمة ٤١٢
- ٢ - احتفاظ بعض الكلمات المهموزة بصُورٍ هجائيةٍ قديمة ٤١٥
- ٣ - كراهة اجتماع صورتين مُتفقتين في الخط ٤٢١
- ٤ - عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة أحياناً ٤٢٣
- ٥ - الاختلاف في كيفية تخفيف الهمزة ٤٢٥
- رابعاً : بعض الظواهر الهجائية المتعلقة بالهمزة ٤٢٨
- خامساً : همزة الوصل في الرسم العثماني ٤٣٣
- المبحث الخامس : الكلمة من وجهة نظر الرسم ٤٤٣ - ٤٦١
- أولاً : ما اتصل رسمه بسبب التأثر الصوتي ٤٥٢
- ثانياً : ما وصل من الكلم من غير وجود تأثرٍ صوتي ٤٥٤

الفصل الخامس

تكميل الرسم العثماني

٦٠٩ - ٤٦٣

- المبحث الأول : علامات الحركات القصيرة ٤٨٧ - ٥٣٥
- أولاً : النقط المدور ٤٩٠
- ثانياً : الشكل المستطيل ٥٠٥
- ثالثاً : الرسم المصحفي بين طريقة النقط المدور والشكل ٥١٦
- المستطيل

- المبحث الثاني : علامات تمييز الحروف المتشابهة في الصورة ٥٣٧-٥٧٢
- أولاً : نقط الإعجام المحض ٥٥٥
- ثانياً : الإعجام الذي ليس محضاً ٥٦٤
- المبحث الثالث : العلامات المخصصة لبعض الحالات النطقية . ٥٧٣-٥٩٩
- أولاً : علامة الهمزة ٥٧٤
- ثانياً : العلامات الأخرى ٥٨٨
- ١- علامة السكون ٥٨٩
- ٢- علامة التشديد ٥٩١
- ٣- علامة المد ٥٩٢
- ٤- علامة ألف الوصل ٥٩٤
- ٥- علامة التنوين ٥٩٧
- ثالثاً : ضبط ما نقص هجاؤه أو زيد فيه ٦٠١-٦٠٩
- المبحث الرابع : الرسم المصحفي في عصر الطباعة ٦٠٩-٦٠١

الفصل السادس

علاقة الأداء بالرسم

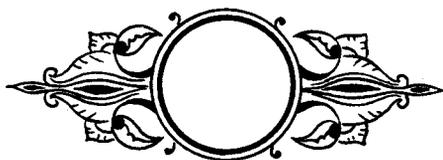
٦١١-٧٣٨

- المبحث الأول : تاريخ القراءات في القرون الثلاثة الأولى ٦١٥-٦٣٠
- أولاً : قراءة القرآن في حياة النبي ﷺ وفترة الخلافة الراشدة ٦١٦
- ثانياً : الاختيار وأثره في القراءات ٦٢٤
- المبحث الثاني : موافقة الرسم أحد أركان القراءة الصحيحة . ٦٣١-٦٥٦
- أولاً : صحة السند أو ثبوت الرواية والنقل ٦٣٣
- ثانياً : موافقة خط المصحف ٦٤٥
- ثالثاً : موافقة العربية ٦٤٩

- المبحث الثالث : مقياس الشذوذ وتطوره ٦٥٧-٦٦٧
- المبحث الرابع : وجوه المخالفة الجائزة للرسم ٦٦٩-٦٩١
- أولاً : وجوه المخالفة الجائزة التي ترجع إلى طبيعة الكتابة . ٦٧٠
- ثانياً : وجوه المخالفة الجائزة التي ترجع إلى طبيعة علاقة ٦٧٦
- القراءات بالرسم ، وطبيعة الرسم العثماني نفسه
- (أ) - في مجال الصوامت ٦٧٨
- (ب) - في مجال الحركات ٦٨٢
- المبحث الخامس : الكلمات التي اختلف رسمها في المصاحف العثمانية ٦٩٣-٧١٠
- المبحث السادس : أخطاء وشبهات حول الرسم ٧١١-٧٢٨
- أولاً : ما نُسِبَ إلى الحجاج من تغيير أحد عشر حرفاً في المصحف ٧١١
- ثانياً : الشبهة التي أُثيرت حول أثر الرسم في تعدد وجوه القراءات ٧١٧
- مبحث أخير : علاقة الإملاء الحديث بالرسم المصحفي ٧٢٩-٧٣٨
- خاتمة البحث : ٧٣٩-٧٤٣
- النصوص الخطية المصورة: ٧٤٥-٧٨٤
- مصادر البحث ومراجعته: ٧٨٥-٨١٣
- فهرس موضوعات الكتاب: ٨١٥-٨٢٢
- ملخص موضوع الكتاب بالانكليزية ٨٢٤-٨٢٨



In conclusion, it is noteworthy that the Koranic orthography has had a great effect on Arabic script. The accuracy of this script in representing the sounds of the language is a reflection of this effect. But for the efforts of our ancient *Ulema*, the Arabic script would not have achieved this level to which aspire many scripts for representing the sounds of their languages. Hence we see that just as it affected deeply the life of the Arabs, The Koran has had the same effect on their language and script, to the extent that they have become an international language and script, in which every Moslem prides himself. So «Glory to your lord, the lord of Honour and Power, Free from what they ascribe to Him, and peace on the Apostles, and praise to God the Lord and Cherisher of the world».



ancient *Ulema* made up for the second deficiency by allotting one symbol to one sound through diacritical signs. The uses of these marks are traced through the manuscripts and the traditions, until they have come down to us in their present forms.

In the last chapter the author studied the relationship between the Koranic orthography and the Koranic readings and the extent to which the orthography has been capable of representing the pronunciation of words. Generally speaking, the scripts undergo various kinds of deficiency in representing the sounds of the language. This can be summed up in the presence of silent symbols, of symbols which are pronounced differently from what they originally represent, and of sounds which are not represented by any symbols. Scholars versed in the Koranic readings have perceived that, and stated, that there are certain symbols which it is impossible to pronounce. These are to be neglected and pronounced according to oral tradition. The author also explained that the Uthmanic orthography was intended to represent the general prevalent reading in Medina, and that conformity to this orthography came to be one of the conditions of correct permissible reading, the other two conditions being authentic tradition and the eloquence of the word. The author goes on to say that the Uthmanic orthography was not one of the causes of the multiplicity of Koranic readings, as this multiplicity was only the result of what various people heard from the Prophet. Yet this orthography had its effect in providing ample opportunity for the preservation of these readings, owing to the fact that it was devoid of writing marks at the time the Koran was recorded in the codices.

At the end of the book the author studied the relationship between the orthography which we use today and the Koranic orthography. It will then be clear that our script is a development from the Koranic orthography. The latter differs from the former only in that we have slightly changed the spelling of some words, such as maintaining the symbol of the long open vowel and excluding some forms of spelling which we regard different from the general rule.

orthography in all its aspects is attempted—a study which is founded on principles that would, as much as possible, avoid the errors that the previous studies have committed, making use of every expedient that would lead to this aim. These principles are set forth, and after that comes study of the consonantal symbols in the Uthmanic orthography and the questions related thereto, and the symbols of the long vowels and their sporadic omissions, particularly the symbol of the long open vowel (*fatha*). The historical roots of this phenomenon are uncovered and the way the glottal stop (*hamza*) is represented are studied, particularly as it has been proved that the hamza came in the codex conformable to the pronunciation of those who omit it (in positions other than the beginning of a word). So it appeared in the form of *alif* at the beginning of a word, *yā'* or *wāw* or *alif* or otherwise separate in the middle and at the end of a word.

This chapter also dealt with the factors that contributed to the multiplicity of the forms of spelling of words containing a *hamza*, particularly where the *hamza* is represented by both an *alif* and a *yā'* or both an *alif* and a *wāw*. The most important of these factors are two: First: the tendency of the script to maintain orthographic forms which represent an old pronunciation, as the script does not keep pace with the evolution of the language; Secondly: the Arabic word is mostly spelt as if in isolation; however, some words have been written as pronounced in immediate contact with other words.

Arabic script, in the stage of the Uthmanic orthography, did not represent the short vowels, and there were some sounds which had similar symbols. So what is explained, in the Fifth chapter, is the efforts exerted by our ancient *Ulema* in making up these two deficiencies. The role played by Abu al-Aswad al-Du'ali (d. 69 A.H.) and al-Khalil ibn Ahmad (d. 170 A.H.) is mentioned, particularly with respect to the first of the two, completing the representation of the short vowels and bringing it to the form which we now see in the holy codices and the one used in our writing. The author explained, as well, how the efforts of our

the spelling of words, and the consequential presence of some phenomena which reflect the incapability of the script to represent the spoken language.

In the second chapter the history of the writing down and compiling of the Koran is dealt with. Here the study concentrated upon the recording of the Koran during the lifetime of the Prophet Mohammad (may God's blessings and peace be upon him), on the materials which were then used for writing, and on its compilation during the Caliphate of Abu Bakr «the most truthfull» and the Caliphate of Umar on palm-branches, shoulder bones and smooth stones. The transcription of the writings on these materials into codices (masahef) is then studied, and then the sending of these codices to the main cities of the land of the Caliphate during the Caliphate of Uthman. What was set down in the Uthmanic codices was exactly what was set down in the presence of the Prophet, who had had scribes, from among his Companions, devoted to the recording of the revelation. The esteemed Zayd Ibn Thabit was the most assiduous companion in this respect. It was he who compiled the Koran in the leaves and who headed the team charged with writing down the codices in the Caliphate of Uthman.

The third chapter deals with the attitude of our ancient "*Ulema*" towards maintaining the Uthmanic orthography in committing the codices to writing. Here was illustrated their various view-points as to the explanation of some of its spelling forms which were written in a way that does not correspond to the pronunciation of its words. Their statements in this regard does not generally provide the required correct explanation of this problem, hence the need for its study. This is indeed what had prompted the author of the present book to carry out this research, namely to give the correct understanding of the spelling forms in the Uthmanic orthography, to expose the history of the complementary representation of the sounds which had not been represented in the Arabic script at the Uthmanic orthography stage, and to face the history of the distinction of the symbols which were similar in form.

In the fourth chapter a linguistic study of the Uthmanic

The Koranic Orthography:

A Historical Linguistic Study

Summary

The theme of this book is the study of the Arabic script as it appears in the Holy Koran, with regard to the spelling of its words, i.e. the number of symbols which each word consists of, the marks placed above or under the symbols representing specific sounds (vowels) or distinguishing similar symbols, and tracing the history of these orthographic forms and writing marks. In fact, it attempts to be a comprehensive study of the Arabic script from a linguistic point of view. It thus pays little attention to the style and aesthetics of the symbol but emphasizes the extent to which these symbols represent the sounds of the language.

The book falls in six chapters:

The First chapter deals with the history of the Arabic script and its characteristics before the stage of the Uthmanic orthography, the orthography in which the Koran was written in the reign of the third Caliph Uthman (God be well pleased with him) (d. 35 A.H.) and of which we have had a full description in the sources together with old manuscripts typical thereof.

The various opinions about the origin of the Arabic script and its relationship with the other Semitic scripts, particularly the Nabataean, are then dealt with. Next comes a study of the characteristics of the Arabic script in the light of this relationship. In it the principles on which alphabetical writing is based is studied alongside with other related topics: the failure of writing to keep pace with the evolution of the language, the effect of this failure on